مارسيل بروست مكتبة ٢

بحثاً عن الزمن المفقود

في ظلال ربيع الفتيات

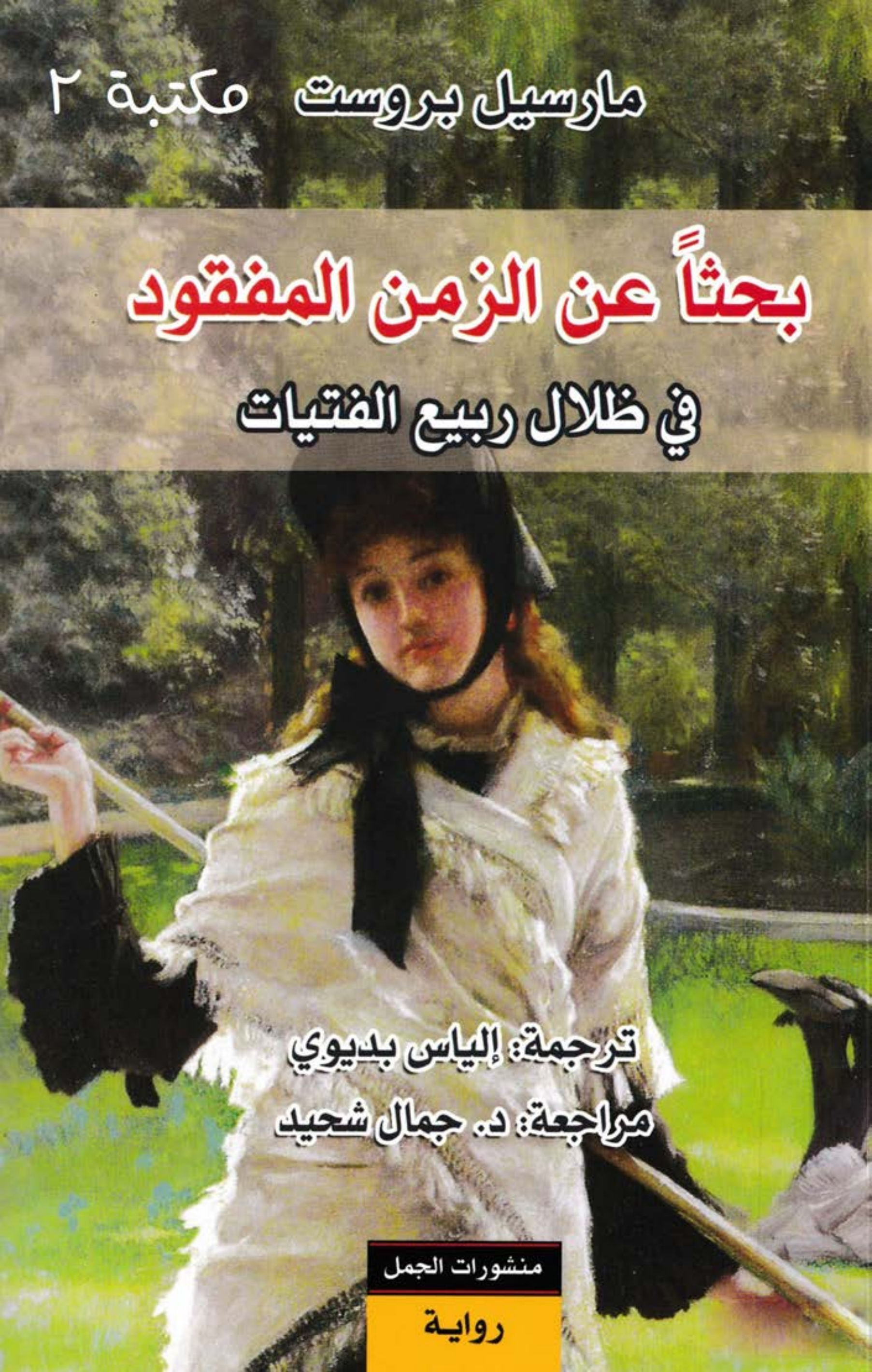

ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

رواية

إهداء لـ ..

بيت من حماة..

بين لفة للنواعير.. ولفة للحلاوة

مارسيل بروست

بحثاً عن الزمن المفقود

- 2 -

في ظلال ربيع الفتيات

الياس بديوي (١٩٣٠-١٩٩٧)، من مواليد قرية المسمية في حوران. حاصل على إجازة في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة السوربون ١٩٥٦. عُيِّنَ موجّهاً للغة الفرنسية في وزارة التربية السورية (١٩٦٦-١٩٨٣) وأستاذاً للترجمة الفورية في جامعة دمشق. كان عضواً في هيئة تحرير مجلة **الآداب الأجنبية** التي يصدرها اتحاد الكتّاب العرب. له العديد من الترجمات المنشورة، منها: ميشيل كاروج: **أندريه بروتون والمعطيات الأساسية للحركة السريالية** (دمشق، ١٩٧٣)؛ اولفن فنك: **فلسفة نيتشه** (دمشق، ١٩٧٤)؛ آلن تورين: **إنتاج المجتمع** (دمشق، ١٩٧٧)؛ الأجزاء الخمسة الأولى من سباعية مارسيل بروست: **بحثاً عن الزمن المفقود** (دمشق، ١٩٧٧-١٩٩٧).

جمال شحيّد (مواليد عام ١٩٤٢). دكتوراه في الأدب المقارن (السوربون الجديدة، ١٩٧٤). من أعماله النقدية: **في البنيوية التكوينية** (بيروت، ١٩٨٢؛ **الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة** (بيروت، ٢٠١١)؛ **خطاب الحداثة في الأدب. الأصول المرجعية** (دمشق، ٢٠٠٥). بعض مترجماته: **رحلة لامارتين إلى الشرق** (الكويت، ٢٠٠٦)؛ الجزآن الأخيران من سباعية **بحثاً عن الزمن المفقود** لمارسيل بروست (القاهرة، ٢٠٠٣-٢٠٠٥)؛ كلاريس هيرينشميدت: **الأبجديات الثلاث**، اللغة والعدد والرمز (البحرين، ٢٠٠٧)؛ دومينيك أورفوا: **المفكرون الأحرار في الإسلام** (بيروت، ٢٠٠٨)؛ جاك لوغوف: **التاريخ والذاكرة** (بيروت، ٢٠١٧)؛ مارسيل بروست: **المسرات والأيّام** (أبو ظبي، ٢٠١٤). جورج فيغاريلّو: **تاريخ الجمال** (بيروت، ٢٠١١). ادغار موران: **المنهج** (الجزآن الثالث والرابع) (بيروت، ٢٠١٢). جيل دولوز: **سينما (الصورة الحركة، الصورة الزمن)** (بيروت، ٢٠١٤-٢٠١٥).

مارسيل بروست

مكتبة
t.me/soramnqraa

بحثاً عن الزمن المفقود

- 2 -

في ظلال ربيع الفتيات

رواية

ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

مارسيل بروست

بحثاً عن الزمن المفقود – 2: في ظلال ربيع الفتيات، رواية، الطبعة الأولى

ترجمة: إلياس بديوي، مراجعة: د. جمال شحيد

كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٩

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Marcel Proust: *A La recherche du temps perdu II: A l'ombre des jeunes filles en fleurs*, 1918

© *Al-Kamel Verlag* 2019

Postfach 1127 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

القسم الأول

السيدة سوان

(انعطاف وتغيير في اتجاه الطباع – المركيز «دو نوربوا»
– «بيرغوت» – كيف أكفّ مؤقتاً عن لقاء «جيلبيرت»
خطوط الغم الأولية الضئيلة التي يسببها
الانفصال والتطور اللامنتظم للنسيان).

لمّا عبّرتْ والدتي عن أسفها، حينما دار الحديث حول دعوة السيّد «دو نوربوا» للمرة الأولى إلى العشاء، أن يكون الأستاذ «كوتار» على سفر وأنّها كفّت تماماً بدورها عن التردد على «سوان» إذ ربما استأثر هذا وذاك دونما شك في رأيها باهتمام السفير السابق، أجاب والدي أن مدعوّاً وعالماً طائر الشهرة من أمثال «كوتار» لا يمكن أن يقع موقعاً سيئاً في مأدبة عشاء، ولكنّ «سوان» بعجرفته وطريقته في إعلان أقلّ علاقاته شأناً على رؤوس الأشهاد مهرج مبتذل سوف يجده المركيز «دو نوربوا» دونما شكّ «نتِناً» حسب تعبيره. على أنّ جواب والدي يقتضي بضع كلمات إيضاح، فربّما تذكّر بعض الناس في «كوتار» شخصاً بالغ الضحالة وفي «سوان» شخصاً يبلغ بالتواضع والرصانة أقصى حدود الرقة في دنيا اللياقة. بيد أنّه اتّفق في ما يخص هذا الأخير أن أضاف صديق أهلي القديم إلى شخصيّة «سوان» الابن و«سوان» نادي السبق شخصيّة جديدة (ولا يقدّر أن تكون الأخيرة) هي شخصيّة زوج «أوديت». فقد جهد في سعيه إلى مواءمة الفطرة والرغبة والمهارة التي امتاز بها على الدوام مع مطامح هذه المرأة المتواضعة أن يبني لنفسه مكانة جديدة أدنى من السابقة بكثير وتناسب رفيقة العمر التي ستشغلها معه، فكان يبدو فيها رجلاً آخر. وبما أنّه (فيما يوالي التردّد بمفرده على أصدقائه الشخصيّين الذين لا يودّ أن يفرض «أوديت» عليهم حنيما لا يطلبون تلقائياً التعرّف بها) شرع يعيش حياة

جديدة إلى جانب امرأته وسط جماعة جديدة فقد كان لا يزال من الممكن إدراك أن يكون استخدم، في سبيل قياس مرتبة هذه الجماعة وبالتالي متعة الاعتزاز بالذات الذي يمكن أن يحسّ به لدى استقبالها، لا ألمع القوم الذين شكّلوا مجتمعه قبل زواجه بل من سلف من معارف «أوديت» وذلك بمثابة مقارنة على أنه كان من المدهش أن تسمعه، وإن علمتَ أنّه كان يرغب مصادقة موظفين بعيدين عن الأناقة ونساء فاسدات ممن يزينّ حفلات الوزارات الراقصة، أن تسمعه يردّد عالياً أن امرأة نائب رئيس مكتب قد جاءت لزيارة السيّدة «سوان»، وهو من كان فيما مضى وحتى اليوم يكتم دعوة من «تويكنهام» أو من قصر «بكنغهام» بتلطّف بالغ. وربّ قائل إن الأمر مردّه أن بساطة «سوان» الأنيق لم تكن سوى صيغة من الغرور أوفر رهافة وإن صديق والدي الأسبق ربّما استطاع، على غرار بعض الإسرائيليين[1]، أن يعرض على التوالي الحالات المتعاقبة التي مرّ بها بنو جنسه، من أكثر التحذلق سذاجة وأشدّ أنواع النذالة فظاظة إلى أكثر صنوف التأدّب رقّة. ولكنّ السبب الرئيسي، وهو الذي ينطبق على البشرية بعامّة، أنّ فضائلنا نفسها ليست أمراً حراً سائباً نحتفظ منه بجاهزية دائمة، فهي تقترن في نهاية المطاف اقتراناً وثيقاً داخل فكرنا بالأعمال التي رأينا من واجبنا حينما عرَضَتْ أن نمارسها فيها إلى حدّ أنّه إن برز أمامنا فجأة نشاط من صنف آخر فإنّه يأخذنا على حين غرّة ولا تخالجنا حتى فكرة أنّه ربّما تضمن تحريك تلك الفضائل عينها. وكان «سوان» في عنايته الشديدة بمعارفه الجدد وفي ذكره لهم باعتزاز كمثل هؤلاء الفنّانين العظام المتواضعين أو الكرماء الذين يبدون ارتياحاً ساذجاً، إن هم انصرفوا في آخر سني حياتهم إلى شؤون الطبخ أو البستنة، إزاء الثناء الذي يكال لأطباقهم أو لأحواضهم التي لا يقبلون فيها النقد الذي يرتضونه بسهولة إلا إذا تناول روائع أعمالهم، أو الذين يعطون إحدى لوحاتهم مقابل لا شيء

---

(١) فضّلنا الإبقاء على «إسرائيلي»، بمعنى يهودي، حسبما وردت في الكتب القديمة.

ولا يسعهم بالمقابل أن يخسروا أربعين فلساً في لعبة «الدومينو» دون أن يتعكّر مزاجهم.

أمّا بشأن الأستاذ: «كوتار» فسوف نعود فنراه لاحقاً لفترة طويلة في منزل سيّدة البيت في قصر «لا راسبلير». يكفينا الآن في ما يخصه أن نلاحظ ما يلي: يمكن في أسوأ الأحوال أن يدهشنا التغير بالنسبة إلى «سوان» لأنّه سبق أن وقع ولم أَرْتَبْ بأمره حينما كنت أبصر والد «جيلبيرت» في «الشانزيليزيه» حيث لم يكن باستطاعته على أية حال، وهو لا يخاطبني إذ ذاك، أن يباهي أمامي بعلاقاته السياسية (وصحيح أنّي ربّما ما كنت أدركت في الحال، لو فعل، غروره؛ لأنّ الفكرة التي كونّاها لفترة طويلة عن أحد الناس إنّما تغشي العينين وتسدّ الأذنين؛ ولم تنتبه والدتي للحمرة التي كانت تضعها إحدى بنات أخيها على شفتيها أكثر ممّا تفعل لو كانت مذابة على نحو خفيّ في أحد السوائل إلى اليوم الذي أبرز فيه جزء إضافي أو أي سبب آخر الظاهرة المدعوّة فرط الإشباع، فتبلورت كل الحمرة التي لم تشاهد بعد وأعلنت والدتي إزاء هذا الإفراط المفاجئ في اللون، كما لعلّهم كانوا يفعلون في «كومبريه» أن الأمر مخزٍ؛ وقطعت كل علاقة تقريباً مع ابنة أخيها). أمّا بالنسبة إلى «كوتار» فإن الفترة التي رأيناه يشهد فيها بدايات «سوان» في منزل عائلة «الفيردوران» كانت على العكس بعيدة بعض الشيء، فيما يجيء التكريم وتجيء الألقاب الرسمية مع السنين ثانياً، يمكنك أن تكون جاهلاً وأن تقوم بتلاعب سخيف بالألفاظ وتمتلك موهبة خاصّة لا يمكن لأيّة ثقافة عامّة أن تحلّ محلّها، كموهبة القائد العظيم أو الطبيب السريريّ الكبير. فما كان زملاء «كوتار» يعتبرونه طبيباً ممارساً مغموراً أصبح على مرّ السنين من مشاهير أوروبا فحسب، فقد أعلن أكثر الأطباء الشباب ذكاءً - على مدى بضع سنوات على الأقل، لأنّ العادات تتغيّر إذ هي نفسها وليدة الحاجة إلى التغيير - إنهم إن داهمهم المرض ذات يوم فسيكون «كوتار» الأستاذ الوحيد الذي يؤمّنونه على أنفسهم. لقد كانوا يفضّلون دونما شك مخالطة بعض الرؤساء الذين

يفوقونه ثقافة وفناً والذين يمكن التحدّث معهم عن «نيتشه» و«فاغنر» فحينما كانت تُقَدّمُ معزوفات موسيقية في منزل السيدة «كوتار» في الأمسيات التي تستقبل فيها زملاء زوجها وتلاميذه وكلّها أمل أن يصبح ذات يوم عميد الكلّية، كان هو يفضّل أن يلعب الورق في الصالة المجاورة بدل الاستماع. ولكنّهم كانوا يشيدون بنظرته السريعة العميقة السديدة، وكذلك بتشخيصه. وعلينا أن نلاحظ ثالثاً، في ما يخصّ مجمل السلوك الذي يبديه الأستاذ «كوتار» لرجل مثل والدي، أن الطبيعة التي نبرزها في الجزء الثاني من حياتنا ليست على الدوام طبيعتنا الأولى وقد نمت أو ذبلت، تعاظمت أو تقلّصت، وإن كانت في الغالب، فهي أحياناً طبيعة معكوسة ورداء مقلوب بالتمام، لقد كان مظهر «كوتار» المتردّد وخجله ولطفه البالغان سبباً لتعليقات ساخرة مستمرة في فترة شبابه، إلا لدى آل «الفيردوران» الذين شغفوا به. فأي صديق محبّ أشار عليه بالمظهر البارد؟ لقد يسّر له خطر مكانته اتّخاذه، فاتّخذ في كل مكان، باستثناء منزل «الفيردوران» حيث كان يعود فيضحي ذاته بالغريزة، مظهراً بارداً يتعمّد الصمت واللهجة القاطعة حينما ينبغي الكلام ولا يفوته أن يقول أشياء غير مستحبّة. واستطاع تجريب هذا الموقف الجديد أمام زبائن لم يروه بعد ولم يكن بمقدورهم إذن اللجوء إلى المقارنات ولعلهم كانوا سيدهشون لو علموا أنّه ما كان رجلاً من طبعه الخشونة. لقد كان يجهد خصوصاً في بلوغ هدوء الأعصاب وحينما كان يتفوه، حتى في أثناء خدمته في المستشفى، ببعض تلاعباته بالألفاظ التي كانت تضحكهم الجميع، من رئيس المستشفى إلى أحدث طبيب خارجي، كان يفعل على الدوام دون أن تضطرب عضلة واحدة في وجه الذي أضحى يصعَب التعرّف إليه منذ أن حلق لحيته وشاربيه.

ولنقل في الختام من كان المركيز «دو نوربوا». لقد سبق أن كان وزيراً مطلق الصلاحيات قبل الحرب وسفيراً في الـ١٦ من أيار، وقد كلّف على الرغم من ذلك عدّة مرّات مذ ذاك، مما أدهش الكثيرين، بتمثيل فرنسا في

مهمات فوق العادة - وحتى بمثابة مراقب للدَّيْن في مصر حيث أدّى خدمات جلّى بفضل قدراته المالية الكبيرة - على يد وزارات راديكالية كان يحجم عن خدمتها بورجوازي رجعيّ بسيط، وكان لا بدّ لماضي السيّد «دو نوربوا» وارتباطاته وآرائه أن تجعله مشبوهاً في نظرها إلا أنّه يبدو أن هؤلاء الوزراء التقدميين كانوا يدركون أنّهم يُبدون بهذا التعيين إلى أيّ اتساع في الفكر يبلغون حالما يدور الأمر حول مصالح فرنسا العليا ويرتفعون فوق أمثالهم من رجال السياسة، إذ يستحقّون أن تنعتهم جريدة «**الجدال**» نفسها بلقب رجل الدولة، ويفيدون أخيراً من المهابة التي تُحيط بالاسم الأرستقراطي والاهتمام الذي يثيره اختيار غير متوقع على غرار انقلاب مسرحيّ مفاجئ. وكانوا يعلمون كذلك أنّهم يستطيعون بلجوئهم إلى السيّد «دو نوربوا» الحصول على هذه المكاسبّ دون أن يخشوا انعدام الولاء السياسي لديه الذي كان ينبغي لطيب محتد المركيز أن يكون ضمانته لديهم لا أن يثير مخاوفهم. وما كانت حكومة الجمهورية مخطئة في الأمر. ذلك أن بعض الأرستقراطيين بادئ الأمر نُشِّئوا منذ الطفولة على احتساب أسهمهم بمثابة مكسب داخليّ لا بستطيع أيّ شيء أن ينزعه منهم (ويعرف نظراؤهم أو الذين يمتازون عنهم بطيب المحتد قيمته تمام المعرفة) وهم يعلمون أنّهم يستطيعون أن يُجنِّبوا أنفسهم الجهود التي يبذلها العديد من البورجوازيين دونما نتيجة لاحقة ذات بال كي لا يجهروا إلا بآراء سديدة ولا يتردّدوا إلا على أناس سليمي التفكير، لأن تلك الجهود لن تكسبهم شيئاً. ولكن هؤلاء الأرستقراطيين يعلمون بالمقابل، في سعيهم إلى إعلاء قدرهم في أعين أسر الأمراء أو الدوقيين التي يحلّون بعدها مباشرة، أنّهم لا يستطيعون ذلك إلّا بأن يضيفوا إلى اسمهم ما لم يكن يتضمّنه وما يوفّر لهم الغلبة لدى تساوي الأسماء كالنفوذ السياسيّ والشهرة الأدبية أو الفنّية والثروة العريضة. وما يدّخرون من عناء إزاء من لا خير فيهم من نبلاء الريف الذين يرغب فيهم البورجوازيّون ولا يقرّ الأمير لهم بأية منّة إزاء صداقتهم العقيمة، إنّما يغدقونه على رجال السياسة ولو كانوا ماسونّيين إذ

يستطيعون إيصالك إلى السفارات أو رعايتك في الانتخابات، وعلى الفنّانين أو العلماء الذين يسعفك دعمهم على أن «تبرز» في الفرع الذي يسودون فيه، وعلى جميع من يسعهم منح شهرة جديدة أو إنجاح زواج ثريّ.

ولكنّما اتّفق، في ما يخص السيّد «دو نوربوا»، أنّه تشرب على وجه الخصوص، عبر طويل ممارسة للدبلوماسية - تلك الروح السلبيّة الروتينيّة المحافظة المسمّاة «روح الحكم»، وهي بالتأكيد روح جميع الحكومات وبخاصّة روح السفارات في جميع أشكال الحكم. فقد تمّ له أن استقى في الوظيفة كراهية تلك الأساليب الثورية في حدًّ ما وغير اللائقة في أيّ حال والخشية منها وازدراءها، عنينا أساليب المعارضة، ذلك أن ما يقرب، فيما عدا واقع الحال لدى بعض الأميّين في صفوف الشعب وفي العالم الذين لا يقيمون وزناً للفارق بين الأنواع، إنّما هو قرابة الفكر لا وحدة الآراء. ولعل عضو أكاديميّة من نوع «لوغوفيه» ومن أنصار الكلاسيكيّين كان صفق بطيبة خاطر لتكريم «فيكتور هوغو» على لسان «ماكسيم دوكان» أو «ميزيير» أكثر مما صفق لتكريم «بوالو» على لسان «كلوديل». كما أن نزعة وطنية واحدة تكفي لتقريب «باريس» (Barrès) من ناخبيه الذين لا يقيمون بالتأكيد فارقاً كبيراً بينه وبين «جورج بيري»، لا من بين زملائه في الأكاديميّة الذين يحملون آراءه السياسيّة ولكنّهم يتميّزون عنه بنوع من التفكير مغاير فيفضّلون عليه حتى الخصوم من أمثال «ريبو» و«ديشانيل» اللذين يحسّ ملكيّون مخلصون أنّه بدورهم أقرب بكثير إليهما من «مورّاس» و«ليون دوديه» اللذين يتمنّيان بدورهما مع ذلك عودة الملك. كان السيّد «دو نوربوا» ضنيناً بكلماته لا من جرّاء عادة مهنيّة في الحيطة والتحفّظ فحسب، بل لأنّها إلى ذلك أرفع قيمة ولأنّها تبرز طفيف الفوارق في نظر رجال تجد جهودهم في مدى عشر سنوات لتقريب بلدين خلاصتها وترجمتها - عبر خطاب أو وثيقة - في مجرّد صفة تافهة في ظاهرها ولكنّهم يجدون فيها عالماً قائماً بذاته، ولذلك كانوا يعدّونه شديد الجفاء

في اللجنة حيث كان يجلس بالقرب من والدي وحيث كان كلّ منهم يهنئ هذا الأخير للمودّة التي يبديها له السفير السابق. وكانت تدهش والدي أوّل من تدهش، إذ تعوّد، وهو بعامّة قليل الأنس، أن لا يسعى الناس إليه خارج دائرة المقرّبين إليه، وكان يقرّ بذلك ببساطة. وكان يحسّ أنّ في محاولات تقرّب الديبلوماسيّ منه أثراً من وجهة النظر الفردية البحتة تلك التي يتّخذها كل فرد ليقرّر موقع ميوله والتي لن تشفع معها جميع صفات أحد الناس العقلّية أو رقّة مشاعره في نظر واحد منّا يزعجه هذا الرجل أو يضايقه بمثل ما تشفع به الصراحة الفطّة والمرح لدى رجل آخر مع أنه يبدو في نظر العديدين فارغاً مستهتراً خلواً من الكفاءة. لقد دعاني «دو نوربوا» للعشاء ثانية. ذلك غريب والجميع مندهشون لذلك في اللجنة حيث لا تربطه بأيّ منهم علاقات خاصّة، إني واثق أنّه سوف يروي لي أيضاً عن أمور شيّقة حول حرب الـ«٧٠». كان والدي يعلم أنّه ربّما سبق للسيّد «دو نوربوا» وحده أن حذّر الإمبراطور من قوّة «بروسيا» المتعاظمة ومن نواياها الحربيّة وأن «بيسمارك» كان يقدّر ذكاءه تقديراً خاصاً. وقد لاحظت الصحف في الآونة الأخيرة في الأوبرا، وفي أثناء الحفلة التي أقيمت للملك «ثيودوز»، الحديث المطّول الذي خصّ به العاهل السيّد «دو نوربوا» وقال لنا والدي الذي كان شديد الاهتمام بالسياسة الأجنبيّة: «ينبغي أن أعلم إن كانت لزيارة الملك هذه أهميّة حقّة. إني أعرف حق المعرفة أن العمّ «نوربوا» شديد التكتّم، ولكنّه يبوح معي بمكنونات صدره بلطف كبير».

وربّما لم يتمتّع السفير، في ما يخصّ والدتي، بنوع الذكاء الذي كانت تحسّ أنّه أكثر ما يجتذبها. وأرى لزاماً عليّ أن أقول إن حديث السيّد «دو نوربوا» كان مجموعة كاملة من أشكال اللغة المتقادمة الخاصّة بمهنة وبطبقة وبحقبة زمنية - حقبة يمكن ألا تكون انقضت تماماً بالنسبة إلى تلك المهنة وتلك الطبقة - إلى حدّ أنّي آسف أحياناً لأنّي لم أحفظ بالحرف الواحد الأقوال التي سمعته يتفوّه بها، فلعلّي كنت أحصل على ما

يوحي بالتقادم بزهيد الكلفة وبالطريقة ذاتها التي كان يجيب بها ذلك الممثّل في مسرح «القصر الملكي» حينما يسألونه عن المكان الذي يستطيع أن يعثر فيه على قبّعاته المدهشة: «إني لا أعثر على قبّعاتي، بل أحتفظ بها». وإني أعتقد بوجيز القول أن والدتي كانت تحكم أنّ السيّد «دو نوربوا» من طراز قديم بعض الشيء، الأمر الذي ما كان ليبدو مزعجاً على صعيد السلوك ولكنّه أقلّ إمتاعاً لها في مجال التعابير، إن لم يكن في مجال الأفكار - لأن أفكار السيّد «دو نوربوا» كانت عصريّة جدّاً - على أنّها كانت تحسّ أنه من الإطراء اللطيف لزوجها أن تحدّثه بإعجاب عن الديبلوماسي الذي كان يخصّه باهتمام نادر إلى هذا الحدّ. لقد كانت تدرك، وهي تقوّي في ذهن والدي الفكرة الطيّبة التي يحملها عن السيّد «دو نوربوا»، وإذ تقوده بذلك إلى اتخاذ أخرى تماثلها في الطيبة عن نفسه، كانت تدرك أنّها تؤدّي أحد واجباتها الذي قوامه أن تجعل حياة زوجها ممتعة مثلما كانت تفعل حينما تسهر أن يكون الطعام متقناً والخدمة صامتة. ولمّا كانت عاجزة عن الكذب على والدي فقد كانت تدرّب نفسها لتستطيع امتداحه بصدق. كانت على أيّة حال تستسيغ تلقائياً مظهر الطيبة لديه وتأدّبه المتقادم عهداً إلى حدّ ما (والمتكلّف حتى إنّه حينما كان يبصر والدتي تمرّ في عربتها، وهو يمشي ويرفع قامته العالية، كان يرمي في البعيد سيجاراً لم يكد يبدؤه بعد وذلك قبل أن يسلّم بحركة من قبعته) وحديثه الشديد الاتّزان حيث كان يتحدّث عن نفسه أقلّ الحديث وينتبه دوماً لما يمكن أن يسرّ محدثه، ودقته المذهلة في الإجابة عن الرسائل إلى حدّ أن أول ما يخطر لوالدي، حينما كان يتعرّف إلى خطّ السيّد «دو نوربوا» على مغلّف، وقد جاء منذ قليل على تسطير رسالة لهذا الأخير، الاعتقاد بأن رسالتيهما تقاطعتا لسوء الطالع: لكأنّما كان يتوافر له في البريد دورات إضافية وكمالية لجمع الرسائل. وتدهش والدتي أن يكون دقيقاً إلى هذا الحد مع أنّه كثير المشاغل، ولطيفاً إلى هذا الحدّ مع أنّه مبعثر الاهتمامات إلى حدّ كبير دون أن تفطن إلى أنّ الأداة «مع أنّ» إنّما

هي على الدوام «لأنّ» مجهولة، وأنّها العادات نفسها التي كانت تسمح للسيّد «دو نوربوا» أن ينجز الكثير من المشاغل ويكون منظماً إلى هذا الحدّ في إجاباته. أن يروق الناس في المجتمع ويكون لطيفاً معنا (مثلما يبدو الشيوخ مذهلين بالقياس إلى سنّهم، والملوك يفيضون بساطة، والريفيون على بيّنة من كل شيء). وخطأ والدتي، إلى ذلك، كما هي حال جميع الذين يتّصفون باتّضاع كبير، مردّه أنّها كانت تضع الأمور المتعلّقة بها في مرتبة أدنى من غيرها وبالتالي خارج إطار تلك الأمور الأخرى. فالجواب الذي حكمت أن صديق والدي كان له فضل كبير في إرساله إلينا على جناح السرعة لأنّه كان يسطّر العديد من الرسائل في اليوم إنّما كانت تستثنيه من هذا العدد الكبير من الرسائل التي ما كان إلّا واحداً من أفعال في حياته الاجتماعية لا تحصى: فما كان يخطر لها أن السفير تعوّد في الديبلوماسية فيما مضى أن يعتبر تناول طعام العشاء في المدينة جزءاً من وظائفه وأن يبدي ظرفاً متأصّلاً لعلّ من المبالغة مطالبته بتركه جانباً لأمر خارق حينما كان يحلّ في بيتنا.

إن العشاء الأوّل الذي تناوله السيّد «دو نوربوا» في بيتنا في سنة كنت لا أزال ألعب فيها في «الشانزيليزيه» لم يبرح ذاكرتي؛ لأن عصر ذلك اليوم كان الفترة التي كنت سأمضي فيها أخيراً لسماع «لا بيرما» في رواية «فيدر» (*Phèdre*) في حفلة العشيّة، ولأنني تبيّنت كذلك فجأة في حديث مع السيّد «دو نوربوا» وعلى نحو جديد إلى أي مدى كانت المشاعر التي يوقظها فيّ في ما يتعلّق بـ«جيلبيرت سوان» وذويها مختلفة عن تلك التي كانت تُثيرها تلك الأسرة نفسها في صدر أيّ شخص آخر.

فليس من شكّ أن والدتي قالت لي ذات يوم، لتروح عنّي، وقد لاحظت اليأس الذي يبعثه فيّ قرب حلول عطلة رأس السنة وكان ينبغي لي أن لا أرى «جيلبيرت» في أثنائها مثلما أعلمتني بذلك بنفسها: «إن كانت لا تزال بك الرغبة الكبيرة نفسها في سماع «لا بيرما» فإني أعتقد أن والدك ربّما سمح بأن تذهب إلى هناك، وبوسع جدّتك أن تصحبك».

وإنّما لم يعد يستبعد والدي، وهو الذي كان يعارض حتى ذاك أن أمضي لتضييع وقتي وربما لتحمّل المشقّة من أجل ما كان يدعوه أشياء لا طائل تحتها ويثير بذلك استنكار جدّتي، لم يعد يستبعد احتساب هذه الأمسية التي أوْصى بها السفير وكأنّها جزء تقريباً من مجموعة وصفات ثمينة من أجل النجاح في مهنة لامعة لأنّ السيّد «دو نوربوا» سبق أن قال له إنّه يجدر به السماح لي بسماع «لا بيرما» وإن ذلك ذكرى يحسن بشاب أن يحتفظ بها. وكانت جدّتي قد أقدمت على تضحية كبيرة لصالح صحتي في تخليها من أجلي عن الفائدة التي كنت سأجنيها، حسب رأيها، من سماع «لا بيرما»، فأدهشها أن يضحي هذا الصالح غير ذي بال لكلمة واحدة من السيّد «دو نوربوا». وإذ كانت تعلّق الثقافة آمالها العقلانية التي لا تقهر على نظام الهواء الطلق والنوم الباكر الذي أُوْصِيتُ به فقد أخذت تأسف لتلك المخالفة التي كنت أزمع الإقدام عليها وكأنها كارثة وتقول لوالدي بلهجة حزينة: «كم أنت قليل الاهتمام»، فيجيب حانقاً: «كيف ذلك، أفأنت الآن من لا يريد أن يذهب! تلك مبالغة، فأنت من كانت تردّد لنا طوال الوقت أنّ الذهاب يمكن أن يأتيه بالفائدة».

على أن السيّد «دو نوربوا» كان قد بدّل مقاصد والدي في نقطة تفوق تلك الأهميّة بالنسبة إليّ. فقد رغب دوماً أن أكون ديبلوماسيّاً وما كنت أطيق فكرة احتمال إيفادي في يوم سفيراً في عواصم لن تسكنها «جيلبيرت» حتى ولو قدّر لي أن ألازم الوزارة بعض الوقت. كنت أفضّل العودة إلى المشروعات الأدبيّة التي سبق أن قرّرتها وعدلت عنها في أثناء نزهاتي في جانب «غيرمانت». ولكن والدي عارض باستمرار أن أتّجه إلى مهنة الأدب التي كان يعدّها أدنى من العمل الديبلوماسي بكثير ويرفض لها حتى اسم المهنة إلى اليوم الذي أكّد له فيه السيّد «دو نوربوا» الذي لم يكن يروقه كثيراً ديبلوماسيّو الطبقات الجديدة أنّه يمكن للمرء كاتباً أن يكسب من الاعتبار ويمارس من التأثير بمقدار ما يتم له في السفارات ويحتفظ بقدر من الاستقلال أوفر.

لقد قال لي والدي: «غريب! ما كنت لأصدّق الأمر، «نوربوا» لا يقاوم على الإطلاق فكرة أن تهتم بالأدب». ولما كان يظنّ، وهو نفسه على قدر كافٍ من النفوذ، أن لا شيء إلا ويمكن تدبيره، إلا ويجد حلاً مناسباً في محادثة ذوي الجاه: «سوف آتي به للعشاء في إحدى الأمسيات لدى خروجنا من اللجنة. وتتحدّث قليلاً إليه كي يستطيع تقديرك. فاكتب شيئاً مناسباً كي يمكنك عرضه عليه. إنه وثيق الصلات بمدير «**مجلة العالَمَين**» وسوف يدخلك فيها ويتولى الأمر فهو كبير الحيلة. يميناً، إنّه يجد الديبلوماسية اليوم، فيما يبدو!..».

كانت السعادة التي كنت أتوقّعها من أن لا أنفصل عن «جيلبيرت» تشيع فيّ الرغبة لا القدرة على كتابة شيء حلو يمكن عرضه على السيّد «دو نوربوا». فبعد بضع جمل تمهيدية، ولمّا أسقط الضجر القلم من يديّ، أخذت أبكي حنقاً وأنا أفكّر أنّه لن تكتب لي الموهبة في يوم وأنني لم أكن موهوباً ولن يسعني حتى الإفادة من الفرصة التي كان يوفّرها لي مجيء السيّد «دو نوربوا» القريب في أن أظلّ دوماً في باريس. وما كان يفرّج عنّي غمّي سوى أنّهم سيسمحون لي بالذهاب لسماع «لا بيرما». ولكن مثلما لم أكن أتمّنى رؤية العواصف إلّا على الشواطئ التي هي فيها أكثر ما تكون عنفاً، كذلك ما كنت أريد سماع الممثلة الكبيرة إلّا في واحد من تلك الأدوار الكلاسيكيّة التي قال لي «سوان» إنّها تبلغ فيها حدّ الروعة. ذلك أننا حينما نرغب في الحصول على بعض انطباعات عن الطبيعة أو الفنّ ومؤمّلين بذلك كشفاً ثميناً فإنما تساورنا بعض الخشية أن ندع لنفسنا أن تستقبل عوضاً عنها انطباعات أقلّ شأناً يمكن أن تخدعنا في ما يخصّ قيمة «الجمال» الحقيقيّة. فأدوار «لا بيرما» في مسرحيات «**أندروماك**» و«**نزوات ماريان**» و«**فيدر**»[١] إنّما هي من تلك الأمور المرموقة التي طالما اشتهاها خيالي. ولسوف أبلغ النشوة نفسها التي أبلغها يوم تحملني «الغندول» أمام

(١) *Phèdre, Les Caprices de Marianne, Andromaque*

أعمال «تيتسيانو» في «فراري» أو أعمال «كارباتشيو» في «سان جورجيو» في مدينة «شيافوني» إن سمعت في يوم «لا بيرما» تنشد هذه الأبيات:

«يقولون إن رحيلاً مباغتاً يذهب بك بعيداً عنّا
يا سيّدي.»

كنت أعرفها عن طريق مجرّد النسخ باللونين الأسود والأبيض الذي تزوّدنا بها النشرات المطبوعة، ولكن فؤادي كان يخفق حينما أفكّر، وكأنّما في رحلة تحققت، أنني سأراها أخيراً يغمرها جوّ الصوت المذهب ودفؤه إنّ عملاً لـ«كارباتشيو» في البندقيّة و«لا بيرما» في مسرحيّة «فيدر» يمثّلان روائع في فنّ الرسم أو المسرح تجعلها الشهرة التي تلازمها حيّة في صدري، أي لا ينفصل بعضها عن الآخر، إلى حدّ أنّي لو ذهبت لمشاهدة أعمال لِـ«كارباتشيو» في إحدى قاعات متحف «اللوفر» أو «لا بيرما» في مسرحية لم أسمع عنها البتّة لما أحسست من بعد بالدهشة اللذيذة نفسها لأن تنفتح عيناي أخيراً على الموضوع الفريد الذي لا يمكن تصوّره، موضوع الآلاف العديدة من أحلامي. ولما كنت أنتظر من تمثيل «لا بيرما» أن يكشف لي عن بعض مظاهر النبل والعذاب فقد كان يبدو لي أنّه لا بدَّ لما في ذلك التمثيل من عظمة وواقعيّة أن يزداد إن قرنَتْه الممثّلة بعمل فني ذي قيمة حقيقية بدلاً من أن تنسج خيوط الحقيقة والجمال على لحمة ضحلة تافهة.

وأخيراً لو ذهبت لسماع «لا بيرما» في مسرحية جديدة فلن يسهل عليّ الحكم على فنّها وإلقائها؛ لأنّني لن أستطيع التمييز بين نصّ لا أعرفه سلفاً وما تضفيه إليه نبرات وحركات ربّما بدت لي وكأنّها ملتصقة به، في حين تبدو لي المؤلفات القديمة التي كنت أحفظها عن ظهر قلب وكأنّها مساحات واسعة محفوظة وجاهزة أستطيع أن أقدّر فيها بملء الحريّة الابتكارات التي تمدّها «لا بيرما» فوقها كمثل لوحة جداريّة تزدهي بلقيات إلهامها المستمرّة. إلّا أنّها لم تعد تمثّل لسوء الحظّ مسرحيات كلاسيكيّة

منذ سنوات عدَّة تركت خلالها المسارح الكبرى وأصبحت مصدر ثراء لأحد مسارح الأحياء الذي أصبحت نجمته، وعبثاً كنت أبحث في الإعلانات فلا تنبئني إلّا عن مسرحيات حديثة تماماً وضعها لها خصيصاً مؤلّفون ذاع صيتهم، حينما أبصرت ذات صباح للمرّة الأولى، وأنا أبحث في عمود إعلانات المسارح عن حفلات ما بعد الظهر في أسبوع رأس السنة - في نهاية الحفلة وبعد افتتاحية غير ذات بال على الأرجح بدا لي عنوانها عاتماً لأنّه كان يتضمّن كلّ خصائص الوقائع التي كنت أجهلها - فصلين من مسرحيّة «**فيدر**» مع السيّدة «لا بيرما»، وفي حفلات بعد الظهر التالية «**دنيا الرخيصات**» و«**نزوات ماريان**»، وهما اسمان شفّافان بالنسبة إلي، كما هي حال «فيدر»، لا يملؤهما سوى الضياء لشدة ما كانت المؤلّفات معروفة لديّ وتشرق فيهما حتى الأعماق ابتسامة فنيّة. وبدت لي جميعها وكأنّها تضفي نبلاً على السيّدة «لا بيرما» نفسها حينما قرأتُ في الصحف بعد برنامج هذه المشاهدة أنّها هي التي قرّرت أن تظهر مرّة أخرى أمام الجمهور في بعض أدوارها القديمة. لقد كانت الفنّانة تعلم إذن أن لبعض الأدوار أهميّة تظلّ باقية بعد ميزة الجدّة في ظهورها أو بعد إعادة الكرّة فيها بنجاح. لقد كانت تعتبرها، وقد قامت هي بتمثيلها، بمثابة روائع متحفيّة يبدو من المفيد عرضها مجدّداً أمام الجيل الذي أعجب بها أو الجيل الذي لم يتسنّ له أن يراها فيها. وحينما كانت تضع على هذا النحو، وسط مسرحيات معدّة لتمضية وقت السهرة فحسب، إعلاناً عن مسرحيّة «**فيدر**» التي لم يكن عنوانها أطول من العناوين الأخرى ولا خُطَّ بحروف مختلفة فإنّما كانت تضيف إليه ما يشبه المقصد الخفيّ لربّة بيت تقول لك، وهي تقدّمك لمدعوّيها ساعة التوجّه إلى المائدة، تقول لك وسط أسماء مدعوّين هم مجرد مدعوّين وباللهجة نفسها التي ذكرت بها الآخرين: السيّد «أناتول فرانس».

وأشار الطبيب الذي كان يعالجني - ذاك الذي حظر عليّ القيام بأيّة رحلة - أشار على والدي بمنعي من الذهاب إلى المسرح، فسوف أعود

منه مريضاً، وربّما لفترة طويلة، وأجني في نهاية المطاف من العذاب أكثر ممّا أجني من المتعة. ولعل تلك المخاوف كانت تستطيع ردعي لو أن ما كنت أنتظره من مثل ذلك العرض كان محض متعة يمكن لأيّ ألم لاحق أن يبطلها بطريق التعويض. غير أن ما كنت أبغيه من حفلة العشيّة تلك - كمثل الرحلة إلى «بالبيك» والرحلة إلى «البندقيّة» اللتين كثيراً ما اشتهيتهما - إنّما كان غير المتعة تماماً: حقائق تعود لعالم أكثر حقيقة من ذلك الذي كنت أعيش فيه ولا يمكن لحوادث عارضة في حياتي التافهة أن تنزعها منّي بعد أن يتمّ لي إحرازها ولو كانت تلك الحوادث أليمة في جسدي. وأكثر ما هنالك أن المتعة التي سأجنيها في أثناء العرض كانت تبدو لي بمثابة الشكل الضروري ربّما لإدراك تلك الحقائق، وكان ذلك كافياً لأتمنى ألا تبدأ الانحرافات الصحيّة المتوقّعة إلّا بعد انتهاء العرض كي لا تعرضه للخطر ولا تزيّفه. وكنت أتوسل إلى والديّ اللذين أصبحا لا يريدان السماح لي من بعد بالذهاب إلى مسرحيّة «فيدر» منذ زيارة الطبيب. كنت أنشد لنفسي دون توقّف المقطع التالي:

«يقولون إن رحيلاً مباغتاً يذهب بك بعيداً عنّا.».

وأنا أبحث عن جميع الألوان الصوتية التي يمكن أن تُزَجَّ فيه كي أفلح أكثر في العثور على اللامتوقّع في اللون الذي ستلقاه «لا بيرما». وكان الجمال الإلهي الذي يختفي كقدس الأقداس تحت الستار الذي يحجبه عنّي والذي كنت أضفي عليه في كلّ لحظة وجهاً جديداً حسبما يرد إلى فكري من كلمات «بيرغوت» - في الكرّاس الذي عثرت عليه «جيلبيرت» - : «فالسموّ في التشكيل، والمِسْح المسيحي، وشحوب النسّاك، وأميرة «تريزين» و«كليف»، والدراما الميسينية[1]»، ورمز «دلفي»، والأسطورة

---

(١) نسبة إلى الفن الذي نشأ في الألف الثاني قبل الميلاد والذي كانت مدينة «ميسين» (Mycènes) من أهم مراكزه.

الشمسيّة»، كان الجمال الإلهي الذي سيكشف لي عنه تمثيل «لا بيرما» يتربّع ليل نهار على مذبح مضاء باستمرار في أقصى زاوية من فكري، فكري الذي كان يزمع والداي القاسيان والسطحيان أن يقرّرا إن كان سيحتبس إلى الأبد، أو لا يحتبس، مزايا الإلهة التي تجلّت في هذا المكان بالذات الذي كانت تنتصب فيه صورتها اللامرئيّة. وكنت أناضل من الصباح إلى المساء ضد الحواجز التي ترفعها أسرتي في وجهي، وعيناي مشدودتان إلى الصورة التي لا يمكن تصوّرها. ولكن حينما تهاوت تلك الحواجز وحينما قالت لي أمّي - مع أن تلك الحفلة كانت واقعة بالضبط عشيّة يوم جلسة اللجنة التي كان يزمع والدي بعدها اصطحاب السيّد «دو نوربوا» للعشاء -: أرأيت؟ إنّنا لا نريد لك أن تغتم، فإن ظننت أنك ستجني من ذلك هذا القدر من المتعة كان عليك أن تذهب، وحينما أنيط بي وحدي أمر يوم المسرح ذلك، وكان حتى ذاك محظوراً، حينئذ سألت نفسي للمرّة الأولى إن كان ذلك محبّذاً. إذ لم يعد عليّ أن أهتمّ بألا يظلّ الأمر مستحيلاً، وإن لم يكن لأسباب أخرى غير منع والدي أن تضطرّني إلى العدول عنه. فبعدما كرهت بادئ الأمر قسوتهما جَعَلتهما موافقتهما عزيزين لديّ، إلى حدّ أنّ فكرة بعث الغمّ في صدريهما أخذت تسبّب لي بدوري غمّاً لم تعد تبدو لي الحياة من خلاله وكأن هدفها الحقيقة بل الحنان، ولم تعد تبدو لي خيّرة أو مشؤومة إلّا حسبما يكون أهلي سعداء أو تعساء. وقلت لأمي: «أفضّل ألّا أذهب إن انبغى أن تغتمّا لذلك»، والخاطر، فيما تقول، إنّما سيخرّب ما أصيب من متعة في مسرحيّة «فيدر»، الأمر الذي حدا بها وبأبي أن يتراجعا عن حظرهما. ولكن هذا النوع من الالتزام بالاستمتاع بدا لي عبئاً ثقيلاً. ثم إني إن عدت مريضاً فهل أتعافى سريعاً بما يتيح لي الذهاب إلى «الشانزيليزيه» بعد انتهاء العطلة وحالما تعود «جيلبيرت» إلى هناك؟ كنت أضع مقابل جميع تلك الأسباب فكرة كمال «لا بيرما» المستترة خلف حجابها كيما أقرّر لأيّها تكون الغلبة، فأجعل في إحدى كفّتي الميزان «الشعور بأن والدتي حزينة

واحتمال أن لا أستطيع الذهاب إلى «الشانزيليزيه»، وفي الثانية «شحوب النسّاك والأسطورة الشمسيّة»؛ على أن هذه الكلمات نفسها كانت تظلم في النهاية داخل فكري فلا تعني لي شيئاً من بعد وتفقد كلّ وزن لها.

وأضحت حيرتي تؤلمني شيئاً فشيئاً إلى حدّ أنني إن كنت أختار المسرح الآن فما ذلك إلّا لأضع حدّاً لها ولأنجو منها دفعة زاحدة؛ وكنت أسمح، لا بأمل الحصول من بعد على مكسب فكريّ ولا انقياداً لجاذب الكمال، بل لأقصّر من عذابي، بأن أساق، لا أمام الإلهة الحكيمة، بل أمام الإلهة القاسية التي لا وجه لها ولا اسم والتي أُحِلَّتْ خفية محلّها خلف حجابها. إلّا أن كلّ شيء تبدّل فجأة وأضاف إلى رغبتي في الذهاب لسماع «لا بيرما» حافزاً جديداً مكّنني من انتظار حفلة تلك العشية في جوّ من نفاد الصبر والسرور؛ فقد أبصرت، بعدما ذهبت لأقوم بوقفتي «العمودية»[1] اليومية، وقد أضحت منذ قليل مؤلمة جدّاً، أبصرت الإعلان المفصّل عن مسرحيّة «فيدر» وقد ألصق للمرة الأولى منذ وقت يسير، ولا يزال رطباً بعد، (على أن باقي التفصيل لم يجئني، والحق يُقال، بأي إغراء جديد يستطيع أن يقنعني)، ولكنه كان يضفي على أحد الأهداف التي كان يترجّح تردّدي بينها شكلاً أكثر حقيقة وتقرب أن تكون فوريّة وفي طور التحقيق - بما أن الإعلان كان يحمل لا تاريخ اليوم الذي كنت فيه، بل تاريخ اليوم الذي سيتمّ فيه رفع الستار - إلى حدّ أني طفقت أقفز فرحاً أمام العمود وأنا أفكّر أنّني في ذلك اليوم وفي تلك الساعة بالضبط سأكون جاهزاً لسماع «لا بيرما» وأنا جالس في مكاني. ومخافة أن لا يتّسع الوقت من بعد لوالديّ للعثور على مقعدين مناسبين لجدّتي ولي اجتزت المسافة حتى البيت بقفزة واحدة وقد لسعتني الكلمات السحرية التي حلّت في

---

(١) تذكرة الصفة بسمعان العمودي الذي أمضى جزءاً من حياته متعبداً على عمود، وله كنيسة أقيمت على اسمه بالقرب من مدينة حلب وتعرف بكنيسة سمعان. (المترجم).

خاطري محلّ «شحوب النسّاك» و«الأسطورة الشمسيّة»: «يمنع دخول السيّدات إلى الصالة بالقبعات؛ تغلق الأبواب في الساعة الثانية».

ولكن حفلة بعد الظهر الأولى تلك كانت خيبة أمل كبيرة. فقد عرض والدي أن يوصلني وجدّتي إلى المسرح وهو في طريقه إلى «لجنته». وقال لوالدتي قبلما يغادر البيت: «حاولي إعداد عشاء طيّب؛ أتذكرين أنّني أصطحب «دو نوربوا»؟ وما نسيت والدتي. وظلّت «فرانسواز» منذ عشية ذلك اليوم سعيدة أن تنصرف إلى فنّ الطهو الذي كانت تتمتع فيه بموهبة أكيدة، يحفزها على أيّة حال الإعلان عن موعد جديد فيما تعلم أنه يقع عليها أن تركب لحماً بالمرق المجمّد وفق طرائق تُلم بها وحدها، فكانت تعيش في حمّى الإبداع. ولما كانت تولي الجودة الذاتية للموادّ المزمع إدخالها في صناعة عملها الفنّي أهمية عظيمة كانت تذهب بنفسها إلى سوق الهال لتوافي بأجود أنواع «الرومستيك» وقطع عرقوب الثور ومقادم العجل، كمثل «ميكيل أنجلو» يقضي ثمانية شهور في جبال «كاراريه» في انتقاء أجود كتل المرمر لضريح البابا «يوليوس الثاني». وكانت «فرانسواز» تنفق في جيئتها ورواحها قدراً من النشاط خشيت معه أمّي، وهي تبصر وجهها الملتهب، أن يداهم المرض خادمتنا العجوز من شدة الإرهاق مثل صانع ضريح آل «ميديتشي» في مقالع «بييتراسانتا». ومنذ عشية ذلك اليوم بعثت «فرانسواز» تشوي في فرن الخباز ما كانت تسمّيه فخذ خنزير «نيفيورك» وقد غلّفته بلبّ الخبز كأنه المرمر الورديّ. ولمّا كانت تظن اللغة أقلّ غنى مما هي وأذنيها على قدر قليل من الأمانة فلا شك أنها اعتقدت أوّل ما سمعت عن لحم خنزير «يورك» - وقد وجدت من الإسراف غير المعقول في الألفاظ أن يكون ثمة كلا اللفظتين «يورك» و«نيويورك» - إنها سمعت خطأً وأنّ المقصود بالقول هو الاسم الذي سبقت لها معرفته. ولذلك كانت لفظته «يورك» مذ ذاك مسبوقة داخل أذنيها، أو أمام عينيها إن هي قرأت إعلاناً، بلفظة «نيو» التي تقولها «نيف». وكانت تقول لخادمة المطبخ بحسن نيّة لا يفوقها أيّ شيء في العالم: «جيئيني بفخذ خنزير من

مخزن «أُليدا»؛ وقد أوصتني سيّدتي وشدّدت أن يكون من صنف «نيفيورك». ولئن اتفق لِـ«فرانسواز» في ذلك اليوم يقين المبدعين العظام اللاهب فقد كان نصيبي اضطراب الباحث المرّ. وليس من شك أنّني أحسست بالمتعة ما دمت لم أسمع «لا بيرما». لقد أحسست بشيء منها في الحديقة الصغيرة التي قبل المسرح والتي ستلتمع أشجار الكستناء العارية فيها التماعات معدنية بعد ساعتين ما إن تُنير مصابيح الغاز المضاءة تفاصيل أغصانها. وتمّ لي ذلك أمام مستخدمي المراقبة، وكان اختيارهم وترفيعهم ومصيرهم رهن إشارة الفنّانة الكبيرة - وكانت تنفرد وحدها بالسلطة في هذه الدائرة التي يتعاقب على رأسها مدراء عابرون، محض أسماء مجهولة - وقد أخذوا بطاقتينا دون أن ينظروا إلينا فقد أقلقهم أن يعلموا إن كانت جميع أوامر السيّدة «لا بيرما» قد أحسن نقلها إلى المستخدمين الجدد وإن كان واضحاً أنّ المصفّقين المأجورين ينبغي ألا يصفقوا البتّة لها وأنّه يجب أن تظل النوافذ مفتوحة ما دامت لم تعتلِ بعدُ خشبة المسرح وأن يغلق أقلّ باب بعد ذلك وأن يوازَى إناء من الماء الساخن بالقرب منها ليتساقط فيه غبار خشبة المسرح. ذلك أن عربتها التي يجرها حصانان كثيفا العرفين سوف تتوقف بعد لحظة أمام المسرح فتنزل منها تلتفّ بفرائها ثم ترد التحيّات بإشارة متجهّمة وتبعث إحدى وصيفاتها تستعلم عن الحجرة الأمامية التي حجزت لأصدقائها، وعن حرارة القاعة، وعن تركيب المقصورات، وعن لباس العاملات، فالمسرح والجمهور بالنسبة إليها ثوب ثانٍ فحسب يحيط بالأوّل والوسط الناقل الجيّد أو الأقلّ جودة الذي ينبغي أن تجتازه موهبتها. وكنت سعيداً كذلك في القاعة نفسها؛ فمنذ أن عرفت أن ليست ثمّة - بعكس ما صوّرته لي تخيّلات الطفولة لفترة طويلة - سوى خشبة مسرح واحدة لجميع الناس كنت أظنّ أنّه لا بدّ أن يحول المشاهدون الآخرون دون أن يرى المرء رؤية جيّدة، كما هو الأمر وسط جمهور ما. إلا أنه تبيّن لي على العكس أنّ كل واحد يظنّ نفسه مركز المسرح بفضل ترتيب هو بمثابة رمز لكلّ إدراك حسّي، الأمر الذي أوضح

لي كيف أنّ «فرانسواز» أكدت ذات مرة لدى عودتها، وكانوا قد أرسلوها لحضور ميلودراما في الأروقة الثالثة، أنّ مقعدها كان أفضل المقاعد التي يمكن الحصول عليها، وعوضاً عن أن تجد نفسها بعيدة جدّاً، شعرت أنّها خائفة من جرّاء قرب الستارة الخفيّ الذي ينبض بالحياة. وقد تعاظمت متعتي التي أيضاً حينما بدأت أميّز خلف هذه الستارة المرخاة ضجّة مبهمة، كالتي تسمعها تحت قشرة البيضة حينما يزمع الكتكوت الخروج، والتي كبرت بعد قليل وفجأة وجهت إلينا، بما لا يقبل الشك، من ذلك العالم الذي لا تنفذ إليه ألحاظنا والذي كان يبصرنا بلحظة، وذلك على شكل ثلاث ضربات آمرة مؤثّرة كمثل إشارات جاءت من كوكب المريخ سواء بسواء. وبعدما تمّ رفع الستار، وحينما دلّت طاولة للكتابة وموقد، وهما عاديّان تماماً على أيّة حال، أن الأشخاص الذين يزمعون الدخول لن يكونوا ممثلين جاؤوا لينشدوا مثلما رأيت ذات مرة في إحدى الأمسيات، بل أناس يعيشون في منازلهم يوماً في حياتهم التي كنت ألج فيها عنوة دون أن يتمكنوا من رؤيتي، ظلّت متعتي آخذة في الاستمرار. ولكنها انقطعت من جراء اضطراب قصير: فقد دخل إلى المسرح رجلان. لحظة كنت بالضبط أصيخ السمع قبل أن تبدأ المسرحية، وكانا في غضب شديد إذ كانا يتحدثان بصوت عالٍ إلى حدّ يتمّ تمييز جميع أقوالهم في تلك القاعة التي احتشد فيها أكثر من ألف شخص في حين تضطر في مقهى صغير أن تسأل النادل عمّا يقوله شخصان يتشاجران. ولكني أدركت في اللحظة نفسها، وقد أدهشني أن أرى الجمهور يصغي إليهما دونما احتجاج يغمره صمت شامل جاءت تخفق بعد قليل على صفحته ضحكة ههنا وأخرى هناك، أدركت أنّ هذين الوقحين من الممثّلين وأنّ المسرحية الصغيرة المدعوّة بتمثيلية الافتتاح قد بدأت منذ قليل. وتلتها استراحة طويلة إلى حدّ أن المشاهدين الذين عادوا إلى مقاعدهم أخذوا يفقدون الصبر ويضربون بأقدامهم. وتملكّني الرعب لذلك؛ فمثلما كنت أخشى دوماً، حينما كنت أقرأ في محضر إحدى الدعاوى أنّ رجلاً نبيل القلب يزمع الحضور، غير

آبه بمصالحه، للشهادة في صالح أحد الأبرياء، ألا يُحاط بقدر كافٍ من اللطف وألا يُقَرَّ بفضله إلى حدّ كافٍ ولا يُكافأ بجزيل العطاء فيقف إلى جانب الظلم بعد ما اشتد به القرف، كذلك كنت أخاف، وأماثل في ذلك بين النبوغ والفضيلة، أن تقدم «لا بيرما»، وقد أغضبها سوء التصرف لدى جمهور قليل التهذيب إلى هذا الحدّ - ووددت على العكس لو تستطيع أن تتبين فيه مشروحة الصدر بعض المشاهير الذين ربّما أولت رأيهم أهمية على الإعراب عن استيائها وازدرائها بإساءة التمثيل. فكنت أنظر بتوسّل إلى تلك البهائم الصاخبة التي توشك أن تحطم في جنونها الانطباع الهش والثمين الذي جئت أبحث عنه. وأخيراً كانت آخر لحظات متعتي في أثناء المشاهد الأولى لمسرحية **«فيدر»**. إنّ شخص «فيدر» لا يظهر في بداية الفصل الثاني، ومع ذلك ما إن رفع الستار وانزاح ستار ثانٍ من مخمل أحمر كان يضاعف من عمق خشبة المسرح في سائر المسرحيات التي تمثل فيها النجمة حتى دخلت ممثلة من الخلف تتمتع بالوجه والصوت اللذين قالوا هما لـ«لا بيرما». لا بدّ أنّهم بدّلوا في التوزيع وأصبح كلّ الاهتمام الذي بذلته لدراسة دور امرأة «ثيسيوس» غير ذي جدوى. ولكن ممثّلة ثانيّة ردّت على الأولى. لا بدّ أنني أخطأت إذ ظننت تلك «لا بيرما» لأن الثانية كانت أكثر شبهاً بها واستقام لها أكثر من الأخرى إلقاؤها. وكانت الاثنتان على أية حال تضيفان إلى الدور حركات ملؤها النبل - وكنت أميّزها بوضوح وأدرك علاقتها بالنّص، فيما هما ترفعان رداءهما الجميل - ونبرات بارعة تهزّها الحماسة تارة والسخرية طوراً وتفهمني مدلول بيت من الشعر سبق أن قرأته في المنزل دون أن أولي ما يرمي إليه اهتماماً كافياً.
بيد أن امرأة ظهرت فجأة في تباعد ستار المعبد الأحمر وكأنّما داخل إطار، وأدركت في الحال، للخشية التي تملّكتني، وهي أشدّ قلقاً مما كان يمكن أن تكون عليه خشية «لا بيرما»، من أن يتمّ إزعاجها بفتح نافذة وأن تُفسد نبرة إحدى كلماتها من جراء العبث بورقة برنامج وأن تتكدّر من جرّاء التصفيق لزملائها وعدم التصفيق كافياً؛ ولطريقتي، وهي أشدّ إطلاقاً من

طريقة «لا بيرما» نفسها، في احتساب القاعة والجمهور والممثلين والمسرحية منذ تلك اللحظة محض وسطٍ صوتي لا أهميّة له إلا بمقدار ما يلائم نبرات ذلك الصوت، أدركت أن الممثلتين اللتين أعجبت بهما منذ بضع دقائق لا تملكان أي وجه شبه مع التي جئت لسماعها. إلّا أن متعتي توقّفت بكلّيتها في الوقت نفسه، فعبثاً كنت أشدّ نحو «لا بيرما» عينيّ وأذنيّ وعقلي كي لا تفلت ذرّة ممّا قد توفّر لي من أساب الإعجاب بها فلا أتمكّن من جمع سبب واحد منها. ولا أستطيع حتى أن أميّز في إلقائها وتمثيلها، كما هو الأمر بالنسبة إلى زملائها، نبرات ذكيّة وحركات جميلة. فقد كنت أصغي إليها كما لعلّني كنت أقرأ «فيدر» أو كأنّما تقول «فيدر» بنفسها في تلك اللحظة الأشياء التي أسمعها دون أن يبدو أنّ موهبة «لا بيرما» قد أضافت إليها شيئاً، وددت لو أوقف، لو أجمّد لفترة طويلة أمامي كل نبرة صوت للفنّانة وكلّ تعبير على محيّاها - لأتمكّن من تعميقهما وأحاول أن أُلقي فيهما ما كان بهما من أمر جميل - كنت أحاول على الأقلّ، بفرط رشاقة الذهن وبالإمساك بانتباهي جاهزاً بالتمام واضح الصورة، أن لا أصرف في شؤون الاستعداد ذرّة من فترة دوام كلّ كلمة وكلّ حركة وأن أتمكّن بفضل شدّة انتباهي من الغوص فيهما بمقدار ما كان يتيسر لي من عمق لو تسنّى لي في ذلك ساعات طويلة. ولكن ما أقصر ما كانت المدّة!

فما إن يصل صوت إلى أذني حتى يحلّ آخر محلّه. وفي مشهد تظلُّ فيه «لا بيرما» ثابتة مقدار لحظة وذراعها مرفوعة إلى مستوى وجهها، يغمرها نور ضارب إلى الخضرة بفضل خدعة ضوئية، أمام منظر يمثّل البحر دوّت القاعة بالتصفيق، ولكن سرعان ما غيّرت الممثّلة مكانها وزالت اللوحة التي كنت أبغي دراستها. وقلت لجدّتي إنّي لا أرى بوضوح فمدّت لي منظارها. إلا أنّك حينما تؤمن بحقيقة الأشياء فإن اللجوء إلى وسيلة اصطناعية تستطيع بها أن تراها لا يعادل بالتمام شعورك بأنّك بالقرب منها. كنت أظن أنّ ما أراه لم يعد «لا بيرما» بل صورتها في

الزجاج المكبر. ووضعت المنظار جانباً، ولكن ربّما لم تكن الصورة التي تستقبلها عيني، وقد قلّصها البعد، أكثر صحّة فأيّ من شخصيتي «لا بيرما» كانت الحقّة؟ أمّا في ما يخصّ البوح بحبّ «هيبوليت» فقد علّقت أهميّة كبيرة على تلك المقطوعة التي سيتفق لها فيها بالتأكيد نبرات أكثر إدهاشاً من تلك التي حاولت تخيّلها في المنزل أثناء القراءة، وذلك قياساً على المعاني البارعة التي كان يكشف لي زملاؤها عنها في كلّ لحظة في أجزاء أقلّ جمالاً. ولكنها لم تبلغ حتى النبرات التي ربما وجدتها «أونون» أو «أريسي»، فقد أمرّت في مُمَلِّسة الإنشاد الموحَّد الترتيب كاملَ المقطع الذي اختلطت فيه صنوف تعارض متمايزة إلى حدّ أن ممثلة هيّنة الذكاء وحتى تلامذة تجهيز ما كانوا ليغفلوا أثرها. وقد ألقتها على أيّة حال إلقاء سريعاً إلى حدّ أنّ فكري لم يعِ الرتابة المقصودة التي فرضها على الأبيات الأولى إلّا حينما بلغت البيت الأخير.

وأخيراً تفجّر أوّل شعور لي بالإعجاب: لقد بعثه تصفيق المشاهدين الحادّ الذي ضممت إليه تصفيقي وأنا أحاول الإطالة فيه حتى تتفوق «لا بيرما» على ذاتها إقراراً بالجميل فأتأكّد أنّ سمعتها في أحد أفضل أيّامها. على أن الغريب في الأمر هو أن اللحظة التي ثارت فيها حماسة الجمهور كانت تلك، وهو ما علمته بعد ذاك، التي حظيت فيها «لا بيرما» بأفضل لُقية لها. فبعض الحقائق المتعالية فيما يبدو تبعث من حولها أشعة يحسّ بها الجمهور من ذلك مثلاً أنه حينما يقع حدث ما، حينما يحدث الخطر بجيش على الحدود أو تحل به الهزيمة أو ينتصر فإن الأخبار الغامضة التي تردنا والتي لا يستطيع الرجل المثقف استخلاص الكثير منها إنما تبعث في نفس الجمهور انفعالاً يذهله ويتعرّف فيه، بعدما يحيطه الخبراء علماً بحقيقة الوضع العسكري، إدراك الشعب لهذه «الهالة» التي تحيط بالأحداث الكبرى والتي تمكن مشاهدتها على بعد مئات الكيلومترات. ويأتينا نبأ النصر إمّا بعد الأوان حينما تنتهي الحرب وإما في الحال بفضل ابتهاج البواب. ونكتشف لمحة عبقرية في تمثيل «لا بيرما»

بعد سماعها بثمانية أيام عن طريق النقاد، أو في الحال بفضل الهتافات في القاعة، ولما كانت معرفة الجمهور المباشرة تلك إنّما تختلط بمئة غيرها مضلّلة جميعها فقد كان يتعالى آلياً يدفعه التصفيق الذي سبقه كما هو الأمر في العاصفة إذ يوالي البحر هياجه، بعدما اضطرب موجه اضطراباً كافياً، وإن لم تشتدّ الريح من بعد. ومهما يكن من أمر فقد كان يبدو لي كلما زدت تصفيقاً أن «لا بيرما» أفضل تمثيلاً. «هذه تعطي من نفسها على الأقل»، وتقول إلى جانبي امرأة أقرب إلى العامة، «وتقسو على ذاتها حتى الآلم وتعدو، أرأيت؟ ذلك هو التمثيل». وسعدت باكتشاف أسباب تفوق «لا بيرما» تلك، مع أنّني لا أظن أنها تفسره أكثر ممّا تفعل صيحة معجبة لفلاح إزاء تفوّق «الجوكندة» أو لوحة «بيرسيه» للرسّام «بنفينوتو» (Benvenuto): «إنّها محكمة الصنع على أية حال! وكلها من ذهب ومن نوع فاخر! وأي إتقان فيها!»، وشاركت بنشوة في احتساء الخمر الرديء من تلك الحماسة الشعبية بيد أني أحسست مع ذلك، وبعد إسدال الستار، بخيبة أمل إن لم تكن المتعة التي طالما اشتهيتها أعظم، وفي الوقت نفسه بالحاجة إلى إطالتها، وأن لا أهجر إلى الأبد لدى مغادرتي القاعة حياة المسرح تلك التي عشتها على مدى بضع ساعات والتي لعلني كنت سأبتعد عنها كأنما في رحيل إلى المنفى وأنا أعود مباشرة إلى المنزل لو لم آمل أن أسمع فيه الكثير عن «لا بيرما» على لسان أحد المعجبين الذي كنت أدين له بسماحهم لي بالذهاب إلى مسرحيّة «فيدر»، عنيت السيّد «دو نوربوا».

وقد قدّمني له قبل العشاء والدي الذي دعاني لهذا الغرض إلى حجرته. ولدى دخولي نهض السفير ومدّ لي يده وحنى قامته الفارعة وصوّب إليّ بإمعان عينيه الزرقاوين. ولما كان الأجانب العابرون الذين يقدّمون إليه حينما كان يمثّل فرنسا - وحتى المغنون المعروفون منهم - من الشخصيّات المرموقة التي يعلم حينذاك أنه يستطيع أن يقول فيما بعد ساعة يُذْكَرُ اسمهم في باريس أو «بيترزبورغ»، إنّه يذكر تماماً الأمسية التي قضاها معهم في «ميونيخ» أو «صوفيا»، فقد تعوّد أن يعرف لهم بلطفه عن الارتياح

الذي يلاقيه في تعرّفه بهم. ولما كان إلى ذلك قانعاً أن المرء يكتسب في العيش في العواصم، بالاحتكاك بالشخصيّات المرموقة التي تجتازها وبعادات الشعب الذي يقطن فيها، معرفة معمقة لا تزوّد بها الكتب بالتاريخ والجغرافية وأعراف الأمم المختلفة والحركة الفكريّة في أوروبا، فقد كان يمارس على كل وافد جديد قدرات الملاحظة الحادّة لديه كيما يعرف في الحال مع أي نوع من الرجال يتعامل. لم تعهد إليه الحكومة منذ زمن طويل بوظيفة في البلاد الأجنبيّة، إلّا أن عينيه كانتا تشرعان، ما إن يتمّ تقديم أحدهم له، وكأنّما لم تتبلّغا إحالته على الاستيداع، في ملاحظته ملاحظة مثمرة فيما يحاول أن يظهر من خلال كامل سلوكه أن اسم الغريب ليس مجهولاً لديه. ولذلك لم يكفّ، وهو يحدّثني بطيبة وبتعاظم الرجل الذي يعرف مدى خبرته الواسعة، عن النظر إليّ بإمعان وبفضول ذكيّ ولفائدته الشخصيّة كما لو كنت من بعض الأعراف الغربية أو الآثار الجليلة الفوائد أو نجمة تقوم بجولة. وقد برهن على هذا النحو في ما يخصّني عن جليل تودّد الحكيم «منتور»(١) والسعي الفضوليّ لدى الشاب «أناكارسيس»(٢).

لم يبرّني بشيء البتّة لصالح **«مجلّة العالَمَيْن»**، ولكنّه طرح عليّ عدداً من الأسئلة حول حياتي ودراستي وحول ميولي التي ذُكِرَتْ للمرّة الأولى في حضرتي وكأنّما كان من المعقول اتّباعها فيما ظننت من واجبي حتى ذاك مقاومتها. وبما أنّها كانت تدفعني باتجاه الأدب فإنّه لم يصرفني عنه بل حدّثني فيه على العكس باحترام وكأنما عن إنسان جليل وظريف حفظ عن حلقته المختارة في «روما» أو «دريسدن» أفضل ذكرى وتأسف لندرة لقائه من جرّاء ضرورات الحياة. كان يبدو وهو يبتسم ابتسامة تقرب أن

---

(١) Mentor: اسم المستشار الحكيم الذي تولى شؤون «تيليماخوس» ابن «أوليس» أحد أبطال الإلياذة. وأصبحت الكلمة تعني الهادي والمستشار المجرب الحكيم.

(٢) Anacharsis: فيلسوف من القرن السادس قبل الميلاد عده قدماء الإغريق من بين الحكماء السبعة وهو رمز لرجل الطبيعة الذي لم تفسده الحضارة.

تكون ماجنة، وكأنّه يحسدني الفترات الحلوة التي يوفّرها لي أنا الأوفر منه حظاً وحريّة. على أن الألفاظ التي كان يستخدمها كانت تظهر لي الأدب شديد الاختلاف عن الصورة التي سبق أن رسمتها عنه لنفسي في «كومبريه» وأدركت أنني كنت مرّتين على حق في التخلي عنه. لقد تبيّنت حتى ذاك أنّي لا أملك موهبة الكتابة فحسب؛ أمّا الآن فقد نزع السيّد «دو نوربوا» من نفسي حتى الرغبة فيها. وأردت أن أشرح له ما سبق أن حلمت به. ولعلّني كنت أؤاخذ نفسي. وأنا أرتجف لشدة انفعالي، إن لم تجئ أقوالي المرادف الصادق أبعد الصدق لما أحسست ولم أحاول أن أصوغه لنفسي في يوم؛ وذلك يعني أن أقوالي لم تتّصف إطلاقاً بالوضوح. كان يحافظ السيّد «دو نوربوا»، حينما يُبْسَط له أمر ما، بجمود في قسمات الوجه تامّ كما لو أنّك تحدّثت أمام تمثال نصفي قديم - وأصمّ داخل متحف للمنقوشات الحجريّة، ربّما من جرّاء عادة مهنيّة، وربّما بفضل الهدوء الذي يكتسبه كلّ رجل ذي خطر تُلتمس مشورته فيدع محدَّثه، وهو يعلم أنّه سيحتفظ هو بزمام الحديث، يتلجلج ويحاول ويجهد ما شاء ذلك، وربّما أيضاً ليُبْرِز ميزة رأسه (وهو يوناني فيما يظنّ على الرغم من السالفين الكبيرين)، وفجأة يسقط صوت السفير الذي يرد عليك كمطرقة الموظّف المكلّف بالتخمين أو كنبوءة في معبد «ذلفي»، فيؤثّر فيك إلى حدّ كبير بقدر ما لم يسمح لك شيء في وجهه أن تخمن نوع الانطباع الذي خلفته فيه ولا الرأي الذي يزمع أن يبديه.

قال لي فجأة كما لو تمّ الفصل في القضية وبعد ما تركني أتلعثم قبالة عينين ثابتتين لا تتحولان لحظة عني: «لدي بالضبط ابن أحد أصدقائي الذي يشبهك بعد تبديل ما يجب تبديله» (واتخذ ليحدثني عن ميولنا المشتركة اللهجة المطمئنة نفسها التي يتخذها لو كانت استعدادات لا للأدب بل للرشح وشاء أن يبرهن لي أنها لا تقتل صاحبها).

ولذلك فضّل ترك دوائر وزارة الخارجية مع أنه سبق لوالده أن مهّد له الدرب وشرع ينتج غير عابئ بالقِيل والقال. وليس بالتأكيد ما يدعوه للندم.

فقد أصدر منذ سنتين - وهو على أية حال أكبر سناً منك بكثير بالطبع - مؤلفاً يدور حول الشعور باللانهاية على الضفة الغربية من بحيرة «فيكتوريا نيانزا» وكتيباً أقل شأناً في هذا العام، ولكنه خُطّ بريشة رشيقة ولاذعة أحياناً، حول البندقية السريعة الطلقات في الجيش البلغاري وقد ضمنا له نجاحاً منقطع النظير. لقد قطع حتى الآن شوطاً ملحوظاً وليس من الرجال الذين يتوقفون في سيرهم، وإني أعلم أن اسمه قد ورد مرتين أو ثلاث مرّات في سياق الحديث، وعلى نحو ليس فيه ما هو في غير صالحه، في أكاديمية العلوم الأخلاقية، دون أن تؤخذ فكرة التشريح في الاعتبار. وقصارى القول إنه احتل بالقوة مكانة مرموقة دون أن نستطيع القول إنه أصبح في الأوج؛ وإن النجاح الذي لا يقتصر دوماً على المضطربين والفوضويين وصانعي المشاكل، الذين هم على الدوام تقريباً هينو الوجدان، قد كلل جهده.

وأبدى والدي، وهو يراني منذ ذاك عضواً في الأكاديمية بعد بضع سنوات، أبدى ارتياحاً بلغ به السيد «دو نوربوا» الذروة حينما قال لي بعد لحظة تردد بدا فيها وكأنه يزين نتائج فعلته، قال وهو يمدّ إليّ بطاقته: «هيّا إلى زيارته من قبلي فإنه يستطيع تقديم نصائح مفيدة لك»، فسبب لي من جراء هذه الكلمات اضطراباً مؤلماً كما لو أخبرني بأنهم يرسلونني في الغد بحاراً على متن مركب شراعي.

كانت عمتيْ «ليوني» قد جعلتني وريثاً لكامل ثروتها النقدية تقريباً إلى جانب الكثير من الأغراض وقطع الأثاث المربكة - مظهرة بذلك بعد وفاتها حباً لي ما خالجتني فكرته إطلاقاً في أثناء حياتها - واستشار والدي، وكان عليه أن يدير هذه الثروة حتى بلوغي سن الرشد، السيّد «دو نوربوا» حول عدد من التوظيفات، فأشار بسندات قليلة الريع كان يحكم أنها من متانة خاصة كالقروض الإنكليزية المدعمة وقرض الـ ٤٪ الروسي، قال السيّد «دو نوربوا»:

«إن لم يكن الدخل عالياً جداً بالنسبة إلى هذه الأسهم التي هي من

الطراز الأول فإنك متيقن على الأقل أنك لن تشهد في يوم هبوطاً في رأس المال».

وروى له والدي بالإجمال عما سبق أن اشتراه في ما يخص الباقي. وعلت شفتي السيّد «دو نوربوا» ابتسامة تهنئة خفيّة حتى لا تدرك: فقد كان شأن جميع الرأسماليين يقدر أنّ الثورة أمر مرغوب فيه ولكنّه يرى من حسن الذوق ألا يهنئ في ما يخص الثروة المملوكة إلا بإشارة تواطؤ تكاد لا تراها. وكان يرى من حسن الذوق، من جهة أخرى، وهو ذو ثروة ضخمة، أن يبدو وكأنه يحكم أن مداخيل الآخرين الدنيا باهظة، ولكن له مع ذلك عودة مغتبطة مرتاحة على رجحان دخوله. على أنّه لم يتردد بالمقابل في تهنئة والدي على «تركيبة» سنداته المالية «وهي من ذوق سليم جدّاً ومرهف جدّاً ورفيع جدّاً». لكأنما كان يخص العلاقات بين أسهم البورصة وحتى أسهم البورصة في حدّ ذاتها بما يشبه المزية الجماليّة. قال السيّد «دو نوربوا» عن بعض منها جديد إلى حدّ ما ومجهول مما حدثه والدي عنه، قال شأنه شأن أناس قرؤوا كتباً كنت تظنّ أنّك تعرفها وحدك «بلى»، لقد لهوت بعض الوقت بمتابعته في جدول الاسعار وكان مغرياً، قالها بابتسامة المشترك المأخوذ بعد فوات الأوان والذي قرأ آخر رواية في مجلة قراءة مجزّأة وعلى شكل مسلسل. «لن أشير عليك بالامتناع عن الاكتتاب بالإصدار الذي سيُطرح عما قريب، إنه مغرٍ لأن الأسهم تُعرض عليك بأثمان مغرية». أمّا بالنسبة إلى بعض الأسهم القديمة فإن والدي الذي لم يعد يذكر أسماءها بدقة، وهي سهلة الاختلاط بأسماء أسهم مشابهة، فتح على العكس درجاً وأبرز الأسهم نفسها للسفير. وقد سحرني منظرها إذ كانت مزينة بسهام كاتدرائيات وبأشكال رمزيَّة شأن بعض المنشورات الرومانطيقية القديمة التي سبق أن تصفحتها فيما مضى. إن كلّ ما من زمن واحد يتشابه، فالفنانون الذين يضعون الرسوم الإيضاحية لقصائد حقبة معيّنة هم الذين تستخدمهم الشركات المالية لأغراضها. وليس ما يعيدها بالفكر إلى بعض ملازم من كتاب «**أحدب نوتردام**»

وبعض مؤلفات «جيرار دو نيرفال»، على نحو ما كانت معلّقة على واجهة دكان السمانة في «كومبريه» مثل سهم اسمي لشركة المياه في إطاره المثلث المزدان بالزهور الذي كانت تحمله آلهات نهرية.

وكان والدي يبدي إلى نوع الذكاء الذي أتمتع به ازدراء يخفّف منه الحنان إلى حد كاف ليجيء حكمة عامة على كلّ ما أفعل من قبيل التسامح الأعمى. ولذلك لم يتردّد في إرسالي للبحث عن قصيدة منثورة صغتها فيما مضى في «كومبريه» لدى عودتي من إحدى النزهات. وكنت قد كتبتها بحماسة بدا لي أنها ستشبعها حتماً في نفوس من سيقرؤها. ولا بدّ أنها لم تلق حظوة لدى السيّد «دو نوربوا» لأنّه أعادها إليّ دون أن ينبس بكلمة.

وجاءت والدتي، وكانت شديدة الاحترام لمشاغل والدي، تسأل بوجل إن كانت تستطيع أن تأمر بتقديم الطعام. لقد كانت تخشى أن تقطع حديثاً لعلّه لا حقّ لها في التدخل فيه. فقد كان والدي يذكّر المركيز في كلّ لحظة بإجراء ضروري قرّرا دعمه في جلسة اللجنة المقبلة، ويفعل ذلك باللهجة الخاصة التي يتخذها في وسط مختلف - مثلما يفعل تلميذا المدرسة - زميلان فيما بينهما تنشئ لهما عادتهما المهنية ذكريات مشتركة لا ينفذ الآخرون إليها فيعتذران لهم أن يتذكراها في حضرتهم.

على أن الاستقلال التام الذي بلغه السيّد «دو نوربوا» في عضلات وجهه كان يمكّنه من الإصغاء دون أن يبدو عليه أنّه يسمع ويبلغ بوالدي حد الإضراب فيقول للسيد «دو نوربوا» بعد مقدمات طويلة: «لقد خطر لي أن أطلب رأي اللجنة». حينئذ كانت تنطلق من وجه الأرستقراطيّ البارع الذي ظلّ يحفظ بجمود عازف لم يحن دوره ليعزف القسم الخاص به الجملة التي بوشر بها، تنطلق على وتيرة واحدة بصوت حادّ وكأنّها تسير إلى نهايتها فحسب ولكنّها عُهد بها هذه المرة لجرْس آخر: «التي لن تتردد بالطبع في عودتها، ولا سيما أن أعضاءها معروفون شخصياً لديك ويستطيعون التحرك بسهولة». ولم يكن ختام الجملة هذا في حدّ ذاته أمراً خارقاً بالطبع، ولكن الجمود الذي سبقه جعله يبرز بصفاء الكريستال، بما

يشبه المكر المفاجئ لتلك الجمل الذي يرد بها البيانو، بعدما ظلّ صامتاً حتى ذاك، يردّ في الوقت المناسب في كونشرتو لموزار على «التشيلو» الذي تمّ لك سماعه منذ قليل.

وقال لي والدي، فيما كنا ننتقل إلى المائدة، كيما أتألق وظناً منه أن حماستي ستجعلني أفضل موقعاً في عيني السيّد «دو نوربوا»: «أتراك سررت بحفلة ما بعد الظهر؟» وقال وهو يتلفت صوب الديبلوماسي وبلهجة التلميح إلى الماضي، تلك التقنية الزاجرة بالأسرار التي كان يتخذها كما لو كان الأمر أمر إحدى جلسات اللجنة: «لقد ذهب منذ هنيهة لسماع «لا بيرما». وتذكر أننا تحدثنا عن ذلك فيما بيننا».

- «لا بدّ أنّك فُتنتَ، ولا سيما إن كنت تسمعها للمرة الأولى لقد خشي والدك من العاقبة التي كان يمكن أن تجرها تلك «الطلعة» الصغيرة على حالتك الصحية لأنك ضعيف البنية ونحيل بعض الشيء فيما أظن. ولكني طمأنته، فلم تعد مسارح اليوم ما كانت عليه منذ عشرين سنة فقط. فلديك مقاعد مريحة تقريباً وجوّ متجدّد مع أننا لا بدَّ أن نفعل الكثير للحاق بألمانيا وإنكلترا اللتين سبقتانا إلى حدّ بعيد في هذا المجال وفي مجالات أخرى كذلك، لم أشاهد السيّدة «لا بيرما» في مسرحية «فيدر» ولكني سمعت من يقول إنها رائعة فيها. لقد فُتِنْتَ بالطبع؟».

كان لا بدّ أن يمتلك السيّد «دو نوربوا»، وهو أشد ذكاء مني ألف مرة، تلك الحقيقة التي لم أستطع استخلاصها من تمثيل «لا بيرما»، وسوف يكشفها لي. وسأرجوه في ردّي على سؤاله أن يقول لي ما هو قوام تلك الحقيقة، ويبرر، بذلك، الرغبة التي داخلتني لمشاهدة الممثلة. لم يكن لدي سوى لحظة وكان لا بدّ من الإفادة منها وتوجيه أسئلتي نحو النقاط الأساسية ولكن ما عساها كانت؟ وصرفت كامل انتباهي إلى انطباعاتي المشوشة جداً ولم يخالجني البتّة أن أحمل السيّد «دو نوربوا» على الإعجاب بي، بل على الحصول منه على الحقيقة المتمناة فلم أحاول أن أُحِلَّ محلَّ اللفظات التي خانتني عبارات قائمة وتلعثمت وأخيراً

اعترفت أمامه أنني أصبت بخيبة وذلك لمحاولة حثه على الإعلان عن مواطن الروعة لدى «لا بيرما».

وصاح والدي وقد أزعجة الانطباع المؤسف الذي كان يمكن أن يخلفه في صدر السيّد «دو نوربوا» الإقرار بتقصيري عن فهمها: «كيف ذلك؟ كيف تستطيع أن تقول إنّك لم تستمتع؟ لقد روت لنا جدّتك أنّك ما كنت تضيع كلمة مما تقوله «لا بيرما»، وعيناك شاخصتان إليها، وأنك كنت الوحيد في القاعة على ذلك النحو».

- «أجل كنت أصغي خير إصغاء لأعلم ما الذي لديها من أمر مرموق. لا شك أنها جيدة جدّاً..».

- «إن كانت جيّدة جدّاً فماذا تبغي أكثر من ذلك؟».

وقال السيّد «دو نوربوا» وهو يلتفت باجتهاد صوب والدتي كي لا يدعها خارج نطاق الحديث ولكي يؤدي بصدق واجب التهذيب إزاء ربة البيت:

«إن من بعض ما يسهم بالتأكيد في نجاح السيّدة «لا بيرما» الذوق الرفيع الذي تضعه في انتقاء أدوارها والذي يعود عليها بنجاح لا لبس فيه وجدير بالتقدير. إنها نادراً ما تمثل أدواراً ضحلة. أرأيت؟ لقد تصدت لدور «فيدر». إنها تبدي هذا الذوق كذلك في لباسها وفي تمثيلها. ومع أنها قامت بجولات عديدة ومتميزة في إنكلترا وأميركا فلن أقول عن سوقية «جون بول» (John Bull) فلعل في ذلك ظلماً أقله لإنكلترا في عصر الملكة «فيكتوريا»، بل أقول عن سوقية العم سام إنها لم تؤثر فيها، فلا ألوان على الإطلاق ولا صيحات مبالغ فيها. أضف إلى ذلك الصوت الرائع الذي يخدمها أحسن الخدمة والذي يتلاعب به بما يخلب الألباب كأنما هي، ويغريني القول إلى حد ما، موسيقية!».

لم يكف اهتمامي بتمثيل «لا بيرما» عن التعاظم منذ انتهاء العرض لأنه لم يعد يعاني من ضغط الواقع وحدوده، ولكني كنت أشعر بحاجة العثور على ما يفسره. ثم إنه انصب إلى ذلك بالقوة نفسها أثناء تمثيل

«لا بيرما» على كل ما كانت تقدمه لناظري وأذني في وحدة الحياة التي لا تنقسم. فلم يفصل شيئاً ولا ميّز؛ ولذلك فقد أسعده أن يكتشف سبباً معقولاً في هذا المديح الموجه إلى بساطة الفنانة وذوقها السليم، فكان يجتذبها إليه بقدرته على الامتصاص ويستولي عليها كما يفعل تفاؤل رجل ثمل بأعمال جاره التي يرى فيها مدعاة للتأثر. وكنت أقول في نفسي: «حقاً ما أجمل صوتها وما أبعدها عن الصراخ وأية أثواب بسيطة وأي ذكاء في اختيارها لمسرحية «فيدر»! لا، لم يخب ظني».

وكان أن ظهر لحم البقر بالجزر وقد مدته يدا «ميكيل أنجلو» على بلورات ضخمة من المرق الهُلامي شبيهة بكتل من المرو الشفاف. وقال السيّد «دو نوربوا»: «لديك رئيس طهاة من الطراز الأول يا سيدتي، وليس هذا بالأمر القليل، وإني أعرف أنا الذي كان عليه في الغربة أن يحافظ على مستوى معاشي معين إلى أي مدى يبدو من الصعب العثور على رئيس طهاة كامل الصفات. إنها لوليمة حقيقية تلك التي دعوتنا إليها».

والحقيقة أن «فرانسواز» أنفقت جهداً لم تعد تنفقه حينما نكون وحدنا، وعادت فلقيت طريقتها التي لا تدانيها أخرى في «كومبريه» وقد أثارها أشد الإثارة طموحها أن توفق في إعداد عشاء ملأته أخيراً صعوبات جديدة بها لمدعو ذائع الصيت.

- «ذلك ما لا يمكن الحصول عليه في الملاهي الليلية، وأقصد أفضلها: لحم بقري لا يشبه المرقُ الهلامي فيه الصمغ وتشرّب اللحم فيه عطرَ الجزر، يا للروعة!» يشير أنه يرغب أيضاً في المرق: «اسمحوا أن أعود إليه. والآن تداخلني الرغبة في الحكم على رئيس طهاتك في طبق مختلف تماماً. وددت مثلاً أن أراها في ميدان صنف «ستروغانوف» بلحم البقر».

وأتحفنا السيد «دو نوربوا»، ليسهم هو الآخر في بهجة الطعام، بروايات مختلفة كثيراً ما كان يمتع بها زملاءه في السلك فيذكر تارة جملة طويلة مضحكة قالها سياسي تعود هذا النمط وكان يطيل فيها ويحشوها

الصور غير المترابطة، وطوراً عبارة مقتضبة لدبلوماسي يفيض دقة واتزاناً. على أن المعيار الذي كان يميّز بالنسبة إليه، والحق يقال، هذين الصنفين من الجمل ما كان يشبه في شيء المعيار الذي كنت أطبقه على الأدب، فقد كان يفوتني الكثير من الفروق الدقيقة. لقد كان من صنف الرجال الذين ربما قالوا في الأعمال الفنية التي كنت أحبها: «هل تفهم، أنت؟ أما أنا فإني أقر بأني لا أفهم، فلست مطلعاً»، ولعلني كنت أستطيع أن أرد له بضاعته، فما كنت أدرك النكتة أو الحماقة ولا البلاغة أو اللغو الفارغ مما كان يجده في رد أو قول، وكان غياب أي سبب ظاهر يبدو هذا الأمير من جرائه رديئاً وذاك حسناً، يجعل من هذا النوع من الأدب شيئاً أكثر خفاء وأكثر إبهاماً من أي شيء آخر في نظري؛ ولكني تبيّنت أن ترداد ما يراه جميع الناس لم يكن في دنيا السياسة علامة المستوى الأدنى بل علامة التفوق. فحينما كان السيد «دو نوربوا» يستخدم بعض العبارات التي تملأ صفحات الجرائد وينطق بها بقوة كنت تحس أنها أصبحت فعلاً من جراء أنه استخدمها فحسب، فعلاً ربما استثار الشروح.

كانت والدتي تعلق أهمية كبيرة على «سلطة» الأناناس والكمأة. ولكن السفير بعدما أعمل للحظة نفاذ عينيه في الصحن أكلها وظل يحيط نفسه بأسرار الدبلوماسيين ولم يفصح لنا عن فكره. وألحّت والدتي كيما يسكب منه ثانية، فامتثل السيّد «دو نوربوا»، ولكنه اكتفى أن يقول عوضاً عن المديح المأمول: «ها إني أخضع للأمر يا سيدتي، بما أني أرى أنه قرار قيصري حقيقي تتخذينه».

وقال له والدي:

- «قرأنا في الصحف أنك تحدثت طويلاً مع الملك «تيودوز»».

- «لقد تلطف الملك بالحقيقة، وهو على قدر نادر من ذاكرة الوجوه، فتذكر إذ رآني في القاعة أنني تشرفت بمشاهدته لعدة أيام في بلاط «بافاريا» حين لم يكن يفكر بعد بعرشه الشرقي (وتعلمْ أن مؤتمراً أوروبياً دعاه إلى ذلك وقد تردد كثيراً في قبوله، إذ حكم أن هذا السلطان لا يوازي إلا في

القليل العرق الذي ينتمي إليه وهو أكرم عرق في أوروبا بأسرها على صعيد الشعار). وقد أقبل أحد معاونيه يقول لي أن أذهب لتحية جلالته وقد سارعت بالطبع إلى الامتثال لأمره».

- «وهل كنت راضياً عن نتائج إقامته»؟.

- «تمام الرضى فلقد كان من الممكن التخوّف إزاء الطريقة التي يستطيع بها ملك لا يزال في ريعان الشباب أن يتخلص من هذا المأزق الصعب ولا سيما في أوضاع بمثل هذه الدقة. ولقد كنت أولي حس الملك السياسي في ما يخصني، ثقة تامّة؛ ولكني أقر بأن آمالي تمّ تجاوزها، فإن الكلمة التي ألقاها في الإليزيه لدى شرب الأنخاب والتي ألّفها بنفسه من الكلمة الأولى وحتى الكلمة الختامية حسب معلومات وردتني من مصدر موثوق تماماً كانت على مستوى الاهتمام الذي أثاره في كل مكان. إنها بكل بساطة ضربة معلم؛ ضربة جريئة، إني مقر بذلك، ولكنها جرأة بررها ذلك الحديث تمام التبرير. إن للتقاليد الدبلوماسية حسناتها ولكنها أفضت في تلك الحالة إلى أن يعيش بلده وبلدنا في جو من الهواء الحبيس الذي أصبح خانقاً. مكتبة سُر مَن قرأ

ومن بين طرق تجديد الهواء، ومن بين تلك التي لا يمكن أن يوصى بها والتي كان يستطيع الملك «تيودوز» مع ذلك أن يسمح لنفسه بها، كسر زجاج النوافذ وقد فعل ذلك باغتباط فتن جميع الناس، وبصحة في التعبير عرف فيها الناس في الحال سلالة الأمراء المثقفين التي ينتمي إليها بوالدته. فالأكيد أنه حينما تحدث عن «القرابات الفكرية» التي تربط بلده بفرنسا فقد جاء التعبير موفقاً إلى أبعد حد مهما بدا قليل الاستعمال في مفردات أرباب السفارات، وأضاف وهو يوجه الحديث إليّ «وأنت ترى أن الأدب لا يلحق بك الأذى حتى في دنيا الدبلوماسيين وحتى على سدة العرش، والأمر تمت ملاحظته منذ زمن طويل، إني مقر بذلك، فلقد أضحت العلاقات بين الدولتين ممتازة. إلا أنه كان لا بد أن يقال ذلك. كان الجميع في انتظار تلك الكلمة وقد اختيرت أروع ما يكون الاختيار

ورأيت مدى تأثيرها، إني أصفق لها، في ما يخصني، من صميم الفؤاد».

- «لا بدَّ أن صديقك السيّد «دو فوغوبير» الذي كان يهيئ للتقارب منذ سنوات قد ابتهج لذلك».

- «ولا سيما أن جلالته الذي تعود مثل هذه الأمور قد حرص على مفاجأته، وكانت المفاجأة كاملة على أية حال بالنسبة إلى الجميع بدءاً بوزير الخارجية الذي لم ترقه فيما قيل لي وقد أجاب أحدهم، وكان يحدثه في الأمر، أجاب بأشد الوضوح وبصوت عالٍ يسمح بأن يسمعه الذين كانوا بالقرب منه: «لم يستشرني أحد ولا تم إخطاري»، يشير بذلك إشارةً واضحة إلى أنه يرفض أية مسؤولية في هذا الحدث. وينبغي الإقرار بأن هذا الأخير أثار ضجة كبيرة»، وأضاف بابتسامة ساخرة على شفتيه: «ولن أجرؤ على التأكيد بأن نفراً من زملائي ممن يؤلف مبدأ بذل أدنى جهد بالنسبة إليهم، فيما يبدو، قمة القوانين لم تتبدّد طمأنينتهم. أما في ما يخص «فوغوبير» فإنك تعلم أنه تعرض لهجوم جديد من جراء سياسته في التقارب مع فرنسا ولا بدّ أنه عانى الكثير لذلك وبمقدار ما كان حساساً رائع الفؤاد. وبوسعي أن أشهد بذلك أفضل شهادة، مع أنه يصغرني بكثير، لأنني ترددت عليه كثيراً وإننا صديقان منذ فترة طويلة وأعرفه أتم المعرفة. ومن ذا لا يعرفه؟ لقد كان صافي الروح، في صفاء الكريستال؛ وهو العيب الوحيد على أية حال الذي يمكن أن يؤخذ عليه، فليس ضرورياً أن يكون فؤاد الدبلوماسي في مثل شفافية فؤاده. ولكن ذلك لا يحول دون أن يتحدثوا عن إرساله إلى روما، وتلك ترقية كبيرة ولكنها حمل ثقيل، على أنيْ أعتقد أن «فوغوبير»، وأقولها بيننا، ربما سعد جداً بذلك وما طالب على الإطلاق بإقصاء تلك الكأس عنه مهما كان بعيداً عن الطموح. وربما اجترح العجائب هناك؛ إنه مرشح مجلس الدولة في الفاتيكان، وإني أرى، في ما يخصني، أنه يلائم تماماً، هو الطويل الباع في الفن، قصر «فارنيزيه» ومعرض «كاراش»، ويفترض فيما يبدو على الأقل أنه لا يمكن أن يكن أحد له البغضاء، بيد أن حول الملك «تيودوز»

حاشية كاملة ترتبط في كثير أو قليل بشارع «غليوم» وتسلس القياد لإيحاءاته، وقد حاولت بجميع الطرق أن تثير في وجهه المصاعب. ولم يقع على «فوغوبير» أن يواجه دسائس الكواليس فحسب بل كذلك شتائم صحافيين مأجورين كانوا الأوائل فيما بعد، وهم في جبن كل صحافي مأجور، في طلب الأمان[1] ولكنهم لم يتورعوا ذاك الحين مع اعتماد التهم السخيفة التي جادت بها جماعة من عديمي الأخلاق ضد ممثلنا. وقد رقص أعداء «فوغوبير» طوال شهر من حوله رقصة سلخ جلد الرأس». قال السيد «دو نوربوا» ذلك وهو يبرز بقوة الكلمة الأخيرة. ثم أضاف بلهجة أشد حزماً وبنظرة قاسية إلى حد أننا أمسكنا لحظة عن الطعام: «ولكن الرجل المطلع يساوي اثنين، وقد دفع تلك الشتائم بقدمه. «الكلاب تنبح والقافلة تسير» حسبما يقوم مثل عربي جميل». وتوقف السيّد «دو نوربوا»، بعدما جاء بهذا الشاهد، لينظر إلينا ويحكم على الأثر الذي خلفه فينا، وكان عظيماً، فلقد كان المثل معروفاً لدينا وقد حلّ في تلك السنة لدى الرفيعي الشأن من الناس محل هذا المثل الآخر»: «من يزرع الريح يحصد العاصفة»، وكان بحاجة إلى الراحة فليس من طينة لا تعرف الكلل وهو طويل العمر كهذا الآخر «الشغل لدى ملك بروسيا»[2]. ذلك أن ثقافة هؤلاء القوم البارزين كانت متناوبة ومقسمة بعامة على ثلاث سنوات، والأكيد أن الشواهد التي من هذا القبيل والتي كان يحيد السيد «دو نوربوا» في تزويق مقالات «**المجلة**» بها لم تكن ضرورية لتبدو هذه المقالات متينة وحسنة الاطلاع فقد كان كافياً، ولو خلت من الزينة التي تضفيها عليها، أن يكتب السيّد «دو نوربوا» في الوقت المناسب - وما كان يفوت عليه الأمر:- ما كانت حكومة «سان جيمس» آخر من أحس بالخطر، أو «كان الإضراب كبيراً في «بونتوشانتر» حيث كانوا يتابعون بنظرات قلقة سياسة

(١) وردت بالعربية في متن النص.
(٢) العمل مقابل لا شيء.

الملكية ذات الرأسين الأنانية والحاذقة معاً، «أو» وانطلقت من «مونتيشيوريو» صيحة إنذار «أو» هذا اللعب المستمر على الحبلين يطابق تماماً طريقة «ساحة بال».

وسرعان ما كان يتعرف القارئ غير المطلع خلف هذه العبارات الديبلوماسيَ العريق ويشيد به. إلا أن ما حمل على القول: إنه كان فوق ذلك وإنه حاز ثقافة عالية فقد كان اللجوء المعلل إلى شواهد ظل نموذجها الأمثل آنذاك من طراز: «قدم لي سياسة حكيمة أقدم لك اقتصاداً متيناً كما تعود أن يقوم البارون لويس». (ولم يكن قد تمّ استيراد هذا الآخر من المشرق: «إن النصر حليف من استطاع من الخصمين أن يتحمل العذاب ربع ساعة أكثر من الآخر، مثلما يقول اليابانيون»). وقد استطاع صيت المثقف الكبير ذاك بعدما اقترن بموهبة في الدس حقيقية تتخفّى خلف قناع اللامبالاة أن يضمن مقعداً للسيد «دو نوربوا» في أكاديمية العلوم الأخلاقية. وهناك من ظن من الناس أنه لن يكون في غير محله على مقاعد الأكاديمية الفرنسية يوم لم يتردد، بغية الإشارة إلى أننا إنما نستطيع التوصل إلى وفاق مع إنكلترا بتوثيق العلاقة الروسية، لم يتردد أن يكتب: «فليكن معلوماً في مقر الخارجية الفرنسية وليدرج منذ الآن في جيمع كتب الجغرافية التي تبدو ناقصة بهذا الخصوص، وليتم بدون شفقة رفض أي مرشح للبكالوريا لا يعرف أن يقول ما يلي: لئن كانت جميع الدروب تقود إلى روما فإن الطريق التي تربط باريس بلندن تمر في مقابل ذلك بالضرورة بِـ«بيترزبورغ». وأردف السيّد «دو نوربوا» يخاطب والدي «وقصارى القول إن «فوغوبير» ضمن لنفسه بذلك نجاحاً عظيماً يجاوز حتى ما توقعه، فقد كان يتوقع خطاب أنخاب لائقاً (وهو أمر عظيم جداً في أعقاب السحب التي سادت السنوات الأخيرة) ولا شيء سواه. وقد أكد لي العديد ممن كانوا في عداد الحاضرين أنه لا يمكن لدى قراءة هذا الخطاب تبيّن الأثر الذي خلفّه إذ تمّ إلقاؤه وتفصيله على نحو رائع على لسان الملك الذي يجيد فن القول والذي كان يستلفت النظر، ساعة يقول، إلى جميع المقاصد

وجميع الدقائق، وقد جاء من روى لي بهذا الصدد واقعة مثيرة إلى حد ما تبرز مرة أخرى لدى الملك «تيودوز» ظرافة الشباب التي يستميل بها القلوب. لقد أكدوا لي أن جلالته، لدى تلفظه بالضبط بكلمة «القرابة الروحية» التي كانت بمختصر القول الابتكار الضخم في الخطاب والتي ستظل لفترة طويلة، كما سترى، موضوع تعليقات السفارات، لما توقع ابتهاج سفيرنا الذي كان سيلقى فيها التتويج الصحيح لجهوده، وربما أمكن القول لحلمه، وما يظنه بوجيز العبارة عصا ماريشاليته، استدار قليلاً نحو «فوغويير» وصوب إليه نظرة آل «أوتينغن» الأخاذة وأبرز لفظة «القرابة الروحية» تلك التي أحسن اختيارها وكانت اكتشافاً حقيقياً بلهجة تبين للجميع أنها استخدمت عن دراية تامّة ومعرفة أكيدة. ويبدو أن «فوغوبير» صادف مشقة في السيطرة على انفعاله، وإني أقر بأني أفهمه إلى حد ما. وقد أسر لي شخص خليق بأن يصدق بأن الملك اقترب من «فوغوبير» بعد العشاء، حينما تحلق الناس من حوله، وقال له بصوت خافت: «هل أنت راض عن تلميذك أيها المركيز العزيز؟» والأكيد، يقول السيّد «دو نوربوا» إن خطاباً من هذا القبيل قد فعل أكثر من عشرين سنة من المفاوضات لتوثيق عرى «القرابة الروحية» بين البلدين، حسب تعبير «تيودوز» الثاني الجميل. إنها لا تعدو كونها لفظاً، إن شئت، ولكن هيا انظر أي نجاح أصابت وكيف ترددها الصحافة الأوروبية بأسرها وأي اهتمام تثير وأية رنة جديدة تنبعث منها. وإنها على أية حال من صميم أسلوب السلطان، أنا لن أذهب إلى حد القول بأنه يجد في كل يوم درراً خالصة شبيهة بهذه بيد أنه يندر ألا يدع في خطاباته المدروسة، بل وحتى في نزق الحديث ما يشير إلى أوصافه - كدت أقول إنه يذيلها بتوقيعه - بكلمة تنطلق مقتضبة جارحة. وإن عدائي لكل تحديد في هذا الاتجاه ليقلل من فرص اتهامي بالتحيّز في هذا الموضوع، فصنوف التجديد هذه خطيرة تسع عشرة مرّة من عشرين».

وقال والدي: «أجل، لقد اعتقدت أن برقيّة إمبراطور ألمانيا الأخيرة لم توافق ذوقك».

ورفع السيّد «دو نوربوا» عينيه إلى السماء كمن يقول: آه! يا له! «إنها فعلة نكران للجميل تلك أكثر من جريمة، إنها خطيئة غباؤها سوف أصفه بضخامة الأهرام! وإن لم ينبه أحد إلى ذلك فإن الرجل الذي طرد «بيسمارك» قادر أن يستبعد شيئاً فشيئاً كامل سياسة بيسمارك وتكون إذ ذاك القفزة في المجهول».

- «وقد قال لي زوجي، يا سيّدي، إنك ربّما ذهبت به ذات صيف إلى إسبانيا، إنني شديدة الغبطة لأجله».

- «أجل، إنّه مشروع رائع تماماً وإني مغتبط به. بودّي كثيراً أن أقوم بهذه الرحلة معك أيها العزيز. وأنت يا سيدتي، هل فكّرت منذ الآن كيف تستخدمين العطلة؟».

- «ربما ذهبت برفقة ابني إلى «بالبيك»، لست أدري».

- آخ! «بالبيك» محبّبة، ولقد مررت من هناك منذ عدّة سنوات. لقد شرعوا يبنون فيها دارات أنيقة جدّاً، وأظن أنّ المكان سينال إعجابك. ولكن هل يسعني أن أسألك عمّا جعلك تختارين «بالبيك»؟

- «لدى ولدي رغبة في مشاهدة بعض كنائس المنطقة ولا سيّما كنيسة «بالبيك». لقد كنت أخشى قليلاً على صحته من تعب السفر ولا سيّما الإقامة. ولكنّي علمت أنهم بنوا منذ قليل فندقاً ممتازاً سوف يمكّنه من العيش ضمن شروط الراحة التي تقتضيها حاله».

- «آه! ينبغي لي أن أزوّد بهذه المعلومات إحداهن وليست من نساء لا يبالين بها».

وسألت وأنا أغالب الحزن الذي بي لسماعي بأن أحد محاسن «بالبيك» إنما يكمن في داراتها الأنيقة: «إن كنيسة «بالبيك» رائعة. أليس كذلك يا سيدي؟».

- «لا، إنها لا بأس بها، ولكنّها لا تحتمل المقارنة مع هذه الجواهر الحقيقية المزوّقة التي تمثل كاتدرائيات «رانس» و«شارتر» واللؤلؤة «التي

تبزّهن جميعاً فيما أرى، عنيت «الكنيسة الصغيرة» La Sainte-Chapelle في باريس».

- «ولكنّ كنيسة «بالبيك» من الطراز الروميني في قسم منها؟».

- «أجل إنها من الطراز الروميني، وهو في حدّ ذاته جامد جدّاً وليس فيه ما ينبئ بأناقة المهندسين القوطيين وطرافتهم. هم الذين يبالغون في تزويق الحجر وكأنه دانتيلا. إن كنيسة «بالبيك» جديرة بأن تزار مرّة إن كنت في المنطقة، فهي غريبة إلى حدّ ما: فإن كنت لا تدري أي شيء تفعل في يوم ماطر استطعت أن تدخل إليها لتشاهد ضريح «تورفيل».

وقال والدي: «هل حضرت البارحة مأدبة وزارة الخارجية؟ فإنني لم أتمكّن من حضورها».

«وأجاب السيّد «دو نوربوا» وعلى شفتيه ابتسامة: لا، وأقرّ أنني تخلّيت عنها في سبيل أمسية تختلف بعض الاختلاف عنها. ولقد تناولت العشاء في منزل امرأة ربما سمعت عن أخبارها، إنها السيّدة «سوان» الجميلة».

وكتمت والدتي رعشة أصابتها فقد كانت تقلق، وهي أسرع إحساساً من والدي، كانت تقلق من أجله بشأن ما لن يزعجه إلا بعد ذلك بقليل. كانت تتبيّن هي أوّلاً الإزعاجات التي تحلّ به كمثل هذه الأخبار المشؤومة عن فرنسا التي تُعْرَف في البلاد الأجنبية قبلما تعرف لدينا. بيد أنها في فضولها كي تعلم أيّ صنف من الناس تستقبلهم أسرة «سوان» سألت السيّد «دو نوربوا» عن الأشخاص الذين التقى بهم هنالك. وأجاب السفير بدقة تغلفها الطيبة وهو يلقي من حوله نظرات بدت عذوبتها واحتشامها وكأنهما يخفقان من خبث الملاحظة فيما هما يبالغان فيها بحذاقة: «يا إلهي.. إنّه بيت يرتاده بخاصّة فيما يبدو لي الرجال. كان هنالك بعض المتزوجين، ولكنّ زوجاتهم كنّ مريضات في ذلك المساء فلم يجئن».

ثم أضاف قوله: «ينبغي لي أن أقول، كيما أكون منصفاً تماماً، إن ثمة نساء يقصدن منزلهم مع ذلك، ولكنهنّ... ينتمين بالأحرى... ماذا

عساي أقول، إلى جماعة الجمهوريّين أكثر منهنّ إلى مجتمع «سوان» (وكان يقول «سفان»). من يدري؟ ربّما أصبح ذات يوم منتدى سياسيّاً أو أدبيّاً. ويبدو على أية حال أنّهم راضون بذلك، ولديّ أن «سوان» يبرز الأمر أكثر مما ينبغي. فقد كان يسمّي الناس الذين دعي وزوجته إلى منازلهم في الأسبوع التالي، ومع أنّه لا سبيل إلى الاعتزاز بألفتهم، على نحو خلا من الرصانة والذوق وحتى اللياقة، الأمر الذي أدهشني في رجل بمثل رقّة حسّه. كان يردّد قوله: «ليس عندنا أمسية واحدة خلت من ارتباط»، كما لو أن في الأمر مفخرة وبلهجة الوصولي الحقيقي، وما هو بذلك. ذلك أنّه كان لِـ«سوان» العديد من الأصدقاء، وحتى الصديقات وأظّنني قادراً على القول، دون أن أتورّط كثيراً أو أن أذيع سرّاً، إن واحدة منهنّ على الأقلّ، لا جميعهنّ ولا حتى أكثرهنّ، وهي سيّدة رفيعة الشأن، ما كانت لتعرض إعراضاً تاماً عن فكرة إنشاء صلات مع السيّدة «سوان» ومن المحتمل آنذاك أن يحذو حذوها الكثير من الخراف، غير أن «سوان» فيما يبدو لم يقم بأي مسعى من هذا القبيل. ماذا أرى؟ أهنالك أيضاً حلوى «البودينغ»! لن يكثر عليّ الاستشفاء في مدينة «كارلسباد» لأستعيد العافية بعد وليمة فاخرة كهذه. وربما شعر «سوان» أن ثمة الكثير من ضروب المقاومة التي ينبغي التغلّب عليها.

فالزواج لم يَرُقْ، والأمر أكيد. لقد تحدّثوا عن ثروة المرأة، وتلك هفوة جسيمة. ولكن كل ذلك في النهاية لم يبدُ محبباً. ثمّ إنّ لِـ«سوان» عمّة فاحشة الثراء بالغة الرصانة وهي زوجة لرجل يُعتبر من أرباب النفوذ على صعيد المال. وهي لم ترفض استقبال السيّدة «سوان» فحسب بل قامت بحملة منظمة كي تفعل صديقاتها ومعارفها مثلما فعلت. ولست أعني بذلك أن يكون أي باريسي قد أخلّ بقواعد اللياقة إزاء السيّدة «سوان». لا، لا مئة مرّة! وكان الزوج فضلاً عن ذلك رجلاً يردّ على التحدّي. وثمة على أية حال أمر غريب وهو أن ترى إلى أيّ حدّ يُبْدي «سوان»، هو الذي يعرف الكثير من الناس ومن أرفعهم مستوى، اهتماماً

بمجتمع أقل ما يُقال فيه إنه خليط إلى حدّ بعيد. وإني أقرّ، أنا الذي عرفته بالأمس، أنني كنت أحس بقدر مماثل من الدهشة والسخرية لدى رؤيتي رجلاً في مثل تهذيبه الرفيع وفي مثل الزواج الذي يلاقيه في أكثر الدوائر اصطفاء يشكر بحرارة مدير مكتب وزير البريد لأنه جاء إلى منزلهم ويسأله إن كانت تستطيع السيّدة «سوان» أن **تسمح لنفسها** بالذهاب لزيارة زوجته. على أنه لا بدّ أن يلقى نفسه في غربة، إذ المجتمع بالطبع لم يعد ما كان عليه. بيد أني لا أعتقد مع ذلك أن يكون «سوان» تعيساً. صحيح أنه حدث في السنوات التي سبقت الزواج مناوراتُ ابتزاز دنيئة بعض الشيء تمت على يد المرأة، فقد كانت تحرم «سوان» ابنته في كل مرّة يرفض لها أمراً. وكان «سوان» المسكين، وهو ساذج بقدر ما هو رفيع التهذيب، كان يظنّ كلّ مرّة أن اختطاف ابنته مصادفة ويرفض رؤية الحقيقة. وكانت تفتعل له فضلاً عن ذلك مشاجرات متواصلة إلى حدّ الظنّ بأنها يوم تبلغ مآربها وتصبح زوجته لن يقف شيء في دربها وأن حياتها ستكون جحيماً. ولكن ما حصل كان العكس. إنهم كثيراً ما يسخرون من الطريقة التي يتحدّث بها «سوان» عن زوجته، بل ويقهقهون بأعلى أصواتهم. وما كانوا يطلبون بالتأكيد، وقد وَعى في كثير أو قليل (تعرفون كلمة «موليير» *urbi et orbi*)، أن يعلن الأمر على الملأ. وليس يحول ذلك دون أن يجدوه مغالياً حينما يقول بأن امرأته زوجة ممتازة. وليس ذلك في مثل ما يظنون من زور. فعلى طريقتها التي تغاير تلك التي قد يفضلها جميع الأزواج - إلا أنه من الصعب فيما يبدو لي أن لا يعلم «سوان» خفايا الأمور هو الذي كان يعرفها منذ فترة طويلة وليس بالسيّد الغبيّ - يبدو بما لا يقبل الجدال أنها تكنّ له المودّة. ولست أقول إنها غير متقلبة، و«سوان» نفسه لا يحجم عن مثل ذلك السلوك إنْ صدّقنا الألسنة الخيّرة التي ترمح على هواها كما يسعكم الظنّ. ولكنها مقرّة بفضله لما فعل من أجلها ويبدو أنها أضحت في عذوبة الملائكة بعكس المخاوف التي ساورت الجميع».

ولعلّ ذلك التبدلّ لم يكن خارقاً بمقدار ما كان يرى السيّد «دو

نوربوا». ذلك أن «أوديت» ما اعتقدت أنّ «سوان» سوف يتزوّجها في النهاية. وفي كل مرّة كانت تنقل إليه على نحو مغرض أن رجلاً محترماً أقدم على الزواج من عشيقته كانت تراه يلوذ بصمت القبور، وأكثر ما يفعل، إن هي وجهت إليه نداء مباشراً تسأله: «قل، ألست ترى أن ذلك حسن جدّاً»، أن يجيبها ببرود: «ولكني لا أقول إن ذلك سيئ، فكلّ يفعل ما يحلو له». ولم يعد هنالك ما يمنعها من الاعتقاد بأنه ربما هجرها تماماً مثلما كان يصرّح لها في لحظات من الغضب، لأنها سمعت منذ قليل امرأة نحاتة تقول: «بوسعنا أن نتوقع كل شيء من الرجال فإنهم في منتهى الفظاظة»، وقد وضعت يدها على تلك الحكمة المتشائمة التي أذهلها عمق معانيها فكانت تردّدها كيفما تيسر بهيئة من خارت عزائمه وكأنما يقول: «ليس هنالك مستحيل، وإنه نصيبي على كلّ حال». وفقدت الحكمة المتفائلة التي قادت حتى ذاك خطى «أوديت»، فقدت تبعاً لذلك كلّ مزية فيها: «يمكن أن تفعلي كلّ شيء بالرجال الذين يحبونك فإنهم على قدر كبير من الغباء»، وكانت ترتسم على وجهها غمزة العين نفسها التي يمكن أن ترافق كلمات من مثل: «لا بأس عليك، فلن يحطِّم شيئاً». كانت «أوديت» تتألم في أثناء ذلك مما يمكن أن تفكر به حول سلوك «سوان» واحدة من صديقاتها تزوّجها رجل مكثت معه أقل مما تيسر لها مع «سوان» وليس لها ولد، هي وقد أضحت تنال الآن بعض التقدير وتتم دعوتها إلى حفلات الإليزيه» الراقصة. ولعلَّ مستشاراً أكثر عمقاً من السيّد «دو نوربوا» كان يستطيع أن يستشف أن ما أغاظ «أوديت» إنما هو ذلك الشعور بالإذلال والخزي وأن ما كانت تبدي من طباع جهنمية لم يكن من جوهر طبيعتها ولم يكن داء بدون دواء، لعله كان تنبأ بسهولة بما حصل، يعني أن نظاماً جديداً، أنّ نظام الزواج سوف يوقف بسرعة تقارب السحر هذه العوارض، وهي مؤلمة يومية ولكنّها غير عضوية. وقد دهش الجميع تقريباً من هذا الزواج، وإنما الدهشة نفسها مدهشة. فليس من شكّ أن القليل من الناس يدركون الميزة الذاتية المحضة للظاهرة المسماة بالحبّ وما يمثله من

ابتداع شخصية إضافية متميزة عن الشخصيّة التي تحمل الاسم نفسه في المجتمع والتي أُخِذَتْ غالبيّة عناصرها من ذواتنا. ولذلك كان ثمة القليل من الناس الذين يمكنهم أن يجدوا الحجم الهائل الذي يتخذه بالنسبة إلينا في النهاية إنسان ليس هو الإنسان نفسه الذي يرونه، أن يجدوا هذا الحجم طبيعيّاً. إلا أنه يبدو، في ما يخص «أوديت»، أنه كان من الممكن تبيّن أنها إن لم تفهم في يوم بالتأكيد ذهنيّة «سوان» تمام الفهم فقد كانت على الأقلّ تعرف عناوين أعماله وتفاصيلها إلى حدّ أن اسم «فيرمير» كان مألوفاً لديها كاسم خيّاطها. كانت تعرف عن «سوان» تلك الميزات التي يجهلها باقي الناس والتي لا تحمل إلّا عشيقة أو شقيقة صورة عنها محبوبة تطابق الأصل. وإنّنا لنتعلق بها، وحتى بتلك التي نودّ أكثر ما نودّ إصلاحها، إلى حدّ أنّ العلاقات القديمة تحتفظ بشيء من عذوبة مودّة الأهل ومتانتها لأنّ امرأة تألفها في النهاية ألفة المتسامح والساخر الودود، ألفة تشبه تلك التي لدينا ولدى ذوينا عنها. إن الروابط التي تشدنا إلى كائن ما إنّما تتقدس حينما يقف في الزاوية نفسها التي نقف فيها لنحكم على أحد عيوبنا. وكان من تلك السمات الخاصّة كذلك ما ينتمي إلى ذكاء «سوان» وطباعه سواء بسواء، ولكن «أوديت» استطاعت بسهولة أكبر تمييزها بسبب جذورها التي تمتد مع ذلك في طباعه. وكانت تشتكي من أنّهم لا يتعرّفون تلك السمات، حينما كان يمتهن الكتابة، حينما كان ينشر دراسات، بمقدار ما يفعلون في رسائله أو حديثه حيث تكثر. وكانت تنصحه أن يفسح لها أوسع مجال. ولعلّها كانت تريد ذلك لأنها كانت تلك التي تفضلّها لديه، بيد أنّها لما كانت تفضلها لأنها كانت أكثر التصاقاً به، فربما لما تكن على غير حق في ما تتمنّى من أن يلقاها الناس في ما يكتب. وربّما ظنت كذلك أن مؤلفات أوفر حيويّة سوف تمكّنها هي، فيما تحمل له، هو، النجاح، أن تصنع لنفسها ما تعلّمت في منزل أسرة «الفيردوران» أن تضعه فوق كلّ شيء، عنينا منتدىً.

ومن بين الناس الذين كانوا يجدون هذا الصنف من الزواج مضحكاً،

من قوم يتساءلون في ما يخصّهم: «ما عسى يفكر السيّد «دو غيرمانت» ويقول «بريوتيه» حينما أتزوّج الآنسة «دو مونمورانسي»؟»، من بين الناس الذين يحملون هذا النوع من المثل الاجتماعي الأعلى لعلّك كنت تجد «سوان» نفسه قبل عشرين عاماً، «سوان» الذي تحمّل المشقّة ليُقبَل في نادي الفروسية وحَسِبَ في ذلك الوقت أنّه سيتزوّج زواجاً مرموقاً سيجعل منه في النهاية، بعدما يثبت وضعه، أحد أكثر الرجال شهرة في باريس. بيد أن الصور التي يمثّلها مثل هذا الزواج للمعنيّ به تحتاج، شأنها شأن الصور كافّة، إلى أن تُغذّى من الخارج كي لا تضعف وتضمحلّ تماماً. إنّ أعنف ما تحلم به إذلال الرجل الذي أهانك. ولكنّك إن لم تسمع من بعد من يتحدث عنه فلن يظلّ لعدوّكَ، وقد بدّل بلده، لن يظلّ له في نظرك أيّة أهمية. ولئن توارى عن أنظارك على مدى عشرين عاماً جميع الأشخاص الذين كنت تحبّ أن تدخل نادي الفروسية أو المعهدالعلمي بسببهم فلن يغريك البتّة احتمال أن تكون عضواً في هذا التجمّع أو ذاك. أمّا العلاقة الطويلة فتُحِلُّ صوراً غير الصور القديمة بمقدار ما يفعل التقاعد أو المرض أو الارتداد الدينيّ. ولم يتخلَّ «سوان» عن المطامح الدنيويّة حينما تزوّج «أوديت»، لأنّ هذه الأخيرة كانت قد جرّدته، بمعنى اللفظة الروحيّ، من تلك الطموحات منذ زمن بعيد. ولو لم يجرّد منها على أية حال لازداد فضلاً بذلك، لأن الزيجات الشائنة بعامّة من أكثرها جميعاً أهلاً للتقدير لأنها تقتضي التضحية بمنزلة رفيعة إلى حدّ ما في سبيل حلاوة عيش خفية محضة (إذ لا يمكن أن نضع موضع الزواج الشائن زواج المال لأنّه ليس من قال على زيجة باعت فيها المرأة أو الرجل ذاتهما إلا وارتُضِيَ بها في النهاية على الأقل بداعي التقليد وتصديقاً للكثير من النماذج وكي لا يُكَالَ بمكيالين). وربما أحسّ «سوان» على كلّ حال من جهة أخرى، بروح الفنّان، إن لم يكن بروح من أُفْسِدَت نفوسهم، ربما أحسّ ببعض النشوة في أن يقترن، في واحد من تصالبات الأنواع من مثل ما يُقْدِمُ عليه أتباع «مندل» Gregor Mendel أو ما ترويه الأساطير، بفرد من جنس مختلف،

أكان «أرشيدوقة» أم من بنات الهوى، وأن يُتِمَّ زواجاً ملكّياً أو زواجاً غير متكافئ الأطراف. وما كان ثمة في العالم سوى شخص واحد يمكن أن يشغل باله في كلّ مرّة فكّر فيها بزواجه الممكن من «أوديت». عنينا دوقة «غيرمانت»، وما كان ذلك بداعي الحذلقة. وقليلاً ما كانت «أوديت» على العكس تبدي اهتماماً بهذه الأخيرة بل تقصر تفكيرها على الأشخاص الذي يقعون فوقها مباشرة بدلاً من صرفه إلى سموات بعيدة مبهمة إلى هذا الحدّ. ولكن حينما كان «سوان» يبصر «أوديت» في ساعات أحلامه وقد أصبحت زوجته فقد كان يتمثّل باستمرار اللحظة التي سيصطحبها فيها، هي وابنته على وجه الخصوص، إلى منزل أميرة «لوم» التي ما لبثت أن أضحت دوقة «غيرمانت» بوفاة والد زوجها. لم يكن يرغب أن يقدمها في مكان آخر، ولكنّه كان يفيض حناناً لدى ابتداعه كل ما قد تقوله الدوقة عنه لِ«أوديت» و«أوديت» للسيّدة «دو غيرمانت»، وهو يتلفّظ بالكلمات نفسها، ثمّ الحنان الذي ستبديه هذه الأخيرة لِ«جيلبيرت» فتدلّلها وتجعله فخوراً بابنته. كان يمثل لنفسه مشهد التعريف بهما بالدقّة نفسها في التفاصيل المتخيّلة التي تتوافر للذين ينظرون في أمر استخدام جائزة «يانصيب» يحدّدون قيمتها اعتباطاً إن هم ربحوها. وبالمقدار الذي تبرر فيه الصورة التي ترافق أحد قراراتنا ذلك القرار فإنه يمكن القول بأن «سوان» إنْ تزوّج «أوديت»، فليقدّمها هي و«جيلبيرت» لدوقة «غيرمانت» دون أن يكون ثمّة أحد وحتى دون أن يعلم أحد قطّ. وسوف نرى كيف أن هذا المطمح الدنيوي الذي تمناه لامرأته وابنته كان بالضبط ذاك الذي أصبح تحقيقه محظوراً عليه وبمعارضة مطلقة إلى حدّ أنّ «سوان» مات دون أن يفترض أنه يمكن للدوقة أن تعرفهما في يوم. وسنرى كذلك على العكس أن دوقة «غيرمانت» ارتبطت بصداقة مع «أوديت» و«جيلبيرت» بعد موت «سوان». ولعلّه كان يبدي حكمة - بمقدار ما يستطيع أن يعلق أهميّة على أمر يسير إلى هذا الحدّ - لو لم يكوّن فكرة مظلمة جدّاً عن المستقبل بهذا الشأن ولو استبقى إمكانية قيام الاجتماع المرجوّ إلى يوم لن يكون هناك

للاستمتاع به. إن عمل السببيّة الذي ينتج في النهاية جميع الآثار الممكنة على وجه التقريب، وإلى ذلك بالتالي تلك التي خلناها أقلّ نصيباً من سواها، إن ذاك العمل بطيء أحياناً وتزيد رغبتنا كذلك في إبطائه - فهي تعيقه فيما هي تسعى إلى تسريعه - وتزيد حياتنا نفسها، فلا يبلغ غايته إلا بعدما نكفّ عن الرغبة وأحياناً عن الحياة. أفما كان «سوان» يعلم ذلك بتجربته الخاصّة؟ أو ما كان زواجه بـ«أوديت» التي أحبّها بشغف - وإن لم ترقه لأوّل وهلة - والتي تزوّجها ساعة لم يعد يحبها وساعة مات في صدره ذلك الكائن الذي تمنى أكثر التمنّي ويئس أشدّ اليأس أن يقضي كامل حياته مع «أوديت»، أو ما كان زواجه مذ ذاك، في أثناء حياته، من قبيل السعادة بعد الوفاة - وكأنّما تلك صورة مسبقة عمّا كان يزمع أن يحدث بعد مماته -؟

وأخذت أتحدّث عن الكونت «دو باريس» وأسأل إن لم يكن صديق «سوان»، فقد خشيت أن يتحوّل الحديث عن هذا الأخير. وأجاب السيّد «دو نوربوا» وهو يثبت على شخصي المتواضع عينيه الزرقاوين اللذين تسبح فيهما، وكأنما في وسطها الحيوي، قدرات العمل العظيمة لديه وموهبة الاستيعاب: «أجل، بالتأكيد». وأضاف وهو يخاطب والدي ثانية «ولست أظنّ على أيّة حال أنني أتجاوز حدود الاحترام الذي أكنّه للأمير (دون أن أرتبط به، مع ذلك، بعلاقات شخصيّة يجعلها مركزي عسيرة مهما تناقصت صفته الرسمية) إن ذكرت لك هذه الواقعة المثيرة إلى حدّ ما، وقوامها أنّه تسنى للأمير منذ فترة لا تزيد عن أربع سنوات أن يلمح السيّدة «سوان» في محطّة صغيرة للسكك الحديديّة في أحد بلدان أوروبا الوسطى. ولم يسمح بالطبع أحد من المقرّبين إليه بنفسه أن يسأل سيادته كيف لقيها، فلعلّ ذلك كان من غير اللائق. ولكن حينما كان الحديث يسوق اسمها بالصدفة كان الأمير يبدو، بفضل بعض علامات خفيّة إن شئت ولكنّها لا تخطئ، كان يبدو وكأنه يريد أن يوحي بطيبة خاطر بأن انطباعه لم يكن بأيّ حال في غير صالحها».

وسأل والدي قائلاً: «ولكن أما كان ثمة وسيلة لتقديمها للكونت «دو باريس»؟

وأجاب السيّد «دو نوربوا»: «لستَ تدري؛ مع الأمراء لستَ تدري. إن أكثرهم كبراً ممن يجيدون حمل الناس على تأدية ما هو واجب لهم هم كذلك أقل من يهتمون أحياناً بأحكام الرأي العام وحتى بأكثرها صحّة لأقلّ ما يدور الأمر حول مكافأة بعض مظاهر الولاء. ومن الأكيد أن الكونت «دو باريس» قد تقبّل دوماً بكثير من العطف إخلاص «سوان»، وهو على أيّة حال رجل نابه من الطراز الأوّل».

وسألت والدتي بداعي التأدّب والفضول: «وانطباعك أنت، يا سيّدي السفير، ما عساه كان؟».

فأجاب السيّد «دو نوربوا» بحزم خبير عتيق يخالف الاعتدال المألوف في أقواله: «ممتاز تماماً!».

وإذ كان يعلم أن الإقرار بانطباع شديد تخلفه امرأة فيك إنّما يُرَدّ، بشرط أن يتمّ في قالب مرح، إلى صيغة من ظرافة الحديث محبّبة بصورة خاصّة فقد أطلق ضحكة صغيرة امتدّت على بعض لحظات ونَدِيَتْ بها عينا الدبلوماسيّ القديم الزرقاوان واهتزّت فتحتا أنفه اللتان تغطّيهما عصيبات حمراء.

- «إنها رائعة تماماً».

وسألتُ بوجل لأحاول إبقاء الحديث حول موضوع أسرة «سوان»: «هل حضر ذلك العشاء كاتب يُدْعَى «بيرغوت» يا سيدي؟».

وأجاب السيّد «دو نوربوا» وهو يحني الرأس باتّجاهي بتأدّب كما لو أنه يعلق أهمية حقيقيّة، في رغبته أن يكون لطيفاً مع والدي، على كلّ ما يخصه وحتى على أسئلة صبيّ في سنيّ لم يألف أن يبدي له أشخاص في سنّه هو هذا القدر من التهذيب: «أجل، كان «بيرغوت» حاضراً». وأضاف وهو يحدّق إليّ بتلك النظرة الصافية التي كان «بيسمارك» يُعْجَبُ بنفاذها: «وهل تعرفه؟».

وقالت أميّ: «إن ابني لا يعرفه ولكنّه معجب به أيّما إعجاب».

وقال السيّد «دو نوربوا» (الذي بعث فيّ حول ذكائي شكوكاً أدهى من تلك التي كانت تمزّقني بالعادة حينما رأيت بأن ما كنت أضعه فوق نفسي ألف مرّة، وما كنت أراه أسمى ما في العالم إنّما كان في نظره في أدنى درجات مواطن إعجابه): «لست أشاطرك نظرتك هذه إلى الأمور. إنّ «بيرغوت» هو ما أدعوه بعازف ناي؛ وينبغي الاعتراف على أيّة حال بأنّ عزفه ممتع على الرغم من الكثير من التصنّع والتكلّف. ولكنّه في النهاية لا يعدو ذلك وما هو بأمر ذي بال. فإنّك لا تجد قطّ في مؤلّفاته التي لا عصب فيما ما يمكن أن ندعوه بالعمود الفقري. فليس من وقائع - أو أقلّ القليل - وليس على وجه الخصوص من مدى. إنّ كتبه ضعيفة الأساس، بل هي تفتقر إلى الأساس كلّياً. سوف توافقني أن للمرء الحقّ، في زمان مثل زماننا يكاد تعقيد الحياة المتزايد لا يدع فيه وقتاً للقراءة، وقد طرأت فيه على خريطة أوروبا تعديلات جذرية وربّما كانت على وشك أن تطرأ عليها تعديلات أضخم، وفيما العديد من المشكلات الخطيرة والجديدة يبرز في كل مكان، أن يُطَالِبَ الكاتبَ بأن يكون أكثر من هاوي أدب ينسينا في غمرة نقاشات بيزنطيّة لا طائل تحتها حول ميزات شكلية بحتة أنه يمكن أن تجتاحنا بين لحظة وأخرى موجة مزدوجة من البرابرة، الذين يجيئون من الخارج وأولئك الذين في الداخل. إني أعلم أن ذلك تجديف على المدرسة المقدّسة التي يدعوها هؤلاء السادة مدرسة الفنّ للفنّ، بيد أن ثمة في عصرنا مهمّات أشدّ إلحاحاً من ترتيب مفردات ترتيباً متناسقاً. إن طريقة «بيرغوت» تفتنك إلى حدّ ما أحياناً، ولست أعارض القول، إلّا أن كل ذلك في مجموعه متكلّف جدّاً هزيل جدّاً قليل الرجولة إلى حدّ بعيد. وإني أدرك الآن أفضل من ذي قبل، إذ أعود بالذاكرة إلى إعجابك المبالغ فيه كثيراً بـ«بيرغوت»، السطور القليلة التي أريتني إيّاها منذ قليل والتي لعلّني أعدم الذوق إن لم أقصها عن ذاكرتي بما أنّك قلت بنفسك ببساطة كليّة إنّها محض «خربشة» أطفال

(وقد سبق أن قلته غير أني لم أكن أؤمن بأيّة كلمة وردت فيه). إن لكلّ ذنب مغفرة، ولا سيّما ذنوب الشباب. وكثيرون سواك على أية حال يثقلون ضمائرهم بمثلها ولست الوحيد الذي ظنّ نفسه شاعراً ساعة التجلي. إلا أنه يبرز في ما أريتني تأثير «بيرغوت» المشؤوم. ولن أبعث فيك الدهشة بالطبع إن قلت لك إنّه خلا من أية ميزة من ميزاته بما أنّه يعتبر معلّماً في فنّ أسلوب معيّن لا يمكن أن تمتلك في سنّك حتى مبادئه، وهو أسلوب سطحيّ في جميع الأحوال. ولكنّه العيب نفسه منذ الآن، وأعني مخالفة المعقول تلك التي قوامها رصف مفردات رنانة دونما اهتمام بالمضمون إلا فيما بعد. وإنما ذلك وضع المحراث أمام الفدّان. إن جميع هذه التعقيدات السخيفة في الشكل وسائر حذاقات الإكليريكيّ المتميّع إنّما تبدو لي حتى في كتب «بيرغوت» شديدة العقم. وسرعان ما ينادي الناس بالرائعة إزاء بعض الأسهم الناريّة التي يطلقها كاتب على نحو ممتع. وليست الروائع كثيرة إلى هذا الحدّ! وليس يشفع لِـ«بيرغوت»، ليس في متاعه، إن جاز القول، رواية حلّق فيها بعض التحليق، واحد من تلك الكتب التي تضعها في أحسن زاوية من مكتبتك. لست أرى كتاباً واحداً في كلّ أعماله. ولا يحول ذلك لديه دون أن تكون المؤلّفات أفضل من المؤلّف بكثير. آه! إليك واحداً يعطي الحقّ لرجل الفكر الذي كان يزعم أنّه يجدر بنا ألا نعرف الكتّاب إلّا بوساطة كتبهم. إنّه يستحيل عليك رؤية رجل يوافق كتبه أقلّ منه وأكثر ادّعاءً وأوفر أبهةً وأقلّ إيناساً. وهو تافه أطواراً، وأطواراً يحدّثك وكأنّه كتاب، لا ككتاب من كتبه بل ككتاب مملّ، وهو ما ليست عليه كتبه على الأقلّ، ذلكم هو «بيرغوت». إنّه فكر من أكثرها إبهاماً وتعقيداً، إنه ما كان آباؤنا يسمّونه بمحترفي الجعجعة والذي يجعل الأمور التي يأتي بها أكثر إزعاجاً من جراء الطريقة التي يبسطها بها. ولست أدري إن كان «لوميني» (Loménie) أو «سانت بوف» (Sainte - Beuve) من يروي أنّ «فيني» (Vigny) كان ينفّرك من جرّاء العيب نفسه. على أنّ «بيرغوت» لم يكتب في يوم

«**الخامس من آذار**» ولا «**الخاتم الأحمر**»[1] حيث بعض الصفحات من مختارات الشعر الحقيقيّة».

وشعرت مرّة أخرى، ولقد صُعقت لما قاله السيّد «دو نوربوا» منذ قليل عن القطعة التي عرضتها عليه، وأنا أفكّر من جهة أخرى بالصعوبات التي كانت تعترضني عندما أبغي كتابة مقالة أو الانصراف فحسب إلى صنوف من الأفكار الجديّة، شعرت بضحالتي الفكريّة وبأنّني لم أولد للأدب. صحيح أن بعض الانطباعات المتواضعة جدّاً، أو أنّ قراءة في كتب «بيرغوت» جعلتني بالأمس في «كومبريه» في حالة من الأحلام بدت لي ذات قيمة عظيمة، بيد أن تلك الحالة إنّما كانت تعكسها قصيدتي المنثورة، وليس من شكّ أن يكون السيّد «دو نوربوا» قد أدرك وكشف في الحال ما كنت أراه جميلاً فيها من جرّاء محض سراب خدّاع بما أن السفير لم يقع ضحية له. لقد أطلعني بالعكس على المكان الضئيل الذي كنت أشغله (حينما يُحكَمُ عليّ من الخارج حكماً موضوعيّاً بلسان أكثر الخبراء استعداداً وأوفرهم ذكاء). كنت أحسّني مذهولاً مقلّصاً، وكان عقلي، شأن سائل لا أبعاد له غير أبعاد الإناء الذي يوفّر له، ينحصر كله، وقد تقلّص الآن، في الحيّز الضحل الذي سجنه فيه السيّد «دو نوربوا» وحدّ من حجمه، مثلما سبق له أن تمدّد بالأمس ليملأ اتساع العبقرية المترامية.

وأضاف وهو يلتفت إلى والدي: «إن مواجهتنا، أنا و«بيرغوت»، لم تخلُ من شائك الأمور فحسب (وتلك على أية حال طريقة أخرى في اكتساب الإثارة). لقد قام «بيرغوت» منذ بضع سنوات خلت برحلة إلى «فيينّا» يوم كنت سفيراً فيها. وقامت بتقديمه لي الأميرة «دو ميتيرنيخ» وجاء فسجّل نفسه وأبدى رغبته أن تُوَجّه الدعوة إليه. وبما أنني كنت في البلاد الأجنبيّة ممثلاً لفرنسh التي يوليها، باختصار القول، شرفاً بكتاباته إلى

(١) *Le Cachet Rougē Cinq - Mars* روايتان للكاتب الشاعر «ألفريد دوفيني».

حدّ ما، ولنقل، ابتغاءً للدقّة، إلى حدّ هيّن جدّاً، فلعلّني كنت أتجاوز ظنوني السوداء بشأن حياته الخاصّة. ولكنّه لم يكن يسافر وحده ويطلب إلى ذلك ألا يُدعى بمعزل عن رفيقته. لست أظن أنّني أشدّ تزمّتاً من آخر غيري وربّما استطعت، بوصفي عازباً، فتح أبواب السفارة أكثر ممّا لو كنت متزوجاً وربّ عائلة على أني أقرّ أن ثمة درجة من الخزي لا يسعني القبول بها، تزيد من القرف الذي تثيره اللهجةُ التي تجاوزت حدّ الأخلاقية، ولنقل الكلمة الفصل، اللهجة الواعظة التي يتّخذها «بيرغوت» في كتبه حيث لا تبصر سوى تحليلات مستمرّة، وطويلة بعض الشيء بالحقيقة، لوساوس أليمة وتبكيت مرضي للضمائر ومواعظ حقيقيّة (معروفة أثمانها) لهفوات بسيطة في حين يُبدي هذا القدر من اللامبالاة والوقاحة في حياته الخاصّة. وقد تجنبت الإجابة، باختصار القول، وعاودت الأميرة الكرّة ولكن دون أن تفلح أكثر من ذي قبل، ممّا يحملني على افتراض أني لا بدَّ غير محمود السيرة لدى ذلك الشخص ولست أعلم إلى أيّ مدى قدّر لطف «سوان» في دعوته وإيّاي في الآن نفسه، إن لم يكن هو من طلب ذلك، ولا يمكن معرفة الأمر فهو مريض في الأساس. وإنّما ذلك عذره الوحيد».

وسألت السيّد «دو نوربوا»، وقد استغللت لطرح هذا السؤال لحظة كنت أستطيع فيها، ونحن ننتقل إلى الصالة، إخفاء انفعالي على نحو أيسر ممّا كنت أفعل على المائدة وأنا لا حراك بي وتغمرني الأضواء: «هل كانت ابنة السيّدة «سوان» حاضرة في ذلك العشاء؟».

وبدا السيّد «دو نوربوا» وكأنه يحاول لحظة أن يتذكر.

- «أجل، شابة صغيرة ما بين أربعة عشر إلى خمسة عشر عاماً. أذكر بالحقيقة أنها قُدّمت لي قبل العشاء على أنها ابنة مضيفنا. سأقول لك إني رأيتها لفترة وجيزة، فقد بادرت إلى النوم في ساعة مبكرة، أو هي ذهبت لدى صديقات لها، لست أذكر تماماً. ولكني أرى أنك على تمام الاطلاع بشؤون بيت «سوان».

- «إنّي ألعب مع الآنسة «سوان» في حديقة «الشانزيليزيه»، وهي رائعة».

- «آه! ها إني أفهم! ولكنّها بدت لي أنا الآخر فاتنة. على أني أعترف لك أنني لا أظنها ستضاهي والدتها في يوم، إن وسعني أن أقول ذلك دون أن أجرح لديك عاطفة قوية».

- «إنّي أفضّل وجه الآنسة «سوان»، ولكنّني معجب جدّاً إلى ذلك بوالدتها، وأذهب للتنزّه في الغابة وبي أمل أن أراها تمرّ من هناك فحسب».

- «آه! سأقول لهما ذلك فلسوف يروقهما الأمر جدّاً».

كان السيّد «دو نوربوا»، وهو يجود بتلك الكلمات، كان لا يزال لبضع ثوانٍ في وضع جميع الناس الذين يظنّون، وهم يسمعونني أتحدّث عن «سوان» بوصفه رجلاً ذكياً، وعن ذويه بوصفهم صرّافين شرفاء، وعن بيته بوصفه بيتاً جميلاً، أنّني سأتحدّث كذلك راضياً عن رجل آخر في مثل ذكائه، وعن صرّافين آخرين في مثل شرفهم، وعن بيت آخر في مثل جماله؛ إنّها اللحظة التي لم يتبيّن بعد فيها رجل سليم العقل يتحدّث إلى مجنون أنّه مجنون. كان السيّد «دو نوربوا» يعلم أن ليس في متعة النظر إلى النسوة الجميلات أمر يخالف الطبيعة وأنّه من اللياقة، إمّا حدّثنا أحدهم بحرارة عن إحداهنّ، أن نتظاهر بالاعتقاد بأنّه مولع بها وأن نمازحه بذلك ونعده بمساعدة مقاصده. ولكن ذلك الرجل الخطير إذ قال إنّه سيتحدّث عنّي إلى «جيلبيرت» ووالدتها (الأمر الذي سيمكّنني، شأن إله في جبل «الأولمبوس» اتّخذ سيولة الأنسام أو بالأحرى مظهر الشيخ الذي اتّخذت «مينيرفا» ملامحه، أن أدخل بنفسي خفيّاً إلى صالة السيّدة «سوان» وأن أسترعي انتباهها وأشغل فكرها وأستثير شكرها لإعجابي بها، وأن أظهر أمامها بمثابة صديق لرجل ذي شأن، وأن أبدو لها في المستقبل جديراً بدعوتها والدخول في خصوصيّات أسرتها)، ذلك الرجل العظيم الشأن الذي يزمع أن يستخدم لصالحي المهابة العظيمة التي يتمتع بها في نظر

السيّدة «سوان» بعث فيّ فجأة حناناً عظيماً إلى حدّ أني لقيت مشقّة في حجب نفسي عن تقبيل يديه الناعمتين البيضاوين المتغضّنتين اللتين تبدوان وكأنهما ظلّتا لفترة طويلة في الماء. وهممت بالحركة تقريباً وظننتني وحيداً في ملاحظتها. ذلك أنّه من العسير على كلّ منّا أن يحْسبَ بالضبط إلى أيّ مدى تظهر أقواله أو حركاته للغير؛ فإنّنا نتخيّل، مخافة أن نغالي في عظمة شأننا وإذ نضخّم إلى حدود بالغة الرقعة التي يجب أن تمتدّ فوقها ذكريات الآخرين في بحر حياتهم، إنّ الأجزاء الثانوية في مقالتنا ومواقفنا تكاد لا تداخل وعي الذين نحدّثهم وهي من باب أولى لا تعلق في ذاكرتهم. وإنما ينساق المجرمون لافتراض من هذا النبيل حينما يُدخلون بعد الأوان لمسات على قول قالوه ويحسبون أنّه لا يمكن مقارنة هذه الصيغة البديلة بأية رواية أخرى. بيد أنّه من الممكن تماماً، حتى في ما يخصّ حياة الإنسانية السحيقة، أن تكون فلسفة كاتب المسلسلات التي قوامها أنّ كل شيء آيل إلى النسيان أقلّ حقيقة من فلسفة مضادّة تتنبّأ ببقاء جميع الأشياء. وفي الصحيفة نفسها التي يقول لنا فيها الكاتب الأخلاقي في «باريس الأولى» عن حدث أو رائعة ومن باب أولى عن مغنّية عرفت فترة من الشهرة: «من سيتذكّر ذلك بعد انقضاء عشر سنوات؟» ألا يتحدّث بيان أكاديمية النقوش في الصفحة الثالثة عن واقعة أقلّ إثارة في حدّ ذاتها، وعن قصيدة زهيدة القيمة يعود تاريخها إلى عصر الفراعنة ولا تزال معروفة بكاملها؟ وربّما لم يكن الأمر كذلك تماماً بالنسبة إلى الحياة الإنسانية القصيرة. بيد أنني بعد بضع سنوات، وفي بيت بدا لي فيه السيّد «دو نوربوا»، وكان في زيارة هناك، أقوى سند يمكن لي أن أصادفه لأنه كان صديق والدي ومتسامحاً وميّالاً إلى تمنّي الخير لنا جميعنا، وقد تعوّد فوق ذلك التكتم من جرّاء مهنته وعراقة أصله، بيد أنّني، حينما نقلوا إليّ بعد ذهاب السفير أنّه أشار من طرف خفيّ إلى أمسية غابرة رأى في أثنائها «اللحظة التي أوشكت فيها أن أقبّل يديه»، لم أحمرّ خجلاً حتى أطراف أذنيّ فحسب بل ذهلت إذ علمت إلى أي حدّ كانت تختلف عمّا لعلّني كنت

أعتقد لا الطريقة التي كان يتحدّث بها السيّد «دو نوربوا» عني فحسب، بل كذلك تركيبة ذكرياته. ولقد كشفت لي تلك الثرثرة عن النسب غير المتوقّعة التي تؤلّف الفكر الإنساني من سهو وحضور بديهة. من تذكّر ونسيان. لقد دهشت دهشة في مثل روعة ما أصابني يوم قرأت لأوّل مرّة في كتاب لِ«ماسبيرو» أنّهم يعرفون بالدقّة لائحة الصيّادين الذين كان يدعوهم «أشور بانيبال» إلى حفلات صيده منذ عشرة قرون سبقت المسيح.

وقلت للسيّد «دو نوربوا» حينما أعلن أنّه سينقل إلى «جيلبيرت» وأمّها إعجابي بهما: «آه! يا سيّدي، إن فعلتَ ذلك، إن تحدّثت عنّي للسيّدة «سوان» فلن يكفيني العمر كلّه كي أعرب لك عن امتناني ولسوف تكون حياتي ملك يديك! إلا أنّه لا بدّ لي من الإشارة إلى أنّني لا أعرف السيّدة «سوان» وأنّني لم أُقَدَّم لها في يوم».

لقد أضفت هذه الكلمات الأخيرة بداعي نزاهة الضمير وكي لا أبدو وكأنني فاخرت بعلاقة لم أحصل عليها. إلا أنني شعرت وأنا أنطق بها أنها أصبحت مذ ذاك غير مجدية لأنني رأيت، منذ أن بدأت أشكره بحرارة باردة، ملامح التردد والاستياء تمر على وجه السفير وفي عينيه تلك النظرة العمودية الضيقة المائلة، (مثلما في الرسم المنظوري لجسمٍ صلبٍ الخطُّ المتهرّب لأحد سطوحه)، تلك النظرة الموجهة للمحدث الخفي المختبئ في صدورنا ساعة نقول له أمراً ينبغي ألا يسمعه محدثنا الآخر، السيد الذي كنا نحدثه حتى ذاك - يعني أنا بالمناسبة. وتبينت في الحال أن تلك الجمل والتي بدا لي، وهي التي نطقت بها وهي لا تزال ضعيفة في مقابل دفقات عرفان الجميل التي انتابتني، أنها لا بد ستؤثر في السيّد «دو نوربوا» وتحمله في النهاية على التدخل بما يكلفه القليل من المشقة ويوليني الكثير من السرور، تبينت أنها ربما كانت (من بين سائر الجمل التي يمكن أن يبحث عنها بأسلوب شيطاني أناس يريدون بي شراً) الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى حمله على الإقلاع عن التدخل. فكمثل اللحظة التي يبدي لنا فيها فجأة مجهول تبادلنا معه بسرور بعض الانطباعات، التي

ربما ظنناها متشابهة، حول مارّين اتفقنا أنهم تافهون، الهوة المرضية التي تفصله عنا، إذ يضيف بلهجة لا مبالية وهو يتلمس جيبه: «من الأسف أنني لا أحمل مسدسي، إذن لما بقي واحد منهم»، حسب السيّد «دو نوربوا» لدى سماعها، وهو من كان يعلم أن ليس من أمر أقل ثمناً وأكثر سهولة من أن يوصى بأمرئ لدى السيّدة «سوان» ويُدْخَلَ إلى بيتها، ومن رأى أن الأمر كان في نظري بالعكس عظيم الثمن وبالتالي بالغ الصعوبة ولا شك، حسب أن الرغبة التي سبق أن عبّرت عنها؛ وهي طبيعية في ظاهرها، لا بدّ تخفي فكرة مخالفة ومقصداً مشبوهاً وذنباً سابقاً لم يشأ أحد بسببه، وهو على يقين من تكدير السيدة «سوان»، أن يأخذ على عاتقه تبليغها رسالة عن لساني. وأدركت أنه لن ينقل تلك الرسالة في يوم، وأنه قد يستطيع مشاهدة السيّدة «سوان» يومياً وعلى مدى سنوات دون أن يحدثها لذلك مرة واحدة عني. بيد أنه سألها بعد بضعة أيام عن معلومات كنت أرغب فيها وكلف والدي أن ينقلها إليّ، ولكنّه ما ظن من واجبه الإفصاح عمن كان يطلبها من أجله. فلن تعلم إذن أنني أعرف السيّد «دو نوربوا» وأني أتمنى الذهاب إلى منزلها أكثر ما يكون التمني. وربما كانت تلك مصيبة أقلّ حجماً مما كنت أعتقد. فلعلّ ثاني ذينك الخبرين ما كان ليضيف على الأرجح الكثير إلى فعّالية الأوّل، والفعالية إلى ذلك غير أكيدة؛ ذلك أن فكرة حياة «أوديت» الخاصّة ومنزلها الخاصّ إذ لا تثير لديها أيّ اضطراب خفيّ، فإن امرأً يعرفها ويتردّد إلى منزلها ما كان ليبدو في نظرها كائناً خرافيّاً مثلما كان يبدو لي أنا الذي ربّما قذف حجراً على نوافذ عائلة «سوان» لو تسنى لي أن أطلعه على أنّني أعرف السيّد «دو نوربوا»: فقد كنت متيقّناً أن مثل تلك الرسالة، وإن نقلت بأسلوب فظّ إلى هذا الحدّ، سوف تضفي عليّ مهابة في عيني سيّدة المنزل أكثر مما توغر صدرها عليّ. ولكنّني، حتى لو استطعت أن أتبيّن بأن المهمّة التي لم ينفّذها السيّد «دو نوربوا» إنّما كانت ستظل فاقدة الجدوى بل هي قادرة فوق ذلك أن تلحق بي الأذى لدى عائلة «سوان»، وما كنت لأجرؤ على إعفاء السفير من أدائها، لو بدا أنّه

موافق عليها، وعلى التخلي عن ملذة وجود اسمي وشخصي لفترة بالقرب من «جيلبيرت» وفي منزلها وحياتها المجهولين لديّ، مهما جاءت نتائج فعلتي مشؤومة.

وبعدما ذهب السيّد «دو نوربوا» ألقى والدي نظرة على الصحيفة المسائية؛ وأخذت أفكّر من جديد في «لا بيرما». ذلك أنّ المتعة التي أصبتها من جرّاء الاستماع إليها كان يزيد من ضرورة استكمالها بعدها عن أن تساوي تلك التي منّيت النفس بها، فكانت لذلك تتمثل في الحال كلّ ما من شأنه أن يغذّيها كتلك الميزات مثلاً التي أقّر بها السيّد «دو نوربوا» لِـ«لا بيرما» والتي شربها فكري دفعة واحدة مثل مرج شديد الجفاف تصب عليه ماءً. وإذ ذاك مدّ لي والدي الصحيفة وهو يشير إلى مقال صغير حُرر على النحو التالي: «لقد كان عرض مسرحية «فيدر» الذي تمّ أمام قاعة متحمسة لوحظ فيها كبار الوجوه في عالمي الفنون والنقد، كان بالنسبة إلى السيّدة «لا بيرما» التي مثّلت دور «فيدر» فرصة لنجاح باهر نَدُرَ أن عرفت أروع منه طوال حياتها الفنية اللامعة. وسوف نعيد الكرّة ونطيل حول هذا العرض الذي يؤلّف حدثاً مسرحياً حقيقياً. ويكفي أن نقول إن أفضل الحكّام الثقاة كانوا على اتّفاق للتصريح أن مثل ذلك التمثيل إنّما يُلْبس حلّة جديدة لدور «فيدر»، وهو من أجمل ما كتب «راسين» ومن أعمقه دراسة، ويشكل أصفى وأرفع تظاهرة للفن تسنّى للناس أن يشاهدوها في عصرنا». وما إن داخلتني صورة تلك الفكرة الجديدة القائلة «بأصفى وأرفع تظاهرة للفن» حتى اقتربت هذه الفكرة من المتعة غير الكاملة التي أحسست بها في المسرح فأضافت إليها قليلاً مما كانت تفتقر إليه وألّف اقترانهما شيئاً مثيراً جدّاً إلى حدّ أنّني صرخت قائلاً: «ما أعظمها فنّانة!» ويمكن دون شك الجزم بأني لم أكن صريحاً مطلق الصراحة. ولكن دعونا نفكر بالأحرى في العديد من الكُتّاب الذين نراهم يستاؤون من المقطوعة التي فرغوا من كتابتها، فإن هم قرؤوا تقريظاً لعبقرية «شاتوبريان» أو استذكروا فنّاناً كبيراً تمنّوا أن يكونوا مساوين له، كأن «يدندنون» في داخلهم على

سبيل المثال جملة لِ«بيتهوفن» يقارنون بين كآبتها وبين تلك التي يضيفونها نوعاً ما إلى نتاجهم الخاصّ وهم يعودون إلى التفكير فيه فلا يرونه من بعد على نحو ما بدا لهم أوّل الأمر. ويقولون وهم يجازفون بفعل إيمان بقيمة أعمالهم الفنيّة: «لا بأس على أيّة حال!» دون أن يتبيّنوا أنّهم إنّما يقحمون في المجموع الذي يحدّد ارتياحهم الأخير ذكرى صفحات رائعة لِ«شاتوبريان» يمثّلونها بصفحات لهم ولكنّهم لم يكتبوها في نهاية المطاف. ولنذكر العديد من الرجال الذين يؤمنون بحبّ عشيقة لم يعهدوا منها سوى خياناتها، وكذلك جميع الناس يضعون أملهم بالتناوب إمّا في استمرار للحياة لامدرَكٍ حالما يفكرون، أزواجاً فقدوا العزاء، بامرأة فقدوها وما زالوا على حبّها، وفنّانين، بالمجد الآتي الذي يمكن أن ينعموا به، وإمّا في عدم مُطَمئِنٍ حينما يرجع فكرهم بالعكس إلى الذنوب التي ينبغي لهم بدونه أن يكفِّروا عنها بعد مماتهم. ولنستذكر أيضاً السيّاح الذين يهزّهم جمال رحلة في مجملها لم يشعروا يوماً على يوم بغير الملل فيها، ولنقل إن كان في الحياة المشتركة التي تعيشها الأفكار داخل فكرنا فكرة واحدة من بين تلك التي تولينا أكبر قسط من السعادة لم تتوجّه بادئ الأمر كطفيلي حقيقي إلى فكرة غريبة ومجاورة تطلب منها أفضل ما كانت تفتقر إليه من قوّة.

ولم تبدُ والدتي راضية عنإقلاع والدي عن التفكير «بالسلك» في ما يخصّني. وأظن أن ما كانت تأسف له، وهمّها قبل كل شيء أن تنظّم قاعدةٌ حياتية نزوات أعصابي، إنما كان انصرافي إلى الأدب أكثر من أنّي تخلّيت عن الديبلوماسية. وصاح والدي قائلاً: «دعيك من هذا، فلا بد قبل كل شيء من أن يستمتع المرء بما يفعل. وترين أنّه لم يعد طفلاً. فهو يعلم الآن أتمّ العلم ما يحبّ ومن غير المرجّح أنّ يتغيّر، وإنّه قادر أن يتبيّن ما يجعله سعيداً في الحياة». وبانتظار أن أصبح سعيداً أو غير سعيد في الحياة بفضل الحريّة التي تهبني إياها أقوال والدي. فقد حملت تلك الأقوال إليّ في ذلك المساء قسطاً وافراً من الغمّ. نقد بعثت فيّ على

الدوام البوادر اللطيفة واللامتوقّعة لديه شوقاً بالغاً، إمّا حدثت، إلى تقبيل وجنتيه الريانتين فوق لحيته إلى حدّ أنني إن لم أَنْسَقْ وراءه فمخافة أن يستاء منّي فحسب. أمّا اليوم، فمثلما يجزم مؤلّف إذ يرى أحلامه الخاصّة التي لا ترتدي قيمة كبيرة في نظره لأنّه لا يفصلها عن ذاته تضطّر ناشراً أن يختار ورقاً ويستخدم حروفاً ربّما كانت تفيض جمالاً عنها، كنت أتساءل إن كانت رغبتي في الكتابة أمراً مهماً إلى الحدّ الذي ينفق معه والدي هذا القدر من اللطف من جرّاء ذلك. على أنّه كان يدسّ في نفسي على وجه الخصوص ارتيابين يؤلمانني أشدّ الألم، إذ يروي عن ميولي التي لن تتغيّر من بعد وعمّا كان من شأنه أن يجعل حياتي سعيدة. أمّا الأول فإن حياتي قد بدأت (في حين كنت أحسبني كلّ يوم على عتبة حياتي التي لم تُمَسَّ بعد والتي لن تبدأ إلا في صبيحة الغد)، بل وأكثر من ذلك أن الفترة اللاحقة فيها لن تكون كثيرة الاختلاف عمّا سبقها. وأمّا الارتياب الثاني الذي لم يكن والحق يُقال سوى صيغة أخرى للأوّل فإني لم أكن قائماً خارج الزمان بل خاضعاً لقوانينه تماماً كمثل شخوص الروايات الذين كانوا يبعثون فيّ، من جرّاء ذلك، حزناً مماثلاً حينما كنت أقرأ سِيَرَهم في «كومبريه» وأنا قابع في زاوية مظلّة الخيزران، إنّنا نعلم نظرياً أن الأرض تدور ولكنّنا لا نتبيّن الأمر في الواقع فالأرض التي نسير عليها تبدو وكأنّها لا تتحرّك فنعيش مطمئنّي البال. ذلك هو شأن الزمان في الحياة ويضطرّ الروائيون، كيما يجعلوا هروبه محسوساً، أن يحملوا القارئ على اجتياز عشرة، بل عشرين، بل ثلاثين عاماً بدقيقتين وذلك بتسريع اختلاجات الإبرة على نحو جنوني. ففي أعلى إحدى الصفحات تفارق عاشقاً يعمر الأمل قلبه، وفي أسفل الصفحة التالية تلقاه في الثمانين يقوم بنزهته اليومية في باحة أحد المآوي بمشقّة بالغة، يكاد لا يجيب على الكلام الموجّه إليه وقد نسي الماضي. لقد قام والدي فجأة بإظهاري لذاتي في الزمان حينما قال عني: «لم يعد طفلاً ولن تتغيّر ميوله من بعد، إلخ»، وقد بعث في نفسي نوع الكآبة عينه كما لو كنت، لا ساكن المأوى الخائر القوى، بل

أولئك الأبطال الذين يقول لنا عنهم المؤلف في ختام كتابه بلهجة لا مبالية تتّسم بالقسوة: «أصبح لا يفارق الريف إلا في القليل القليل وقد أقام فيه آخر الأمر بصورة نهائيّة، إلخ.».

بيد أن والدي قال لوالدتي، بغية استباق النقد الذي يمكن أن نوجّهه لضيفنا:

– «إني أعترف أن العم «نوربوا» كان «تقليديّاً» بعض الشيء حسبما تقولين. فقد خشيت، حينما قال إنّه ربما كان «من غير اللائق» طرح سؤال على الكونت «دو باريس»؛ أن تأخذوا في الضحك».

وأجابت والدتي: «لا، على الإطلاق، فإني أحبّ كثيراً أنْ احتْفَظَ رجل بهذا القدر وفي هذه السنّ بهذا الضرب من البساطة الذي يبرهن فحسب عن خلفيّة من النزاهة وحسن التهذيب».

وصاح والدي، وقد أسعده أن يرى والدتي تقدّر السيّد «دو نوربوا» وشاء أن يقنعها بأنّه يُعَد فوق ما تعتقد، لأنّ المودّة تبالغ بمقدار ما تجد المضايقة متعةً من التقليل من قدر الناس: «ذلك ما أرى! على أن الأمر لا يحول دون أن يكون ناعماً وذكيّاً، إني أدرى بذلك أنا الذي يراه في اللجنة غير ما هو ههنا تماماً. كيف قال... «مع الأمراء لستَ تدري..».

– «أجل، إنّه لكذلك. لقد سبق أن لاحظت الأمر، إنّه ناعم جدّاً. وجليّ أن تجربته في الحياة عميقة».

– «غريب أنّه تناول طعام العشاء في منزل عائلة «سوان» وأنّه التقى ثمة بمختصر القول أناساً عاديّين وموظّفين. فمن أين لملمت السيّدة «سوان» هؤلاء القوم جميعاً؟».

– «تراك لاحظت الخبث الذي أبدى به الملاحظة التالية: «إنّه بيت يغشاه الرجال على وجه الخصوص»؟».

وأخذ الاثنان يحاولان استعادة الطريقة التي قال بها السيّد «دو نوربوا» تلك الجملة كما لعلّهما كانا يفعلان بشأن نبرة صوت «بريسّان» أو «تيرون» في «**صاحبة المغامرات**» أو في «**صِهْر السيّد بوارييه**». على أن

أكثر ما استُسيغ من كلماته جميعها إنما استساغته «فرانسواز» التي ما كانت لتستطيع، بعد بضع سنوات، «أن تظل جادّة» إن ذكّروها بأن السفير احتسبها «رئيس طهاة من الطراز الأوّل»، وهو ما انطلقت والدتي تنقله إليها مثلما ينقل وزير الحربية تهاني ملك زائر بعد العرض. وكنت على أية حال قد سبقتها إلى المطبخ؛ ذلك أنني أخذت وعداً من «فرانسواز»، وهي مسالمة ولكنها قاسية القلب، أنها لن تزيد من عذاب الأرنب الذي ستقتله ولم تبلغني أخبار عن تلك الميتة. وأكدت لي «فرانسواز» أنها انقضت على أحسن ما يرام وبسرعة كبيرة: «ما رأيت قطّ حيواناً على هذه الشاكلة، لقد مات دون أن يقول كلمة واحدة ربما خيّل إليك أنّه أبكم». ولما كنت قليل الإحاطة بلغة الحيوانات فقد تذرّعت بأن الأرنب ربما لا يصيح بقدر ما تفعل الفراريج. وقالت لي «فرانسواز» وقد أغضبها جهلي: «هيا انتظر قليلاً لترى إن كانت الأرانب لا تصيح بقدر ما تفعل الفراريج. إن صوتها أقوى بكثير». وتقبلت «فرانسواز» ثناءات السيّد «دو نوربوا» بالاعتزاز الساذج والنظرة الجذلى الذكية - وإن كانت مؤقتة - التي لفنان يحدثونه عن فنّه. وكان سبق لوالدتي أن أرسلتها فيما مضى إلى بعض المطاعم الكبيرة لترى كيف يتم تحضير الطعام فيها. وشعرتُ في ذلك المساء، وأنا أسمعها تتحدّث عن أشهر المطاعم، بالمتعة نفسها التي كانت لي فيما مضى لدى اطّلاعي، في ما يخصّ الفنّانين المسرحيين، على أن تراتب مزاياهم لم يكن تراتب شهراتهم. وقالت لها والدتي: «يؤكد السفير أنّه ما من أحد يأكل في أيّ مكان لحم بقر بارداً وفطائر منفّخة شبيهة بما تقدّمين». ووافقتها «فرانسواز» القول بمظهر متواضع وبهيئة من يُكْرِمُ الحقيقة، ولكن دون أن يؤثّر فيها لقب السفير. وكانت تقول عن السيّد «دو نوربوا» باللطف الذي تدين به لشخص وضعها موضع رئيس طهاة: «إنّه عجوز طيّب مثلي». صحيح أنّها حاولت أن تلمحه حينما وصل، ولكنها لما كانت تعلم أن أمي تكره أن يقف الناس خلف الأبواب أو إلى النوافذ وحسبت أنها ستعلم من الخدم الآخرين أو البوّابين أنّها ترصّدته (ذلك أنّ

«فرانسواز» لم تكن تشهد في كلّ مكان سوى ضروب الحسد» و«الأقاويل» التي كانت تؤدي في مخيلتها الدور الدائم المشؤوم نفسه الذي تؤديه بالنسبة إلى بعض الآخرين دسائس اليسوعيين أو اليهود)، فقد اكتفت بالتطلّع من نافذة المطبخ «كي لا تخلق لنفسها سبباً مع سيّدتها» وظنت، لدى مرأى السيّد «دو نوربوا» السريع، أنّه السيّد «لوغراندان» بسبب **رشاقته** ومع أنه ليس من ملامح مشتركة أية كانت بينهما وسألتها والدتي: «ولكن كيف تفسرين أن لا يعدّ أحد الهلام بمثل جودة ما تعدّين (عندما تقصدين ذلك)؟» وأجابت «فرانسواز»: «لست أدري مما يصبح ذلك» (ولم تكن تقيم حدوداً واضحة تمام الوضوح بين «أتى»، في بعض معانيه على الأقلّ، و«أصبح»). وكانت تقول على أية حال، صحيح القول جزئياً، فلم تكن قادرة - أو راغبة في كشف السرّ الذي يتفوّق بها مرقها الهلاميّ أو «كريماتها» أكثر مما يتسنى لسيدّة الأناقة في ما يخصّ أثوابها أو لمغنية كبيرة في ما يخصّ غناءها. إن إيضاحاتهما لا تعلّمنا الكثير، وذلك كان شأن طاهيتنا. ثم أجابت وهي تتكلّم عن أصحاب المطاعم الكبرى: «إنّهم يلجؤون كثيراً إلى الإنضاج السريع، ثم لا يفعلون الأشياء سويّة. فلا بدّ أن يصبح لحم البقر كإسفنجة، وحينئذ يغبّ كامل المرق حتى النهاية. بيد أنه كان ثمة واحد من تلك المقاهي يعرفون فيه إلى حدّ ما، فيما يبدو لي، إعداد الطعام. ولست أقول إنه مرقي الهلاميّ بالتمام، ولكنّه كان يعدّ على مهل». - «أهو هنري؟» يقول والدي الذي لحق بنا وكان يقدر كثيراً مطعم ساحة «غايون» حيث كان يتناول ولائم رفاقية في تواريخ محدّدة. وأجابت «فرانسواز» بعذوبة تخفي ازدراءً عميقاً: «لا، لا! كنت أتحدّث عن مطعم صغير. الطعام طيب جدّاً بالتأكيد لدى «هنري» هذا، ولكنه ليس مطعماً، إنّه بالأحرى مكان شعبيّ». - «فيبير»؟ - آه! لا يا سيدي كنت أقصد مطعماً بمعنى الكلمة. أما «فيبير» ففي شارع «رويال»، وليس مطعماً بل مشرب جعة. ولست أدري إن كان ما يقدّمونه يتمّ على موائد مجهزة وأعتقد أن ليس لديهم أغطية، فهم يقدّمون ذلك كما هو على الطاولة

وكيفما تسير». - «سيرّو؟» وابتسمت «فرانسواز»: «أوه! أعتقد أن ثمّة على وجه الخصوص، في ما يتّصل بالمأكولات، نساء ينتمين إلى المجتمع الراقي (والمجتمع الراقي يعني بالنسبة إلى «فرانسواز» دنيا الفجور). ولا بدّ من ذلك للشباب. «كنّا نلاحظ أنّ «فرانسواز»، بمظهر البساطة الذي تبدو فيه، «رفيقة» أكثر تصعباً في ما يخصّ مشاهير الطهاة مما يمكن أن تكون الممثّلة الأكثر حسداً وغطرسة. بيد أنّنا أحسسنا أن لديها شعوراً صحيحاً بفنّها واحتراماً للتقاليد، فقد أضافت تقول: «لا، أردت أن أقول عن مطعم يقدّم مأكولات بورجوازية طيّبة إنها مؤسّسة لا تزال منطقيّة نوعاً ما، وكانت أعمالها رائجة ويجنون فيها الكثير من الفلوس (و«فرانسواز» المقترة تحسب بالفلوس لا بالدنانير شأن المُعْدَمين). إن سيدتي تعرفه تماماً، هناك، إلى اليمين، في الشوارع الكبرى وإلى الخلف قليلاً...» كان المطعم الذي تحدثت عنه بذلك الإنصاف الممزوج بالكبرياء وطيبة القلب يدعى.. «المقهى الإنكليزي».

حينما حلّ الأوّل من كانون الثاني قمت بادئ الأمر بزيارات عائليّة بصحبة والدتي التي سبق أن صَنّفَتْها (مستعينة بدليل سير من وضع والدي) بالأحياء أكثر منها وفق درجة القرابة الدقيقة، وذلك كي لا ترهقني. بيد أنّنا ما كدنا ندخل صالة ابنة عم لنا بعيدة القرابة، وكان سبب ورودها أوّلاً أن منزلها ما كان بعيداً عن منزلنا، حتى ذعرت والدتي إذ أبصرت، وفي يدها الكستنا المغلّفة بالسكّر أو المخفّاة، أفضل صديق لأكثر أعمامي حساسية. ولسوف ينقل إليه أنّنا لم نبدأ جولتنا به. سوف يجرح التصرّف بالتأكيد شعور عميّ، فلعلّه كان يجد من الطبيعي أن تنطلق من «المادلين» إلى حديقة النباتات حيث كان يسكن، قبل أن نتوقّف في محلة «سانت أوغوستان» لننطلق منها إلى شارع «مدرسة الطب».

ولما انتهت الزيارات (وكانت جدّتي تعفينا من القيام بزيارة إلى منزلها بما أننا كنّا نتناول طعام العشاء هناك في ذلك اليوم) جريت إلى «الشانزيليزيه» أحمل لبائعتنا الرسالة التي كنت قد قرّرت، منذ اليوم الذي

سبّبت لي فيه صديقتي الكثير من الغمّ، أن أبعثها إليها في رأس السنة، كي تسلّمها البائعة إلى الشخص الذي كان يجيء عدّة مرّات في الأسبوع من منزل عائلة «سوان» لشراء كعك الزنجبيل، وكنت أقول لها فيها إن صداقتنا القديمة زالت مع السنة المنصرمة وإنني أنسى مآخذي وخيبات أملي وإنّنا سنبني منذ الأول من كانون الثاني صداقة جديدة متينة حتى لا يهدّمها شيء ورائعة إلى الحد الذي كنت آمل فيه أن تبدي «جيلبيرت» بعض الدلال في الحفاظ على جِدّتها وأن تحذّرني في الوقت المناسب، مثلما وعدتُ أن أفعل بدوري، حالما يداهم أقلّ خطر يمكن أن يلَحق بها الأذى. ولدى العودة استوقفتني «فرانسواز» في زاوية شارع «روّيال» أمام بضائع معروضة في الهواء الطلق اختارت منها لهداياها الخاصّة في رأس السنة صوراً للبابا «بيوس» التاسع و«راسباي» واشتريت في ما يخصّني صورة لِـ«لا بيرما»، وكانت صنوف الإعجاب التي لا حصر لها التي تثيرها الفنّانة تضفي ما يسم بالقلة ذاك المحيّا الواحد الذي تردّ به على ذلك الإعجاب، والمحيّا الثابت والعابر شأن تلك الأثواب التي لأشخاص لا يملكون بديلاً لها، الذي لا تستطيع أن تبرز فيه على الدوام سوى الثنية الصغيرة الكائنة فوق الشفة العليا وارتفاع الحاجبين وبعض الخصوصيات الجسمية الأخرى التي لا تتبدّل وهي في النهاية تحت رحمة حرق أو صدمة. ولعل ذلك المحيا ما كان ليبدو لي من جهة ثانية جميلاً بذاته، إلا أنّه كان يبعث فيّ الفكرة والرغبة في تقبيله بسبب جميع القبل التي اضطرّ أن يتحمّلها والتي كان يبدو وكأنّه لا يزال يدعوها من أعماق البطاقة بتلك النظرة المغناجة الحنون وتلك الابتسامة البريئة المصطنعة. فلا بدّ أنّ «لا بيرما» كانت تحسّ فعلاً إزاء الكثير من الشبّان بتلك الشهوات التي كانت تبوح بها تحت ستار شخصيّة «فيدر» والتي كان ينبغي أن يسهم كل شيء، حتى روعة اسمها التي كانت تزيد في جمالها وتمدّ في شبابها في جعل إشباعها سهلاً إلى ذلك الحدّ. كان المساء آخذاً في الحلول. فوقفت أمام عمود مسرح أُلصقَ عليه إعلان العرض المسرحي الذي تقدّمه «لا بيرما» في الأوّل من كانون

الثاني. كانت تهبّ ريح نديّة وخفيفة وهو طقس كنت أعرفه فانتابني إحساس وشعور مسبق بأن رأس السنة ليس يوماً يختلف عن الأيّام الأخرى وأنّه ما كان الأوّل في عالم جديد يمكنني فيه، وحظّي لا يزال كاملاً غير منقوص، أن أعود فأتعرّف بِـ«جيلبيرت» كما في أوّل عهد الخليقة وكما لو لم يكن هنالك ماض بعد، وكما لو اضمحلّت خيبات الأمل التي سبّبتها لي بعض الأحيان، مع ما يمكن أن يُسْتَخلَص منها من علامات للمستقبل: عالم جديد لا يظلّ فيه من القديم شيء... فيما عدا شيئاً واحداً: رغبتي في أن تحبّني «جيلبيرت». وأدركت أنه إذا كان فؤادي يتمنّى هذا التحديد من حوله في عالم لم يستجب لرغباته فإنما يعني ذلك أنّه، أي فؤادي، لم يتغيّر، فقلت في نفسي أن ليس ثمة من سبب يقضي بأن يتغيّر فؤاد «جيلبيرت» بدوره. وأحسست بأن هذه الصداقة الجديدة لم تتبدل، كما لا تفصل هوة عن السنوات الأخرى تلك الجديدة التي يلقي عليها شوقي على غير علم منها اسماً مختلفاً دون أن يستطيع اللحاق بها وتبديلها. وعبثاً كنت أهدي هذه السنة لِـ«جيلبيرت» وأحاول، مثلما يضعون ديانة يغطّون بها قوانين الطبيعة العمياء، طبع رأس السنة بالفكرة الخاصّة التي كوّنتها عنه، ولكن دون جدوى. كنت أحسّ أنّه لا يعلم أنّهم يدعونه رأس السنة وأنّه ينقضي في الشفق على نحو لم يكن جديداً عليّ؛ فقد تعرّفت على الريح الخفيفة التي كانت تهبّ من حول عمود الإعلانات، لقد أحسست فيها مادّة الأيّام السالفة الأزلية المألوفة ورطوبتها المعهودة وجريانها المجهول تعود كلّها إلى الظهور.

وعدت إلى المنزل. لقد أمضيت الأوّل من كانون الثاني كالناس المسنّين الذين يختلفون عن الشباب في ذلك اليوم، لا لأنهم لا يحظون من بعد بهدايا العام الجديد، بل لأنّهم لا يؤمنون من بعد بالعام الجديد. أمّا هدايا العام الجديد فقد وصلتني، فيما عدا تلك التي من شأنها وحدها أن تفرحني والتي تؤلّفها كلمة من «جيلبيرت». بيد أنني كنت ما أزال شابّاً مع ذلك بما أنني استطعت أن أسطر لها كلمة آمل بها، وأنا أنقل إليها

أحلام وحدتي ومودّتي، أن أوقظ فيها ما يشبهها. وإنّما كآبة الذين أدركتهم الشيخوخة أنّهم حتّى لا يفكّرون بتسطير مثل تلك الرسائل التي عهدوا لا جدواها.

وحينما آويت إلى فراشي أمسك بي عن النوم ضجيج الشارع الذي يتطاول في عشية العيد تلك إلى وقت متأخّر. وأخذت أفكّر في جميع الناس الذين سيختتمون ليلهم بالملذات، بالعاشق، بفرقة الخلعاء الذين ربّما ذهبوا لاصطحاب «لا بيرما» في آخر هذا العرض الذي أبصرت الإعلان عنه للمساء. وما كنت حتى أستطيع، كيما أهدئ الاضطراب الذي تبعثه تلك الفكرة فيّ في ليل الأرق ذاك، أن أقول في نفسي إن «لا بيرما» ربّما لم تكن تفكّر في الحبّ بما أن الأبيات التي تقولها والتي درستْها طويلاً كانت تذكّرها في كلّ لحظة أنّه لذيذ، وهو ما كانت تعلم على أيّة حال، حتى إنّها كانت تُبْرِزِ اضطراباته المعهودة - والتي أُكْسِبَتْ زخماً جديداً وعذوبة لا تخطر ببال - لمشاهدين مفتونين مع أنّه سبق أن خبرها كلّ منهم بنفسه. وأشعلتُ شمعتي المطفأة لأنظر مرّة أخرى إلى وجهها. وإذ راودني أن رجالاً كانوا ولا شك يداعبونه في تلك اللحظة، رجالاً ما كنت أستطيع الحيلولة دون أن يمنحوا «لا بيرما» وتمنحهم ملذّات خارقة ومبهمة، أحسست باضطراب أقرب إلى المرارة منه إلى اللذّة وبحنين جاء يزيد فيه صوت البوق مثلما يبلغ الأسماع في ليلة منتصف الصوم وفي ليلة الأعياد الأخرى في الغالب. ويبدو أكثر كآبة في انطلاقه من خمارة، لأنه لا شاعريّة فيه إذ ذاك منه «في المساء وفي أعماق الغابات». ولعلّ كلمة من «جيلبيرت» في تلك اللحظة لم تكن ما كان ينبغي لي. فإن رغباتنا تتداخل باطّراد ويندر في فوضى العيش أن تحطّ سعادة بالضبط فوق الرغبة التي التمستْها.

ظللت أتردّد على «الشانزيليزيه» في أيام الصحو مارّاً بشوارع تغمر بيوتَها الأنيقة الورديّة متموّجة رقيقة، إذ الوقت فترة الرواج الكبير الذي صادفته معارض الرسّامين المائيين. ولعلّني أكذب لو قلت: إن قصور

«غبرييل» إنّما بدت لي في تلك الفترة أكثر جمالاً من الفنادق المجاورة أو هي حتى من عصر آخر غير عصرها؛ . وكنت أجد الطراز أكثر غنى وربّما ظننت قصر «التروكاديرو» على الأقلّ، إن لم يكن قصر الصناعة، أكثر إغراقاً في القدم. كانت فترة يفاعتي، وقد غاصت في نوم مضطرب، تغمر بالحلم نفسه كامل الحيّ الذي تنقله فيه ولم يخطر لي في يوم أنّه يمكن أن يكون هناك بناء من القرن الثامن عشر في شارع «رويّال» مثلما لعلّني كنت أدهش لو علمت بأنّ بوّابة «سان مارتان» وبوّابة «سان دوني»، وهما رائعتان من عصر لويس الرابع عشر، لا تعاصران أكثر الأبنية حداثة في تلك المناطق القذرة. ولمرّة واحدة استوقفني أحد قصور «غابرييل» طويلاً؛ ذلك أن أعمدته، بعدما حلّ الليل، بدت وقد جردّها ضياء القمر من مضمونها المادي وكأنما اقتطعت من «الكرتون» فخلّفت في نفسي للمرة الأولى، وقد ذكرّتني بمناظر الغنائيّة الخفيفة التي عنوانها «**أورفيوس في الجحيم**»، انطباعاً جمالياً.

ولكن «جيلبيرت» ظلّت لا تعود إلى «الشانزيليزيه»، مع أنّني كنت بحاجة إلى ملاقاتها إذ لم أعد أتذكّر حتى وجهها. إن الطريقة المتقصيّة القلقة المتطلّبة التي لنا في النظر إلى الشخص الذي نحبّه، وانتظارنا القول الذي سيهبنا الأمل في لقاء للغد وتخيلنا المتناوب، إن لم يكن الآني، للفرح واليأس إلى حين النطق بذلك القول، إن كل ذلك يجعل انتباهنا قبالة المحبوب شديد الارتعاش حتى لا يستطيع أن يحمل منه صورة شديدة الوضوح. وربّما كان كذلك نشاط جميع الحواس في الآن نفسه الذي يحاول أن يعرف عن طريق النظرات وحدها ما هو كائن خلف حدودها، ربّما كان بالغ التساهل مع أشكال الشخصية الحيّة الألف وجميع صنوف طعمها وحركاتها، تلك الشخصية التي نجمّدها بالعادة حينما لا نحبّ. أمّا النموذج المحبوب فإنّه يهتزّ بالعكس ولا يتسنى لنا منه البتة سوى صور غير ناجحة، لم أعد أعرف بالحقيقة كيف خُطّت ملامح «جيلبيرت»، فيما عدا اللحظات السماويّة التي تنشرها فيها من أجلي: فما كنت أذكر سوى

ابتسامتها. وكان يغضبني، فيما لا أستطيع أن أعود فأرى ذلك الوجه الحبيب، أن ألقى وجهي بائع الأحصنة الخشبية وبائعة السكّر النباتي، وجهين مذهلين لا حاجة لي بهما رسمًا في ذاكرتي بدقّة تامّة؛ كذلك يداخل الحنق أولئك الذين فقدوا حبيباً لا يعودون يرونه البتّة في نومهم أن يلاقوا دون انقطاع في أحلامهم العديد من الناس الذين لا يطيقونهم وكثير عليهم أنّه عرفوهم في اليقظة. ويكادون يتهمون أنفسهم، في عجزهم أن يمتثلوا علّة عذابهم، بأنّهم لا يشعرون بعذاب. وما كنت أستبعد بدوري، إذ لا أستطيع تذكّر ملامح «جيلبيرت»، أنّني نسيتها وما عدت أحبّها.

وأخيراً عادت إلى اللعب في كلّ الأيّام تقريباً وهي تمنّيني بأشياء جديدة أرغب فيها وأطالبها بها في الغد، فتصنع كل يوم بهذا المعنى من مودّتي مودّة جديدة. إلا أن أمراً غيّر مرّة أخرى وعلى نحو مفاجئ الطريقة التي يتمّ بها طرح مشكلة حبيّ في حوالي الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم. فهل ضبط السيّد «سوان» الرسالة التي سطّرتها لابنته أم هي «جيلبيرت» تقوم بعد فترة طويلة بالإقرار أمامي بحالة أصبحت قديمة كيما أكون أوفر حذراً؟ فبينما كنت أقول لها كم كنت معجباً بأبيها وأمها اتّخذتْ ذلك المظهر الغامض الزاخر بالتحفّظات والأسرار الذي تتخذه حينما يحدّثونها عما كان عليها أن تفعله، عن جولاتها وزياراتها، وخلصت فجأة إلى القول: «تدري، إنّهما لا يطيقانك!» وانفجرت بالضحك وهي تنزلق كجنية الماء - وكذلك كانت - وغالباً ما كانت تبدو ضحكتها التي لا تتوافق وأقوالها وكأنها تصف على صعيد آخر مساحة غير مرئية على نحو ما تفعل الموسيقى. لم يكن السيّد «سوان» والسيّدة «سوان» يطالبان «جيلبيرت» بالكفّ عن اللعب معي ولكنّهما ربّما فضّلا، فيما تظنّ، أن لم تكن ثمّة بداية. فما كانا ينظران بعين الرضى إلى علاقاتي معها ولا يحسبان أني رفيع الأخلاق ويتخيّلان أنني لا أستطيع أن أخلّف فيها سوى أثر سيئ. كنت أتصوّر هذا الصنف من الشبّان الضعيفي الذمّة الذين يظنّ «سوان» أنني أشبههم، كنت أتصوّرهم يمقتون ذوي الفتاة التي يحبّونها

فيتملّقونهم في حضرتهم ولكنهم يسخرون منهم معها ويدفعونها إلى الخروج عن طاعتهم ثمّ يحرمونهم حتى رؤيتها بعدما تتمّ لهم السيطرة عليها. ولكن بأي عنف كان فؤادي يضع قبالة هذه الملامح (التي لم تكن في يوم الملامح التي يبصر فيها أعظمُ شقي نفسَه) تلك المشاعر التي يزخر بها إزاء «سوان» وفيها على العكس من الحرارة ما لم أكن أشكّ معه أنّه لا بدَّ نادم لو ارتاب بأمرها على الحكم الذي أصدره بحقّي وكأنّما على غلطة قضائية! وتجرأت أن أسطّر له كل ما كنت أحسّ به تجاهه في رسالة طويلة عهدت بها إلى «جيلبيرت» ورجوتها أن تسلّمه إيّاها. وقبلت، فرأى فيّ، واأسفي، محتالاً أعظم ممّا كنت أحسب. لقد شكّ إذن بتلك المشاعر التي ظننت أني أرسمها على مدى ست عشرة صفحة بهذا القدر العظيم من الصدق. فلم تصادف الرسالة التي سطرتها لها، وهي في مثل حرارة الأقوال التي بحت بها للسيّد «دو نوربوا» وصدقها، نجاحاً أكبر. وروتْ لي «جيلبيرت» غداة ذلك اليوم، بعدما انتحت بي جانباً وراء كتلة من شجر الغار، وفي ممر صغير جلسنا فيه كلّ على كرسيّ، أنّ والدها لدى قراءة الرسالة التي أعادتها إليّ رفع منكبيه قائلاً: «كلّ ذلك لا يعني شيئاً وليس سوى البرهان على مدى الحقّ الذي أنا عليه». وقد أثار سخطي، أنا الذي كان يعلم صفاء مقاصده وطيبة نفسه، أن لم تلامس أقوالي صفحة غلطة «سوان» غير المعقولة. كنت أحسّ أنني جئت على وصف بعض المميّزات التي لا يمكن ردّها في مشاعري الكريمة إلى حدّ أنّه كان لا بدّ أن يكون «سوان» قد أحسّ بتلك المشاعر النبيلة في يوم بما أنّه لم يستطع أن يستعيدها في الحال انطلاقاً من تلك المميزات ولم يُقبل عليّ طالباً الصفح ومقرّاً بأنّه كان على ضلال، الأمر الذي لا بدّ جعله عاجزاً عن إدراكها لدى الآخرين.

ولكن ربّما كان «سوان» يعلم ببساطة أن كرم النفس ليس في الغالب سوى المظهر الباطن الذي تتخذه مشاعرنا الأنانية حينما لا نكون بعد قد سميناها وصنّفناها. وربّما عرف في الميل الذي عبّرت له عنه محض نتيجة

- وتوكيداً حماسياً - للحبّ الذي بي لِـ«جيلبيرت» والذي سيتمّ به حتماً - لا بالاحترام الثانوي الذي أبديه له - توجيه أفعالي فيما بعد. ما كنت أستطيع أن أشاطره تخميناته لأنّني لم أفلح في تجريد حبّي عن ذاتي وفي إدخاله في عمومية الآخرين وفي تقدير نتائجه بالتجريب. لقد حلّ بي اليأس. واضطررت أن أفارق «جيلبيرت» لفترة وجيزة، فقد استدعتني «فرانسواز». وانبغى لي أن أرافقها إلى جناح صغير مشبك بشبك أخضر يشبه إلى حدّ بعيد مكاتب «الميرة» المهجورة في باريس القديمة وقد أقيم فيه منذ قليل ما يسمونه في إنكلترا «مغسلة» وفي فرنسا مراحيض من جرّاء هوس بالإنكليزية هزيل المعلومات. كانت جدران المدخل الذي مكثت فيه أنتظر «فرانسواز»، وهي رطبة وقديمة، تبعث رائحة من الهواء الحبيس الرطب خففت عنّي في الحال الهموم التي بعثتها في نفسي منذ قليل أقوال «سوان» التي نقلتها إليّ «جيلبيرت»، وداخلتني منها لذّة لم تكن من نمط الأخريات التي تخلّفنا أقلّ استقراراً وعاجزين عن الاحتفاظ بها وامتلاكها، بل لذة متماسكة أستطيع أن أستند إليها، لذة عذبة هادئة تزخر بحقيقة ثابتة أكيدة لا تفسير لها وددت لو أحاول، مثلما كنت أفعل بالأمس في نزهاتي من جهة «غيرمانت»، النفاذ إلى سحر ذلك الانطباع الذي تملّكني والمكوث دونما حراك أسائل ذلك الانبعاث القديم الذي كان يدعوني لا إلى الاستمتاع باللذة التي لا يقدّمها لي إلا زيادة، بل إلى النزول إلى باطن الحقيقة التي لم تكشف لي عنها. غير أن المشرفة على المحلّ، وهي سيّدة عجوز مطّلية الخدّين بشعر مستعار أصهب، أخذت في التحدّث إليّ. كانت «فرانسواز» تظنّ أنّها بالتأكيد من بلدها. لقد تزوّجت آنستها ما كانت تدعوه «فرانسواز» «شاباً من أسرة محترمة» وبالتالي رجلاً يختلف عن العامل أكثر ممّا يختلف «دوق» عن إنسان «خرج من حثالة الشعب» في نظر «سان سيمون».

لقد حلّ بالمشرفة دونما شك قبل الزواج العديد من النكسات. إلّا أنّ «فرانسواز» كانت تؤكّد أنها مركيزة وتنتمي إلى أسرة «شان فيريئول».

وأشارت تلك المركيزة عليّ ألا أظلّ في البرد. بل هي فتحت لي أحد المراحيض وهي تقول لي: «ألا تريد الدخول؟ إليك واحداً نظيفاً جدّاً وهو مجاني في ما يخصّك». ربّما كانت تفعل ذلك مثلما كانت الآنسات في محلّ «غُواش»، حينما نجيء لنوصي على طلب. يقدّمن لي إحدى قطع السكاكر الموضوعة على طاولة البيع تحت أجراس زجاجية وكانت والدتي للأسف تنهاني عن قبولها. وربما فعلت أيضاً على نحو أقلّ براءة كمثل بائعة الزهور العجوز التي كانت توصيها والدتي بملء «أحواضها» والتي كانت تقدّم لي وردة وهي ترنو إليّ بلحظ مستهام. ولئن كانت «المركيزة» في جميع الأحوال تبدي ميلاً للشباب إذ تفتح لهم الباب السفليّ لتلك المكعبات الحجريّة التي يجلس فيها الرجال القرفصاء كتماثيل أبي الهول فلا بدّ أنها كانت أكثر بحثاً، عبر مظاهر كرمها، عن المتعة التي يلاقيها المرء في الظهور بمظهر المسرف الذي لا جدوى من إسرافه حيال من يحبّ أكثر منها عن أمل إفسادهم، لأنّي لم أرَ البتّة بالقرب منها زائراً غير حارس حراجي مسنّ يشرف على الحديقة.

وبعد فترة استأذنتُ «المركيزة» بصحبة «فرانسواز». ثم تركت هذه الأخيرة لأعود بالقرب من «جيلبيرت»، ولمحتها في الحال على كرسي وراء كتلة شجيرات الغار، والأمر كي لا تراها صديقاتها، فقد كنا نلعب «الغمّيضة». وبادرت إلى الجلوس إلى جانبها. حتى كانت تعتمر قلنسوة عريضة تخفضها فوق عينيها فتزوّدهما بتلك النظرة الخفيّة الحالمة الماكرة التي شهدتها لها أوّل مرّة في «كومبريه». وسألتها إن لم تكن هنالك وسيلة يتمّ لي فيها حديث استيضاحي مع والدها. وقالت لي «جيلبيرت» إنها عرضت الأمر عليه ولكنّه حكم بلا جدواه. وأضافت تقول: «هيّا خذ، لا تدع لي رسالتك، وينبغي أن ألحق بالآخرين بما أنّهم لم يجدوني».

ولو وصل «سوان» حينذاك قبل أن أستردّها، تلك الرسالة التي كنت أرى من الجنون أن لم يدع لنفسه أن تقتنع بها، فربّما أبصر أنّه هو من كان على حقٍ. ذلك أني حينما اقتربت من «جيلبيرت» التي كانت تقول لي وهي

مستلقية على كرسيّها أن آخذ الرسالة ولا تمدّها إليّ أحسست بجسدها يجذبني إليه بشدّة جعلتني أقول لها:

- «هيا، امنعيني عن التقاطها ونرى أينا أقوى».

فوضعتها خلف ظهرها، ومددت يديّ خلف عنقها وأنا أرفع جدائل الشعر التي ترسلها على كتفيها، إما لأن ذلك يلائم سنّها وإمّا لأن والدتها كانت تبغي إظهارها بمظهر الطفولة لفترة أطول كي ما تبدو بدورها أصغر سناً. ورحنا في عراك ينحني أحدنا على الآخر؛ كنت أجهد في اجتذابها وهي تقاوم. كانت وجنتاها اللتان ألهبهما الجهد حمراوين مستديرتين كحبتي كرز، وكانت تضحك كما لو أني دغدغتها. كنت أشُدّ عليها بين ساقيّ كشجرة أحاول تسلّقها. وفي أثناء الرياضة التي كنت أقوم بها ودون أن يزداد، أو يكاد، اللهاث الذي يخلّفه لديّ التمرين العضلي والاندفاع في اللعب بدّدت، كمثل بضع قطرات من العرق يعتصرها الجهد، لذّتي التي لم أستطع حتى التوقّف فيها الزمن الكافي لأتعرّف مذاقها؛ وفي الحال أخذت الرسالة. حينئذٍ قالت لي «جيلبيرت» برفق:

- «تدري، نستطيع، لو تشاء أن نوالي العراك قليلاً بعد».

لعلّه وافاها شعور مبهم بأنّ لعبي كان يرمي إلى غرض غير ذلك الذي أقرت به ولكنّها لم تفلح في ملاحظة أنّي بلغته. أمّا أنا الذي ساورته خشية أنها لاحظت ذلك (وقد حملتني حركة انكماش وتحفظ صدرت عن جزع وخفر لديها بعد ذلك بلحظة على الظنّ بأني لم أكن على غير حقّ في خشيتي من ذلك الأمر) فقد قبلت موالاة العراك مخافة أن يسعها الاعتقاد بأني لم أضع لنفسي هدفاً غير ذاك الذي لم تعد لديّ رغبة بعده سوى المكوث بهدوء إلى جانبها.

ولدى العودة لمحت بل تذكرت فجأة الصورة التي ظلّت مخبأة حتى ذاك والتي قربتني منها دون أن تدفع لي أن أراها أو أتعرّفها رطوبة الجناح المشبك الذي تنبعث منه رائحة السخام تقريباً. كانت الصورة صورة حجرة عميّ «أدولف» الصغيرة في «كومبريه» التي كانت تنبعث منها رائحة الرطوبة

نفسها. على أني لم أستطع أن أفهم وأجّلت إلى ما بعد البحث عن السبب الذي وهبتني من جرّائه استعادةُ صورة تافهة إلى هذا الحدّ مثل تلك السعادة. وبانتظار ذلك بدا لي أني كنت أستحقّ بالحقيقة ازدراء السيّد «دو نوربوا»: فقد فضّلتُ حتى الآن على جميع الكُتّاب ذاك الذي كان يدعوه محض «عازف ناي» وداخلتني حماسة حقّة لا من جرّاء فكرة هامّة، بل من جرّاء رائحة عفونة.

كانت الأمّهات منذ وقت قليل وفي بعض الأسر يصغين إلى اسم «الشانزيليزيه»، إن نطق به أحد الزائرين، بمظهر الاستياء الذي يخصصن به طبيباً ذائع الصيت يدّعين أنّه قام بالعديد من التشخيصات الخاطئة حتى يستطعن الوثوق بعد به. فهنالك من كان يؤكّد أن تلك الحديقة لا تلائم الأطفال وأنّه يمكن التنويه بأكثر من مرض حنجرة وأكثر من مرض حصبة وبالعديد من صنوف الحمى التي تقع على مسؤوليته. كانت بعض صديقات والدتي يأسفن، دون التشكيك تشكيكاً صريحاً بحنانها إذ توالي إرسالي إلى هناك، يأسفن لتعاميها على الأقلّ.

ربّما كان مرضى الأعصاب على الرغم من العبارة المكرسة أقلّ من «يصغون إلى ذواتهم»: فإنهم يسمعون في داخلهم الكثير من الأشياء التي يتبيّنون فيما بعد أنهم أخطأوا في التخوّف منها إلى حدّ أنهم لا يعيرون في النهاية أياً منها انتباههم. فكثيراً ما صاحت بهم جملتهم العصبيّة تقول: «النجدة!» وكأنما لمرض خطير في حين يقتصر الأمر فحسب على سقوط الثلج أو الإقبال على تغيير الشقّة السكنيّة حتى إنهم يتعوّدون أن لا يأخذوا بالحسبان تلك التحذيرات أكثر مما يفعل جنديّ لا يتبيّنها في حمّى القتال إلا قليلاً جدّاً حتى إنّه يستطيع وهو في طور الموت أن يظلّ بضعة أيّام يعيش حياة رجل بتمام عافيته. وذات صباح أسرعت فيه جذلان إلى غرفة الطعام حيث كان يجلس والداي إلى المائدة، وأنا أجمع في صدري صنوف انحراف صحّتي المألوفة التي كنت أُعرض على الدوام بفكري عن مسيرتها المستمرّة الخفيّة، - وإذ قلت في نفسي كالمعتاد إنّ التعرّض للبرد

يمكن أن يعني لا وجوب التماس الدفء بل على سبيل المثال التأنيب على أمر ما، وإنّ قلّة الإحساس بالجوع إنّما تعني المطر الوشيك لا وجوب الامتناع عن الطعام - وجلست إلى المائدة حيث استوقفني، لدى ابتلاعي أول لقمة من ضلع شهيّ، غثيان ودوار كانا الردَّ المحموم لبدايات مرض حجبت مرآه لا مبالاتي وأخّرت أعراضه ولكنّه كان يرفض بعناد الغذاء الذي لم يكن بوسعي ابتلاعه. إلا أن فكرة منعي من الذهاب إن تبيّن أحدهم أنني كنت مريضاً زوّدتني إذ ذاك وفي الثانية نفسها، مثلما غريزة البقاء تزود الجريح، بالقوة للزحف حتى غرفتي حيث رأيت أن حرارتي بلغت ٤٠° ثمّ للاستعداد من أجل الذهاب إلى «الشانزيليزيه». كان فكري الجذل يبادر، من خلال الجسد الواهن المهلهل الذي يحيط به، إلى اللحاق بالمتعة الحلوة التي أجنيها من لعبة الزوايا مع «جيلبيرت» ويطالب به، وبعد ساعة كانت لا تزال لديّ القوّة لتذوّقها، وأنا أكاد لا أقف على رجليّ ولكنّي سعيد إلى جانبها.

وصرّحت «فرانسواز» لدى عودتنا أنّي أصبت بوعكة وأني لا بدَّ ألمّ بي «شوب وبرد»، وصرّح الطبيب، وقد استُدعي للحال، أنه يفضّل قسوة هجمة الحمّى التي كانت ترافق الاحتقان الرئويّ وعنفها، ولن تكون سوى «نار في الهشيم»، على أشكال أكثر خداعاً وخفاءً. كنت أعاني منذ زمن طويل اختناقات وقد أشار عليّ طبيبنا، على الرغم من استنكار جدّتي التي كانت تراني مذ ذاك أموت من جرّاء الإدمان على الكحول، أن أتناول، بالإضافة إلى القهَوين التي سبق أن وُصِفَت لي لتساعدني على التنفّس، البيرة أو الشامبانيا أو الكونياك حينما أشعر باقتراب النوبة. وسوف تحبَط هذه الأخيرة، على حدّ قوله، في النشوة الناجمة عن الكحول. وغالباً ما اضطررت، كيما تسمح جدّتي بأن أعطى شيئاً منه، ألّا أخفي حالة الاختناق التي تصيبني بل أن أتباهى تقريباً في إظهارها. وما إن كنت أحسّ على أيّة حال باقترابها، وأنا غير أكيد على الدوام من الحجم الذي قد تتخذه، حتى كان يساورني القلق من جرّاء حزن جدّتي الذي كنت أخشى

منه أكثر من عذابي. بيد أن جسمي كان يحيجني، إمّا لأنّه أضعف من أن يحفظ وحده سرّها، وإمّا لخشيته من أن يطالبوني، وهم يجهلون المرض الوشيك، بجهد يستحيل عليه أو يشكّل خطراً عليه، إلى إعلام جدّتي بمتاعبي بدقة كنت أنتهي إلى تضمينها نوعاً من الوسواس الفيزيولوجي. فما إن أحسّ بأحد الأعراض المزعجة الذي لم يتمّ لي بعد تبيّنه حتى يحيق الضيق بجسمي طالما لم أفضِ به إلى جدّتي. فإن تظاهرتْ بأنها لا تعيره أيّ انتباه طلب مني الإلحاح، فذهبت أحياناً إلى أبعد مما ينبغي، ويبدو على الوجه الحبيب الذي لم يعد على الدوام سيّد انفعالاته مثل ما كان بالأمس لمحات إشفاق وانقباض مؤلم. حينئذ كان فؤادي يتعذّب من جرّاء الأسى الذي بها: وكما لو انبغى أن تزيل قبلاتي ذاك الأسى، وكما لو استطاع حناني أن يهبها من المسرّة بمقدار ما تفعل سعادتي ارتميت بين ذراعيها. ولما هدأت وساوسي من جهة أخرى من جرّاء يقيني بأنها كانت تعرف الانحراف الذي أعاني منه، لم يعد جسمي يقاوم مسعاي إلى طمأنتها. وكنت أعترض بأن هذا الانحراف لم يكن على شيء من الألم وأن ليس ما يدعو إلى الرثاء بحالي وأنها تستطيع أن تكون على يقين من أنّي سعيد. لقد شاء جسمي أن ينال بالضبط ما يستحقّ من أن أعلن بأن ذلك الألم لم يكن داءً ولا يؤلّف بالنسبة إليّ عائقاً للسعادة لأنّ جسمي لا يدّعي الفلسفة فليست من اختصاصه. وتعرّضت كلّ يوم تقريباً لنوبات الاختناق تلك في أثناء نقاهتي. وذات مساء تركتني فيه جدّتي حسن الحال إلى حد ما عادت إلى غرفتي في وقت متأخر جدّاً من السهرة وإذ لاحظت أن أنفاسي ضاقت صاحت وقد انقلبت ملامح وجهها: «آه! يا إلهي، كم تتعذّب». وفارقتني في الحال، وسمعتُ صرير البوّابة، وعادت بعد ذلك بقليل تحمل الكونياك الذي بادرت إلى شرائه لأنّه كان مفقوداً في بيتنا. وأخذت بعد قليل أشعر بالسعادة. كانت تبدو جدّتي وقد كستها الحمرة، في ضيق، وفي عينيها ما يوحي بالتعب والفتور. وقالت لي وهي تفارقني على نحو مفاجئ: «أفضّل أن أدعك وأن تفيد قليلاً من هذا التحسّن». إلّا

أنّي عانقتها وأحسست على وجنتيها النضرتين ما يشبه البلل ولم أعلم إن كان ذلك رطوبة هواء الليل الذي مرّت عبره. وفي الغد لم تجئ إلى غرفتي إلا مساءً إذ كان عليها أن تخرج فيما قيل لي. ورأيت أنّها تبرهن بذلك عن الكثير من اللامبالاة نحوي وتمالكت كي لا ألومها على ذلك.

ولما توالت اختناقاتي في حين لم يعد يفسّرها الاحتقان الرئوي الذي زال منذ مدّة طويلة أرسل أهلي في طلب الأستاذ «كوتار». وليس يكفي طبيباً يُستَدْعَى في حالات من هذا القبيل أن يكون متعلّماً. فإذ يقف قبالة أعراض يمكن أن تعود لثلاثة أو أربعة من الأمراض المختلفة فإن بصيرته ونظرته الثاقبة هما اللتان تقرّران في نهاية المطاف مع أيّ منها يمكن أن يسعفه الحظّ باللقاء على الرغم من المظاهر المتشابهة تقريباً. هذا ولا تقتضي هذه الموهبة الخفيّة أيّ تفوق في أقسام العقل الأخرى إذ يستطيع شخص عاميّ جداً يحبّ أسوأ أنواع الرسم وأردأ الموسيقى ولا يتمتع بأي فضول فكري أن يمتلكها تماماً. فما كانت ملاحظته ممكنة على الصعيد المادي في حالتي كان يمكن أن تسبّبه على حدّ سواء تشنّجات عصبيّة أو بدايات سلّ أو الربو أو اختناق ناجم عن تسمّم غذائي يرافقه قصور في الكليتين أو التهاب القصبات المزمن أو حالة معقّدة قد تدخل فيها عدّة من تلك العوامل. ففي حين تقتضي التشنّجات العصبيّة أن تؤخذ بالازدراء يقتضي السلّ عناية كبيرة ونوعاً من زيادة التغذية ربّما أضرّ بحالة من نوع التهاب كالربو وأمكن أن يكون خطراً في حالة الاختناق الناجمة عن تسمّم غذائي والتي تتطلّب حمية هي على العكس وخيمة العاقبة بالنسبة إلى مسلول. ولكن تردّد «كوتار» كان قصيراً وجاءت تعليماته ملحّة: «مسهلات عنيفة وسريعة، ثم الحليب على مدى بضعة أيّام، الحليب فقط. لا لحم ولا كحول». وتمتمت والدتي: إنني كنت على العكس بحاجة تجديد قواي وإنني كنت عصبيّاً بما فيه الكفاية وإن هذا المسهل الجدير بحصان وهذه الحمية سوف يذهبان بقواي. ورأيت في عيني «كوتار»، وهما في مثل القلق الذي قد يصيبه لو أنّه خشي أن يفوته القطار، أنّه كان يتساءل إن هو

لم ينسق وراء طيبته الطبيعية. كان يحاول أن يتذكر إن هو فكر في اتّخاذ قناع الجفاء، مثلما يبحث المرء على مرآة لينظر إن لم ينسَ عقد ربطة عنقه. وإذ كان في شك أجاب بفظاظة: «لم أتعوّد أن أكرّر أوامري مرّتين. إليّ بريشة. وألح على الحليب. وبعدما نوقف النوبات والأرق، بعد ذلك أوافق على أن تتناول بعض الحساء ثم مسحوق البطاطا مع الالتزام على الدوام بالحليب، بالحليب. وسوف يروقك ذلك بما أن «الحليب خير طبيب». (وكان تلاميذه يعرفون تمام المعرفة هذا المثل الذي ينادي به في المستشفى في كل مرة يوصي فيها مريضاً بالقلب أو الكبد بالتزام حمية الحليب). وبعدها تعود بالتدريج إلى الحياة المعتادة. ولكن، في كل مرّة يعاودك فيها السعال والاختناق عليك بالمسهلات وغسل الأمعاء وملازمة الفراش والحليب». وأصغى ببرود شديد إلى اعتراضات أمي الأخيرة، ولما فارقنا دون أن يتنازل بشرح أسباب تلك الحمية حكم والداي أن لا علاقة لها بحالتي وأنّها تضعفني دون جدوى فلم يدعا لي أن أجرّبها. وحاولا بالطبع أن يخفيا على الأستاذ خروجهما على طاعته وتجنّبا، كيما يفلحا في الأمر على نحو أكيد، جميع البيوت التي قد يلاقيانه فيها. ثم قرّر القوم، وقد تفاقمت حالتي، أن أتبع أوامر الدكتور «كوتار» بالحرف، ولم يطلّ بي بعد انقضاء ثلاثة أيّام حشرجة أو سعال وأخذت أتنفس على ما يرام. حينئذ أدركنا أنّ «كوتار» قد ميّز أن ما كان يغلب عليّ آنذاك إنّما هو التسمّم وأنه بإسالة الكبد وغسل الكليتين سوف يزيل احتقان القصبات ويرد لي النَّفَس والنوم والقوى، مع أنّه وجدني، مثلما قال فيما بعد، مصاباً بالرب و«واقعاً في الغرام» على وجه الخصوص. وأدركنا أن هذا المخبول كان طبيب سريريات عظيماً. واستطعت أخيراً أن أنهض على قدميّ. إلّا أنهم أخذوا يتحدّثون عن التوقف عن إرسالي إلى «الشانزيليزيه»، وكنت أحسب أنّهم يستغلّون الحجّة كي لا أستطيع من بعد ملاقاة الآنسة «سوان» فكنت أرغم نفسي على ترداد اسم «جيلبيرت» شأن اللغة الأمّ التي يجهد المغلوبون في المحافظة عليها كي لا ينسوا الوطن

الذي لن يروه ثانية. وكانت أمي تمرّر يدها أحياناً على جبيني وهي تقول لي:

- «ألا يروي الصبية الصغار لأمّهم من بعد عن الغم الذي لهم؟».

وكانت «فرانسواز» تقترب مني كلّ يوم وهي تقول لي:

«أيّة سحنة أرى لسيّدي! ها إنّك لم تنظر إلى نفسك، لكأني بك من الأموات!» صحيح أني لو أصبت بمحض زكام لاتّخذت «فرانسواز» الهيئة الجنائزية نفسها. وكان إشفاقها يعود إلى «طبقتها» أكثر منه إلى حالتي الصحيّة. ولم أميّز حينئذ إن كان ذلك التشاؤم يرتدي لدى «فرانسواز» طابع الألم أو الرضى، وخلصت مؤقتاً إلى أنّه اجتماعي ومهني.

وذات يوم وضعت أمي على سريري، ساعة ورود البريد، رسالة. وفضضتها وأنا ساهٍ عنها بما أنها لا يمكن أن تحمل التوقيع الذي يستطيع وحده أن يجلب لي السعادة، توقيع «جيلبيرت» التي لم تعد تربطني بها علاقة خارج «الشانزيليزيه». بيد أنّني إنّما أبصرت، في أسفل الورقة التي طُبِعَتْ بخاتم فضّيّ يمثل فارساً بخوذة يستدير تحته هذا الشعار: «*Per viamrectam*»[1]، تحت رسالة خطّت بحروف كبيرة وبدت فيها جميع الجمل على وجه التقريب وكأنما وضع تحتها خطّ لمجرّد أنّ خطّ حرف «t» كان وارداً فوقه عوضاً عن أن يقطعه فيضع بذلك خطاً تحت الكلمة المقابلة في السطر الأعلى، أبصرت بالضبط توقيع «جيلبيرت». على أن تلك الرؤية التي لا يرافقها اليقين لم تسبّب أيّة مسرّة لأنني كنت أعلم أنّها مستحيلة في رسالة موجّهة إليّ. ولم يكن منها على مدى لحظات سوى أنّها طبعت باللاواقع كلّ ما كان من حولي. لقد أخذ هذا التوقع الذي لا يمكن تصديقه يلعب لعبة الزوايا الأربع مع سريري وموقدي وجداري بسرعة مدوّخة. أخذت أرى كلّ شيء يترنّح شأن من يسقط عن ظهر جواد وأسائل نفسي إن لم يكن ثمة حياة مختلفة تماماً عن تلك التي

---

(١) باللاتينية ويعني: «من الطريق القويمة».

أعرفها مناقضة لها وتكون هي الحقيقة وقد أُبرزت لي فجأة فملأتني بتلك الحيرة التي أضفاها النحّاتون الذين وصفوا يوم الحساب على الأموات وهم يستفيقون على عتبة العالم الآخر. وقد جاء في الرسالة ما يلي: «صديقي العزيز، لقد أُخبرت أنّك مرضت مرضاً شديداً وأنك لم تعد تأتي إلى «الشانزيليزيه». وأنا بدوري لم أعد أذهب إلى هنالك تقريباً لأنّ ثمّة عدداً ضخماً من المرضى. ولكنّ صديقاتي يأتين لتناول «العصرونيّة» كلّ اثنين وكل جمعة في منزلنا. وقد كلفتني والدتي أن أقول لك إنّك توليننا سروراً عظيماً بمجيئك أنت أيضاً حالما تستردّ العافية وبوسعنا أن نعود في البيت إلى أحاديثنا الطيبة في «الشانزيليزيه». إلى اللقاء أيها الصديق العزيز، وآمل أن يسمح لك والدك بالمجيء كثيراً لتناول العصرونية، وأبعث إليك بكل عواطف الصداقة» «جيلبيرت».

وفيما كنت أقرأ تلك الكلمات كانت جملتي العصبية تأخذ بسرعة مذهلة الخبر الذي مفاده أن سعادة عظيمة تحلّ بي. ولكنّ روحي، يعني أنا بذاتي والمعنيّ الرئيسي بالأمر بوجيز العبارة، كانت لا تزال جاهلة بها فالسعادة، السعادة على يد «جيلبيرت»، إنما كانت أمراً فكرت فيه تفكيراً مستمراً، أمراً كلّه من دنيا الأفكار، كانت «شيئاً ذهنياً»[1]، حسبما يقول «ليوناردو» عن الرسم. إن أمر ورقة تغطيها الحروف أمر لا يتمثّله الفكر في الحال ولكن ما إن أتيت على آخر الرسالة حتى فكّرت فيها وأصبحت موضع أحلام، أصبحت هي الأخرى «شيئاً ذهنياً»، حسبما يقول «ليوناردو» عن الرسم. إن أمر ورقة تغطيها الحروف أمر لا يتمثّله الفكر في الحال ولكن ما إن أتيت على آخر الرسالة حتى فكّرت فيها وأصبحت موضع أحلام، أصبحت هي الأخرى «شيئاً ذهنياً» وأخذت مذ ذاك أحبّها حتى أضحى من الضروري أن أعيد قراءتها وأقبّلها. حينئذ عرفت سعادتي.

والحياة مزروعة بتلك العجائب التي يستطيع أولئك الذين يحبّون أن

---

(١) *Cosa mentale*.

يأملوها على الدوام. من الممكن أن تكون هذه الأخيرة قد سبّبتها على نحو مصطنع والدتي التي أرسلت تطلب من «جيلبيرت»، بعد ما رأت أنّني فقدت منذ حين كلّ رغبة في الحياة، أن تكتب لي، مثلما كانت، في زمن أوّل عهدي بالسباحة، تسلّم مرشدي السبّاح خفية، كيما أستمتع بالغطس الذي كنت أكرهه لأنه يقطع عليّ أنفاسي، علباً رائعة صنعت من الأصداف وأغصاناً من المرجان كنت أظنّ أنّي أجدها بنفسي في قاع المياه. على أنّ الأفضل بالنسبة إلى جميع الأحداث التي تتعلق بالحب، في الحياة وأوضاعها المتناقضة، أن لا نحاول الفهم لأنّها تبدو بطابعها الذي لا يرحم وغير المؤمّل على حد سواء وكأنّما تحكمها قوانين سحريّة أكثر منها عقلانية. فحينما يتّفق لصاحب الملايين الكثيرة، وهو على ذلك رجل ظريف، أن تصرف المرأة الفقيرة العديمة الظرف التي يعيش وإياها، ويستعين في خضم يأسه بجميع قوى الذهب ويلجأ إلى جميع مؤثرات الأرض دون أن يفلح في أن يُستَعْاد فخير له أن يفترض، حيال عناد عشيقته الذي لا يلين، أن القدر يبغي إنهاك قواه وأن يورده الموت بآفة قلبية من أن يبحث عن تفسير منطقيّ. وإن تلك العقبات التي ينبغي للعاشقين أن يكافحوها والتي يحاول خيالهم الذي ألهبه العذاب استشفافها دون جدوى إنّما تكمن أحياناً في بعض وجوه غرابة طباع المرأة التي لا يستطيعون استردادها، في غبائها، في النفوذ الذي يبسطه عليها أشخاص لا يعرفهم العشيق وفي المخاوف التي يوحون بها إليها، في صنف المتع التي تطالب بها الحياة في ذلك الحين، تلك المتع التي لا يستطيع عشيقها، ولا ثروة عشيقها تستطيع أن تقدمها لها. والعشيق في جميع الأحوال في موقع سيئ كيما يعرف طبيعة العقبات التي تخفيها عنه حيلة المرأة والتي يحول تقديره الذي أفسده الحب دون قدرها قدراً دقيقاً. إنّها تشبه تلك الأورام التي يتوصّل الطبيب إلى قهرها، ولكن دون أن تتم له معرفة منشئها وكمثلها تظلّ تلك العقبات خفيّة ولكنّها مؤقّتة. بيد أنّها تدوم بعامّة أكثر من الحبّ. ولما لم يكن هذا الأخير هوى يتسم بالتجرّد، فإن المحب الذي لا يحبّ

من بعد لا يحاول أن يعلم لماذا رفضت المرأة الفقيرة اللعوب التي أحبّها، لماذا رفضت بعناد على مدى سنوات أن يمضي في الإنفاق عليها.

والسرّ ذاته الذي غالباً ما يحجب عن الأبصار سبب الكوارث إنّما يلفّ، في قضايا الحبّ، فجائيّة بعض الحلول السعيدة بنسبة التكرار ذاتها (من مثل الحلّ الذي جاءتني به رسالة «جيلبيرت»). تلك حلول سعيدة، أو هي على الأقلّ كذلك تبدو، لأنّه ليس منها على وجه التقريب ما كان بالحقيقة على ذلك النحو حينما يكون الأمر أمر شعور من نوعيّة لا تفضي بتلبيته عموماً إلا إلى تبديل مطرح العذاب، بيد أنّه يتّفق أحياناً أن يحظى المرء بهدنة ويتوهم بعض الوقت أنّه قد شفي.

أمّا في ما يخصّ هذه الرسالة التي أبت «فرانسواز» أن تتعرّف في أسفلها إلى اسم «جيلبيرت» (Gilberte) لأن «G» المنمّق المتكئ على «I» غير منقوط كان يبدو وكأنه «A» فيما مُدَّ المقطع الأخير إلى ما لا حدود من جرّاء توقيع متكسّر الخطوط، فإن اهتم المرء بالبحث عن تفسير عقلاني للتحول الذي كانت تترجمه وكان يبعث فيّ هذا القدر من السرور فربّما استطاع الظنّ بأنّي مدين في قسم منه لحادثة كنت ظننت بالعكس أن من شأنها أن تقضي عليّ إلى الأبد في ذهن أسرة «سوان». ذلك أن «بلوك» جاء يعودني قبل ذلك بقليل في حين كان الأستاذ «كوتار» الذي دَعَوْهُ للعودة منذ أن أخذت في اتباع الحمية التي فرضها عليّ لا يزال في حجرتي. ولمّا انتهت الاستشارة وظلّ «كوتار» بمثابة زائر فحسب لأنّ والديّ احتفظا به للغداء فقد سُمِحَ لِـ«بلوك» بالدخول، وفيما كنّا جميعنا نتبادل الحديث وإذ روى «بلوك» أنّه سمع أن السيّدة «سوان» تحبّني كثيراً وذلك على لسان شخص تناول معه البارحة طعام العشاء وهو وثيق الصلة بالسيّدة «سوان» وددت لو أجيبه بأنّه مخطئ بالتأكيد وأن أثبت، بداعي الدقّة نفسها التي حملتني على التصريح بالأمر للسيّد «دو نوربوا» ومخافة أن تحسبني السيّدة «سوان» كاذباً، أني ما كنت أعرفها ولم أتحدّث إليها في يوم. ولكنّي لم أملك الجرأة لتصويب خطأ «بلوك» لأنني أدركت تماماً

أنه مقصود وأنه إن اختلق أمراً لا يمكن بالتأكيد أن تكون السيّدة «سوان» قالته فكيما تُعْلن أنه تناول طعام العشاء إلى جانب إحدى صديقات تلك السيّدة، الأمر الذي كان يحتسبه مدعاة للزهو ولم يكن صحيحاً. وقد اتّفق أنه فيما احترس السيّد «دو نوربوا»، وقد علم أني لا أعرف السيّدة «سوان» ووددت لو أعرفها، أن يحدّثها عني، حسب «كوتار»، وقد اتخذته طبيباً لها، حسب، بعدما استخلص مما سمع على لسان «بلوك» أنها تعرفني تمام المعرفة وتقدرني، أنه إن قال حينما سيراها إنني شاب ظريف يرتبط معه بصداقة فلا يمكن أن يفيدني ذلك في شيء ويكون مدعاة لزهوه، وهما سببان حملاه على أن يروي عني لِ«أوديت» حالما سنحت له الفرصة.

حينذاك عرفت تلك الشقة التي كان يفيض منها حتى الدرج العطر الذي كانت تستخدمه السيّدة «سوان»، وإنما كان يعطرها أكثر من ذلك السحر الخاص المؤلم الذي ينبعث من حياة «جيلبيرت». فقد تعود البواب المتصلب، بعدما استحال ربة انتقام عطوفاً، حينما كنت أسأله إن كان بوسعي أن أصعد، تعود أن يشير إليّ، وهو يرفع قبعته بيد رفيقة، أنه يستجيب لرجائي. والنوافذ التي كانت تضع من الخارج بيني وبين الكنوز التي لم تكن معدّة لي نظرة براقة متعالية سطحية تبدو لي وكأنها نظرة آل «سوان» ذاتها، تلك النوافذ اتفق لي، بعدما أكون قضيت في فصل الصيف كامل بعد الظهر بصحبة «جيلبيرت» في حجرتها، أن أفتحها بنفسي لأفسح لبعض الهواء أن يدخل، وأن أطلّ منها إلى جانبها، إن كان يوم استقبال والدتها، لأشاهد وصول الزائرين الذين غالباً ما كانوا يرفعون رؤوسهم لدى نزولهم من العربة فيحيونني بأيديهم إذ يحسبونني من أبناء أشقاء سيدة البيت. كانت تبدو جدائل «جيلبيرت» تلامس خدي في تلك اللحظات. لقد كانت تبدو لي في نعومة نجيلها، وهو طبيعي في آن واحد، وفي زخم تكوراتها الفنية قطعة فريدة استخدم فيها نجيل الفردوس نفسه. فأي معشب سماوي كنت أعطيه مِذْخَرَةً لقسم زهيد منها؟ ولكن لو أمكنني على الأقل امتلاك صورة لها أثمن لديّ بكثير من صورة زهيرات رسمتها يد «دافنشي»!

وقد أقدمت، بغية الحصول على واحدة لدى أصدقاء لعائلة «سوان» وحتى لدى مصورين، على دناءات لم تزودني بما كنت أريد ولكنها ربطتني بصداقات دائمة مع أناس مزعجين إلى حد كبير.

أما والدا «جيلبيرت» اللذان منعاني فترة طويلة جدّاً أن أراها فقد كانا الآن - حينما أدخل إلى الردهة التي ترفرف على الدوام في جنباتها إمكانية لقائهما وهو أشد رهبة وأوفر اشتهاء من ظهور الملك في «فيرساي» بالأمس وحيث كنت أبالغ عادة، بعدما أصطدم بمشجب له سبعة فروع كشمعدان الكتاب المقدس، بتكرار التحيات أمام خادم يجلس بتنورته الرمادية الطويلة فوق الصندوق الخشبي، خادم حسبته في العتمة السيّدة «سوان»، - كان والدا «جيلبيرت»، إن اتفق أن مر أحدهما لحظة وصولي، يشدان على يدي وهما يبتسمان ويقولان لي، وما أبعد أن يبدوا بمظهر الغاضب: «كيف حالك» (ويلفظانها دونما حركة على «الكاف» (كيف حَالُكْ) تلك الحركة التي كان من المنطقي لدى عودتي إلى المنزل أن أقوم بتدريب مستمر وممتع كيما أزيلها).

أضف إلى ذلك «العصرونيات» نفسها التي كانت «جيلبيرت» تقدمها لأصدقائها والتي بدت لي فترة طويلة على أنها أعسر الحواجز التي تفصل بينها وبيني، وقد أصبحت الآن مناسبة تجمع بيننا وتعلمني بها بكلمة تكتبها (إذ كنت لا أزال صديقاً حديث العهد) على ورق مراسلات يختلف كل مرة. فمرة يزينه كلب صغير أزرق يبرز فوق تعليق ساخر كتب بالإنكليزية وذُيِّلَ بعلامة تعجب، وأخرى تطبعه مرساة بحرية أو الحرفان G.S. وقد امتدا امتداداً عظيماً داخل مستطيل يشغل كامل طول الورقة، أو اسم «جيلبيرت» وقد خطّ تارة بالمقلوب بإمضاء مختصر تحت ممطرة مفتوحة وقد كتبت بحرف كبير دون أن يتسنى لك تمييز حرف واحد منها. ولما لم تكن مجموعة أوراق الرسائل التي في حوزة «جيلبيرت» غير محدودة فقد كنت أشاهد من جديد بعد مضي عدد من الأسابيع الورقة التي كانت كالمرة الأولى التي كتبت إليّ فيها تحمل الشعار التالي:

«*Per viam rectam*» تحت الفارس الذي يعتمر خوذة داخل ميدالية من الفضة كامدة اللون. وكان يتم اختيار كل ورقة في هذا اليوم دون الآخر بمقتضى بعض الطقوس فيما كنت أحسب آنذاك، ولكنه فيما أعتقد الآن كان يتم بالأحرى لأنها كانت تحاول تذكر الأوراق التي استخدمتها في المرات الأخرى حتى لا تبعث في يوم بالورقة نفسها لأحد مراسليها إلا في فترات متباعدة أكثر ما يمكن التباعد. أقله بالنسبة إلى الذين كانت تكلّف نفسها بعض العناء من أجلهم. ولما كانت بعض الصديقات اللواتي تدعوهن «جيلبيرت» إلى تلك «العصرونيات» يضطررن بسبب اختلاف ساعات الدروس إلى الذهاب حال وصول الأخريات، فقد كنت أسمع ما إن أبلغ الدرج همس أصوات ينبعث من الردهة ويقطع فجأة، وسط الانفعال الذي يسببه لي الاحتفال المهيب الذي أزمع أن أحضره وقبلما أبلغ صحن الدرج، الروابط التي كانت تربطني بعد بالحياة السابقة ويسلبني حتى التذكر بأنه ينبغي لي أن أنزع لفاع عنقي بعدما أحس بالدفء وأن أنظر إلى ساعتي كي لا أعود متأخراً. كان يبدو لي ذلك الدرج، على أي حال، وكله من خشب على نحو ما كان يتم حينذاك في بعض البيوت المعدّة للاستثمار من طراز «هنري الثاني» الذي ظل فترة طويلة مثل «أوديت» الأعلى فأصبحت قريبة الرجوع عنه، ويحمل لافتة لا مقابل لها في بيتنا تقرأ عليها هذه الكلمات: «يمنع استعمال المصعد للنزول»، كان يبدو لي شيئاً بلغ حداً من المهابة جعلني أقول لذويّ إنه درج عتيق جاء به السيّد «سوان» من بعيد جداً. لقد كان ولعي بالحقيقة عظيماً إلى الحدّ الذي ما كنت لأتردّد معه في تزويدهم بتلك المعلومات حتى لو علمت أنها خاطئة لأنها وحدها التي تمكنهم من إبداء الاحترام نفسه الذي أبديه حيال مهابة درج عائلة «سوان». كذلك يخيل إليك أنك تحسن فعلاً، إزاء جاهل لا يستطيع أن يدرك قوام عبقرية طبيب كبير، بامتناعك عن الإقرار بأنه لا يعلم كيف يشفي الزكام. ولما كنت لا أتمتع بروح الملاحظة أية كانت وكنت بعامة لا أعرف اسم الأشياء الواقعة تحت ناظري ولا نوعها وأدرك

فقط أنها لا بدَّ خارقة حينما تقرب من عائلة «سوان» فلم يبدُ لي أكيداً أنني أرتكب كذباً بتنبيهي والديّ إلى قيمة ذلك الدرج الفنية ومورده البعيد، لم يبدِ لي ذلك أكيداً، بيد أنه لا بدَّ بدا محتملاً، فقد أحسست أنني أصبحت شديد الاحمرار حينما قاطعني والدي بقوله: «إني أعرف هذه البيوت؛ وقد شاهدت واحداً منها، إنها متشابهة كلها. وإنما يشغل «سوان» عدة طوابق فيها وقد شادها «بيرلييه». وأضاف أنه أراد الاستئجار في واحد منها ولكنه عدل إذ لم يجدها مريحة ولم يكن مدخلها كافي النور. قال ذلك، ولكني أحسست بالغريزة أن فكري كان لا بدَّ أن يتحمل التضحيات اللازمة في سبيل هيبة عائلة «سوان» وسعادتي، وأزحت إلى الأبد عني، بنوع من السلطة الباطنة على الرغم مما سمعت منذ لحظة، الفكرة الهدامة التي قوامها أن شقتهم شقة عادية كان من الممكن أن نسكنها، مثلما يستبعد متديّن «**حياة يسوع**» للكاتب «رونان» (Renan).

بيد أنني كنت أرتقي السلم درجة فدرجة، أيام «العصرونيات» تلك، وقد تجردت من تفكيري وذاكرتي وأضحيت محض دمية تتقاذفني أشد المنعكسات دناءة فأصل إلى المنطقة التي يتضوع فيها عطر السيّدة «سوان». كان يخيّل إليّ أني أبصر عظمة قالب الحلوى الشوكولا وقد أحيط بدائرة من صحون المعجنات المحمصة وبفوط صغيرة مشجرة رمادية تعلوها رسمات، تقتضيها اللياقة وينفرد بها آل «سوان». بيد أن هذه المجموعة اللامتغيرة المحددة كانت تبدو، شأن عالم الضرورة لدى «كانط»، منوطة بفعل أخير للحرية. فقد كانت «جيلبيرت» تقول، وقد اجتمعنا كلنا في صالتها الصغيرة، تقول فجأة وهي تنظر إلى ساعتها:

– «اسمعوا، إن غدائي أصبح الآن بعيداً، ولن أتناول العشاء إلا في الثامنة؛ وإني راغبة في تناول شيء ما. فماذا ترون؟».

وكانت تدخلنا إلى غرفة الطعام، وهي مظلمة كما هو الأمر داخل جدران معبد آسيوي رسمته يد «رامبرانت» وفيها قالب حلوى هندسي البناء وديع أليف بمقدار ما هو مهيب يبدو وكأنه يتربّع هناك على سبيل

الاحتياط، كيوم عاديّ جدّاً، فيما لو خطر لِـ«جيلبيرت» أن تنزع إكليل شرفاته المصنوعة من الشوكولا وأن تدكّ أسواره بسفوحها الصهباء الشديدة الانحدار والتي شويت في الأفران كحصون قصر «داريوس». بل وأكثر من ذلك، لم تكن «جيلبيرت» تستشير جوعها فحسب كيما تباشر في تهديم الحلوى «النينويّة»[١]، فقد كانت تستعلم عمّا بي من جوع فيما كانت تستخرج لي من البناء المنهار جانباً بأكمله مصقولاً ومقطّعاً بثمار قرمزية اللون على الطريقة الشرقية. كانت تسألني حتى عن الساعة التي يتناول فيها والدي طعام العشاء وكأنّني ما زلت أعرفها وكأنّما سمح الاضطراب الذي كان يسيطر عليّ للإحساس بانعدام الشهية أو بالجوع ولفكرة العشاء أو صورة العائلة أن تظلّ جميعها قائمة في ذاكرتي الخالية ومعدتي المشلولة. بيد أن ذلك الشلل كان لسوء الحظّ مؤقّتاً. فقطع الحلوى التي كنت أتناولها دونما انتباه للأمر سوف تأتي لحظة ينبغي لي فيها هضمها. على أنها كانت لا تزال بعيدة وبانتظار ذلك، كانت «جيلبيرت» تعدّ لي الشاي «على طريقتي»، فأشرب منه دون توقف في حين يحول فنجان واحد دون أن أنام على مدى أربع وعشرين ساعة. وقد تعوّدت لذلك والدتي أن تقول: «إنه لأمر مزعج، فلا يمكن أن يذهب هذا الولد إلى منزل «سوان» دون أن يعود منه مريضاً». ولكن هل كنت أعلم فقط، وأنا في منزل أسرة «سوان»، أن ما كنت أحتسيه هو الشاي بعينه؟ ولعلّني لو علمت لأحتسيت منه مع ذلك لأنه لو تسنى لي فرضاً أن أستردّ للحظة تمييز الحاضر فما كان ذلك ليزودني بتذكر الماضي واستشفاف المستقبل. ولم تكن مخيلتي بقادرة أن تمضي حتى الزمن القصيّ الذي يمكن أن تخطر لي فيه فكرة النوم أو الحاجة إلى النوم.

أما صديقات «جيلبيرت» فلم يكنّ جميعهنّ غارقات في حالة النشوة تلك التي يستحيل معها اتخاذ قرار. فبعضهنّ كنّ يرفضن الشاي! حينئذ

---

(١) بالنسبة إلى نينوى.

كانت «جيلبيرت» تقول، والجملة شائعة جدّاً في تلك الحقبة: «ويحي، إن النجاح لا يحالفني في ما أقدّم من شاي!» وكيما تبالغ في إزالة فكرة الطابع الرسمي كانت تقول وهي تفسر ترتيب المقاعد حول الطاولة: «كأنما نحن في عرس؛ يا إلهي، ما أشدّ غباء الخدم».

كانت تقرض الحلوى وهي تجلس جلسة جانبية على مقعد متصالب الأرجل وُضِعَ بالعرض.

وكما لو كان بمقدورها أن تحوز هذا المقدار الكبير من المعجنات المحمصة دون أن يسبق لها استئذان والدتها، حينما كانت السيّدة «سوان» - التي كان يصادف «يومُها» عادة «عصرونيات» جيلبيرت - تدخل بعض لحظة من مرافقتها إحدى زائراتها راكضة ترتدي المخمل الأزرق أحياناً، وفي الغالب فستاناً من الساتين الأسود مغطّى بالدانتيلا البيضاء، وتقول بهيئة المتعجب:

- «عجباً، يبدو ما تأكلون طيّباً، وإني أشعر بالجوع إذ أراكم تأكلون «الكيك». وتجيب «جيلبيرت» قائلة: «إننا ندعوك إذن يا ماما».

- «لا، يا كنزي الثمين، إذ ما عسى أن تقول زائراتي، فلا يزال لديّ السيّدة «ترونبير» والسيّدة «كوتار» والسيّدة «بونتان»، وتعلمين أن السيّدة العزيزة «بونتان» لا تقوم بزيارات قصيرة جداً وقد وصلت منذ قليل فقط. ما عسى أن يقول جميع هؤلاء الناس الطّيبين إذ لا يرونني أعود؟ إن لم يوافقني أحد بعد فسأعود للتحدّث معهم (الأمر الذي يسليني أكثر بكثير) بعدما يذهبون. وأحسب أني أستحقّ بعض الهدوء، فقد وافتني خمس وأربعون زائرة، وقد حدثتني اثنتان وأربعون من خمس وأربعين عن لوحة «جيروم»! ثم تقول لي: «هلمّ في أحد الأيام لتناول الشاي على طريقتك مع «جيلبيرت» فسوف تعده لك وفق ما تشتهي، ومثلما تتناوله في مقرّك الصغير»، تضيف قولها وهي تسرع إلى زائراتها وكأنما كان ذلك معلوماً لديّ بقدر ما كانت عاداتي، (ومن بينها حتى تلك التي اتخذتها في تناول الشاي، إن تناولته في يوم؛ أمّا بشأن المقرّ فكنت غير متيقّن إن كان لديّ

واحد أم لا) عاداتي التي جئت أبحث عنها في هذا العالم الزاخر بالأسرار. ثم تقول: «متى تجيء؟ في الغد؟ سوف نعدّ لك خبزاً محمصاً في مثل جودة ما يتوافر لدى «كولومبان». لا؟ إنك لخبيث»، تقول ذلك لأنها منذ أن أصبح لها هي الأخرى منتدى اتخذت أسلوب السيّدة «فيردوران» ولهجتها المستبدّة المتصنّعة. ولما كان الخبز المحمص مجهولاً لديّ مثلما كان «كولومبان» بالتمام، فلم يكن بوسع هذا الوعد الأخير أن يضيف شيئاً إلى إغرائي. وسوف يبدو أكثر غرابة أنني لم أفهم منذ الدقيقة الأولى عمّن تريد السيّدة «سوان» أن تتحدث حينما سمعتها تثني على «مربيتنا»[١] العجوز، بما أن الجميع يتحدثون بهذه اللغة وحتى في «كومبريه». وما كنت أعرف الإنكليزية ولكني فهمت بعد قليل أن اللفظة تشير إلى «فرانسواز». لقد علمت، أنا الذي خشي كثيراً في «الشانزيليزيه» من الانطباع المؤسف الذي لا بدّ أنها ستخلّفه، علمت على لسان السيّدة «سوان» أنّ ما ولّد لديها ولدى زوجها شعوراً بالمودة نحوي إنما كان كلّ ما روت لها «جيلبيرت» عن مربيتي. «تحسّ أنّها مخلصة لكم إلى حدّ كبير وأنّها طيّبة جدّاً». (وفي الحال تبدل رأيي بـ«فرانسواز» تبدّلاً كلّياً. ولم يعد يبدو لي، تبعاً لذلك، أنّ المعلمة التي لها حذاء كاوتشوك وريشة في قبعتها أمر ضروري إلى هذا الحدّ). وأدركت أخيراً من جرّاء بضع كلمات أفلتت من السيّدة «سوان» بحق السيّدة «بلاتان»، وكانت تقر بطيبتها ولكنّها تخشى زياراتها، أن العلاقات الشخصية مع تلك السيّدة لم تكن عزيزة عليّ بمقدار ما ظننت وما كانت لتحسّن وضعي لدى آل «سوان» في شيء.

ولئن شرعت أكتشف بتلك الرعشات من الاحترام والفرح المملكة الخيالية التي فتحت في وجهي، خلافاً لكل التوقعات، شوارعها المغلقة حتى ذاك فإنما كان ذلك فقط بوصفي صديقاً لِـ«جيلبيرت». والمملكة التي يجرى استقبالي فيها كانت تحتويها بدورها أخرى أكثر أسراراً يقضي فيها

---

(١) أوردت اللفظة بالإنكليزية «nurse» ولذاك لم يفهمها.

«سوان» وزوجته حياتهما الخارقة ويتوجهان إليها بعد ما يشدان على يدي حينما كانا يجتازان الردهة في الوقت نفسه الذي اجتازها فيه في الاتجاه المعاكس. ولكني دخلت بعد قليل أيضاً إلى صميم ذلك المعبد. لم تكن «جيلبيرت» مثلاً حاضرة وفي البيت السيّد «سوان» أو السيّدة «سوان». لقد سألا من ذا قرع الجرس ولمّا أُخبرا أنّ القارع أنا أرسلا يرجوانني أن أدخل لفترة بالقرب منهما وهما راغبان أن أستخدم نفوذي على ابنتهما في هذا الاتجاه أو ذاك ومن أجل هذا الأمر أو ذاك. وأخذت أذكر تلك الرسالة الكاملة المقنعة إلى حدّ بعيد التي سطرتها فيما سلف لِـ«سوان» والتي لم يكلف نفسه حتى عناء الإجابة عليها. وكنت أعجب لعجز الفكر والعقل والقلب عن إجراء أقلّ انقلاب وعن حلّ واحدة من تلك المصاعب التي تحلها الحياة فيما بعد بيسر كبير دون أن ندري البتّة كيف تصرفت في ذلك. كانت مكانتي الجديدة صديقاً لِـ«جيلبيرت» عظيم التأثير عليها تسمح بأن أفيد من الحظوة عينها التي لو اتفق أن كان ابن أحد الملوك زميلي في مدرسة أُصَنَّفُ فيها الأول أبداً لَدِنْتُ ربما لتلك الصدفة بمداخلي الخاصة إلى القصر وبمقابلات في قاعة العرش. لقد كان «سوان» يدخلني مكتبه بمنتهى اللطف وكما لو لم يكن مثقلاً بالمشاكل العظيمة ويدعني فيه ساعة كاملة أجيب بتمتمات وفترات صامتة وليدة الخجل تقطعها طفرات من الجرأة قصيرة لا ترابط فيها عن أقوال يحول اضطرابي دون أن أفهم منها كلمة واحدة. وكان يريني حاجات فنّية وكتباً يحكم أن من شأنها أن تستهويني وما كنت أشك سلفاً أنها تبز كل ما يملكه متحف اللوفر والمكتبة الوطنية جمالاً، إلا أنه يستحيل عليّ مشاهدتها. ولعل رئيس خدمة كان يدخل السرور إلى نفسي في تلك اللحظات لو طلب منّي أن أعطيه ساعتي ودبوس ربطة عنقي وحذائي وأن أوقع له صكاً يجعله وريثاً لي: وحسبما تقول العبارة الشعبية الجميلة التي لا نعرف واضعها كما هي حال أكثر الملحمات شهرة والتي قُدّر لها مثلها مؤلف، خلافاً لنظرية «فولف» - Wolf - (واحد من تلك العقول المبدعة المتواضعة من مثل ما يتفق في

كل عام والتي تقع لها لقيات تضاهي «حمل الاسم على الوجه»، ولكنها هي لا تعرب عن اسمها): ما عدت أعرف ما كنت أفعل. وأكثر ما في الأمر أنني كنت أعجب حينما تطول الزيارة مما تقودني إليه تلك الساعات التي أقضيها في المنزل المسحور من انعدام التحقيق وغياب الخاتمة السعيدة، على أنّ خيبة أملي لم يكن مردها لا قصور الروائع المعروضة ولا استحالة تثبيت نظرة شاردة عليها. فلم يكن الجمال الذاتي الكامن في الأشياء ما يجعل وجودي في مكتب «سوان» عجائبياً، بل أن يلتصق بتلك الأشياء - وربما أمكن أن تكون من أقبحها في العالم - الشعور الخاص الحزين الزاخر بالشهوة الذي أحدد موقعه فيها منذ العديد من السنين والذي لا يزال يطبعها؛ مثلما كثرة المرايا وفراشي الفضة والمذابح المنحوتة المرسومة بريشة أعظم الفنانين من أصدقاء للقديس أنطونيوس البادواني لم تكن في شيء في الشعور بلا جدارتي وبعطفها الملكي الذي كان يداخلني حينما تستقبلني السيّدة «سوان» فترة في غرفتها حيث تعد ثلاث مخلوقات جميلات ومهيبات هنّ وصيفاتها الأولى والثانية والثالثة أثواباً رائعة وهن يبتسمن، والتي كنت أتوجه إليها، بناءً على الأمر الذي تفوه به خادم ببنطال قصير بأن السيّدة راغبة في أن تقول لي كلمة، من طريق ممر ملتوٍ تعطره عن بعد أطياب ثمينة تنشر دون انقطاع من حجرة زينتها نفحات محملة بالعطر.

وبعدما تعود السيّدة «سوان» بالقرب من زائراتها كنا نسمعها توالي الكلام والضحك، فقد كانت ترفع صوتها حتى في حضرة شخصين، كما لو انبغى لها أن تجابه جميع الرفاق، وتطلق الكلمات مثلما تسنى لها مرّات عديدة أن تسمع «ربة البيت» تفعل في الفترات التي كانت فيها هذه الأخيرة «تدير الحديث». ولما كانت العبارات التي اقتبسناها حديثاً عن الآخرين هي تلك التي نحب استعمالها أكثر ما نحب لفترة من الزمن على الأقل، فقد كانت السيّدة «سوان» تختار تارة العبارات التي تعلمتها من أناس بارزين لم يستطع زوجها أن يتحاشى تعرفها بهم (فمنهم أخذت

التكلف الذي قوامه حذف «ال» التعريف أو اسم الإشارة أمام صفة تنعت بها شخصاً)، وطوراً عبارات أكثر قرباً من العامية (كأن تقول مثلاً: «إنه شيء لا يذكر!» وهو القول المفضل لدى إحدى صديقاتها)، وتحاول إقحامها في جميع الحكايات التي كانت تحب أن ترويها، وفقاً لعادة شاعت في «الجماعة الصغيرة». وكان يسرها أن تقول بعد ذلك: «إني أحب هذه الحكاية حُباً جماً»، «هيا اعترفي، إنها حكاية جميلة جدّاً»، الأمر الذي ورثته، عن طريق زوجها، عن آل «غيرمانت» الذين لم تكن تعرفهم.

كانت السيّدة «سوان» قد غادرت غرفة الطعام، ولكن زوجها الذي عاد منذ قليل كان يمر بنا بدوره. «جيلبيرت، هل تعلمين إن كانت أمك وحدها؟» - «لا يا بابا، لا يزال لديها بعض الناس».

- «كيف ذلك؟ وفي الساعة السابعة، ذلك أمر مخيف. لا بدَّ أن قوى المرأة المسكينة قد تحطمت. وإنها لسماجة». (لقد سمعتهم في البيت على الدوام يلفظون «الألف» ممدودة جداً، فأما السيّد «سوان» والسيّدة «سوان» فكانا يقولانها قصيرة). وكان يعاود الحديث وهو يتوجه إليّ قائلاً: «فكّر، منذ الساعة الثانية بعد الظهر! وقد قال لي «كميل» إن اثني عشر شخصاً على الأقل جاؤوا بين الرابعة والخامسة. ما بي أقول «اثني عشر»، فإني أظنه قال لي أربعة عشر. لا، بل اثنا عشر، آه! لم أعد أدري. حينما عدت لم أكن أفكر أنه يومها وحينما رأيت كل تلك العربات أمام الباب ظننت ثمة عرساً في البيت. إنني منذ فترة في مكتبتي ولم تتوقف رنات الجرس. بشرفي لقد أصبت منه بصداع. ولا يزال ثمة كثيرات بالقرب منها؟

- «لا، زائرتان فحسب».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «أتعلمين من هما؟».

- «السيّدة كوتار والسيّدة بونتان».

- «آه! زوجة رئيس مكتب وزير الأشغال العامة».

- «أعرف أن زوجها موظف في وزارة، ولكني لا أعرف بالضبط بأية صفة»، تقول «جيلبيرت» وهي تتصنع الطفولة.

- «كيف ذلك، أيتها الصغيرة، إنك تتكلمين كما لو كنت في العام الثاني من عمرك. ما بك تقولين: موظف في وزارة؟ إنه بمنتهى البساطة رئيس مكتب، إنه رئيس الدكّان بأسرها. ثم، أين عساي وضعت رأسي، إني وبشرفي في مثل شرودك، فليس رئيس المكتب بل مدير المكتب».

- «لست أدري، أنا. أهو شيء عظيم أن يكون المرء مدير المكتب؟» تجيب «جيلبيرت» التي لم تكن تضيع البتّة فرصة تظهر فيها اللامبالاة بالنسبة إلى كلّ ما يوحي بالزهو لوالديها (وربما أمكنها الاعتقاد من جهة أخرى أنها إنما تضيف ألقاً إلى علاقة ذائعة إلى ذلك الحدّ إذ تظهر وكأنها لا تعيرها كبير أهمية).

ويصيح «سوان» الذي يفضل على ذلك التواضع الذي قد يورثني شكاً لغة أكثر وضوحاً: «كيف ذلك، إن كان شيئاً عظيماً! إنه ببساطة الأول بعد الوزير! بل هو أكثر من الوزير، فهو الذي يقوم بكل شيء. ويبدو على كل حال أنه قدير؛ إنه رجل من الطراز الأول وشخص متميّز تماماً. وهو يحمل لقب ضابط في جوقة الشرف. إنه رجل ممتع ووسيم جداً إلى ذلك».

لقد تزوجته امرأته على أية حال على الرغم من أنف الجميع، لأنه كان «رجل ظرف». كانت له لحية شقراء ناعمة نعومة الحرير وقسمات حلوة وصوت يصدر من الأنف ونفس قوي الرائحة، وعين من زجاج، الأمر الذي كان كافياً لتأليف وحدة نادرة رقيقة. ويضيف موجهاً الحديث إليّ: «سأقول لك إنّي أهزأ كثيراً لرؤيتي هؤلاء الناس في الحكومة الحاضرة لأنهم من آل «بونتان» ومن بيت «بونتان - شونو»، وهم عنوان البورجوازية الرجعية الإكليريكية ذات الأفكار الضيقة. لقد عرف جدك المسكين تمام المعرفة، بالسمعة والوجه على الأقل، الجد «شونو» الذي لا يعطي سائقي العربات سوى فلس واحد بمثابة «إكرامية»، مع أنه كان

غنياً في تلك الفترة، والبارون «بريو - شونو». وقد تلاشت الثروة بكاملها في انهيار شركة «**الاتحاد العام**»، وتمّ إصلاح الأحوال بجميع ما أتيح لهم؛ أمّا أنت فإنك أصغر من أن تكون عرفت ذلك».

- «إنه عمّ فتاة كانت تجيء إلى مدرستي في صف أدنى مني بكثير، «ألبرتين» الشهيرة. سوف تصبح بالتأكيد شديدة الإغراء ولكنّها الآن غريبة الأطوار».

- «إن ابنتي مدهشة، فهي تعرف جميع الناس».

- «لست أعرفها، فقد كنت أراها تمرّ فحسب، فيهتفون بها يا «ألبرتين» من هنا ويا «ألبيرتين» من هناك. ولكنّي أعرف السيّدة «بونتان» وهي لا تعجبني بدورها».

- «إنّك على خطأ كبير جدّاً، فهي فاتنة وجميلة وذكيّة، وهي حتى ظريفة. وها إني ذاهب لتحيّتها ولأسألها إن كان زوجها يعتقد أنّنا مقبلون على الحرب وإن كان يمكن الاعتماد على الملك «تيودوز». فلا بدّ أنّه يعلم ما في الأمر، أليس كذلك، هو المطّلع على أسرار العظماء؟».

لم يكن «سوان» يتحدّث على هذا النحو فيما مضى. ولكن من تراه لم يشاهد أميرات من عائلات ملكيّة في منتهى البساطة يتّخذن تلقائياً، إن هنّ اختطفهنّ بعد عشر سنوات أحد الخدم وحاولن أن يعدن للالتقاء بالجماعات الراقية وأحسسن أن ليس من يجيء إلى منازلهم راضياً، لغة العجائز المملّات ولم يسمعهنّ يقلن حينما يجيء ذكر دوقة تساير ذوق العصر: «كانت البارحة في بيتي» و«إني أعيش في عزلة شديدة»؟ فمن اللامجدي إذن ملاحظة العادات إذ يمكن استخلاصها من القوانين السيكولوجية.

كان آل «سوان» يشاركون في هذا العيب الذي يطبع أولئك الذين يرتاد منازلهم القليل من الناس. فزيارة أشخاص بارزين إلى حدّ ما ودعوتهم ومجرّد كلمة لطيفة منهم إنّما كانت تؤلّف في نظرهم حدثاً يتمنون أن يوفّروا له الدعاية. فإن شاء سوء الطالع أن تكون عائلة «الفيردوران» في

لندن حينما دعت «أوديت» إلى عشاء راقٍ بعض الشيء تدبّروا الأمر كيما يتمّ إبراق الخبر إليهم إلى ما وراء بحر المانش على يد صديق مشترك. حتى الرسائل وبرقيات الإطراء التي تصل «أوديت» كان آل «سوان» عاجزين عن الاحتفاظ بها لذاتهم. فكانوا يتحدثون عنها إلى الأصدقاء ويعملون على أن تتناقلها الأيدي. وكانت صالة عائلة «سوان» تشبه بذلك فنادق مدن المياه التي تعلّق فيها إعلان البرقيات.

إن الأشخاص الذين عرفوا «سوان» القديم لا خارج المجتمعات الراقية فحسب، كما كان أمري، بل داخل المجتمعات الراقية هذه وفي وسط آل «غيرمانت» ذاك الذي كانوا فيه متشدّدين إلى ما حدود في ما يخصّ النباهة والجاذبية، باستثناء صاحبات السمو والدوقات، ويحكمون باستبعاد رجال بارزين يجدونهم مملّين أو عاديّين، إنّ أولئك الأشخاص ربّما دهشوا إذ يلاحظون أنَّ «سوان» القديم لم يعدل عن تكتّمه فحسب حينما يتحدّث عن معرّفه بل كذلك عن تشدّده حينما يقتضي الأمر اصطفاءهم. فكيف لا تثير السيّدة «بونتان» العاديّة جدّاً والسيّئة جدّاً حنقه؟ وكيف يمكنه القول بأنّها جذّابة؟ كان لا بدّ أن تمنعه عن ذلك ذكريات وسط آل «غيرمانت» فيما يبدو، ولكنها كانت في الواقع عوناً له في ذلك. صحيح أن آل «غيرمانت» كانوا يتمتعون بخلاف ثلاثة أرباع الأوساط المجتمعيّة الراقية، بالذوق، وحتى بذوق مرهف، ولكنّهم يشكون كذلك من التحذلق، الأمر الذي ينجم عنه إمكان انقطاع مؤقت في ممارسة الذوق. فإن كان أمر واحد ممن كانت الجماعة في غنى عنه، كأمر وزير خارجية جمهوري ورسميّ بعض الشيء، أو عضو مجمع علمي ثرثار، تمّت ممارسة الذوق إلى الحدّ الأقصى ضدّه، ورثى «سوان» لحال السيّدة «دو غرمانت» لأنها تناولت عشاءها إلى جانب مثل هؤلاء المدعوين في إحدى السفارات، فكانوا يفضّلون عليه ألف مرّة رجلاً أنيقاً، يعني رجلاً من وسط آل «غيرمانت»، رجلاً لا خير فيه ولكنّه يتحلّى بروح آل «غيرمانت»، رجلاً من العقليّة الضيّقة نفسها. أما إذا تناولت كبيرة دوقات

أو أميرة من السلالة المالكة عشاءها مرّات عديدة لدى السيّدة «دو غيرمانت» فقد كانت تلفي نفسها هي الأخرى إذ ذاك من تلك الجماعة الضيقة دون أن يكون لها أيّ حق في ذلك ودون أن تتحلّى بذرّة من روحها. ولكنّهم بسذاجة جماعة المجتمعات الراقية، كانوا يبذلون قصارى جهدهم، بما أنهم يستقبلونها في بيوتهم، كيما يجدوها محبّبة لتعذّر إمكان القول بأنهم إنّما يستقبلونها لأنّهم أَلْفوهَا محبّبة. وكان «سوان» إذ يجيء إلى ندوة السيّدة «دو غيرمانت»، يقول لها بعدما تذهب صاحبة السمو: «إنها في الأساس امرأة طيّبة وهي تتمتّع حتى بشيء من ملكة الهزل. أنا لا أحسب أنها تعمّقت في كتاب «**نقد العقل المحض**»، ولكنّها ليست مزعجة».

وتجيب الدوقة قائلة: «رأيي من رأيك تماماً. أضف أنها كانت وجلة، ولكنّها يمكن أن تكون جذّابة كما سترى» - «إنها أقلّ إزعاجاً من السيّدة س.ج. (وهي زوجة عضو المجمع اللغوي الثرثار، وكانت مدهشة) التي تذكر لك عشرين مجلداً».

- «لا مجال ثمة لأيّة مقارنة ممكنة». أمّا القدرة على الإدلاء بمثل تلك الأشياء وبصدق فقد اكتسبها «سوان» لدى الدوقة وحافظ عليها، وقد أخذ الآن يستخدمها حيال الناس الذين يستقبلهم. فقد كان يجهد في أن يميّز، في أن يحبّ فيهم الميزات التي يبديها كل كائن بشري إن نظرنا فيه باستعداد طيّب لا بتقزّز المرهفي الذوق. كان يُبرز فضائل السيّدة «بونتان» مثلما كان يفعل بالأمس بالنسبة إلى الأميرة «دو بارما» التي كان ينبغي استبعادها من وسط آل «غيرمانت» لو لم يكن ثمة امتياز لدخول بعض أصحاب السمو ولو لم يأخذوا حقاً في حسابهم، حتى حينما يتعلّق الأمر بهم، سوى النباهة وشيء من الظرف. وقد رأينا «سوان» فيما مضى على أيّة حال يميل إلى أن يستبدل بوضعه الاجتماعي وضعاً آخر يلائمه أفضل من الأول في بعض المناسبات (وإنّما كان يطبّقه الآن على نحو أكثر استمراراً فحسب). وليس سوى الذين يعجزون عن تفكيك ما يبدو لهم

لأوّل وهلة في إداركهم للأمور غير قابل للانقسام من يظنون أن الوضع يؤلّف جزءاً لا يتجزّأ من الشخصيّة. فالكائن نفسه، إمّا أخذناه في فترات متعاقبة من حياته، إنّما ينغمس وهو على درجات مختلفة من السلّم الاجتماعي في أوساط ليست اضطراراً أكثر فأكثر سمواً؛ وفي كل مرّة نرتبط أو نعود إلى الارتباط، في فترة الأخرى من الحياة، بعلاقات مع وسط خاص ونحس أننا نلقى فيه رعاية خاصّة، نشرع على نحو طبيعيّ بالتعلّق فيه فنمدّ فيه جذوراً بشريّة.

وأظنّ كذلك، في ما يخصّ السيّدة «بونتان»، أن «سوان» لم يكن يغضبه التفكير، إذ يتحدّث عنها بذلك الإلحاح، بأنّ والديّ سوف يعلمان أنها تأتي لزيارة زوجته. والحقيقة أن اسم الأشخاص الذين كانت هذه الأخيرة تتوصّل شيئاً فشيئاً إلى التعرّف بهم إنّما كان يثير الفضول في بيتنا أكثر ممّا يبعث الإعجاب. فكانت والدتي تقول لدى سماع اسم السيّدة «ترومبير»:

- «آه! تلك متطوّعة جديدة وسوف تأتيها بأخريات».

وتضيف والدتي كما لم تشبّه الطريقة المستعجلة بعض الشيء والسريعة والعنيفة التي تستولي بها السيّدة «سوان» على معارفها بحرب استعمارية:

- «أما وقد تمّ إخضاع آل «ترومبير» فلن تلبث القبائل المجاورة أن تستسلم». وحينما تقابل السيّدة «سوان» في الشارع كانت تقول لنا لدى عودتها:

- «أبصرت السيّدة «سوان» على أهبة الحرب، تزمع الانطلاق في هجوم مثمر على قبائل «ماسيشوتس» أو «السينغالنيين» أو آل «ترومبير».

وجميع الأشخاص الجدد الذين كنت أقول إني رأيتهم في ذلك الوسط الخليط والمصطنع الذي غالباً ما جيء بهم إليه ببعض الصعوبة من عوالم مختلفة إلى حدّ ما، كانت تكشف في الحال منشأهم وتتحدّث عنهم كما قد تفعل عن غنائم كلّفت ثمناً غالياً. فكانت تقول:

- «جيء به من حملة على القبائل الفلانية».

أمّا بشأن السيّدة «كوتار»، فقد كان والدي يدهش أن تستطيع السيّدة «سوان» العثور على مكسب، أي مكسب، في اجتذاب هذه البورجوازية اليسيرة الأناقة ويقول «على الرغم من مكانة الأستاذ فإني أقرّ بأني لا أفهم». أمّا أمي، فقد كانت بخلاف ذلك تفهم تمام الفهم. كانت تعلم أن جزءاً كبيراً من المتع التي تلقاها امرأة في الدخول في وسط مختلف عن ذاك الذي كانت تعيش فيه فيما مضى سوف يفوتها إن هي لم تستطع إطلاع من سلف من معارفها على المعارف الجدد الذين استبدلتهم بهم وهم نسبياً أكثر تألقاً. ولا بدّ لذلك من شاهدٍ ندع له أن يدخل إلى هذا العالم الجديد واللذيذ، مثلما حشرة بطنينها وسرعة تنقّلها إلى قلب زهرة، ثم هو ينشر الخبر، وتلك أمنيتهم، كيفما اتّفق عبر زياراته، ينشر البذرة التي اختلسها من حسد وإعجاب. وكانت السيّدة «كوتار» المهيّأة تماماً للقيام بهذا الدور من ضمن تلك الفئة الخاصّة من المدعوين الذين تناديهم والدتي، وكانت تتمتّع ببعض جوانب من طريقة تفكير والدها، بِ«أيّها الغريب، اذهب وقل في إسبارطة!» وباستثناء سبب آخر لم يعرف إلا بعد سنوات عدّة، لم تكن السيّدة «سوان» تخشى، في دعوتها تلك الصديقة الودودة المتحفظّة المتواضعة، من أن تدخل إلى بيتها خائناً أو منافسة. فقد كانت تعلم العدد الضخم من البيوت البورجوازيّة التي تستطيع تلك العاملة النشيطة أن تزوره على مدى عصر يوم واحد حينما تتسلّح بريشة قبّعتها وبحافظة بطاقاتها. كانت تعرف قدرتها على نشر الأخبار وكانت مخوّلة أن تعتقد، بالاستناد إلى حساب الاحتمالات، أن واحداً من روّاد بيت «الفيردوران» سوف يعلم على الأرجح منذ اليوم الذي يلي الغد أنّ حاكم باريس قد أودع بطاقات لديها، أو أنّ السيّد «فيردوران» نفسه سوف يسمع من يروي بأن السيّد «لوهو دو بريسّانيي» رئيس ميدان سباق الخيل قد اصطحبها هي و«سوان» إلى حفلة الملك «تيودوز». ولم تكن تفترض أسرةَ «فيردوران» عالمة بغير هذين الحدثين اللذين يضيفان إلى قدرها لأنّ الأشكال الماديّة

الخاصّة التي تمتثل فيها العزّة ونلاحقها فيها قليلة من جرّاء قصور نكرنا الذي يعجز عن أن يتخيّل في الآن نفسه جميع الأشكال التي نأمل من جهة أخرى أنها لن تقصّر - على نحو مجمل - عن اتّخاذها في الوقت نفسه لصالحنا.

والسيّدة «سوان» على أيّة حال لم تفز بنتائج إلا في ما كان يدعى «بدنيا الرسميّين». فالنساء الأنيقات ما كنّ يذهبن إلى منزلها. ولم يحملهنّ على الابتعاد حضور أعيان من الجمهوريّين. ففي زمان طفولتي الأولى كان كلّ ما يخصّ المجتمع المحافظ ينتمي إلى عالم المجتمعات الراقية وما كان يمكن استقبال أحد الجمهوريّين في منتدى يتّسم بالرصانة. وكان أولئك الذين يعيشون في مثل ذلك الوسط يتخيّلون أن استحالة دعوة «انتهازي»، ومن باب أولى «راديكالي» شنيع، أمر دائم، فيما يرون، على مرّ الأيّام، شأن مصابيح الزيت وعربات الخيول. غير أن المجتمع، شأنه في ذلك المشكال الذي يدور بين الحين والحين، إنّما يضع على التوالي وعلى نحو مختلف عناصر كنت تظنّها ثابتة المواقع ويؤلف منها شكلاً آخر. فلم يكن قد انقضى بعد وقت على إتمامي مناولتي الأولى حتى كانت الدهشة تأخذ نسوة من ذوات الرأي المستقيم لالتقائهن بيهوديّة أنيقة في زيارة. وهذه الترتيبات الجديدة في المشكال إنّما يصنعها ما قد يسمّيه أحد الفلاسفة تبدّلاً في المعايير. ثمّ جاءت قضيّة «دريفوس» بمعيار جديد في حقبة تلي بقليل تلك التي شرعت أتردّد فيها على منزل السيّدة «سوان» وقلب المشكال مرّة أخرى معيناته الصغيرة الملوّنة. وانقلب كلّ ما كان يهوديّاً إلى الأسفل، حتى السيّدة الأنيقة، وصعد وطنيون مغمورون فاحتلوا مكانها. وأصبح أكثر منتديات باريس تألقاً منتدى أمير نمساوي متطرّف في كاثوليكيّته. فلو حلّت حرب مع ألمانيا محلّ قضيّة «دريفوس» لتمّت دورة المشكال في اتجاه مغاير، ويحتفظ اليهود إذ ذاك، بعد ما برهنوا، فأثاروا دهشة الجميع، أنهم وطنيّون بمكانتهم ولا يبغي أحد من بعد الذهاب إلى منزل الأمير النمساويّ ولا حتى الإقرار بأنّه تردّد عليه في يوم.

ولا يحول ذلك في كل مرّة يبدو فيها المجتمع جامداً لفترة من الزمن دون أن يتصوّر الذين يعيشون فيه أنه لن يحدث أي تغيّر من بعد، مثلما لا يريدون بعدما رأوا بدايات الهاتف أن يؤمنوا بالطائرة. ويستنكر فلاسفة الصحافة آنذاك الحقبة السالفة ولا يكتفون بنوع المتع التي انصرف إليها الناس والتي تبدو لهم أحطّ درجات الفساد، بل يتجاوزونها إلى أعمال الفنّانين والفلاسفة التي لا يظلّ لها في نظرهم أية قيمة كما لو ارتبطت ارتباطاً لا انفصام فيه بالطُرق المتوالية التي يتحلى بها طيش المجتمعات الراقية. والأمر الوحيد الذي لا يتغيّر أنّه يبدو في كلّ مرّة أنّ «شيئاً ما قد تغيّر في فرنسا». لم تكن قضيّة «دريفوس» قد أثيرت بعد في الفترة التي ذهبت فيها إلى منزل السيّدة «سوان» وكان بعض كبار اليهود بالغي النفوذ، وليس منهم من كان أوفر نفوذاً من «السير روفوس إسرائيلز» الذي كانت زوجته «الليدي إسرائيلز» خالة «سوان». ولم يكن لدى هذه الأخيرة شخصيّاً معارف مقرّبون في مثل أناقة ابن شقيقتها الذي لم يُبْدِ في يوم كبير اهتمام بها لأنه لا يحبّها مع أنّه كان لا بدّ سيصبح وريثها. ولكنّها كانت الوحيدة من بين قريبات «سوان» التي تعي مكانته في المجتمعات الراقية، بينما ظلّت الأخريات بذلك الخصوص في موقع الجهل نفسه الذي ظللنا فيه لفترة طويلة. وحينما ينتقل أحد أعضاء أسرة ما إلى صفوف المجتمع الراقي - الأمر الذي يبدو له ظاهرة فريدة، ولكنّه يشهد بعد مضيّ عشر سنوات أنّه تمّ بطريقة أخرى ولأسباب مختلفة على يد أكثر من شاب واحد سبق له أن رُبّي معه - إنه يجعل من حوله منطقة ظلال، أرضاً مجهولة، واضحة في أقلّ أجزائها بالنسبة إلى الذين لا يلجونها ويحاذونها دون أن يتردّد عليهم «سوان»، فقد كانوا يروون بابتسامات التنازل في حفلات عشاء عائلية (قبل زواجه الفظيع بالطبع) أنهم أنفقوا يوم الأحد على «دروب الفضيلة» في زيارة «ابن العم شارل» الذي يظنّونه على شيء من الحسد ويعدّونه القريب الفقير فيسمّونه تفكّهاً وبالتلاعب على عنوان رواية

«بلزاك»: «ابن العم الغنيّ»[١]. أمّا «الليدي روفوس إسرائيلز» فقد كانت تعلم هي تمام العلم من كان هؤلاء الناس الذين يغمرون «سوان» بصداقة تملؤها غيرة. وكانت أسرة زوجها، وهي تعادل على وجه التقريب اسرة آل «روتشليد»، تدير أعمال أمراء أسرة «أورليان» منذ عدة أجيال. كانت «ليدي إسرائيلز» الفاحشة الثراء تتمتّع بنفوذ عظيم وقد استخدمته كي تمنع أي شخص تعرفه من استقبال «أوديت». شخص واحد خرج على طاعتها في الخفاء: إنّها الكونتيسة «مرسانت». وقد شاء سوء الطالع أن دخلت الليدي «إسرائيلز»، فيما كانت «أوديت» ذاهبة لزيارة السيّدة «دو مرسانت» فقد أضحى دونها خرط القتاد. وبتخاذل الجماعات الذين ربّما استطاعوا مع ذلك أن يبيحوا لأنفسهم كلّ شيء لم توجّه الكلام مرّة واحدة لِـ«أوديت» التي لم يشجّعها الأمر مذ ذاك أن تمضي قدماً في غزوتها لعالم لم يكن على أيّة حال ذلك الذي كانت تحبّ أن يُرَحّبَ بها فيه. واستمرّت «أوديت»، وسط لامبالاة ضاحية «سان جيرمان»[٢] التامّة، في كونها المرأة اللعوب الجاهلة التي تختلف أشدّ الاختلاف عن البورجوازيّين الضليعين في أقلّ مسائل الأنساب والذين يشاغلون تعطّشهم إلى العلاقات الأرستقراطية التي لا توفّرها لهم الحياة الحقيقية بقراءة المذكّرات القديمة. واستمر «سوان» من جهة أخرى في كونه دونما شك العاشق الذي تبدو تلك الخاصّيّات جميعها لدى عشيقة الأمس محبّبة في عينيه أو لا أذيّة فيها، إذ غالباً ما سمعتُ زوجته تتفوّه ببدع حقيقيّة على صعيد المجتمع دون أن يحاول تصويبها (من جرّاء بقيّة باقية من الحنان أو فقدان التقدير أو التكاسل في أمر تحسين معارفها). وربما كانت تلك صيغة من تلك البساطة التي طالما خدعتنا في «كومبريه» والتي تجعله الآن، فيما هو

---

(١) عنوان رواية بلزاك هو «*Le cousin Bête*» أي ابن العم بيت، وفيها تلميح الى روايتي *La Cousine Cousin Pons̃ Bette*

(٢) حي Saint - Germain الذي كان فيما مضى ولفترة قريبة وقفاً على علية القوم والأرستقراطيين.

يوالي التعرّف بأناس مرموقين لحسابه الخاص على الأقلّ، لا يهتمّ بأن يبدو الناس أثناء حديثهم في منتدى زوجته وكأنهم يعيرونهم بعض الأهميّة. وقد تناقضت هذه الأهميّة بالنسبة إلى «سوان» أكثر من أي وقت مضى إذ تبدّل مركز ثقل حياته. وقد بلغ جهل «أوديت»، من جهة أخرى، بأمور المجتمع، مبلغاً لو ورد معه في الحديث اسم الأميرة «دو غيرمانت» بعد اسم الدوقة ابنة عمّها لقالت «أوديت»: «عجباً! إنّهما من الأمراء، لقد ارتقينا إذن في سلّم المراتب». وإن قال أحدهم في حديثه عن دوق «شارتر»: «الأمير»، صحّحت في الحال» الدوق، إنّه دوق «شارتر» وليس أميراً. أمّا في ما يخص دوق «أورليان» ابن الكونت «دو باري» فتقول: «غريب أمره. إن الابن أعلى مرتبة من الأب». فيما تضيف، إذ هي مغرمة بالإنكليز: «تختلط الأمور عليك في هذه «الملكيّات»[١]. وقد أجابت شخصاً كان يسألها من أيّ مقاطعة جاء آل «غيرمانت»: «من الإين» (Aisne).

كان «سوان» على أيّ حال أعمى في ما يخصّ «أوديت»، لا حيال تلك الثغرات في تربيتها، بل حيال ضحالة عقلها أيضاً. بل وأكثر من ذلك: ففي كلّ مرّة تروي فيها «أوديت» قصّة تتّسم بالغباء، كان لا بدّ أن تخالطه بقيّات من اللذّة، فيما تعوّدت «أوديت» أن تصغي في الحديث نفسه إلى كلّ ما يمكن أن يقوله من أمور رقيقة وحتى عميقة بدون اهتمام وعلى نحو سريع وبنفاد صبر وأحياناً تعارضه بقسوة. ونخلص إلى القول بأنّ استبعاد الضحالة هذا للنخبة إنّما يشكل القاعدة في الكثير من الأسر، إن فكّرنا على العكس بالكثيرات من النساء المتفوقات اللواتي يخضعن لسحر رجل غليظ الفؤاد يراقب دون شفقة أرقّ أقوالهنّ فيما ينتشين إزاء أكثر نكاته تفاهة بتسامح الحنان الذي لا حدّ له. ولا بدّ لنا أن نقول، كيما نعود

---

(١) جاء في النص «Royalties» وتعني عائدات ضريبية وقد ترجمتها بما تقصده «أوديت» وأغفلت التلاعب اللفظي.

إلى الأسباب التي حالت في تلك الفترة دون دخول «أوديت» في ضاحية «سان جيرمان»، إن آخر دورة لمشكال المجتمع الراقي قد سببّتها سلسلة من الفضائح. فقد ثبت أنّ ثمة نساء من اللواتي كانت تُرتاد منازلهنّ بثقة تامّة كنّ من بنات الهوى وجاسوسات إنكليزيّات. لقد أصبح الناس مطالبين على مدى فترة معيّنة، أو هكذا ظنّوا على الأقلّ، أن يكونوا قبل أي شيء آخر حسني السيرة والمجلس. وكانت «أوديت» تمثّل بالضبط كلّ ما أقدم الناس على مقاطعته، ثم العودة إليه في الحال من جهة أخرى (لأنّ البشر إنّما يبحثون في العهد الجديد عن استمرار القديم، إذ هم لا يتغيّرون بين ليلة وضحاها) ولكنّهم يبحثون عنه في صيغة مختلفة تسمح بأن يكونوا ضحيّة الخديعة وأن يعتقدوا أنّه ما عاد مجتمع ما قبل الأزمة. وكانت «أوديت» شديدة الشبه بالسيّدات «المحترقات» في ذلك المجتمع. والناس في المجتمع الراقي يشكون من قصر نظر شديد، ففي حين يقطعون كامل علاقاتهم بسيّدات يهوديّات يعرفونهنّ، وفيما يتساءلون عن كيفيّة ملء ذاك الفراغ. يبصرون سيّدة جديدة يهوديّة هي الأخرى وقد دُفعتْ إلى هناك كأنما بفضل ليلة عاصفة. ولكنّها لا تُقْرَنُ في ذهنهم، من جرّاء أنّها جديدة، بما يظنّون من واجبهم أن يمقتوه، أسوة بالنسوة السابقات. فهي لا تطالب باحترام إلهها. ويتمّ تبنّيها. ولم يكن الأمر أمر معاداة السامية في الفترة التي شرعتُ فيها بالذهاب إلى منزل «أوديت». ولكنها كانت شبيهة بما كانوا يبغون الابتعاد عنه فترة من الزمن.

وكان «سوان» في ما يخصّه يقوم في الغالب بزيارة بعض معارفه بالأمس من اللواتي ينتمين بمجموعهن إذن إلى أعلى طبقات المجتمع، بيد أني لاحظت، حينما كان يروي لنا عن الجماعة التي قام بزيارتها، أن الاصطفاء من بين اللواتي عرفهنّ بالأمس كان يوجّهه ذلك الضرب من الذوق الذي نصفه فنّي والنصف تاريخي والذي كان يلهم هواية المجموعات لديه. ولما لاحظتُ أن ما يثير اهتمامه إنّما كان هذه السيّدة الكبيرة المقصاة عن المسرح أو تلك لأنها سبق أن كانت عشيقة «ليست»

أو أن إحدى روايات «بلزاك» تمّ إهداؤها لجدّتها (مثلما كان يبتاع رسماً إن سبق لِـ«شاتوبريان» أن وصفه)، داخلني الشكّ بأنّنا استبدلنا في «كومبريه» بخطأ احتساب «سوان» بورجوازيّاً لا يرتاد المجتمعات الراقية آخر قوامه أن نحسبه أحد أكثر رجال باريس أناقة. فأن تكون صديق الكونت «دو باري» لا يعني شيئاً. فكم من بين «أصدقاء الأمراء» أولئك من لعلّهم لا يستَقْبلونَ في منتدى مغلق إلى حدّ ما؟ إن الأمراء يعلمون أنّهم أمراء وليسوا متحذلقين ويحسبون أنّهم يَسْمُون إلى ذلك على كل ما ليس من دمهم إلى حدّ يبدو لهم فيه الأسياد الكبار والبورجوازيون من تحتهم على السويّة نفسها تقريباً.

ولم يكن يكتفي «سوان» على كل حال بالبحث في المجتمع على نحو ما هو عليه وبالتمسّك بالأسماء التي دوّنها الماضي فيه والتي لا تزال قراءتها فيه ممكنة، عن محض متعة مثقّف وفنّان، بل كان يتذوّق تسلية من نوع رخيص في صنع ما يشبه الباقات الاجتماعية بتجميع عناصر غير متجانسة وجمع أشخاص أخذوا من هنا وهناك. ولم يكن لتجارب السوسيولوجيا المسلّية هذه (أو التي يراها «سوان» على هذا النحو) الواقع نفسه على جميع صديقات زوجته - أقلّه بصورة ثابتة. «نويت أن أدعو عائلة «كوتار» ودوقة «فاندوم» سويّة»، يقول للسيّدة «بونتان» ضاحكاً وَبَنَهم الذوّاقة الذي ينوي ويبغي القيام بتجربة استبدال فلفل «كايين» «بأزرار القرنفل» في مرق معيّن، بيد أن هذا المشروع الذي كان سيبدو مسلّياً بمعنى اللفظة القديم، لعائلة «كوتار»، كان من شأنه أن يثير حنق السيّدة «بونتان». فلقد سبق لعائلة «سوان» أن قدّمتها منذ فترة قريبة لدوقة «فاندوم» ووجدت الأمر ممتعاً وطبيعياً على حدّ سواء. ولم يكن الاعتزاز بالأمر في روايته لعائلة «كوتار» الجزء الأقل استملاحاً في متعتها. ولكن السيّدة «بونتان» تمّنت، شأنها في ذلك شأن حاملي الأوسمة الجدد الذين يودّون، ما إن ينالوا الوسام، أن ينغلق في الحال صنبور الأوسمة، ألا يتم تقديم أحد من عالمها بعدها للأميرة. كانت تعلن في داخلها فساد ذوق «سوان»

الذي كان يبدّد دفعة واحدة، في سبيل تحقيق غرابة جمالية حقيرة، كامل الرماد الذي ذرته في عيون عائلة «كوتار» يوم حدّثتهم عن دوقة «فاندوم» وكيف ستحالفها حتى الجرأة في نقل الخبر إلى زوجها بأن الأستاذ وزوجته سوف يأخذان هما أيضاً قسطهما من تلك المتعة التي سبق أن فاخرت أمامه بأنّها فريدة؟ وليت عائلة «كوتار» تستطيع أن تعلم أنها لم تُدْعَ دعوة جدّية. بل على سبيل التسلية! صحيح أن عائلة «بونتان» إنما دُعيت بالأسلوب نفسه، ولكنّ «سوان» الذي أخذ عن الأرستقراطية تلك «الدونجوانيّة» الأزلية التي إن وقعت بين امرأتين زهيدتي القدر حملت كلاً منهما على الاعتقاد بأنها وحدها المحبوبة حبّاً جدّياً، حدّث السيّدة «بونتان» عن دوقة «فاندوم» وكأنما عن امرأة يبدو من المناسب تماماً أن تتناول طعام العشاء معها. وتقول السيّدة «سوان» بعد بضعة أسابيع: «أجل، لقد قرّرنا دعوة الأمير مع عائلة «كوتار»، ويعتقد زوجي أن هذا الالتقاء يمكن أن يولّد شيئاً مسليّاً». ذلك أنّها إن احتفظت من «النواة الصغيرة» ببعض العادات العزيزة على قلب السيّدة «فيردوران»، كأن تصرخ بصوت عالٍ كيما يسمعها جميع الخلّص، فقد كانت تستخدم، في مقابل ذلك، بعض العبارات - من مثل «الالتقاء» - العزيزة على نفوس آل «غيرمانت» الذين كانت تخضع لجاذبيتهم من البعيد وعلى غير علم منها، مثلما يفعل البحر بالنسبة إلى القمر، ولكن دون أن تقترب منهم اقتراباً ملموساً. وسأل «سوان» قائلاً: «أجل، عائلة «كوتار» ودوقة «فاندوم»، ألا ترون أن الأمر سيكون مضحكاً؟» وأجابت السيّدة «بونتان» بحنق: «أظنّ أن الأمور ستسير أسوأ ما يكون السير ولن ينالكم سوى الإزعاج، وينبغي ألا تلعبوا بالنار». وقد تمّت دعوتها وزوجها على كل حال إلى جانب أمير «أغريجنت» إلى ذلك العشاء الذي اتخذت السيّدة «بونتان» و«كوتار» طريقتين في روايته حسب الأشخاص الذين يوجّه الحديث إليهم. فقد كانت السيدة «بونتان» تقول للبعض في ما يخصّها، وكذلك يفعل «كوتار» في ما يخصّه، قول اللامبالي حينما يُسْألان من ذا حضر العشاء فيما

عداهما: «لم يحضر سوى أمير «أغريجنت». فقد كان العشاء خاصّاً جداً». بيد أنّه يحتمل أن يكون غيرهم أوفر اطّلاعاً (فقد اتّفق أن قال أحدهم ذات مرّة لِـ«كوتار»: «ولكن ألم تحضر عائلة «بونتان» كذلك؟» ويجيب «كوتار»، وقد كست الحمرة وجهه، يجيب الطائش الذي صنفه مذ ذاك في فئة ألسنة السوء: «لقد نسيتها». وقد تبّنت عائلتا «بونتان» و«كوتار»، كلّ في ما يخصّها بالنسبة إلى هؤلاء، دونما تشاور بينهما، رواية متماثلة الإطار لا تستبدل فيها سوى السماء الخاصّة بكلّ عائلة. كان «كوتار» يقول: «لم يحضر سوى أرباب البيت ودوق «فاندوم» والدوقة زوجته - (ويبتسم ابتسامة مزهوّة) والأستاذ «كوتار» والسيدة زوجته، ثمّ، وأقْسم أنّه لم يعلم أحد سبب ذلك، السيّد «بونتان» وزوجته، فقد كانا هناك كمثل شعرة في قصعة من الحساء». وتتلو السيّدة «بونتان» المقطوعة نفسها بالضبط، فيما عدا ذكر اسمي السيّد «بونتان» والسيّدة زوجته، بتفخيم الراضي عن نفسه، بين اسمي دوقة «فاندوم» وأمير «أغريجنت»؛ فأمّا الجَرِبان اللذان تتهمهما في آخر المطاف بأنّهما وجّها الدعوة لذاتهما، وكانا أشبه ببقعة الوسخ، فهما «كوتار» وزوجته.

كان «سوان» غالباً ما يعود من زياراته قبل العشاء بوقت يسير. وما كان يتساءل في فترة السادسة من المساء تلك، وكان يحسّ فيها فيما مضى أنّه تعيس جدّاً، عمّا كان يمكن أن تفعله «أوديت» وقليلاً ما يثير اهتمامه أن تستقبل جماعة في بيتها أو أن تكون خرجت. وكان يذكر أحياناً أنه حاول ذات يوم، لسنوات كثيرة خلت، أن يقرأ من خلال الظرف رسالة سطّرتها «أوديت» لِـ«فورشفيل». ولكن هذه الذكرى ما كانت لتشرح صدره وبدلاً من أن يعمّق الخزي الذي يحسّ يفضّل الانصراف إلى تكشيرة يسيرة في زاوية فمه يضيف إليها، إن قضت الحاجة، هزّة برأسه كانت تعني: «وماذا يهمّني من ذلك؟» صحيح أنّه يحسب الآن أن الفرضيّة التي غالباً ما استوقفته فيما مضى والتي كانت تخيّلات غيرته بموجبها تسوّد وحدها حياة «أوديت»، وهي بالحقيقة بريئة، أنّ تلك الفرضيّة (وقد كانت بمجملها خيّرة

بما أنها قللت من عذابه إذ أظهرته من نتاج الخيال ما دام مرض العشق قائماً في نفسه) لم تكن الصحيحة، وأن غيرته هي التي أصابت فيما رأت وأن «أوديت» إن كانت قد أحبته فوق ما تصور فقد خدعته فوق ذلك. لقد أقسم فيما مضى، أثناء ما كان يتعذب أشدّ العذاب أنّه سوف يوفّر لنفسه، حالما يكف عن حبّ «أوديت» ولا يخشى من بعد أن يغيظها أو أن يحملها على الاعتقاد بأنّه يحبّها أشدّ الحبّ، فرصة كشف النقاب معها، لمجرّد ولع بالحقيقة وكأنّما عن نقطة تاريخية، عمّا إذا كان «فورشفيل» في السرير معها أم لا، يوم قرع الجرس ونقر على الزجاج دون أن يُفْتَحَ له، ويوم كتبت تقول لِـ«فورشفيل» إنّ من جاء كان أحد أعمامها. بيد أن المشكلة المثيرة التي كان لا ينتظر سوى نهاية غيرته كي يكشف النقاب عنها إنما فقدت بالضبط كل أهميّة في عيني «سوان» حينما كفّ عن الشعور بالغيرة. ولم يتمّ الأمر مع ذلك في الحال. ذلك أنه لم يعد يشعر بالغيرة حيال «أوديت» فيما ظلّ، يوم النقرات اللامجدية التي نقرها بعد الظهر على باب المنزل الصغير في شارع «لابيرو»، يثير في نفسه شيئاً منها. لكأنّما لم تتّخذ الغيرةُ، وهي شبيهة في ذلك بتلك الأمراض التي يبدو أنّها اتّخذت مقرّها ومركز عدواها في بعض الأمكنة وفي بعض البيوت أكثر منها في بعض الأشخاص، لكأنّما لم تتّخذ من «أوديت» نفسها موضوعاً لها أكثر منها من ذلك اليوم وتلك الساعة في الماضي البعيد الذي نقر فيه «سوان» على جميع مداخل نزل «أوديت». وكأنّما ثبت في ذلك اليوم وتلك الساعة وحدهما بعض شذرات أخيرة من الشخصية العاشقة التي حملها «سوان» فيما مضى فلا يلقاهما إلا هناك. إنّه منذ زمن طويل لا يهتم أن تكون «أوديت» قد خدعته ولا تزال تخدعه. ولكنه والى مع ذلك البحث على مدى بضع سنوات عن خدم قدماء لدى «أوديت» لشدّة ما استمر لديه فضوله المؤلم في أن يعلم إن كانت «أوديت» في ذلك اليوم البعيد جدّاً تضاجع «فورشفيل». ثم إن ذلك الفضول نفسه تلاشى دون أن تتوقّف تحرّياته، فقد استمرّ يحاول أن يعرف ما لم يعد يهمّه لأنّ «أناه» القديمة

بعدما بلغت أقصى الهرم وظلّت تعمل آليّاً وفق اهتمامات زالت إلى حدّ أن «سوان» لم يعد يفلح حتى في تصوّر ذلك القلق، وهو قويّ فيما مضى حتى لا يستطيع أن يتخيّل آنذاك أنّه سيتخلّص منه في يوم وأن موت تلك التي يحبّها وحده (الموت الذي لا يقلّل في شيء عذابات الغيرة مثلما سوف تبرزه فيما بعد في هذا الكتاب تجربة مضادّة قاسية) يبدو قادراً أن يمهّد له درب حياته المسدود كليّاً.

على أن حَلْوَ وقائع حياة «أوديت» ذات يوم، تلك التي كانت سبباً في عذابه، لم يكن منية «سوان» الوحيدة، فقد أضاف إليها احتياطاً منية الثأر من عذابه ذاك حينما يكفّ عن حبّ «أوديت» فلا يخشاها من بعد. وقد سنحت له بالضبط فرصة الاستجابة إلى هذه الأمنية الثانية لأنّ «سوان» كان يحبّ امرأة أخرى، امرأة لا توفر له أسباب الغيرة، ولكنها تثير الغيرة في نفسه مع ذلك لأنه لم يعد قادراً أن يجدّد الطريقة التي يحبّ بها وأنّ تلك التي لجأ إليها مع «أوديت» كان لا يزال «يفيد منها مع أخرى ثانية». ولم يكن ضرورياً أن تخونه تلك المرأة كيما تُبْعَثَ غيرة «سوان» من جديد، بل يكفي لسبب أو لآخر أن تكون بعيدة عنه، أن تكون في سهرة على سبيل المثال وبدا أنّها تلهو فيها. كان ذلك كافياً كي يوقظ فيه القلق القديم، وهو زائدة مؤسفة ومناقضة نمت على حبّه، وكان يقصي «سوان» عمّا يمثّله من حاجة ينبغي بلوغها (هي العاطفة الحقيقيّة التي تكنّها له تلك المرأة الشابّة، وشوق ساعات نهارها الخفيّ وخفايا فؤادها)، لأنّ ذلك القلق كان يضع بين «سوان» وتلك التي يحبّها ركاماً مستعصياً من شكوك سابقة وجدت علّتها في «أوديت» أو ربّما في واحدة أخرى سبقت «أوديت» ولا تفسح من بعد مجالاً للعاشق الهرم في معرفة عشيقة اليوم إلا من خلال الطيف القديم المشترك «للمرأة التي تثير غيرته»، ذلك الطيف الذي جَسَّدَ فيه حبّه الجديد تجسيداً اعتباطيّاً. وغالباً ما كان يتّهم «سوان» تلك الغيرة مع ذلك بأنّها تحمله على الاعتقاد بخيانات وهميّة؛ ولكنّه يذكر آنذاك أنّه جعل «سوان» يفيد من الحجّة نفسها وأخطأ فيما فعل. ولذلك لم يعد يبدو

بريئاً في عينيه كلّ ما كانت تفعله المرأة التي يحبّها في الساعات التي لم يكن فيها إلى جانبها. بيد أنّه في حين أقسم فيما مضى، إن هو كفّ يوماً عن حبّ تلك التي لم يستشفّ أنّها ستصبح يوماً زوجته، أن يُبدي لها لا مبالاته الصريحة دونما شفقة ليثأر لكبريائه التي لطالما أُذِلّت، لم يعد يهتمّ من بعد بتلك العمليّات الانتقاميّة التي كان بوسعه القيام بها الآن دون مجازفة (إذ ما عساه ينال إنْ يُؤْخَذْ بكلامه ويُحْرَمْ من تلك الجلسات المنفردة مع «أوديت» والتي كانت بالأمس ضروريّة له إلى حدّ بعيد؟)؛ فقد تلاشت إلى جانب الحبّ الرغبة في إبداء أنّه لم يعد به حبّ. لقد أصبح يتخذ الآن إذ يستطيع ذلك احتياطات لا تُحصى كي لا ترتاب زوجته بأمر هذا الحبّ الجديد.

لم أشارك مذ ذاك في تلك «العصرونيات» فحسب، تلك التي سبق أن اكتأبت من جرّائها بالأمس لرؤيتي «جيلبيرت» تفارقني وتعود قبل الأوان. بل أضحى السيّد والسيّدة عقيلته يقبلانني الآن في الغدوات التي تقوم بها بصحبة والدتها، إمّا للذهاب في نزهة أو إلى حفلة في العصر، والتي كانت تحرمني إيّاها إذ تحول دون مجيئها إلى «الشانزيليزيه» في الأيام التي كنت أظلّ فيها وحيداً على امتداد المرج أو أمام الأحصنة الخشبية؛ لقد أضحى لي مكان في عربتهما، وإليّ يُوجَّه السؤال إن كنت أفضّل الذهاب إلى المسرح أو إلى درس في الرقص لدى رفيقة لِـ«جيلبيرت» أو إلى الاجتماع الصغير للسيّدة «سوان» (وتدعوه هذه الأخيرة بالاجتماع الصغير (un petit meeting) أو لزيارة قبور «سان دوني»).

وفي تلك الأيّام التي كان ينبغي لي فيها الخروج مع عائلة «سوان» كنت أجيء إلى منزلهم لتناول طعام الغذاء الذي تسميه السيّدة «سوان» le lunch؛ ولما كانت الدعوة محدّدة بالثانية عشرة والنصف ظهراً وكان أهلي يتناولون طعام الغذاء في الحادية عشرة والربع فقد كنت أتخذ طريقي، بعدما يغادرون المائدة، إلى ذلك الحيّ الفخم المنعزل تقريباً في جميع الأوقات وبخاصّة في ذلك الوقت الذي عاد فيه كلّ الناس إلى

بيوتهم. وكنت أذرع الشوارع جيئة وذهاباً بانتظار الساعة الثانية عشرة وسبع وعشرين دقيقة حتى في الشتاء وفي الصقيع إن كان الطقس صحواً، وأنا أشدّ بين الحين والحين عقدة ربطة عنق رائعة من عند «شارفيه» وأنظر إن لم يتّسخ حذائي الملمّع. وأبصر من البعيد الشمس التي تلتمع بها كما الصقيع الأشجار العارية في حديقة عائلة «سوان» الصغيرة. والصحيح أن تلك الحديقة الصغيرة لم تكن تحوي سوى شجرتين؛ ولكن الساعة غير المعتادة كانت تضفي على المشهد جدّة. وتختلط بمتع الطبيعة تلك (التي يزيد منها انتفاء العادة وحتى الجوع) فكرةُ الغداء المرتقب المؤثّرة لدى السيّدة «سوان» فلا تقلل منها بل تهيمن عليها وتستبعدها فتجعل منها متممات اجتماعيّة، إلى حد أني إن بدا لي أني أكتشف الصحو والبرد والضياء الشتائي في تلك الساعة التي لم أكن أبصرها فيها بالعادة فإنّما بمثابة تمهيد للبيض بالكريما وبمثابة طبقة وألوان ورديّة نديّة تنضاف إلى كساء ذلك المعبد الزاخر بالأسرار المتمثّل في منزل السيّدة «سوان» والذي يفيض على العكس دفئاً وطيوباً وأزهاراً.

وفي الثانية عشرة والنصف ظهراً كنت أقرّر الدخول أخيراً إلى ذلك البيت الذي يبدو لي، شأن حذاء عيد الميلاد، وكأنّه يحمل إليّ متعاً خارقة. (وكان اسم الميلاد مجهولاً على كلّ حال لدى السيّدة «سوان» و«جيلبيرت» اللتين استبدلتاه بكلمة «كريسماس»[1] فلا تتحدّثان إلا عن كعكة الكريسماس وما قُدّم لهما في الكريسماس، وعن غيابهما - وأجنّ ألماً من جراء ذلك - بمناسبة الكريسماس. ولعلّني كنت أظنّ أنّ العار يلحق بي حتى في بيتنا إن أنا تحدّثت عن الميلاد فلم أعد أقول إلا كريسماس، الأمر الذي يراه والدي مثيراً للسخرية إلى أقصى حد).

ولم ألتقِ بادئ الأمر إلّا بخادم أدخلني، بعدما حملني على اجتياز عدّة صالات كبيرة، في صالة صغيرة جداً وخيالية وقد أخذت تغمرها

---

(١) Christmas أي عيد الميلاد بالإنكليزية.

بالأحلام زرقة العصر في نوافذها. وأظلّ وحدي برفقة أزهار الأوركيدا والورود والبنفسج التي تصمت، شأن أشخاص ينتظرون بالقرب منك ولكنّهم لا يعرفونك - صمتاً يزيد من تأثيره فيّ تفردها كأشياء حيّة، وتستقبل بارتعاش المقرور دفء نار فحم متوهجة وضِعَتْ بتأنّ شديد خلف إطار من الكريستال في حوض من الرخام الأبيض تنهار فيه بين الحين والحين أحجار ياقوتها الخطرة.

وكنت قد جلست، ولكني نهضت على عجل إذ سمعت الباب ينفتح، وما كان ذلك سوى خادم آخر، ثم ثالث وكانت النتيجة الزهيدة التي تنتهي إليها جيئاتهم ورواحهم التي تهزّني دون جدوى أن يضيفوا قليلاً من الفحم فوق النار، ومن الماء في الآنية. ثم يمضون، وأعود فألقى نفسي وحيداً بعدما ينغلق الباب الذي لا بدّ ستفتحه السيّدة «سوان» في نهاية المطاف. ولعلّني كنت أصاب في مغادرة سحرية باضطراب أقلّ بالتأكيد ممّا يلحق بي في صالة الانتظار الصغيرة هذه التي تبدو النار فيها وكأنها تقوم بضروب من التحول كما هي الحال في مخبر «كلنغسور». ويدوّي وقع خطى جديد فلا أنهض إذ هو لا بدّ خادم آخر، فإذا هو السيّد «سوان». «ما هذا؟ تجلس وحدك؟ لا حول لنا في ذلك، فزوجتي المسكينة لم تستطع يوماً أن تعرف أي شيء هي الساعة. إنها الواحدة إلا عشر دقائق، وفي كلّ يوم تزداد تأخراً. وسترى بنفسك أنها ستصل دون استعجال ظنّاً منها أنّها جاءت قبل الأوان». ولما كان «سوان» لا يزال عرضة لالتهابات الأعصاب وأصبح يثير السخرية بعض الشيء فأن تكون له زوجة غير دقيقة إلى هذا الحدّ تعود متأخّرة جدّاً من الغابة وتنسى نفسها لدى خيّاطتها ولا تحضر البتّة إلى الغداء في الساعة المحدّدة إنّما كان يقلقه بشأن معدته ولكنّه يدغدغ كبرياءه.

كان يريني مشتريات جديدة أقدم عليها ويشرح لي فائدتها، ولكن الانفعال المقرون بأني لم أتعود المكوث دون طعام حتى تلك الساعة كان ينشر الفراغ في فكري فيما يبعث فيه الاضطراب حتى إنّني وإن كنت قادراً

على الكلام لم أكن قادراً على الاستماع. كان يكفي على كلّ حال بالنسبة إلى الأعمال الفنيّة التي بحوزة «سوان» أن تكون موجودة في نزله وأن تشارك في الساعة الحلوة التي تسبق طعام الغداء ولعلّ لوحة «الجوكونده» لو كانت هناك لما بعثت في نفسي سروراً أعظم من الذي يبعثه معطف منزلي للسيّدة «سوان» أو مَمْلَحاتها.

وكنت أوالي الانتظار وحيداً أو صحبة «سوان» وفي كثير من الأحيان «جيلبيرت» التي جاءت تؤانسنا. لقد بدا لي أنّ قدوم السيّدة «سوان» الذي أُعِدّ له بهذا العدد الكبير من الجيئات الفخمة كان ينبغي أن يكون أمراً هائلاً. فكنت أترصد كل صرير. على أنّك لا تجد البتّة كاتدرائية وموجة في العاصفة وقفزة راقص في مثل الارتفاع الذي أمّلت، فبعد هؤلاء الخدم بلباسهم الرسمي، وهم أشبه ما يكونون بالممثّلين الصامتين الذي يُعِدُّ موكبهم في المسرح لقدوم الملكة الأخير ويقلّل بذلك من أهميّته، لم تكن تفي السيّدة «سوان»، إذ تدخل خلسة بمعطف صغير من فرو ثعلب الماء وخمارها الصغير مرخىً فوق أنف كساه البرد حمرة، بالوعود المبذولة لمخيلتي في أثناء الانتظار.

أمّا إذا مَكَثَتْ طوال فترة الصباح في المنزل فقد كانت ترتدي حينما تقبل إلى الصالة مبذلاً من الحرير الصيني الرقيق فاتح الألوان يبدو لي أوفر أناقة من جميع فساتينها.

وكانت أسرة «سوان» تقرّر أحياناً المكوث في البيت طوال فترة ما بعد الظهر؛ وسرعان ما كنت أبصر آنذاك، وقد تناولنا طعام الغداء في وقت متأخّر جدّاً، شمس ذلك النهار الذي بدا لي أنّه ينبغي أن يختلف عن سواه تميل على جدار الحديقة الصغيرة، وعبثاً يجيء الخدم بمصابيح من جميع الأحجام وجميع الأشكال وكلّ منها يشتعل فوق مذبح مائدة جداريّة أو طاولة مستديرة أو زاوية أو طاولة صغيرة وكأنّما للاحتفال بأحد الطقوس المجهولة، فلم يكن ينبثق عن الحديث أيّ شيء خارق وكنت أغادر خائب الآمال مثلما يحدث ذلك في الغالب منذ الطفولة بعد قدّاس منتصف الليل.

على أنّ تلك الخيبة لم تكن إلا روحية، فقد كنت أتهلّل فَرَحاً في ذلك البيت الذي تزمع «جيلبيرت»، حينما لم تكن بعد برفقتنا، أن تدخله وسوف تهبني بعد لحظة وعلى مدى ساعات كلامها ونظرتها المهتمّة المشرقة على غرار ما سبق أن رأيتها للمرّة الأولى في «كومبريه». وأكثر ما في الأمر أنني كنت أحسّ بشيء من الغيرة إذ أراها تختفي مرّات كثيرة في حجرات كبيرة يبلغ المرء إليها بدرج داخلي. ولما كنت مضطرّاً أن أمكث في الصالة. شأن عاشق ممثّلة لا يملك سوى مقعده في القاعة ويحلم مضطرب الفكر بما يجري وراء الكواليس وفي مقرّ الممثلين، طرحت على «سوان» بشأن هذا القسم الآخر من البيت أسئلة يكتنفها غموض مدروس ولكن بلهجة لم أفلح في إقصاء بعض القلق عنها. فشرح لي أن الحجرة التي تؤمّها «جيلبيرت» هي حجرة البياضات وعرض أن يريني إيّاها ووعد أنّه سيرغم «جيلبيرت» أن تصطحبني إليها في كل مرّة يقع عليها الذهاب إلى هناك. وقد حذف «سوان» فجأة بنسبة إليّ، بفضل هذه الكلمات الأخيرة والراحة التي زوّدتني بها، إحدى تلك المسافات الداخليّة الرهيبة التي تبدو لنا في نهايتها المرأة التي نحبّها شديدة البعد عنّا. وأحسست نحوه في تلك اللحظة بمودّة حسبتها أوفر عمقاً من مودّتي لِـ«جيلبيرت»، فقد كان يهبني ابنته، وهو سيّدها، أمّا هي فترفض أحياناً، ولا يتوافر لي مباشرة عليها ذلك السلطان نفسه الذي لي على نحو غير مباشر عن طريق «سوان» ولكنّي في النهاية أحبها هي، ولا يسعني بالتالي أن أراها بمعزل عن ذلك الاضطراب، عن ذلك الشوق إلى أمر إضافي، الشوق الذي ينزع منّا بالقرب من الشخص الذي نحبّه الإحساس بالحبّ.

على أننا ما كنّا في أكثر الأحيان نلازم البيت بل نبادر إلى النزهات. وتجلس السيّدة «سوان» أحياناً إلى البيانو قبل أن تمضي لارتداء ثيابها. كانت يداها الجميلتان تمدّان من فتحات أكمام معطفها البيتي الذي من حرير صيني رقيق، من فتحات أكمامها الورديّة أو البيضاء، وهي في الغالب زاهية الألوان، سلامياتهما فوق البيانو بالكآبة نفسها التي في عينيها

وليست في فؤادها. واتّفق لها في أحد تلك الأيّام أن عزفت لي القسم الذي يتضمّن الجملة الصغيرة التي أحبّها «سوان» حبّاً جماً في سوناتا «فانتوي». ولكن المرء لا يدرك في الغالب شيئاً إن كانت هناك موسيقى على شيء من التعقيد يصغي إليها للمرّة الأولى. إلا أنّني رأيتني أعرف تلك السوناتا أتمّ المعرفة حينما عُزِفَتْ لي فيما بعد مرّتين أو ثلاث مرّات. وليس يخطئ لذلك من يقول عن «الاستماع للمرّة الأولى». فإن لم يتفق للمرء حقّاً، حسبما ظنّوا، أن يميّزشيئاً في الحفلة الموسيقية الأولى، فسوف تظلّ الثانية والثالثة حفلات أولى وليس هناك ما يدعو إلى إدراك شيء أكثر في العاشرة. والأرجح أن موقع القصور في المرّة الأولى ليس الإدراك بل الذاكرة. ذلك أن ذاكرتنا بالنسبة إلى تعقيد الانطباعات التي يقع عليها أن تواجهها في أثناء إصغائنا طفيفة جدّاً وفي مثل قِصر ذاكرة رجل يفكّر أثناء نومه بألف أمر ينساها في الحال أو رجل عاد إلى عهد الطفولة ولا يذكر في الدقيقة التالية ما قِيل له منذ لحظة. تلك الانطباعات العديدة لا تستطيع الذاكرة أن تزوّدنا على الفور بذكراها. بيد أن هذه إنّما تتشكل شيئاً فشيئاً في الذاكرة وإنّنا في ما يخصّ الأعمال الفنيّة التي سمعناها مرّتين أو ثلاث مرّات في موقع التلميذ الذي أعاد قبل النوم مرّات عديدة قراءة الدرس الذي ظنّ أنه لا يعرفه والذي يقوله عن ظهر القلب في صباح الغد. ولكنّي لم أكن بعد قد سمعت حتى ذلك اليوم شيئاً عن تلك السوناتا، وحيثما كان يبصر «سوان» وزوجته جملة متميّزة كانت هذه الأخيرة بعيدة عن إدراكي الواضح بُعد اسم نحاول أن نتذكّره ولا نجد مكانه سوى العدم، سوى عدم تندفع منه بعد ساعة، بوثبة واحدة ومن تلقاء ذاتها ودون أن نفكّر فيها، المقاطع التي التمسناها بادئ الأمر دون جدوى. ولا يقتصر الأمر على أننا لا نحفظ في الحال الأعمال الفنيّة النادرة حقاً ولكننا حتى في صميم كلّ من تلك الأعمال إنّما نتبيّن بادئ الأمر أقلّ الأجزاء قيمة، وقد وقع لي ذلك بالنسبة إلى سوناتا «فانتوي». ولذلك لم يقتصر خطئي على التفكير بأن ذلك العمل الفني لم يعد يخبّئ

لي شيئاً (الأمر الذي جعلني أظلّ طويلاً دون أن أحاول سماعه) بما أنّ السيّدة «سوان» قد عزفت لي الجملة الأكثر ذيوعاً فيها (وكنت في ذلك بمثل غباء الذين لا يتوقّعون أن يحسّوا من بعد بأيّة دهشة أمام كنيسة القديس مرقص في البندقية لأنّ الصورة الشمسيّة أطلعتهم على شكل قبابها). ولكنّي حتى حينما استمعت للسوناتا من أوّلها إلى آخرها فقد ظلّت إلى ذلك غامضة بأكملها بالنسبة إليّ كمثل بناء أثري لا تدع لك المسافة أو الضباب أن تتبيّن منه سوى أقسام طفيفة. من هنا تنجم الكآبة التي تلازم معرفة مثل هذه الأعمال، على غرار كلّ ما يتحقّق في الزمان. وعندما تكشّف لي ما كان أكثر خفاءً في سوناتا «فانتوي»، أخذ يغيب عنيّ، أخذ يهرب مني مذ ذاك ما سبق أن تبيّنته وفضّلته بادئ الأمر وقد جرفته العادة بعيداً عن مواقع إحساسي. ولأني لم أستطع أن أحبّ كلّ ما كانت تحمله إليّ تلك السوناتا إلّا في أوقات متعاقبة فلم أمتلكها في يوم بكلّيتها: وكانت بذلك شبيهة بالحياة. إلا أنّ تلك الروائع العظيمة مخيبة للآمال أقلّ من الحياة، فهي لا تبدأ بتزويدنا بأفضل ما لديها. فأمّا المحاسن التي نكتشفها قبل كلّ شيء في سوناتا «فانتوي» فتلك التي نملّها سريعاً وللسبب نفسه الذي قوامه أنها قليلة الاختلاف عمّا سبقت لنا معرفته، لا شكّ في ذلك. ولكن حينما تبتعد عنّا تلك المحاسن يبقى لنا أن نحبّ تلك الجملة التي جعلها ترتيبها، وهو جديد إلى حدّ أنّه لا يوفّر لفكرنا سوى الغموض، جعلها تمتنع على الإدراك وحفظها سالمة لا مساس فيها. حينئذٍ تأتي إلينا، هي التي كنّا نمرّ أمامها كل يوم دون علم منّا وظلّت تنتظر وأصبحت بفضل سلطان جمالها وحده بعيدة عن الأنظار وظلّت مجهولة، تأتي إلينا آخر ما تأتي. ولكنّنا نفارقها كذلك آخر ما نفارق، ولسوف نحبّها زمناً أطول من الأخريات لأنّنا أنفقنا وقتاً أطول كيما نحبّها، وليس ذلك الوقت الذي يعوز امرأً - مثلما أعوزني بشأن تلك السوناتا - كيما ينفذ إلى عمل فني على شيء من العمق، سوى تكثيف، سوى ما يشبه الرمز، للسنوات وأحياناً للقرون التي تنقضي قبل أن يتمكّن

الجمهور من التعلّق برائعة فنية جديدة حقاً. ولذلك ربّما قال الرجل العبقري في نفسه، كيما يوفّر على ذاته تجاهل الجمهور: إنّ الأعمال التي كتبت للأجيال القادمة ينبغي أن تتمّ لها وحدها قراءتها. على غرار بعض اللوحات التي نسيء تقديرها إن نظرنا إليها من مسافة قريبة جدّاً، لأنّ معاصريه يعوزهم البعد الكافي. إلّا أنّه لا جدوى بالحقيقة من كل إجراء وقائي جبان لتفادي الأحكام المغلوطة لأنه لا يمكن تفاديها. وإن سبب صعوبة الإعجاب الفوريّ بعمل عبقري قوامه أنّ الذي كتبه إنسان خارق وأنّ من الناس قليلاً يشبهونه. وإنّما عمله نفسه الذي سيعمل على إخصاب العقول النادرة القادرة أن تفهمه فينميها ويكثرها. إن رباعيات بيتهوفن (الرباعيات ١٢ و١٣ و١٤ و١٥) هي التي استغرقت خمسين عاماً كي تلد جمهور رباعيات بيتهوفن وتكثّره فحقّقت على هذا النحو، شأن جميع الروائع الفنيّة تقدّماً على الأقل في مجتمع أصحاب الفكر الذي يؤلّفه اليوم أوسع التأليف ما كان متعذّر الوجود يوم صدور تلك الرائعة، ونقصد الجماعة القادرة على تعشّقه. إن لم يكن في مجال قيمة الفنّانين. وإنّ ما يسمّى بالأجيال القادمة إنّما هو أجيال العمل الفني. فلا بدّ للعمل الفنيّ (بصرف النظر. ابتغاءً للتبسيط. عن النوابغ الذين يستطيعون في الفترة نفسها وعلى نحو متوازٍ إعداد جمهور أفضل للمستقبل يستفيد منه نوابغ آخرون سواهم) أن يخلق أجياله القادمة فلن تكون هذه بالنسبة إلى ذلك العمل الفني أجيالاً قادمة بل جماعة من المعاصرين عاشت فقط بعد خمسين عاماً. لذلك انبغى للفنان إن أراد لعمله الفنيّ أن يستطيع متابعة طريقه أن يقذف به حيث الأعماق الكافية في قلب المستقبل البعيد. بيد أن هذا الزمن الآتي، وهو أفق الروائع الفنيّة المرتقب، إن كان ضلال الحكام الجهال أنهم لا يأخذونه بالحسبان فإنّ أخذه بالحسبان إنّما يؤلّف أحياناً الوسواس الخطير لدى القديرين منهم. فمن السهل أن نتخيّل دون شكّ، عبر توهّم شبيه بذاك الذي يوحّد بين جميع الأشياء في الأفق، أنّ جميع الثورات التي قامت حتى الآن في الرسم أو الموسيقى إنّما كانت تحترم مع

ذلك بعض القواعد وأن ما يقوم أمامنا مباشرة من انطباعيّة وبحث عن النشاز واستخدام حصري للسلّم الصينيّ وتكعيبيّة ومستقبليّة إنّما يختلف أشدّ الاختلاف عمّا سبقه. ذلك أنّنا ننظر إلى ما سبقه دون أن نأخذ بالحسبان أن عملية توحيد طويلة قد قلبته بالنسبة إلينا مادّة منوّعة دون شكّ ولكنها بمجملها متجانسة يجاور فيها «هوغو» «موليير». فلنفكّر فقط في وجوه التنافر الفاضحة التي ربّما يجيئنا به، إن نحن لم نضع في حسابنا الزمن الآتي والتغيّرات التي يحملها معه، هذا البرج أو ذاك، من كهولتنا يُسْتَطْلَعُ أمامنا في أثناء فترة المراهقة. ولكنّ الأبراج ليست صحيحة كلّها، وإن اضطرارنا في ما يخصّ أيّ عمل فنيّ إلى إدخال عامل الزمن في مجموع جماله إنّما يمزج بالحكم الذي نصدره شيئاً فيه من التهوّر وبالتالي من فقدان الأهميّة الحقيقية بقدر ما للتنبّؤ أيّاً كان الذي لا يفترض لاتحقّقُه مطلقاً ضحالةَ فكر النبيّ لأنّ ما يدعو الممكنات إلى الوجود أو يستبعدها منه لا يدخل بالضرورة ضمن صلاحيّة العبقريّة، إذ يمكن أن تتوافر لك دون أن تكون آمنت بمستقبل الخطوط الحديديّة أو الطائرات، أو اعتقدت بنفاق عشيقة أو صديق، مع أنّك عالم نفس كبير، فيما لعلّ أكثرهم ضحالة كان يتوقّع خياناتهما.

ومع أنّي لم أفهم السوناتا فقد فتنني سماع عزف السيّدة «سوان». ذلك أنّ لمستها كانت تبدو لي، شأن مبذلها، شأن عطر دَرَجها، شأن معاطفها، شأن أقاحيها، وكأنّها جزء من كل متميّز وزاخر بالأسرار في عالم أسمى بما لا يُقاس من العالم الذي يستطيع العقل فيه أن يحلّل الموهبة. وقال لي «سوان»: «أليس أنها جميلة سوناتا «فانتوي» هذه؟ لحظة يحلّ الليل تحت الأشجار وتحمل رشقات الكمان برودة المساء. هيا اعترف بجمالها. هنالك جانبٌ كاملُ السكون الذي يضفيه ضياء القمر وهو الجانب الأساسيّ. وليس عجيباً أن يؤثّر استشفاء بالضياء كالذي تخضع له زوجتي على العضلات بما أن ضياء القمر يحول دون أن تتحرّك الأوراق. ذلك ما أُحْسِنَ تصويره في هذه الجملة الصغيرة، إنها غابة

بولونيا التي أصابها التصلّب. والأمر بعدُ أشدّ تأثيراً على شاطئ البحر لأنّ ثمة الردود الضعيفة التي تصدر عن الأمواج والتي نسمعها بالطبع تماماً بما أنّ كلّ ما تبقّى لا يستطيع الحركة. أمّا في باريس فبخلاف ذلك. إذ تكاد لا تلاحظ تلك الأضواء الغريبة على المباني، وتلك السماء التي تشتعل بما يشبه حرائق لا لون لها ولا خطر منها، وهذا الضرب من الحدث العاديّ المستشفّ المترامي الحدود. ولكن الأمر لا يدور حول ذلك في جملة «فانتوي» الصغيرة ولا في كامل السوناتا على أيّة حال فالأمور تجري في الغابة، وفي الزخارف النغمية تسمع بوضوح صوت أحدهم يقول: «ربّما استطاع المرء حتى أن يقرأ جريدته». كان يمكن أن تشوّه أقوال «سوان» تلك فيما بعد فهمي للسوناتا إذ قليلاً ما تكون الموسيقى مقصورة على معنى كيما نقصي تماماً عنها ما يُوْحى به إلينا فيها. إلا أنني أدركت بفضل أقوال أخرى له بأن تلك الأشجار الليليّة إنّما كانت فقط تلك التي اسْتَمَعَ تحت كثافة أغصانها في أمسيات عديدة وفي الكثير من مطاعم أطراف باريس إلى الجملة الصغيرة. وكان ما تحمله لِ«سوان»، بدلاً من المعنى العميق الذي طالما طالبها به، تلك الأغصان المرتّبة الملفوفة الملتمعة من حولها (وتبعث في نفسه الشوق إلى رؤيتها ثانية لأنها تبدو له وكأنها نفس تداخلها). كان ربيعاً بأسره لم يسعه التمتّع به فيما مضى. إذ لم يتّفق له، وهو إذ ذاك مصاب بالحمّى وكئيب المزاج، ما يكفي من الهناءة لذلك وظلّت تحتفظ له به (مثلما نفعل، بالنسبة إلى أحد المرضى، بالأشياء الطيّبة التي لم يتمكّن من تناولها). أمّا ضروب السحر التي جعلته في بعض الليالي يحسّ بها داخل الغابة. والتي كان يمكن لسوناتا «فانتوي» أن تزوّده بمعلومات عنها، فلم يكن بوسعه أن يسأل «أوديت» بشأنها مع أنها كانت ترافقه كالجملة الصغيرة. ولكن «أوديت» كانت حينئذ إلى جانبه فحسب (لا في داخله شأن موضوع «فانتوي») ولا ترى إذاً – ولو كانت ألف مرّة أوسع فهماً – ما لا يمكن بالنسبة لأيّ منّا أن يتمّ الإعراب عنه (وقد ظننت لفترة طويلة على الأقلّ أنّ هذه القاعدة لا تحتمل

الشواذات). «أليس في الأساس جميلاً»، يقول «سوان»، «أن يستطيع النغم عكس الأشياء كالماء. كمثل مرآة. وانتبه إلى أن جملة «فنتوي» لا تبرز لي إلا كلّ ما لم أكن أعيره انتباهي في تلك الفترة. أمّا من صنوف غمّي وحبي في ذلك الوقت فإنها لم تعد تذكّرني بشيء، لقد قامت بعمليّة مبادلة».

– «شارل، يبدو أنّ كلّ ما تقوله لي ليس لطيفاً جدّاً بالنسبة إليّ». – «ليس لطيفاً! إن النساء رائعات! كان مرادي فقط أن أقول لهذا الشاب إنّ ما تكشفه الموسيقى – على الأقلّ لي – ليس على الإطلاق «الإرادة في ذاتها» و«خلاصة اللانهائي». بل العمّ «فيردوران» بحلّة رسمية بين تخيّليات حديقة الحيوان. ألف مرّة اصطحبتني تلك الجملة الصغيرة، دون أن أخرج من هذه الصالة، إلى العشاء معها في «أرمنونفيل». صدّقيني، المسألة أبداً أقلّ إزعاجاً من الذهاب إلى هناك برفقة السيّدة «دو كامبرمير». وأخذت السيّدة «سوان» بالضحك: «إنها سيّدة يقولون تولّهت أشدّ الوله بِ«شارل»، تقول موضحة لي باللهجة نفسها التي أجابتني بها قبل قليل في حديثها عن «فير مير دو ديلفت» الذي عجبتُ أشد العجب لملاحظتي أنّها تعرفه: «أردت أن أقول: «إنّ السيّد كان يهتمّ كثيراً بذلك الرسّام في الآونة التي كان يتودّد إليّ في أثنائها، أليس كذلك يا شارل العزيز؟» – «لا تتحدّثي دونما روية عن السيدة «دو كامبرمير »، يقول «سوان». وهو مزهو جدّاً في أعماقه – «ولكنّي إنّما أردّد فحسب ما قِيل لي. ويبدو على أيّة حال أنّها ذكيّة جدّاً، ولكنّي لا أعرفها. إني أظنّها جريئة في مسعاها إلى الغرام، والأمر يدهشني أشدّ الدهشة حينما يصدر عن امرأة ذكيّة. على أن الجميع يقولون إنها جُنّتْ بها. وليس في الأمر ما يجرح. وصمت «سوان» صمتاً عميقاً كان نوعاً من التصديق ودليلاً على الزهو الفارغ. وعادت السيّدة «سوان» تقول، وهي تُبْدِي بداعي المزاح وكأنها أُخِذَتْ بالأمر: «بما أنّ ما أعزفه يذكّرك بحديقة الحيوانات، فيمكن أن نتّخذها عمّا قليل هدفاً لنزهتنا، إن كان الأمر يسلّي هذا الصغير. إن الطقس جميل جدّاً وربما

عدت فلقيت انطباعاتك العزيزة عليك. أمّا بخصوص حديقة الحيوانات فَتَعْلَمُ أن هذا الشابّ كان يظنّ أنّنا نودّ كثيراً امرأة أقاطعها على العكس قدر ما أستطيع، عنيت السيّدة «بلاتان»! إني أجد إذلالاً عظيماً لنا في أن تُحتسب صديقتنا. تصوّر أنّ الدكتور «كوتار» الطيّب القلب والذي لا يتناول أحداً بسوء يصرّح بنفسه أنّها عفنة».

- «يا للفظاعة! ليس لها مزيّة تشبه إلى حدّ بعيد «سافونارول». إنها بالضبط صورة «سافونارول» بريشة «فرا برتولوميو» (Fra Bartolomeo). «كان للهوس الذي بِـ«سوان» أن يلقي على هذا النحو وجوه شبه في عالم الرسم ما يبرّره، فحتى ما ندعوه بالملامح الفرديّة. - مثلما نتبيّن ذلك بكثير كم الكآبة حينما نحبّ ونودّ الاعتقاد بحقيقة الفرد الوحيدة - شيء عام ويمكن أن نصادفها في حقب مختلفة. بيد أنّه لو تمّ الإصغاء لِـ«سوان» لكشفت مواكب ملوك المجوس، وهي تنمّ عن مفارقة تاريخية حينما أدخل فيها «بينوتزو غوزّولي» (Benozzo Gozzoli) آلَ «ميديتشي»، عن مفارقة أكبر لأنها إنّما ستتضمّن رسوم جمهرة من الناس ممن عاصروا «غوزّولي» بل «سوان»، أي أنّهم جاؤوا لا خمسة عشر قرناً بعد الميلاد فحسب، بل أربعة قرون بعد الرسّام نفسه. فلم يظلّ خارج تلك المواكب. حسبما يرى «سوان». باريسيّ واحد مرموق، كما هو أمر مسرحيّة لِـ«ساردو» جاء فيها، بداعي المودّة للمؤلّف ولصاحبه الدور الرئيسي، جميع أعيان باريس من أطبّاء مشهورين ورجال سياسة ومحامين، جاؤوا كلّ بدوره في إحدى الأمسيات يشاركون في العرض على خشبة المسرح بغية التسلية. «ولكن أيّة صلة لها مع حديقة الحيوانات؟» - «كلّ الصلات». - «ماذا، أتظنّين لها مؤخّرة زرقاء سماوية كالقردة؟» - «شارل، أيّة بذاءة تلك! لا، فقد كنت أفكّر بالكلمة التي قالها لها السينغالي. إروها له، فهي بالحقيقة «كلمة حلوة» - «يا للأمر السخيف. من المعلوم أنّ السيّدة «بلاتان» تحبّ مناداة جميع الناس بطريقة تحسبها لطيفة ولكنها على وجه الخصوص متعالية».

- «ذلك ما يدعوه جيراننا الطيبون على ضفاف «التاميز»

«patronizing»[1]، تقول «أوديت» مقاطعة. - «لقد راحت منذ عهد قريب إلى حديقة الحيوانات حيث جماعة من السود أظنّهم من السنغالنغاليين كما قالت زوجتي، وهي أطول باعاً مني في وصف الأجناس». - «هيّا، يا شارل، لا تمضِ في التهكّم» - «ولكنّي لا أتهكّم البتّة. وأخيراً توجّهت إلى أحد هؤلاء السود قائلة: «مرحباً يا عبد!»

- «لا قيمة لذلك!» - على أيّة حال لم ترق تلك الصفة للأسود وقال بحنق للسيّدة «بلاتان»: «أنا عبد، أمّا أنتِ فقرد!» - «أجد ذلك في أشدّ الغرابة! وأعشق هذه الحكاية. أليس أنها «حلوة»؟ تلك بالضبط العمّة «بلاتان»: «أنا عبد، أمّا أنتِ فقرد!».

وأعربت عن رغبة بالغة في المبادرة إلى رؤية هؤلاء السنغاليين الذين دعا أحدهم السيّدة «بلاتان» قرداً. وما كانوا يبعثون فيّ أيّ اهتمام، ولكنّي فكّرت أنّنا ربّما اجتزنا للذهاب إلى حديقة الحيوانات والعودة منها ممرّ شجيرات الأكاسيا حيث سبق لي أن أعجبت بالسيّدة «سوان» وربّما رآني صديق «كوكلان» الخلاسيّ الذي لم أستطع أن أظهر قطّ في حضرته وأنا أحيّي السيّدة «سوان». ربّما رآني أجلس بالقرب منها في زاوية عربة مكشوفة.

كان يطيب للسيّد «سوان» وزوجته في أثناء تلك الدقائق التي لا تجالسنا فيها «جيلبيرت» في الصالة، بعدما ذهبت تستعد، أن يكشفا لي عن مزايا ابنتهما النادرة. وكان يبدو كلّ ما أرقبه وكأنّه البرهان على صحّة ما يقولان! فقد لاحظت أنها تبدي، مثلما روت لي والدتها، اهتماماً رقيقاً لا بصديقاتها فحسب، بل بالخدم الفقراء، اهتماماً خطّطت له طويلاً ورغبة في إشاعة السرور وخشية من الإغضاب تترجمها أمور صغيرة غالباً ما تحمّلها الكثير من المشقّة. فقد أنجزت شغلاً بالإبرة لبائعتنا في «الشانزيليزيه» وخرجت تحت الثلج لتسلّمها إيّاه دون تأخير يوم واحد. «لا

(١) اتخاذ لهجة أو مظهر أبويين.

يمكن أن تخطر لك حقيقة قلبها، فإنّها تخفيه»، يقول والدها. لقد كانت تبدو بشبابها الغضّ أكثر تعقّلاً من والديها، فحينما كان يتحدّث «سوان» عن معارف زوجته المرموقين كانت «جيلبيرت» تُدير رأسها وتصمت ولكن دون أن تبدي اللوم إذ لم تكن هنالك إمكانية فيما يبدو لها بأن يكون والدها موضع نقد مهما يكن طفيفاً. وفي يوم كنت حدّثتها فيه عن الآنسة «فانتوي» قالت لي:

- «لن أعرفها في يوم ولسبب واحد قوامه أنها لم تكن لطيفة بحقّ والدها، فيما يقولون، وكانت سبباً في غمّه. لست تستطيع إدراك الأمر، كما هو شأني، أليس كذلك، أنت الذي لا يستطيع البقاء دون شك بعد والده أكثر مما أستطيع بعد والدي، والأمر على كلّ حال طبيعيّ تماماً. فكيف ننسى في يوم إنساناً أحببناه على الدوام؟».

وذات مرّة بدت فيها أكثر «دلاعة» مع «سوان» وإذ نقلت إليها ملاحظتي تلك بعدما ابتعد أجابت:

- «أجل، مسكين بابا، ففي هذه الأيام ذكرى وفاة والده. تستطيع أن تدرك ما لا بدّ أنّه يعاني، إنك تدرك ذلك أنت، فإن مشاعرنا واحدة إزاء هذه الأمور. إني أحاول والحالة هذه أن أكون أقلّ سوءاً من المعتاد». - «ولكنّه لا يرى أنّك سيّئة، بل يرى أنّك ممتازة». - «مسكين بابا. ذلك لأنّه طيّب جدّاً».

ولم يقتصر والدا «جيلبيرت» على الإشادة بفضائلها - «جيلبيرت» نفسها التي كانت تظهر لي حتى قبل أن أكون رأيتها في يوم، أمام كنيسة وفي أحد مناظر «إيل دو فرانس» والتي كانت تبدو فيما بعد على الدوام، إذ تذكّرني لا بأحلامي من بعد بل بذكرياتي، أمام سياج الزعرور الوردي، في الدرب الوعر الذي كنت أسلكه للذهاب من جهة «ميزيكليز». وإذ سألت السيّدة «سوان»، وأنا أجهد في اتخاذ اللهجة اللامبالية التي لصديق للأسرة راغب في معرفة ميول طفلة. من كانت «جيلبيرت» تحبّ أكثر ما تحبّ من بين رفاقها، أجابتني السيّدة «سوان» قائلة:

- «ولكن لا بدّ أنّك أكثر إيغالاً مني في أسرارها، أنت المحظيّ الكبير وصفوة الصفوة، حسبما يقول الإنكليز».

وفي هذه التطابقات الشديدة الكمال، حينما ينكفئ الواقع وينطبق على ما حلمنا به لفترة طويلة فلا شك أنّه يحجبه عنّا كليّاً ويختلط معه كشكلين متساويين ومتراكبين لا يؤلفان من بعد سوى شكل واحد في حين نودّ على العكس، كيما نزوّد بهجتنا بكامل مدلولها، أن نحتفظ لجميع نقاط رغبتنا هذه في الآونة نفسها التي نقاربها فيها - وكيما نزيد من يقيننا بأنّها هي هي لم تتبدّل - بمزيّة ما يتعذر المساس به. ولا يستطيع الفكر حتى إعادة تشكيل الحالة الأولى بغية مقارنتها بالجديدة لأن الساحة لم تعد خالية: فالتعرف الذي تم لنا وذكرى الدقائق الأولى غير المؤمّلة والأقوال التي سمعناها كلّها هناك تسدّ مدخل وعينا وتتحكم بمخارج ذاكرتنا أكثر منها بمخارج مخيلتنا بكثير وتكتسب مفعولاً رجعيّاً على ماضينا الذي لا نملك من بعد أن نراه دون أن نأخذها في حسابها أكثر منها على شكل مستقبلنا الذي ظل حرّاً. لقد أمكنني الظنّ على مدى سنوات أنّ الذهاب إلى منزل السيّدة «سوان» وهم مبهم لن أبلغ إليه في يوم. وبعدما أمضيت ربع ساعة لديها أصبح الزمن الذي لم أكن أعرفها فيه هو الخياليّ المبهم كَمِثْلِ ممكن تلاشى من جرّاء تحقيق ممكن آخر. إذ كيف كان يمكنني بعدُ أن أحلم بحجرة الطعام وكأنّما بمكان لا يمكن تصوّره في حين ما كنت أستطيع القيام بحركة في فكري دون أن أصادف فيه الأشعة التي لا تدحض والتي يصدرها إلى ما لا نهاية وراءه وحتى في أقصى نقطة من ماضي السرطان البحري المعدّ على الطريقة الأمريكية الذي أكلته قبل فترة وجيزة؟ ولا بدّ أنّ «سوان» قد رأى في ما يخصّه شيئاً من هذا القبيل يجري معه، ذلك أن هذه الشقّة التي ولدتها مخيّلتي فحسب، بل شقة أخرى كذلك، تلك التي كثيراً ما وصفها لِـ«سوان» حبّه الغيران الذي يساوي أحلامي ابتداعاً، تلك الشقّة المشتركة بين «أوديت» وبينه والتي سبق أن بدت له عزيزة المنال ذات مساء صحبته فيه «أوديت» إلى جانب «فورشفيل» لتناول

شراب البرتقال في منزلها؛ وإنّما جاء يذوب في نظره في مخطط حجرة الطعام التي كنّا نتناول طعام الغداء فيها هو ذلك الفردوس اللامؤمّل الذي ما كان يستطيع بالأمس أن يتخيّل دونما اضطراب أنّه سيقول لرئيس الخدم هذه الكلمات نفسها: «هل جَهُزَتْ السيّدة؟» التي كنت أسمعه ينطق بها الآن بشيء من نفاد الصبر المقرون بشيء من زهو الراضي عن نفسه. وما كنت أستطيع تعرّف سعادتي، أكثر مما يستطيع «سوان» نفسه دون شكّ، وحينما كانت «جيلبيرت» نفسها تصرخ قائلة: «من لعلّه كان يقول لك إنّ البنيّة التي كنت تنظر إليها، دون أن تكلمها، تلعب لعبة الزوايا ستكون صديقتك الحميمة التي تمضي إليها في كلّ يوم يروقك الأمر؟». فإنما كانت تتحدّث عن تبدل كان لا بدّ لي أن أقرّ به من الخارج ولكنيّ لا أملكه في داخلي إذ كان يتألف من حالتين لا يمكنني أن أفلح في تفكيرهما معاً دون أن يكفّا عن كونهما تتميزان الواحدة عن الأخرى.

بيد أنّه كان لا بدّ أن تحتفظ تلك الشقّة بشيء من العذوبة بالنسبة إلى «سوان» لأنّ إرادته قد رغبت فيها أعنف الرغبة. وذلك إن حكمت على الأمر من خلال ذاتي أنا الذي لم تفقد كلّ غموض بالنسبة إليه. إن تلك الروعة الفريدة التي افترضت لفترة طويلة أن حياة أسرة «سوان» تنغمس فيها، تلك الروعة لم أقصها كليّاً من منزلها يوم دخلته، لقد جعلتها ترتد إلى الوراء وقد تمّ ترويضها على يد ذلك الغريب الذي كنته. ذلك المنبوذ الذي كنته والذي كانت الآنسة «سوان» تدفع إليه الآن بلطف مقعداً لذيذاً يبدي العداء والاستنكار كيما يجلس فوقه. بيد أني لا أزال أتبيّن تلك الروعة في ذاكرتي من حولي، أفلأني في تلك الأيام التي يدعونني فيها السيّد «سوان» وزوجته للغداء لأخرج بعد ذلك للنزهة معهم ومع «جيلبيرت» كنت أطبع بناظري - فيما أنتظر وحدي - على السجّادة والمتكآت، على موائد الحائط والساترات واللوحات الفكرية المنقوشة في صدري، فكرة أنّ السيّدة «سوان» أو زوجها أو «جيلبيرت» يزمعون الدخول؟ ألأنّ تلك الأشياء عاشت مذ ذاك في ذاكرتي إلى جانب عائلة

«سوان» واكتسبت في النهاية شيئاً منهم؟ وهل كنت أجعل منها جميعها، إذ أعلم أنّهم يقضون حياتهم فيما بينها، كأنها رموز لحياتهم الخاصّة وعاداتهم التي أُقصيتُ عنها لفترة أطول من أن لا تستمرّ غريبة عليّ في نظري حتى حينما مُنّ عليّ بالانضمام إليها؟ ومهما يكن من أمر فإنّي كلما فكرت في تلك الصالة التي كان يرى «سوان» أنّها متنافرة إلى حدّ بعيد (دون أن يتضمّن ذلك النقد من قبله تصميماً في معاكسة ميول زوجته في شيء) - لأنّها كانت لا تزال من وحي الدفيئة في جزء منها ووحي المشغل في الجزء الآخر والكل من طراز الشقّة التي سبق أن عرف «أوديت» فيها، ومع ذلك فقد شرعت تستبدل بعدد من الأشياء الصينيّة التي تجدها الآن على شيء من التزييف وبعيدة عن «الغرض» كثيراً من قطع الأثاث الصغيرة المغطاة بحرائر عتيقة من طراز لويس السادس عشر (فيما عدا الروائع التي جاء بها «سوان» من فندق رصيف «أورليان») - تظلّ تلك الصالة غير المتجانسة تحتفظ في ذاكرتي على العكس بتماسك ووحدة وسحر خاص لا تحتفظ بها البتّة حتى أكثر ما ظلّ من المجموعات التي أورثنا إياها الماضي على حاله، وحتى أكثر ما يفيض منها بالحياة واحتفظ بطابع أحد الناس؛ ذلك أنّنا وحدنا نستطيع إيلاء بعض الأشياء التي نراها، من جرّاء الاعتقاد بأن لها حياة خاصّة بها، روحاً تحتفظ بها فيما بعد وتنمّيها فينا. فجميع الأفكار التي كوّنتها عن الساعات التي كانت تقضيها عائلة «سوان» في تلك الشقّة التي كانت بالنسبة إلى أوقات حياتهما اليوميّة كالجسد بالنسبة إلى الروح والتي كان لا بدّ أن تعبّر عن طابعها المميّز، كلّ تلك الأفكار كانت موزعة، كانت تختلط في مكان الأثاث وفي كثافة السجّاد وفي اتّجاه النوافذ وفي دائرة الخدم - وهي في كل مكان سواء في إثارتها وغموضها - وحينما كنّا نمضي لاحتساء القهوة في الشمس في شرفة الصالة الكبيرة وفيما كانت السيّدة «سوان» تسألني كم قطعة سكر أبغي في قهوتي لم يكن المقعد الحريري الذي كانت السيّدة «سوان» تدفعه صوبي وحده الذي يبعث، إلى جانب الروعة المؤلمة التي تبيّنتها فيما مضى -

تحت شجيرة الزعرور الأبيض أو بالقرب من دغل شجر الغار - في اسم «جيلبيرت» - ذلك العداء الذي أعرب لي عنه والدها والذي يبدو أن هذا المقعد الصغير قد حفظه وشاطرهم إيّاه إلى حدّ أنني ما كنت أشعر أنّني أهل لأن أفرض قدميّ على قماشة المنجّد الأعزل وألفيتني لذلك على شيء من جبن الفؤاد. كانت هناك روح شخصيّة تربطه سرّاً بضياء الساعة الثانية من بعد الظهر. وهو مختلف عمّا هو عليه في أيّ مكان آخر من الخليج حيث يبسط على أقدامنا أمواجه الذهبيّة اللاهية التي تطفو فوقها المقاعد الزرقاء والستائر الرقيقة وكأنّها جزر مسحورة؛ حتى لوحة «روبنس» (Rubens) المعلّقة فوق الموقد كانت تملك هي الأخرى نوع السحر نفسه وحتى قوة السحر نفسها التي يملكها حذاء «سوان» ذو الشرائط وهذا المعطف الذي بلا أكمام والذي ما أكثر ما تمنّيت أن ألبس مثله. فيما كانت «أوديت» تطلب الآن من زوجها أن يستبدل به آخر ليكون أكثر أناقة حينما كنت أشرّفهم بالخروج إلى النزهة معهم. وكانت تمضي هي الأخرى لارتداء ثيابها مع أنّني احتججت أن ليس من فستان «للطلعة» يساوي تقريباً المبذل الرائع الذي من نسيج صيني مموّج أو حرير ورديّ فاتر كرزي أو ورديّ شديد الصفاء أو أبيض أو بنفسجيّ أو أخضر أو أحمر أو أصفر واحد اللون أو برسمات والذي تناولت فيه السيّدة «سوان» طعام الغداء وتزمع أن تخلعه. وحينما أقول إنّه يجدر بها أن تخرج على هذا النحو كانت تضحك إمّا بداعي التهكّم على جهلي وإمّا استمتاعاً بتقريظي لها. كانت تعتذر أن يتجمع لديها هذا العدد من مباذل البيت إذ تدّعي أنّها لا تحسّ بالراحة إلا بارتدائها، ثم تفارقنا لتبادر إلى ارتداء أحد تلك الأثواب الرائعة التي تفرض نفسها على الجميع والتي كنت أُدعى أحياناً مع ذلك إلى أن أختار من بينها الثوب الذي أفضّل أن ترتديه.

وكم كنت مزهواً في حديقة الحيوانات أن أسير إلى جانب السيّدة «سوان» بعدما ننزل من العربة! وفيما كانت تدع لمعطفها أن يتهدّل في مشيتها المتراخية، كنت أرميها بنظرات الإعجاب التي تردّ عليها بابتسامة

عريضة مغناجة. وإن اتّفق أن نصادف الآن هذا الرفيق أو ذاك، فتاة كان أم صبيّاً، فقد كانوا ينظرون إليّ بدوري كواحد من تلك الكائنات التي طالما حسدتها، كواحد من أصدقاء «جيلبيرت» الذين يعرفون أسرتها ويختلطون بالقسم الآخر من حياتها، ذاك الذي ما كان ينقضي في «الشانزيليزيه».

وغالباً ما كنّا نلتقي في ممرّات الغابة أو حديقة الحيوانات فتسلم علينا هذه السيّدة الكبيرة أو تلك من صديقات «سوان» ويتّفق له أن لا يراها فتنبّهه زوجته إلى ذلك. «شارل»، ألست ترى السيّدة «دو مونمورانسي؟». فيرفع «سوان» قبّعته بحركة واسعة وبأناقة يتميّز بها وحده وبابتسامة الودّ وليدة الإلفة الطويلة. وتتوقّف السيدة أحياناً وقد أسعدها أن تخص السيّدة «سوان» بلفتة مهذبة لا ترمي إلى نتيجة ولن تحاول السيّدة، كما هو معلوم، استغلالها فيما بعد لكثرة ما عوّدها «سوان» أن تظلّ متحفّظة. إلا أنّها لم تنثن مع ذلك عن التصنّع بجميع أشكاله، ومهما كانت السيدة أنيقة ونبيلة المظهر فقد كانت السيّدة «سوان» تساويها في ذلك. وكانت إذ تتوقّف لحظة بالقرب من الصديقة التي التقى بها زوجها منذ قليل تُقدمُنَا أنا و«جيلبيرت» بهذا القدر من الطلاقة وتحتفظ في تودّدها بهذا القدر من الحرية والهدوء حتى ليصعب القول من كانت من بين الاثنتين: السيّدة الكبيرة، زوجة «سوان» أم عابرة السبيل الأرستقراطية. وفي اليوم الذي ذهبنا فيه لرؤية السنغاليين شاهدنا في أثناء عودتنا سيّدة مسنّة، ولكنّها بعد على جمال، ترتديمعطفاً عاتماً وتعتمر قبّعة صغيرة مثبّتة بسيرين تحت العنق. وتُقْبِلُ علينا تتبعها سيّدتان أخريان كأنّما تقومان بحراستها. وقال لي «سوان»: «آه! هوذا من سيثير اهتمامك». كانت السيّدة العجوز. وهي الآن على ثلاث خطوات منّا، تبتسم لنا بعذوبة ورقّة. وكشف «سوان» عن رأسه وانحنت السيّدة «سوان» محيّية وهمّت تبغي تقبيل يد السيّدة التي تشبه أحد رسوم «فنترهالتر» فأنهضتها وقبلتها. ثم قالت لِـ«سوان» بصوت خشن وشيء من الحنق، بلهجة الصديقة الأليفة: «هلا وضعت قبعتك أنت». وقالت لي السيّدة «سوان»: «سأقدّمك لسمّوها الملكيّ». وانتحى بي

«سوان» جانباً للحظة فيما كانت السيّدة «سوان» تتحدث عن جمال الطقس وعن الحيوانات التي وصلت حديثاً إلى حديقة الحيوان مع صاحبة السمو. «إنّها الأميرة ماتيلد»، يقول، «تدري، صديقة «فلوبير» و«سانت بوف» و«دوما». تصوّر، إنّها ابنة أخي نابوليون الأول! لقد طلب يدها كلّ من نابوليون الثالث وإمبراطور روسيا. أليس ذلك مثيراً؟ تحدّث إليها قليلاً. ولكنّي وددت ألا تدعنا ساعة نقف على أرجلنا». وأردف «سوان» قائلاً: «لقد التقيتُ بِـ«تين» (Taine) الذي نقل إليّ أن الأميرة قد اختصمت معه».
- «لقد سلك سلوك الخنزير»، تقول بصوت خشن وتلفظ الكلمة كما لو كانت اسم المطران الذي عاصر «جان دارك»[1]. «فبعد المقال الذي سطّره عن الإمبراطور تركت له بطاقة دوّنت عليها P.P.C». وأحسست بالدهشة التي تنتابك لدى فضّ رسائل دوقة «أورليان»، وهي سليلة الأسرة البالاتينيّة. والحقيقة أن الأميرة «ماتيلد» التي تعتمل في صدرها مشاعر فرنسيّة إلى حدّ بعيد كانت تحسّ بها بخشونة واستقامة على نحو ما تميّزت به ألمانية الأمس وورثته دونما شكّ عن أمّها التي من مقاطعة «فورتنبرغ». أمّا صراحتها الفظّة بعض الشيء والتي تقارب أن تكون رجولية فقد كانت تخفّف منها، ما إن تبتسم، بلهجة إيطالية حنون. والكلّ تغلّفه ثياب من طراز الإمبراطورية الثانية إلى حدّ تبدو معه الأميرة، مع أنّها ترتديها دونما شكّ بداعي التعلّق بالأزياء التي أحبّتها فحسب، وكأنّما قصدت أن لا ترتكب خطأً في اللون التاريخي وأن تستجيب لتوقع الذين ينتظرون منها أن توحي بعصر آخر. وهمستُ في أذن «سوان» كي يسألها إن سبق أن عرفت «موسيّه» (Musset). فأجابت بلهجة تتظاهر بالغضب، وقد كانت بالحقيقة تقول «يا سيّدي» لِـ«سوان» من قبيل المزاح إذ كانت على علاقة وطيدة معه: «أقلّ المعرفة، يا سيّدي. فقد حضر مرّة للعشاء، وكنت دعوته

(١) يعني أنها لفظت كلمة cochon (خنزير) بمد المقطع الأول فيها كما هي الحال بالنسبة إلى اسم المطران Cauchon.

للسابعة، وفي السابعة والنصف جلسنا إلى الطاولة بما أنّه لم يحضر. ويصل في الثامنة ويحيّي ويجلس ولا ينبس ببنت شفة ويمضي بعد العشاء دون أن يتمّ لي سماع رنّة صوته. لقد كان ثملاً كأكثر ما يكون. ولم يشجّعني الأمر كثيراً أن أعيد الكرّة». وكنت و«سوان» على حدة، فقال لي: «آمل ألا تتطاول هذه الجلسة الصغيرة فإن أخامص قدمي تؤلمني. ولست أدري لماذا تغذّي زوجتي الحديث. فبعد ذلك سوف تشكو هي أنّها متعبة، أما أنا فلست أطيق من بعد هذه الوقفات». والحقيقة أن السيّدة «سوان» كانت تنقل إلى الأميرة، وقد أخذت المعلومات من السيّدة «بونتان»، أنّ الدولة أدركت أخيراً نذالتها فقرّرت أن ترسل إليها دعوة لتشهد من الشرفات الزيارة التي يزمع القيصر «نقولا» القيام بها إلى مقام «الأنفاليد» غداة اليوم الثاني. بيد أنّ الأميرة التي ظلّت في أساسها، وفي كلّ مرّة يقع عليها أن تعمل، ابنة أخي نابليون على الرغم من المظاهر وعلى الرغم من نوعيّة محيطها المؤلّف من الفنّانين ورجال الأدب بخاصّة: «أجل، يا سيّدي، لقد أخذتها هذا الصباح ورددتها إلى الوزير الذي لا بدّ تسلمها في هذه الساعة. قلت له إني لا حاجة لي إلى دعوة للذهاب إلى «الأنفاليد». فإن رغبت الحكومة في ذهابي إلى هناك فلن يكون ذلك إلى إحدى الشرفات بل إلى مدافننا حيث قبر الإمبراطور ولست أحتاج بطاقات لذلك، فلديّ مفاتيحي وأدخل على هواي، وليس على الحكومة إلا أن تعلمني إن كانت راغبة في أن أجيء أم لا. ولكنّي إن أذهب فإلى هناك أو لا يكون ذلك البتة». وحيّانا في تلك اللحظة، أنا والسيّدة «سوان»، شاب أقرأها السلام دون أن يتوقّف وما كنت أعلم أنّها تعرفه، عنيت «بلوك». ولدى سؤال طرحته قالت لي السيّدة «سوان» إنّه سبق أن قدمته لها السيّدة «بونتان» وأنّه ملحق بمكتب الوزير، الأمر الذي كنت أجهله. ولا بدّ على أيّة حال أنّها لم تساعده كثيراً - أو هي لم تشأ ذكر اسم «بلوك» الذي ربّما وجدته على قدر قليل من الأناقة - فقد قالت إنّه يُدعى السيّد «مورول». وأكدت لها أنّها تخلط بين الأمور وأنّه يدعى «بلوك». وعدّلت الأميرة رفلاً

كان ينتشر وراءها وكانت السيّدة «سوان» تنظر إليه بإعجاب. وقالت الأميرة: «إنّه بالحقيقة فرو أرسله إليّ إمبراطور روسيا وبما أنّني بادرت إلى زيارته منذ قليل فقد ارتديته لأريه أنّه أمكن تدبيره على شكل معطف». وقالت السيّدة «سوان» التي لم تكن تُبصر إرشادات زوجها الذي عيل صبره: «يبدو أن الأمير لويس انخرط في الجيش الروسي وستغتم الأميرة ألا يكون من بعد بالقرب منها». - «لقد كان كبير الحاجة إلى مثل ذلك! وكما قلت له: ليس يكفي أن كان لك عسكري من أسرتك»، تجيب الأميرة وهي تشير بتلك البساطة المفاجئة إلى نابوليون الأول. ولم يعد «سوان» يُطيق أكثر من ذلك. «سيدتي، سأقوم بدور صاحبة السمو وأستأذنك بالانصراف، فإن زوجتي أصيبت بأوجاع شديدة ولست أريد أن تظلّ بلا حراك لفترة أطول». وانحنت السيّدة «سوان» للتحيّة وابتسمت الأميرة لنا جميعاً ابتسامة رائعة بدا أنّها تجيء بها من الماضي، من رونق شبابها، من أمسيات «كومبيانيي»، ابتسامة انسابت كاملة عذبة على الوجه المتجهم منذ قليل، ثم ابتعدت تتبعها وصيفتا الشرف اللتان اقتصرتا، شأن المترجمين أو مربيات الأطفال أو الممرّضات، على ترصيع حديثنا بجمل لا معنى لها وشروح لا جدوى منها. وقالت لي السيّدة «سوان»: «يجدر بك أن تذهب وتدوّن اسمك لديها في يوم من هذا الأسبوع فهم لا يوزّعون بطاقات في هذه الحفلات «الملكيّة» حسبما يقول الإنكليز، ولكنّها سوف تدعوك إن قمت بتسجيل نفسك».

وكنا ندخل أحياناً في آخر أيّام الشتاء، قبل أن ننطلق في نزهاتنا، إلى واحد من المعارض الصغيرة التي كانت تُقام آنذاك والتي كان يبادَر فيها إلى تحيّة «سوان»، وهو هاوي مجموعات مرموق، تحيّة تتّسم باحترام خاصّ بتجار اللوحات الذين كانت تقام المعارض عندهم. وكانت أمنياتي القديمة في الذهاب إلى الجنوب والبندقية تستفيق في تلك الأوقات التي لا تزال باردة وفي تلك الحجرات التي يلقي فيها ربيع مبكّر وشمس حارقة انعكاسات بنفسجيّة على هضاب «الألبيي» الوردية ويضيفان شفافية الزمرّد

العاتمة على القناة الكبرى. فإن كان الطقس رديئاً ذهبنا إلى قاعة الموسيقى أو إلى المسرح ثم تناولنا العصرونية فيما بعد في صالة للشاي. وحينما كانت السيّدة «سوان» تبغي أن تقول لي شيئاً ترغب ألا يفهمه الجالسون إلى الطاولات المجاورة أو حتى الخدم الذين يقومون بالخدمة كانت تقوله لي بالإنكليزية كما لو أنّها لغة لا يعرفها سوانا. ولكنّ جميع الناس كانوا يعرفون الإنكليزية وكنت الوحيد الذي لم يتعلمها بعد وأراني مضطراً أن أقول ذلك للسيّدة «سوان» كي تكفّ عن إبداء الملاحظات حول الأشخاص الذين يتناولون الشاي أو أولئك الذين يقدّمونه، ملاحظات أستشفّ أنّها محمّلة بالإساءة دون أن أفهم منها كلمة واحدة أو تفوت الرجل المعنيّ بها كلمة.

وذات مرّة بعثت لديّ «جيلبيرت» دهشة عميقة بشأن حفلة بعد الظهر في أحد المسارح. كان ذلك اليوم بالضبط اليوم الذي حدثني عنه سلفاً والذي يصادف ذكرى وفاة جدّها. كنّا نزمع الذهاب أنا وهي لسماع فقرات من أحد الأعمال الأوبرالية برفقة معلّمتها، وكانت «جيلبيرت» قد ارتدت ملابسها بقصد الذهاب إلى هذا العمل الموسيقيّ وهي تحتفظ بمظهر اللامبالاة الذي تعودّت أن تبديه بالنسبة إلى الأمر الذي نزمع القيام به قائلة إنّه يمكن أن يكون أيّ شيء بشرط أن يروقني ويحسن في عيني والديّ. وانتحت بنا أمها جانباً قبل الغداء لتقول لها: إنّه لمما يزعج والدها أن يرانا نذهب لحضور حفلة موسيقية في ذلك اليوم. ورأيت أن الأمر طبيعي تماماً، وظلّت «جيلبيرت» هادئة الأعصاب ولكنّها أصبحت شاحبة اللون من جراء غيظ لم تستطع إخفاءه ولم تتفوّه بعدها بكلمة. وحينما عاد «سوان» اصطحبته امرأته إلى الزاوية الثانية في الصالة وهمست في أذنه. فدعا «جيلبيرت» وانتحى بها ناحية في الحجرة المجاورة، وسُمِعَتْ صيحات. على أنّه لم يكن بوسعي أن أصدّق أنّ «جيلبيرت» المطيعة الرقيقة العاقلة إلى هذا الحدّ سوف تقاوم رغبة والدها في يوم كهذا ولسبب تافه كهذا. وأخيراً خرج «سوان» وهو يقول لها:

- «ها إنّك تعلمين ما قلته لك، فافعلي الآن ما تشائين».

وظلّ وجه «جيلبيرت» منقبضاً طوال فترة الغداء، وبعدها ذهبنا إلى غرفتها. وفجأة صاحت دون أيّ تردّد، وكما لو لم يداخلها شيء منه في أيّة لحظة: «الثانية! ولكنك تعلم أن الحفلة الموسيقية تبدأ في الثانية والنصف». ثم قالت لمعلّمتها أن تسرع وقلت لها:

«ولكن، أليس يزعج ذلك والدك؟».

- «ليس يزعجه البتّة».

- «ولكنّه كان يخشى أن يبدو الأمر مستهجناً بسبب تلك الذكرى».

- «وأيّة أهميّة لديّ لما يفكّر به الآخرون؟ إنّي أرى من السخف أن يهتمّ المرء بالآخرين في شؤون العاطفة. فالمرء يشعر لذاته لا للجمهور. إن الآنسة التي تملك القليل من صنوف التسلية يسعدها الذهاب إلى تلك الحفلة الموسيقيّة، فلن أحرمها إيّاها لإبهاج الجمهور».

وأخذت قبّعتها. فقلت لها وأنا أمسك بذراعها:

- «ولكن ليست المسألة في إبهاج الجمهور يا «جيلبيرت»، بل في إدخال الشرور على قلب والدك».

فصاحت تقول بنبرة قاسية وهي تتملّص بنزق:

- «آمل ألا تمضي في توجيه الملاحظات لي».

لم تعد أسرة «سوان» تستبعدني من صداقتها مع «بيرغوت»، وهي منّة أثمن بعد اصطحابي معهم إلى حديقة الحيوانات أو إلى الحفلة الموسيقية، تلك الصداقة التي كانت في أساس السحر الذي ألفيته فيهم حينما كنت أحسب، حتى قبلما أعرف «جيلبيرت»، أنّ ألفتها مع الشيخ الإلهيّ ربّما جعلت منها في نظري أكثر الصديقات إثارة لولعي لو لم يحجب عني الازدراء الذي لا بدّ كنت أوحي به إليها أمل أن تصطحبني معها في يوم لزيارة المدن التي كان يحبّها. ولكن السيّدة «سوان» دعتني ذات يوم إلى مأدبة غداء كبرى. ما كنت أدري من عسى يكون المدعوّون. ولدى وصولي داخلني الاضطراب في الردهة من جرّاء حادث أفزعني. فنادراً ما

كان يفوت السيّدة «سوان» تبنّي العادات التي تحتسب أنيقة طوال أحد الفصول ثم هي تُهْجَر بعد حين إذ لا تفلح في البقاء (مثلما اتّخذت قبل سنوات عديدة *hansom cab*(١) أو كانت توعز بطباعة عبارة *to meet* (لقاء) شخصيةٍ على قدر من الأهمية على بطاقة دعوة للغداء). من ذلك أنّ «أوديت» دفعت زوجها إلى طباعة بطاقات جاء فيها اسم «شارل سوان» مسبوقاً بكلمة «السيّد» وهو تجديد طفيف تمّ في تلك السنوات وجيء به من إنكلترا.

وقد أرسلت السيّدة «سوان»، بعد الزيارة الأولى التي قمتُ بها، إحدى تلك البطاقات إلى منزلي. وما كان أحد البتّة قد بعث إليّ ببطاقات، فأحسست بقدر من الاعتزاز والانفعال والامتنان جمعت معه كلّ ما كنت أملك من مال وأوصيت على سلّة رائعة من أزهار الكاميليا وبعثت بها إلى السيّدة «سوان». وتوسّلت إلى والدي أن يبادر إلى إرسال بطاقة إليها على أن يعمل سريعاً قبل ذلك على طباعة بطاقات يكون اسمه مسبوقاً فيها بكلمة «السيّد». ولم يستجب لأيّ من ذينك الرجاءين وتملّكني اليأس على مدى بضعة أيّام وتساءلت بعدها إن لم يكن على حقّ. ولئن كان استعمال كلمة «السيّد» غير ذي جدوى فقد كان واضحاً. وما كانت تلك حال عادة أخرى تمّ كشفها لي يوم ذاك الغداء ولمن دون أن تُشْفَعَ بدلالتها. فقد سلمني رئيس الخدم، لحظة كنت أزمع الانتقال من الردهة إلى الصالة، مغلّفاً دقيقاً وطويلاً دوّن اسمي عليه. وشكرته في دهشتي فيما كنت أنظر إلى المغلّف. ولم أكن أدري ما ينبغي أن أفعل به أكثر مما يدري غريب بخصوص إحدى تلك الآلات الصغيرة التي يُزَوّد بها المدعوون في مآدب العشاء الصينيّة. ورأيت أنّه غير مفضوض وخشيت أن أنعت بالفضول إن فضضته في الحال فوضعته في جيبي بهيئة العارف. لقد سبق أن كتبت لي السيّدة «سوان» قبل بضعة أيّام أن آتي للغداء «في شلّة صغيرة». وكان ثمة

(١) عربة مكشوفة بمقعدين مخترعها إنكليزي (Hansom).

مع ذلك ستّة عشر شخصاً أجهل تماماً أنّ «بيرغوت» حاضر ما بينهم. وفجأة لفظت السيّدة «سوان» التي جاءت على «ذكر اسمي»، حسبما كانت تقول، أمام العديد منهم، لفظت على إثر اسمي وبالطريقة نفسها التي قالته فيها (وكما لو كنّا مدعوّين اثنين فحسب إلى الغداء وهما لا بدّ يبديان الغبطة نفسها في أن يعرف كل منهما الآخر) اسم المُنْشِد العذب ذي الشعر الأبيض. وجعلني اسم «بيرغوت» هذا أنتفض كمثل دويّ مسدّس تمّ إطلاقه عليّ ولكنّي حيّيت بالغريزة وكيما أظهر رابط الجأش. وكمثل هؤلاء المشعوذين الذين تراهم يبرزون سالمين وباللباس الرسميّ من خلف غبار طلقة ناريّة تنطلق منها حمامة، كان يردّ لي التحيّة أمامي رجل فتي خشن قصير القامة قويّ البنية قصير النظر له أنف أحمر على شكل صدفة حلزون ولحية صغيرة سوداء. وانتابني حزن قاتل لأنّ ما استحال منذ هنيهة رماداً ليس الشيخ المضنى فحسب الذي لم يظلّ منه شيء بل كذلك جمال إنتاج ضخم استطعت أن أوسع له مكاناً في الجسم الخائر القوي والمقدّس الذي بنيته، كمثل معبد، خصيصاً من أجله ولكنه لم يُخَص بأيّ مكان في الجسم المُكَتّل المليء بالأوعية الدموية والعظام والعقد الذي للرجل القصير ذي الأنف الأفطس واللحية الصغيرة السوداء الماثل أمامي. إن كامل «بيرغوت» الذي سبق أن صنعته بنفسي بتمهّل ورقّة وقطرة فقطرة، شأن الصواعد، من جمال كتبه الشفاف، إن «بيرغوت» هذا بدا فجأة لا يصلح لأيّ شيء بما أنّه كان ينبغي الحفاظ على الأنف الذي على شكل الحلزون واستخدام اللحية الصغيرة السوداء - كما لا يفيدنا من بعد في شيء الحلّ الذي وجدناه لمسألة لم نقرأ كامل نصّها ولم نأخذ بالحسبان أن المجموع ينبغي أن يساوي عدداً معيّناً. كان الأنف واللحية الصغيرة يشكّلان عنصرين محتّمين يزيد في إعجازهما أنهما يبدوان، فيما أجهد في إعادة بناء شخصيّة «بيرغوت» إعادة كليّة، وكأنهما لا يزالان يتضمّنان بالضرورة وينتجان ويفرزان دونما انقطاع نوعاً من الفكر الناشط الراضي عن نفسه، الأمر الذي لم يكن وارداً لأن ذلك الفكر لم يكن يمتّ بصلة

إلى نوع الذكاء المبثوث في تلك الكتب المعروفة تماماً لديّ والتي تداخلها حكمة عذبة ورائعة. وما كنت بانطلاقي منها لأصل البتة إلى هذا الأنف الذي على شكل الحلزون ما كان يبدو أنّه يهتم للأمر وكان يمضي وحيداً وعلى هواه، كنت أنطلق في اتّجاه مغاير تماماً لأعمال «بيرغوت» الأدبيّة وربّما خلصتُ فيما يبدو إلى شيء من ذهنيّة مهندس مُتسرِّع من صنف الذين يظنّون من حسن اللياقة أن يقولوا حينما يحيّون: «شكراً وأنت» قبلما يُسْألون عن أخبارهم وإن صرّح أحدهم عن اغتباطه بالتعرّف إليهم أجابوا باختصار يتصوّرونه في أحسن موقع وأنّه ذكيّ وعصري لما يجنّب ضياع وقت ثمين بعبارات فارغة: «وأنا كذلك». والأسماء دونما شكّ تَرْسُمُ على هواها فتزوّدنا برسوم عن الناس والبلدان قليلة الشبه بأصولها حتى ليصيبنا في الغالب نوع من الذهول حينما يمثل أمامنا، عوضاً عن العالم المرئيّ (وهو ليس العالم الحقيقي على أيّة حال إذ لا تملك حواسّنا موهبة المماثلة أكثر مما يتّفق للخيال إلى حدّ أن الرسوم التقريبيّة التي يمكن بعد لأيٍ أن نحصل عليها من الواقع تختلف عن العالم المرئي على الأقلّ بقدر اختلاف هذا الأخير عن العالم المتخيّل). بيد أن الإزعاج الناجم عن الاسم السابق في ما يخصّ بيرغوت كان يسيراً جدّاً في مقابل الإزعاج الذي كانت تسبّبه لي أعماله المعروفة التي كان لزاماً عليّ أشدّ إليها، وكأنّما إلى منطاد، الرجل صاحب اللحية الصغيرة دون أن أعلم إن كانت ستظلّ لها القدرة على الارتفاع. إلا أنّه كان يبدو مع ذلك أنّه هو الذي سطّر كتباً أحببتها إلى حدّ بعيد، ذلك أنّه، إذ ظنّت السيّدة «سوان» من واجبها أن تقول له عن الميل الذي بي إلى أحدها، لم يُبْدِ أيّة دهشة أن نقلت الأمر إليه عوضاً عن أن تنقله إلى مدعوّ آخر، ولم يظهر وكأنّ يرى في الأمر أثراً لخطأ، بل ملأ السترة الرسمية التي ارتداها على شرف جيمع هؤلاء المدعوّين بجسد طامع في الغداء القريب واهتمامه منصرف إلى وجوه أخرى مهمّة من الواقع ولم يبتسم وهو يعود إلى فكرة كتبه إلا كما لحادثة انقضت من حياته السالفة وكما لو تمّ التلميح إلى بدلة للدوق «دوغيز» كان قد

ارتداها في حفلة تنكّرية في إحدى السنوات، كتبه التي هبطت في الحال في نظري (وجرّت في سقوطها كامل قيمة الجمال والكون والحياة) إلى حدّ أن لم تكن سوى تسلية ضحلة قام بها رجل ذو لحية صغيرة. كنت أقول في نفسي إنّه لا بدّ جَدَّ فيها، ولكنّه ربّما انصرف عوضاً عن ذلك، لو عاش في جزيرة تحيط بها أرصفة من محار اللؤلؤ، ربّما انصرف بنجاح إلى تجارة اللؤلؤ. ولم تعد آثاره تبدو لي محتّمة إلى هذا الحدّ. وأخذت أتساءل آنذاك إن كانت الأصالة تقيم البرهان حقّاً على أنّ الكُتّاب العظام آلهة يتربّع كل منهم على مملكة هي وقف عليه أو إن لم يكن في كل ذلك شيء من الخدعة وإن لم تكن الفوارق بين الأعمال الفنّية نتيجة العمل أكثر منها التعبير عن فارق جذريّ في الجوهر بين مختلف الشخصيّات.

وجلسنا في أثناء ذلك إلى المائدة، فوجدت إلى جانب صحني قرنفلة غلّفت ساقها بورق فضيّ. وكانت حيرتي بها أقلّ من تلك التي خلّفها فيّ المغلّف الذي سُلِّم إليّ في الردهة والذي نسيته تماماً. وقد بدت لي العادة، مع أنها في مثل جدّة المغلّف عليّ، أقرب إلى الإدراك حينما شاهدت سائر المدعوّين الذكور يأخذون قرنفلة مشابهة وضعت إلى جانب صحونهم ويدخلونها في عروة سترتهم. وفعلت مثلهم بالمظهر الطبيعيّ الذي يبديه أحد الملحدين في كنيسة وهو لا يعرف القدّاس ولكنّه ينهض حينما ينهض الجميع ويجثو على ركبتيه بعد ما يجثو الجميع بقليل. وكان هنالك عادة مجهولة لديّ وأقلّ زوالاً ساءتني أكثر من تلك، فقد كان في الجانب الآخر من صحني صحن أصغر منه ملأته مادّة لونها إلى سواد وما كنت أعلم أنها الكافيار. وكنت جاهلاً لما ينبغي أن أفعله بها ولكنني مصمّم أن لا آكل منها:

ولم يكن «بيرغوت» بعيداً عنّي، وكنت أسمع أقواله بوضوح تامّ. وأدركت إذ ذاك انطباع السيّد «دو نوربوا». لقد كان بالحقيقة يملك عضواً غريباً، فليس ما يفسد صفات الصوت الماديّة بقدر ما يتفق لها حينما يتضمّن فكراً، إذ تتأثّر بذلك رنّة المُصَوِّتات المزدوجة وزخم الحروف

الشفويّة، كما يتأثّر الإلقاء أيضاً. وكان إلقاؤه يبدو لي مختلفاً عن طريقته في الكتابة اختلافاً كليّاً، وحتى الأمور التي كان يقولها عن تلك التي تملأ كتبه. بيد أن الصوت ينطلق من تحت قناع لا يكفي ليسهّل لنا التعرّف لأوّل وهلة إلى وجه رأيناه على المكشوف في الأسلوب. ففي بعض مقاطع الحديث التي تعوّد فيها «بيرغوت» أن يأخذ بالتحدث بطريقة لم تكن تبدو متكلفة ومزعجة للسيد «دو نوربوا» وحده طال بي الوقت حتى اكتشفت توافقاً يطابق تماماً الأجزاء التي تضحي فيها الصياغة في كتبه شاعريّة وموسيقيّة إلى حدّ بعيد. حينئذ كان يبصر فيما يقوله جمالاً تشكيليّاً مستقلاً عن مدلول الجمل، وبما أن القول البشريّ متّصل بالروح، ولكن دون أن يعبّر عنها على نحو ما يفعل الأسلوب الكتابيّ، فقد كان «بيرغوت» يبدو وكأنّه يتكلّم بعكس المعنى فيرتّل بعض الكلمات، ثم هو ينسجها دونما فاصل وكأنّها صوت واحد وبرتابة متعِبة، وإمّا تابعَ تحتها صورةً واحدة. وهكذا كان الإلقاء المتكلّف المفخّم الرتيب علامة الميزة الجمالية في أقواله والأثر في حديثه لتلك القدرة نفسها التي كانت تنتج في كتبه تتابع الصور وانسجام الأصوات. وقد صادفت بادئ الأمر مشقّة في تبين ذلك تتعاظم بمقدار ما يبدو ما يقوله في تلك اللحظات وكأنّه ليس في طريقة «بيرغوت» لأنّه بالضبط كان حقاً من «بيرغوت». كان فيضاً من الفِكَرِ الواضحة لا تدخل ضمن «طراز بيرغوت» ذاك الذي اتّخذه الكثير من محرّري الأخبار لأنفسهم، والمرجّح أن ذلك التباين - حينما تتم رؤيته على نحو غامض من خلال الحديث على غرار صورة خلف زجاج نظّارة سوداء - إنما يشكّل مظهراً آخر من هذا الأمر الذي مفاده أنّك حين كنت تقرأ صفحة من «بيرغوت» لم تكن الصفحة قطّ ما قد يكتبه أيّ من أولئك المقلدين التافهين الذين يزيّنون نثرهم مع ذلك في الجريدة وفي الكتاب بقدر كبير من الصور والفِكَر التي من «طراز بيرغوت». كان ذلك الفارق في الأسلوب ناجماً عن أنّ «طراز بيرغوت» إنما هو قبل كلّ شيء عنصر ما ثمين وحقيقي مدفون في أعماق الأشياء جميعها ثم هو يُسْتَخْرَجُ منها على

يد هذا الكاتب الكبير بفضل نبوغه، وإنّما الاستخراج ما يهدف إليه «المُنْشِدُ العذب» لا أن يكتب على طريقة «بيرغوت». وحقيقة القول أنّه كان يفعل رغماً عنه بما أنّه «بيرغوت» وأن كل رائع جديد في مؤلّفاته إنما كان بهذا المعنى الكميّة اليسيرة من «طراز بيرغوت» التي دفنت في أمر ما ثم استخرجها منه. ولئن كان كل من تلك الرائعات من جرّاء ذلك على وجه شبه بالأخريات وسهل التعرّف فإنّما يظلّ مع ذلك متميزاً شأن الاكتشاف الذي أبرزه للنور، وجديداً وبالتالي مختلفاً عمّا كان يدعى بطريقة «بيرغوت» التي هي تأليف غامض بين جميع ما تمّ له العثور عليه وتسطيره من أمور من «طراز بيرغوت»، وهي أمور ما كانت لتسمح لرجال بلا نبوغ بالتكهّن بما قد يكتشفه في مكان آخر. والأمر واحد بالنسبة إلى جميع الكتاب العظام، فإن روعة جُمَلِهم لا يمكن توقّعها، كما هي روعة امرأة لا نعرفها بعد. وهي ابتداع بما أنها تنطبق على غرض خارجي يفكرون فيه - لا في أنفسهم - ولم يعبّروا عنه بعد. فلو شاء كاتب مذكرات في يومنا أن يكتب بطريقة «سان سيمون» دون أن يبدي من ذلك شيئاً لاستطاع كتابة السطر الأول من وصف «فيلار» إن حالفه الحظّ: «كان رجلاً فارع الطول أسمر... له وجه زاخر بالحياة والصراحة بارز الخطوط»، ولكن أيّة قدريّة يمكنها حمله على اكتشاف السطر الثاني الذي يبدأ بالكلمات: «وعلى شيء من الجنون حقّاً؟» إن التنوّع الحقيقيّ كامن في جميع هذه العناصر الحقيقية غير المتوقعة، في الغصن المثقل بالأزاهير الزرقاء والذي يندفع، بخلاف ما نتوقع، من السياج الربيعي الذي بدا ملآن مزدحماً فيما التقليد الشكلي البحت للتنوع (ويمكن انتهاج التفكير نفسه بشأن جميع ميزات الأسلوب الأخرى) فراغ ورتابة يعني أكثر ما كان مضاداً للتنوع ولا يفلح لدى المقلدين في الإيهام به والتذكير به إلا بالنسبة لمن لم يفهمه لدى أرباب الأدب.

ولذلك - فمثلما كان إلقاء «بيرغوت» ساحراً على الأرجح لو لم يكن هو نفسه سوى واحد من الهواة ينشد نصوصاً يزعمون أنها من طريقة

«بيرغوت»، في حين كان مرتبطاً بفكر «بيرغوت»، وهو في طور العمل الناشط، بصلات حيويّة لم تكن الأذن تميّزها في الحال - كذلك كانت تتسم لغته بشيء من الإيجابية وبما يزخر بالغذاء مما يخيب أمل الذين يتوقعون أن يحدثهم فقط عن «سيل المظاهر الأبدي»، وعن «رعشات الجمال الخفية»؛ لأن «بيرغوت» كان يطبق ذلك الفكر بدقة على الواقع الذي يروقه. أضف أن ميزة الندرة والجدة الدائمتين في كل ما يكتب كانت تتم ترجمتهما في حديثه بطريقة دقيقة في تناول مسألة ما بإهمال جميع وجوهها المعروفة من قبل إلى حد أنه كان يبدو وكأنه يطرقها من جانب صغير وأنه ضل سواء السبيل وأنه يقدم المفارقات فتبدو أفكاره بذلك مبهمة في الغالب، إذ يضع كل واحد موضع الأفكار الواضحة تلك التي بلغت حد الإبهام نفسه الذي بلغته أفكاره هو. ولما كان من شروط الجدة، أية كانت، الإزالة المسبقة للمطروق المكرور الذي سبق أن تعودناه والذي كان يبدو لنا الواقع بعينه، فسوف يبدو كل حديث جديد، ومثله كل رسم وكل موسيقى مبتكرين، معقّداً ومرهقاً على الدوام. ذلك أنه يستند إلى أشكال لم نألفها، ويبدو لنا المحدّث وكأنّه لا يتكلم إلا بصنوف المجاز، الأمر الذي يورث تعباً ويخلّف انطباعاً بمجانية الحقيقة. (ولقد كانت أشكال الكلام القديمة فيما مضى صوراً تصعب متابعتها هي الأخرى حينما لم يكن السامع عارفاً بعد بالعالم الذي تصوره إلا أن المرء يتصور منذ زمن بعيد أن هذا هو العالم ويستند إليه). ولذلك حينما كان يقول «بيرغوت» عن «كوتار»، مع أن الأمر يبدو اليوم بسيطاً جدّاً، إنه رقاص يبحث عن توازنه، وعن «بريشو» إن هم تسريحته يحمّله من المشقة أكثر مما تتحمل السيّدة «سوان» إذ كان ينبغي، وهو مزدوج الاهتمام بصورته الجانبية وبسمعته، كان ينبغي أن يعطيه تصفيف شعره، في كل لحظة، هيئة الأسد والفيلسوف في آن واحد، كنتَ تحس سريعاً بالتعب وتود لو تضع القدم على ما كان أكثر تشخيصاً، على حد ما يقال لنعني به ما كان أكثر قرباً مما ألفناه. والأقوال الغامضة التي خرجت من القناع

الذي كان أمام ناظري إنّما كان ينبغي ردها إلى الكاتب الذي كنت أنظر إليه بإعجاب، وما كان يمكن إدخالها في كتبه بالطريقة التي توضع بها لعبة معقدة في إطار مثيلات لها، فقد كانت في مستوى آخر وتقتضي تبديلاً في مواقع الكلام استطعت بوساطته ذات يوم كنت أردد فيه لنفسي جملاً سمعت «بيرغوت» ينطبق بها أن ألقى فيها كامل هيكلية أسلوبه الكتابيّ الذي استطعت أن أتعرف إلى أجزائه المختلفة وأن أسميها في تلك المقالة المحكية التي بدت لي من قبل مختلفة إلى حد بعيد.

ومن وجهة نظر ثانوية أكثر، فإن الطريقة الخاصة المبالغة إلى حد في دقتها وشدتها التي كان يتبعها في لفظ بعض المفردات، وبعض الصفات التي كانت تتردد في حديثه والتي لا ينطق بها بدون شيء من التفخيم فيبرز كافة مقاطعها ويرتل المقطع الأخير (كما هي الحال بالنسبة إلى المفردة «محيا» visage التي يحلها دوماً محل المفردة «وجه» figure ويضيف إليها عدداً كبيراً من حروف الميم والحاء والياء تبدو وكأنها تنفجر جميعها من راحة يده المفتوحة في تلك اللحظات)، إنما كانت توافق الموضع الجميل الذي يبرز في نثره تلك المفردات المحبوبة، يسبقها ما يشبه الهامش وقد أُلّفَتْ في العدد الإجمالي للجملة بطريقة يُضْطرُّ المرء معها أن يحتسب فيها كامل «كميتها»، وإلا حار على الإيقاع. على أنك ما كنت تجد في كلام «بيرغوت» هذا الضرب من الإثارة الذي غالباً ما يبدل في كتبه، كما هي الحال في كتب بعض مؤلفين آخرين، مظهر الكلمات في الجملة المكتوبة ذلك دونما شك لأنها تنطلق من الأعماق السحيقة ولا ترسل أشعتها حتى أقوالنا في الساعات التي ننفتح فيها على الآخرين في الحديث فننغلق إلى حد ما دون ذواتنا. كان في كتبه من هذا القبيل نغمات أكثر ولهجة أوضح مما في أقواله، وهي لهجة مستقلة عن جمال الأسلوب لم يتبينها الكاتب نفسه دونما شك لأنها لا تنفصل عن شخصيته الأكثر خفاء. وإنما تلك اللهجة التي كانت تحدّد، في الآونة التي يضحي فيها «بيرغوت» طبيعياً تماماً في كتبه، إيقاع الكلمات التافهة جداً في الغالب التي كان يسطرها

وليس في النص ما يشير إلى تلك اللهجة ولا ما يدل عليها وهي مع ذلك تنضاف من تلقاء ذاتها إلى الجمل ولا يمكن أن نقولها على نحو آخر. إنها ما كان أكثر زوالاً لدى الكاتب وأكثر عمقاً مع ذلك وهي التي ستشهد لنا على طبيعته وتُعْلِمنا إن كان على الرغم من جميع وجوه الخشونة التي عبر عنها ناعماً، على الرغم من جميع ألوان الشهوة عاطفياً.

على أن بعض خصائص الأداء الكائنة على هيئة آثار طفيفة في حديث «بيرغوت» لم يكن ينفرد «بيرغوت» بها وحده فقد عدت فلقيتها، حينما عرفت إخوته وأخواته فيما بعد، على نحو أكثر بروزاً لديهم. كان هنالك شيء مفاجئ أجشّ في الكلمات الأخيرة من جملة مرحة، وشيء واهن يحتضر في نهاية جملة كئيبة. وقد قال لي «سوان» الذي سبق أن عرف «الأستاذ» حينما كان طفلاً أنه كان يسمع لديه آنذاك، ولدى إخوته وأخواته على حد سواء، تلك التبدلات الأسروية إلى حد ما في نبرة الصوت، وهي صيحات مرح عنيف تارة وطوراً همسات كآبة بطيئة، وأنه كان يؤدي دوره خيراً من أي منهم حينما كانوا يلعبون سوية في الصالة في حفلاتهم الغنائية التي تصم الآذان تارة ويصيبها الوهن تارة أخرى. بيد أن كل هذه الأصوات التي تنبعث من الكائنات زائلة ولا تبقى من بعدهم مهما بدت مميزة لهم. ولكن الأمور لم تجر على هذا النحو في ما يخص التلفظ في أسرة «بيرغوت». فلئن كان من الصعب أن ندرك في يوم كيف يستطيع فنان، حتى في «**سادة الإنشاد**»(١)، أن يبتدع الموسيقى بالإصغاء إلى زقزقة العصافير، فإن «بيرغوت» قد نقل إلى نثره وثبت فيه تلك الطريقة في التباطؤ على كلمات تتردد صيحات فرح أو تتقطر آهات حزينة. فهنالك في كتبه نهايات جمل يتطاول فيها تراكم رنات، كما هو الأمر في النغمات المتآلفة الأخيرة في افتتاحية أوبرا لا تستطيع التوقف وتردد مرّات عديدة إيقاعها الأخير قبلما يحط قائد الأوركسترا عصاه، رنات لقيت فيها فيما بعد

---

(١) أوبرا غنائية لفاغنر.

المقابل الموسيقي لتلك الآلات النحاسية الصوتية في أسرة «بيرغوت». ولكنه توقف في ما يخصه توقفاً لا واعياً عن استخدامها في كلامه منذ اللحظة التي نقلها فيها إلى صفحات كتبه. ومنذ اليوم الذي باشر فيه الكتابة، ومن باب أولى حينما عرفته فيما بعد، فقد صوتُه من جراء ذلك صفاتِهِ الأوركسترالية إلى الأبد.

وما كان هؤلاء الشباب من عائلة «بيرغوت» - كاتب الغد وإخوته وأخواته - ما كانوا بالتأكيد يفوقون - بل العكس صحيح - شباباً أكثر رقة وأوفر نباهة يرون أن عائلة «بيرغوت» شديدة الصخب وحتى على شيء من السوقية ومزعجة في مزحاتها التي تتسم بها طريقة البيت ونصفها ادعاء والنصف بلاهة. بيد أن النبوغ، وحتى الموهبة الكبيرة، إنما يصدر عن عناصر ذكائية ورهافة اجتماعية تفوق ما يتجمع للآخرين أقل ما يصدر عن قدرة تحويلها وتبديل مواقعها. فليس يهمّ لتسخين سائل بوساطة مصباح كهربائي أن يكون لدينا أقوى مصباح ممكن، بل مصباح يمكن أن يتوقف التيار فيه عن الإضاءة وأن يتحوّل وينتج عوضاً عن النور حرارة. ولا ضرورة للتنزّه في الأجواء أن تكون لدينا أقوى سيارة تستطيع، إذ لا توالي الجري على الأرض وتقطع بخط عمودي المسار الذي كانت تتبعه، أن تحيل سرعتها الأفقية إلى قوة تدفعها إلى الأعلى. وليس الذين ينتجون أعمالاً عبقرية كذلك أولئك الذين يعيشون في الوسط الأوفر رقة والذين يتألقون في حديثهم لهم القدرة، وقد توقفوا فجأة عن العيش لذواتهم، أن يصنعوا من شخصهم ما يشبه المرآة حتى لتنعكس حياتهم على صفحتها مهما أمكن أن تكون ضحلة على الصعيد الاجتماعي وحتى الثقافي إلى حد ما، إذ قوام النبوغ في القدرة العاكسة لا في الميزة الضمنية للمشهد المعكوس. ففي اليوم الذي استطاع فيه «بيرغوت» الشاب أن يضع أمام عالم قُرّائه الصالة الرديئة الذوق التي أمضى فيها طفولته والأحاديث غير المسلية التي تدور بينه وبين إخوته، في ذلك اليوم ارتقى مكاناً أسمى من أصدقاء أسرته، وهم أوفر ذكاء وأناقة: يستطيعون العودة إلى بيوتهم في

سيارات الرولزرويس الجميلة وهم يبدون بعض الاحتقار لسوقية آل «بيرغوت»، أما هو فقد كان يحلق فوقهم بجهازه المتواضع الذي استطاع أخيراً «أن يُقْلِع».

وهنالك لمحات أخرى في أدائه كان يشاركه فيها لا أعضاء أسرته بل بعض كُتّاب عصره. كان ثمة من هم أصغر سناً منه ممن بدؤوا ينكرونه ويدّعون أن ليس من قرابة فكرية تربطهم به ثم هم يبرزونها غير قاصدين باستعمالهم للظروف نفسها ولحروف الجر نفسها التي كان يرددها بدون انقطاع وبتأليف الجمل بالطريقة نفسها وبالتحدث باللهجة المخففة المبطّأة نفسها كردّة فعل على اللغة البليغة السهلة التي لجأ إليها الجيل السابق. ربما لم يسبق لهؤلاء الشبان أن عرفوا «بيرغوت» - وسوف نرى من بينهم من كانت تلك حاله. ولكن طريقته في التفكير، وقد سرت في عروقهم، نمّت فيهم تلك التبدلات في النحو واللهجة التي تتصل بالضرورة بالأصالة الفكرية. والصلة تلك تقتضي التفسير على أية حال. فلئن كان «بيرغوت» لا يدين بشيء لأحد في أسلوبه الكتابي فقد أخذ أسلوبه في الحديث عن أحد رفاقه القدماء، وهو متحدث رائع بسط عليه نفوذه فكان يقلده في الحديث عن غير ما قصد، على أنه لم يكتب في يوم، وهو على مواهب أقل، كتباً رفيعة المستوى حقاً. فلو أننا وقفنا عند حد أصالة الإلقاء لَصُنِّف «بيرغوت» تلميذاً وكاتباً من الدرجة الثانية، في حين تأثر بصديقه في مجال الحديث وكان مبتكراً ومبدعاً في مجال الكتابة. وليس من شك أن ما كان «بيرغوت» يبرزه ويستشهد به على الدوام حينما يبغي تقريظ كتاب إنما كان أحد المشاهد المثيرة للخيال ولوحة لا دلالة معقولة فيها، وذلك في سعيه للانفصال عن الجيل السابق النزّاع إلى التجريد والموضوعات العامة المطروقة. فكان يقول: «آه! بلى!. ذلك حسن! ثمة بنية بشالٍ برتقالي، آه! ذلك حسن»، أو يقول: «آه! أجل! ثمة كتيبة مدينة، آه! أجل، ذلك حسن!» أما في ما يخص الأسلوب، فلم يكن في تيار عصره تماماً (وقد ظل على أية حال أميناً لبلده حصراً فكان يمقت تولستوي وجورج إيليوت

وإبسن ودوستوييفسكي)، لأن الكلمة التي كانت تتردد دوماً حينما يبغي امتداح أسلوب ما كانت كلمة «العذوبة» douceur. «بلى، إني أفضّل مع ذلك «شاتوبريان» الذي كتب «**أتالا**» على «شاتوبريان» الذي كتب «**رانسيه**» إذ يبدو لي أنه أكثر عذوبة». وكان يقول تلك الكلمة على غرار طبيب يؤكد له أحد المرضى أن الحليب يؤذي معدته فيجيب: «مع أنه شديد العذوبة». والصحيح أنه كان في أسلوب «بيرغوت» ضرب من التناغم شبيه بذلك الذي كان القدماء يطلقون على بعض خطبائهم من جرّائه مديحاً ندرك طبيعته بصعوبة إذ تَعَوَّدْنَا لغاتِنَا الحديثةَ التي لا يُبحث فيها عن هذا النوع من التأثير.

كان يقول كذلك بابتسامة خجولة عن صفحات له يعلنون عن إعجابهم بها: «أظن ذلك صحيحاً إلى حد ما ويمكن أن يكون مفيداً»، ولكن بداعي التواضع فقط وكمثل امرأة يقولون لها عن فستانها أو ابنتها إنهما رائعان، فتجيب بالنسبة إلى الأول: «إنه مريح»، وبالنسبة إلى الثانية: «إنها سلسة القياد». بيد أن غريزة الباني لدى «بيرغوت» كانت شديدة العمق حتى يجعل أن البرهان الوحيد على أنه بنى بناءً مفيداً وموافقاً للحقيقة كان يكمن في الفرح الذي أورثه إياه عمله الفني، هو أولاً ثم الآخرين. ولكنه بعد ذلك بسنوات عديدة، حينما لم تظل لديه موهبة، وفي كل مرة سطر فيها شيئاً لم يكن راضياً عنه، ردد لذاته هذه المرّة، كي لا يمحوه كما كان جديراً به أن يفعل وكيما ينشره: «على الرغم من كل شيء، وفي ذلك مقدارمن الصحة، وليس ذلك غير ذي جدوى لبلدي». حتى إن الجملة المهموس بها فيما مضى أمام المعجبين به من جراء حيلة يقدم عليها تواضعه أضحت يُهْمَسُ بها في النهاية في خفايا فؤاده من جراء مخاوف كبريائه. والكلمات نفسها التي أفاد منها «بيرغوت» بمثابة اعتذار لا ضرورة له عن القيم في آثاره الأولى أضحت له بمثابة عزاء غير فعّال إزاء ضحالة آثاره الأخيرة.

إن ضرباً من التشديد في الذوق لديه ومن التصميم على ألا يكتب البتة

سوى أشياء يمكنه أن يقول عنها: «ذلك شيء عذب»، احتُسِبَ من جرائه على مدى سنوات عديدة فناناً عقيماً ومتحذلقاً ومنمقاً لأمور لا طائل تحتها، إنما كان يؤلف على العكس سر قوّته، لأن العادة تصنع أسلوب الكاتب بقدر ما تصنع طباع الإنسان، والمؤلف الذي ارتضى مرّات عديدة أن يبلغ في التعبير عن فكره إلى متعة معيّنة إنما يضع على هذا النحو وإلى الأبد حدود نبوغه مثلما يرسم المرء بنفسه، إذ ينساق كثيراً وراء اللذة والكسل والخشية من العذاب، مثلما يرسم على طباع لم يعد التصحيح في نهاية المطاف ممكناً فيها صورة رذائله وحدود فضيلته.

ولئن لم أحسب في اللحظة الأولى في منزل السيّدة «سوان»، على الرغم من العديد من التقابلات التي تبينتها فيما بعد بين الكاتب وبين الرجل، أن من يقف أمامي إنما هو «بيرغوت»، إنما هو مؤلف العديد من الكتب الرائعة فربما لم أكن تماماً على خطأ لأنه لم يكن هو نفسه (بمعنى الكلمة الحقيقي) «يصدّق» ذلك. لم يكن يصدّق ذلك لأنه كان يبدي تلطفاً كبيراً إزاء رجال المجتمع (دون أن يكون متحذلقاً) وأرباب القلم والصحافيين ممن هم دونه بكثير. أجل، لقد علم الآن من أصوات الآخرين أنّه يملك العبقرية التي لا تساوي المكانة في المجتمع والمواقع الرسمية شيئاً في مقابلها. لقد علم أنّه يملك العبقرية ولكنه لا يصدّق ذلك بما أنّه يوالي التظاهر بالاحترام إزاء كتاب ضحلين بغية أن يصبح عضواً في الأكاديمية في وقت قريب في حين لا دخل للأكاديمية أو لضاحية «سان جيرمان» في هذا الجزء من «الفكر الأزلي» الذي هو واضع كتب «بيرغوت» أكثر مما لهما في مبدأ السببيّة أو فكرة الإله. كان يعلم ذلك أيضاً، مثلما عبثاً يعلم مهووس بالسرقة أن السرقة شر. وكان للرجل ذي اللحية الصغيرة والأنف الحلزوني خدعات سيّد مهذّب من سارقي الشوك بغية الاقتراب من المقعد الأكاديمي المؤمّل ومن هذه الدوقة - أو تلك - التي تملك عدّة أصوات في الانتخابات، ولكنه اقتراب يجهد فيه أن لا يتمكن أي شخص يقدّر أن ملاحقة مثل هذا الهدف من باب النقيصة من كشف حيلته. ولا

يفلح إلا جزئياً، فقد كنت تسمع إلى جانب أقوال «بيرغوت» الحقيقي أقوال «بيرغوت» الأناني الطموح الذي لا يفكر إلا في الحديث عن بعض ذوي النفوذ أو الأغنياء أو النبلاء كيما يبرز نفسه هو الذي أفلح في كتبه، حينما كان حقّاً ذاته، في إبراز سحر الفقراء نقياً كمياه الينابيع.

أما بالنسبة إلى تلك العيوب الأخرى التي ألمح إليها السيّد «دو نوربوا»، ذلك الحب النزّاع إلى المحرّمات في جزء منه والذي قالوا إنه تداخله قلّة الذوق على صعيد المال، فلئن كانت تناقض على نحو فاضح الاتجاه في رواياته الأخيرة وهي ملأى بنزعة إلى الخير دقيقة جداً ومؤلمة جدّاً إلى حدّ أنّ أقلّ مسرّات أبطالها كانت منكّدة من جرّائها وأنه كان ينبثق منها بالنسبة إلى القارئ نفسه شعور بالضيق تبدو من خلاله الحياة الأكثر حلاوة عسيرة الاحتمال، فلم تكن - ونقصد تلك العيوب - لتقيم البرهان، بافتراض أنها تُعْزَى حقاً إلى «بيرغوت»، على أن أدبه كاذب وأنّ هذا القدر من الإحساس من قبيل المهزلة. ومثلما هي الحال بالنسبة إلى بعض حالات في علم الأمراض تتشابه في ظاهرها فينشأ بعضها عن فرط توتّر أو إفراز، والبعض الآخر عن نقص فيهما، إلخ.، كذلك يمكن أن يكون ثمة عيب ناتج عن فرط الإحساس مثلما ثمة عيب ناتج عن نقص في الإحساس. وربّما لم نستطع طرح المشكلة الأخلاقية بكامل شدة القلق الذي تبعثه إلا في أنواع من الحياة تملؤها الرذائل بالحقيقة. ويوفر الفنان لتلك المشكلة حلاً لا على صعيد حياته الفردية بل ما كان بالنسبة إليه حياته الحقيقية، حلاً عاماً، حلاً أدبياً. ومثلما بدأ علماء الكنيسة الكبار، مع أنهم طيبون، بالتعرّف إلى خطايا جميع الناس واستخلصوا منها قداستهم الشخصية، كذلك يستخدم الفنانون الكبار في الغالب، مع أنهم شريرون، رذائلهم للوصول إلى تصوّر القاعدة الأخلاقية للجميع. وإنما رذائل الوسط الذي كانوا يعيشون فيه (أو مواطن الضعف والهزأة فيه) أو الأقوال الطائشة أو حياة ابنتهم العابثة الفاضحة أو خيانات زوجتهم أو أخطاءهم الخاصة ما كانوا في الغالب ينددون به في حملاتهم دون أن

يبدّلوا بذلك مسيرة حياتهم الزوجية أو السلوك السيئ الذي يسود مسكنهم. بيد أن هذا التناقض كان فيما مضى أقل إدهاشاً مما في زمان «بيرغوت» لأنّ مفاهيم الأخلاق أخذت من جهة تزداد نقاء كلما ازداد المجتمع فساداً وإن الجمهور من جهة أخرى اطّلع أكثر مما فعل حتى ذاك على حياة الكتاب الخاصّة؛ فقد كانوا يشيرون في بعض الأمسيات في المسرح إلى المؤلف الذي أعجبت به كثيراً في «كومبريه» وهو يجلس في زاوية مقصورة يبدو محض تركيبها تعليقاً غريباً مضحكاً أو مؤثراً وتكذيباً وقحاً للفكرة التي دافع عنها منذ قليل في آخر مؤلف له. وليس ما استطاع أن ينقله إليّ هؤلاء أو أولئك ما أطلعني على الكثير من طيبة «بيرغوت» أو خبثه، فأحد أقربائه كان يأتي ببراهين على قسوته، وآخر مجهول يذكر لمحة من حساسيّته العميقة (وهي مؤثرة إذ كان مقرراً بالطبع أن تظلّ خفيّة). لقد تصرف مع زوجته تصرفاً قاسياً، إلا أنه ظلّ ينتظر في نزل قرية جاء يمضي الليلة فيه كي يسهر على مسكينة حاولت أن تلقي بنفسها في الماء وحينما اضطر إلى مغادرة المكان ترك كثيراً من النقود لصاحب النزل كي لا يطرد تلك التعيسة وكيما يحيطها بعنايته. وربما كلّما تنامى الكاتب الكبير في «بيرغوت» على حساب الرجل ذي اللحية الصغيرة غرقت حياته الخاصة في لجة سائر الحيوات التي كان يتخيلها ولم يعد يبدو له أنها تضطره إلى أداء واجبات فعلية حلّ محلّها بالنسبة إليه واجب تخيل هذه الحيوات الأخرى. بيد أنه كان في الوقت نفسه، حينما تدعوه المناسبة إلى التحدث إلى أحد المساكين، على الأقل بطريقة عابرة، كان يفعل ذلك، لأنه يتخيّل مشاعر الآخرين كما لو أنّها مشاعره الخاصة، بأن يتخذ لا وجهة نظره الشخصية بل وجهة نظر الشخص الذي يتعذب، تلك الوجهة التي يكره من جرائها كلام الذين يوالون التفكير بمصالحهم الصغيرة حيال عذاب الغير. وقد أثار بذلك من حوله ضغائن لها ما يبرّرها ومشاعر امتنان لا تزول.

لقد كان على وجه الخصوص إنساناً لا يحب حقاً في قرارة نفسه

سوى بعض الصور وأن يؤلّفها ويرسمها تحت غطاء الكلمات (كمثل منمنمة في أسفل صندوقة). فقد كان يبدي إسرافاً في التعبير عن شكره من أجل شيء يسير أرسل إليه إن وفّر له هذا الشيء اليسير فرصة تشبيك عدد منها، في حين لا يبدي أيّ شكر إزاء هدّية ثمينة ولو وقع عليه أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة لاختار أقواله مرغماً لا بحسب التأثير الذي يمكن أن تخلّفه في القاضي بل سعياً وراء صور لعلّ القاضي بالتأكيد لم يتبيّنها.

وقد رويت لِـ«بيرغوت» في ذلك اليوم الأوّل الذي رأيته فيه لدى ذوي «جيلبيرت» أنني استمعت حديثاً للممثّلة «لا بيرما» في مسرحيّة «فيدر»؛ فقال لي إنّها استطاعت في المشهد الذي تظل فيه مرفوعة الذراع إلى مستوى الكتفين - وهو بالضبط أحد المشاهد الذي أثار الكثير من التصفيق -، استطاعت أن تستعيد بفنّ شديد السمو روائع لم تشهدها ربّما في يوم كمثل واحدة من «الهيسبيريد»[1] تقوم بهذه الحركة على إفريز منحوت من «أولمبيا»، وكذلك العذارى الجميلات في «الإيريكثيون»[2] القديم.

- «يمكن أن يكون الأمر من باب الرجم بالغيب، على أنّي أتصوّر أنّها ترتاد المتاحف. وربما بدا مثيراً أن نتقصّى حقيقة «ذلك» (وتقصّي الحقيقة واحدة من تلك العبارات المألوفة لدى «بيرغوت» والتي غنمها منه بعض الشبان ممن لم يلتقوا به في يوم فيتحدثون مثله وكأنما بضرب من الاستيحاء البعيد).

وسأله «سوان» قائلاً: «أتفكّر في فتيات «الكارياتيد»[3]؟

وأجاب «بيرغوت»: «لا، لا، إنّه فنّ أقدم بكثير ذاك الذي تردّ إليه الحياة، فيما عدا المشهد الذي تقرّ فيه لِـ«أونون» بغرامها والذي ترسم فيه

---

(١) Hesperides: جنيات ثلاث في الأساطير اليونانية كن يقمن بحراسة التفاح الذهبي الذي وهبته «هيرا» للأرض.

(٢) Erechtheion: معبد بالقرب من مبنى الأكروبول للإلهين «أثنيا» و«بوزيذون» ويعد من آيات الفن.

(٣) Cariatides: أعمدة على هيئة نساء وأشهرها في المعبد السابق.

بيدها حركة «هيجيزو»[1] التي على شاهدة مقبرة أثينا. كنت أتحدث عن عذارى «الإيريكثيون» القديم، وأعترف أنّه ما من شيء أبعد عن فنّ «راسين»، إلا أن ثمّة أموراً كثيرة في مسرحية «**فيدر**».. ينضاف إليها آخر.. آه! ثم إنها، بلى، إنّها جميلة جدّاً «فيدر» الصغيرة، تلك التي من القرن السادس، بعمودية الذراع وعقصة الشعر التي توحي بالمرمر، بلى، إنّه مع ذلك لأمر عظيم أن تكون لقيت كلّ ذلك. إن ثمة قسطاً من القديم أوفر بكثير مما هي الحال في كثير من الكتب التي ينعتونها بِـ«القديم في هذا العام».

ولما كان «بيرغوت» قد وجّه في أحد كتبه دعاءً شهيراً إلى هذه التماثيل العتيقة فقد كانت الأقوال التي يدلي بها في تلك اللحظة واضحة جدّاً بالنسبة إليّ وكانت تزودني بسبب جديد للاهتمام بتمثيل «لا بيرما» فأخذت أحاول رؤيتها ثانية داخل ذكرياتي مثلما كانت في ذلك المشهد الذي كنت أتذكر فيه أنها رفعت ذراعها إلى مستوى كتفها. وكنت أقول في نفسي: «تلك جنيّة «أولمبيا»، تلك شقيقة إحدى هؤلاء المصليات الرائعات في «الأكروبول». ذلك هو الفن السامي بعينه». بيد أنه كان لا بدّ كيما تستطيع تلك الأفكار أن تزيد في نظري من جمال حركة «لا بيرما» أن يكون «بيرغوت» قد زودني بها قبل العرض، فلعلي كنت أستطيع حينذاك، ساعة تكون وقفة الممثلة تلك قائمة بالفعل أمامي في تلك اللحظة التي لا يزال يملك فيها الأمر الذي يجري تمام الواقع، أن أستخلص منها فكرة المنحوتة القديمة. غير أن ما كنت أحفظه من «لا بيرما» في ذلك المشهد إنما كان ذكرى لم يعد بالإمكان تبديلها، دقيقة كمثل صورة خلت من خلفيات الحاضر العميقة التي يمكن حفرها والتي يمكن أن نستخرج منها شيئاً جديداً يطابق الحقيقة وصورة لا يمكن أن نفرض عليها تفسيراً لاحقاً

(١) ربّما كان «هيجزياس» الفيلسوف اليوناني الذي نادى بالانتحار إزاء عجز الإنسان عن بلوغ السعادة.

لا يمكن التحقّق منه من بعد ولا التصديق عليه موضوعيّاً. وسألتني السيّدة «سوان»، بغية المشاركة في الحديث، إن كانت «جيلبيرت» قد فطنت إلى إعطائي ما كتب «بيرغوت» حول «فيدر». وأضافت تقول: «لي ابنة بالغة الطيش». وعلت شفتي «بيرغوت» ابتسامة متواضعة واحتج بقوله إنها صفحات غير ذات بال. «بلى، إنّه رائع ذلك الكتيب الصغير، ذلك المنشور الصغير»، تقول السيّدة «سوان» كيما تظهر مظهر ربّة البيت الناجحة وكيما توهم أنّها قرأت النشرة ولأنها إلى ذلك لم تكن تحب تقريظ «بيرغوت» فحسب، بل أن تختار بين ما يكتب، وأن توجهه. وقد ألهمته والحق يُقال على نحو يختلف عمّا ظنّنت، بيد أن ثمة على كلّ حال بين ما كانت عليه أناقة صالون السيّدة «سوان» وبين جانب بأكمله من آثار «بيرغوت» صلات وثيقة إلى حد أن كلّاً من الاثنين يمكن أن يكون بالتناوب، في نظر شيوخ اليوم، تفسيراً للآخر.

وكنت أسترسل في التحدّث عن انطباعاتي. وكثيراً ما لا يجدها «بيرغوت» صحيحة، ولكنه يدعني أتحدث. قلت له إني أحببت ذلك الضوء الأخضر ساعة ترفع «فيدر» ذراعها. «آه! قد يدخل ذلك سروراً بالغاً على قلب مهندس المناظر وهو فنان كبير، وسوف أروي له عن ذلك لأنه فخور جدّاً بهذا الضوء. أما أنا فأرى من واجبي أن أقول إني لا أحبه كثيراً لأنه يغمر كلّ شيء في ما يشبه الجوّ المصطنع ذا الزرقة المخضوضرة، وتبدو «فيدر» الصغيرة في ذلك الوسط أكثر ما تبدو وكأنها غصن مرجان في أسفل حوض أسماك. وربما قلت إن ذلك يبرز الجانب الكوني في المأساة، وهذا صحيح، والأمر على كل حال أفضل بالنسبة إلى مسرحية تجري في مملكة «نبتون»[١]. إني أعلم تمام العلم أنّ ثمة ما يمّت إلى ثأر «نبتون». ولست، وربك، أطالب أن ينحصر التفكير في «بور رويّال»، ولكن ليس ما روى عنه «راسين» على كلّ حال حبّ قنافذ البحر. على أنّ

(١) Neptune: إله البحر والملاحة لدى الرومان.

ذلك ما ابتغاه صديقي وفيه فن كثير على أي حال وهو جميل بما فيه الكفاية. أجل، لقد أحببتَ ذلك وأدركت؛ وفكرتنا واحدة بهذا الشأن، أليس كذلك، إن ما فعله غير معقول إلى حدّ ما، أليس كذلك، ولكنه في غاية الذكاء». وحينما كان رأي «بيرغوت» مناقضاً لرأيي لم يكن يضطرني على الإطلاق أن ألتزم الصمت ويحجب عني إمكانيّة الإجابة كما ربّما كان يفعل بي رأي السيّد «دو نوربوا». وليس يعني ذلك أن آراء «بيرغوت» كانت أقل صحة من آراء السفير، بل العكس صحيح. ذلك أن فكرة قوية إنما تعطي شيئاً من قوّتها للمعارض. وإنها إذ تشارك في القيمة العامة للعقول إنما تداخل العقل الذي تدحضه وتنزرْع فيه وسط أفكار مجاورة يستبعد بوساطتها بعض المكاسب ويكمّلها ويصحّحها، حتى إن الحكم النهائي إنما يأتي نوعاً ما من عمل الشخصين اللذين كانا يتناقشان. وإنما الأفكار التي ليست بحصر القول أفكاراً، الأفكار لا ترتبط بشيء ولا تجد في ذهن الخصم أية نقطة ارتكاز وأي فرع شقيق، إنما الأفكار تلك التي لا يجد الخصم ما يجيب به عليها إذ تدعه في صراع مع الفراغ المطلق. لقد كانت حجج السيّد «دو نوربوا» (في مجال الفنّ) لا تقبل النقاش لأنها لا تملك أرضية واقعيّة.

ولما لم يرفض «بيرغوت» اعتراضاتي فقد اعترفت له أنها قوبلت بازدراء السيّد «دو نوربوا». فأجاب قائلاً: «ولكنه عجوز أبله. لقد أوسعك انتقاداً لأنه يحسب أمامه على الدوام رجلاً مخدوعاً أو مغفّلاً». وقال لي «سوان»: - «عجباً! أو تعرف «نوربوا»؟ وقاطعته زوجته التي كانت كبيرة الثقة بحكم «بيرغوت» وكانت تخشى دونما شك أن يكون اغتابها السيّد «دو نوربوا» أمامنا: «أوه! إنّه مملّ كالمطر».

«لقد أردت أن أتحدث إليه بعد العشاء، ولست أدري أهو العمر أم عامل الهضم، ولكني وجدته مبدَّد الفكر إلى حدّ بعيد، وربما بدت به حاجة إلى منشط!» وقال «بيرغوت»: «أجل، أليس كذلك، إنه مضطر أن يصمت مراراً كي لا يستنفد قبل نهاية الأمسية مؤونة الحماقات التي

«تنشّي» ياقة القميص وتحافظ على بياض الصدرية». وقال «سوان» الذي اتخذ في بيته «مهنة» الرجل ذي التفكير السليم: «إني أجد «بيرغوت» وزوجتي قاسيين جداً. إني أقرّ بأن «نوربوا» لا يمكن يثير اهتمامك كثيراً، ولكنه من وجهة نظر أخرى (إذ كان «سوان» يحب أن يجمع واقع الجمال في «الحياة») شخص غريب إلى حد ما، غريب إلى حدّ ما في «باب العاشقين». ثم أضاف قوله بعدما أكد أن «جيلبيرت» لا تستطيع سماعه: «حينما كان سكرتيراً في روما، كان له في باريس عشيقة يهيم في حبّها فيجد وسيلة للسفر مرتين في الأسبوع ليراها مدة ساعتين. وكانت على أي حال امرأة شديدة الذكاء وفتانة في ذلك الوقت، وهي الآن من الوريثات. وكان له كثيرات أخرى في تلك الأثناء. أمّا أنا، فلعلي كنت أجنّ لو انبغى أن تقطن المرأة التي أحبها باريس فيما تمسك بي أشغالي في روما. ولعله ينبغي على الدوام، في ما يخص عصبيي المزاج، أن يحبوا «في طبقة أدنى منهم»، كما تقول العامة، كي تمسك المصلحة بالمرأة التي يحبّونها تحت رحمتهم». وفي تلك اللحظة انتبه «سوان» إلى إمكانية لجوئي إلى تطبيق تلك القاعدة المأثورة عليه وعلى «أوديت». وبما أنّ حبّ الذات يظل دنيئاً حتى لدى المتفوقين من الناس وساعة يبدون وكأنهم يحلّقون معك فوق الحياة، فقد تملكه استياء شديد حيالي، ولكن ذلك لم يبرز إلا في اضطراب نظرته. ولم يقل لي شيئاً في تلك اللحظة نفسها، وينبغي ألا نعجب من ذلك. فحينما أشار «راسين»، حسب رواية ملفقة على كل حال ولكن مضمونها يتكرر كلّ يوم في حياة باريس، حينما أشار إلى «سكارون» في حضرة لويس الرابع عشر لم يقل أقوى ملوك العالم للشاعر شيئاً في ذلك المساء، وفي الغد فقد هذا الأخير الحظوة في عينيه.

وبما أن أية نظرية تنزع إلى أن تُعَبّر عنها كلياً فقد أتم «سوان» فكرته بعد دقيقة الغضب تلك وبعدما مسح زجاج نظارته، أتمها بهذه الكلمات التي كانت ستتخذ بعدها في خاطري أهمية نبوءة تحذيرية لم أفطن إلى أخذها في حسابي: «بيد أن خطر هذا النوع من الحب يكمن في أن

خضوع المرأة إنما يهدئ لفترة من غيرة الرجل ولكنه يجعلها كذلك أكثر تشدداً. فهو ينجح في جعل عشيقته تعيش على غرار هؤلاء السجناء الذين تضاء غرفهم ليل نهار كيما تُحْسَنَ حراستهم. وينتهي الأمر عامة بمآسٍ».
وعدت إلى السيّدة «دو نوربوا»، فقالت السيّدة «سوان» بلهجة زاد من أنها بدت تدل على أن السيّد «دو نوربوا» تناولها بسوء أن «سوان» نظر إلى زوجته نظرة تأنيب وكما لو يبغي منعها من الاسترسال في القول: «لا تثق به، فهو على العكس نمّام».

أما «جيلبيرت» التي سبق أن رجوتها مرتين أن تذهب وتستعد للنزهة فقد ظلّت تستمع إلينا بين والدتها ووالدها الذي كانت تتكئ بغنج على كتفه. ولم يكن هنالك ما يتعارض والسيدة «سوان» وهي سمراء، أكثر من هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي والبشرة الصهباء. بيد أنك كنت تتعرف بعد برهة لدى «جيلبيرت» إلى الكثير من القسمات - كمثل الأنف الذي توقف بقرار مفاجئ لا يخطئ على يد النحات الخفي الذي يعمل بإزميله على مدى أجيال كثيرة - وملامح والدتها وحركاتها. لقد كانت تبدو، كيما تتخذ تشبيهاً في فنّ آخر، وكأنها رسم لا يزال قليل الشبه بالسيّدة «سوان» التي جعلها الرسام، من جرّاء نزوة ألوان لديه، تقف نصف متنكرة، وهي على أهبة الذهاب إلى حفلة عشاء تنكرية بلباس امرأة من البندقية. وبما أنها لم تقتصر على شعر أشقر مستعار بل أقصت أيّة ذرّة قاتمة عن لحمها الذي بدا، وقد نزعت عنه براقعه السمراء، أكثر عرياً إذ لا تغطيه سوى أشعة تنبعث من شمس باطنة، فلم يجئ التخضيب سطحياً بل بداخل اللحم؛ وتبدو «جيلبيرت» وكأنها تمثل حيواناً أسطورياً أو ترتدي ملابس تنكرية ميثولوجية. كانت تلك البشرة الصهباء بشرة والدها إلى حد أن الطبيعة بدت، يوم تكونت «جيلبيرت» وكأنّ عليها أن تحلّ مشكلة إعادة صنع السيّدة «سوان» شيئاً فشيئاً ولا تملك سوى بشرة السيّد «سوان» مادّةً لذلك. وقد استعملتها الطبيعة بمنتهى الإتقان كصانع صناديق يهمّه أن تظل عروق الخشب وعقده ظاهرة للعيان. ففي وجه «جيلبيرت»، وفي زاوية

أنف «أوديت»، الذي أعيد رسمه على أتم وجه، ينتفخ الجلد ليحافظ على سلامة شامتي السيد «سوان» فلا تُمسّان. كان شكلاً جديداً للسيدة «سوان» تم الحصول عليه ههنا، بالقرب منها، كمثل ليلك أبيض بالقرب من ليلك بنفسجي - على أنه لا ينبغي تمثل الخط الفاصل بين الشبهين وكأنه واضح تمام الوضوح. فقد كنتَ تميز بين الحين والحين، حينما تضحك «جيلبيرت»، بيضوية خد والدها في وجه أمها وكأنما وُضعا سوية لتبين ما سيسفر عنه المزيج. كانت تلك البيضوية تتوضح مثلما يتشكل جنين: فتتطاول على خط مائل وتنتفخ ثم تراها بعد لحظة وقد زالت. وكان في عيني «جيلبيرت» نظرة والدها الطيبة الصريحة، وهي التي رنت إليّ بها حينما أعطتني كلّة العقيق وقالت لي:

«احتفظ بها تذكاراً لصداقتنا».

ولكن ما إن تطرح سؤالاً على «جيلبيرت» حول ما قد فعلت حتى تتبيّن في تينك العينين الحرج والتردّد والمخادعة والحزن الذي كان يلم بِـ«أوديت» بالأمس يوم سألها «سوان» إلى أين ذهبت وردّت عليه بإحدى تلك الإجابات الكاذبة التي كانت تدخل اليأس إلى قلب العاشق وتحمله الآن على تغيير الحديث بصورة مفاجئة وقد أضحى الزوج اللامبالي والحذر. وغالباً ما ألمّ بي الاضطراب في «الشانزيليزيه» وأنا أبصر تلك النظرة لدى «جيلبيرت». وكنت في الغالب على غير حق، ذلك أن تلك النظرة - وأقصد هذه الأخيرة على الأقل - لم تعد تقابل شيئاً، وهي لديها أثر مادي بحت ورثته عن والدتها. فقد كانت حدقتا «جيلبيرت» بعدما تذهب إلى درسها أو حينما ينبغي لها أن تعود من أجل درس ما، تقومان بتلك الحركة التي كانت تسببها بالأمس في عيني «أوديت» خشية أن تكشف أنها استقبلت في بحر النهار أحد عشاقها أو أنها على عجلة من أمرها للذهاب إلى موعد. وهكذا كنت ترى طبيعتي السيّد «سوان» وزوجته تموجان وتتراجعان وتتجاوز كل منهما بدورها حدودها في جسد تلك الجنية الصغيرة.

إننا نعلم ولا ريب أن الولد يكتسب صفات من أبيه ومن أمه. بيد أن توزع الصفات والعيوب التي يرثها يتم على نحو غريب إلى حد أن المرء لا يجد من بعد لدى الطفل إلا واحدة من صفتين كانتا تبدوان وكأنما لا يمكن فصلهما لدى أحد وقد اتحدت بأحد عيوب القريب الآخر وكانت تبدو أكثر ما تكون بعداً عنه. بل قد يشكل في الغالب تجسد صفة أخلاقية في عيب جسماني يناقضها أحد قوانين الشبه البنوي. فقد تمتلك إحدى شقيقتين، إلى جانب قدّ والدها الفارع، روح والدتها الخسيسة، أما الثانية التي امتلأت بذكاء والدها فإنها تبرزه للناس بالمظهر الذي يميز والدها. ويضحي الأنفُ الكبير لدى والدتها والبطن المجعد وحتى الصوت الأثوابَ التي تلف مواهب عهدناها في مظهر رائع، حتى ليمكن القول عن كل من الشقيقتين وبقدر من الحق متساوٍ إنها هي التي ورثت أكثر ما ورثت من أحد والديها دون الآخر. صحيح أن «جيلبيرت» كانت ابنة وحيدة بيد أنه كان ثمة اثنتان باسم «جيلبيرت» على الأقل. فما كانت طبيعة والدها ووالدتها تمتزجان فيها فحسب، لقد كانتا تتنازعانها. بل ربما كان ذلك من باب القول غير الدقيق ويحمل على افتراض أنّ «جيلبيرت» ثالثة كانت تتعذب في تلك الأثناء من أنها فريسة الآخرين ولكن «جيلبيرت» كانت هذه ثم تلك بالتناوب، وكانت في كل لحظة إحداهن لا أكثر، يعني أنها عاجزة، حينما تكون أقل طيبة، عن التألم من جراء غيابها. ولذلك كانت أقل الاثنتين طيبةً حرةً، وتتمتع بملذات قليلة السمو. وحينما كانت الأخرى تتحدث بلسان فؤاد والدها كانت تملك رؤى واسعة ويودّ المرء لو ينجز معها مشروعاً جميلاً وخيّراً ويطلعها عليه، لكن قلب والدتها، لحظة يوشك الاتفاق، يكون استعاد دوره، فإذا هو الذي يجيبك. ويخيب أملك وتغتاظ - وتداخلك الحيرة تقريباً وكأنما حيال استبدال أشخاص - من جراء فكرة خسيسة أو قهقهة ماكرة تستمتع بهما «جيلبيرت» لأنهما تصدران عما كانت في تلك اللحظة. ويبلغ التباعد بين شخصيتي «جيلبيرت»، أحياناً، حداً يتساءل المرء معه، وعبثاً يفعل على كل حال، عما أمكن أن

يلحقه بها كيما يجدها مختلفة إلى هذا الحد. فالموعد الذي دعتك إليه لم تأتِ إليه ولا تعتذر بعده، وليس ذلك فحسب، بل كانت تبدو، أيّاً كان التأثير الذي ربما حملها على تغيير عزمها، مختلفة جدّاً بعد ذلك حتى لتظن أنك ضحية تشابه كالذي يؤلف أساس مسرحية «**التوائم**»، وأنك لست أمام الشخص الذي طلب منك أن يراك، إن لم يبدِ من الحنق ما يبرر أنه يشعر بالذنب ويود تجنب المكاشفة.

وقالت لها أمها:

«هيا اذهبي فسوف نتأخر بسببك».

وتجيب «جيلبيرت» وهي تخفي رأسها تحت ذراع والدها الذي أمرّ أصابعه بحنان في شعرها الأشقر:

«إني على أحسن حال بالقرب من والدي العزيز وأريد أن أظل فترة بعد».

كان «سوان» من أولئك الرجال الذين «أبصروا، بعدما عاشوا فترة طويلة في أوهام الحب، الرفاه الذي قدموه لنساء كثيرات يزيد من سعادتهم دون أن يخلق أي عرفان بالجميل لديهم وأي حنان نحوهم ولكنهم يظنون أنهم يحسون لدى ولدهم مودة تتجسّد في اسمهم نفسه وتسمح باستمرارهم بعد الممات. فحينما لن يبقى ثمة «شارل سوان» ستظل هناك الآنسة «سوان» أو السيّدة «س» («سوان» قبل الزواج) التي ستظل على حب الوالد المتوفى، على حب ربما جاوز الحدود فيما يظن «سوان» دون شك، إذ أجاب «جيلبيرت» بقوله: «أنت ابنة طيبة» بتلك اللهجة التي تزداد رقة من جراء الاضطراب الذي توحي لنا به بشأن المستقبل المودة البالغة العنف لكائن سوف يظل من بعدنا، وشاركنا حديثنا حول «لا بيرما» كيما يخفي انفعاله. وطلب مني، ولكن بلهجة لا مبالية ضجرة كما لو يبغي البقاء إن جاز القول خارج ما يقول، أن ألاحظ بأي ذكاء وأية دقة غير متوقعة كانت الممثلة تقول لِـ«أونون»: «كنتِ عالمة بذلك»! وكان على حق: فإن لتلك اللهجة قيمة سهلة الإدراك حقاً وكان ينبغي أن تشبع رغبتي في العثور على

أسباب لا تدحض تدعو إلى الإعجاب بِـ«لا بيرما». ولكنها ما كانت ترضيها بسبب وضوحها بالذات. فقد كانت اللهجة بارعة بارزة القصد محددة المعنى لدرجة أنها تبدو وكأنها كائنة في ذاتها وأن أية ممثلة ذكية يمكنها اكتسابها. لقد كانت فكرة جميلة، ولكن إن يتفق لأحد أياً كان أن يتصورها أتم التصور فإنما يمتلكها بالقدر نفسه. يبقى لصالح «لا بيرما» أنها وجدتها، ولكن هل يمكن استخدام لفظة «وجد» حينما يتعلق الأمر بشيء لا يختلف إن جاءنا عن طريق الغير، شيء لا يتعلق بكيانك على نحو جوهري بما أن آخر يستطيع إنتاجه مجدداً فيما بعد؟

وقال لي «سوان» كأنما ليعتذر من «بيرغوت»، قال لي وقد اتخذ في وسط آل «غيرمانت» عادة استقبال الفنانين الكبار بمثابة أصدقاء مقربين يحاول المرء فقط إطعامهم الأصناف التي يحبونها واللهو بما يروقهم من ألعاب أو الانصراف في الريف إلى ما يروقهم من رياضة: «يا إلهي، كم يرفع وجودك من سوية الحديث!» وأضاف يقول: «يبدو لي أننا نتحدث بالتأكيد عن الفن». وقالت لي السيّدة «سوان» وهي ترنو إليّ بنظرة الامتنان من جراء طيبة نفسها ولأنها احتفظت إلى ذلك بتطلعاتها القديمة إلى حديث أوفر ثقافة: «حسن جداً، إني أحب ذلك كثيراً»: ثم تحدث «بيرغوت» إلى أشخاص آخرين وبخاصة إلى «جيلبيرت». وكنت قد نقلت إليه كل ما أحس به بحرية أدهشتني ومردها أنني سلكت معه منذ سنوات (وفي أثناء العديد من ساعات العزلة والقراءة حيث لم يكن بالنسبة إليّ سوى أفضل جزء من ذات) عادة الصدق والصراحة والثقة فكان يبعث في صدري الرهبة أقل من شخص أتحدث إليه للمرة الأولى. وكنت مع ذلك شديد القلق للسبب ذاته حيال الانطباع الذي لا بدّ خلفته في نفسه، فالازدراء الذي افترضت أنه يبديه لأفكاري لم يؤرخ بتاريخ اليوم بل يعود إلى الأزمنة السالفة التي باشرت فيها قراءة كتبه في حديقتنا في «كومبريه». وربما جدر بي مع ذلك أن أقول، بما أنني تعاطفت إلى حد بعيد وبصدق، وأنا أستسلم لفكري، مع مؤلفات «بيرغوت» وأنني من جهة أخرى شعرت في

المسرح بخيبة أمل لم أعرف أسبابها، بأن تينك الحركتين الغريزيتين يجب ألا تختلف الواحدة عن الأخرى إلى حد بعيد وأن تخضع كلتاهما للقوانين نفسها، وأن ميزة «بيرغوت» تلك التي أحببتها في كتبه كان ينبغي ألا تكون غريبة تماماً عن خيبة أملي وعجزي عن التعبير عنها ومعاكسة لهما. ذلك لأن عقلي كان ينبغي أن يكون واحداً، وربما لم يكن هنالك سوى عقل واحد يستأجره جميع الناس، عقل يرفع إليه كل منهم من أعماق جسده الخاص أنظاره كما هي الحال في المسرح حيث ليس سوى خشبة واحدة وإن كان لكل واحد بالمقابل مكانه الخاص. ولا ريب أن الأفكار التي كنت أميل إلى محاولة استجلائها لم تكن تلك التي يعمّقها «بيرغوت» عادة في كتبه. ولكن إن كنت أملك وإياه العقل نفسه فينبغي له حينما يسمعني أعبّر عنها أن يتذكرها ويحبها ويبتسم لها وهو يحتفظ على الأرجح، على الرغم مما كنت أفترضه، أمام عينه الداخلية، بجزء من العقل مغاير تماماً لذلك الذي مرّ مقطع منه في كتبه تخيلت انطلاقاً منه كامل دنياه العقلية. ومثلما يستطيع الكهنة الذين خبروا القلب أوسع خبرة أن يصفحوا أفضل ما يكون الصفح عن الخطايا التي لا يرتكبونها، كذلك يستطيع العبقريّ الذي خبر العقل أوسع خبرة أن يدرك أفضل ما يكون الإدراك الأفكار الأكثر معارضة لتلك التي تؤلف أرضية أعماله الفنية نفسها. كان ينبغي أن أحدث نفسي بكل ذلك ولكني ما فعلت وأيقنت أنني بدوت غبياً في نظر «بيرغوت»، حينما همست «جيلبيرت» في أذني:

- «إن موجة الفرح تغمرني لأني كسبت ود صديقي الكبير «بيرغوت». لقد قال لماما إنه وجدك في غاية الذكاء».

وسألت «جيلبيرت»: «إلى أين نذهب؟».

- «حيثما تشاؤون، فأنت تدري، بالنسبة إليّ، أن نذهب إلى هنا أو هناك».

بيد أنني منذ الحادث الذي وقع في يوم ذكرى وفاة جدّ «جيلبيرت» أخذت أسائل نفسي إن لم تكن طباعها على غير ما ظننت وإن لم تكن تلك

اللامبالاة بما سنفعل وذلك التعقل وذلك الهدوء وذلك الخضوع الوادع المستمر، إن لم تكن جميعها تخفي على العكس رغبات متقدة لا تود إبرازها للعيان من جراء اعتزازها بنفسها وما كانت تكشف عنها إلا بما تبدي من مقاومة مفاجئة حينما تتم معارضتها بالمصادفة.

ولما كان «بيرغوت» يقطن في حيّ ذويَّ نفسِهِ فقد ذهبنا سوية. وحدّثني في الطريق عن صحتي: «قال لي أصدقائي إنك تعاني من الآلام. وإني أرثي كثيراً لحالك. بيد أنني على الرغم من ذلك لن أبالغ الرثاء لأنني أدرك تماماً أنك لا بدّ متذوق متع العقل وهي على الأرجح ما تأخذه في حسابك قبل كل شيء كما هي الحال لدى جميع الذين عهدوها».

ولكن كنت أحس، وأسفي، أن ما كان يقوله غير صحيح تماماً بالنسبة إليّ أنا الذي لا تثير حماسته أية محاكمة عقلية مهما سمت، والذي لا يشعر بالسعادة إلا في فترات التجوال البحت حينما يوافيني شعور بالراحة. كنت أحسّ إلى أي حدّ كان ما أرغب في الحياة مادياً صرفاً وبأية سهولة ربما كنت في غنى عن العقل. ولما لم أكن أميز من بين المتع تلك التي تأتيني من مصادر مختلفة تزيد أو تقل عمقاً واستمراراً فقد فكرت وأنا أزمع الإجابة أنني ربما أحببت حياة يتسنى لي فيها الارتباط بصداقة بدوقة «غيرمانت» وأحس كثيراً فيها بجو ندي يذكرني بِ«كومبريه» كما كان شأني في مكتب الميرة القديم في «الشانزيليزيه» وما كانت متع العقل تحتل أي مكان في مثل الحياة الأعلى هذا الذي تخونني الجرأة في طرحه أمامه.

- «لا، يا سيدي، إن متع العقل شيء زهيد جداً في نظري وليست ما أبحث عنه ولست حتى أدري إن كنت تذوقتها في يوم».

وأجابني يقول: «أحقاً تظن ذلك؟ هيا اسمع، بلى، لا بدَّ مع هذا أن يكون ذلك ما تفضّل، هو ذا ما أعتقده أنا، حسبما أتصور».

لم يقنعني بالتأكيد ولكنني أخذت أحس أني أكثر سعادة وأقل ضيقاً. فقد سبق أن احتسبت اللحظات الحالمة، لحظات الحماسة والثقة بالنفس وكأنها، من جراء ما قاله السيّد «دو نوربوا»، ذاتية محضة ولا حقيقة لها.

غير أنه كان يبدو، حسبما يرى «بيرغوت» الذي يظهر أنه يعرف وضعي، أن الظاهرة التي ينبغي إهمالها إنما هي على العكس شكوكي وقرفي من نفسي، ولا سيما أن ما قاله عن السيّد «دو نوربوا» كان يُفْقِدُ الإدانة التي حسبتها لا تقبل الاستئناف الكثير من قوتها.

وسألني «بيرغوت»: «هل تلقى العناية اللازمة؟ ومن ذا يهتم بصحتك؟» وقلت له: «إنني رأيت «كوتار» وسوف أراه ثانية دون شك». فأجاب قائلاً: «ليس ذلك ما يلزمك. إنني لا أعرفه طبيباً، ولكني رأيته في منزل السيدة «سوان». إنه معتوه؛ وبافتراض أن الأمر لا يحول دون أن يكون المرء طبيباً ناجحاً للفنانين والناس الأذكياء. فمن هم مثلك بحاجة إلى أطباء مناسبين لهم، كدت أقول إلى أنواع من الحمية وأدوية خاصة. أما «كوتار» فسوف يبعث فيك الملل، والملل كافٍ كي يحول دون أن يكون علاجه فعّالاً. ثم إن هذا العلاج لا يمكن أن يجيء واحداً بالنسبة إليك وإلى أي فرد عادي آخر. فثلاثة أرباع الداء الذي ينتاب الأذكياء ينجم عن ذكائهم. ولا بدَّ لهم على الأقل من طبيب خبر هذا الداء. فكيف يمكن لِـ«كوتار» أن يعالجك؟ لقد توقع صعوبة هضم بعض المرق والإرباكات المعدية ولكنه لم يتوقع قراءة شكسبير. ولذلك كانت حساباته غير صحيحة معك؛ لقد فقد التوازن؛ إنه الرقاص الصغير يعود دوماً إلى الصعود. لسوف يعثر لديك على انتفاخ في المعدة وليست به حاجة لفحصك بما أنه اختزن ذلك سلفاً في عينه، وبإمكانك مشاهدته فهو ينعكس على زجاج نظارته. «كانت تلك الطريقة في الحديث تتعبني كثيراً وكنت أقول في نفسي ببلاهة الحس السليم: «ليس ثم انتفاخ معدة ينعكس على زجاج نظارة «كوتار» أكثر مما هنالك حماقات تختفي خلف صدرية السيّد «دو نوربوا» البيضاء». وأردف «بيرغوت» يقول: «أنصحك بالأحرى بالدكتور «دو بولبون» الذي يتمتع بأشد الذكاء». فأجبت قائلاً: «إنه من كبار المعجبين بآثارك». ورأيت أن «بيرغوت» على علم بذلك واستخلصت أن الأرواح الشقيقة تلتقي سريعاً وأن للمرء القليل من «الأصدقاء

المجهولين» الحقيقيين. لقد أدهشني ما قاله لي «بيرغوت» بشأن «كوتار»، مع أنه كان مناقضاً لكل ما أعتقده. فما كنت أهتم إطلاقاً أن أجد طبيبي مملاً، بل كنت أنتظر منه أن يجيئني بشأن صحتي بنبوءة لا لبس فيها بعد معاينة أحشائي، وذلك بفضل فن قوانين خافية عليّ. وما كان يهمني أن يحاول، بوساطة ذكاء لعلي أستطيع أن أحل فيه محله، إدراك ذكائي الذي ما كنتُ أمتثله إلا بمثابة وسيلة لا أهمية لها في حد ذاتها لمحاولة بلوغ حقائق خارجية. وكنت أشك كثيراً أن يكون الأذكياء بحاجة إلى عناية صحية تختلف عما يحتاج إليه البلهاء، وأنا على أتم الاستعداد للخضوع لقواعد البلهاء الصحية. وقال «بيرغوت»: «هنالك من هو بحاجة إلى طبيب ناجح، إنه صديقنا «سوان». ولما سألت إن كان مريضاً: «آه! إنه الرجل الذي تزوج واحدة من بنات الهوى، والذي يبتلع في كل يوم خمسين أفعى من النساء اللواتي يرفضن استقبال امرأته، أو من الرجال الذين ضاجعوها. إنك تراها، فهي تلوي شفتيه. انظر مرة إلى إقفال حاجبيه حينما يعود إلى منزله، ليرى من في بيته». كان سوء النيّة الذي يتحدث به «بيرغوت» إلى غريب عن أصدقاء يستقبلونه في منزلهم منذ فترة طويلة جديداً عليّ جدة اللهجة الحنون التي يلجأ إليها مع أسرة «سوان» في كل لحظة في منزلهم، ولعل شخصاً مثل شقيقة جدي مثلاً، لعلها كانت تعجز بالتأكيد مع أي منا عن تلك الكلمات الحلوة التي سمعتُ «بيرغوت» يجود بها على «سوان». فلقد كان يروقها أن تقول أموراً مكدرة حتى لمن تحبهم من الناس. ولكنها ما كانت لتفوه في غير حضرتهم بكلمة لا يستطيعون سماعها. فما كان شيء يشبه العالم أقل من مجتمعنا في «كومبريه». كان مجتمع آل «سوان» بداية طريق إليه، إلى لجّته المتقلبة. لم يكن بعد أعالي البحار، ولكنه كان منذ ذاك بحيرة شاطئية. وقال لي «بيرغوت» وهو يفارقني أمام بابي: «ذلك سر بيننا». ولعلني كنت أجيبه بعد ذلك بسنوات: «لست أفشي سراً البتة». إنها الجملة الطقسية التي يقولها الناس في المجتمعات والتي يوفرون بها للنمّام في كلّ مرة طمأنينة

كاذبة؛ وهي الجملة التي كنت سأقولها في ذلك اليوم لِـ«بيرغوت». لأن المرء لا يبتدع كل ما يقوله ولا سيما في الفترات التي يتصرف فيها بمثابة شخصية اجتماعية. ولكني ما كنت أعرفها بعد. وربما كانت جملة شقيقة جدّي في مناسبة كهذه كالتالي: «إن كنت لا تود أن يُفشى السر فلماذا تقول؟» إنه جواب الذين لا يتّصفون بالاجتماعية، جواب «الرؤوس اليابسة». وما كنت كذلك، فانحنيت بصمت.

كان من بين أهل القلم ممن هم في نظري شخصيات مرموقة من كانوا يقومون بمحاولات ملتوية على مدى سنوات قبل التوصل إلى إقامة علاقات مع «بيرغوت» تظل على الدوام أدبية غامضة ولا تتجاوز عتبة حجرة عمله، في حين أخذت مكاني في عداد أصدقاء الكاتب الكبير دونما جهد وعلى نحو هادئ كمثل من يصل إلى أفضل المقاعد بعدما يجتاز ممراً أُغلق في وجه الآخرين عوضاً عن أن يقف في دوره مع جميع الناس ليفوز بمقعد غير مناسب. ولئن كان «سوان» قد فتح لي ذلك الممر فلأن والدي «جيلبيرت»، شأن الملك يقوم بصورة طبيعية بدعوة أصدقاء أولاده إلى المقصورة الملكية وعلى متن اليخت الملكي، كانا يستقبلان أصدقاء ابنتهما وسط الأشياء الثمينة التي يملكانها ومظاهر الإلفة التي تفوقها ثمناً وتتوسطها. ولكنني ظننت في تلك الحقبة، وربما كنت على حق، أن لطف «سوان» ذاك كان موجهاً على نحو غير مباشر إلى ذويّ، فلقد خيل إليّ فيما مضى في «كومبريه» أنه عرض عليهم، إذ لاحظ إعجابي بِـ«بيرغوت»، أن يصطحبني للعشاء في منزله وأن والديّ رفضا العرض بقولهما إنني حديث السن ومتوتر الأعصاب إلى حد بعيد كيما يسمح لي بالخروج. ولا ريب أن والديّ كانا يمثلان في نظر بعض الأشخاص، وبالضبط أولئك الذين يبدون في نظري من أكثرهم روعة، شيئاً يغاير تماماً ما يمثلان في نظري، حتى إنني كنت أتمنى، شأني في الزمن الذي امتدحتْ فيه السيّدة ذات الرداء الوردي والدي لم يُبدِ أنه أهل للمديح، أن يدرك والدي أية هدية لا تقدر بثمن حصلت عليها منذ قليل وأن يعربا عن امتنانهما لِـ«سوان» الكريم

المهذب الذي قدمها لي أو قدمها لهما دون أن يبدو عليه أنه يولي قيمتها اهتماماً أكثر مما يفعله في لوحة «لويني» الجدارية ملكُ المجوس البديع صاحب الأنف المعقوف والشعر الأشقر والذي سبق أن وجدوا بالأمس له، فيما يبدو، شبهاً كبيراً به. بيد أن تلك المنة التي أسداها إليّ «سوان» والتي أعلنت عنها لوالديّ لدى عودتي وحتى قبل أن أخلع معطفي يحدوني الأمل بأنها ستوقظ في فؤادهما شعوراً في مثل انفعال شعوري وأنهما ستحملهما على القيام «بلفتة مهذبة» ضخمة وحاسمة تجاه أسرة «سوان»، إن تلك المنة للأسف لم يبدُ أنها تلاقي تقديراً لديهما. فقد صاح والدي ساخراً: «لقد قدمك «سوان» لِـ«بيرغوت»؟ ما أروعها معرفة وأبدعها علاقة! ما كان ينقصنا سوى ذلك!» وما إن أضفتُ، واأسفي، إنّه لا يستسيغ السيّد «دو نوربوا» على الإطلاق حتى عاد يقول: «بالطبع! ذلك يسوق البرهان على أنه عقل زائف وخبيث المقاصد. لم تكن من قبل يا ولدي المسكين على كثير من التفكير السليم، وإني مغتم أن أراك وقعت في بيئة سوف تؤدي بك في النهاية إلى الجنون».

كان محض تردّدي على منزل عائلة «سوان» أبعد ما يكون عن أيسر ذويّ. وبرز تعريفي بِـ«بيرغوت» بمثابة نتيجة مشؤومة ولكنها طبيعيّة لخطيئة أولى، للضعف الذي ألمّ بهم والذي ربما دعاه جدّي «فقدان الحذر». وأحسست أنه لم يظلّ لي كيما أبلغ بحنقهم حدّه سوى أن أقول إن هذا الرجل الفاسق الذي لا يكن التقدير للسيد «دو نوربوا» لقيني غاية في الذكاء. ذلك أن والدي، حينما كان يجد أن فرداً ما، كأحد رفاقي على سبيل المثال، يسلك طريق السوء - كما هي حالي في هذه الفترة -، وإن اتفق أن يحظى حينئذ بتأييد أحدهم ممن لا يكنّ لهم والدي التقدير، كان يرى إذ ذاك في هذا التأييد تصديقاً لتشخيصه المشؤوم، ولا يبدو له الداء إلا أكثر اشتداداً، فأسمعه مذ ذاك وقد أوشك يصرخ قائلاً: «إنها بالضرورة مجموعة متكاملة!»، واللفظة ترهبني لغموض الإصلاحات التي تبدو وكأنّها تعلن عن قرب إدخالها في حياتي الهانئة إلى حد بعيد واتساع تلك

الإصلاحات بيد أنه لما لم يكن ثمة من أمر قادر على طمس الأثر الذي انغرس في نفس والدي، حتى ولو لم أروِ عما قال «بيرغوت» عني، فليس من كبير أهمية إنْ يزْدَدْ ذاك الأثر سوءاً. ولكنهما كانا يبدوان غير منصفين ومغرقين في الضلال إلى حد أني لم يكن بي أمل، بل لم تكن لدي الرغبة تقريباً في ردهما إلى نظرة أكثر إنصافاً. ولكنّما شعرت، ساعة تخرج الكلمات من فمي، إلى أي حد سوف يرعبهما التفكير بأنني حسُنْتُ في عيني رجل كان يجد الناس الأذكياء بلهاء وكان موضع ازدراء الناس الشرفاء وسوف يدفعني إلى الشر تقريظه لي حين يبدو لي مشتهى، فقد أنهيت روايتي بصوت خفيض وبمظهر يشوبه بعض الخجل وألقيت بالدرة الأخيرة: «لقد قال لعائلة «سوان» إنهوجدني في غاية الذكاء»، وكمثل كلب مسموم يرتمي في أحد الحقول، دون أن يدري، على العشبة التي هي بالضبط المضاد للسم الذي ابتلعه، فقد أقدمتُ، دون أن يخامرني شك بذلك، على الجهر بالقول الوحيد القادر في العالم أن يقهر ذلك الحكم المغرض لدى والديّ بشأن «بيرغوت»، الحكم الذي ربما ظلّت باطلة معه جميع ما أستطيع القيام به من أفضل المحاكمات العقلية وجميع صنوف المديح التي ربما كلتها له. وفي اللحظة ذاتها تغير وجه الموقف. فقالت والدتي:

- «آه!. أقال إنّه يجدك ذكياً؟ ذلك يسرني لأنه رجل صاحب موهبة».

وأردف والدي يقول: «عجباً! أقال ذلك؟. لست أنكر في شيء قيمته الأدبية التي ينحني أمامها الجميع». «ولكنما يزعجك أنه يعيش تلك الحياة التي لا تتسم كثيراً بالكرامة والتي تحدث عنها العم «نوربوا» بكلام مبطّن»، يضيف والدي دون أن ينتبه إلى أن أخلاق «بيرغوت» الفاسدة ما كانت تستطيع، حيال المزية العظيمة التي اكتسبتها الكلمات السحرية التي قلتها قبل قليل، أن تقوم فترة أطول مما يستطيع بطلان اتهامه.

وقاطعته والدتي بقولها: «أوه! ليس ما يثبت يا صديقي أن الأمر صحيح. فما أكثر ما يقال. إن السيّد «دو نوربوا»، على أية حال، غاية في

اللطف، ولكنه ليس في منتهى الطيبة على الدوام، ولا سيما بالنسبة إلى من ليسوا من جماعته».

وأجاب والدي: «صحيح، لقد لاحظت ذلك بدوري». وعادت والدتي تقول وهي تداعب شعري بأصابعها وترنو إليّ بنظرة طويلة حالمة: «سوف يُغْفَرُ كثيراً لِـ«بيرغوت» في النهاية إذ وجد ولدي الصغير ذكياً».

ولم تنتظر والدتي على أية حال قرار «بيرغوت» هذا كيما تقول لي إنه يمكنني أن أدعو «جيلبيرت» إلى العصرونية حينما يصبح لي أصدقاء. ولكني لم أكن أجرؤ على القيام بذلك لسببين. أولهما أنهم ما كانوا يقدمون إطلاقاً سوى الشاي لدى عائلة «جيلبيرت»، أما أمي فيهمها على العكس أن يكون إلى جانب الشاي في البيت الشوكولاتة. وكنت أخشى أن تلقى «جيلبيرت» ذلك عامياً وأن يداخلها من جراء ذلك ازدراء عظيم لنا. وكان الثاني صعوبة في أمور المراسم لم أفلح يوماً في حلها. فحين كنت أصل إلى منزل السيد «سوان» كانت تسأل قائلة:

- «كيف حال السيّدة أمك؟».

وكنت قد فاتحت والدتي بالأمر مراراً لأعلم إن هي ستحذو حذوها حينما تجيء «جيلبيرت»، والنقطة تبدو لي أكثر خطراً من لفظة «سيدي» في بلاط لويس الرابع عشر. ولكن والدتي أبت أن تسمع.

- «لا، بما أني لا أعرف السيّدة «سوان»».

- «ولكنها بدورها لا تعرفك».

- «لست أقول العكس، ولكننا لسنا مضطرتين أن نتصرف التصرف نفسه بالضبط. أما أنا فسوف أحيط «جيلبيرت» بلفتات لطيفة لن تحيطك بها السيّدة «سوان»».

ولكني لم أقتنع وفضّلت ألا أدعو «جيلبيرت».

وبعدما فارقتُ والديّ ذهبت لخلع ملابسي، وفيما كنت أفرغ جيوبي وجدت فجأة المغلف الذي سلّمني إياه رئيس خدم أسرة «سوان» قبل أن يدخلني إلى الصالة. وكنت وحدي آنذاك ففتحته وكان في داخله بطاقة

يعيّنون لي فيها السيّدة التي ينبغي لي أن أمد إليها ذراعي لتصحبني إلى المائدة. وكان في تلك الفترة بالذات أن قلب «بلوك» نظرتي إلى العالم رأساً على عقب، فتح في وجهي إمكانات سعادة جديدة (كانت ستنقلب على أية حال إلى إمكانات عذاب) إذ أكد لي أن النساء، خلافاً لما كنت أحسب في أيام نزهاتي في جانب «ميزيكليز»، غاية مطلبهن ممارسة الحب. وأتم هذا المعروف بأن أسدى لي معروفاً ثانياً ما كنت سأقدره حق قدره إلا بعد ذلك بكثير: فهو الذي اقتادني للمرة الأولى إلى أحد بيوت الدعارة. صحيح أنه سبق أن قال لي إن ثمة العديد من النساء الجميلات اللواتي يمكن امتلاكهن. ولكني كنت أخصهن بوجه مبهم سمحت لي بيوت الدعارة بأن أستبدل به وجوهاً خاصة. حتى إنني إن كنت أدين لِـ«بلوك» - من أجل «بشارته الحسنة» بأن السعادة وامتلاك الجمال ليسا من الأمور العزيزة المنال وأننا صنعنا صنيعاً لا جدوى فيه بتخلينا عنهما إلى الأبد - مثلما أدين لهذا الطبيب وهذا الفيلسوف الذي يبعث فينا الأمر بطول الحياة في ذي الدنيا وأننا نفصل عنها تماماً بعدما نمر إلى عالم آخر، فقد استحقت بيوت الدعارة التي تردّدت إليها بعض سنوات - إذ زودتني بنماذج من السعادة وأفسحت لي المجال لأضيف إلى جمال النساء هذا العنصر الذي لا نستطيع ابتداعه والذي ليس محض اختصار للجمالات القديمة، هذه الهدية الإلهية حقاً، الهدية الوحيدة التي لا يمكن أن تجيئنا من ذواتنا، التي تزول قبالتها جميع الابتكارات المنطقية لعقلنا والتي لا يمكن أن نطالب بها سوى الواقع: عنيت الفتنة الفردية - استحقت أن يتم تصنيفها على يدي إلى جانب هؤلاء المحسنين الآخرين، وهم من منشأ أكثر حداثة ولكن فائدتهم تضاهيها (المحسنين الذين كنا نتخيل، دونما اندفاع من قبلهم، سحر «مانتينيا» و«فاغنر» و«سيينا» بالمقارنة برسامين آخرين وموسيقيين آخرين ومدن أخرى): عنيت بهم طبعات تاريخ الرسم المصورة وحفلات الموسيقى السمفونية والدراسات حول «مدن الفن». إلا أن بيت الدعارة الذي قادني إليه «بلوك» والذي لم يعد يرتاده منذ فترة

طويلة، على أية حال، كان من مرتبة دنيّة جدّاً، «والمستخدمون» فيه من نوعية ضحلة نادرة التجدّد حتى يمكنني أن أشبع بها نزعات فضول قديمة وأن أكتسب من جرائها أخرى جديدة. فقد كانت ربّة ذلك البيت لا تعرف أيّاً من النسوة اللواتي يُطلبن منها وتعرض على الدوام من لا يُقبل بهنّ. كانت تثني بخاصة على إحداهن، على واحدة تقول عنها بابتسامة مثقلة بالوعود (كما لو كانت أمراً نادراً وكانت اللذة عينها): «إنّها يهوديّة! أليس يهمّك ذلك؟» (ولا شكّ أنّها كانت تدعوها «راحيل» لهذا السبب). ثم تقول بحماسة بلهاء مصطنعة تأمل أنّها سهلة العدوى وتنتهي بما يشبه زفرة الاستمتاع تقريباً: «تصوّر يا صغيري، إنّها يهوديّة، والأمر لا بدّ يذهب بالعقل، فيما يبدو لي، آخ!» و«راحيل» تلك التي أبصرتها دون أن تراني كانت سمراء على غير جمال ولكنّها تبدو ذكيّة وكانت تبتسم، ولا يفوتها أن تمدّ طرف لسانها بين شفتيها، ابتسامة شديدة الوقاحة للعاشقين الذين يُقدّمون لها والذين كنت أسمعهم يشرعون بالحديث معها. كان وجهها النحيل الضيّق يكتنفه شعر أسود جعد غير منتظم وكأنما مثّل بتظليلات بالحبر الصيني في رسم نُفّذَ بهذا الحبر. وكنت في كلّ مرّة أعد ربّة البيت، التي كانت تعرضها عليّ بإلحاح خاصّ وهي تثني على ذكائها الشديد وعلمها، أنّه لن يفوتني أن أحضر ذات يوم خصيصاً لأتعرّف بِـ«راحيل» التي كنت ألقبها بِـ«راحيل حينما الربّ». بيد أنّي سمعت هذا الأخيرة في أوّل مساء تقوله لربّة البيت لحظة كانت ذاهبة:

- «اتّفقنا إذن، في الغد أكون خالية الارتباطات، فإن اتّفق لكِ أحدهم فلا تنسي أن ترسلي في طلبي».

وقد حالت تلك الأقوال دون أن أرى فيها شخصاً لأنّها حملتني على تصنيفها في الحال ضمن فئة عامّة من النساء عادتها المشتركة فيما بينها أنّها تجيء إلى هناك في المساء لترى إن لم يكن ثمّة ليرة وليرتان ذهبيّتان تكسبهما. كانت تُنوِّع فحسب في شكل جملتها فتقول: «إن كنت بحاجة إليّ» أو «إن كنت بحاجة لأحدهم».

وربّة البيت التي لم تكن تعرف أوبرا «هاليفي» كانت تجهل السبب الذي تعوّدت من أجله أن أقول «راحيل حينما الربّ». ولكنّ قلّة إدراك المزاح لم تجعل المزاح في يوم أقلّ إضحاكاً، فكانت تقول لي في كلّ مرة وهي تضحك من صميم قلبها: «ألم يئن بعد في هذا المساء أن أقرنك بِـ«راحيل حينما الرب»؟ كيف تقولها أنت: «راحيل حينما الربّ!» آه! يا لها من لقية حلوة. سوف أعلن خطوبتكما، وسترى أنّك لن تأسف لذلك».

وأوشكت ذات مرّة أن أحزم أمري، ولكنّها كانت «قيد الطباعة»، وفي مرّة أخرى كانت بين يدي «الحلّاق»، وهو رجل عجوز يقتصر نشاطه مع النساء على سكب الزيت على شعورهنّ المحلولة وبعد ذلك على تمشيطهنّ. وأرهقني الانتظار، مع أنّ بعض النسوة الوضيعات جدّاً ممن يرتدن المكان من العاملات المزعومات، وهنّ أبداً بلا عمل، أقبلن يحضرن لي المغلي ويبدآن حديثاً طويلاً يضفي عليه عري محدّثاتي الجزئي والتامّ - على الرغم من جدّية الموضوعات المطروقة - بساطة لذيذة. وقد توقّفتُ على أي حال عن ارتياد ذلك البيت إذ سبق لي أن رغبت في الإعراب عن مشاعري الطيّبة للمرأة التي كانت تشرف عليه وكانت بحاجة إلى أثاث فأعطيتها بعضاً منه - ولا سيّما أريكة كبيرة - ممّا ورثته عن عمّتي «ليوني». وما كنت أشاهده البتّة لأنّ ضيق المكان حال دون أن يسمح والداي بإدخاله إلى بيتنا فكان مكدّساً في مستودع. ولكن ما إن عدت فعثرت عليه في البيت الذي كانت تستعمله فيه تلك النسوة حتى بدت لي جميع الفضائل التي كانت تفوح من غرفة عمّتي في «كومبريه» وكأنّها تتعذّب من جرّاء التماسّ القاسي الذي دفعتُها عزلاء إليه! ولعلّني ما ذقت عذاباً أكبر وسهّلت الاعتداء على امرأة ميتة. ولم أعد من بعد إلى منزل القوّادة إذ كان يبدو لي الأثاث وكأنّما تدبّ فيه الحياة ويتوسّل إليّ شأن تلك الحاجات الجامدة في ظاهرها في حكاية فارسيّة والتي سُجنت فيها نفوس تسام مرّ العذاب وتلتمس خلاصها. وبما أن ذاكرتنا من جهة أخرى لا تقدّم لنا ذكرياتنا بالعادة حسب تتابعها في الزمان بل على هيئة انعكاس

قُلِبَ فيه ترتيب الأجزاء، فلم أتذكر إلا بعد ذلك بكثير أنني ذقت للمرّة الأولى على تلك الأريكة نفسها ومنذ سنوات خلت لذّة الحبّ مع إحدى بنات أعمامي التي لم أكن أعلم أين أجالسها فأشارت عليّ بأمر خطير قوامه أن أستغلّ ساعةً تكون عمّتي قد نهضت في أثنائها.

وقمت ببيع جزء آخر من الأثاث ولا سيّما أواني فضيّة قديمة كانت لعمّتي «ليوني»، وذلك على الرغم من معارضة والديّ، كيما يتوافر لي مال أكثر وأبعث بكميّة أكبر من الزهور إلى السيّدة «سوان» التي كانت تقول لي وهي تتسلم سلالاً ضخمة من زهور الأوركيد: «لو كنت السيّد والدك لأمرت لك بمجلس قضائي». وكيف كان لي أن أفترض أنّني سوف آسف ذات يوم على تلك الأواني الفضية بوجه الخصوص وسوف أضع بعض المتع في مرتبة أعلى من متعة مجاملة ذوي «جيلبيرت»، هذه المتعة التي ربّما أضحت معدومة تماماً. وكنت قرّرت كذلك بسبب «جيلبيرت» وكي لا أفارقها أن أتحاشى دخول سلك السفارات. وليس يتّخذ المرء قرارات نهائية في يوم إلا بسبب حالة فكريّة لا يُقدَّرُ لها أن تدوم. وكنت لا أكاد أتصوّر أن تلك المادّة الغريبة التي استقرّت في «جيلبيرت» وكانت تشعّ في ذويها وفي بيتها فتجعلني لا مبالياً بكلّ ما عداها ربّما تحرّرتُ وانتقلتُ إلى كان آخر. وإنّها لتلك المادّة نفسها حقّاً، مع أنّها ستخلّف فيّ آثاراً مغايرة تماماً. ذلك لأن المرض نفسه يتطوّر، والسمّ اللذيذ لا يُحتمل من بعد حينما تتناقص مقاومة القلب بفعل السنين.

على أنّ والديّ ربّما تمنّيا أن يتجلى الذكاء الذي أقرّه لي «بيرغوت» عن طريق عمل مرموق. وحينما كنت لا أعرف آل «سوان» كنت أحب أنّ ما يحول دون أن أعمل إنّما هي حالة الاضطراب التي تزجّني فيها استحالة أن أرى «جيلبيرت» بملء الحرية. ولكني حينما فُتحت أبوابهم في وجهي كنت لا أكاد أجلس إلى مكتبي حتى أنهض وأجري إلى منزلهم. فإن فارقتهم وعدت إلى البيت لم تكن عزلتي إلّا ظاهرة، ولا يستطيع فكري من بعد مقاومة تيّار الأقوال الذي تركته يجرفني آليّاً على مدى ساعات. فقد

كنت أوالي في عزلتي ابتداع الأقوال التي ربّما استطاعت أن تروق أسرة «سوان»، وكنت أشغل مكان هؤلاء الرفاق الغائبين كيما أضفي على اللعبة أهميّة أكبر فأطرح على نفسي أسئلة وهميّة اختيرت على نحو تبدو فيه ميزاتي اللامعة وكأنّها محض إجابة موفّقة عنها. كان ذلك التمرين، وإن بدا صامتاً، محادثة لا تأملاً، وعزلتي حياة منتديات ذهنيّة بحكم أقوالي فيها لا شخصي أنا بل محاورون من نسيج الخيال، وأحسّ فيها، عبر صياغة الأفكار التي توافيني دون مشقّة ودون تراجع من الخارج باتّجاه الداخل بدلاً من تلك التي كنت أظنها حقيقيّة، ذلك النوع من اللذّة السلبيّة تماماً التي يلاقيها من يثقله سوءُ الهضم المكوثَ دون حركة.

ولو كنت أقلّ تصميماً على مباشرة العمل على نحو لا رجعة فيه لبذلت ربّما جهداً لأبدأ في الحال. ولكنّه كان من الخير لي، بما أن قراري نهائيّ وأن استعداداتي الطيّبة سوف تتحقّق بسهولة قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة في إطار نهار الغد الخالي حيث يجد كلّ شيء مكانه على أحسن وجه بما أني لم أبلغه بعد، كان من الخير ألا أختار مساء كنت فيه غير مهيأ لبداية ما كانت الأيّام التالية لتبدو، للأسف، مواتية لها أكثر منه. بيد أنّني كنت منطقيّاً. فمن انتظر سنوات يبدو صبيانياً ألا يحتمل تأخير ثلاثة أيّام. ولما أيقنت أنّني سأفرغ ما بعد الغد لا محالة من تسطير بضع صفحات فإني لم أعد أقول لذويّ كلمة واحدة عمّا عزمتُ عليه. كنت أفضل الانتظار بضع ساعات أحمل بعدها إلى جدّتي عملاً في طور الإنجاز تصيب منه عزاءً وقناعة. ولكن للأسف لم يكن ذلك النهار الخارجيّ الفسيح الذي انتظرته على أحرّ من الجمر. ذلك لأن كسلي ونضالي الشاق ضدّ بعض العقبات الداخلية إنّما استمرّ فحسب أربعاً وعشرين ساعة أخرى بانقضاء ذلك النهار. وبما أن خططي لم تتحقق بعد مضيّ بضعة أيّام فلم يعد لديّ الأمل نفسه أنّها ستتحقق في الحال ولا مقدار الشجاعة نفسه بالتالي كيما أخضع كل شيء لذلك التحقّق. وعدت إلى السهر ثانية إذ لم يظلّ لي لإرغامي على النوم المبكّر ذات مساء الرؤية

الأكيدة أنّي سأبصر عملي الفنّي وقد بوشر به في صباح الغد. كان لا بدّ لي قبل استعادة اندفاعي من بضعة أيّام راحة، والمرّة الوحيدة التي تجرّأتْ جدّتي فيها وأعربتْ عن عتابها لي بلهجة وادعة تملؤها الخيبة قائلة: «وذلك العمل، ألا تعود حتى إلى الحديث عنه؟» أوغرت صدري عليها لاقتناعي بأنّها إذ لم تتبيّن أنّني مصمّم تصميماً لا رجعة فيه فقد أقدمَتْ على تأجيله مرّة أخرى وربّما لفترة طويلة من جرّاء التوتّر الذي يسبّبه لي امتناعها عن إنصافي والذي لا أودّ معه مباشرة عملي وأنا تحت وطأته. وأحسّت أن تشكّكها إنّما يصدم عزماً صادقاً لدي، فاعتذرت وقالت وهي تعانقني: «عفوك، فلن أقول شيئاً بعد الآن». وأكّدت لي كي يحلّ بي القنوط أن العمل سيتمّ من تلقاء ذاته منذ اليوم الذي تتحسّن فيه صحّتي.

وكنت أقول في نفسي: ألست أفعل على أيّ حال ما يفعل «بيرغوت» إذ أعيش لدى أسرة «سوان»؟ فيما يبدو لذويّ أنني أقضي على وجه التقريب، مع ما أبدي من كسل، الحياة التي تناسب الموهبة إلى أبعد حدّ، بما أنّي أنفقتها في المنتدى نفسه الذي ينفقها فيه كاتب كبير. ومع ذلك فأن يستطيع أحد أن يكون في غنى عن إنشاء هذه الموهبة بنفسه من الداخل وأن يتقبّلها من الغير في مثل استحالة توفير العافية لنفسه (على الرغم من خروجه على جميع قواعد الصحّة وارتكابه أسوأ صنوف الإسراف) بمحض الإكثار من تناول طعام العشاء في مطاعم المدينة بصحبة طبيب. فأمّا الشخص الذي كان على أتمّ وجه ضحيّة الوهم الذي كان يخدعني ويخدع والديّ سواء بسواء: السيّدة «سوان». فقد كان يبدو، حينما أقول لها إنّني لا أستطيع المجيء أن أمكث لأعمل، أنّها ترى أنّني أعقد الأمور كثيراً وأنّ في أقوالي شيئاً من الغباء والادّعاء.

- «أمّا «بيرغوت» فإنّه يأتي، هو. فهل ترى أنّ ما يكتبه غير صالح ؟» وتضيف قولها: «بل سوف يتحسّن ذلك عمّا قليل، فهو أشدّ مضاءً وأكثر تركيزاً في الجريدة منه في الكتاب حيث ينتهج بعض التطويل. لقد حصلت على وعد بأن يكتب من الآن فصاعداً المقالة الرئيسيّة (*Le leader aticle*)

في جريدة «**الفيغارو**». وسيكون ذلك بالضبط «الرجل المناسب في المكان المناسب» (*the right man in the right place*).

ثم تضيف قائلة:

- «تعال، فسوف يقول لك، خير من يقول، ما ينبغي أن تفعل».

ومثلما تتمّ دعوة جنديّ متطوّع مع قائده العميد، كانت تقول ألا يفوتني المجيء في الغد لتناول طعام العشاء في منزلها بصحبة «بيرغوت»، كانت تقول ذلك لصالح مستقبلي وكما لو يتمّ وضع الروائع الأدبيّة «عن طريق العلاقات».

وهكذا لم تظلّ هنالك معارضة لتلك الحياة الحلوة، لا من جانب أسرة «سوان» ولا من جانب والديّ، أي من جانب أولئك الذين بدا، في فترات مختلفة، أنهم لا بدّ سيضعون العراقيل في دربها، تلك الحياة التي أستطيع فيها زيارة «جيلبيرت» كيفما شئت، تهزّني النشوة إن لم يلفّني الهدوء. فليس من هدوء في الحبّ بما أن ما نحصل عليه لا يعدو كونه نقطة انطلاق جديدة للرغبة في الاستزادة. وما كنت حتى أستطيع، طالما لم أفلح في الذهاب إلى بيتها، والعين ترنو إلى تلك السعادة العزيزة المنال، تَخَيّلَ أسباب القلق الجديدة التي تنتظرني هناك. فما إن زالت مقاومة ذويها وحُلّت المشكلة حتى عادت تطرح نفسها من جديد، بعبارات جديدة في كلّ مرّة. وإنّما كانت تبدأ في كلّ يوم، بهذا المعنى، صداقة جديدة. فقد كنت أتبيّن كلّ مساء، لدى عودتي، أنّه يقع عليّ أن أقول لِ«جيلبيرت» أموراً رئيسيّة يتوقّف عليها مصير صداقتنا، وما كانت تلك الأمور واحدة في يوم. بيد أني كنت سعيداً ولم يعد ثمة خطر يتهدّد سعادتي. ولكنّه يزمع أن يجيء واأسفي، من جانب لم أبصر فيه البتّة أي خطر، من جانب «جيلبيرت» ومن جانبي على السواء. كان لا بدّ أن يقلقني ما كان على العكس يطمئنني، ما كنت أظنه سعادة إنها في الحبّ حالة غير طبيعيّة يمكن أن تُضفي في الحال على الحادثة البسيطة جدّاً في ظاهرها، والتي يمكن دوماً أن تقع، خطورة لا تتضمّنها تلك الحادثة بحدّ

ذاتها. وإن ما يولي المرء سعادة إلى هذا الحدّ وجود شيء غير مستقرّ في القلب يتدبّر أمره على الدوام للحفاظ عليه ولا ينتبه له من بعد ما دام يلازم مكانه. والحقيقة أنّ في الحبّ عذاباً مستمرّاً يبطله الفرح ويجعله ممكناً ويؤجّله ولكنّه يمكن أن يصبح في كل لحظة مبرِّحاً، وهو ما لعلّه كان منذ زمن طويل لو لم يَفُز المرءُ بما كان يتمنّى.

لقد أحسست مراراً عديدة أنّ «جيلبيرت» ترغب في المباعدة بين زياراتي. صحيح أنّه حينما يلحّ عليّ الشوق إلى رؤيتها ما كان عليّ سوى دفع والديها إلى دعوتي وقد أصبحا أكثر فأكثر وثوقاً بتأثيري الخيّر عليها. كنت أحسب أن حبّي بفضلهما لا يتعرضّ لأيّ مخاطرة، فما دمت أضعهما إلى جانبي فإنّما يسعني الاطمئنان بما أنّ لهما كامل السلطة على «جيلبيرت». بيد أنّني كنت أتساءل، للأسف، إزاء بعض علامات نفاد الصبر التي تصدر عن هذه الأخيرة حينما يستقدمني والدها كأنّما غصباً عنها، أتساءل إن لم يكن ما احتسبته بمثابة درع لسعادتي العلّةَ الخفيّة التي لا يمكنها على العكس أن تدوم من جرّائها.

وفي آخر مرّة جئت فيها لزيارة «جيلبيرت» كان المطر يهطل، وكانت مدعوّة إلى درس في الرقص لدى أناس معرفتها بهم أقلّ من أن تسمح لها باصطحابي معها. وكانت قد تناولت كمية من القهوين تزيد عن المعتاد بسبب الرطوبة، وقد بادرت السيّدة «سوان»، لحظة كانت ابنتها تزمع الخروج، ربّما بسبب رداءة الطقس، وربّما لظنون تراودها بحق المنزل الذي ستجري فيه هذه الأمسية، إلى تنبيهها بحدّة بالغة صائحة بها: «جيلبيرت»! وهي تشير إليّ لتدلّل على أنّني جئت لزيارتها ويجدر بها أن تمكث معي. وكلمة «جيلبيرت» هذه تمّ النطق بها، بل الصراخ، بحسن نيّة تجاهي، ولكنّي أدركت برفعة منكبي «جيلبيرت» وهي تطرح أغراضها جانباً أن والدتها عملت من غير ما قصد على تسريع التطوّر الذي كان يبعد صديقتي شيئاً فشيئاً عنّي، وربّما كان لا يزال يمكن حتى ذاك إيقافه. «ليس لزاماً علينا أن نبادر إلى الرقص كلّ يوم»، تقول «أوديت» لابنتها بلهجة

حكيمة لا شكّ تعلمتها فيما مضى من «سوان». ثم عادت فأصبح «أوديت» من جديد وشرعت تتكلّم الإنكليزية مع ابنتها. فإذا في الحال كأنّما جدار يحجب عنّي قسماً من حياة «جيلبيرت»، وكأنّما جنّيّ شرير يحمل صديقتي بعيداً عنّي. ذلك أنّنا في لغة نعرفها استبدلنا بلا شفافية الأصوات شفافية الأفكار. ولكنّ اللغة التي نعرفها قصر مغلق يمكن لمن نحبّها أن تخدعنا فيه دون أن نفلح، وقد ظللنا في الخارج منقبضي الصدر إلى حد اليأس داخل عجزنا، في رؤية شيء أو الحؤول دون أيّ شيء. كذلك كان هذا الحديث بالإنكليزية الذي ربما ابتسمتُ ساخراً منه قبل شهر والذي كانت بعض أسماء الأعلام الفرنسية عبره لا تكفّ عن مضاعفة مخاوفي وتوجيهها، كان يرتدي القسوة نفسها ويخلّفني مهملاً وحيداً كما قد يفعل اختطاف. وأخيراً تركتنا السيّدة «سوان» وقد بدا وجه «جيلبيرت» في ذلك اليوم، ربّما من جرّاء حقدها عليّ أنا المسبّب المرغَم لمنعها من أن تبادر إلى اللهو، وربّما كذلك لأنني استشففت أنّها غاضبة فكنت أشدّ بروداً من المعتاد بداعي الاحتراز، بدا وجهها، وقد سُلِب البهجة، عارياً مخرّباً وكأنّما يخصّ، طوال بعد الظهر، بالأسف والكآبة الرقصةَ التي يحول وجودي دون أن تبادر إلى أدائها، وكأنما يتحدّى جميع المخلوقات، بدءاً بي أنا، أن تدرك الأسباب الخفيّة التي أوجدت لديها ميلاً عاطفيّاً إلى رقصة «البوسطن». وقد اقتصرتْ على أن تبادلني بين الحين والحين، حول الطقس آنذاك واشتداد المطر وتسبيق ساعة الحائط، حديثاً تقطعّه لحظات صامتة ولفظات مفردة وأصرّ فيه بعناد وبنوع من الحنق اليائس على تهديم اللحظات التي كان يمكن أن نهبها للصداقة والسعادة. كانت جميع أقوالنا تكتسب نوعاً من القسوة البالغة من جرّاء شدّة تفاهتها المفارقة، تلك الشدة التي كانت عزاء لي مع ذلك لأنها تحول دون أن تُخْدَع «جيلبيرت» بتفاهة أفكاري ولامبالاة لهجتي فعبثاً كنت أقول: «يبدو لي أنّ ساعة الحائط كانت متأخّرة بالأحرى في ذلك اليوم»، فالجملة كانت تعني بالبداهة «كم أنت قاسية!» وعبثاً أبدي عناداً في المضيّ قدماً في تلك الأقوال التي لا

انفراج فيها. على مدى هذا النهار الماطر. فقد كنت أعلم أن برودي ليس أمراً في مثل ما أتظاهر به من جمود وأنّه لا بدّ أن تحسّ «جيلبيرت» أنني لو جازفت مرّة رابعة في أن أردّد على مسامعها أن النهار آخذ في التناقص بعدما سبق أن قلته لها ثلاث مرّات لصادفت مشقّة في التمالك عن البكاء. وحينما كانت على ذلك النحو، حينما لا تملأ البسمة عينيها وتشرق على صفحة وجهها فلستَ تستطيع أن تقول أيّة رتابة مفجعة كانت تطبع عينيها الحزينتين وقسماتها المتجهّمة. كان وجهها الذي أضحى قبيحاً تقريباً يشبه حينذاك تلك الشواطئ المملّة التي يرهقك فيها البحر الذي تراجع إلى بعيد بعيد بضياء متشابه أبداً يلفّه أفق ثابت ضيق الحدود. ولما لم أرَ في آخر الأمر التبدّل الخيّر الذي كنت أنتظره منذ عدّة ساعات يتمّ على يد «جيلبيرت» قلت لها إنّها ليست لطيفة. فأجابت تقول: «بل أنت من ليس لطيفاً. بلى». وساءلت نفسي عمّا فعلت، ولما لم أوفّق إليه سألتها هي؛ فقالت في ضحكة طويلة: «إنّك بالطبع ترى نفسك لطيفاً!» حينئذ أحسست ما كان من ألم بالنسبة إليّ في استحالة بلوغي ذاك المستوى الآخر اللامدرك من فكرها والذي كانت ترسمه ضحكتها. لكأنّي بتلك الضحكة تعني قولها: «لا، لا! لن تخدعني بكلّ ما تقوله لي، فإني أعلم أنّك مجنون بي، ولكنّ ذلك غير ذي بال بالنسبة إليّ لأنّي لا أعيرك أيّ اهتمام». بيد أني كنت أقول في نفسي: إن الضحك ليس في نهاية المطاف لغة واضحة التحديد حتى يمكنني التأكّد من فهم تلك الضحكة، كما كانت أقوال «جيلبيرت» وديّة فسألتها قائلاً: «ولكن ما الذي لا أبدو فيه لطيفاً؟ أفصحي عن فكرك فسوف أفعل كلّ ما تبغين». - «لا، إنّه لا جدوى من الأمر، ولست أستطيع أن أشرح لك ذلك». وخشيت لحظةً أن تكون ظنّت أنّي لا أحبها فكان الأمر بالنسبة إليّ عذاباً آخر لا يقلّ حدّة ولكنّه يقتضي جدليّة مختلفة. «لو كنت تعلمين الغمّ الذي تبعثينه في نفسي لَقُلْتِهِ لي». ولكنّ ذلك الغمّ الذي كان ينبغي أن تغتبط به، لو أنّها ارتابت بأمر حبّي، إنّما أثار بالعكس حنقها. حينئذ تجمعت لديّ الجرأة، وقد أدركتُ خطئي

وعزمت ألّا آخذ أقوالها من بعد في اعتباري وتركتها تقول لي، دون أن أصدّقها: «كنت أحبّك حقاً وسنرى ذلك ذات يوم» (ذلك اليوم الذي يؤكّد المتّهمون أنّه سيتمّ فيه الاعتراف ببراءتهم والذي ما كان قطّ، لأسباب خفيّة، ذاك الذي يجري فيه استجوابهم)، جرأة العزم على ألا أراها من بعد، ودون أن أفصح لها عن ذلك لأنّها ما كانت لتصدقني.

إنّ غمّاً يسبّبه شخص تحبّه يمكن أن يكون مؤلماً حتى حينما يندرج ضمن اهتمامات ومشاغل وأفراح لا تدور حول هذا الشخص ولا ينصرف انتباهنا عنها إلّا بين آونة وأخرى ليرتدّ إليه. فأمّا حينما ينبثق مثل هذا الغمّ - كما هي الحال بالنسبة إلى هذا الأخير - لحظة تغمر نفوسنا السعادة الناجمة عن رؤية ذلك الشخص، فإن الانهيار المفاجئ الذي يقع حينذاك في نفسنا التي نعمت حتى ذاك بالدفء والعون والهدوء إنّما يبعث فينا عاصفة هوجاء لا ندري إن كنّا نستطيع مقاومتها حتى النهاية. كانت العاصفة التي تهبّ على قلبي عنيفة إلى حدّ أنّني عدت باتجاه المنزل مهزوزاً دامي الفؤاد أحسّ أنّي لن أقوى على التنفّس من بعد إلا إذا عدت أدراجي، إلّا إذا رجعت بالقرب من «جيلبيرت» لحجّة، أيّ حجّة. ولكن ربّما قالت في نفسها: «يعود أيضاً! إنّي أستطيع بالتأكيد أن أصرّح لنفسي بكلّ شيء، فسوف يرجع في كلّ مرّة أشدّ خضوعاً كلّما فارقني أوفر تعاسة». ثم أرتدُّ إليها بالفكر على نحو لا يقاوم وتستمر هذه الاتجاهات المتناوبة، هذا الذعر في بوصلتي الداخليّة بعدما أعود، تترجمها مسوّدات الرسائل المتناقضة التي أسطّرها لِ«جيلبيرت».

كنت مقبلاً على إحدى تلك الحالات الصعبة التي يتّفق لنا بعامّة أن نواجهها عدّة مرّات في الحياة والتي لا نواجهها بالطريقة نفسها في كلّ مرّة، أي في كلّ سنّ، مع أنّنا لم نبدلّ من طباعنا ومن طبيعتنا - طبيعتنا التي تبدع بنفسها مواطن حبّنا، وحتى النساء اللواتي نحبهنّ وحتى ذنوبهنّ - في مثل تلك اللحظات تنقسم حياتنا، وكأنّما تتوزع في ميزان، بين كفّتين متقابلتين تحتويانها كلّها. ففي كفّة رغبتنا ألا نسوء في عيني من

نحبّ، ألّا نبدو بالغي الوضاعة تجاه من نحبّ دون أن نفلح في إدراكه، ولكننا نرى من الحذاقة أن نهمله بعض الشيء كي لا يداخله الشعور بأنّه لا غنى عنه، ذلك الشعور الذي قد يصرفه عنّا. وفي الثانية عذاب - لا عذاب مميّز وجزئي - لا يمكن أن يهدأ إلا إذا تخلّينا عن أن نحسن في عيني تلك المرأة وأن نحملها على الاعتقاد أنّه بوسعنا أن نكون في غنى عنها فبادرنا إلى لقائها من جديد. فإمّا نزعنا من الكفّة التي تحتوي الاعتزاز بالنفس كميّة من الإرادة طفيفة ضعُفْنَا فتركناها تبلى، كلّما تقدّمت بنا السنّ وأضفنا إلى الكفّة التي تحتوي الغمّ ألماً جسدياً مكتسباً وأذِنّاله بالتفاقم رأينا، بدلاً من القرار الشجاع الذي كان مدعواً للفوز في سنّ العشرين، القرار الآخر الذي يذلّنا في سنّ الخمسين وقد أضحى ثقيلاً جداً دون أن توازيه أثقال أخرى. أضف إلى ذلك أنّ الأوضاع تتبدّل فيما هي تتكرر وأنّه ربما اتّفق لنا في متوسّط العمر أو في آخر أيامنا أن نلاقي لذّة مشؤومة في تعقيد الحبّ بشيء من التعوّد الذي لا تعرفه سنّ اليفاعة التي تشغلها واجبات أخرى كثيرة وهي أقلّ حريّة في التصرّف بذاتها.

وكنت سطّرت منذ قليل رسالة لِـ«جيلبيرت» أطلقت فيها العنان لحنقي، على أنّي لم أفعل دون أن ألقي ببضع كلمات نثرتها كأنما على غير هدى بمثابة عوّامة إنقاذ يمكن لصديقتي أن تعلّق بها مصالحة. فإذا هي بعد لحظة، وقد تبدّل اتجاه الرياح، جُمَل رقيقة أرسلها إليها لعذوبة بعض عبارات حزينة، وعبارات من مثل «لن أعود بعد اليوم» مؤثرة جداً بالنسبة إلى الذين يستعملونها ومملّة جدّاً بالنسبة إلى التي ستقرؤها إمّا لأنها تحسبها كاذبة وتترجم «لن أعود بعد اليوم» «بعبارة» «في هذا المساء إن كنت راغبة بي» وإمّا لأنّها تحسبها صحيحة وتنبئها إذ ذاك بإحدى حالات الهجران النهائية التي لا تهمّنا على الإطلاق في الحياة حينما يدور الأمر حول أناس لا نعشقهم. وبما أنّنا عاجزون في أثناء ما نحبّ، أن نتصرّف تصرُف السّلف الجدير بإنسان المستقبل الذي سنكونه والذي لن يحبّ من بعد، فكيف يسعنا أن نتخيّل تماماً ذهنية امرأة جعلناها، على علمنا أننا

قليلو الأهمية في نظرها، تقول على الدوام في أحلامنا الأقوال نفسها التي تقولها لو أنّها تحبّنا كيما نهدهد أنفسنا بأحلام جميلة أو نحمل العزاء إلى ذواتنا من غمّ جسيم؟ وإننا إزاء أفكار امرأة نحبّها وإزاء أعمالها في مثل الحيرة التي كان يمكن أن تصيب الفيزيائيين الأوّلين أمام ظاهرات الطبيعة (قبل أن يُنْشَأَ العلمُ ويلقي ببعض النور في المجهول)، أو في مثل ما هو أسوأ، في حالة شخص يكاد مبدأ السببيّة لا يوجد بالنسبة إلى عقله، شخص لا يستطيع أن يربط بين ظاهرة وأخرى ويبدو مشهد العالم في عينيه غير مؤكد كما الحلم كنت أجهد بالتأكيد في الخروج من تلك الفوضى، في العثور على أسباب. كنت أحاول حتى أنْ أكون «موضوعيّاً» وأن آخذ لذلك في اعتباري اللاتناسب الكائن بين الأهميّة التي لِـ«جيلبيرت» في نظري وتلك التي لي في نظرها، بل تلك التي لها في نظر آخرين غيري، ذلك اللاتناسب الذي لو اتّفق لي أن أنساه لكان من المحتمل أن أحتسب بمثابة بوح ملتهب مجرّد مجاملة تقوم بها صديقتي والمسعى المضحك والمنحط الذي أقوم به بمثابة الحركة البسيطة الناعمة التي تقودك إلى عينين حلوتين. على أنّي كنت أخشى كذلك أن أقع في التطرّف المعاكس الذي ربما وجدت من جرائه في وصول «جيلبيرت» غير الدقيق إلى أحد المواعيد، وفي ردّة فعل مزاجيّة، عداءً مستحكماً. كنت أحاول العثور بين تينك النظرتين المشوِّهتين بالمقدار نفسه تلك التي تزوّدني برؤية صحيحة للأشياء. وكانت الحسابات التي ينبغي لي القيام بها في سبيل ذلك تلهيني قليلاً عن عذابي. وفي الغد قرّرت، إمّا بداعي الانصياع للغة الأرقام وإمّا لأنّني جعلتها تنطق بما كنت في شوق إليه، قررت الذهاب إلى منزل عائلة «سوان» تهزّني السعادة ولكن على نحو ما يفعل أولئك الذين قلقوا فترة طويلة من جرّاء رحلة لا يبغون القيام بها فلا يذهبون إلى أبعد من المحطّة ويعودون إلى منزلهم يفكّون متاعهم. ولما كانت محض فكرة قرار ممكن إنما تنشئ، في أثناء ما يتردّد المرء، (إلا إذا جعلنا تلك الفكرة جامدة بالتصميم على رفض اتخاذ القرار)، شأن بذرة حيّة لخطوطها الأولية،

كامل تفاصيل الانفعالات التي قد تنجم عن الفعل المنفذ، فقد قلت في نفسي إنّني كنت شديد البعد عن المنطق في أن تسبّبت لنفسي، إذ نويت ألا أرى «جيلبيرت» من بعد، بمقدار من الألم مساوٍ لما يصيبني لو كان عليّ أن أحقّق ذلك المشروع وأنّه كان يسعني بما أنّي سأعود على العكس إلى بيتها في نهاية المطاف، أن أوفّر على نفسي الكثير من صنوف وهن الإرادة والرضوخ المؤلمة. ولكنّ إعادة علاقات الصداقة تلك لم تدم أكثر من الزمن اللازم للذهاب حتى منزل عائلة «سوان»، لا لأنّ رئيس خدمهم الذي كان يحبّني كثيراً قال لي إن «جيلبيرت» خرجت (فقد علمت منذ المساء نفسه على لسان جماعة صادفوها أن الأمر صحيح) بل بسبب الطريقة التي قال لي بها: «لقد خرجت الآنسة يا سيّدي، وبوسعي أن أؤكّد لسيّدي أنّني لا أكذب. وإن شاء سيّدي أن يستعلم فإني أستطيع استقدام الوصيفة. إن سيّدي يعتقد تمام الاعتقاد أنّني أفعل كلّ ما بوسعي لإدخال السرور على قلبه وإنني أقود في الحال سيّدي بالقرب من الآنسة لو كانت حاضرة». كانت تلك الأقوال، وهي من الصنف الذي يتّسم وحده بالأهمية، تلك الأقوال غير المقصودة التي تزوّدنا بصورة شعاعيّة مختصرة على الأقلّ للواقع غير المنتظر الذي قد يخفيه خطاب مدروس، كانت البرهان على أن هنالك في محيط «جيلبيرت» انطباعاً بأنّي كنت مزعجاً في نظرها. ولذلك ولّدت لديّ ما إن نطق بها رئيس الخدم، ضغينة فضّلتُ أن يكون موضعها رئيس الخدم بدلاً من «جيلبيرت»؛ فقد ركّز من حوله جميع مشاعر الغضب التي سبق أن انتابتني ضدّ صديقتي. وظلّ حبّي، بعد ما تخلّص من تلك المشاعر بفضل تلك الأقوال، ظلّ وحيداً على أنّها برهنت لي في الوقت نفسه أنّه يجدر بي على مدى بعض الوقت ألّا أحاول زيارة «جيلبيرت». كان لا بدَّ أن تكتب إليّ لتعتذر. ولكنّني على الرغم من ذلك لن أعود في الحال إلى زيارتها كيما أبرهن لها أنّني أستطيع العيش بدونها. على أن التردّد على «جيلبيرت»، بعدما تصلني رسالتها، سوف يضحي أمراً أستطيع الامتناع عنه على نحو أيسر بعض الوقت لأنّني سوف أكون متيقّناً

من أنّي سأعود فألقاها حالما أشاء. أمّا ما كان ينبغي لي لأحتمل الغياب الطوعيّ على نحو يقلّل من حزني فأن أحسّ فؤادي طليقاً من الارتياب الرهيب بأننا قد تخالفنا إلى الأبد وبأنها خطبت، بل ذهبت، بل اختطفت، وجاءت الأيام التالية شبيهة بأيام أسبوع رأس السنة السالف الذي اضطررت أن أقضيه بدون «جيلبيرت». على أن ذلك الأسبوع ما إن ينقضي آنذاك، حتى تعود صديقتي إلى «الشانزيليزيه» وأعود فأراها كالسابق دونما شك من جهة، كما كنت أعلم من جهة أخرى بما لا يقل عن ذلك اليقين أنه لا داعي للذهاب إلى «الشانزيليزيه» ما دامت عطلة رأس السنة قادمة. وهكذا تم لي، طوال ذلك الأسبوع الحزين البعيد، أن أتحمل حزني بهدوء لأنه لم تكن تخالطه خشية ولا أمل، أما الآن فقد كان هذا الشعور الأخير على العكس هو الذي يجعل عذابي لا يطاق بقدر ما تفعل الخشية تقريباً.

ولما لم تصلني رسالة من «جيلبيرت» في المساء نفسه فقد عزوت الأمر إلى إهماها ومشاغلها ولم أشك أني واجد رسالة منها في بريد الصباح. وانتظرته كل يوم والقلب خافق خفقاناً تليه حالة من الانحطاط حين لا أجد فيه سوى رسائل لأشخاص غير «جيلبيرت» أو لا أجد شيئاً، وليس الأمر أسوأ حالاً لأن ما تبرهن به أخرى عن حبها يجعل ما تبرهن به هي عن لامبالاتها أشد قسوة. وأعود أصب الآمال على بريد بعد الظهر. فما كنت أجرؤ على مغادرة البيت حتى بين ساعات جمع الرسائل إذ ربما استطاعت إيصال رسالتها باليد. ثم تحل في النهاية اللحظة التي لا يستطيع فيها ساعٍ أو خادم لأسرة «سوان» أن يأتي من بعد، ولا بدَّ من تأجيل أمل الاطمئنان إلى صبيحة الغد وأراني مضطراً على هذا النحو، لأنني كنت أظن أن عذابي لن يدوم، أن أجدده دون توقف إن جاز القول. لقد كان الغم ربما واحداً، ولكنه بدلاً من أن يعمل، شأنه فيما مضى، على تمديد انفعال أوّلي من نمط متماثل فحسب، كان يعيد الكرة عدّة مرات في اليوم بادئاً بانفعال يتكرر بكثرة تفضي به في النهاية - وهو حالة جسدية كلية ومؤقتة - إلى الاستقرار إلى حد أنه لم يظل ثمة دقيقة واحدة في النهار لم

أكن فيها سجين ذلك القلق الذي يصعب مع ذلك احتماله ساعة واحدة، إذ لا يتسع للاضطرابات التي يسببها الانتظار أن تهدأ حتى يحل سبب انتظار جديد. وهكذا كان عذابي أقسى بما لا يقاس مما كان عليه في زمن الأول من كانون الثاني البعيد إذ كان يغمرني هذه المرة، عوضاً عن المقبول البحت بذلك العذاب، الأملُ في أن أراه في كل لحظة يتوقّف.

بيد أن الأمر انتهى بي إلى بلوغ هذا القبول، وأدركت إذ ذاك أنّه يجدر أن يكون قطعياً وتخليت نهائياً عن «جيلبيرت»، وذلك لصالح حبي بالذات ولأنني كنت أتمنى فوق كل شيء أن لا تحتفظ مني بذكرى يبطنها الاحتقار. حتى إني كنت منذ ذلك الوقت، وبغية أن لا يسعها افتراض نوع من حنق المحبين لدي، كنت كلما حددت لي مواعيد فيما بعد أقبل بها في الغالب ثم أكتب لها في اللحظة الأخيرة أنني لا أستطيع المجيء ولكني أؤكد أنني شديد الأسف لذلك كما لعلني كنت أفعل مع من لا أرغب في رؤيته، ولسوف تقنع عبارات الأسف هذه التي تخص بها عادة أولئك الذين لا نهتم بأمرهم، لسوف تقنع «جيلبيرت» فيما يبدو لي، بلا مبالاتي أكثر ما تفعل اللهجة اللامبالية التي تتكلفها مع تلك التي نحبها فحسب. وحينما يتم لي أن أبرهن لها بأعمال تتكرر إلى ما لا نهاية أكثر مني بالأقوال أني لا تداخلني رغبة في رؤيتها فربما عادت فوجدت رغبة بشأني. ولكن ذلك عبث. واأسفي! فالسعي عبر الامتناع عن رؤيتها إلى أن أوقظ فيها تلك الرغبة في رؤيتي إنما يعني فقدها إلى الأبد، لأنها حينما تعود إلى الانبثاق من جديد فإنما ينبغي لي بادئ الأمر، إن شئت لها أن تدوم، ألا أستسلم لها في الحال، وسوف تكون أكثر الساعات قسوة قد انقضت على أية حال، وإنما لا غنى لي عنها في هذه اللحظة ووددت لو أستطيع إخطارها بأنها لن تهدّئ عما قليل إذ تعود فتراني، سوى ألم تناقص إلى الحد الذي لن يظل معه، كما لعله لا يزال في هذه اللحظة نفسها وفي سبيل وضع حد له، سبباً للاستسلام والمصالحة والالتقاء من جديد، وحينما يمكنني فيما بعد أن أقرّ أخيراً لِـ«جيلبيرت» دونما خطر

أتعرض له لشدّة ما استعاد شغفها بي من قوة، بشغفي بها، فلن يكون قد توافر لهذا الأخير، ما يمكنه من مقاومة غياب طويل إلى هذا الحد ويكون زال، فيما أصبحت «جيلبيرت» غير ذات بال في نظري، كنت أعلم ذلك، ولكني لا أستطيع أن أقوله لها، فربما حسبت أنني إن زعمت أني سوف أتوقف عن حبها إن مكثت مدة طويلة لا ألقاها فإنما لمجرد أن تقول لي بأن أعود سريعاً إليها. أما ما كان ييسر لي في تلك الأثناء فرض ذلك الهجران على نفسي فإنني كنت أبادر (كيما تتبين تماماً على الرغم من توكيداتي المخالفة، أن ما يحرمني لقاءها إنما هي إرادتي لا أي حائل آخر ولا حالتي الصحية)، كنت أبادر، في كل مرة أعرف فيها سلفاً أن «جيلبيرت» لن تكون لدى والديها وتزمع الخروج مع صديقة لها ولن تعود للعشاء، إلى لقاء السيّدة «سوان» (التي عادت فأصبحت بالنسبة إليّ ما كانت يوم كنت أرى ابنتها بكثير من الصعوبة ويوم كنت أذهب للتنزه في شارع شجيرات الأكاسيا في الأيام التي الذي لا تجيء فيها هذه الأخيرة إلى «الشانزيليزيه») كنت سأسمع هكذا من يحدثني عن «جيلبيرت» كما كنت أكيداً أنها ستسمع بعد ذلك من يحدثها عني وعلى نحو يبرز لها أني ما كنت متعلقاً بها. وكنت أرى، شأن جميع الذين يتعذبون، أن وضعي المحزن كان يمكن أن يكون أسوأ حالاً. ذلك أني كنت أقول لنفسي إني أستطيع، إذ أملك حرية الدخول إلى المنزل الذي تقطنه «جيلبيرت» مع أنني مصمم ألا أستخدم ذلك الحق، إن أصبح عذابي بالغ الشدة، أن أعمل على إيقافه. فلم أكن تعيساً إلا يوماً فيوماً، ولعل ذلك مبالغ فيه. فكم مرة في بحر ساعة (ولكني الآن بعيد عن الانتظار المقلق الذي ضيّق عليّ الخناق في الأسابيع الأولى التي تلت خلافنا وقبلما أعود إلى منزل أسرة «سوان») تلوت فيها لنفسي الرسالة التي سوف تبعث بها «جيلبيرت» ذات يوم، وربما حملتها بنفسها! كان التخيل المستمر لتلك السعادة الخيالية يعينني على احتمال تهديم السعادة الحقيقية. فأن نعلم أنه لم يبق لنا ما نأمله بالنسبة إلى النساء اللواتي لا يحببننا وأولئك الذين «فُقِدوا»

على السواء لا يحول دون أن نوالي الانتظار. ويعيش المرء مترصداً متنصتاً، فتتخيل أمهات ذهب ابنهن في استكشاف تحفه المُخاطر في عرض البحر أنه يزمع الدخول في كل دقيقة وقد نجا بأعجوبة ويتمتع بصحة جيدة فيما توافر لهن منذ زمن بعيد أنه هلك بالتأكيد. فإما أن يمكّنهن ذلك الانتظار، حسب شدة الذكرى ومقاومة الأعضاء، من اجتياز السنين شيئاً فشيئاً ثم العيش من بعده، وإما أن يجلب منيّتهن. ثم إن غمي يجد العزاء من جهة أخرى في أنه يفيد حبي فلقد كانت كل زيارة أقوم بها للسيدة «سوان» دون لقاء «جيلبيرت» قاسية عليّ ولكني أحس أنها تحسّن بالمقدار نفسه الفكرة التي تحملها «جيلبيرت» عني.

ولئن كنت على أية حال أتدبّر أمري على الدوام قبلما أذهب إلى منزل السيّدة «سوان» لأتأكد من غياب ابنتها فربما كان مرد ذلك على السواء تصميمي أن أكون على خلاف معها وعلى أمل المصالحة الذي كان ينضاف إلى عزمي في التخلي عنها (وقليل ما كان منها مطلقاً، أقله على نحو مستمر، في هذه النفس البشرية التي من بين قوانينها التقطع الذي تعزّزه دفقات غير متوقعة من مختلف الذكريات) ويحجب عني ما كان شديد القسوة فيه، كنت أعلم ما في ذلك الأمل من أمر خيالي، وكنت مثل فقير يمزج خبزه الحاف بدموع أقلّ إن أسرّ لذاته أن غريباً ربما ترك له بعد قليل كامل ثروته. وكلنا مضطر كي يجعل الواقع محتملاً أن يغذي في صدره بعض الحماقات الصغيرة، كان أملي يظهر على حاله - فيما يتم الانفصال على نحو أفضل في الوقت نفسه - إن لم ألتق بِ«جيلبيرت». ولو وجدتُني معها وجهاً إلى وجه لدى والدتها فربما تبادلنا أقوالاً لا تغتفر يصبح خلافنَا من جرائها نهائياً ويقتل آمالي، ويوقظ من جهة ثانية حبي إذ يجيئني بقلق جديد ويجعل تسليمي بالأمر أوفر مشقة.

لقد سبق أن قالت لي السيّدة «سوان» من زمن بعيد وقبل خلافي مع ابنتها بكثير: «جميل جدّاً أن تأتي للقاء «جيلبيرت»، ولكنّي وددت كذلك لو تجيء أحياناً من أجلي، لا إلى «شوفلوري»، فربما صادفت مللاً لكثرة

ما يتجمّع لديّ من الناس، بل في الأيام الأخرى التي تجدني فيها على الدوام في وقت متأخّر بعض الشيء». كان يبدو إذن يوم أوافيها أني إنّما أنصاع بعد فترة طويلة لرغبة عبّرت عنها سابقاً. فكنت أمضي في وقت متأخّر جدّاً، في الليل وساعة يجلس أهلي إلى مائدة الطعام تقريباً، أمضي لزيارة السيّدة «سوان» زيارة أعلم أني لن أرى «جيلبيرت» في أثنائها ولكنّي لن أفكّر مع ذلك إلّا فيها. وفي ذلك الحيّ الذي كانوا يعدّونه آنذاك بعيداً جدّاً، وفي باريس أكثر عتمة من يومنا هذا وليس فيها حتى في المركز كهرباء في الشارع العام والقليل جدّاً في المنازل، كانت تكفي مصابيح صالة واقعة في الطابق الأرضيّ أو في طابق وسيط داني السقوف (شأن ما كانت علية الشقّة التي تستقبل فيها السيّدة «سوان» ضيوفها بالعادة) لإنارة الشارع ولتحمل عابر السبيل على رفع عينيه ليردّ إلى ضيائها وجود بعض العربات المكشوفة المجهّزة على أحسن ما يرام وكأنّما إلى علّتها الظاهرة والمخفاة. ويعتقد عابر السبيل، وبه بعض اضطراب، أن تبدّلاً حلّ في تلك العلّة الخفيّة حينما يشاهد إحدى تلك العربات وقد أخذت في التحرّك. وما كان ذلك سوى حوذيّ خشي على جياده من البرد فجعلها تروح بين حين وآخر وتجيء فيزيد من إثارتها أن العجلات المغلفة بالكاوتشوك كانت تضفي على وقع أقدام الجياد خلفيّة من السكون يبرز عليها ذلك الواقع على نحو أكثر تميّزاً ووضوحاً.

إنّ «الحديقة الشتويّة» التي كان عابر السبيل يبصرها عادة أيّاً كان الشارع إن لم تكن الشقّة على مستوى يجاوز كثيراً ارتفاع الرصيف لا تشاهَد من بعد إلا في المحفورات الضوئية التي في كتب هدايا رأس السنة لِ«ستال» حيث تبدو، على نقيض ما ندر من زينات الزهور في الصالات التي من طراز لويس السادس عشر في يومنا - كمثل وردة أو سوسنة من اليابان في إناء من الكريستال طويل العنق يمكن أن يحوي زهرة أخرى - وبسبب وفرة النباتات البيتيّة حينذاك والنقص المطلق في أسلوب يحكم تربيتها، وكأنها لا بدّ تستجيب لدى ربّات البيوت لهوى نباتي يزخر بالحياة

والبهجة أكثر منها لاهتمام لا حياة فيه بزخرفة جافّة. كانت تذكّرك، وهي أكبر حجماً في فنادق تلك الحقبة، بتلك الدفيئات الصغيرة النقّالة التي كانت توضع في صبيحة الأوّل من كانون الثاني تحت المصبح المُضاء - لأن الأطفال لم يتوافر لهم الصبر لانتظار طلوع النهار - بين هدايا رأس السنة الأخرى، ولكنّها أجمل هديّة من بينها إذ تحمل لك العزاء عن عري الشتاء بالنباتات التي يمكن أن نبادر إلى زرعها. كانت تلك الحدائق الشتويّة تشبه أكثر من تلك الدفيئات نفسها الدفيئة التي نراها بالقرب منها تماماً صورةً في كتاب جميل، وهو هدية أخرى من هدايا رأس السنة كانت تفتن الأطفال مع أنها لم تُقَدَّم لهم بل للآنسة «ليلي» بطلة الكتاب إلى حدّ أنّهم يتساءلون، وقد أضحوا الآن شيوخاً، إن لم يكن الشتاء في تلك السنوات السعيدة أجمل الفصول. وفي آخر هذه الحديقة الشتوية، وعبر تشجر الأصناف المختلفة التي كانت النافذة المضاءة تشبه بها زجاج دفيئات الأطفال تلك المرسومة أو الحقيقة، كان عابر السبيل يبصر بعامة، إذ يقف على أطراف أصابعه، رجلاً بسترة رسمية، وفي عروته زهرة غاردينيا أو قرنفلة، يقف أمام امرأة جالسة وكلاهما غير واضحي المعالم كأنّهما نقشان غائران في حجر ياقوت أصفر في آخر أجواء الصالة التي ينشر فيها «السماور» - وهو يوم ذاك حديث الاستيراد - أبخرة صفراء لعلّها لا تزال تنبعث منه في يومنا هذا ولكنّما لا يبصرها أحد من بعد بسبب العادة. كانت السيّدة «سوان» شديدة التعلّق بذلك «الشاي»، وتحسب أنها تُبدي طرافة وتشيع سحراً إذ تقول لرجل: «تجدني كلّ يوم في وقت متأخّر فهلمّ لتناول الشاي»، حتى تقرن بابتسامة رقيقة عذبة تلك الكلمات التي تنطقها بنبرة إنكليزية مؤقّتة والتي يأخذ محدّثها علماً بها وهو يحيّي بوقار وكأنها شيء مهمّ وغريب يفرض الاحترام ويقتضي الانتباه. كان ثمّة سبب آخر غير التي ذكرناها أعلاه كان من جرّائه أن لم تقتصر الأزهار في صالة السيّدة «سوان» على الطابع التزييني. ولم يكن السبب ذاك ناجماً عن العصر بل عن الحياة التي قضتها «أوديت» فيما مضى في

قسم منه. فإن غانية مرموقة، كما كان شأنها، إنّما تعيش كثيراً من أجل عشّاقها، أي في منزلها، الأمر الذي يمكن أن يقودها إلى أن تعيش من أجل ذاتها. فالأشياء التي نبصرها لدى امرأة شريفة والتي يمكن أن تبدو لها هي الأخرى بالتأكيد مهمّة هي التي تكتسب في جميع الأحوال أكبر الأهميّة في نظر الغانية. وليس قمّة يومها ساعة ترتدي ملابسها من أجل الناس، بل ساعة تخلعها من أجل رجل فلا بدّ لها أن تكون أنيقة في مبذلها وقميص نومها أناقتها في ثياب المدينة. وفيما تُبرز النساء الأخريات حليهنّ تعيش هي بين خفايا دررها. ويفرض هذا النمط من الحياة الالتزام بنوع من البذخ غير المفضوح وينتهي بزرع عشق هذا البذخ الذي يقارب أن يكون متجرّداً في نفسك. وكانت السيّدة «سوان» تشمل الزهور بعشقها ذاك فقد كان ثمّة على الدوام بالقرب من مقعدها كأس ضخمة من الكريستال ملئت تماماً بتويجيات من بنفسج «بارما» أو من الأقحوان وتبدو وكأنها تعلن للوافد عن العمل المفضّل الذي أوقف، كما لعلها كانت حال كوب الشاي الذي ربّما شربته السيّدة «سوان» وحيدة ولمحض متعتها؛ عن عمل أكثر خفاءً وأوفر أسراراً حتى لترغب في الاعتذار لدى مشاهدة الزهور المنثورة هناك كما لعلّك تفعل إن نظرت إلى عنوان الكتاب الذي لا يزال مفتوحاً والذي ربّما كشف عن سرّ القراءة الأخيرة وربما بالتالي عن تفكير «أوديت» الراهن. وكانت الأزهار تنبض بالحياة أكثر ممّا يتيسر للكتاب وكان المرء يوافيه الضيق إن دخل لزيارة السيدة «سوان» لتبينه أنها لم تكن وحدها، أو إن هو عاد معها ألّا يلقى الصالة خيالة لما تشغل من مكان غامض يتعلّق بأوقات يعرفها من حياة سيّدة البيت التي الأزهار التي لم تُعدَّ لزائري «أوديت» بل هي نعمت وستنعم كذلك، وكأنّما نسيتها هناك، بأحاديث خاصّة معها يخشى المرء أن يقطعها وعبثاً يحاول أن يقرأ سرّها إذ يحدّق بعينيه إلى ألوان بنفسج «بارما» الباهتة الذائبة الخبّازيّة المنحلّة. كانت «أوديت» تعود منذ آخر تشرين الأول على نحو منتظم أكثر مما يسعها الانتظام بسبب «الشاي» الذي ما يزال يدعى في ذلك الزمان «شاي الساعة

الخامسة» (وتحبّ أن تردّد ذلك) أنه إن أقامت السيّدة «فيردوران» منتدى فلأنك كنت واثقاً على الدوام أنّك تستطيع لقاءها في منزلها في ساعة لا تتبدّل. وكانت تتخيّل أنها تملك واحداً من النمط نفسه ولكنّه أوفر حريّة وبعيد عن التشدّد (*senza rigore*)، حسبما تحبُّ أن تقول. وترى أنها على هذا النحو ما يشبه السيّدة «ليسبيناس»[١] وتظنّ أنها أسّست منتدى منافساً إذ انتزعت من السيّدة «دي ديفّان»[٢] أمتع رجال جماعتها الصغيرة ولا سيّما «سوان» الذي تبعها في انفصالها وعزلتها، حسب رواية يدرك المرء أنها أفلحت في حمل الوافدين الجدد الجاهلين بالماضي على تصديقها ولكنها لم تفلح مع ذاتها. على أنّنا إنّما نمثّل بعض الأدوار المفضّلة لدينا العديد من المرّات أمام الناس ونعيدها داخل ذواتنا إلى حدّ أنّنا نرى سهولة أكبر في الرجوع إلى الدليل الوهمي الذي تقدّمه لنا منّا إلى الواقع اللامنسيّ تماماً تقريباً. أمّا الأيام التي لم تخرج فيها السيّدة «سوان» البتّة فقد كنت تجدها فيها ترتدي مبذلاً من الحرير الصيني الرقيق في بياض أول الثلج، كما ترتدي أحياناً إحدى تلك المواسير الطويلة التي من الموسلين الحريري والتي تبدو وكأنها محض نثارة من تويجيات ورديّة أو بيضاء قد نراها اليوم لا تناسب الشتاء كثيراً على غير وجه حقّ. ذلك أن تلك الأقمشة الرقيقة وتلك الألوان الرفيقة كانت تضفي على المرأة - في دفء الصالات الوفير آنذاك وقد كستها الستائر. ورأى روائيو المجتمعات الراقية في تلك الحقبة أن أكثر ما يقال فيها أناقة أنها «وثيرة البطائن» - المظهر المقرور نفسه الذي تضفيه على الورود التي يمكن أن تمكث هناك بالقرب منها، على الرغم من الشتاء، في لون عريها الورديّ كما في الربيع. كانت سيّدة البيت، بسبب إخماد الأصوات هذا من جرّاء السجاد واعتزالها في زوايا

---

(١) - (٢) الآنسة Lespinasse مرافقة مدام du Deffand صاحبة منتدى شهير في القرن الثامن عشر بدأ باستقبال رجال المجتمع ثم أخذ يستقبل رجال الفكر والأدب. وقد طردت هذه الأخيرة مرافقتها إذ اتهمتها بسرقة الذين كانوا يترددون على منتداها.

غائرة، توالي القراءة إذ لم يُنبئها أمر بدخولك كما هو شأن اليوم، فيما أصبحتَ تقريباً أمامها، الأمر الذي كان يزيد من ذلك الانطباع الخياليّ ومن روعة السرّ الذي أخذ على حين غرّة، وهو ما نلقاه اليوم من جديد في تذكر تلك الفساتين المتقادم زيها حينذاك والتي ربما كانت السيّدة «سوان» الوحيدة التي لم تهجرها والتي تذكّرنا بأنّ المرأة التي ترتديها ينبغي أن تكون بطلة رواية لأنّ أغلبنا لم يرَ تلك الفساتين إلا في بعض روايات «هنري غريفيل». كان لدى «أوديت» الآن في صالتها في أوّل الشتاء أزهار أقحوان ضخمة وفي تنوّع ألوان لم ير «سوان» فيما مضى ما يشبهها في منزلها. كان إعجابي بها - حينما أقوم بإحدى تلك الزيارات الكئيبة للسيّدة «سوان» فألقي لها فيها كامل الشاعريّة التي تنبعث من أنها أمّ «جيلبيرت» هذه التي سوف تقول لها في الغد: «لقد قدم صديقك لزيارتي». - كان إعجابي بها ناجماً دون شكّ عن أنها تضيف، بلونها الورديّ الشاحب شحوب الحرير الذي من طراز لويس الخامس عشر الذي يغطّي مقاعدها، أو الأبيض بياض الثلج كمبذلها الذي من حرير صينيّ رقيق، أو الأحمر الباهت كسماورها، إلى زينة صالتها زينةً إضافيّة بألوان في مثل غناها ودقّتها، ولكنّها زينة حيّة لن تدوم إلّا بضعة أيّام. بيد أنّه كان يؤثر فيّ ما كان في ذلك الأقحوان أقلّ زوالاً منه ديمومة نسبيّة بالنسبة إلى تلك الألوان الورديّة أو النحاسية التي تلهبها الشمس بجلال عظيم في ضباب أواخر ما بعد الظهيرة من شهر تشرين الثاني والتي كنت أعود فألقاها، بعدما شاهدتها قبل دخولي إلى منزل السيّدة «سوان» وهي تبهت في السماء، تردّدها وتنقلها ممزجة الأزهار الملتهبة لقد كان يدعوني، ذلك الأقحوان، كمثل أضواء انتزعها رسّام عظيم من تقلّبات الجو والشمس كيما تبادر إلى تزيين منزل بشريّ، كان يدعوني، على الرغم مما يملؤني كآبة، إلى أن أتذوّق بنهم في أثناء ساعة الشاي هذه متع تشرين الثاني القصيرة جدّاً التي كان يرسل بالقرب مني لهب روعتها الحميمة الزاخرة بالأسرار. وما كنت أستطيع بلوغها، من أسف، في الأحاديث التي كنت أسمعها. فقد كانت السيدة

«سوان» تتّخذ صوتاً حنوناً حتى مع السيّدة «كوتار» لتقول لها، مع أن الوقت تقدّم بها كثيراً: «لا، ليس الوقت متأخّراً، لا تنظري إلى ساعة الحائط فليست الساعة ما تشير إليه، إنّها واقفة، وماذا يمكن أن ينتظرك مما يستدعي الاستعجال إلى هذا الحدّ»؟ وتقدّم قطعة حلوى أخرى لزوجة الأستاذ التي تحمل حافظة بطاقاتها بيدها.

وكانت السيّدة «بونتان» تقول للسيّدة «سوان»: «إنّه لا يمكن مغادرة هذا البيت»، تقول فيما تصرخ السيّدة «كوتار» في دهشتها لدى سماعها من يعبّر عن انطباعها الخاصّ: «ذلك ما أقوله على الدوام بيني وبين نفسي داخل عقلي وفي أعماق ذاتي!» يؤيّدها في ذلك جماعة من نادي السبق أغرقت في التحيّات وكأنّما غمرها شرف عظيم حينما قدّمتها السيّدة «سوان» إلى تلك البورجوازيّة الصغيرة غير اللطيفة التي تظلّ متحفظة إزاء أصدقاء «أوديت» اللامعين، إن لم تلجأ إلى ما كانت تسمّيه حالة الدفاع، لأنّها كانت تستخدم على الدوام لغة سامية للتعبير عن أبسط الأمور. «كأنّما ذلك غير صحيح، فقد انقضت ثلاثة أيام أربعاء وأنت تخلفين وعدك»، تقول السيّدة «سوان» للسيّدة «كوتار». فتضيف هذه الأخيرة بلهجة بادية الاحتشام غامضة (لأنها ما كانت لتجرؤ، مع أنها امرأة طبيب، أن تتحدّث دونما كنايات عن الرشح أو المغص الكلوي): «صحيح، يا أوديت، لقد انقضت **قرون بل أبديّات** لم أرك فيها. أنت ترين أنني أقرّ بذنبي، ولكن ينبغي أن أقول لك إنّني عانيت الكثير من «**المصيبات**» الصغيرة، ولكلّ مصيباته، ثم إن أزمة حلّت في جهاز خَدَمي المذكّر. فقد اضطررت، دون أن أكون مشبعة بفكرة السيطرة أكثر من أخرى غيري وكيما يكون الأمر بمثابة عبرة، إلى طرد رئيس خَدَمي الذي كان يسعى من جهة أخرى، فيما أعتقد، إلى مكان أوفر ربحاً. لكنّ ذهابه أوشك أن يؤدّي إلى استقالة الوزارة بكاملها. وقد رفضت وصيفتي كذلك البقاء ووقعت مشاجرات جديرة بِـ«هوميروس». وقد قبضتُ بحزم على دفّة المركب على الرغم من كلّ شيء، وكان درس أشياء حقيقي لعلّه لم يذهب

هدراً بالنسبة إليّ. إنّني أزعجك بحكايات الخدم هذه، ولكنّك تعلمين مثلي أيّة متاعب هي أن يضطرّ المرء إلى اللجوء لتعديلات في صفوف مستخدميه». ثم تسأل: «ألن نرى ابنتك اللذيذة؟» وتجيب السيّدة «سوان»: «لا، فابنتي اللذيذة تتعشى لدى صديقة لها»، وتضيف وهي تلتفت صوبي: «أظنّ أنها كتبت إليك كي تجيء لزيارتها في الغد». ثم تسأل زوجة الأستاذ: «وماذا عن أطفالك؟» وتنفّستُ بعمق. ذلك أن كلمات السيّدة «سوان» تلك التي كانت تبرهن لي أنني أستطيع زيارة «جيلبيرت» حينما أشاء إنّما كانت توفّر لي بالضبط الفائدة التي جئت أبحث عنها والتي كانت تجعل زياراتي للسيّدة «سوان» في تلك الفترة ضرورية جدّاً. ثم أضفت بمظهر من يعزو انفصالنا لسبب غامض، الأمر الذي لا يزال يبعث فيّ توهّماً بالحبّ تغذّيه كذلك الطريقة الرقيقة التي كنت أتحدّث بها عن «جيلبيرت» وتتحدّث عني: «لا، سأسطّر لها كلمة هذا المساء. وعلى أيّة حال لا نستطيع أن نتلاقى من بعد أنا و«جيلبيرت». وتقول السيّدة «سوان»: «تعلم أنّها تحبّك إلى ما لا حدود. أحقّاً لست تريد غداً؟» وفجأة يأخذني الابتهاج إذ أقول في نفسي: «ولكن لم لا أفعل ذلك بما أن والدتها نفسها تعرضه عليّ؟» غير أني أعود في الحال لأغرق في كآبتي. لقد خشيت أن تحسب «جيلبيرت»، إذ تراني، أن لا مبالاتي في هذه الفترة الأخيرة كانت من قبيل التظاهر وفضّلت مدّ فترة الانفصال. وكانت السيّدة «بونتان» في أثناء تلك الأحاديث الذاتية تشتكي من الإزعاج الذي تسبّبه لها نساء السياسيّين، فقد كانت تتظاهر بأنها تجد جميع الناس مملّين ومضحكين وأنها مغتمّة لموقف زوجها. كانت تقول للسيّدة «كوتار» التي كانت على العكس في ما يخصّها تفيض عطفاً على كلّ واحد واحتراماً حيال جميع الالتزامات:

- «تستطيعين هكذا إذن استقبال خمسين امرأة على التوالي؛ آه، إنك لعلى القدر من قوّة الشكيمة. أمّا أنا، في الوزارة، فإني بالطبع مضطرّة. ولكنّ الأمر يفوق قواي، لو تدرين، مع نساء الموظفين أولئك فلا أستطيع

حجب النفس عن الهزء بهنّ. و«ألبيرتين» ابنة أخي هي على ما أنا. ولست تعلمين أيّ حد تبلغ في وقاحتها تلك الصغيرة. فقد كان في يوم استقبالي في الأسبوع الماضي زوجة معاون الأمين العام لشؤون الاقتصاد التي كانت تقول إنها لا تفقه شيئاً في أمور الطبخ فأجابتها ابنة أخي بأكثر ابتساماتها سحراً قائلة: «ولكن يجدر بك يا سيّدتي أن تكوني ملمّة بالأمر بما أن والدك كان طاهياً».

وتقول السيّدة «سوان»: «أوه، إني أحبّ كثيراً هذه القصّة وأجدها لذيذة». ثم تشير على السيّدة «كوتار» بقولها: «ينبغي لك على الأقلّ في أيام استشارات الدكتور أن توفّري لنفسك عشاً صغيراً إلى جانب أزهارك وكتبك والأشياء التي تحبّينها».

- «هكذا، كصفعة على وجهها، ولم تستشرها في الأمر. لم يسبق لها أن أنبأتني بشيء من ذلك، تلك المراوغة الصغيرة، فهي ماكرة كالقردة. إنّك محظوظة إذ تستطيعين تمالك نفسك وإني أحسد الناس الذين يعلمون كيف يخفون تفكيرهم».

وتجيب السيّدة «كوتار» بلطف: «ولكن لا حاجة بي لذلك، فلست متصنّعة إلى هذا الحدّ». ثم تضيف بصوت أكثر ارتفاعاً حتى كانت تلجأ إليه كيما تشير، في كلّ مرّة تدسّ في الحديث واحدة من تلك المجاملات الرقيقة والتقريظ الحاذق مما يثير إعجاب زوجها ويعينه في أعماله: «فليس لي بادئ الأمر مالك من حقوق، ثم إني أفعل بسرور كلّ ما من شأنه أن يفيد الأستاذ».

- «لكن، ينبغي أن نتمكّن من ذلك يا سيّدتي. لستِ على الأرجح عصبيّة. أمّا أنا فحينما أرى امرأة وزير الدفاع تتصنّع في حركاتها فإني أشرع في الحال في تقليدها. ما أقسى أن يكون المرء بمثل هذا المزاج!».

وقالت السيّدة «كوتار»: «أجل، لقد سمعت من يقول إن لها عادات مستهجنة؛ إن زوجي يعرف كذلك واحداً عالي المكانة، ومن الطبيعي حينما يتحدّث هؤلاء السادة فيما بينهم...».

- «ولكن خذي مثالاً على ذلك رئيس التشريفات الأحدب، يا سيدتي، فالأمر مفروغ منه: ما إن تنقضي خمس دقائق على وصوله إلى بيتي حتى أبادر إلى وضع اليد على حدبته. يقول زوجي إنّني سأحملهم على عزله من الوظيفة. ألا بئست الوزارة، أجل بئست الوزارة! كنت أبغي وضع تلك بمثابة شعار على ورق رسائلي. إني متأكّدة من أني أثير استنكارك لأنك طيّبة، أما أنا فأقرّ أن لا شيء يسلّيني كما تفعل الإساءات الصغيرة، فبدونها تبدو الحياة شديدة الرتابة».

كانت توالي الحديث كل وقت عن الوزارة كما لو أنها مقر «الأولمبوس». والتفتت السيّدة «سوان» إلى السيّدة «كوتار» بغية تبديل الحديث وقالت:

- «ولكنك تبدين لي شديدة الجمال؟ فهل صَنَعَ ذلك «ريد فيرن»[1]؟

- «لا، تعلمين أنني من المتحمّسات لِ«رود نيتز». إنها على أيّة حال «تصليحة».

- «ولكنّها على جانب من الأناقة!».

- «كم تظنّين تساوي؟. لا، بدّلي الرقم الأوّل».

- «كيف ذلك، هذا ثمن زهيد جدّاً، إنّها عطيّة لقد قيل لي ثلاثة أمثال هذه القيمة».

- «كذلك يُكتب التاريخ»، تقول زوجة الدكتور مستخلصة. ثم تُري السيّدة «سوان» قلادة سبق أن أهدتها إيّاها هذه الأخيرة:

- «انظري يا أوديت. هل عرفتها؟».

ويطلع من شقّ ستارة رأس يتصنّع الاحترام ويتظاهر عن مزاح بخشية الإزعاج: وكان «سوان». «أوديت، إن أمير «أغريجانت» معي في حجرتي وهو يسأل إن كان يستطيع المجيء لتقديم احترامه. فبِمَ ينبغي أن أجيبه؟» وتقول «أوديت» راضية ودون أن تتخلّى عن هدوء كان سهلاً عليها بمقدار

(١) وردت العبارة بالاتينية للإشارة إلى تصنع الثقافة (*Redfern fecit*).

ما سبق لها على الدوام، حتى بوصفها من بنات الهوى أن استقبلت رجالاً أنيقين: «بأنني سأكون في أشد الغبطة». ويمضي «سوان» لنقل الإذن ثم يعود بالقرب من زوجته يصحبه الأمير، إلا إذا دخلت في تلك الأثناء السيّدة «فيردوران».

كان قد طلب إلى «أوديت» حينما تزوّجها ألّا تتردّد من بعد على العشيرة الصغيرة (وقد تجمع لديه لذلك الكثير من الأسباب، ولعله مع ذلك يفعل، إن يتيسّر له شيء منها، امتثالاً لقانون في العقول لا يحتمل شذوذاً، قانون يُبرز لا تبصر القوّادين جميعهم أو تجردهم) لقد سمح أن تتبادل «أوديت» والسيّدة «فيردوران» زيارتين في العام فحسب، الأمر الذي كان لا يزال يبدو مغالى فيه في نظر الخُلّص الذين أثارت سخطهم الإهانة الموجّهة «لربّة البيت» التي عاملت «أوديت» وحتى «سوان» على مدى سنوات كثيرة بمثابة الولدين المفضلين في البيت. فلئن ضمّت الجماعة الصغيرة إخوة مدالسين يهجرونها في بعض العشيّات لتلبية دعوة لِ«أوديت» دون التصريح بذلك وهم على استعداد إمّا كشفوا أن يجدوا العذر في فضولهم للقاء «بيرغوت» (مع أنّ ربّة البيت تدّعي أنّه لا يتردّد على منزل عائلة «سوان» وأنّه خلو من الموهبة وأنها على الرغم من ذلك تحاول، حسب عبارة عزيزة على قلبها، أن تجتذبه)، فقد كان لها كذلك «متطرّفوها». ولعلّهم كانوا يأملون، وهم على جهل بالميول الخاصّة التي غالباً ما تثني الناس عن الموقف المتطرّف الذي يُراد لهم أن يتّخذوه لإزعاج أحدهم، فلم يفلحوا في حمل السيّدة «فيردوران» على قطع جميع علاقاتها بِـ«أوديت» فتحرمها بذلك غبطة أن تقول ضاحكة: «نادراً ما نذهب إلى منزل «ربّة البيت» منذ الانشقاق. كان ذلك ممكناً بعد حينما كان زوجي عازباً، ولكنّ الأمر ليس يسيراً جداً على الدوام بالنسبة إلى زوجين. والسيّد «سوان»، إن كان لا بدّ من الحقيقة، لا يهضم العمّة «فيردوران» ولا يقدر كثيراً أن أجعل منها عشيرتي المعتادة وأنا الزوجة الأمينة».

كان «سوان» يرافق زوجته إلى هناك ولكنّه في السهرة يتجنّب الحضور حينما تأتي السيّدة «فيردوران» في زيارة لِـ«أوديت». ولذلك كان أمير «أغريجانت» يدخل وحده إن كانت «ربّة البيت» في الصالة. وهو الوحيد على أيّة حال الذي تُعَرِّفُ به «أوديت» التي كانت تفضّل ألّا تَسْمَعَ السيّدة «فيردوران» أسماء مغمورة وأن يمكنها الظنّ، إذ ترى أكثر من وجه لا تعرفه، أنها وسط أعيان من الأرستقراطيّين، وكانت الخطّة ناجحة إلى حدّ أن السيّدة «فيردوران» كانت تقول باشمئزاز لزوجها في المساء: «ما أروعه وسطاً! كان هنالك كامل صفوة الرجعيّة!» كانت «أوديت» تعيش في وهم معاكس في ما يخصّ السيّدة «فيردوران»، لا لأنّ ذلك المنتدى أخذ آنذاك فقط في التحوّل إلى ما سوف نراه يضحي ذات يوم، فلم تكن السيّدة «فيردوران» قد بلغت بعد فترة الحصانة التي توقف فيها الاحتفالات الكبرى حيث تُغْرَقُ في جمهرة الرعاع العناصر القليلة اللامعة ممن تمّ اكتسابها منذ قليل، الفترة التي تفضّلون فيها انتظار أن تكون القدرة المولِّدة التي يتمتّع بها العشرة الصالحون الذين أفلحوا في اجتذابهم قد أنتجت سبعين مرّة عشر مرّات. كانت السيّدة «فيردوران» قد وضعت «المجتمع الراقي» بالتأكيد هدفاً لها، مثلما لن تتوانى «أوديت» عن القيام به، ولكنّ مناطق هجومها لا تزال محدودة جدّاً وبعيدة جداً على أي حال عن تلك التي ربّما تيسّر لِـ«أوديت» بعض الحظّ في بلوغ نتيجة مماثلة والتماع نجمها عن طريقها إلى حدّ أنّ هذه الأخيرة كانت تعيش في أتمّ الجهل بالخطط الاستراتيجية التي كانت تضعها «ربّة البيت». كانت «أوديت» تأخذ بالضحك بأسلم ما تكون النيّات حينما يحدّثونها عن السيّدة «فيردوران» وكأنّما عن إحدى المتحذلقات، وتقول: «الأمر بخلاف ذلك تماماً فإنها بادئ الأمر لا تملك مقوّمات ذلك إذ هي لا تعرف أحداً. ثم لا بدّ أن ننصفها بقولنا إن الأمر يروقها على هذا النحو. لا، إنّما أيّام أربعائها ما تحبّ هم المحدّثون الممتعون». وكانت تحسد السيّدة «فيردوران» في السّر على تلك الفنون (مع أنّها لا تفقد الأمل أن تكون تعلّمتها في النهاية

بتلمذها في مدرسة مرموقة إلى هذا الحدّ)، تلك الفنون التي تعلّق عليها «ربّة البيت» أهميّة عظيمة مع أنّها تعمل فحسب على تلوين اللا موجود وصقل فراغ وهي بحصر المعنى فنون العدم: كالفنّ (الذي لدى ربّة المنزل) القائم على إجادة «الجمع» والإحاطة «بالتكتل» و«الإبراز» و«الاحتجاب» والقيام بدور «صلة الوصل».

ومهما يكن من أمر فقد كان يؤثّر في صديقات السيّدة «سوان» أن يبصرن في منزلها امرأة لا يتمثّلنها عادة إلا في صالتها الخاصّة يحيط بها في إطار من المدعوين لا ينفصل عنها، ومن حولها فرقة صغيرة كاملة يُدْهشُك أن تراها على هذا النحو يُذكّرُ بها وتُخْتَصَرُ وتَتَراصّ في كنبة واحدة تحت أعراض «ربّة البيت» التي أضحت زائرة في دفء معطفها المبطّن بزغب الطير وهو في مثل نعومة الفراء البيضاء التي تغطّي هذه الصالة حيث تبدو السيّدة «فيردوران» نفسها صالة أخرى. كانت أكثر النسوة وجلاً يبغين الانسحاب بداعي التحفّظ ويقلن وهنّ يلجأن إلى صيغة الجمع شأن من يبغي إفهام الآخرين إنّه من الحكمة أن لا نبالغ في إرهاق امرأة في طور النقاهة تغادر فراشها للمرّة الأولى: «سوف نترككم يا «أوديت»». كنّ يحسدن السيّدة «كوتار» التي تدعوها «ربّة البيت» باسمها وكانت السيّدة «فيردوران» تقول لها، إذ هي لا تستطيع احتمال أن تظلّ واحدة من الخلّص هنا بدلاً من أن تتبعها: «هل لي أن أخطفك؟» – «ولكنّ سيّدتي سوف تتلطّف بإعادتي»، تقول السيّدة «كوتار» إذ لا تريد أن يبدو عليها أنّها تنسى، لصالح شخصيّة أوفر شهرة، أنها قبلت العرض الذي تقدّمت به السيّدة «بونتان» لإعادتها في عربتها الرسميّة». «وأقرّ أنّي مدينة بوجه خاصّ للصديقات اللواتي يتفضّلن باصطحابي في عربتهنّ. إنّه لحظّ حقيقي بالنسبة إلى من لا تملك عربة مثلي». وتجيب «ربّة البيت» قائلة (ولا تجرؤ أن تقول شيئاً لأنّها على معرفة يسيرة بالسيّدة «بونتان» وقد دعتها منذ قليل إلى أيّام أربعائها): «ولا سيّما أنّك لست قريبة من منزلك لدى السيّدة «دو كريسّي». آه! يا إلهي، لن أفلح قطّ في أن أقول السيّدة

«سوان». كان ذلك مزاحاً في العشيرة الصغيرة بالنسبة إلى جماعة لا تتمتّع بذكاء كبير أن يتظاهر المرء بأنّه لا يستطيع تعوّد أن يقول السيّدة «سوان»: «لقد طالما تعوّدت أن أقول السيّدة «دو كريسّي» حتى كدت أخطئ مرّة أخرى». وحدها السيّدة «فيردوران» لم تكن في حديثها مع «أوديت» توشك أن تخطئ بل هي تخطئ عن قصد «أليس يخيفك يا «أوديت» أن تقطني هذا الحيّ المنعزل؟ يبدو لي أنني لن أكون على اطمئنان تام للعودة في المساء ثمّ إن الطقس بالغ الرطوبة ولا بدّ أن ذلك لا يلائم الإكزيما التي يعاني منها زوجك ليس عندكم جرذان على الأقل؟» - «لا! يا للهول!» - «لحسن حظّكم، فقد سبق أن قِيل لي ذلك. يسعدني أن أعلم أنّ الأمر غير صحيح لأنّها تبعث فيّ خوفاً رهيباً وأنني ما كنت لأعود إلى بيتكم إلى اللقاء يا عزيزتي الطيّبة، إلى لقاء قريب. تعلمين كم أسعد بمشاهدتك».

ثمّ تقول وهي ذاهبة، وفيما تنهض السيّدة «سوان» لتشيّعها: «لا تعرفين أن ترتّبي الأقاحي. تلك أزهار يابانية وينبغي ترتيبها مثلما يفعل اليابانيون». وتلعن السيّدة «كوتار» بعدما أغلقت «ربّة البيت» الباب: «لست أرى ما ترى السيّدة «فيردوران» مع أنّها الوصايا والأنبياء في جميع الأمور بالنسبة إليّ. ليس من يستطيع غيرك يا «أوديت» أن يلقى أقحواناً جميلاً إلى هذا الحدّ، أو بالأحرى جميلة، إذ يبدو أن ذلك ما يقولون الآن». وتجيب السيّدة «سوان» بهدوء قائلة: «إن السيّدة «فيردوران» العزيزة ليست على الدوام شديدة الرفق بأزهار الآخرين». وتسأل السيّدة «كوتار» كي لا تدع للانتقادات الموجهة إلى «ربّة البيت» أن تطول: «أزهار من تزرعين يا «أوديت»؟

«لوميتر»؟ إني أعترف أنّه كان ثمة أمام دكّان «لوميتر» في ذلك اليوم شجرة ورديّة كبيرة حملتني على إتيان عمل جنوني». ولكنّها امتنعت بالقول إنّ الأستاذ «الذي ليس سريع الغضب» قد بادر ينتضي سيفه وقال إنّها لا تدرك قيمة المال. «لا، لا، ليس لديّ بائع زهور معتاد سوى «دوباك»». وتقول السيّدة «كوتار»: وأنا كذلك، ولكني أقرّ بأنّي أخونه مع «لاشوم».

وتجيب «أوديت»: «آه! تخونينه مع «لاشوم»؟ سوف أقول له ذلك»، وهي تجهد أن تبرز روح النكتة لديها وأن تدير الحديث في منزلها حيث تشعر أنّها أكثر ارتياحاً منها في العشيرة الصغيرة، «لقد أضحى «لاشوم» على أيّة حال غالي الثمن بالحقيقة. إن أثمانه، لو تدرين، باهظة. وتضيف ضاحكة «إني أجد أثمانه غير محتشمة».

وفي تلك الأثناء كانت السيّدة «بونتان» تدرس، بعدما قالت مئة مرة إنها لا تودّ الذهاب إلى منزل «الفيردوران»، تدرس وقد خلب لبّها أنها دعيت إلى أيام الأربعاء كيف تستطيع الذهاب إلى هنالك أكبر عدد ممكن من المرّات. وكانت تجهل ما تتمنّى السيّدة «فيردوران» من أن لا يتمّ تفويت أيّ منها. ثم إنها كانت من جهة أخرى في عداد أولئك الأشخاص غير المرغوب فيهم كثيراً الذين إن تدعهم ربّة المنزل إلى «مجموعات مسلسلة» من الدعوات لا يمضوا إلى منزلها على غرار الذين يحسنون مكارمة الغير على الدوام حينما يتّسع لهم الوقت وتتّفق لهم الرغبة في ذلك، بل هم على العكس يحرمون أنفسهم على سبيل المثال الأمسيتين الأولى والثالثة، وفي ظنّهم أن غيابهمتتمّ ملاحظته،. ويحتفظون لأنفسهم بالثانية والرابعة، إلّا إذا اتّبعوا ترتيباً معاكساً، بعد ما لهم معلوماتهم على أن الثالثة سوف تكون راقية على نحو خاصّ، متذرّعين «بأنهم كانوا لسوء الحظ يرتبطون بمواعيد في المرّة الأخيرة». كذلك كانت السيّدة «بونتان» تخمّن كم لا يزال لديها ايام أربعاء ممكنة قبل الفصح بأيّة طريقة ستفلح في كسب يوم إضافي دون أن يبدو مع ذلك تفرض نفسها. كانت تتكّل على السيّدة «كوتار» التي كانت تزمع العودة معها كيما تزوّدها ببعضالإشارات. «أوه! أرى أنّك تنهضين يا سيّدة «بونتان»، وإنّه من السوء بمكان أن تعطي هكذا إشارة الهرب. أنت مدينة لي بتعويض لأنك لم تجيئي نهار الخميس الماضي. هيّا اجلسي بعدُ لحظة، فلن تقومي بزيارة اخرى قبل الغداء». وتضيف السيدة «سوان»: «ألن تدعي حقاً لنفسك أن تكون ضحيّة الإغراء؟» وتتابع وهي تمدّ صحناً من الحلوى: «ليست هذه الأقذار

الصغيرة سيئة على الإطلاق كما تعلمين. إن شكلها لا يوحي بذلك، ولكن تذوّقيها ثم حدّثيني عن أخبارها». فاجابت السيّدة «كوتار» قائلة: «إنّها تبدو على العكس لذيذة، وفي منزلك لا تعوزنا المأكولات البتّة لست بحاجة إلى أن أسألك عن علامة المصنع فإني أعلم أنّك تجلبين كلّ شيء من عند «روباتيه». ولا بدّ أن أقول إنّني أكثر ميلاً إلى الاصطفاء، فإني أتّجه في الغالب إلى «بوربونّو» في ما يخصّ المعجنات الجافّة وجميع أنواع الحلوى. ولكنّي أعترف أنّهم لا يعرفون أيّ شيء هي «البوظة»، أمّا روباتيه» فهو قمّة الصنعة في كلّ ما يخص «البوظة» والمثلّجات ومرق السمك. إنه «غاية الفن» حسبما يقول زوجي» - «ولكنّ كلّ ذلك قد صُنع هنا. أحقّاً لا تريدين؟» وكانت السيّدة «بونتان» تجيب قائلة: «لن أستطيع تناول طعام الغداء، ولكنّي أعود إلى الجلوس لحظة. تدرين، أنا أعشق التحدّث إلى امرأة ذكية مثلك».

«سوف تجدينني فضوليّة يا «أوديت»، ولكنّي وددت أن أعلم رأيك في القبّعة التي كانت تضعها السيّدة «ترومبير». أعلم تماماً أن الأزياء تتّجه الآن إلى القبّعات الكبيرة. ولكن أليس ثمّة مبالغة قليلة؟ إن التي كانت تعتمرها منذ قليل متناهية الصّغر في مقابل تلك التي جاءت بها إلى منزلي في ذلك اليوم». وتقول «أوديت»: «لا، لست ذكيّة»، وتحسب أنها بذلك تحسن صنعاً. «إني في الأساس ساذجة تصدّق كلّ ما يقال لها وتغتمّ لأتفه أمر». وكانت تلمّح إلى أنّها عانت كثيراً في البداية من أنّها تزوّجت رجلاً من أمثال «سوان» كان له حياته الخاصّة وكان يخدعها. وإذ سمع أمير «أغريجانت» عبارة «لست ذكيّة» فقد رأى من واجبه أن يحتجّ ولكنه لم يكن يتميّز بحضور البديهة». وكانت السيّدة «بونتان» تصرخ قائلة: «تارا تاتا، لستِ ذكيّة أنت!» ويقول الأمير وهو يمسك بهذه الخشبة الممدودة: «كنت بالحقيقة أقول في نفسي: «ماذا أسمع؟ لا بدّ أنّ أذني خدعتني». وتقول «أوديت»: «لا، بالتأكيد، إني في الأساس بورجوازيّة صغيرة شديدة التأذّي كثيرة التحيّز في مواقفها تعيش داخل جحرها وهي على وجه الخصوص

شديدة الجهل». ثم تقول له لتسأله أخبار البارون «دو شارلوس»: «هل رأيت البارون الصغير العزيز؟» وتصيح السيّدة «بونتان» قائلة: «جاهلة أنت! إذن ماذا عساك تقولين عن دنيا الرسميين، عن زوجات أصحاب المعالي كافّة اللواتي لا يُحْسِنَّ التحدّث إلّا عن الخرق!. خذي مثلاً، يا سيّدتي، منذ ما لا يزيد عن ثمانية أيّام أفتح أمام وزيرة التعليم العامّ سيرة «لوهنغرين»، فتجيبني: «لوهنغرين؟ آه! أجل، الاستعراض الأخير في ملهى «الفولي بيرجير»، يبدو أنّه مضحك إلى أبعد حدّ». حسن، ماذا عساك تفعلين يا سيّدتي، حينما تسمعين أموراً من هذا القبيل فإن دمك يغلي، لقد داخلتني الرغبة في أن أصفعها؛ لأن لي طباعي الخاصّة كما تعلمين». ثمّ تقول وهي تلتفت إليّ: «قل، يا سيّدي، ألستُ على حقّ؟» وتقول السيّدة «كوتار»: «اسمعي، للمرء عذره أن يجيب بعكس المطلوب إلى حدّ ما حينما يوجّه إليه السؤال على حين غرّة ودون إنذار مسبق. لقد خبرت ذلك، إذ إنّ السيّدة «فيردوران» تعوّدت هكذا أن تضع السكّين على عنقنا». وتسأل السيّدة «بونتان» السيّدة «كوتار» قائلة «هل تعلمين، إذ نحن بصدد السيّدة «فيردوران»، من سيكون في منزلها نهار الأربعاء؟ آه! أتذكّر الآن أنّنا قبلنا دعوة لنهار الأربعاء القادم. ألا تتفضّلين بتناول طعام الغداء معنا نهار الأربعاء الذي يليه؟ ثمّ نذهب سويّة إلى منزل السيّدة «فيردوران». يرهبني أن أدخل وحدي، ولست أعلم لماذا تبعث فيّ هذه المرأة الراقية الخشية على الدوام». وتجيب السيّدة «كوتار»: «سأقول لك، إن ما يثير فيك الرعب لدى السيّدة «فيردوران» إنّما هو صوتها. ما عساك تبغين؟ ليس يملك جميع الناس صوتاً في مثل حلاوة صوت السيّدة «سوان». ولكن ما إن يتعوّد اللسان، كما تقول «ربّة البيت»، حتى يذوب الجليد في الحال. فإنّها في الأساس جيّدة الوفادة إلى حدّ بعيد. ولكني أفهم تماماً إحساسك، فليس يروقُكَ البتّة أن تجد نفسك للمرّة الأولى في بلاد قصيّة». وكانت السيّدة «بونتان» تقول للسيّدة «سوان»: «بوسعك كذلك تناول طعام الغداء معنا. ثم نذهب بعد الغداء سويّة لارتياد منازل «الفيردوران» بوصفنا من

«الفيردوران». وحتى لو ترتب على ذلك أن تنظر إليّ «ربّة البيت» شزراً ولا تدعوني من بعد، فما إن نصل إلى بيتها حتى نظلّ ثلاثتنا في حديث فيما بيننا، وأحسّ أنّ ذلك ما سيسلّيني أكثر ما يسلّي». على أنّ هذا التوكيد كان ينبغي ألّا يكون حقيقيّاً جدّاً، إذ كانت السيّدة «بونتان» تسأل قائلة: «من تحسبين سيكون هنالك نهار الأربعاء الذي يلي الأربعاء القادم؟ وما الذي سيحدث؟ لن يكون هنالك عدد كبير من الناس على الأقلّ؟» وتقول «أوديت»: «أمّا أنا فلن أذهب بالتأكيد. ولن نحضر إلّا لوقت قصير في الأربعاء الأخير. فإن كان سيّان لديك الانتظار حتى ذاك». إلّا أنّه لم يبدُ أن عرض التأجيل هذا قد فتن فؤاد السيّدة «بونتان».

ومع أنّ المزايا الروحيّة لأحد المنتديات وأناقته إنّما تأتي بعامّة بنسب معكوسة أكثر منها نسباً مباشرة، فلا بدّ من الاعتقاد، بما أن «سوان» كان يجد السيّدة «بونتان» محبّبة إليه، بأنّ كلّ انحطاط يُسَلَّم به إنّما يستتبع جعل الناس أقلّ تشدّداً مع أولئك الذين ارتضوا أن يأنسوا بهم، أقلّ تشدّداً في ما يخصّ ذكاءهم وكل ما تبقّى على السواء. ولا بدّ إن صحّ ذلك أن يشهد الناس، ومثلهم الشعوب، زوال ثقافتهم وحتى لغتهم بزوال استقلالهم. وإنّ من بين آثار ذلك التسامح تفاقم النزعة التي توافينا بعد سنّ معيّنة في أن نجد متعة في الأقوال التي تؤلّف ثناء على اتّجاهنا الفكريّ الخاصّ وعلى ميولنا وتشجّعنا على الانسياق خلفها. تلك السنّ هي السنّ التي يفضّل فيها فنّان كبير على عشرة النوابغ الأصليين عشرة تلاميذ لا يجمعه بهم سوى حرف تعاليمه وهم يبخّرونه ويصغون إليه، وتلك التي يجد فيها رجل وامرأة مرموقان يعيشان لحبّ ما أن أذكى شخص في اجتماع ربّما كان الشخص الأدنى، إلا أنّ جملة قالها قد أبرزت أنّه يستطيع إدراك معنى الحياة المكرسة للحبّ وإقرار ذلك فيدغدغ على هذا النحو النزعة الشهوانيّة لدى العاشق أو العاشقة. ولقد كانت كذلك السنّ التي كان يروق فيها لِ«سوان»، بعدما أضحى زوجاً لِ«أوديت»، أن يسمع السيّدة «بونتان» تقول إنّه من المضحك ألّا يستقبل المرء سوى دوقات (ويستخلص من ذلك،

بخلاف ما ربّما فعله فيما مضى لدى آل «الفيردوران»، أنها امرأة طيّبة شديدة الذكاء وغير متحذلقة) وأن يروي لها حكايات تُضْحِكها إضحاكاً شديداً لأنّها لا تعرفها، ولكنّها تدركها بسرعة إذ تحبّ التملّق والتسلية.

وكانت السيّدة «سوان» تسأل السيّدة «كوتار» قائلة: «الدكتور إذن لا يهيم مثلك بالزهور؟».

- «أوه! تعلمين أن زوجي حكيم، فهو معتدل في كل شيء بلى، إنّ له مع ذلك هوى واحداً». وتسأل السيّدة «بونتان»، والعين تلتمع سوء نيّة وفرحاً وفضولاً: «وأيّ هوى يا سيّدتي؟» وتجيب السيّدة «كوتار» ببساطة: «القراءة» فتصرخ السيّدة «بونتان» وهي تكتم ضحكة شيطانية: «أوه! إنّه هوى لدى الأزواج لا يورث المتاعب!» - «حينما يغوص الدكتور في كتاب، أنت أدرى!» - «حسن، ينبغي ألا يخيفك الأمر كثيراً يا سيّدتي».

«بلى! في ما يتعلّق ببصره إني ذاهبة لملاقاته يا «أوديت» وسأعود في أوّل يوم لأقرع بابك وهل قِيل لك، إذ نحن بصدد البصر، أنّ الفندق الخاصّ الذي اشترته السيّدة «فيردوران» منذ وقت قصير سوف ينار بالكهرباء؟ والأمر لم يردني من شرطتي الخاصّة، بل من مصدر آخر: إنّه الكهربائي «ميدليه» بذاته الذي نقل إليّ ذلك، ترين أنني أستشهد بمُخْبِرِيّ! حتى حجرات النوم سوف توفّر لها مصابيحها الكهربائية بعاكس ضوئيّ يلطف النور. ذلك بالطبع ترف رائع. ونساؤنا المعاصرات على أية حال يطلبن الجديد بإصرار حتى لو لم يظل جديد في العالم. ثمة شقيقة زوج إحدى صديقاتي تملك الهاتف في منزلها! وبوسعها أن توصي على حاجاتها لدى أحد الباعة دون أن تغادر شقتها! وأعترف أني لجأت إلى أتفه الأساليب كي يؤذن لي أنني لا أود امتلاك هاتف في بيتي، فلا بدّ أن يضحي، بعد انقضاء الفرحة الأولى، مصدر إزعاج أكيداً. ها إني أنجو بنفسي يا «أوديت»، فلا تحتجزي السيّدة «بونتان» من بعد ما أنها تتكفل بي، إذ لا بدّ لي حتماً من مغادرة المكان، إنك تحملينني على إتيان رائع الأعمال، فسوف تتم عودتي بعد وصول زوجي!».

كان لا بدّ لي أنا الآخر أن أعود قبلما أتذوق متع الشتاء تلك التي بدت لي أزهار الأقحوان وكأنها غلافها المتألق. لم تكن تلك المتع قد حلتْ بعد ولم يبدُ مع ذلك أن السيّدة «سوان» ستتوقع أمراً ما. فقد تركت الخدم يرفعون الشاي كما لو أنها تعلن قائلة: «حان الإغلاق»! إلى أن تقول لي في النهاية: «أأنت ذاهب حقاً؟ إذن إلى اللقاء»! كنت أحسّ أنه كان بإمكاني البقاء دون ملاقاة هذه المتع المجهولة وأن كآبتي لم تقم وحدها بحرماني منها. أفما كانت واقعة على تلك الطريق التي ترتادها الساعات المؤدية دوماً على جناح السرعة إلى لحظة المغادرة، بل على درب مختصر أجهله وكان عليّ أن أنعطف فيه؟ بيد أن هدف زيارتي قد تمّ بلوغه على الأقل، فسوف تعلم «جيلبيرت» أنني جئت إلى منزل ذويها عندما لم تكن هناك. (وكانت زوجة الدكتور تضيف قولها، ولم يسبق لها أن رأتها تبذل هذا المقدار من الجهد: «لا بدَّ أن تمتلكا سوية مزايا مشتركة»). سوف تعلم أنني تحدثت عنها كما كان يجدر بي أن أفعل، بحنان، لكنّما لم يكن بي ذلك العجز عن العيش دون أن يرى أحدنا الآخر والذي كنت أظنه في أساس الملل الذي أحسّت به في هذه الفترة الأخيرة بالقرب مني. لقد قلت للسيدة «سوان» إنني لن أستطيع لقاء «جيلبيرت» من بعد. وقلت ذلك كما لو قررت ألا أراها من بعد إلى الأبد. والرسالة التي كنت أزمع إرسالها لِـ«جيلبيرت» سوف تصاغ بالمعنى نفسه. ولكني ما كنت أضع نصب عيني، كيما أزود نفسي بالشجاعة، سوى جهد أخير ويسير يمتد أياماً قليلة. وكنت أقول في نفسي: «إنه آخر موعد لها أرفضه وسأقبل بالتالي». وكيما يبدو لي الانفصال أقل عسراً في التحقيق لم أكن أتصوره نهائياً؛ ولكني أحس تمام الإحساس أنه كذلك.

وقد جاء الأوّل من كانون الثاني مؤلماً بوجه خاص بالنسبة إليّ في ذلك العام. كل شيء لا شك مؤلم، عندما يكون المرء تعيساً، إن برز بمثابة حدث تاريخيّ وذكرى. فلئن كان على سبيل المثال من جراء فقدان شخص عزيز فإنما يقوم العذاب حصراً في مقارنة بالماضي أوفر حيوية.

وكان ينضاف إلى ذلك في حالتي الخاصة الأمل الخفيّ بأن «جيلبيرت»، بعدما أرادت أن تدع لي المبادرة في اتخاذ الخطوات الأولى ولاحظت أني لم أقم بها، لم تنتظر سوى ذريعة الأول من كانون الثاني كي تكتب إليّ: «ولكن ما الخبر؟ إني أهيم بك، فتعال كي نتفاهم بصراحة فلست أطيق العيش دون أن أراك».

وبدت لي تلك الرسالة مرجحة منذ أواخر أيام السنة. ولعلها لم تكن كذلك ولكن الرغبة والحاجة التي بنا إليها كافيتان كيما نعتقد أنها كذلك، فالجندي على يقين بأن مهلة قابلة للتمديد إلى ما لا نهاية سوف يُمْنحها قبل أن يُقتل، والسارق قبل أن يقبض عليه، والبشر بعامة قبل أن يكتب لهم الموت. تلك هي التميمة التي تحمي الأفراد - والشعوب أحياناً -، لا من الخطر، بل من خشية الخطر، وفي الواقع من الاعتقاد بالخطر، الأمر الذي يمكّن في بعض الحالات من تحدي المخاطر دونما حاجة إلى شجاعة. إن ثقة من هذا القبيل معدومة الأساس إلى هذا الحد إنما تقوي العاشق الذي يتكل على مصالحة، على رسالة. ولعله كان يكفيني كي لا أنتظرها أن أكون كففت عن تمنيها. ومهما بدا على المرء أنه غير مبالٍ بتلك التي لا يزال يحبها فإنه يحمّلها مجموعة من الأفكار - وإن جاءت من قبيل اللامبالاة - ونيّة في إبرازها وتعقيداً في حياتها الداخلية هو فيها ربما موضوع نفور وكذلك موضوع اهتمام دائم. ولعله ينبغي لي، كيما أتخيّل على العكس ما كان يدور في خلد «جيلبيرت»، أن أستطيع منذ الأول من كانون الثاني هذا أن أستبق فحسب ما لعلّي كنت أحس به في الأول من كانون الثاني من السنوات التالية التي ربما لم ألاحظ فيها اهتمام «جيلبيرت» أو صمتها أو حنانها أو جفاءها والتي ما كنت لأفطن فيها، وحتى لم يسعني أن أفطن فيها إلى البحث عن حل المشكلات التي يكون قد توقف طرحها بالنسبة إليَّ. ذلك أننا حينما نحب يبدو الحب أوسع من أن نحتويه كله فينا، فيشع باتجاه الشخص المحبوب ويلاقي فيه مساحة تستوقفه وتضطره إلى العودة باتجاه نقطة انطلاقه، وإنما ارتداد مودتنا هذا

هو الذي ندعوه مشاعر الآخر وما يفتتنا أكثر من انطلاقه لأننا لا نتعرّف أنه ينبع منا.

ودقت ساعات الأول من كانون الثاني جميعها دون أن تصل رسالة «جيلبيرت» تلك. ولما تلقيت في ٣ و٤ كانون الثاني بعض رسائل التمنيات المتأخرة أو التي أخرها ازدحام البريد في ذلك التاريخ فقد ظل يداهمني الأمل ولكن على نحو أقل فأقل. وبكيت كثيراً في الأيام التي تلت. وكان مرد ذلك بالتأكيد أنني ما كنت أقل صراحة مما ظننت حينما تخليت عن «جيلبيرت» فقد ظللت أحتفظ بأمل رسالة منها بمناسبة العام الجديد. وإذ رأيت ذلك الأمل يُستَنْفد قبل أن يتسع لي الوقت لأحتاط لنفسي بآخر، فقد أخذت أتعذب كمريض أفرغ قارورة المورفين دون أن يكون في حوزته قارورة ثانية. ولكن ربما قرّب فيّ الأمل الذي بي في أن آخذ في النهاية رسالة - ولا يتنافى هذان التفسيران لأن عاطفة واحدة تتألف أحياناً من متناقضات - ربما قرب مني صورة «جيلبيرت» وأعاد تشكيل الانفعالات التي كان يبعثها فيّ بالأمس أمل أن أكون بالقرب منها ورؤيتها وأسلوبها معي. وقد مضى إمكان قيام مصالحة فورية على هذا الأمر الذي لا ننتبه لجسامته، عنينا التسليم. إن مرضى الأعصاب لا يستطيعون تصديق الناس الذين يؤكدون لهم أنهم سينعمون بالهدوء. شيئاً فشيئاً إن ظلوا في سريرهم دون تسلم رسائل ودون قراءة صحف، ويتصورون أن هذا النظام لن يفضي إلا إلى زيادة حدة عصبيتهم. كذلك لا يستطيع العاشقون الاعتقاد بالقوة الخيرة الكامنة في الزهد بالأمور لأنهم ينظرون إليه من صميم حالة مضادة إذا لم يبدؤوا باختباره.

وبسبب عنف دقات قلبي حملوني على تقليل الكافيئين فتوقفت. حينئذ تساءلت إن لم يكن القلق الذي عانيت منه حينما اختصمت تقريباً مع «جيلبيرت» والذي كنت أرده في كل مرة يتجدد فيها إلى العذاب الناجم عن أني لن أرى صديقتي من بعد، أو عن خطر ألا أراها إلا وهي فريسة المزاج المعكر نفسه، تساءلت إن لم يكن ذلك القلق ناجماً عنها. ولكن

إن اتفق لهذا الدواء أن يكون سبباً للآلام التي ربما فسرها خيالي آنذاك تفسيراً كاذباً (الأمر الذي لا تداخله أية غرابة، إذ غالباً ما يكون سبب أكثر الآلام الأدبية قسوة لدى العشاق التعود الجسدي على المرأة التي يعيشون معها) فإنما على غرار شراب الحب الذي يستمر يربط بين «تريستان» و«إيزولت» بعد ابتلاعه بزمن طويل ذلك أن التحسن الجسدي الذي حملته إليَّ الكافيئين في الحال تقريباً لم يوقف تطور الغم الذي إن لم يبعثه ابتلاع المادة السامة فقد أفلح على الأقل في زيادة حدته. ولكن حينما اقترب منتصف شهر كانون الثاني وبعدما خابت آمالي في رسالة بمناسبة رأس السنة وهدأ العذاب الإضافي الذي رافق خيبتها، كان ما عاودني ثانية غمُّ «ما قبل الأعياد». وربما كان أقسى ما فيه أنني كنت بنفسي صانعه الواعي المصمم القاسي الصور. فالشيء الوحيد الذي كان يهمني، أي علاقتي بِـ«جيلبيرت»، إنما كنت أعمل بنفسي على جعلها مستحيلة إذ أخلق شيئاً فشيئاً من جراء الفراق المطوّل لصديقتي، لا قلة اكتراثها، بل قلة اكتراثي، والأمر واحد في نهاية المطاف. وإنما كنت أوالي الجهد في سبيل انتحار الأنا التي تحب «جيلبيرت» في داخلي، انتحار بطيء وقاسٍ، وذلك باستمرار وبوضوح في الرؤية لا يشمل ما كنت أفعله في الوقت الراهن فحسب، بل ما سوف ينتج عنه في المستقبل: فقد كنت أعلم أنني لن أحب «جيلبيرت» بعد مضيّ بعض الوقت، بل إنها سوف تتحسر على ذلك وإن المحاولات التي ستقوم بها آنذاك كيما تراني سوف تكون في عقم محاولات اليوم لا لأنني سأزداد بها حباً، بل لأنني سأحب بالتأكيد امرأة أخرى سوف أقعد في اشتهائها وانتظارها ساعات لا أجرؤ أن أقتطع منها جزءاً صغيراً في سبيل «جيلبيرت» التي لن تؤلف شيئاً من بعد في نظري. وفي هذه اللحظة نفسها التي فقدت فيها «جيلبيرت» (بما أنني كنت عازماً ألا أراها من بعد إلا في حال التماس صريح للمصارحة وبوح شامل بحبها، وهما أمران لم يظل لهما أي نصيب من الحدوث) وازددت حباً بها (فقد أخذت أحس بكل ما تمثله بالنسبة إليّ أفضل من السنة السابقة حينما

كنت أظن، إذ أقضي كامل ساعات ما بعد الظهر معها حسبما كنت أريد، أن لا شيء يهدد صداقتنا)، لا شك أن الفكرة القائلة بأنني سوف أحس ذات يوم بالمشاعر نفسها حيال امرأة أخرى إنما كانت في تلك اللحظة بغيضة عندي لأن تلك الفكرة كانت تسلبني، بالإضافة إلى «جيلبيرت»، حبي وعذابي: حبي وعذابي اللذين كان لا بدّ أن أعترف بصددهما أنهما ليسا أمراً خاصاً بها وسوف يضحيان، عاجلاً أم آجلاً، من نصيب هذه المرأة أو تلك حتى ليبدو المرء دوماً - وكانت تلك على الأقل طريقتي في التفكير آنذاك - متجرداً عن الكائنات: فحينما يحب يحس بأن هذا الحب لا يحمل اسمها ويمكن أن يتجدد في المستقبل، وربما أمكن أن يرى النور في الماضي، من أجل امرأة أخرى لا من أجل تلك؛ وإن هو سلّم فلسفياً، في الوقت الذي لا يحب فيه، بما هنالك من تناقض في الحب، فإنما يعني ذلك أن الحب الذي يتحدث عنه مطمئن البال لا يحس به آنذاك ولا يعرفه إذن، إذ المعرفة في هذه الشؤون متقطعة ولا تبقى عقب الوجود الفعلي للعاطفة. ولعل الوقت كان لا يزال يتسع بالتأكيد لتحذير «جيلبيرت» من أن ذلك المستقبل الذي لن أحبها فيه من بعد، والذي كان عذابي يعينني على استشفافه دون أن يتمكن خيالي بعد من تمثله تمثلاً واضحاً، سوف يتكون شيئاً فشيئاً وأن حلوله أضحى محتماً على الأقل، إن لم يكن وشيكاً، إن لم تهبّ بنفسها، هي «جيلبيرت»، إلى مساعدتي ولم تقضِ على لامبالاتي الآتية في مهدها. وكم من مرة كنت على وشك أن أكتب إلى «جيلبيرت» أو أن أبادر لأقول لها: «احترسي فقد حزمت أمري، إن المسعى الذي أقوم به مسعى نهائي وإني أراك للمرة الأخيرة. عما قليل لن أحبك من بعد» وما نفع ذلك؟ فبأي حق ألوم «جيلبيرت» على لامبالاة كنت أبديها إزاء كل ما عداها دون أن أخالني مذنباً من جراء ذلك؟ المرة الأخيرة! كان يبدو لي، في ما يخصني، أمراً هائلاً لأنني كنت أحب «جيلبيرت» أما في ما يخصها فربما أثّر فيها الأمر بلا ريب بقدر تلك الرسائل التي يطلب فيها أصدقاء المجيء لزيارتنا قبل أن يهجروا الوطن، تلك الزيارة التي

نرفضها كما نفعل مع النساء المملات اللواتي يحببننا لأن ثمّة متعاً تنتظرنا. إن الوقت الذي بحوزتنا في كل يوم مطاط، فالأهواء التي نحس بها تمدده وتلك التي نثيرها في الغير تقلصه، والعادة تملؤه.

ولعلني عبثاً كنت سأتحدث إلى «جيلبيرت»، فما كانت لتسمعني فإننا نتخيل على الدوام حينما نتكلم أن آذاننا وعقلنا هما اللذان يصغيان. وما كانت أقوالي لتصل إلى «جيلبيرت» إلا محرَّفة وكأنما وقع عليها أن تجتاز الستار المتحرك لأحد الشلالات قبلما تصل إلى صديقتي مشوهة المعالم تصدر رنة مضحكة ولم تعد تحمل أيّ معنى. إن الحقيقة التي نضعها في الكلمات لا تشق طريقها مباشرة ولا تتمتع ببداهة لا تُقاوم فلا بدّ من انقضاء زمن كافٍ كيما تستطيع حقيقة من الطراز نفسه أن تتكوّن في صدورهم. حينئذ يشاطر الخصم السياسي الذي كان بعد معتنق العقيدة المضادة خائناً على الرغم من جميع الحجج وجميع البراهين، يشاطر المعتقد المقيت الذي لم يعد يهتم به ذاك الذي كان عبثاً يحاول نشره. حينئذ سيتم الإعلان عن الرائعة التي كانت تبدو في نظر المعجبين الذين يقرؤونها بصوت عالٍ وكأنها تُبرز في ذاتها براهين جودتها ولا تحمل للذين يصغون إليها سوى صورة سخيفة أو ضحلة، سيتم الإعلان عنها أنها رائعة في وقت متأخر جداً حتى يستطيع المؤلف الاطلاع على الأمر. كذلك الحواجز في الحب لا يمكن، مهما فعل المرء، تحطيمها من الخارج على يد ذاك الذي تبعث اليأس في نفسه، فإذا بتلك الحواجز تسقط فجأة، حين لم يعد يهتم بها، من جراء جهد جاء من جهة ثانية وتم في داخل تلك التي لم تكن تحب، إذا بها تسقط دون فائدة وقد هوجمت بالأمس دون جدوى. فلو أنني جئت أعلن لِ«جيلبيرت» عن لامبالاتي الآتية وعن وسيلة تلافيها لاستخلصت من ذلك المسعى أن حبي لها والحاجة التي بي إليها كانا أكثر قوة مما ظننت ولازداد بذلك ضيقها من أنها تراني. وصحيح على أية حال أن ذلك الحب هو الذي كان يعينني، بفضل الحالات الذهنية المختلفة التي يجعلها تتوالى في داخلي، على توقّع نهاية ذلك الحب أفضل

منها. ولعلي ربما وجهت مع ذلك مثل هذا التحذير بالمراسلة أو شفوياً لِ«جيلبيرت» بعدما يمر زمن كافٍ يجعلها بالحقيقة في نظري أقل لزوماً ولكنه استطاع أن يبرهن كذلك أنها لم تكن على تلك الصورة بالنسبة إليّ، بيد أن بعض الأشخاص لسوء الحظ حدثوها عني، بقصد الإحسان أو الإساءة، بطريقة لا بدّ حملتها على الاعتقاد بأنهم إنما يفعلون نزولاً عند رغبتي. وفي كل مرة كان يبلغني هكذا أن «كوتار» وأمي نفسها وحتى السيّد «دو نوربوا» قد جعلوا، من جراء أقوال غير حاذقة، كل التضحية التي أقدمت عليها غير ذات جدوى وأفسدوا كامل نتيجة تحفظي إذ أظهرتني زوراً بمظهر من تُخلِّيَ عنه، كنت أعاني إزعاجاً مزدوجاً. فلم يعد بوسعي بادئ الأمر أن أؤرخ امتناعي الشاق والمثمر الذي قطعه المزعجون على غير علم مني وقضوا عليه بنتيجة ذلك إلا بتاريخ ذاك اليوم. ولعلي كنت إلى ذلك سأصيب متعة أقل في رؤية «جيلبيرت» التي كانت تحسبني الآن لا مسَلِّماً كريماً من بعد، بل أناور في الظلام في سبيل مقابلة أَنِفَتْ أن تمنحني إيّاها. وكنت ألعن تلك الثرثرة الفارغة لأناس يسببون لنا في الغالب، دون أن يقصدوا الإساءة أو إسداء الخدمة وفي سبيل لا شيء لمجرد الكلام، وأحياناً لأننا لم نستطع حجب النفس عن التحدث في حضرتهم وأنهم لا يكتمون سراً (مثلنا)، الكثير من الأذى في الوقت المناسب. صحيح أنهم في العملية المشؤومة التي تتم لتهديم حبنا بعيدون عن أن ينهضوا بدور مساوٍ لشخصين تعودا أن يخربا كل شيء لحظة توشك الأمور أن تتدابر، الأول لفرط في الطيبة والآخر لفرط في الأذية. ولكننا لا نحقد على هذين الشخصين مثل حقدنا على الزوجين المزعجين من آل «كوتار» لأن الآخر هو الشخص الذي نحبه والأول نحن.

وبما أن السيّدة «سوان» كانت تدعوني، في كل مرة تقريباً أذهب فيها لزيارتها، أن أجيء لتناول العصرونية مع ابنتها وتقول لي أن أرد عليها مباشرة، فقد كنت أكتب كثيراً لِ«جيلبيرت» وما كنت أختار في مراسلاتي هذه الجمل التي ربما وسعها فيما يبدو لي أن تقنعها، بل أحاول فحسب

أن أمهد أعذب المجاري لانسياب دموعي. فالأسف، شأن الشوق، لا يحاول تحليل ذاته بل إشباعها. فحينما يأخذ المرء في الحب يقضي الوقت لا في معرفة ماهية حبه بل في إعداد إمكانات اللقاء في الغد. وحينما يتخلى، فإنه يحاول لا معرفة غمه بل أن يقدم عنه لتلك التي هي علته التعبير الذي يبدو من أكثرها رقة. ويقول المرء الأشياء التي يشعر بالحاجة إلى قولها والتي لن يفهمها الآخر فلا يتحدث إلا لنفسه. كنت أكتب مثلاً: «ظننت الأمر غير ممكن، وأرى، واأسفي، أنه ليس عسيراً إلى هذا الحد». وكنت أقول أيضاً: «يُحتمل ألا أراكِ من بعد». أقول ذلك وأنا أوالي الاحتراس من برود ربما استطاعت أن تظنه متكلفاً، وكانت تلك الكلمات تبكيني ساعة أسطرها لأنني كنت أحس أنها تعبر لا عما كنت أود أن أصدقه بل عما سوف يحدث في الواقع إذ سوف تتوافر لي الشجاعة أيضاً، لدى رغبتها المقبلة في اللقاء التي سبتعث بها إلي، كي لا أستسلم، شأني في هذه المرة، ولسوف أصل شيئاً فشيئاً إلى اللحظة التي لن أرغب فيها في مشاهدتها من بعد لكثرة ما لا أراها. وكنت أبكي ولكني أجد الشجاعة وأعرف حلاوة التضحية بسعادة الوجود بالقرب منها في سبيل إمكان أن أحسن في عينيها ذات يوم، ذات يوم يكون سواء فيه عندي، واأسفي، أن أحسن في عينيها. والافتراض نفسه، وهو بعيد الاحتمال، بأنها تحبني في هذه اللحظة مثلما سبق أن ادعت في الزيارة الأخيرة التي قمت بها، وأن ما كنت أحسبه مللاً يحس به المرء بالقرب من فرد سئم منه لم يكن ناجماً إلا عن حساسية غَيْرى وتظاهر باللامبالاة شبيه بما أُبدي، كان ذلك الافتراض يقتصر على التقليل من قسوة مقصدي. كان يبدو لي آنذاك أنها سوف تجيبني، بعد انقضاء بضع سنوات وبعدما يتم لنا أن ينسى واحدنا الآخر وحينما يسعني أن أقول لها بعد الأوان إن هذه الرسالة التي كنت أسطرها لها في هذه اللحظة لم تكن صريحة البتّة، سوف تجيبني قائلة: «ويحك! أكنت تحبني، أنت؟ فلو علمت كم كنت أنتظرها، تلك الرسالة، وكم كنت آمل لقاءك، وكم أبكتني!» وفيما كنت أكتب لها حال

عودتي من لدن والدتها كانت الفكرة التي مفادها أنني كنت ربما آخذاً في ابتلاع سوء التفاهم هذا بالضبط، كانت تلك الفكرة من جراء كآبتها ذاتها ومن جراء متعة تخيلي أن «جيلبيرت» تحبني تدفعني إلى متابعة رسالتي.

ولئن كنت أفكر لحظة مفارقة السيّدة «سوان» ساعة تنتهي حفلة الشاي لديها بما كنت أزمع أن أسطره لابنتها فقد خطرت للسيّدة «كوتار» في ما يخصها أفكار ذات طابع مغاير تماماً وهي تغادر المكان. فلم يفتها وهي تقوم «بجولة تفتيشية بسيطة» أن تهنئ السيّدة «سوان» على الأثاث الجديد وعلى «المقتنيات» الأخيرة التي لاحظتها في الصالة. كان بوسعها أن تلقى بينها على أي حال بعض الحاجات التي كانت تملكها «أوديت» فيما مضى في نزل شارع «لابيروز»، وإن كانت ضئيلة العدد ولا سيما حيواناتها التي من مواد ثمينة ودماها.

ولما تعلّمت السيدة «سوان» من صديق كانت تجلّه لفظة «السواقي» - التي فتحت أمامها آفاقاً جديدة لأنها كانت تشير بالضبط إلى الأشياء التي سبق أن وجدها بالأمس «أنيقة» - فقد اتخذت كل هذه الأشياء على التوالي في اعتزالها الدرب الذي سلكه العريش المذهب الذي كانت تتكئ عليه أزهار الأقحوان والعديد من علب السكاكر من وارد «جيرو» وورق المراسلات ذو التاج (ونُمْسِكُ عن ذكر قطع العملة الكرتونيّة الصفراء المنثورة على صفحات المواقد والتي أشار عليها رجل رفيع الذوق، قبلما عرفت «سوان» بكثير، أن تضحّي بها). كان الشرق الأقصى في جميع الأحوال آخذاً أكثر فأكثر في التراجع أمام غزوة القرن الثامن عشر، وذلك في الفوضى الفنية وفي تراكم المشاغل الذي يسود الحجرات ذات الجدران المطلية بألوان قاتمة تجعلها مختلفة أكثر ما يكون الاختلاف عن الصالات البيضاء التي اتّخذتها السيّدة «سوان» بعد ذلك بقليل؛ ثم إن الوسادات التي كانت السيّدة «سوان» تراكمها وتدعكها خلف ظهري كيما توفر لي راحة أكبر كانت تنتثر فوقها باقات من طراز لويس الخامس عشر لا تنانين صينية شأنها بالأمس. وفي الغرفة التي كنت تجدها أغلب الأحيان فيها والتي

كانت تقول عنها: «أجل، إني أحبها حباً كافياً وأقيم فيها كثيراً ولست أستطيع العيش وسط حاجات عدائية غليظة، فههنا أعمل» (دون أن توضح من ناحية أخرى إن كانت تعمل في لوحة أو ربما في كتاب، إذ أخذ الميل إلى كتابة الكتب يراود النساء اللواتي يحببن القيام بعمل ما وألا يكنّ غير نافعات)، كانت تحيط بها أواني «الساكس» (وهي تحب هذا النوع الأخير من البورسلين الذي تنطق اسمه بنبرة إنكليزية حتى لتقول بشأن كل شيء هذا جميل، إنه قريب الشبه بأزهار من «الساكس»). وكانت تخشى عليها، حتى أكثر مما تخشى بالأمس على قردتها وآنيتها الصينية، من لمسات الخدم الجاهلية، وكانت تجعلهم يكفّرون عن المخاوف التي سببوها لها بفورات غاضبة يشهدها «سوان»، ذاك المولى المهذب واللطيف، دون أن يثور لذلك فإن الرؤية الصافية لبعض مواطن النقص لا تنزع من الحنان شيئاً، وإنما يُبرز هذا الحنان على العكس ظرفها.

وكان يندر الآن أن تستقبل «أوديت» معارفها الحميمين بمباذل يابانية، بل تفعل بالأحرى بمباذل من حرير فاتح الألوان ناعم من طراز «واتو»، كانت تحرك يدها كأنما لتداعب فوق نهديها زركشته الناعمة وتسبح في داخله وترتاح وتمرح بمظهر من الهناء وابتراد الجسم وبأنفاس عميقة حتى ليبدو أنها لم تكن تعده تزيينيّاً على غرار إطار، بل ضرورياً ضرورة الـ«Tub» والـ«Footing»[1] لإرضاء متطلبات وجهها وتأنقها في أمور الصحة وكانت قد تعوّدت أن تقول إنها تتخلى بيسر أكبر عن الخبز منها عن الفن والنظافة وإنها ربما أصابها إن رأت «الجوكونده» تحترق، غم أعمق مما يصيبها باحتراق جموع كثيرة من بعض من كانت تعرفهم. وهي نظريات تبدو مفارقة لصديقاتها ولكنها تظهرها لديهن بمظهر المرأة المتفوقة وتعود عليها مرة في الأسبوع بزيارة وزير بلجيكا حتى ليدهش الكل بحق

(١) الحمام والسير على الأقدام، وقد أثبتنا اللفظتين كما وردتا في متن النص للتدليل على حذلقة السيدة «سوان» وشيوع بعض اللفظات الإنكليزية لدى علية القوم ومن كان في حكمهم.

في المجتمع الصغير الذي كانت كوكبه الساطع إن علموا أنها تعد بلهاء في محيط آخر، لدى آل «الفيردوران» على سبيل المثال. وبسبب سرعة الخاطر هذه، كانت السيّدة «سوان» تفضل مجتمع الرجال على مجتمع النساء. على أنها حينما كانت تنتقدهنّ فقد كانت تفعل دوماً بلسان المرأة اللعوب فتشير لديهنّ إلى العيوب التي يمكن أن تسيء إليهن لدى الرجال كالعلاقات الظاهرة والسحنة القبيحة والجهل بالإملاء والشعر الذي يغطّي الساقين والرائحة الكريمة والحاجبين الكاذبين. ولكنّها تبدي رقّة أكثر على العكس لتلك التي أبدت لها بالأمس تسامحاً ولطفاً ولا سيّما إذا كانت هذه الأخيرة تعيسة. وتدافع عنها بمهارة وتقول: «الناس يظلمونها، فهي امرأة لطيفة بالتأكيد».

ولعلّ السيّدة «كوتار» وسائر الذين تردّدوا على السيّدة «دو كريسي»، لعلهم كانوا سيجدون مشقّة لا في تعرّف أثاث صالة «أوديت» فحسب، بل في تعرّف «أوديت» نفسها إن لم يشاهدوها منذ فترة طويلة. فما أكثر ما تبدو أصغر سناً ممّا مضى بسنوات عديدة! ويعود ذلك جزئياً ولا شكّ إلى أنها سمنت وبدا مظهرها، وقد أضحت أوفر عافية، أكثر هدوءاً وطراوة وارتياحاً وإلى أن التسريحات الجديدة بفضل الشعور المالسة كانت تضفي من جهة ثانية مزيداً من الاتّساع على وجهها الذي تبعث الحيويّة فيه بودرة ورديّة اللون وحيث تبدو وعيناها وملامحها الجانبيّة، وهي شديد البروز فيما مضى، تبدو الآن وكأنّما امتُص بروزها، بيد أنّ ثمة سبباً آخر لهذا التغير قوامه أن «أوديت»، إذ بلغت منتصف العمر، وجدت أخيراً أو هي ابتدعت لنفسها محيّا شخصيّاً و«طابعاً» لا يتبدّل و«صنفاً من الجمال» ووضعت هذا النموذج الثابت، وكأنّه شباب أزلي، فوق ملامحها المفكّكة التي ظلّت زمناً طويلاً تحت رحمة نزوات الجسد المنطوية على المخاطرة والعجز والتي يزيدها أقلُّ تعب يمتدّ للحظة سنوات ونوعاً من الشيخوخة العابرة، فألّفت لها كيفما اتّفق وجهاً مشتّتاً يوميّاً عديم الشكل فتّاناً يوافق مزاجها وهيئتها.

كان «سوان» يحفظ في غرفته، بدلاً من الصور الجميلة التي يأخذونها الآن لزوجته حيث يسمح التعبير الغامض الظافر نفسه بالتعجرف، أيّاً كان الفستان وكانت القبّعة، إلى قوامها ومحيّاها المظفّرين، رسماً شمسيّاً صغيراً وقديماً وبسيطاً جدّاً، رسماً سابقاً لشخصيّتها هذه يبدو فيها شباب «أوديت» وجمالها غائبين إذ هي لم تجدهما بعد. وليس من شكّ أن «سوان»، وقد ظلّ أميناً لمفهوم مختلف أو هو عاد إليه، كان يتذوّق في المرأة الشابّة النحيلة ذات العينين الحالمتين والملامح المتعبة والوقفة المتأرجحة بين المسير والجمود حسناً أقرب إلى نماذج «بوتيتشيللي»، فقد كان لا يزال يحبّ أن يبصر في زوجته نموذجاً من رسم «بوتيتشيللي». أمّا «أوديت» التي كانت تحاول، على العكس أن تجهد لا في إبراز ما لم يكن يروقها في شخصها وما ربّما كان «طابعها» في نظر أحد الفنّانين، ولكنّها تراه عيباً من وجهة نظرها كامرأة بل في التعويض عنه وفي تخفيته، فلم تكن تودّ سماع من يتحدّث عن هذا الرسّام. وكان «سوان» يملك منديلاً شرقيّاً بديعاً أزرق ووردياً لأنّه كان بالضبط منديل عذراء «عظّمي يا نفسي»[١]. ولكنّ السيّدة «سوان» كانت لا تبغي ارتداءه. وقد سمحت مرّة واحدة لزوجها أن يوصي لها على ثياب تغطّيها أزهار البلّيس والترنشاه وعين الهدهد والجُرَيْسات من وحي لوحة الربيع الكائنة في مخزن «الربيع Printemps». وكان يطلب إلي أحياناً في المساء، وحين تكون متعبة، يطلب إليّ بصوت خفيض أن ألاحظ كيف كانت تكسب يديها الحالمتين، دون أن تنتبه لذلك، الحركة الدقيقة المضطربة بعض الشيء التي للعذراء وهي تغمس ريشتها في المحبرة التي يمدّها لها الملاك قبل أن تكتب على الكتاب المقدّس الذي سبق أن خُطَّتْ فيه عبارة «عظّمي يا نفسي». ولكنّه يضيف قائلاً: «احرص ألا تقول لها ذلك، إذ يكفي أن تعرف الأمر حتى تفعل عكسه».

مكتبة سُر مَن قرأ

(١) الكلمات الأولى من ترنيمة دينية «*magnificat*»، والعذراء من لوحات «بوتيتشيللي».

كان جسم «أوديت» الآن، فيما عدا لحظات التراخي غير المقصود هذه التي يحاول «سوان» أن يلقي فيها خطوط «بوتيتشيللي» الكئيبة، يرتسم ضمن منظور قوام واحد يحيط به كلّه «خطّ» هَجَرَ، بغية الالتصاق بأعطاف المرأة، والدروب المتموّجة وما نتأ وغار على نحو مصطنع وتداخل الشرائط وتشتّت أطرزة الماضي غير المتجانسة، ولكنّه عرف كذلك، حيثما تخطئ تقاطيع الجسم فترسم انعطافات غير ذات جدوى قبل الخطّ نواقص الجسم والقماش سواء بسواء لقد اختفت الوسائد والمقعد المطويّ الذي من الطراز القبيح واندثرت معها تلك الصدارات ذات الأذيال التي أضافت طويلاً لِـ«أوديت»، بتجاوزها التنورة وتصلّبها بوساطة قضبان دقيقة، بطناً مستعاراً وأظهرتها بمظهر من رُكِبّتْ من قطع متنافرة لا يربط بينها أي طابع مميّز. لقد تخلّت عموديّة الخطوط الحادّة وانحناءة الأعشاش من مكانها لثنية جسم يولي الحرير خفقات مثلما تضرب الماءَ جنّيةُ البحر ويضفي على نسيج القطن الناعم تعبيراً إنسانياً الآن وقد تخلّص من طويل فوضى الأزياء البائدة ومن غلافها الغائم على هيئة شكل منظّم حيّ. على أنّ السيّدة «سوان» أرادت، بل عرفت كيف تحتفظ بأثر لبعض منها في صميم تلك التي حلّت محلّها. فحينما كنت لا أستطيع في المساء أن أعمل وكنت على يقين من أن «جيلبيرت» في المسرح بصحبة صديقات لها كنت أذهب على نحو مفاجئ إلى منزل والديها فأجد السيّدة «سوان» في الغالب ترتدي ثوباً بيتياً أنيقاً تعترض تنّورته - وهي بتلك الألوان الجميلة العاتمة، من أحمر غامض أو برتقالي، التي تبدو كأنها تتّسم بدلالة خاصّة لأنّها لم تعد دراجة - تعترضها بخطّ مائل حاشية محزّمة عريضة من الدانتيلا السوداء تذكّر بكشاكش الأمس. وحينما اصطحبتني في يوم ربيعي ما يزال بارداً إلى حديقة الحيوانات قبل خلافي مع ابنتها كان «فائض» صدريّتها المفرض يبدو، تحت سترتها التي تفتحها بهذا القدر أو ذاك حسبما تعاني من الحرّ أثناء سيرها، وكأنّه قفا صدار يتراءى لك، ولا وجود له، شبيه ببعض ما كانت ترتدي قبل بضع سنوات وكانت ترغب أن تكتسب حواشيها هذا

التفريض الخفيف. وربطة عنقها - وهي من ذلك القماش الاسكوتلاندي الذي ظلّت مخلصة له ولكنّها خفّفت ألوانه إلى حدّ بعيد (فأضحى الأحمر وردياً والأزرق ليلكيّاً) حتى ليخيّل إليك تقريباً أنّه من قماش التافتا المدعو عنق الحمام، وهو إذ ذاك أحدث الحديث - كانت ربطة عنقها معقودة تحت ذقنها دون أن تتسنّى رؤية المكان الذي ربطت به وعلى نحو يذكّرك مرغماً «بسيور» تلك القبّعات التي لم تعد دارجة. وربّما كان كافياً أن تستطيع المثابرة على هذا النحو بعض الوقت حتى يقول الشبّان وهم يحاولون فهم ملابسها: «أليس أن السيّدة «سوان» تمثّل عصراً بكامله؟» ومثلما هي الحال في أسلوب جميل يراكم أشكالاً مختلفة ويعزّز تقليداً خفيّاً كانت تلك الذكريات غير الواضحة في أثواب السيّدة «سوان» لصداري أو تجعيدات وأحياناً لنزعة تُكْتَمُ في الحال إلى «هيّا إلى الزورق» وحتى لتلميح بعيد وغامض إلى «إليّ أيّها الشابّ»، كانت تبعث خلف الشكل المحسوس الشبه غير المكتمل بأشكال أخرى أكثر قدماً ما كان بالإمكان العثور عليها فيه وقد تحقّقت على يد الخيّاطة أو مصمّمة الأزياء، ولكنّ المرء يفكّر فيها دونما انقطاع، وتلفّ السيّدة «سوان» بشيء من النبل - وربّما أدّت لا جدوى هذه الحلي إلى أن تبدو وكأنها تستجيب لهدف يتجاوز النفعيّة ربّما بسبب الأثر الذي تحتفظ به من السنوات الماضية أو بسبب نوع من التفرّد في اللباس خاصّ بهذه المرأة كان يضفي على أكثر أثوابها اختلافاً هيئة العائلة الواحدة. كنت تحسّ أنها لا تلبس لراحة الجسم أو زينته فحسب، فقد كانت أثوابها تحيط بها وكأنّها لبوس حضارة رقيقة اتخذت صفات روحيّة.

وحينما كان يقع على «جيلبيرت» التي كانت تقيم عصرونياتها عادة يوم استقبال أمّها أن تتغيّب بخلاف عادتها وأستطيع من جرّاء ذلك الذهاب إلى استقبال السيّدة «سوان»، كنت أجدها ترتدي أحد الفساتين الجميلة، وبعضها من التافتا، والبعض الآخر من الفاي أو المخمل أو حرير الصين أو الساتين أو الحرير، ولم تكن رخوة النسيج كالأثواب التي ترتديها في

البيت على عادتها ولكنّما أُلّفتْ أجزاؤها وكأنّما للخروج خارجاً فكانت تضفي على بطالتها في المنزل ما بعد الظهر ذاك شيئاً من الرشاقة والنشاط. ولا شكّ أن قَصّتها البسيطة الجريئة كانت تلائم قوامها وحركاتها التي تبدو الأكمام وكأنّها تؤلّف لونها الذي يتبدّل بتبدّل الأيّام لكأنّما يخيّل إليك أنّ في المخمل الأزرق عزيمة مفاجئة وفي التافتا الأبيض ليونة في العريكة وأن ضرباً من الاحتشام العظيم المملوء أناقة في طريقة مدّ الذراع قد اتّخذ كيما يصبح مرئيّاً مظهر الحرير الصينيّ الأسود، مظهراً تتألّق فيه بسمة التضحيات العظيمة. ولكنّ تعقيد الحلي التي لا فائدة منها عمليّاً ولا علّة وجود ظاهرة لها كانت تضيف إلى تلك الفساتين الزاهية في الوقت نفسه شيئاً من التجرّد والحلم والسرّ يتّفق والكآبة التي كانت السيّدة «سوان» تحتفظ بها على الدوام في الزرقة على الأقل التي تحيط بعينيها وفي سلاميات يديها. وتحت وابل مجالب الحظ التي من الياقوت الأزرق والسرخس الرباعي الأوراق الذي من المينا والأيقونات الفضية والقلائد الذهبية والتمائم التي من فيروز وسلاسل الياقوت الأحمر وكرات الياقوت الأصفر كان في الفستان نفسه هذا الرسم الملون الذي يوالي حياته السالفة فوق «ردة» من القماش، وصف الأزرار الصغيرة هذه التي من الساتين والتي ما كانت تزرر شيئاً ولا يمكن فكها وشرائط تحاول الإبهاج بدقة التركيز الرقيق واحتشامه، وكلها تبدو، بقدر ما تبدو الحلي تماماً - وليس لها فيما عدا ذلك ما يمكن أن يبررها - وكأنها تكشف عن مقصد، كأنها عربون مودّة، كأنها تحتبس سراً وتستجيب لخرافة وتحفظ ذكرى شفاء أو أمنية أو حب أو لعبة حبات اللوز. وأحياناً يضفي ما يوحي بفتحه من طراز هنري الثاني في مخمل الصدار الأزرق وانتفاخ طفيف في فستان الساتين الأسود إما أن يُذكَر في الأكمام قرب الكتفين بالثنيات المنفّخة لعام ١٨٣٠ وإما أن يذكر على العكس تحت التنورة «بأقفاص» من طراز لويس الخامس عشر، يضفي كلاهما على الفستان مسحة خفية توحي بأنه حلي رسمية ويمزجان بشخص السيّدة «سوان»، إذ يدسان تحت صفحة

الحياة الحاضرة كأنما ذكريات مبهمة من الماضي، فتنة بعض بطلات التاريخ أو الروايات. فإن حملتها على ملاحظة الأمر قالت: «لست ألعب «الغولف» كالكثيرات من صديقاتي، ولن أعذر على الإطلاق إن لبست كنزة من الصوف مثلهن».

وفي الفوضى التي تسود الصالة، كانت السيّدة «سوان»، إذ تمر بالقرب مني وهي تعود من اصطحاب زائرة لوداعها أو تحمل صحناً من الحلوى لتقدمه لأخرى، كانت تنتحي بي جانباً مقدار ثانية: «لقد كلفتني «جيلبيرت» تكليفاً خاصاً بدعوتك للغداء بعد غد. ولما لم أكن متيقنة من مشاهدتك فقد كنت أزمع الكتابة إليك لو تجيء». وظللت أقاوم. وكانت تلك المقاومة تشق عليّ أقل فأقل، إذ عبثاً يحب المرء السم الذي يؤذيه فهو لا يستطيع، بعدما تحرمه إياه ضرورة، أية ضرورة، منذ وقت بدأ يطول، إلا أن يولي بعض الأهمية للراحة التي بات من قبل لا يعرفها ولغياب الانفعالات وصنوف العذاب. ولئن لم يكن المرء صادقاً أيضاً إن قال إنه يود رؤيتها ثانية. فما من شك أنه لن يطيق غيابها إلا إذا منّى النفس بقصره، إذ فكر باليوم الذي سيتم فيه اللقاء، على أن المرء يحس كم تصبح هذه الأحلام اليومية بلقاء قريب لا ينفك يؤجل أقل إيلاماً من لقاء يمكن أن تتبعه الغيرة إلى حد أن خبر العودة للقاء التي نحبها ربما خلّف فينا انفعالاً شديداً غير محبب.. وليس ما يؤجله المرء الآن من يوم إلى يوم نهاية الضيق الذي لا يطاق الناجم عن الانفصال بل تجدّد نَهَابُهُ لانفعالات لا تؤدي إلى نتيجة. وكم نفضل على مثل هذا اللقاء الذكرى الطيعة التي نكملها على هوانا بأحلام تبوح فيها تلك التي لا تحبنا في الواقع، تبوح على العكس بهواها حينما نكون وحدنا تماماً! لكم نفضل تلك الذكرى التي قد نفلح في جعلها عذبة بمقدار ما نبتغي إذا ما مزجنا فيها شيئاً فشيئاً الكثير مما نشتهي على اللقاء المؤجل الذي نواجه فيه شخصاً لم نعد نملي عليه وفق مرادنا الأقوال التي نشتهيها بل لعلنا سنعاني من صنوف جفائه الجديد وسوء معاملته اللامتوقعة! إننا نعلم جميعاً يوم لا نحب من بعد،

أن النسيان وحتى الذكرى الغائمة لا يسببان مقداراً كبيراً من الآلام بقدر ما يسبب الحب التعيس وإنما كنت أفضل، دون أن أقر لنفسي بالأمر، العذوبة المريحة لمثل هذا النسيان المستبق.

إن ما يمكن أن يكون شاقاً في مثل هذه المعالجة باللامبالاة النفسية والعزلة إنما يتناقص أكثر فأكثر لسبب آخر قوامه أنها تُضعف تلك الفكرة الثابتة التي هي الحب بانتظار أن تشفيها. وكان حبي لا يزال قويّاً إلى حدّ كافٍ حتى أهتمّ باسترداد كامل هيبتي في عيني «جيلبيرت»، حتى إن كل يوم من تلك الأيام الهادئة الحزينة التي لا أراها فيها والتي تتوالى الواحد تلو الآخر دونما انقطاع ودونما تقادم (حينما لا يدس مزعج أنفه في شؤوني) ما كان يوماً ضائعاً بل يوماً أكسبه، ولا جدوى ربما من كسبه إذ يمكن أن يعلن عما قليل أني شفيت. إن التسليم، وهو من نوع العادة، يسمح لبعض القوى بالتنامي إلى ما لا حدود، والقوى اليسيرة التي توافرت لدي لاحتمال غمي في المساء الأول من خلافي مع «جيلبيرت» بلغت مذ ذاك قدرة لا تحدّ. على أن نزوع كل ما هو كائن إلى الامتداد إنما تعترضه أحياناً إغراءات مفاجئة ننساق وراءها ويزيد من أننا لا نتورع من الانسياق أننا نعلم كم من الأيام بل الشهور استطعنا، ولعلنا لا نزال نستطيع حرمان النفس. فغالباً ما نفرغ دفعة واحدة كيس النقود الذي نوفر فيه لحظة يوشك أن يمتلىء، ونوقف العلاج دون أن ننتظر النتيجة وبعدما تمّ لنا تعوده. ففي يوم كانت السيّدة «سوان» تردد لي فيه أقوالها المألوفة حول الغبطة التي ستحل بِـ«جيلبيرت» لو تراني، وتضع بهذا النحو السعادة التي كنت أحرم نفسي منها منذ زمن طويل وكأنما في متناول يدي اضطربت أيما اضطراب إذ أدركت أنه لا يزال بالإمكان تذوقها؛ وشق عليّ انتظار الغد، فقد عزمت على المبادرة لمفاجأة «جيلبيرت» قبل عشائها. أما ما أعانني على الصبر على مدى نهار كامل فخطة رسمتها. فبما أن كل شيء ذهب طي النسيان وأنني تصالحت مع «جيلبيرت» لم أشأ أن أزورها من بعد إلا بثوب العاشقين. سوف تصلها مني في كل يوم أجمل الأزهار. فإن لم تسمح

السيّدة «سوان» مع أنه لا يحقّ لها أن تكون أماً بالغة الصرامة، بإرسال يومي للزهور فسوف ألقى هدايا أغلى ثمناً، ففكرت في إناء صيني من الخزف القديم وهبتني إياه عمتي «ليوني» وكانت أمي تتنبأ عنه في كل يوم بأن «جيلبيرت» سوف تجيء إليها قائلة: «لقد انفرط» ولن يظل منه شيء أفلم يكن من الحكمة في هذه الظروف أن أبيعه، أن أبيعه كي يمكنني توفير كامل ما أريد من متعة لِـ«جيلبيرت»؟ كان يبدو لي أنني أستطيع أن أكسب به ألف فرنك. وأمرت بلفّه. كانت العادة قد حالت دون أن أراه فكان لفراقه الفضل على الأقل في أني تعرفت به. وحملته معي قبل أن أذهب إلى منزل «عائلة سوان» وحينما زودت الحوذي بالعنوان قلت له أن يجعل طريقه من «الشانزيليزيه» وفي زاويته مخزن تاجر أوانٍ صينية كبير كان يعرفه والدي وقد نقدني في الحال، وأنا في ذهول شديد، لا ألف فرنك مقابل الإناء الصيني، بل عشرة آلاف. وأخذت تلك الأوراق النقدية مغتبطاً. فسوف أستطيع على مدى سنة كاملة أن أغمر «جيلبيرت» كل يوم بالورود، وأزهار الليلك. وعندما صعدت إلى العربة بعد فراق البائع، ألفى الحوذي نفسه، على نحو طبيعي جداً، ينحدر في شارع «الشانزيليزيه»، بدلاً من الطريق المعتادة، بما أن عائلة «سوان» كانت تقطن بالقرب من «الغابة». وكان قد جاوز زاوية شارع «بيري» حينما خلتني في الشفق أتعرف «جيلبيرت» قريباً جداً من منزل عائلة «سوان» ولكنها تمضي في الاتجاه المعاكس، مبتعدة عنه وتسير بخطى وئيدة ولكنها ثابتة إلى جانب شاب كانت تتحدث إليه ولم أتمكن من تمييز وجهه، وارتفعت في العربة ومرادي أن أوقفها ثم ترددت. فقد أضحى المتنزهان بعيدين بعض الشيء وراح الخطان الناعمان المتوازيان اللذان يخطهما مشوارهما البطيء يغيبان في ظلام «الإيليزيه». ووصلت بعد قليل أمام منزل «جيلبيرت» فاستقبلتني السيّدة «سوان» وقالت لي: «سوف تغتم لذلك، ولست أدري كيف أنها غير حاضرة، لقد أحست بحرّ شديد منذ قليل في أحد الدروس فقالت لي إنها تبغي التفسح قليلاً مع واحدة من صديقاتها». - «أظن أني لمحتها في شارع الـ«الشانزيليزيه»». -

«لا أظنها كانت هي. وعلى أي حال لا تقل ذلك لوالدها فإنه لا يحب أن تخرج في مثل هذه الساعات Good Evening»[1]. وذهبت وقلت للحوذي أن يسلك الدرب نفسه ولكني لم أعثر على المتنزهين الاثنين. فأين ذهبا؟ وماذا كان يقول أحدهما للآخر في المساء بمظهر التسارّ ذاك.

وعدت أنا أمسك يائساً بالعشرة آلاف فرنك غير المؤمّلة التي كان لا بدّ لها أن تمكّنني من توفير العديد من المتع الصغيرة لِـ«جيلبيرت» تلك التي صممت الآن أن لا أراها من بعد. وما من شك أن ذلك التوقف لدى بائع التحف الصينية قد ملأني غبطة إذ جعلني آمل أنني لن أرى صديقتي من بعد البتة إلا راضية عني وشاكرة على أنّي لو لم أقم بذلك التوقف ولو لم تسلك العربة شارع «الشانزيليزيه» لما كانت التقيت بـ«جيلبيرت» وبذاك الشاب. وهكذا تحمل الواقعة الواحدة أغصاناً متعاكسة والمصيبة التي تورثها تبطل السعادة التي سبق أن سببتها. لقد وقع لي عكس ما يتم في الكثير الغالب، فأنت تشتهي متعة وتنقصك الوسيلة المادية لبلوغها. لقد قال «لابروبير»: «من تعس الحال أن يحب المرء دون ثروة كبيرة». ولا يظل لك سوى أن تحاول القضاء شيئاً فشيئاً على الرغبة في تلك المتعة. أما في ما يخصني فقد تمّ لي على العكس الحصول على الوسيلة المادية ولكنما اختلست مني في اللحظة نفسها تلك الغبطة على الأقل من جراء نتيجة مباغتة لذلك النجاح الأولي، إن لم يكن من جراء أثر منطقي له ويبدو على أية حال أنه لا بدّ أن تختلس منا على الدوام. بيد أن ذلك لا يتم عادة، والحق يُقال، في الأمسية نفسها التي اكتسبنا فيها ما يجعلها ممكنة. وفي أغلب الأحيان نوالي بذل الجهود والتأمل بعض الوقت. ولكن السعادة لا يمكن البتة أن تحصل. فإن أمكن التغلب على الظروف نقلت الطبيعة الصراع من الخارج إلى الداخل وحملت فؤادي على التبدل شيئاً فشيئاً بما يكفي ليرغب في غير ما سوف يمتلكه. وإن جاء التبدل

---

(١) وردت بالإنكليزية في متن النص.

سريعاً إلى حد أن فؤادنا لم يتسع له الوقت للتبدل فإن الطبيعة لا تفقد الأمل لذلك في التغلب علينا على نحو متأخر بالحقيقة وأكثر حذقاً ولكنه فعّال إلى ذلك. حينذاك يُنتزع منا امتلاك السعادة في الثانية الأخيرة أو هو بالأحرى ذلك الامتلاك نفسه الذي توكل إليه الطبيعة بحلية شيطانية أن يهدم السعادة. فإنما تخلق الطبيعة، وبعدما فشلت في كل ما كان في نطاق الوقائع والحياة، استحالة أخيرة، الاستحالة النفسية للسعادة، فظاهرة السعادة لا تتم أو تتسبب في أكثر ردود الفعل مرارة.

وشددت على العشرة آلاف فرنك. ولكنها لم تعد تفيدني في شيء. وقد أنفقتها على أية حال على نحو أسرع مما لو بعثت كل يوم بزهور إلى «جيلبيرت»، فقد كنت أجدني حينما يحل المساء تعيساً إلى حد لا أستطيع معه البقاء في المنزل فأبادر إلى البكاء في أحضان نسوة ما كنت أحبهن. فأما أن أحاول إدخال السرور على قلب «جيلبيرت»، فإني ما عدت أتمنى ذلك، إذ العودة إلى منزل «جيلبيرت» ما كانت إلا لتعذبني، حتى لقاء «جيلبيرت»، ولعله كان البارحة شديدة العذوبة بالنسبة إلي، ما كان ليكفيني من بعد، ذلك أنني كنت سأظل قلقاً طوال الوقت الذي لا أكون فيه بالقرب منها. وإنما ذلك ما يقضي إلى أن تزيد امرأة من سلطانها علينا وكذلك من متطلباتنا إزاءها من جراء أي عذاب جديد تسببه لنا دون أن تدري في الغالب. وبفضل الأذى الذي ألحقته المرأة بنا تضيّق علينا أكثر فأكثر وتضاعف من قيودنا وكذلك من تلك التي ربما بدا لنا كافياً حتى ذاك أن نكبلها بها حتى نحس أننا مطمئنو البال. ولعلني كنت أكتفي أمس فقط، لو لم أحسب أنني أزعج «جيلبيرت»، بالمطالبة بلقاءات قليلة، تلك اللقاءات التي ما عادت لترضيني الآن والتي لعلني كنت أستبدل بها شروطاً أخرى. ذلك لأن المرء في الحب يجعلها أكثر قسوة، بخلاف ما يجري بعد المعارك، فتحتدم كلما ألحقت به الهزيمة، إن كان بالطبع في وضع يمكّنه من فرضها. ولم تكن تلك حالي في ما يخص «جيلبيرت» ولذلك فضلت بادئ الأمر ألا أعود إلى منزل والدتها. لقد ظللت أقول لنفسي إن

«جيلبيرت» لا تحبني وإني أعلم ذلك منذ وقت طويل وإني أستطيع لقاءها من جديد إن شئت وأستطيع، إن لم أشأ، أن أنساها مع الأيام. ولكن تلك الأفكار، شأن دواء لا إثر له ضد بعض الإصابات، كانت مجردة من أية قدرة فعّالة ضد ذينك الخطين المتوازيين اللذين أعود فأراهما بين الحين والحين، خطَّي «جيلبيرت» والشاب وهما يغيبان بخطى وئيدة في شارع «الشانزيليزيه». كان ذاك داء جديداً سوف يلحق به الوهن في النهاية، كان صورة سوف تراود خاطري ذات يوم وقد تخلصت من كل ما كانت تحوي من ضرر، كمثل تلك السموم القاتلة التي يتداولها المرء دون خطر، وكمثل قليل من الديناميت يستطيع المرء أن يشعل منه سيكارته دون أن يخشى الانفجار. وفي غضون ذلك كانت في داخلي قوة أخرى تناضل بكامل قدرتها ضد تلك القوة الضارة التي كانت تمثل لي دون تغيير مشوار «جيلبيرت» في المساء: فقد كان خيالي يعمل باتجاه معاكس وعلى نحو مفيد كي يحطم هجوم ذاكرتي المتجدد. كانت أولى تلك القوتين توالي بالتأكيد إبراز ذينك المتنزهين في شارع «الشانزيليزيه» أمام ناظريّ وتقدم لي صوراً أخرى مزعجة مقتبسة من الماضي، كـ«جيلبيرت» على سبيل المثال وهي ترتفع بمنكبيها حينما كانت والدتها تطلب منها المكوث معي. ولكن القوة الثانية كانت تعمل على مصوّر آمالي فترسم مستقبلاً أكثر اتساعاً وتساهلاً من ذلك الماضي الضئيل والمحدود جداً. ففي مقابل دقيقة أرى فيها «جيلبيرت» متجهمة - كم كان ثمة من دقائق أدبر فيها مسعى يمكن أن تقوم به في سبيل مصالحتنا وربما خطوبتنا! صحيح أن هذه القوة التي كان الخيال يوجهها نحو المستقبل إنما كان يستقيها مع ذلك الماضي. فبقدر ما سيزول انزعاجي من أن «جيلبيرت» ارتفعت بمنكبيها، بذلك القدر سوف تتناقص كذلك ذكرى فتنتها، الذكرى التي كانت تجعلني أتمنى أن تعود إلي. على أني كنت لا أزال بعيداً جداً عن موت الماضي هذا. فقد كنت لا أزال أُحبّ تلك التي كنت أحسب بالحقيقة أني أكرهها. كنت أود أن تكون حاضرة في كل مرة يجدونني فيها حسن التسريحة وبأحسن عافية. وكنت

أغضب من الرغبة التي أبداها العديد من الناس في ذلك الوقت في استقبالي لديهم ورفضت الذهاب. ووقع شجار في المنزل لأنني لم أصحب والدي إلى عشاء رسمي كانت تعتزم حضوره عائلة «بونتان» برفقة ابنة أخ لها تدعى «ألبيرتين»، وهي صبية صغيرة لا تزال طفلة تقريباً. إن فترات حياتنا المختلفة تتداخل على هذا النحو الواحدة في الأخرى. فأنت ترفض بازدراء، من جراء ما تحب وما سوف يبدو لك في يوم غير ذي بال إلى حد بعيد، إن ترى ما لا تكترث له اليوم وما ستحبه في الغد وما ربما أمكن أن تحبه قبل ذلك، لو قبلت أن تراه، وكان قصّر بذلك عذابك الراهن ليحل محله بالحقيقة عذاب آخر. أما عذابي فكان آخذاً في التحول، فقد كنت أدهش أن ألمح في أعماق ذاتي هذا الشعور في يوم، وشعوراً آخر في اليوم التالي يوحي بهما بعامة هذا الأمل أو تلك الخشية المتعلقة بِ«جيلبيرت»، «جيلبيرت» التي كنت أحملها في صدري. كان يجدر بي أن أقول لنفسي إن الثانية، إن «جيلبيرت» الحقيقية ربما كانت مختلفة تمام الاختلاف عن تلك وتجهل جميع صنوف الأسف التي أعزوها إليها وتفكر فيّ على الأرجح لا أقل مما أفكر فيها فحسب بل مما أجعلها تفكر فيّ حينما أكون وحيداً مع «جيلبيرت» الوهمية وأبحث عما يمكن أن تكون نواياها الحقيقية تجاهي وأتخيّلها على هذا النحو تصرف انتباهها على الدوام إليّ.

وفي أثناء هذه الفترات التي يستمر فيها الغم فيما هو أخذ في التناقص لا بدّ من التمييز بين الغم الذي يسببه لنا التفكير المستمر بالشخص نفسه وذاك الذي توقظه بعض الذكريات، كمثل جملة لاذعة قِيلت أو فعل استخدم في رسالة وصلتنا، ولنقل، ونحن نستبقي أشكال الغم المختلفة لوصفها بمناسبة حب لاحق، إن أول هذين الشكلين أقل قسوة من الثاني بما لا يُقاس. ومرد ذلك أن الفكرة التي نحملها عن الشخص إنما تزينها، إذ هو يعيش باستمرار فينا، الهالة التي لا نلبث أن نعيدها إليه وتنطبع على الأقل بهدوء حزن مقيم إن لم تطبعها عذوبة الأمل المتكرر. (ولا بدّ لنا، على أية حال، أن نلاحظ بأن صورة الشخص الذي يعذبنا إنما تشغل حيّزاً

ضيقاً في تلك التعقيدات التي تزيد من خطورة غم ناجم عن الحب وتطيله وتحول دون شفائه، مثلما أساس بعض العلل بعيد عن أن يُقاس بالحمى التي تنجم عنه والبطء في بلوغ النقاهة). ولئن ينعكس على فكرة الشخص الذي نحبه وهج فكر متفائل بعامة، فما ذلك شأن تلك الذكريات الخاصة، تلك الأقوال اللاذعة، تلك الرسالة العدائية (إذ لم أتسلم سوى رسالة واحدة من هذا القبيل من «جيلبيرت»)، ولكأنما يقيم ذلك الشخص نفسه في هذه الأجزاء الضيقة إلى حد بعيد وقد بلغ من القوة ما يصعب أن يبلغه في الفكرة المألوفة التي نكوّنها عنه بكليته. ذلك أننا لم نتأمل الرسالة، كما هو شأن المحبوب، في هدوء الأسف الحزين؛ لقد قرأناها والتهمناها يلفنا القلق الفظيع الذي يعترينا من جراء مصيبة غير متوقعة. أما تكوّن هذا الضرب من الغموم فمختلف. إنها تأتينا من الخارج وقد اتخذت إلى فؤادنا درب العذاب الأكثر قسوة إن صورة صديقتنا التي نظنها قديمة وأصيلة إنما أعيد في الواقع رسمها مرّات عديدة على يدنا. أما الذكرى القاسية فلا تُزامن تلك الصورة التي تمّ إصلاحها، فهي من عصر آخر وأحد الشهود القلائل على ماضٍ رهيب. وبما أن ذلك الماضي مستمر الوجود ما عدا فينا، نحن الذين راقهم أن يُحِلُّوا محله عصراً ذهبياً رائعاً وفردوساً سوف يتصالح فيه الجميع، فإن تلك الذكريات وتلك الرسائل تذكير بالواقع ويجدر بها أن تجعلنا نحسّ من جراء الألم المفاجئ الذي تخلفه فينا إلى أي حد نحن بعيدون عنه داخل جنون آمال انتظارنا اليومي، وليس يعني ذلك أن هذا الواقع ينبغي أن يظل على الدوام واحداً، مع أن الأمر يتفق أحياناً. ثمة نساء كثيرات في حياتنا لم نحاول أن نعود للقائهن في يوم وقد رددن بالطبع على صمتنا غير المقصود على الإطلاق بصمت مماثل، ولكننا لما كنا لا نحبهن فلن نعد السنوات التي قضيناها بعيداً عنهن، غير أننا لا نبالي بذلك المثال الذي ربما أبطله حينما نتفكر في فعالية العزلة كما لا يبالي أولئك الذين يعتقدون بالحدس بجميع الحالات التي لم يصدق فيها حدسهم.

على أن البعد يمكن أن يكون فعّالاً، فالرغبة والتوق إلى لقاء جديد يعودان فيولدان في النهاية في القلب الذي يتجاهلنا حالياً. ولكن لا بدَّ لذلك من وقت، وليست متطلباتنا في ما يخص الزمان أقل حجماً من تلك التي يطالب بها القلب ليتبدل، ولكن الزمن بالضبط أقل ما يسهل علينا إعطاؤه لأن عذابنا قاسٍ ونحن نستعجل حلول نهايته. ثم إن هذا الزمن الذي يحتاج إليه القلب الآخر ليتبدل سوف يستخدمه قلبنا ليتبدل بدوره؛ وما إن يصبح الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا قريب المنال حتى يكف عن كونه هدفاً بالنسبة إلينا. وفضلاً عن ذلك فإن الفكرة التي مفادها أنه سيضحي قريب المنال وأن ليس من سعادة إلا ونبلغها في النهاية حينما لا تبدو من بعد في نظرنا على أنها سعادة، إن تلك الفكرة تتضمن جزءاً من الصحة، ولكنه جزء فحسب. إنه يضحي من نصيبنا بعدما أصبحنا لا نبالي به. ولكن هذه اللامبالاة جعلتنا بالضبط أقل تشدداً، وهي تمكّننا من الاعتقاد بعد الأوان أنه ربما أبهجنا في فترة لعله كان يبدو لنا فيها ناقصاً إلى حد بعيد. فليس المرء متشدداً جداً ولا حَكَماً صالحاً جداً في ما لا نهتم به. وإن لطافة شخص لم نعد نحبه، ولا تزال تبدو مفرطة بالنسبة إلى لامبالاتنا، ربما قصّرت كثيراً في إرضاء حبنا. إننا نفكر في المتعة التي ربما حملتها لنا تلك الأقوال الرقيقة وذلك الوعد باللقاء. لا بجميع الأقوال والوعود التي وددنا لو تتبعها في الحال والتي ربما خلنا دون أن تُنْجَز من جراء طمعنا، حتى لا يبدو أكيداً أن السعادة التي جاءت في وقت متأخر جداً حينما لا نستطيع من بعد التمتع بها وحينما لم نعد نحب، هي السعادة نفسها تماماً التي جعلنا فقدانها فيما مضى في تعاسة شديدة. ثمة شخص وحيد يستطيع أن يفصل في الأمر، إنه أنانا في ذلك الحين، ولم تعد ههنا؛ ولعله لا شك يكفي أن تعود حتى تضمحل السعادة، وسواء أكانت مماثلة أم لا.

وبانتظار أن تتم بعد فوات الآوان هذه التحققات لحلم ربما ما اهتممت به من بعد، أخذتْ سلسلة من الصور العذبة المتجددة باستمرار،

لشدة ما أبْتَدِعُ، شأني يوم كنت لا أكاد أعرف «جيلبيرت»، أقوالاً ورسائل تلتمس فيها العفو مني وتقر أنها لم تحب في يوم سواي وتطلب الزواج مني، أخذت في النهاية تحتل في ذهني مكاناً أوسع من صورة «جيلبيرت» والشاب التي لم يعد شيء يغذيها. ولعلني ربما عدت مذ ذاك إلى منزل السيّدة «سوان» لولا حلم وافاني وكان أحد أصدقائي، مع أنه ليس في عداد من كنت أعرفهم أصدقاء لي، كان يتصرف إزائي بأعظم قدر من الزيف، ويعتقد أني أقابله بالمثل. وإذ استيقظت على نحو مفاجئ من جراء الألم الذي سببه لي هذا الحلم ورأيت أنه مستمر، عدت أفكر فيه من جديد وحاولت أن أتذكر من كان الصديق الذي رأيته في نومي والذي لم يعد اسمه الإسباني واضحاً. وشرعت أفسّر حلمي وأنا يوسف وفرعون في الآن نفسه. كنت أعلم أنه ينبغي في الكثير منها ألا نأخذ في الحسبان حتى مظهر الأشخاص الذين ربما كانوا متنكرين أو هم تبادلوا وجوههم شأن هؤلاء القديسين المشوّهين في الكاتدرائيات والذين أعاد صنعهم علماء آثار جاهلون فوضعوا فوق جسم هذا الرأس ذاك وخلطوا بين صفاتهم وأسمائهم. فأمّا ما يحمل الأشخاص منها في حلم فيمكن أن يخدعنا، وينبغي أن نتعرّف إلى الشخص الذي نحبّه من جرّاء شدّة الألم الذي عانيناه. وقد أنبأني ألمي أنّ الشخص الذي ما زال يؤلمني زيفه القريب كان «جيلبيرت» التي انقلبت شاباً في أثناء نومي. وقد تذكرت آنذاك أنّها رفضت، وهي تضحك ضحكة غريبة، أن تصدّق نواياي الطيّبة في ما يخصّها إمّا صادقة وإمّا متظاهرة بذلك، في آخر مرّة رأيتها فيها يوم منعتها أمّها من الذهاب إلى حفلة راقصة بعد الظهر. وقد جرّت تلك الذكرى أخرى ثانية في ذاكرتي بطريق التداعي. كان «سوان» منْ رفض قبل ذلك بكثير أن يؤمن بصدق ما أقول وبأنّني كنت صديقاً مخلصاً لِ «جيلبيرت». وعبثاً كتبتُ له فقد حملتْ «جيلبيرت» رسالتي وأعادتها لي بالضحكة الغامضة نفسها. على أنّها لم تُعدْهَا لي في الحال وقد تذكّرت كامل المشهد خلف دغل شجيرات الغار. والمرء يصبح أخلاقيّاً حالما يضحي

تعيساً. وقد بدا لي نفور «جيلبيرت» الحالي مني بمثابة عقاب تُنزله الحياة بي بسبب المسلك الذي سلكته في ذلك اليوم. فالمرء يظنّ أنّه يتجنّب صنوف العقاب لأنّه ينتبه للسيّارات لدى اجتياز الشارع وأنّه يتجنّب المخاطر. ولكنّ منها ما كان باطنيّاً. فالحادث يجيء من الجهة التي لم نفطن لها، من الداخل، من القلب. لقد أثارت كلمات «جيلبيرت»: «فلنوال العراك، إن شئت» الاشمئزاز في نفسي. وتخيّلتها على تلك الصورة، ربّما في منزلها، في حجرة الثياب، مع الشاب الذي أبصرته برفقتها في شارع «الشانزيليزيه». وهكذا كنت مجنوناً، الآن وقد عدلت عن أن أكون سعيداً، أن أضع، موضع اليقين أنّني أصبحت، أنّه يمكن أن أصبح على الأقل هادئ النفس، بقدر ما ظننت (منذ وقت قليل مضى) أنني أقيم ناعم البال في السعادة. فما دام قلبنا يحتبس على نحو مستديم صورة كائن آخر، فإن ما يمكن أن يتهدم في كل لحظة لا يقتصر على سعادتنا فحسب، فإنّ ما يبدو، بعدما تتلاشى تلك السعادة، بعدما تعذّبنا ثمّ أفلحنا في تخدير عذابنا، خدّاعاً وزائلاً بقدر ما كانت السعادة نفسها إنّما هي راحة البال. وقد عادت إليّ راحة البال في نهاية المطاف، لأنّ ما داخل عقلنا بفضل أحد الأحلام فبدّل حالتنا النفسية ورغباتنا إنّما يتلاشى بدوره شيئاً فشيئاً: فليس الاستمرار والديمومة وقفاً على أيّ أمر. ولا حتى على العذاب. وإن الذين يتعذّبون من جرّاء الحبّ هم، على أيّ حال، أطبّاء أنفسهم، مثلما يروى عن بعض المرضى. فإذ لا يمكن أن يجيئهم عزاء إلا من الكائن الذي يسبّب عذابهم وأن ذلك العذاب صادر عنهم فإنما يجدون في هذا العذاب في النهاية دواءً لهم، فهو الذي يكشف لهم عنه في لحظة معينة، إذ إن ذلك العذاب يُبرز لهم، كلّما حركوه في داخلهم، مظهراً آخر للشخص المأسوف عليه، وهو مقيت تارة حتى ليفقد المرء الرغبة في لقائه لأنّه يجدر به أن يعذّبه قبل أن يستمتع معه، وطوراً عذب حتى لتوليه فضل العذوبة التي تسبغها عليه وتتخذ منها مدعاة للأمل. ولكن عبثاً هدأ العذاب الذي تجدّد داخلي في نهاية المطاف، فلم أشأ من بعد العودة إلى منزل

السيّدة «سوان» إلّا نادراً. ذلك بادئ الأمر لأنّ شعور الانتظار لدى الذين يحبون ثم هُجِرُوا - حتى الانتظار الذي لا يقرون به - والذي يعيشون فيه إنّما يتحوّل من تلقاء ذاته وأنه، وإن يكن في الظاهر مماثلاً لذاته، لَتُتْبع حالة أولى بأخرى ثانية تناقضها تماماً. أما الأولى فكانت نتيجة الأحداث المؤلمة التي سبق أن أثارت قلقنا وكانت انعكاساً لها، فإن انتظار ما يمكن أن يجري يمتزج بالرهبة، رهبة تزداد بمقدار ما نرغب في ذلك الحين أن ننشط بأنفسنا، إن لم يجئنا جديد من جهة تلك التي تحبّها، ولسنا ندري أيّ نجاح سيكلّل مسعى ربّما لم يعد من الممكن بعده مباشرة مسعى آخر. على أن انتظارنا الذي يتوالى إنّما يحكمه بعد فترة، حسبما رأينا، ودون أن ننتبه للأمر، الأملُ في مستقبل وهميّ لا ذكرى الماضي الذي عانينا وطأته. ويكاد يصبح مذ ذاك ممتعاً. ثم إن الأوّل عوّدنا، إذ يدوم بعض الشيء، أن نعيش في ترقّب. فالعذاب الذي كابدناه أثناء لقاءاتنا الأخيرة لا يزال حيّاً في صدورنا ولكنّه في غفوة. وليس ما يستعجلنا إلى تجديده. يضاف إلى ذلك أنّنا لا نرى تماماً ما يمكن أن نطلبه الآن. فإن امتلاك شيء يسير إضافي في المرأة التي نحبّها لن يفضي إلا إلى جعل ما لا نملكه أكثر ضرورة ويظلّ هذا الأخير مع ذلك أمراً متعذّر الإنقاص لأنّ حاجاتنا إنّما تنبثق من إشباع رغباتنا.

وبعد ذلك انضاف سبب أخير للسبب ذاك كي يحملني على قطع زياراتي للسيّدة «سوان» قطعاً تاماً. وما قوام هذا السبب المتأخّر أنني نسيت «جيلبيرت» بل محاولة لنسيانها على نحو أسرع. وما من شكّ أنّ زياراتي لدى السيّدة «سوان»، منذ انتهى عذابي الكبير، عادت فأصبحت، بالنسبة إلى ما ظلّ لديّ من حزن، المهدئ والسلوى اللذين كانا عظيمي الفائدة لي في البداية. ولكن السبب في فعالية الأوّل كان يفضي إلى ضرر الثانية، عنينا أن ذكرى «جيلبيرت» كانت تختلط بتلك الزيارات اختلاطاً حميماً. وما كانت السلوى لتفيدني إلّا إذا جعلت أفكاراً ومصالح وأهواء لا دخل لِـ«جيلبيرت» بها في صراع مع عاطفة لم يعد وجود «جيلبيرت»

يغذّيها. وتشغل تلك الحالات النفسيّة التي يظلّ فيها الشخص المحبوب خارج دائرتها، تشغل إذ ذاك حيّزاً يُقْتَطع، مهما كان هيّناً في البداية، من الحبّ الذي كان يشغل النفس بكلّيتها. ولا بدّ أن نجهد في تغذية هذه الأفكار وتنميتها، فيما تتضاءل العاطفة التي لم تعد سوى ذكرى، حتى تنافسها العناصر الجديدة التي أُدخلت في الذهن وتنتزع منها قسماً من النفس يتنامى حجماً وتختلسها في النهاية كاملة منها. لقد اتّضح لي أنها الطريقة الوحيدة في القضاء على الحبّ، وكنت لا أزال على قسط من الشباب والشجاعة كافٍ لأقدم على ذلك العمل ولأتحمّل أقسى أنواع العذاب الذي يولد من اليقين بأنّنا سوف نفلح مهما انبغى أن ننفق من وقت في ذلك. إن السبب الذي كنت أطرحه الآن في رسائلي إلى «جيلبيرت» بصدد إعراضي عن لقائها كان تلميحاً إلى سوء تفاهم غامض ووهميّ تماماً وقع بينها وبيني وكنت عقدت بادئ الأمر آمالاً بأن «جيلبيرت» سوف تطلب منّي إيضاحات حوله بيد أنّه لا يقع بالحقيقة حتى في أكثر العلاقات تفاهة في الحياة أن يلتمس مراسل إيضاحاً وهو يعلم أن جملة غامضة كاذبة مُتَّهمة قد وُضِعَتْ عن قصد كيما يحتجّ، ويسعده جدّاً أن يشعر أنّه يقبض بذلك على زمام المبادرة في العمليّات - كما وأن يحتفظ به - والأمر من باب أولى كذلك في علاقات أكثر رقّة يتمتّع فيها الحبّ بالكثير من البلاغة واللامبالاة بالقليل من الفضول. ولمّا لم تشكّك «جيلبيرت» في سوء التفاهم ذاك ولم تحاول معرفته فقد أضحى في نظري أمراً واقعاً أرجع إليه في كلّ رسالة. وهنالك في تلك المواقف المتّخذة زوراً في تصنّع الجفاء تأثير سحريّ يحملك على المثابرة عليها فقد بلغ بي الأمر، لكثرة ما أكتب: «منذ أن تباعد قلبانا» بغية أن تجيبني «جيلبيرت»: «ولكنّهما لم يتباعدا، فلنتصارح»، أن أيقنت أنّهما على تلك الحال. وإذ كنت أردّد دوماً: «ربّما تبدّلت الحياة بالنسبة إلينا ولكنها لن تمحو العاطفة التي خالجتنا» رغبة منّي في أن أسمعها تقول لي: «ولكن لم يتبدّل شيء البتّة وتلك العاطفة أقوى مما كانت في يوم»، فقد أخذت أعيش مع فكرة أنّ الحياة قد تبدّلت بالفعل

وأنّنا سوف نحتفظ بذكرى العاطفة التي لم تعد موجودة، مثلما يبلغ الأمر ببعض عصبيّي المزاج أن يظلوا مرضى على الدوام لأنّهم تظاهروا بالمرض. لقد أخذت أرجع الآن في كل مرة يقع عليّ فيها أن أكتب إلى «جيلبيرت» إلى ذلك التبدّل المُتَخيَّل والذي سيظلّ وجوده قائماً بيننا منذ أن أقرّت به ضمنياً بالصمت الذي تلتزمه بهذا الشأن في إجاباتها. ثمّ كفّت «جيلبيرت» عن الاكتفاء بالتورية، وأقرّت بنفسها وجهة نظري. ومثلما هو الأمر في الأنخاب الرسمية التي يُعيد فيها رئيس الدولة الذي يرحّبُ به، لم يكن يفوت «جيلبيرت»، في كلّ مرّة أكتب إليها: «لقد استطاعت الحياة أن تفرّق بيننا ولكنّها لن تستطيع أن تنسينا الساعات الحلوة التي ستظلّ دوماً عزيزة علينا» (ولعلّنا كنّا سنرتبك كثيراً في أن نقول لماذا فرّقت «الحياة» ما بيننا وأيّ تبدّل حدث). ولم أعد أتعذّب عذاباً مفرطاً. إلّا أنني لم أستطع، في يوم كنت أقول لها في رسالة إنّني علمت بوفاة بائعة السكّر النباتيّ العجوز في «الشانزيليزيه»، لم أستطع، بعدما فرغت من كتابة هذه الكلمات: «ظننت أن ذلك قد آلمك، أمّا أنا فقد حرّك الكثير من الذكريات في صدري»، أن أملك نفسي عن الإجهاش بالبكاء إذ رأيتني أتحدث بصيغة الماضي عن ذلك الحبّ، وكأنما الأمر أمر ميت أصبح منسيّاً تقريباً، ذلك الحبّ الذي لم أنفكّ غصباً عنيّ عن التفكير به في يوم على أنّه حيّ، على أنّه يستطيع على الأقلّ أن ينبعث من جديد. وليس أرقّ من تلك المراسلة بين أصدقاء لا يبغون من بعد لقاءً. كانت رسائل «جيلبيرت» في رقّة تلك التي كنت أكتبها لمن لا أبالي بهم، وكانت تزوّدني بعلامات الحنان الظاهرة نفسها التي أستعذب كثيراً ورودها منها.

على أنّ كلّ إحجام عن لقائها أخذ يهوّن شيئاً فشيئاً من اغتمامي. ولما أصبحت أقلّ معزّة لديّ لم يعد لذكرياتي المؤلمة من القوّة ما يكفي لتهدم في ارتدادها غير المنقطع تكوّن المتعة الناجمة لديّ عن التفكير في «فلورانسا» والبندقية. وأخذت آسف في تلك الفترات أنّني أعرضت عن الدخول في السلك الديبلوماسيّ وأن صنعت لنفسي حياة اللاترحال كي لا

أبتعد عن شابة ربّما لن أراها من بعد وقد نسيتها تقريباً. إنّنا نبني حياتنا من أجل شخص معيّن، فإن آن لنا أخيراً أن نستقبله فيها لم يأتِ ذلك الشخص، ثم هو يموت بالنسبة إلينا ونعيش سجناء داخل ما لم يكن معدّاً إلّا له. ولئن بدت البندقيّة بعيدة جدّاً بالنسبة إلى والديّ وكثيرة الحمى بالنسبة إليّ فقد كان من السهل على الأقلّ أن أذهب دونما تعب للإقامة في «بالبيك». بيد أنّه كان لا بدّ لذلك من مغادرة باريس والتخلّي عن تلك الزيارات التي كنت أسمع بفضلها، مهما كانت قليلة، السيّدة «سوان» تحدّثني أحياناً عن ابنتها. وقد شرعت أجد فيها على أيّة حال هذه المتعة أو تلك مما لا دخل لِـ«جيلبيرت» فيه.

وحينما اقترب الربيع وأعادالبردَ ثانية في زمن القديسين الذين من جليدٍ وصقيعِ أسبوع الآلام اتّفق لي كثيراً، إذ ترى السيّدة «سوان» أنّ البرد قارس لديها، أن أشهدها تستقبل وهي في فرائها وقد اختفت يداها تحت غطاء أبيض متألّق لكمّ ضخم مستوٍ وياقة - وكلاهما من فرو القاقوم - لم تخلعهما السيّدة «سوان» وكانا يبدوان وكأنهما آخر مربّعات من ثلوج الشتاء أكثر ثباتاً من غيرها، ولم تفلح حرارة النار ولا تدرّج الفصل في إذابتها. وكانت توحي إليّ بالحقيقة الكاملة لتلك الأسابيع الصقيعيّة التي بدأت مع ذلك بالإزهار صنوف أخرى من البياض في هذه الصالة التي لن أرتادها من بعد، صنوف أَبْعَثُ للنشوة كبياض «الكرات الثلجية» مثلاً التي تجمع فوق قمّة سوقها الطويلة العارية، كمثل الشجيرات التي على شكل خطّ دقيق في أعمال الذين سبقوا «رفائيل»، كراتها المجزّأة والمتحدة مع ذلك، كراتها البيضاء بياض ملائكة البشارة والتي تلفّها رائحة الليمون. ذلك أنّ سيّدة قصر «تانسونفيل» كانت تعلم أن نيسان لا يخلو من الزهور وإن جاء شديد البرودة، وأن الشتاء والربيع والصيف لا تفصل بينها حواجز في أحكام ما يذهب إليه رجل الشارع الذي يتصوّر العالم حتى فترات الحرّ الأولى وكأنه لا يحوي سوى بيوت عارية تحت المطر. وما كنت لأدّعي ولا اكترثت بأن السيّدة «سوان» تكتفي بما يبعث إليها بستانيّها من

«كومبريه» وأنها لا تسدّ الثغرات الناجمة عن إيحاء غير كافٍ بفضل اقتباسات من بواكير متوسّطيّة على يد بائعة زهورها المفضّلة. فقد كان يكفيني كيما يهزّني الحنين إلى الريف أن تذكّرني «الكرات الثلجية» (التي ما كان لها ربّما من هدف في ذهن سيدة البيت سوى أن تؤلّف مع أثاثها وأثوابها، بناءً على مشورة «بيرغوت»، «سمفونية يزهو فيها اللوان الأبيض»)، إلى جانب ثلج الكمّ الذي تحمله السيّدة «سوان»، بأنّ سحر «الجمعة العظيمة» يمثّل أعجوبة طبيعيّة يمكن مشاهدتها في كلّ عام لو كنّا أكثر تعقّلاً، وأن جعل صالة السيّدة «سوان»، يعينها في ذلك عطر لاذع مدوّخ لتويجات أنواع أخرى كنت أجهل أسماءها وكثيراً ما استوقفتني في نزهاتي في «كومبريه»، أن تجعلها في مثل نقاء منحدر «تانسونفيل» الصغير، في مثل بياض زهره الذي بلا أوراق، وتزخر مثله بروائح حقيقيّة.

بيد أن استذكار ذاك المنحدر كان لا يزال من قبيل الإفراط، إذ كان يحتمل أن تغذّي ذكراه القليل الذي بقي من حبّي لِـ«جيلبيرت». ولذلك باعدت أكثر ما بين زياراتي للسيّدة «سوان»، مع أني لم أعد أتعذّب البتّة في أثنائها، وحاولت أن أراها أقلّ ما يمكن. كنت أسمح لنفسي على الأكثر ببعض النزهات برفقتها بما أنّني مستمرّ في الامتناع عن مغادرة باريس. وأخيراً عاد الصحو، وعاد الدفء. ولما كنت أعلم أن السيّدة «سوان» تخرج خلال ساعة قبل الغداء وتمضي لتقوم ببضع خطوات في شارع «الغابة» بالقرب من ساحة «النجمة» ومن المكان الذي كانوا يدعونه إذ ذاك، بسبب من كانوا يجيئون لمشاهدة الأغنياء الذين لا يعرفونهم إلّا باسم، نادي «المُعْدَمِين»، حصلت من والديّ أن أستطيع تناول طعام الغداء نهار الأحد - لأنّه لم يكن لديّ فراغ في تلك الساعة أثناء الأسبوع - بعدهم بكثير في الساعة الواحدة والربع وأن أقوم بجولة قبل ذلك. ولم يفتني ذلك في يوم على مدى شهر أيّار ذاك لأنّ «جيلبيرت» قد ذهبت إلى الريف لدى صديقات لها. كنت أصل إلى «قوس النصر» قرابة الظهر، وأقوم بالمراقبة على مدخل الشارع ولا أحوّل عينيّ عن زاوية الشارع

الصغير الذي تجيء منه السيّدة «سوان» من بيتها، إذ لا يقع عليها سوى اجتياز بضعة أمتار. ولما كانت تحين إذ ذاك الساعة التي يعود فيها كثير من المتنزّهين لتناول طعام الغداء فإن عدد المتبقين كان قليلاً ومن باب الأناقة في قسمه الأكبر. وفجأة كانت تظهر السيّدة «سوان» على رمال الممر متأخّرة مبطئة زاهية كأجمل زهرة لن تتفتّح إلّا ظهراً، وتنشر من حولها أثواباً مختلفة على الدوام ولكنّي أذكرها خبّازية على وجه الخصوص. ثم هي ترفع وتنشر فوق معلاق طويل، في لحظة أوسع فترة من إشعاعها الصوان الحريري لشمسيّة واسعة من ذات لون تناثر بتلات فستانها. وكانت تحيط بها حاشية كاملة يؤلّفها «سوان» وأربعة أو خمسة من رجال المنتديّات جاؤوا في الصباح لزيارتها في منزلها أو هي التقت بهم؛ وكانت جمهرتهم السوداء أو الرماديّة المطواعة تؤدّي حركات آليّة تقريباً لإطار جامد يحيط بِـ«أوديت» فتضفي على هذه المرأة التي كانت تتمتّع وحدها بحدّة في العينين هيئة من تنظر أمامها، من بين جميع أولئك الرجال، وكأنّما من نافذة اقتربت منها، وتجعلها تنبثق نحيلة غير هيّابة في عري ألوانها الرقيقة وكأنّها تجلي كائن من نوع آخر ومن جنس مجهول وعزم يقارب عزم المحاربين توازي به وحدها حاشيتها العديدة. وكانت، إذ تبتسم سعيدة بالطقس الجميل وبالشمس التي لم تكن مزعجة بعد ولها مظهر الثقة والهدوء الذي للمبدع بعدما يُنْجِز صنيعه ولا يأبه للباقي، وهي على يقين بأن أثوابها - وإن لم يستسغها المارّة العاميّون - هي من أكثرها جميعها أناقة، كانت ترتديها لذاتها ولأصدقائها ببساطة دون انتباه مفرط، ولكن دون تجرّد تامّ كذلك، فلا تحول دون أن تخفق عُقَدُ صدارها وتنورتها خفقاً لطيفاً أمامها شأن مخلوقات لا تجهل وجودها وتدع لها متسامحةً أن تنصرف إلى صنوف لهوها وفق سرعتها الخاصّة بشرط أن تخضع لحركة سيرها، وكانت ترسل بين الحين والحين على شمسيّتها الخُبَّازيَّة التي كثيراً ما كانت تحملها مطويّة بَعْدُ ساعة وصولها نظراتها، وكأنّما على طاقة من بنفسج «بارما»، نظراتها السعيدة والشديدة العذوبة

إلى حدّ تبدو معه، حينما لا تحدّق من بعد بأصدقائها بل بحاجة جامدة، وكأنّها لا تزال تبتسم. وهكذا كانت تحتفظ لأثوابها بتلك المسافة الفاصلة من الأناقة، بل تجعلها فيها، تلك المسافة التي يحترم مجالها وضرورتَها الرجالُ الذين تتحدّث إليهم السيّدة «سوان» أكثر من سواهم حديث الأصحاب، ولا يخلو احترامهم من بعض إجلال غير المطلعين ومن إقرار بجهلهم يعترفون أنّ لصديقتهم عليه صلاحيّة وسلطة مثلما المريض على ما ينبغي أن يتّخذ من علاجات خاصّة ولوالدة على تربية أولادها. وكانت السيّدة «سوان»، من جرّاء الحاشية التي تحيط بها وتبدو كأنها لا تبصر المارّة وبسبب تأخّرها في الخروج سواء بسواء، توحي بتلك الشقّة التي قضت فيها صبيحة طويلة جدّاً وينبغي أن تعود إليها عمّا قليل لتناول طعام الغداء. كانت تبدو وكأنّها تشير إلى قربها بمشيتها المطمئنّة المتوانية الشبيهة بتلك التي نقوم بها بخطى وئيدة داخل حديقتنا. لكأنّما يخيّل إليك أنها لا تزال تسوق من حولها أفياء تلك الشقّة، أفياءها الداخليّة الرطبة. على أنّ رؤيتها ما كانت، بسبب ذلك كلّه، إلا لتزيدني إحساساً بالهواء الطلق وبالدفء. ينضاف إلى ذلك أنّ أزهار قبّعتها التي من قشّ طيّع وشرائط فستانها الصغيرة كانت تبدو، بما سلف لديّ من قناعة بأن أثواب السيّدة «سوان» كان يربطها بالفصول والأوْقات رباط لازم وحيد بفضل الطقوس التي كان لها باع طويل فيها، وكأنها تنبثق من شهر أيّار انبثاقاً طبيعياً أكثر ممّا يتّفق لأزهار الحدائق والأحراج. وكيما أتعرّف الرعشة الجديدة التي تهزّ الفصل ما كنت أرفع الطرف إلى أبعد من شمسيّتها المفتوحة الممدودة كسماء أخرى أكثر قرباً، سماء مستديرة رفيقة متحرّكة زرقاء. فلئن كانت تلك الطقوس مطلقة فقد كانت تفاخر، وتفاخر السيّدة «سوان» بالتالي، بأن تتفضّل بالانصياع للصباح والربيع والشمس، وما كانت هذه تبدو راضية كلّ الرضى أن تفضّلت امرأة أنيقة إلى هذا الحدّ فلم تتجاهلها وأن اختارت بسببها فستاناً من قماش أكثر ألقاً وخفّة يذكّر باتّساع فتحته في القبّة والأكمام برطوبة العنق والمعصمين، وأن تحمّلت من أجلها

جميع ما تتكبّده سيّدة كبيرة شاءت راضية أن تتناول وتزور في الريف أناساً عاديين يعرفهم الجميع وحتى عامة الشعب وأصرّت مع ذلك على أن ترتدي في ذلك النهار أثواباً ريفية. كنت أحيّي السيّدة «سوان» حال وصولها، فتستوقفني وتقول لي مبتسمة: «Good Morning» (صباح الخير). ونسير بضع خطوات. كنت أدرك أنّ تلك القوانين التي تحكم لباسها إنّما كانت تخضع لها من أجل ذاتها وكأنّما لحكمة سامية هي كبيرة كاهناتها: ذلك أنّي، إن اتّفق لها، وقد أحسّت بحرّ مفرط، أن تفتح سترتها أو حتى تنزعها تماماً وتحمّلني إيّاها بعدما ظنّت بإمكانها الاحتفاظ بها مزرّرة، كنت أكتشف في القميص ألفاً من التفاصيل المنفَّذة التي أسعدها الحظّ في أن تظلّ بعيدة عن الأبصار على غرار بعض أقسام الأوركسترا التي أولاها المؤلّف كامل اهتمامه مع أنها لن تبلغ أسماع الجمهور في يوم؛ أو كنت أبصر في كمّي السترة المطويّة فوق ذراعي، كنت أنظر طويلاً، بداعي المتعة أو التلطّف، جزءاً طفيفاً رائعاً كشريط ذي لون بديع وقطعة ساتين خبّازيّة تحجب عادة من أعين الجميع وكلاهما شغِلَ بدقّة الأجزاء الخارجيّة شأن تلك المنحوتات القوطيّة في إحدى الكاتدرائيات وقد أخفيت خلف حاجز على ارتفاع ثمانين قدماً وهي في كمال النقوش الغائرة على البوّابة الكبيرة، إلّا أنه لم يشاهدها أحد قطّ قبلما أُذِنَ لفنّان في إحدى رحلاته العارضة أن يصعد للتنزّه في كبد السماء بين البرجين ليشرف على المدينة بأسرها.

أمّا ما كان يضاعف الانطباع بأنّ السيّدة «سوان» كانت تتنزّه في شارع الغابة كأنّما في ممرّ حديقة تخصّها فإنها - بالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين كانوا يجهلون عاداتها في السير على الأقدام - جاءت سيراً على قدميها من غير ما عربة تلحق بها، هي التي تعوّد الناس أن يبصروها منذ أشهر أيّار تمر بأفضل الجياد وأجمل حلل للخدم في باريس وقد جلست باسترخاء وجلال، وكأنها إحدى الإلهات، يداعبها النسيم الدافئ في عربة مكشوفة ضخمة بثمانية نوابض. كانت السيّدة «سوان» تبدو، إذ تسير على قدميها،

ولا سيّما بمشيتها التي يُبَطِّئُهَا الحرّ، وكأنها انساقت خلف فضولها، كأنها ترتكب مخالفة أنيقة لقواعد التشريفات شأن هؤلاء الملوك الذين يخرجون من مقصوراتهم أثناء إحدى الحفلات ويزورون استراحة الجمهور فيختلطون على مدى بضع لحظات بالمشاهدين الآخرين وذلك دونما استشارة أحد، يرافقهم إعجاب يلوّنه بعض الاستنكار لحاشية لا تجرؤ أن توجّه أي انتقاد لهم. وهكذا كان يحسّ الجمهور، بين السيّدة «سوان» وبينه، بتلك الحواجز التي تنشأ عن بعض أنواع الغنى والتي تبدو له من أكثرها امتناعاً. إن ضاحية«سان جيرمان» تملك حواجزها هي الاخرى ولكنّها أقلّ استثارة لأنظار «المُعدمين» وخيالهم. فلن ينتابهم، بالقرب من سيّدة كبيرة أوفر بساطة وأقلّ بعداً عن الشعب، ومن السهل الخلط بينها وبين بورجوازية صغيرة، ذلك الإحساس باللاتساوي واللاكرامة الذي يداخلهم في حضرة السيّدة «سوان». وما من شك أن هذه الأنواع من النساء لا يدهشها مثلهم الجهاز اللامع الذي يحيط بها. فهي لا تصرف إليه انتباهها من بعد ولكنّما ذلك لشدّة ما تعودنه، يعني أن الأمر بلغ بهنّ أن يَرَيْنَهُ طبيعياً جدّاً وضرورياً جدّاً وأن يحكمن على غيرهم من الناس حسبما يبدون أكثر أو أقل اطّلاعاً على عادات البذخ تلك: إلى حدّ أنّ أولئك النساء، إن وضعن أحد المارّة في أدنى مرتبة (بما أن العظمة التي تتجلى لديهنّ ويكتشفنها لدى الآخرين مادّية محضة يسيرة المشاهدة طويلة الاكتساب صعبة التعويض) إنما يظهرن له بالطريقة نفسها في أعلى مرتبة، ونقصد في الحال وللوهلة الأولى وبصورة نهائية. ولعل تلك الطبقة الاجتماعية الخاصّة التي كانت تعدّ بين صفوفها إذ ذاك نساء يخالطن نساء الطبقة الأرستقراطية مثل «الليدي إيسرائيلز» أو يزمعن التردّد عليهن ذات يوم مثل السيّدة «سوان»، تلك الطبقة الوسيطة التي تقع في مرتبة أدنى من ضاحية «سان جيرمان»، بما أنّها كانت تتودّد إليه، ولكنّها تسمو على ما ليس من ضاحية«سان جيرمان» وتتّسم بهذا الأمر الخاصّ الذي قوامه أنّها، بعد ما أفلحت في التخلص من عالم الأغنياء، لا تزال الثروة بعد ولكنّها الثروة وقد أصبحت قابلة للتمدّد

خاضعة لغاية وفكر أرستقراطيّين، أصبحت المال المطواع الشاعري النقوش الذي يعرف كيف يبتسم، لعل تلك الطبقة لم تعد موجودة على الأقل بالميزة نفسها والسحر نفسه. ثم إن النساء اللواتي كنّ في عدادها ما كان ليتوافر لهنّ اليوم ما ألّف الشرط الأوّل لسلطانهن إذ إنهن فقدن جميعهن تقريباً جمالهنَّ فتقدمهنَّ في السنّ. على أن السيّدة «سوان» إنّما كانت تبصر، وهي تتقدم في شارع الغابة مهيبة باسمة طيبة، من أعالي أمجاد صيفها الناضج الذي لا يزال شهيّاً جداً بقدر ما تفعل من قمّة جميل ثرائها، تبصر مثل «هوباتيا»[1] جريان العوالم تحت مسيرة قدميها المتباطئتين. وكان شبّان يمرّون فينظرون إليها بقلق وهم يحارون إن كانت علاقاتهم الهيّنة بها كافية كيما يسمحوا لأنفسهم بتحيّتها (أضف إلى ذلك أنهم يخشون، إذ لم يتمّ تقديمهم لِـ«سوان» سوى مرة وتكاد، ألا يتعرّف إليهم). وما كانوا يقدمون على ذلك إلا وهم يرتجفون حيال النتائج ويتساءلون إن كانت مبادرتهم المتهوّرة في تحدّيها وانتهاكها الحرمات واعتدائها على سيادة طبقة مصونة الحقوق لن تقضي إلى إطلاق الكوارث من عقالها أو إلى إنزال عقاب إلهيّ بهم. وكانت تطلق فحسب، كأنما إلى حركة مسنّنات، إيماءات شخصيّات هيّنة من أرباب التحيّات إن هم إلا الذين يحيطون بِـ«أوديت» بدءاً بِـ«سوان» الذي كان يرفع قبّعته العالية المبطّنة بالجلد الأخضر بابتسامة أنيقة تعلّمها في ضاحية«سان جيرمان»، ولكنّما لا تقترن بها بعد اللامبالاة التي ربّما داخلته فيما مضى. لقد حلّ محلها (إذ تشبّع إلى حدّ ما بأفكار «أوديت» المسبقة) في الآن نفسه التبرّم من أن يقع عليه الرّد على رجل رديء الملبس نوعاً ما والارتياح لأن زوجته تعرف الكثير من الناس، ذلك الشعور المختلط الذي كان يعبّر عنه بقوله للأصدقاء الأنيقين الذين يرافقونه: «آخر أيضاً! إنّي، وشرفي، أتساءل أين تعثر

(١) Hypatie عالمة يونانية في الرياضيات والفلسفة عرفت بعملها بقدر ما اشتهرت بجمالها.

«أوديت» على كلّ هؤلاء الناس!» على أنَّ السيّدة «سوان» كانت تلتفت إليَّ بعدما تردُّ بإشارة من رأسها على عابر السبيل المتهيّب الذي أصبح بعيداً عن الأبصار ولكن قلبه يوالي الخفقان، وتقول: «انتهى الأمر إذن؟ ولن تجيء من بعد لزيارة «جيلبيرت»؟ يغبطني أني مستثناة وأنّك لا تتهرّب مني تماماً إنّي أحب أن أراك. ولكنّي كنت أحبُّ كذلك التأثير الذي كنت تمارسه على ابنتي، وأحسب أنها تأسف للأمر كثيراً بدورها. على أني لا أريد أن أستبدّ بك فقد لا يظلّ لك سوى ألا تبغي لقائي أنا الأخرى!» - «أوديت، هذا «ساغان» يقرئك السلام»، يقول «سوان» ليلفت انتباه امرأته. وفعلاً كان الأمير يقوم، كما هي الحال في خاتمة مسرحية أو عرض في السيرك أو لوحة قديمة، بتوجيه حصانه وجهة «أوديت» ويرفع إليها تحيّة واسعة مسرحية وكأنّما رمزية يتعاظم داخلها كل ما تجمّع من كياسة الفارس والسيد العظيم الذي ينحني بإجلال أمام «المرأة»، ولو تجسّدت في امرأة لا تطيق أمّه أو شقيقته التردّد عليها. كانت السيّدة «سوان» على أيّة حال، وقد تمَّ التعرّف إليها داخل شفافية الظلال الرجراجة والطلاء المشرق الذي تسكبه فوقها شمسيتها، كانت في كل لحظة موضع تحيات آخر الفرسان المختلفين وكأنما تجري صورهم عدواً فوق ضياء الشارع الأبيض، وهم رجال نوادٍ كانت أسماؤهم الشهيرة في نظر عامّة الشعب - كـ«أنطوان دو كاستيلان» و«أدالبير دو مونمورانسي» وآخرين كثيرين - أسماء أصدقاء ألفتها السيّدة «سوان». ولما كان متوسط العمر - أو التعمير النسبيُّ - أطول بكثير إلى ذكريات الإحساسات الشاعريّة منه بالنسبة إلى آلام القلب، فقد أعقبتها، بعدما تلاشت منذ فترة طويلة صنوف الغم التي كانت بي آنذاك بسبب «جيلبيرت»، الغبطة التي تداخلني، في كلّ مرَّة أريد أن أقرأ، في ما يشبه الساعة الشمسيّة، الدقائق الواقعة بين الثانية عشرة والربع والواحدة من بعد ظهر شهر أيّار، إذ أعود فأراني أتحدّث على هذا النحو إلى السيّدة «سوان» تحت شمسيّتها وكأنّما في انعكاسات عريشة من زهر الغليسين.

القسم الثاني

أسماء البلدان: البلاد

رسوم أولية سريعة للسيد
«دو شارلوس» و«روبير دو سان لو».
– عشاء في منزل «بلوك». – الأعشية
في «ريفبيل» – ظهور «ألبيرتين»

مكتبة
t.me/soramnqraa

كنت قد توصلت إلى ما يقارب اللامبالاة التامة حيال «جيلبيرت»، حينما ذهبت بعد سنتين إلى «بالبيك» برفقة جدّتي. وحينما كان يتملّكني سحر وجه جديد، حينما كنت آمل بوساطة فتاة أخرى معرفة الكاتدرائيات القوطيّة والقصور والحدائق في إيطاليا، كنت أقول في نفسي بحزن: إن حبّنا بما هو حب يتناول مخلوقاً معيّناً، ربّما لم يكن أمراً واقعاً تماماً، فلئن استطاعت تداعيات أحلام ممتعة أو مؤلمة أن تقرنه بعض الوقت بامرأة حتى لتحملنا على الظنّ بأنها أوحت به على نحو لازم، فإن ذلك الحبّ يُبعثُ بالمقابل من جديد لينصبّ على امرأة أخرى إن نحن تحرّرنا من تلك التداعيات بملء إرادتنا أو دون علم منّا، كما لو كان على العكس عفويّاً وانطلق من ذواتنا فحسب. بيد أن لامبالاتي كانت بعد متقطّعة حين غادرت إلى «بالبيك» وأثناء فترات إقامتي الأولى، فغالباً ما كنت أعيش (إذ يندر جداً أن تكون حياتنا متسلسلة زمنياً فهي تُداخل الكثير من الأخطاء التاريخية في توالي الأيام) في فترات تسبق البارحة وما قبل البارحة، تلك الفترات التي كنت أحبّ فيها «جيلبيرت». حينئذ كان يؤلمني ألّا أراها وكأنما الأمر واقع في تلك الفترة. فقد كانت الأنا التي أحبّتها، وقد حلّت أخرى محلّها تماماً على وجه التقريب، تعود إلى البروز من جديد وكان يردها لي أمر تافه أكثر بكثير مما يفعل أمر مهمّ. فقد سمعت على سبيل المثال، كيما أستبق الأمور حول إقامتي في «النورماندي»، سمعت مجهولاً

في «بالبيك» التقيت به على السدّ البحريّ يقول: «عائلة مدير وزارة البريد». كان ينبغي أن يبدو لي ذلك القول تافهاً، (بما أنني لم أكن أعلم آنذاك التأثير الذي ستمارسه تلك العائلة على حياتي)، ولكنّه سبّب لي عذاباً شديداً، ذاك الذي كانت تعانيه «أنا» زالت في أعظم قسم منها منذ زمن طويل في افتراقها عن «جيلبيرت». ذلك لأني ما عدت فكّرت قطّ في حديث جرى بين «جيلبيرت» ووالدها في حضرتي بخصوص عائلة «مدير وزارة البريد». وذكريات الحبّ لا تشذّ عن القوانين العامّة التي تحكم الذاكرة والتي تحكمها بدورها قوانين العادة الأكثر شيوعاً. وبما أن هذه الأخيرة تضعف كلّ شيء فإن ما يذكرنا كائناً أفضل التذكير إنما هو بالضبط ما سبق أن نسيناه (لأنّه كان غير ذي شأن وأنّنا تركنا له هكذا كامل قوّته). ولذلك كان أفضل جزء من ذاكرتنا في خارجنا، في هبّة ماطرة، في رائحة الهواء الحبيس في غرفة أو رائحة أوّل لهب، وحيثما نعود فنلقى من ذواتنا ما كان ازدراه عقلنا، إذ لم يستخدمه، آخر مؤونة للماضي وأفضلها، تلك التي تعرف كيف تبكينا حين تبدو دموعنا وقد جفّت جميعها. في خارجنا؟ بل الأفضل أن تقول في داخلنا، ولكنه قد حُجبَ عن أنظارنا في نسيان يطول أو يقصر. وإنّنا بفضل هذا النسيان وحده نستطيع بين الحين والحين أن نعود فنلقى الكائن الذي كنّاه وأن نتّخذ مكاننا قبالة الأشياء كما كان يفعل ذلك الكائن وأن نتألم من جديد لأننا لم نعد نحن بل هو وقد كان يحب ما لا نبالي به الآن. إن صور الماضي تشحب شيئاً فشيئاً في وضح الذاكرة المعتادة وتمّحي ولا يظلّ شيء ولن نعود فنلقاه بعد. أو أننا بالأحرى ما كنا لنلقاه من بعد لو لم يَجْرِ بعناية احتباس بعض كلمات في النسيان (من مثل «مدير وزارة البريد») مثلما تُودَعُ في المكتبة الوطنية نسخة كتاب يحُتمَل بدونه أن يستحيل العثور عليه.

على أن العذاب وعودة حبّ «جيلبيرت» ذاك لم يدوما أكثر من ذينك اللذين يتفقان لنا في الحلم، لأنّ «العادة» القديمة لم تكن، على العكس في هذه المرّة، موجودة هناك، في «بالبيك»، كيما تسهم في دوامهما.

ولئن بدت آثار «العادة» متناقضة فإنّما يعني ذلك أنّها تخضع لقوانين عديدة. لقد أصبحتُ في باريس أكثر فأكثر لامبالاة بـ«جيلبيرت» بفضل «العادة»، وقد أتمّ تغيير العادة، أي توقّف «العادة» المؤقّت، عملُ «العادة» حينما ذهبت إلى «بالبيك». إنّها تُضعف ولكنّها تولي استقراراً، وتأتي بالتفكّك ولكنّها تجعله يدوم إلى ما لا حدود. لقد كنت في كل يوم منذ سنوات أنسخ حالتي النفسية كيفما تيسر لي ذلك عن حالة البارحة. أمّا في «بالبيك» فإن سريراً جديداً يأتونني في الصباح إلى جانبه بفطور مختلف عن فطور باريس ما كان ليعين من بعد الأفكار التي غذّت حبّي لِـ«جيلبيرت»: فهنالك حالات (شديدة الندرة بالحقيقة) يبدو فيها تغيير المكان خير وسيلة لكسب الوقت بما أن الإقامة الدائمة تشلّ حركة الأيّام. وجاءت رحلتي إلى «بالبيك» بمثابة أوّل طلعة يقوم بها متماثل للشفاء لم يكن ينتظر سواها ليتبين أنّه شفي.

ولعلّ مثل هذه الرحلة تتمّ اليوم دون شكّ بالسيّارة ظناً منّا أنّنا نضفي عليها هكذا متعة أعظم. وسوف نرى أنه، إن تمّ بهذه الطريقة، فربّما جاء بهذا المعنى أو ذاك أقرب إلى الصحّة بما أنّنا نتابع عن كثب وفي جوّ من الألفة أشدّ وثوقاً التدرّجات المختلفة التي يتغيّر وفقها وجه الأرض. على أنّ متعة السفر النوعيّة لا تكمن في إمكان النزول في الطريق والتوقّف حينما يصيبنا التعب، وإنّما في جعل الاختلاف بين الذهاب والوصول لا غير ملموس قدر المستطاع بل عميقاً جهد المستطاع، وأن نحسّ به في كليّته كاملاً غير منقوص على نحو ما كان في صدرنا حينما كان يحملنا خيالنا من المكان الذي كنّا نعيش فيه إلى قلب المكان المشتهى بقفزة تبدو أقل إعجازاً لأنها تقطع مسافة منها لأنها تربط بين شخصيتين متميزتين من الأرض وأنّها تنقلنا من اسم إلى اسم آخر، قفزة تلخصها (أفضل مما يفعل المشوار حيث لا نقطة وصول تقريباً بما أننا نحلّ حيثما نريد) العملية الغامضة التي تتمّ في هذه الأمكنة الخاصّة، عنينا المحطّات التي تكاد لا تؤلّف جزءاً من المدينة ولكنّها تتضمّن جوهر شخصيتها مثلما تحمل اسمها مكتوباً على لافتة.

ولكنّ عصرنا به هوس النزوع، في كل لون، إلى الإحجام عن إبراز الأشياء إلا ضمن ما يحيط بها في الواقع فيفضي بذلك إلى القضاء على الجوهري، على العمليّة التي سلختها عنه. فيعرضون لوحة وسط أثاث وتحف وستائر من العصر نفسه والكل إطار باهت تجيد تأليفه في فنادق اليوم أجهل ربّة بيت بالأمس من اللواتي يمضين نهارهنّ الآن في دوائر المحفوظات والمكتبات، إطار تخلّف فينا الرائعة التي ننظر إليها من خلاله في أثناء الفرح المسكر نفسه الذي يجدر بنا ألا نطالبها بها إلا في إحدى قاعات المتاحف التي ترمز أفضل بكثير، من جراء عريها وخلوها من جميع المميّزات، إلى الأجواء الباطنة التي اعتزل فيها الفنان ليبدع.

على أن تلك الأمكنة الرائعة التي هي المحطّات والتي نرحل منها إلى جهة بعيدة إنّما هي كذلك للأسف أماكن فاجعة، فلئن تحقّقت فيها المعجزة التي بفضلها تصبح البلدان التي ما كان لها وجود إلا في فكرنا تلك التي سنعيش فيها، فلا بدّ للسبب نفسه أن نتخلى لدى خروجنا من قاعة الانتظار عن أن نعود فنلقى بعد قليل الغرفة الأليفة التي كنّا فيها منذ لحظة فقط. ولا بدّ من هجر كل أمل في العودة للنوم في المنزل حالما قرّرنا الدخول إلى المغارة النتنة التي نلج منها إلى عالم الأسرار، إلى واحد من تلك المشاغل الكبيرة المزجّجة، من مثل مشغل «سان لازار» حيث كنت أمضي للبحث عن قطار «بالبيك» والذي كان ينشر فوق المدينة المخترقة واحداً من تلك الأجواء القاسية المترامية التي تنذر بمخاطر المآسي والتي تشبه بعض أجواء من حداثة تكاد تكون باريسية لـ«مانتينيا» أو «فيرونيز»، والذي ما كان يمكن أن يتم تحت سقفه سوى ما كان من قبيل الفعلة الرهيبة المهيبة كرحيل بالقطار أو رفع الصليب.

لم يُبْدِ جسمي أيّ اعتراض حيال تلك الرحلة طوال ما اكتفيت بأن أبصر من زاوية سريري في باريس كنيسة «بالبيك» الفارسيّة وسط رقع ثلج العاصفة. ولم تبدأ الاعتراضات إلا حينما أَدركَ أنّه سوف يشارك في اللعبة وأنّهم سوف يقتادونني عشية وصولي إلى غرفتي التي ستكون مجهولة لديه.

وقد زاد من عمق تمرده أنني علمت عشيّة الرحيل نفسه أن أميّ لن ترافقنا إذ فضّل والدي، وقد استبقي في الوزارة إلى حين ذهابه مع السيّد «دو نوربوا» إلى إسبانيا، أن يستأجر داراً في ضواحي باريس. ولم تكن مشاهدة «بالبيك» لتبدو، على أية حال، أقل ابتغاء في نفسي لأنّه ينبغي لي أن أشتريها مقابل داء كان يبدو أنّه يصور ويضمن لي، على العكس، حقيقة الانطباع الذي كنت ماضياً أبحث عنه، الانطباع الذي ما كان ليحل «محله أيّ مشهد مساوٍ له على حدّ زعمهم، ولا أيّ منظر كان يمكن أن أبادر إلى رؤيته دون أن يحول ذلك نفسه دون أن أعود فأنام في سريري. وما كانت تلك أوّل مرّة أحس فيها أنّ الذين يحبون والذين ينالون المتعة ليسوا واحداً. كنت أحسبني أتوق إلى «بالبيك» توقاً يساوي في عمقه توق الدكتور الذي كان يهتم بي وقد قال لي في صبيحة السفر وهو يعجب لمظهري التعيس: «جوابي لك أنّني لو استطعت العثور فقط على ثمانية أيّام لأمضي وأستنشق الهواء الطلق على شاطئ البحر فلن أنتظر من يرجوني في ذلك. سوف تنعم بسباقات الخيول واليخوت، وسيكون ذلك رائعاً». أمّا أنا فقد سبق أن عملت، قبلما أذهب لسماع «لا بيرما»، أنه مهما كان الأمر الذي أحبّه فلن يلقى مكانه إلا في نهاية ملاحظة مؤلمة ينبغي لي في أثنائها أن أضحّي بادئ الأمر بمتعي مقابل هذا الخير الأسمى عوضاً عن أن أبحث عنه فيها.

وكانت جدّتي بالطبع تتصور رحلتنا تصوراً مختلفاً بعض الشيء وقد شاءت، وهي على الدوام راغبة رغبتها بالأمس في أن تضفي على الهدايا التي تُقَدَّم لي طابعاً فنياً، وبغية أن تجعل من هذه الرحلة «امتحاناً» قديماً في قسم منه، أن نكرر المسار الذي اتبعته «مدام دو سيفينييه» حينما انطلقت من باريس إلى «لوريان» مروراً بـ«شون» و«بونت أودومير» بالقطار في جزء منه وبالعربة في الجزء التالي. بيد أنّ جدّتي اضطرت أن تتخلّى عن هذا المشروع بناء على حظر من والدي الذي كان يعلم كم يمكن، وحينما تنظم رحلة بغية أن تأخذ منها كامل المكسب الفكري الذي يمكن

أن تتضمّنه، كم يمكن التنبؤ بقطارات تفوتك وبأمتعة تفقدها وآلام في الحلق ومخالفات. على أنها كانت تغتبط على الأقلّ لدى التفكير بأنّنا لن نكون البتّة، آن الذهاب إلى الشاطئ، عرضة لأن يمنعنا عن ذلك الوصول المفاجئ لما كانت تدعو العزيزة «سفينييه» بحمولة ملعونة لإحدى العربات بما أنّنا لن نعرف أحداً في «بالبيك» إذ لم يزوّدنا «لوغراندان» برسالة توصية لشقيقته. (والإحجام لم يلق التقييم نفسه لدى عمّتيّ «سيلين» و«فيكتوار» اللتين سبق أن عرفتا فتاةً تلك التي لم تدعواها حتى ذاك سوى «رونيه دو كامبرمير» للتدليل على ألفة الأمس، ولا تزالان تحتفظان منها بتلك الهدايا التي تزدان بها الغرف ويزدان الحديث ولكنّ الواقع لا يتّفق وإيّاها، فحسبتا أنّهما تثأران لإهانتنا بالإقلاع عن التفوه في حضرة السيّدة «لوغراندان» باسم ابنتها وتكتفيان بتبادل التهاني بعد خروجهما بجمل من هذا القبيل: «لم أشر البتّة إلى من تدرين. وأحسب أنّه تمّ إدراك ذلك»).

سوف نسافر إذن من باريس بقطار الواحدة والدقيقة الثانية والعشرين، هذا القطار الذي ما أكثر ما طاب لي البحث عنه في دليل السكك الحديدية، حيث كان يخلّف فيّ كلّ مرة رعشة الرحيل بل ما يقارب وهم سعادته، حتى لا أتخيّل أنّي أعرفه. وبما أن تحديد ملامح سعادة ما في مخيلتنا إنّما ينجم عن تماثل الرغبات التي تبثها في صدرنا أكثر منه عن دقّة المعلومات التي توافرت لنا عنه فقد كنت أحسب أنّي أعرفها في تفاصيلها ولا شكّ أنني سأحسّ بمتعة خاصّة في عربة القطار حينما يأخذ النهار بالبرودة وأتأمّل هذا الأثر أو ذاك لدى اقترابي من هذه المحطّة أو تلك، حتى إن هذا القطار الذي كان يُوقظ في نفسي على الدوام صور المدن نفسها التي ألّفها بضياء ساعات ما بعد الظهر تلك التي يجتازها إنّما كان يبدو لي مختلفاً عن القطارات الأخرى جميعها، وقد بلغ بي الأمر في النهاية، مثلما نفعل في الغالب بشأن شخص لم نره في يوم ولكنّما يطيب لنا أن نتخيّل أنّنا فزنا بصداقته، أن أضفي هيئة خاصّة لا تتحول على هذا

المسافر الفنّان والأشقر الذي اصطحبني على دربه، وأستودعتُه على حضيض كاتدرائية «سان لو» قبل أن يبتعد صوب مغرب الشمس.

ولمّا لم يكن باستطاعة جدّتي عقد النيّة على الذهاب إلى «بالبيك» على هذا النحو الغبيّ فلسوف تتوقّف أربعاً وعشرين ساعة لدى إحدى صديقاتها، ومن هناك أنطلق ثانية في المساء نفسه لتفادي الإزعاج، وكذلك ليتسنّى لي أن أشاهد في نهار الغد كنيسة «بالبيك» التي كانت على بعد كافٍ من «بالبيك الشاطئ»، فيما نُقِلَ إلينا، وحيث قد لا يتسنّى لي الذهاب فيما بعد في بدء علاجي عن طريق الحمامات. ولعلّه كان يشقّ أقلّ عليّ أن أحسّ أن موضوع رحلتي الرائع قد رتب قبل الليلة الأليمة الأولى التي سأدخل فيها إلى منزل جديد وأقبل العيش فيه. إلا أنّه انبغى بادئ الأمر هجر القديم، وكانت والدتي قد تدبّرت أمرها كي تستقرّ في ذلك اليوم نفسه في «سان كلو» واتخذت أو تظاهرت باتخاذ جميع الترتيبات لتذهب إلى هناك مباشرة بعدما تصطحبنا إلى المحطّة دون أن يتوجّب عليها الرجوع إلى البيت حتى تخشى أن أبتغي العودة معها بدلاً من الذهاب إلى «بالبيك». بل هي قرّرت، بحجّة كثرة ما ينبغي لها أن تقوم به في البيت الذي استأجرته منذ قليل وأن الوقت سيعوزها لذلك، وفي الواقع بغية أن تجنّبني قسوة هذا النوع من الوداع، ألّا تظلّ معنا حتى انطلاق القطار حيث يبدو الفراق فجأة، بعدما أُخْفِيَ من قبل تحت ستار من المجيء والرواح واستعدادات لا تُلزم بصورة نهائية، مستحيل الاحتمال في حين لم يعد بالإمكان تجنّبه وقد ترك بكليته في لحظة لا حد لوضوحها العاجز والأخير.

وأخذت أحسّ للمرّة الأولى أنّه يمكن أن تعيش والدتي بدوني، لأمر آخر سواي، أن تعيش عيشة أخرى. سوف تسكن بمفردها مع والدي الذي ربّما وجدت أن رداءة صحّتي وعصبيتي تضفيان على عيشته بعض التعقيد والغم. كان ذلك الفراق يزيد من غمي لأنني كنت أقولُ في نفسي إنه ربما ألّف بالنسبة إلى والدتي نهاية خيبات الأمل المتلاحقة التي سببتها لها

والتي كتمتها عنيّ وأدركت بعدها صعوبة العطلة المشتركة. وربما كان أيضاً المحاولة الأولى لحياة شرعت تسلّم بها للمستقبل كلّما تقدّمت السنون بها وبوالدي، حياة أراها فيها أقلّ من ذي قبل وتصبح فيها بالنسبة إليّ، والأمر لم يوافني البتّة حتى في أحلامي المزعجة، غريبة بعض الشيء، تصبح سيّدة تراها تعود وحيدة إلى دار لن أكون فيها وتسأل البواب إن لم يكن ثمة رسائل مني.

وكدت لا أستطيع إجابة المستخدم الذي أراد أن يأخذ حقيبتي. وكانت أمي تجرّب، كيما تعزيني، وسائل تبدو لها من أكثرها نجوعاً، وتحسب أن لا طائل من الظهور بمظهر من لا تبصر اغتمامي، فكانت تسخر منه بهدوء قائلة:

– «ما عساها تقول كنيسة «بالبيك» لو علمتْ أنّك تستعدّ للمبادرة إلى زيارتها بهذا المظهر التعيس؟ أهذا هو المسافر المفتون الذي يتحدّث عنه «راسكين»؟ وعلى أيّة حال سوف أعلم إن كنتَ على مستوى الظروف فإنّني سأظلّ ولو بعيدة إلى جانب كتكوتي الصغير. وغداً تصلك رسالة من أمّك».

وقالت جدّتي: «يا ابنتي، إني أراك على غرار السيّدة «دو سيفينييه» تضعين خريطة نصب عينيك ولا تفارقيننا لحظة واحدة».

ثم تحاول والدتي أن تسليّني فتسألني ما عساني سأطلب للعشاء وتنظر بإعجاب إلى «فرانسواز» وتمتدحها لقبّعة ومعطف لم تعد تعرفهما مع أنّهما أثارا فيما مضى اشمئزازها حينما رأتهما جديدين على شقيقة جدّتي، الأولى بالعصفور الضخم الذي كان يجثم فوقها، والثاني الذي تثقله الرسوم السمجة والسبّج الداكن. إلا أن «فرانسواز» كانت قد قلبت المعطف بعد ما يلي فأظهرت قفا قماش واحد اللون جميله. أمّا العصفور فقد جرى نبذه منذ زمن طويل بعدما انكسر. ومثلما يحيرك أحياناً أن تلقى دقيق الفنّ الذي يجهد في السعي إليه أكثر الفنانين وعياً في أغنية شعبيّة وعلى واجهة بيت فلّاح جعل وردة بيضاء أو صفراء تتفتّح فوق بابه في

المكان الذي ينبغي بالضبط أن تتفتّح فيه - كذلك وضعت «فرانسواز» بذوق ساذج لا يُخطئ على القبّعة التي أضحت رائعة عقدة المخمل وعقد الشريط الحريري التي تفتنك في رسم لِ«شاردان» أو لِ«وستلر».

ولما امتدّ الاحتشام والنزاهة اللذان كانا في الغالب يضفيان نبلاً على وجه خادمتنا العجوز إلى الملابس التي ارتدتها، كامرأة متحفظة ولكن بدون دناءة، امرأة تعرف كيف «تحافظ على مكانتها وتظلّ في مكانها»، بداعي الرحلة بغية أن تكون جديرة بالظهور معنا دون أن يبدو أنها تجهد في إبراز نفسها، فقد كانت «فرانسواز» تذكر، كيما نعود إلى عصر أوفر قدماً، بقماش معطفها الكرزي المتقادم عهداً ووبر ياقتها التي من فرو ناعم، كانت تذكّر بواحدة أيّ واحدة، من صور «آن دو بروتانيي» التي رسمها في كتب «الساعات» أحد أرباب الفنّ القدماء والتي يبدو فيها كلّ شيء في محلّه فيما انتشر الإحساس بالانسجام في جميع الأقسام بالتساوي حتى لتعبّر غرابة الأثواب بغناها وتقادم عهدها عن الرصانة الورعة نفسها التي تعبّر عنها العينان والشفتان واليدان.

ربّما لم يكن بالإمكان التحدّث عن الفكر بشأن «فرانسواز». فما كانت تعرف شيئاً، بهذا المعنى الشامل الذي يساوي فيه من لا يعرف شيئاً من لا يدرك شيئاً، فيما عدا الحقائق النادرة التي يستطيع القلب بلوغها مباشرة. إن عالم الأفكار الشاسع لم يكن موجوداً بالنسبة إليها. على أنّك كنت تحار إزاء صفاء نظرتها والخطوط الناعمة التي لذاك الأنف وتينك الشفتين، إزاء جميع هذه الأدلة التي يفتقر إليها العديد من المثقفين والتي ربّما عنت لديهم أقصى درجات الأناقة ونبل الترفّع الذي يميّز صفوة العقول، كنت تحار كأنّما إزاء النظرة الذكية الطيّبة التي لكلب تعلم مع ذلك أن سائر مفاهيم البشر غريبة عليه، وبمقدورك التساؤل إن لم يكن بين هؤلاء الإخوة المتواضعين الآخرين، عنينا الفلّاحين، أشخاص هم بمثابة الرجال المتفوقين في دنيا بسطاء العقول أو هم بالأحرى، فيما حكم عليهم قدر ظالم أن يعيشوا بين صفوف بسطاء العقول وقد حرموا نور

المعرفة ولكنّهم ينتمون إلى الطبائع المختارة انتماء طبيعيّاً وأساسيّاً أكثر مما يتّفق لغالبية الناس المتعلمين، بمثابة أعضاء من الأسرة المقدّسة مشتّتين ضائعين فاقدي العقل، بمثابة أقارب، لم يبرحوا الطفولة، لأرفع العقول، ولم ينقصهم، - على نحو ما يبدو في بريق عيونهم الذي لا يمكن أن نخطئ فيه والذي لا ينطبق فيها مع ذلك على شيء - كيما تتيسرّ لهم الموهبة، سوى المعرفة.

كانت والدتي تقول لي، وقد رأت أنّني أجد مشقّة في احتباس دموعي: «كان من عادة «ريغولوس» في الظروف العصيبة. . . وبعد، فليس ذلك لطيفاً بالنسبة إلى أمّك. ولنستشهد، شأن جدّتك، بالسيّدة «دو سفينييه»: «سوف أضطرّ أن أستخدم كامل الشجاعة التي لا تتوافر لك». وكانت تحاول، وقد تذكّرت أن مودّة الغير تصرف عن الآلام الأنانيّة، أن تشيع السرور في نفسي بقولها إنها تظنّ أنّ رحلتها إلى «سان كلو» ستتمّ على أحسن حال وإنها راضية عن العربة التي احتفظت بها وإن الحوذيّ مهذب والعربة مريحة. وكنت أجهد في التبسم إزاء هذه التفاصيل وأحني الرأس إحناءة القبول والرضى. بيد أنها ما كانت تعينني إلّا في تمثُّل رحيل والدتي تمثُّلاً أقرب إلى الحقيقة فكنت أنظر إليها، منكمش الفؤاد كما لو تمّ الفراق بيننا، في ظل قبّعة القش المستديرة تلك التي ابتاعتها من أجل الريف وفي فستان خفيف ارتدته بسبب ذلك المشوار الطويل في الهاجرة، وكلاهما يجعلن منها امرأة أخرى تدور منذ ذاك في فلك دارة «مونترتو» حيث لن يتسنّى لي أن أراها.

كان الطبيب قد أشار عليّ، بغية تجنيبي نوبات الاختناق التي قد يسبّبها لي السفر، أن أبالغ بعض الشيء في تناول البيرة أو الكونياك آن الانطلاق كيما أكون في تلك الحالة التي يدعوها «النشوة» والتي يضحي الجهاز العصبيّ فيها مؤقتاً أقلّ وهناً. كنت لا أزال غير متيقّن إن كنت سأفعل ذلك ولكني أودّ أن تعترف جدّتي، إن اتّفق لي التصميم على الأمر، أن الحقّ والحكمة إلى جانبي ولذلك ذكرت عن الأمر كأنّما لا

يتناول ترددي سوى المكان الذي سأشرب فيه الكحول، أهو المطعم أم مقصف القطار. إلا أني، حيال مظهر الملامة الذي اتخذه وجه جدّتي وأنها لا تبغي حتى التوقف إزاء هذه الفكرة، صرخت في الحال قائلاً، وقَرّ رأيي على فكرة المبادرة إلى الشرب التي أصبح تنفيذها ضرورياً لإقامة البرهان على حريتي بما أن الإعلان الشفوي عنه لم يقُدَّر له المرور دونما احتجاج: «كيف ذلك، تعلمين مدى مرضي وتعلمين ما قال لي الطبيب، وذلك هو النصح الذي تسدينه لي!».

وبعدما شرحت لجدّتي عن توعّك صحتي، اتخذتْ، وهي تجيبني: «ولكن هيّا أسرع واجلب البيرة أو شراباً آخر إن انبغى أن يفيدك ذلك»، مظهراً فيه من الاغتمام والطيبة ما جعلني أرتمي عليها وأغطي وجهها بالقبلات. ولئن بادرت مع ذلك إلى احتساء الكثير من الشراب في مقصف القطار فلأنني كنت أشعر أني بدون ذلك سأصاب بنوبة بالغة العنف وأن ذلك ما سوف يورثها أكثر الغمّ. وحينما صعدت إلى عربتنا في أوّل محطة لجدّتي كم كنت سعيداً في الذهاب إلى «بالبيك» وأنني أحسّ أن كل شيء سيتمّ على أحسن ما يرام وأنني بالحقيقة سوف أتعوّد بسرعة أن أكون بعيداً عن أمي وأن هذا القطار كان ممتعاً وأن رجل المقصف والمستخدمين الآخرين رائعون إلى حدّ أنني وددت لو أكرر كثيراً هذه الرحلة لتتوافر لي إمكانية لقائهم مجدداً. ولم يكن يبدو مع ذلك أن جدّتي تحسّ بالغبطة نفسها التي أحسّ بها من جرّاء كلّ هذه الأخبار السارّة. وقد أجابتني وهي تتجنب النظر إليّ: «ربّما انبغى لك أن تنام قليلاً»، وحولت عينيها إلى النافذة، وقد سبق أن أرخينا ستارها الذي لم يكن يكن يغطّي كامل إطار الزجاج مما كان يدع للشمس أن ترسل فوق خشب الباب الذي من سنديان مدهون والقماش الذي يغطي المقعد (كأنما إعلاناً عن حياة تمتزج بالطبيعة يخلّف لديك قناعة أكبر من تلك المعلقة في أمكنة عالية جداً في العربة بجهود الشركة وتمثل مناظر ما كان يمكنني قراءة أسمائها) الضياء الدافئ الناعس نفسه الذي يغفو بعد الظهر في فرجات الغابة.

بيد أني كنت أبصر جدّتي، حين تظنّ أنني أطبقت عيني، تلقي عليّ نظرة من تحت حجابها المنقّط، ثم تستعيدها، ثم تعيد الكرة كمن يحاول تمريناً شاقاً كيما يتعوّده.

حينئذ كنت أحدثها فلا يبدو أنَّ الأمر يسرها، مع أنَّ صوتي كان يخلف متعة في نفسي، وكذلك تفعل أدق الحركات في جسمي وأكثرها باطنية، فكنت لذلك أحاول أن تدوم وأدع لكل واحدة من نبرات صوتي أن تتثاقل طويلاً على الكلمات وأحسّ أن كل نظرة من نظراتي تستعذب المكان الذي حطت فيه وتمكث فيه أكثر من الزمن المعتاد. وقالت لي جدتي: «هيّا، خذ قسطك من الراحة. فإن لم تستطع النوم فاقرأ شيئاً». وناولتني كتاباً لِـ«مدام دو سفينييه» فتحته فيما استغرقتْ بدورها في «**مذكّرات السيدة دو بوسيرجان**»، ولم تكن تسافر البتّة بدون كتاب لهذه أو تلك، فقد كانتا من تفضل من المؤلفين. ولما كنت لا أحرك رأسي في ذلك الحين عن طيب خاطر وأحسّ بمتعة عظيمة في المحافظة على وضع اتخذه جسمي فقد ظللت أمسك بكتاب «مدام دو سفينييه» دون أن أفتحه ولم أخفض صوبه عينيّ اللتين لم يكن أمامهما سوى ستارة النافذة الزرقاء. بيدَ أن تأمل تلك الستارة كان يبدو لي رائعاً وما كنت لأتكلف عناء إجابة من ودّ أن يصرفني عن تأمّلي. كان لون الستارة الأزرق يبدو لي، لا من جراء جماله فيما أعتقد، بل من جراء تألقه الشديد، وكأنّه يزيل جميع الألوان التي سبق أن برزت لعينيّ منذ اليوم الذي ولدت فيه وحتى اللحظة التي انتهيت فيها من احتساء شرابي وأخذ يفعل مفعوله إلى حدّ أنها كانت تبدو في نظري، إلى جانب زرقة الستارة هذه، باهتة معدومة بقدر ما يمكن أن يبدو الظلام إذ يستذكره الذين ولدوا مكفوفين وأجريت لهم عمليّات متأخرة أبصروا بها الألوان أخيراً. وأقبل مستخدم عجوز يسألنا تذاكرنا، فما انفكّ اللمعان الفضيّ المنبعث من أزرار بزته المعدنية يخلب لبيّ. وهممت أطلب إليه أن يجلس إلى جانبنا، ولكنّه انتقل إلى عربة أخرى. وفكرت، يهزّني الحنين، بحياة عمال السكك الحديدية الذين ينبغي ألا

تفوتهم رؤية هذا المستخدم العجوز يوماً واحداً بما أنهم يقضون كامل وقتهم في السكك الحديدية. وأخيراً أخذت تتناقص المتعة التي كنت أحسّ بها في النظر إلى الستارة الزرقاء والإحساس بأنّ فمي نصف مفتوح. وأصبحت أكثر حركة، وتحرّكت قليلاً، وفتحت الكتاب الذي كانت جدّتي دفعته إليّ واستطعت أن أركز انتباهي على الصفحات التي اخترتها من هنا وهناك. وأخذت أشعر، فيما كنت أقرأ، بتعاظم إعجابي بالسيّدة «دو سيفينييه».

وينبغي ألا نسمح بأن تضللنا خصائص شكليّة بحتة ناجمة عن العصر وحياة الصالونات وتبلغ ببعض الناس أن يحسبوا أنهم ختموا مؤلفات «دو سفينييه» حينما يتم لهم أن يقولوا: «ابعثي بأخبارك أيتها العزيزة» أو «بدا لي أنّ الكونت على قسط وافر من الذكاء» أو «تقليب الحشائش أجمل ما في الدنيا». وقد سبق أن تصوّرت السيّدة: «دو سيميان» أنها تشبه جدتها لأنها كتبت: «إن صحة السيد «دو لابولي» على ما يرام يا سيدي وإنه في حالة تمكنه من سماع أخبار حول وفاته»، أو «آه! أيها المركيز العزيز، كم ذا يسرني كتابك! فكيف تريدني ألا أجيب عليه»، أو «يبدو لي، يا سيدي، أنك مدين لي بجواب، أمّا أنا فبحقاق من عطر البرغموت، وإنّي لمؤدٍ ثمانية مقابل ذلك، يأتيني غيرها؛ . . فالأرض لم تحمل في يوم إلى هذا الحدّ؛ وإنما ذلك في الظاهر كيما تحسن في عينيك». وكتبت على هذا النمط نفسه رسالتها حول الفِصَاد وحول الليمون، إلخ. ، وتتصور أنها رسائل للسيدة «دو سيفينييه». ولكن جدتي التي أتت إلى هذه الأخيرة من الداخل، من حبّها لذويها وللطبيعة، علمتني أن أحب مواطن الجمال الحقيقي لديها، وهو مختلف تمام الاختلاف. وكان لا بدَّ أن يزداد عمّا قريب تأثيره في نفسي بقدر ما السيدة «دو سفينييه» فنانة كبيرة تنتمي إلى الأسرة نفسها التي ينتمي إليها رسام كنت سألتقي به في «بالبيك» وقد كان له أعظم الأثر في رؤيتي للأشياء، عنيت «إيلستير» وقد تبيّنت في «بالبيك» أنّها تقدم لنا الأشياء بالطريقة نفسها التي يقدمها بها مرتبة ترتيب إحساساتنا

بدلاً من أن تشرحها بادئ الأمر عن طريق علتها. بيد أنّني منذ ذاك العصر، وإذ كنت أعيد في تلك العربة قراءة الرسالة التي يظهر فيها ضياء القمر: «لم أستطع مقاومة الإغراء، وها أنا أضع كامل قبعاتي وقمصاني، وما كانت ضرورية، وأمضي في ذلك الممرّ ذي الهواء العليل كهواء غرفتي، فأجد ألفاً من الطيور الخرافية وجعلاناً بيضاء وسوداء وعدداً من السرغوفات الرمادية والبيضاء وألبسة ألقيت ههنا وهناك ورجالاً دفنوا وقوفاً وظهورهم إلى الأشجار، إلخ «فُتِنْتُ من جرّاء ما لعلني كنت سميته بعد ذاك الجانب «الدوستوييفسكيّ» في «رسائل مدام دو سيفينييه» (أفليست ترسم المناظر بطريقته نفسها، وكذلك الطباع؟).

وعندما عدت أستقلّ القطار وحدي في المساء بعد ما صحبتُ جدّتي ومكثتُ بضع ساعات في منزل صديقتها، فإني على الأقل لم أجد الليلة التي حلّت شاقة. ذلك لأنه ما كان عليّ أن أمضيها في سجن غرفة يمسك بي فيها نعاسها في حال اليقظة. لقد كان يحيط بي النشاط المهدئ لحركات القطار هذه جميعها التي كانت تلازمني وتعرض نفسها للتحدث معي إن لم يوافني النوم وتهدهدني بأصواتها التي كانت أزاوج بينها، شأن أصوات الأجراس في «كومبريه»، على هذا الإيقاع تارة وطوراً على ذاك (فأسمع حسبما يحلو لي أربعاً من ثنائيّات الأسنان متساوية بادئ الأمر، ثم ثنائية أساسن تنقضّ بعنف على سوداء). كانت تعمل على تحييد القوة النابذة في أرقي إذ تمارس عليه ضغوطاً معاكسة تمسك بي في حالة توازن، ضغوطاً أَحَسَّ جمودي ثم نعاسي بعد قليل أنهما يطفوان على صفحته وبهما الانطباع المنعش نفسه الذي ربّما زودتني به الراحة الناجمة عن سهر قُوَى جبارة داخل الطبيعة والحياة لو تسنّى لي لحظة أن أتجسّد في سمكة تنام في البحر تنقلُها في غفوتها التياراتُ والأمواج، أو في نسر يمدّ جناحيه على كتف العاصفة وحدها.

يعتبر شروق الشمس ملازماً للرحلات الطويلة في السكك الحديدية كالبيض المسلوق والصحف المصورة وورق اللعب والأنهار التي تجدّ فيها

قوارب لا تفلح في التقدم. وفي لحظة كنت أحصي فيها الأفكار التي ملأت ذهني في أثناء الدقائق السابقة كيما أتبين إن كنت أغفيت منذ قليل أم لا (لحظة كان التشكّك نفسه الذي يحملني على التساؤل يزوّدني بالرد الإيجابي) رأيت في زجاج النافذة فوق حرج صغير أسود غيوماً مثلمة زغبها الناعم من لون وردي فاقد الحياة لن يتبدل من بعد كالذي يمتدّ على ريش الجناح الذي تمثله أو على الرسم الذي حطته فوقه نزوة الرسام. على أني كنت أحس خلافاً لذلك أن ذاك اللون لم يكن جموداً ولا هوى، بل ضرورة وحياة. فقد تراكمت بعد قليل خلفه كميات من الضياء. وازدهى وأضحت السماء من حمرة فاتحة أخذت أجهد في استجلائها بصورة أفضل، وذلك بإلصاق عيني بزجاج النافذة، لأنّني كنت أحسها على صلة بأعماق حياة الطبيعة، ولكنّ الخطّ الحديديّ بدّل اتّجاهه فجأة فانعطف القطار وحلّت محل المشهد الصباحيّ في النافذة قرية ليلية سطوحها زرقاء من جراء ضياء القمر ولها مغسل يلطّخه التماع لبني ليليّ تحت سماء لا تزال تنتثر جميع نجومها في أرجائها، وأخذني الغمّ لفقدان شريطي الوردي في المساء حينما لمحته من جديد، ولكنّه كان أحمر هذه المرّة، في النافذة المقابلة التي هجرها في منعطف ثانٍ للخطّ الحديديّ، حتى إنني قضيت وقتي أجري من نافذة إلى أخرى كيما أقرب، كيما أجمّع الأجزاء المتقطعة المتعاكسة، أجزاء صباحي الجميل القرمزي المتقلب، وأكوّن عنه منظراً كلياً ولوحة متصلة.

وأصبح المشهد وعراً شديد الانحدار وتوقف القطار في محطة صغيرة بين جبلين. ولم يكن يبدو في أعماق الوادي على حافة السيل سوى بيت حارس يغوص في الماء الذي يجري حتى حافة نوافذه. ولئن أمكن أن يكون مخلوق نتاج أرض تتذوق فيه سحرها الخاص فلا بدَّ أن يكون الفتاة المديدة القامة التي رأيتها تخرج من ذلك البيت وتأتي إلى المحطة على الدرب الذي كانت تغمره الشمس الشارقة بأشعتها المائلة تحمل جرة من الحليب، حتى أكثر من الفلاحة التي شدّ ما تقت أن أراها تبرز أمامي

حينما كنت أضرب على وجهي وحيداً من جهة «ميزيكليز» في أحراج «روسانفيل». ولا بدّ أنها، في الوادي الذي كانت تلك المرتفعات تحجب عنه سائر العالم، لا بدّ أنّها لم ترَ في يوم أحداً إلا في هذه القطارات التي لا تتوقف إلا مقدار لحظة. ومرت بجانب العربات تقدم القهوة بالحليب لبعض المسافرين المستيقظين. كان محياها الذي كسته أشعة الصباح حمرة قانية أشد توردا من السماء وأحسست في حضرتها بتلك الرغبة في الحياة التي تنبعث فينا من جديد في كل مرة نعي فيها مجدداً الجمال والسعادة. إننا ننسى على الدوام أنهما فرديان، ونحلّ محلهما في ذهننا نموذجاً اصطلاحياً نؤلفه من استخلاص نوع من الحد الوسط بين مختلف الوجوه التي نالت إعجابنا وبين المتع التي خبرناها فلا يظل لنا سوى صور مجردة تبدو واهنة تفهة لأنه إنما تنقصها بالضبط سمة الشيء الجديد التي تختلف عما عرفنا، تلك السمة الخاصة بالجمال والسعادة. ونحن نحكم على الحياة حكماً متشائماً نفترض أنه صحيح لأنّنا ظننا أننا نُدخل في حسابنا السعادة والجمال حينما أغفلناهما واستبدلنا بهما تأليفات لم يظل منهما فيها ذرة واحدة. وهكذا يتثاءب سلفاً من ضجر مثقف يحدثونه عن كتاب جديد لأنه يتخيّل ضرباً من مركَّب نقتبسه من جميع الكتب التي قرأناها، فيما «الكتاب الجميل» شيء خاص وغير متوقع ولم يُصَغْ من مجموع الروائع التي سبقته، بل من أمر لا يكفي تمثلنا السابق لهذا المجموع في مساعدتنا على العثور عليه لأنه بالضبط خارج هذا المجموع. وما إن يحيط المثقف علماً بهذا الكتاب الجديد حتى يشعر، وكان - لحين - ميت الإحساس، أنّ لديه اهتماماً بالواقع الذي يصوره. كذلك خلفت الفتاة الجميلة فيّ على الفور، وكانت لا تمت بصلة إلى نماذج الجمال التي يرسم خطوطها فكري حينما أكون وحدي، مذاق سعادة معيّنة (وهي الشكل الوحيد والخاص على الدوام الذي يمكن أن نعرف فيه طعم السعادة)، سعادة ربما تحققت في العيش بالقرب منها. على أن انقطاع «العادة» المؤقت قد فعل فعله ههنا أيضاً إلى حد كبير.

فقد جعلتُ بائعة الحليب تفيد من أن كياني كان بكامله في مواجهتها وهو قادر على تذوق أعنف المتع. ذلك أننا نعيش بالعادة بكياننا المقلّص إلى أدنى حد، وتظل معظم حواسنا غافية لأنها تتكل على العادة التي تعرف ما ينبغي لها أن تفعل ولا حاجة بها إليها. ولكن توقف رتابة العيش لديّ في صبيحة يوم السفر هذه، وتبدل المكان والساعة جعلا من وجودها أمراً ضرورياً. لقد أخلت الساحَ عادتي التي كانت مقيمة ولم تكن صباحية فأسرعت جميع حواسي تتبارى فيما بينها كيما تحل محلها - وتتعالى جميعها كالأمواج إلى المستوى غير المعتاد نفسه - من أدناها إلى أكثرها نبلاً، من التنفس والشهية والدورة الدموية إلى الإحساس والخيال. ولست أعلم إن كان سحر هذه الأمكنة الموحشة أوهمني بأن هذه الفتاة لا تشبه النساء الأخريات فزاد من سحرها ولكنها كانت تفعل بها بالمثل. ولعل الحياة كانت تبدو لي لذيذة لو استطعت فقط أن أقضيها معها ساعة فساعة وأن أرافقها حتى السيل، حتى البقرة، حتى القطار وأن أكون دوماً إلى جانبها وأحس أني معروف لديها وأن ليس مكاني في فكرها. لعلها كانت تكشف لي مفاتن الحياة الريفية وساعات النهار الأولى. وأشرت إليها أن تأتي لتعطيني قهوة بالحليب، فقد كانت بي حاجة إلى أن تلاحظني. ولم تبصرني فناديتها. كان لون وجهها من فوق قامتها المديدة ذهبياً مورداً إلى حد تبدو معه وكأنها تشاهد عبر زجاج ملوّن مضاء. وعادت أدراجها وأنا لا أستطيع أن أصرف ناظري عن وجهها الذي يزداد اتساعاً كمثل شمس يمكن التحديق فيها وتقترب منك حتى لتجيء بالقرب منك تماماً وتدع لك أن تشاهدها عن كثب فتبهرك بذهبها وحمرتها ورمقتني بنظراتها الحادة ولكن القطار تحرك فيما كان المستخدمون يغلقون الأبواب. ورأيتها تغادر المحطة وتسلك الدرب ثانية. لقد أشرق النهار الآن تماماً وأخذت أبتعد عن الفجر. وسواء أكانت تلك الفتاة الباعث لحماستي أم أن حماستي سببت أعظم قسم من المتعة التي أصبتها من وجودي بالقرب منها فقد امتزجت بها على أية حال إلى حد أن رغبتي في لقاء بها جديد كانت قبل

كل شيء الرغبة الأدبية في ألا أدع حالة الهيجان هذه إلى زوال تام وألا أنفصل إلى الأبد عن الكائن الذي شارك فيها وإن يك على غير علم منه. وما ذلك لأن تلك الحالة جاءت ممتعة، بل لأنها كانت تضفي على وجه الخصوص (مثلما ينتج عن زيادة شد الوتر أو زيادة سرعة اهتزز عصب صوت مختلف أو لون مختلف) لوناً آخر على ما كنت أرى وكانت تدفع بي ممثلاً في عالم مجهول وأكثر إمتاعاً بما لا يقاس. كانت تلك الفتاة الجميلة التي ما أزال ألمحها والقطار يضاعف من سرعة سيره وكأنها جزء من حياة غير تلك التي كنت أعرفها، تفصلها عنها حاشية دقيقة. ولم تعد الأحاسيس التي توقظها الأشياء واحدة فيها، ولعل الخروج منها الآن كان بمثابة أن أموت لذاتي. وربما بدا كافياً، كيما أنعم بعذوبة الإحساس بأني أرتبط على الأقل بهذه الحياة، أن أقطن على مقربة كافية من المحطة الصغيرة كي أستطيع المجيء في كل صباح لأطلب من هذه الفلاحة قهوة بالحليب. ولكنها سوف تكون، وأأسفي غائبة دوماً عن الحياة الأخرى التي كنت أمضي نحوها بسرعة متزايدة والتي لم أسلم بالقبول بها إلا بتدبير خطط تمكنني ذات يوم أن أستقل هذا القطار نفسه وأتوقف في هذه المحطة نفسها، هذا المشروع الذي كان من حسناته أيضاً أنه يقدم الزاد لميل مصلحي ناشط عملي آلي خامل متهرب هو من خصائص عقلنا فهو يُعْرِض تلقائياً عن الجهد اللازم لنعمق في ذواتنا شكل عام ومتجرد انطباعاً ممتعاً نعمنا به. وبما أننا نبغي من جهة ثانية أن نوالي التفكير به، فهو يفضل تخيّله في المستقبل وإعداد الظروف التي يمكن أن تبعثه من جديد إعداداً حاذقاً، الأمر الذي لا يجيئنا بشيء عن ماهيته ولكنه يجنبنا تعب إعادة خلقه في ذواتنا ويسمح لنا بأمل الحصول عليه ثانية من الخارج.

تفيد بعض أسماء المدن من مثل «فيزليه» أو «شارتر» أو «بورج» أو «بوفيه» في الدلالة باختصار على كنيستها الرئيسية. ويفضي هذا المعنى الجزئي الذي نأخذه في الغالب فيه - إن تعلق الأمر بأمكنة لا نعرفها بعد

- إلى نقش الاسم بكامله، فإذا ما أردنا أن نقحم فيه فكرة المدينة - المدينة التي لم نرها قط - فإنه يفرض عليها - شأن القالب - صنوف النقش نفسها ويجعل منها نوعاً من الكاتدرائية الكبيرة من الطراز نفسه. على أني إنما قرأت في إحدى محطات السكك الحديدية اسم «بالبيك»، وهو من طراز كاد يكون فارسياً، فوق مقصف وبحروف بيضاء على لافتة زرقاء. واجتزت مسرعاً المحطة والشارع الذي يفضي إليها وسألت عن الشاطئ كي لا أبصر سوى الكنيسة والبحر. ولم يبد أنهم أدركوا ما كنت أبغي قوله، فلم تكن «بالبيك القديمة»، «بالبيك التي في الأرض»، والتي كنت فيها، لا شاطئاً ولا مرفأً. صحيح أن الصيادين وجدوا في البحر، بحسب الأسطورة، المسيح العجائبي الذي كانت تروي اكتشافه نجمية زجاجية ملوَّنة في هذه الكنيسة التي كانت على أمتار مني، وصحيح أن حجر صحن الكنيسة والأبراج قد استخرج من الجروف التي تضربها الأمواج، ولكن هذا البحر الذي تصورته من جراء ذلك يلفظ أنفاسه على حضيض الزجاج الملون كان على بعد خمسة فراسخ وتزيد، في «بالبيك الشاطئ»، وكان برج الجرسية، بالقرب من قبتها، وقد تمثلته على الدوام، لأنني قرأت بالأمس أنّه جرف نورماندي وعر هو الآخر تتراكم فيه الحبوب وتدور في بطنه الطيور، وكأنما يبلغ أساساته آخر زبد في الأمواج المتعالية، كان يرتفع فوق ساحة يتفرّع فيها خطا حافلة كهربائية قبالة مقهى يحمل فوق جداره كلمة «بليارد» وقد كتبت بحروف من ذهب. كان يبرز على خلفية من بيوت لا يمتزج بسطوحها أيُّ صارٍ. والكنيسة التي ولجت ساحة اهتمامي مع المقهى وعابر السبيل الذي انبغى أن أسأله طريقي والمحطة التي أزمع العودة إليها، إنما كانت تؤلف كلّاً واحداً مع ما تبقى وتبدو بمثابة صدفة، بمثابة أمر أنتجته أواخر ما بعد الظهر هذا الذي تبدو فيه القبة الناعمة المنتفخة على صفحة السماء وكأنها ثمرة تنضج قشرتها الموردة المذهبة الذائبة الأشعة نفسها التي تغمر مداخن البيوت. ولكني لم أشأ التفكير من بعد إلا بمعنى المنحوتات الأزلي

حينما تعرف الرّسل[1] الذين سبق أن رأيت تماثيلهم المقولبة في متحف «التروكاديرو» والذين كانوا ينتظرونني على جانبي العذراء أمام فتحة البوابة العميقة وكأنما ليكرموني. كانوا يبدون بوجوههم الطيبة المطفّحة العذبة وظهورهم المحنيّة وكأنهم يتقدمون مرحبين وينشدون نشيد «هلليلويا» في يوم سعيد. ولكنّك كنت تلاحظ أن ملامحهم ثابتة لا تتحول كملامح الأموات ولا تتبدل إلا إذا درت من حولها. وكنت أقول في نفسي: إنها هنا، هذه كنيسة «بالبيك». وهذه الساحة التي تبدو عارفة بأمجادها هي المكان الوحيد في العالم الذي يضم كنيسة «بالبيك». كان ما رأيته حتى الآن صوراً لهذه الكنيسة، لهؤلاء الرسل، لعذراء البوابة هذه وكلّهم ذائع الصيت، كانت تماثيل مصبوبة فحسب. أمّا الآن فإنها الكنيسة ذاتها، إنّه التمثال ذاته، والكل فريد: إنّها أكثر من ذاتها.

وربما كانت أقل منها أيضاً. فمثلما يرى شاب، يوم الامتحان أو المبارزة، أن الأمر الذي سئل عنه، وأنّ الرصاصة التي أطلقها شيء هين حينما يفكر في احتياطي العلم والشجاعة الذي كان يودّ إبرازه، كذلك كان فكري قد نصب عذراء البوابة خارج النُسَخ التي تسنى لي أن أراها، لا تطالها التقلبات التي يمكن أن تهدد هذه الأخيرة، وتظل هي هي إن تم إتلاف تلك، وهي مثالية وتتمتع بقيمة مطلقة، فكان يدهشه أن يبصر التمثال الذي أقدم على نحته ألف مرة وقد رُدّ الآن إلى مظهره الحجري الخاص وهو يشغل بالنسبة إلى مدى ذراعي مكاناً تنافسه فيه لصيقة انتخابية وطرف عصاي انا، وقد قيّد بالساحة ولا يستطيع الانفصال عن منفذ الشارع الكبير ولا يمكنه تجنب نظرات المقهى ومكتب سيّارات النقل وعلى صفحة وجهه يمتدّ نصف شعاع الشمس الغاربة - وعما قليل، وبعد انقضاء بضع ساعات، نور المصباح الليلي - الذي يمتد نصفه الآخر على مكتب مصرف الخصم، وتبلغه في الآن نفسه، كما هي حال هذا الفرع

---

(١) الحواريون.

لإحدى مؤسسات التسليف روائح عفنة تنبعث من مطابخ بائع الحلوى، ويخضع لاستبداد الفرد إلى حد أني لو وددت أن أُسطر توقيعي على هذا الحجر فهي، عنيت العذراء الشهيرة التي حبوتها حتى ذاك بوجود عام وبجمال لا تمسه يد، عذراء «بالبيك» الفريدة (الأمر الذي يعني الوحيدة، وأسفي)، هي التي سوف ترى جميع المعجبين الذين جاؤوا إلى هذا المكان ليتأملوها فوق جسمها الملوث بالسخام نفسه الذي يعلو الدور المجاورة، أثر قطعة الحكك والحروف التي تؤلف اسمي دون أن يمكنها التخلص منها، وهي أخيراً ذلك العمل الفني الخالد الذي طال شوقي إليه، هي التي كنت أجدها وقد استحالت، شأن الكنيسة نفسها، عجوزاً صغيرة من حجر أستطيع أن أقيس ارتفاعها وأعد تجاعيدها. كان الوقت يمضي ولا بدّ لي من العودة إلى المحطة حيث يقع عليّ أن أنتظر جدتي و«فرانسواز» لنذهب سوية إلى «بالبيك الشاطئ» وأخذت أذكر ما قرأته حول «بالبيك» وأقوال «سوان»: «إنها رائعة وفي مثل جمال سييناّ». وإذ ألقيت تبعة ما أصابني من خيبة على أمور عارضة فحسب، على الحالة السيئة التي كنت فيها وتعبي وأني لا أحسن النظر إلى الأشياء، فقد كنت أحاول جلب العزاء لنفسي وأنا أفكّر بأنه لا يزال ثمة مدن أخرى بعد على حالها بالنسبة إليّ وأني سأستطيع ربما عما قريب الدخول، وكأنما وسط زخة من اللآلئ، في التغريد الندي الذي ينطلق من تقطرات حروف «كامبرليه» واجتياز الضياء المخضوضر والوردي الذي يغمر «بونتافن». أما في ما يخص «بالبيك» فما إن دخلت إليها حتى بدا وكأني فتحت اسماً كان ينبغي أن أحتفظ به محكم الإغلاق، اسماً اندفعت داخل مقاطعه، وقد استغلت المنفذ الذي قدمته غير محاذر وطردت جميع الصور التي عاشت فيها حتى ذاك، حافلة كهربائية ومقهى والناس الذين كانوا يعبرون الساحة وفرع مكتب مصرف الحسم، اندفعتْ يسوقها على نحو لا يقاوم ضغط خارجيّ وقوة هوائية داخل المقاطع التي انغلقت عليها وتركتها الآن تؤطر بوابة الكنيسة الفارسيّة ولن تنفك تحتويها بعد الآن.

في الخطّ الحديدي الصغير ذي الأهمية المحلية الذي سيقلّنا إلى «بالبيك الشاطئ» التقيت بجدتي ولكنّي التقيت بها وحدها - فقد خطر لها أن تبعث «فرانسواز» قبلها كي يتم إعداد كل شيء سلفاً (ولكنّها لم تفلح، وقد زوّدتها بمعلومات خاطئة، إلا في إرسالها في اتجاه خاطئ)، وكانت «فرانسواز» في تلك اللحظة تمضي، ويخامرها الشك، بأقصى السرعة، باتجاه «نانت» وربّما أفاقت في «بوردو». وما إن جلست في العربة التي ملأها نور الغروب العابر وحرّ ما بعد الظهيرة الدائم (فيسمح لي الأول، للأسف، أن أبصر بوضوح على وجه جدّتي إلى أي حدّ أرهقها الثاني) حتى سألتني: «و«بالبيك»؟ هات نَرَ» بابتسامة يشرق فيها أمل المتعة الكبيرة التي تحسب أني نلتها إشراقاً شديداً إلى حدّ أني لم أجرؤ أن أقرّ لها بخيبة أملي دفعة واحدة. وقد أخذ الانطباع الذي سعى إليه فكري يشغلني على أيّة حال أقل فأقل كلما اقترب المكان الذي كان ينبغي لجسمي أن يتعوّده. كنت أحاول في نهاية هذه الرحلة، ولا تزال على بعد يتجاوز الساعة، أن أتخيّل مدير فندق «بالبيك» الذي كنت غير موجود بالنسبة إليه في هذه اللحظة وودت لو أمثل أمامه في صحبة أكثر مهابة من صحبة جدّتي التي تزمع بالتأكيد المطالبة بتخفيضات. كان يبدو لي متسماً بغطرسة أكيدة ولكنّه غير واضح الخطوط.

كان الخط الحديدي الصغير يتوقف بنا في كل لحظة في واحدة من المحطات التي تسبق «بالبيك الشاطئ»، وتبدو لي أسماؤها ذاتها («أنكارفيل» و«ماركوفيل» و«دوفيل» و«بونتاكولوفر» و«أرامبوفيل» و«سان مارس لوفيو» و«هيرمونفيل» و«مينفيل») غريبة، في حين أنّني لو قرأتها في كتاب لأصبحتْ على بعض الصلة بعدد من الأمكنة المجاورة لـ«كومبريه». بيد أنّه يمكن لنغمين يؤلفهما على الصعيد المادي العديد من النوطات نفسها ألا يحملا أي تشابه إلى الأذن الموسيقية إن هما اختلفا باللون النغمي والتأليف الأوركسترالي. كذلك ما كان من أمر يذكّرني، أقلّ مما تفعل تلك الأسماء الحزينة المصنوعة من رمل وأجواء مكشوفة تماماً

ومقفرة ومن ملح، وفوقها تنطلق كلمة «فيل» (مدينة) كلفظة «طار» في لعبة «طار الحمام»، باسمي «روسّانفيل» أو «مارتانفيل» اللذين كانا من جراء أني كثيراً ما سمعت شقيقة جدي تنطق بهما على المائدة وفي غرفة الجلوس قد اكتسبا روعة حزينة ربّما امتزجت فيها خلاصات من طعم المربيات ورائحة نار الحطب وورق أحد كتب «بيرغوت» ولون الفخار على صفحة البيت المقابل، واللذين لا يزالان يحتفظان اليوم، حينما يصعدان من أعماق ذاكرتي على هيئة فقاعة هوائية، بزخمهما الخاص عبر تكدس مسافات الأوساط المختلفة التي يقع عليهما اجتيازها قبل الوصول إلى السطح.

كانت تلك محطات صغيرة تشرف على البحر البعيد من عالي هضابها الرملية أو تعدّ النفس لليل على حضيض هضاب زاهية الخضرة مزعجة الشكل كما هي حال الكنبة في غرفة فندق وصلت إليه منذ قليل، وتتألف من بضع دارات يمتدّ خلفها ملعب لكرة المضرب وأحياناً كازينو تخفق في الهواء البارد رايته وهو مقفر كئيب، محطّات صغيرة تريني للمرّة الأولى نزلاءها ولكنها تريني إيّاهم في مظهرهم المعتاد - فلاعبو كرة مضرب بقبّعات بيضاء، ومدير المحطة الذي يعيش هناك بالقرب من أثلاته ووروده، وسيّدة تعتمر قبّعة بحّار كانت إذ تستدعي سلوقيّها المتخلّف وتعود إلى دارتها التي أضيء مصباحها إنما ترسم المسار المعتاد لحياة لن أعرفها في يوم - وتؤذي أشد الأذى بهذه الصور المألوفة إلى حدّ الغرابة الأليفة، إلى حدّ الازدراء، نظراتي المجهولة وفؤادي الذي في غربة. ولكن كم تفاقم عذابي بعد ما حللنا في بهو فندق «بالبيك» الكبير، قبالة الدرج الأثري الذي يقلّد الرخام، وفيما كانت جدتي تناقش، غير عابئة أن تزيد من عداء الغرباء الذين تزمع العيش فيما بينهم ومن ازدرائهم أيضاً، تناقش «الشروط» مع المدير، وهو من صنف «المكرشين» وذو وجه وصوت مليئين بالندوب (التي خلّفها في الأول استئصال بثور عديدة منه وفي الثاني استئصال اللهجات المختلفة الناجمة عن أصول بعيدة وطفولة

تقلّبت في بلدان كثيرة)، ولباس رجل مجتمعات ونظرة عالم نفسي يضع، لدى وصول عربة المسافرين، كبار القوم موضع المعدمين ونشالي الفنادق موضع كبار القوم! كان يُبدي ازدراء عميقاً إزاء الناس الذين تشكّل خمس مئة فرنك، أو بالأحرى خمسة وعشرون ليرة ذهبيّة، حسبما يقول، مبلغاً في نظرهم ويعدّهم من فئة جماعة منبوذة لم يكن الفندق الكبير مخصصاً لهم، وينسى دونما شكّ أنّه لا يقبض، هو نفسه، خمس مئة فرنك كمرتب شهري. كان ثمة بالحقيقة في هذا الفندق نفسه جماعة لا يدفعون أثماناً مرتفعة جداً ويحظون مع ذلك بتقدير المدير بشرط أن يتأكد هذا الأخير أنهم يقتّرون في الإنفاق لا عن فقر بل عن بخل. فالبخل لا يمكن أن يُفْقِدَ المهابة شيئاً إذ هو نقيصة ويمكن بالتالي وجوده في جميع الحالات الاجتماعية. والحالة الاجتماعية كانت الأمر الوحيد الذي يعيره المدير اهتمامه، الحالة الاجتماعية أو بالأحرى العلامات التي تتضمن في نظره أنها مرتفعة كأن لا يكشف المرء عن رأسه في دخوله إلى البهو وأن يرتدي بنطالاً فضفاضاً ومعطفاً على قدّ الجسم وأن يخرج «سيكاراً» بحزام من أرجوان وذهب من علبة مصنوعة من جلد مصقول (وكنت أفتقر، واأسفي، إلى جميع هذه الحسنات)، وكان يرصّع أقواله التجارية بعبارات منتقاة ولكنها بخلاف المعنى.

وفيما كنت أسمع جدتي تسأله بلهجة مصطنعة، دون أن يسوءها أنه يصغي إليها وقبعته على رأسه فيما يصفر بين أسنانه: «ما هي... أسعاركم؟... أوه! إنها باهظة بالنسبة إلى ميزانيتي الصغيرة»، كنت أهرب، وأنا في انتظار على مقعدصغير، إلى أعمق أعماق ذاتي وأجهد في الانصراف إلى أفكار أزليّة وفي ألا أدع شيئاً، أي شيء حي، من ذاتي، يطفو على صفحة جسمي - وقد أصابها الخدر، كما هي حال الحيوانات التي تتصنع الموت بفعل عملية تثبيط حينما تصاب بجرح - كي لا أتعذّب كثيراً في هذا المكان الذي تزيد فيه من إحساسي بالإفتقار التام إلى تعوده رؤية العادة التي يبدو أنها تيسرت في الوقت نفسه لسيّدة أنيقة كان المدير

يبدي لها احترامه باللجوء إلى بعض صنوف التمادي مع الكلب الصغير الذي يتبعها، وللشاب الأنيق الذي يعود تخفق ريشة في قبّعته ليسأل «إن كان ثمة رسائل له»، ولجميع هؤلاء القوم الذين يساوي تسلق الدرجات التي من رخام كاذب العودة إلى بيوتهم.

وقد رماني في الوقت نفسه بنظرة «مينوس» و«أياكوس» و«رادامانتوس»[1] الصارمة (نظرة غمرتُ بها نفسي العارية وكأنما في مجهول لم يعد يحميها شيء فيه) سادة يحملون لقب «مدير استقبال» وربما كانوا قليلي الاطلاع على فن «الاستقبال». وعلى بعد قليل منهم، وخلف زجاج مغلق، كانت تجلس جماعة في صالة مطالعة لعله كان ينبغي لي لوصفها أن أنتقي في كتاب «دانتي» على التوالي الألوان التي يضفيها على الجنّة وعلى جهنّم حسبما كنت أفكر في سعادة المختارين الذين كان يحق لهم أن يقرؤوا فيها بطمأنينة تامّة أو في الذعر الذي ربما بعثته فيّ جدتي لو أمرتني بالدخول إليها وهي لا تكترث بهذا النوع من الانطباعات.

وبعد ذلك بفترة تضاعف شعوري بالعزلة. فإذ سبق لي أن أفضيت لجدتي بأنني لم أكن على ما يرام وباعتقادي أننا سوف نضطر للعودة إلى باريس قالت دونما اعتراض إنها خارجة ابتغاء لبعض المشتريات، وهي مفيدة سواء أذهبنا أم بقينا (وقد علمت فيما بعد أنها جميعها مخصصة لي إذ كانت «فرانسواز» تحمل معها اشياء ربما كنت بحاجة إليها). وذهبت بانتظار عودتها أذرع الشوارع التي يزحم فيها جمهور يحافظ فيها على ما يشبه دفء المنازل والتي كانت لا تزال تفتح أبوابها فيها دكان الحلاق وصالة حلواني يتناول فيها بعض الروّاد مثلجات أمام تمثال «دوغيه - تروان». وقد أشاع في صدري من السرور بقدر ما يمكن أن تشيع صورته على صفحات مجلة مصورة من سرور في صدر مريض يقلّبها في قاعة

---

(١) Minos, Eaque, Rhadamante: من الشخصيات الأسطورية البارزة في تاريخ اليونان القديم، واشتهروا بالحكمة والتقوى ولذلك يقال إنهم القضاة المشرفون على دينونة الأموات في الحياة الأخرى.

انتظار أحد الجراحين. وكنت أدهش أن يكون ثمة أناس يختلفون عني إلى حدّ أن يشير عليّ المدير بهذه النزهة في المدينة على أنها من قبيل التسلية وأن يبدو مكان العذاب الذي قوامه المنزل الجديد أن يبدو لبعضهم بمثابة «مرتع ملذّات» على حدّ ما تعلن نشرة الفندق الدعائية التي يمكن أن تبالغ ولكنها موجهة إلى مجموعة كاملة من الزبائن الذين تساير ميولهم. صحيح أنها كانت تلجأ، كيما تجتذبهم إلى الفندق الكبير، لا إلى «العزيزة الطيبة» و«المنظر الرائع في حدائق الكازينو»، فحسب، بل كذلك إلى «قرارات صاحبة الجلالة الموضة التي لا يمكن مخالفتها على نحو فاضح دون أن يوضح المرء موضع الأجلاف، الأمر الذي لا يودّ التعرض له أي رجل في قسط وافر من التهذيب».

وقد زاد من حاجتي إلى جدتي خوفي من أن أكون تسببت لها بخيبة أمل. فلا بدّ أن عزيمتها ثبّطت وأنها تحسّ أنني إن كنت لا أحتمل هذا التعب فالحالة تدعو إلى اليأس من أن يمكن لأية رحلة أن تنفعني وقررت العودة لانتظارها. وجاء المدير يضغط بنفسه على زرّ؛ وإذا بشخص يدعونه «مصعداً»، ولا يزال مجهولاً لديّ، (وكان يقبع في أعلى نقطة في الفندق، حيثما المنْوَر في كنيسة نورمانديّة، وكأنه مصور خلف نافذته الزجاجية أو عازف أرغن في غرفته) إذا به يشرع بالانحدار نحوي بخفة سنجاب أهليّ مجدّ سجين، ثم حملني خلفه وهو ينزلق على طول عمود باتجاه قبة الجناح التجاري. وكانت تنتشر في كل طابق على جانبي أدراج توزيع صغيرة وعلى هيئة مراوح ممرات مظلمة تنتقل عبرها وصيفة تحمل وسادة. كنت ألصق فوق وجهها الذي أضفى عليه الشفق غموضاً قناعَ أشدّ أحلامي جوىً ولكنّي أقرأ في نظرتها التي ترنو بها إليّ فظاعة عدمي. وكيما أبدّد، في أثناء عملية الصعود التي لا تنتهي، القلق القاتل الذي أعاني منه من جراء اجتيازي صامتاً خفايا تلك الأضواء الخافتة التي لا شاعريّة فيها، وليس من نور سوى صفّ عمودي واحد من الزجاج يشكله المرحاض الوحيد في كل طابق، خاطبت عامل الأرغن الصغير صانع

رحلتي ورفيق أسري الذي كان يوالي شد زرار آلته والضغط على أنابيبها. واعتذرت أنني أشغل حيّزاً كبيراً وأن أحمّله قدراً عظيماً من المشقة وسألته إن كنت لا أضايقه في ممارسته لفنّ لجأت بشأنه، كيما أمتدح العازف الماهر، إلى أكثر من إبداء الفضول إذ اعترفت بإيثاري له. ولكنه لم يجبني إمّا لدهشته من أقوالي أو لانصرافه لعمله أو لاهتمامه باللياقة أو لوقر في الأذنين أو احتراماً للمكان أو مخافة الخطر أو لخمول العقل أو بتوجيه من المدير.

قد لا يكون ثمة ما يورثنا إحساساً بحقيقة ما كان خارجاً عنّا أكثر من تبدل موقع شخص، وإن يك تافهاً، بالنسبة إلينا قبلما تمّ لنا التعرّف به وبعد. لقد كنت الرجل نفسه الذي استقلّ الخطّ الحديدي الصغير من «بالبيك» في أواخر بعد الظهر وكنت أحمل في داخلي الروح نفسها. إلّا أنّه كان في تلك الروح وفي المكان الذي كان يعمره في الساعة السادسة، إلى جانب استحالة تخيل المدير والفندق والخدم، انتظار مبهم متوجّس للحظة التي سأصل فيها، كان هنالك الآن البثور المقتلعة في وجه المدير المتعدّد الجنسيّات (وقد اكتسب بالحقيقة جنسيّة إمارة «موناكو» مع أنّه - حسبما يقول لأنّه كان يلجأ دوماً إلى عبارات يحسبها أنيقة دون أن ينتبه أنها خاطئة - من «أصليّة رومانيّة»[1]) والحركة التي يقرع بها جرس المصعد والمصعد نفسه وحاشية كاملة من الشخصيّات الكراكوزيّة التي خرجت من «صندوق الدنيا» هذا الذي هو الفندق الكبير وكلها لا تقبل الدحض ولا التبدل وهي محمّلة بالعقم شأن كلّ ما تحقّق. على أن هذا التبدل الذي لم أتدخل فيه إنما كان يُثْبتُ لي على الأقلّ أن أمراً خارجاً عني قد حدث - مهما خلا هذا الأمر من الأهمية - وكنت كالمسافر الذي كانت الشمس من أمامه في بدء السباق فيلاحظ أن الساعات قد انقضت

---

(١) ورد في النص Orignalité بدلاً من Origine فحاولنا ردها بـ«أصلية» بدلاً من «أصل».

حينما يبصر الشمس وراءه. كان التعب قد أنهكني والحمّى تهدّني وودِدت لو أنام ولكني ما كنت أملك ما ينبغي لهذا الغرض. وددت لو أستلقي لحظة على الأقل على السرير، ولكن ما فائدة ذلك بما أنّه ما كان ليتيسّر لي أن أوفر الراحة لمجموعة الأحاسيس هذه التي هي بالنسبة إلى كل منّا جسده الواعي إن لم يكن جسده المادي، وبما أن الأشياء المجهولة التي تطوقه كانت، لإرغامها إياه على وضع أحاسيسه على أهبة الدفاع الدائم اليقظة، سوف تحتفظ بنظراتي وسمعي وجميع حواسي في وضع مقلّص ومزعج (حتى لو مددت ساقيّ) شبيه بوضع الكاردينال «لابالو»[1] في القفص الذي لم يكن يسعه فيه الوقوف أو الجلوس. وإنما انتباهنا الذي يضع حاجات في الغرفة والعادة التي تخرجها منها وتوسع لنا مكاناً فيها. فأما المكان فلم يتيسّر لي شيء منه في غرفتي في «بالبيك» (غرفتي بالاسم فقط)، فقد كانت تعجّ بأشياء لا تعرفني ردّت لي نظرة الارتياب التي رميتها بها وأعربت لي، دون أن تحسب أيّ حساب لوجودي، أنّني أخرّب رتابة عيشها. واستمرّت ساعة الحائط - في حين لم أكن أسمع في البيت ساعتي إلّا مقدار بضع ثوانٍ فحسب في الأسبوع حينما أخرج من تأمل عميق - تدلي دون أن تتوقف لحظة واحدة، وبلغة مجهولة، بأقوال لا بدَّ أنها كانت تسيء إليّ إذ كانت الستائر البنفسجية الكبيرة تصغي إليها ولا تجيب، ولكنها تفعل بمظهر شبيه بمظهر الناس الذين يرفعون أكتافهم ليظهروا أنّ رؤية رجل ثالث تغيظهم. وكانت تضفي على هذه الغرفة العالية جداً طابعاً يكاد يكون تاريخياً كان يمكن أن يجعلها مناسبة لمقتل الدوق «دوغيز»، وفيما بعد لزيارة سيّاح يقودهم دليل من وكالة «كوك» ولكنها لا تناسب نومي على الإطلاق. وكان يقلقني وجود مكتبات صغيرة مزجّجة تجري على امتداد الجدران، وعلى وجه الخصوص مرآة كبيرة بقاعدة

(١) La Balue من رجال الكنيسة في فرنسا في زمن لويس الحادي عشر، بلغ القمة ثورة ومنزلة ثم أودع السجن بعد اكتشاف اتصالاته السرية بمنافس الملك، وقِيل إنه وضع في قفص من حديد.

أوقفت في عرض الحجرة، وكنت أحسّ أن ليس من فرج ممكن بالنسبة إليّ قبل رحيلها. وكنت أرفع ناظري في كل لحظة - وما كانت تضايقهما الحاجات التي في غرفتي في باريس أكثر مما تفعل حدقتاي إذ لم تكن من بعد سوى أشياء ملحقة بأعضائي، سوى تكبير لذاتي - إلى السقف الشديد الارتفاع لهذه المقصورة الواقعة في أعلى الفندق والتي اختارتها جدتي من أجلي؛ وكانت رائحة «طيب العرب» تُقْبِلُ حتى المنطقة التي تفوق تلك التي نرى فيها ونسمع خفاءً، تلك المنطقة التي نختبر فيها نوعيّة الروائح، كانت تقبل حتى إلى داخل أناي لتشن عليّ في آخر معاقلي هجومها الذي كنت أضع قبالته، ولا أخلو من تعب، الردّ اللامجدي اللامنقطع المتمثل في استنشاق يشوبه الحذر. ولما لم يعد لي دنيا خاصة ولا غرفة ولا جسم إلا ويتهدّده الأعداء الذين يحيطون بي، إلا وتجتاحه الحمى حتى لتبلغ العظم، رأيتني وحيداً وداخلتني رغبة الموت. حينئذ دخلت جدتي، وانفتحت في الحال مساحات لا حدّ لها أمام تفتّح قلبي المكبوت.

كانت ترتدي مبذلاً من القطن الرقيق وتعوّدت أن ترتديه في البيت كلّ مرة كان فيها أحدنا مريضاً (لأنها تحسّ أيضاً أنها أكثر راحة فيه، تقول وهي تخصّ على الدوام ما تفعله بدوافع أنانيّة) وهو يمثل من أجل العناية بنا والسهر علينا مريلة الخادمة والممرّضة وثوب الراهبة. على أن عناية هؤلاءِ والعطف الذي بهنّ والفضل الذي لهنّ والجميل الذي ندين به لهنّ إنما تضاعف من الانطباع الذي يخلّفنه لديك بأنّك بالنسبة إليهن رجل آخر وبإحساسك بالعزلة إذ تدع لذاتك عبء أفكارك ورغبتك الذاتية في العيش، فيما كنت أعلم حينما كنت مع جدتي أن الغم مهما تعاظم في صدري فسوف يحتويه عطف أكثر اتساعاً منه، وأن كل ما يخصني، أن همومي ومشيئتي سوف تستند لدى جدتي إلى رغبة استبقاء لحياتي وإنماء لها أقوى بكثير من الرغبة التي بي. وكانت أفكاري تجد امتدادها لديها دون أن تعاني انحرافاً لأنها تنتقل من فكري إلى فكرها دونما تبدّل في الوسط والشخصية. وكمثل من يبغي عقد ربطة عنقه أمام مرآة دون أن

يدرك أن الطرف الذي يراه غير واقع بالنسبة إليه في الجهة التي يمد فيها يده، أو مثل كلب يلاحق على صفحة الأرض ظل حشرة يتراقص أمامه - ارتميت بين ذراعي جدتي، وقد غرّني مظهر الجسم كما هي حالنا في هذه الدنيا التي لا ندرك فيها النفوس إدراكاً مباشراً، وطبعت شفتي على محيّاها وكأنما أصل على هذا النحو إلى قلبها الواسع الذي تفتحه لي. كنت حينما ألصق شفتي على هذا النحو بوجنتيها وجبينها أغرف فيها من النفع والغذاء ما أحتفظ معهما بجمود الطفل الذي يرضع من ثدي أمه وبجديته ونهمه المطمئنّ.

وكنت أنظر بعد ذلك دونما كلل إلى وجهها الواسع الذي يبرز على هيئة سحابة جميلة ملتهبة هادئة تحسّ بالحنان يشعّ من خلفها. وكلّ ما كان يداخله قليل من أحاسيسها، مهما هزل، وكل ما يمكن على هذا النحو أن يقال لها يكتسب روحانية في الحال ويتقدّس إلى حدّ أني كنت أملّس بين راحتي شعرها الجميل الذي لم يكد يتشيب بقدر من الاحترام والحيطة واللطف يوازي ما كنت أفعل لو داعبت فيه طيبتها. كانت تجد متعة عظيمة في كل مشقة تجنّبني مثيلتها، وتجد في لحظة من الجمود والهدوء بالنسبة إلى أعضائي المتعبة أمراً بالغ الروعة إلى حد أنها، حينما رأيت أنها تبغي مساعدتي في الاستلقاء وفي خلع حذائي وقمت بحركة أمنعها بها عن ذلك وأباشر بخلع ملابسي بنفسي، أوقفت بنظرة متوسّلة يدي اللتين لامستا الأزرار الأولى في سترتي وحذائي. وقالت لي:

- «رجوتك. إنه لفرح عظيم بالنسبة إلى جدتك. ولا يفوتنك على وجه الخصوص أن تنقر على الجدار إن كنت بحاجة لأمر ما هذه الليلة. فإن سريري يظاهر سريرك والحاجز رقيق جداً، هيّا افعل ذلك بعد لحظة حينما تصعد إلى سريرك لأرى إن كنّا متفاهمين تماماً».

وقد نقرت بالفعل ثلاث مرّات في ذلك المساء - وأعدت الكرّة بعد أسبوع حينما ألمّ بي المرض وذلك على مدى بضعة أيام في كلّ صباح لأن جدتي كانت تريد إعطائي حليباً في ساعة مبكرة. فحينما كنت أحسب إذ

ذاك أني سمعتها تستيقظ - وكي لا تنتظر وتستطيع معاودة النوم في الحال بعد ذلك - كنت أجازف بثلاث ضربات صغيرة خجولة ضعيفة إلا أنها واضحة مع ذلك، لأنني إن كنت أخشى أن أقطع عليها نومها إن اتفق أني أخطأت وأنها بعد نائمة فما كنت لأبغي كذلك أن تستمر في رصد نداء لم تميزه بادئ الأمر ولن أجرؤ على إعادة الكرّة. وما إن كنت أنتهي من نقراتي حتى كنت أسمع ثلاثاً غيرها مختلفة النغمة تسم بسلطة هادئة وتُكرر مرّتين لمزيد من الوضوح وتعني: «لا تضطرب، فقد سمعت وسأحضر بعد لحظات»؛ وكانت جدتي تصل بعد ذلك بقليل. وأقول لها إني خشيت ألا تكون سمعتني أو حسبت أن أحد الجيران قد نقر، فتضحك قائلة:

- «أخلط بين نقرات «كتكوتي المسكين»[1] وبين أخرى غيرها، ولكن جدته تتعرفها بين ألف! أفتظنّ أن ثمة في العالم ما كان في مثل غبائها واضطرابها وما يتنازعها من خشية أن توقظني وألا يتم فهمها؟ ولكن حتى لو اكتفى فأري الصغير بقرع خفيف لتم في الحال تعرّفه ولا سيما حينما يكون فريداً ومدعاة للرثاء مثلما هو فأري الصغير. لقد كنت أسمعه يتردّد منذ فترة ويضطرب في سريره ويقوم بجميع مناوراته».

وتَفتح مصراعي النافذة. كانت الشمس مذ ذاك في الملحق البارز من الفندق تقيم على السطوح كسقّاف يغدو إلى عمله في ساعة مبكرة وينجزه بصمت كي لا يوقظ المدينة التي لا تزال تنام والتي يزيد حراكها من خفّته. كانت تقول لي الساعة والطقس المتوقع وأن لا داعي أن أذهب حتى النافذة وأن البحر يغمره الضباب وإن كان المخبز قد فتح أبوابه وأية عربة تلك التي نسمعها: أي كلّ ما يحيط برفعة الستارة هذه القليلة الشأن وصلاة أول النهار هذه وهي غير ذات بال فلا يشهدها أحد، تلك القطعة الصغيرة من الحياة التي لم تكن لسوانا نحن الاثنين والتي سيطيب لي أن أذكرها أثناء النهار أمام «فرانسواز» أو أمام بعض الغرباء وأنا أتحدّث عن

(١) ورد في النص الفرنسي Mon chou أي يا قرنبيطتي.

الضباب الذي كالقطن المندوف، والذي ساد في الساعة السادسة صباحاً للتظاهر بالمعرفة المكتسبة بل للتباهي بدليل مودّة خُصصتُ بها وحدي؛ هذه اللحظة الصباحية العذبة التي كانت تبدأ مثل سيمفونية بالحوار الإيقاعي لضرباتي الثلاث الذي كان الحاجز يرد عليه، وقد داخله الحنان والفرح وأضحى رخيماً لا مادياً ينشد كالملائكة، بثلاث ضربات أخرى أنتظرها بلهفة وتكرر مرتين ويعلم كيف ينقل فيها روح جدتي بكليتها بفرح البشارة وأمانة الموسيقى. ولكني في ليلة وصولي تلك عدت أتألم حينما تركتني جدتي مثلما سبق أن تألمت في باريس لحظة مغادرة البيت. ربما لم يكن ذلك الذعر الذي ألمّ بي - ويلم بالكثيرين غيري - من جراء النوم في غرفة مجهولة، ربما لم يكن سوى الصيغة الأكثر اتضاعاً الغامضة العضوية اللاواعية تقريباً، صيغة هذا الرفض الكبير اليائس الذي تمانع به الأشياء التي تؤلف أفضل ما في حياتنا الحاضرة أن نرتدي ذهنياً صيغة تسليمنا بمستقبل لا تظهر فيه، الرفض الذي كان في أساس الهلع الذي غالباً ما جعلتني أحس به فكرة موت والديّ ذات يوم وأن ضرورات الحياة قد تضطرني إلى العيش بعيداً عن «جيلبيرت» أو إلى الإقامة فقط إقامة نهائية في بلاد لن أرى فيها أصدقائي من بعد. هذا الرفض الذي كان كذلك في أساس العنت الذي ألاقيه في التفكير بموتي أنا أو ببقاء كالذي كان «بيرغوت» يعد به البشر في كتبه والذي لن يمكنني أن أحمل معي إليه ذكرياتي وعيوبي وطباعي التي ما كانت تسلّم بفكرة أن لا تكون من بعد ولا تقبل في ما يخصني لا بالعدم ولا بأبدية لن يتسنى لها أن تكون فيها.

حينما قال لي «سوان» في باريس، ذات يوم كنت فيه متوعك الصحة على نحو ملموس: «يجدر بك أن ترحل إلى جزر أوقيانيا الرائعة تلك وسترى أنك لن تعود منها ثانية»، وددت لو أجيبه: «ولكني والحالة هذه لن أرى ابنتك من بعد وسأعيش بين أشياء وأناس لم ترهم قط». بيد أن عقلي كان يقول لي: «وما هم بما أنك لن تغتمّ لذلك؟ فحينما يقول لك السيّد «سوان» إنك لن تعود فإنما يعني بذلك أنك لن تود العودة، وبما أنك لن

تود العودة فإنما لأنك سوف تكون سعيداً هناك». لأن عقلي كان يعلم أن العادة - العادة التي ستتولى الآن مهمة أن تحبب إليّ هذا المسكن المجهول، وأن تغير مكان المرآة ولون الستائر وتوقف ساعة الجدار - تأخذ على عاتقها أيضاً أن تجعل الرفاق الذين ساؤوا بادئ الأمر في عيننا أعزاء على قلبنا وأن تهب الوجوه شكلاً آخر وأن تجعل نبرة صوت محببة وأن تبدل في ميل القلوب. صحيح أن لُحمة هذه المحبة الجديدة للأمكنة والناس قوامها نسيان القديمة؛ ولكن عقلي كان يحسب بالضبط أنني أستطيع دون جزع توقع حياة أنفصل فيها نهائياً عن كائنات سوف أفقد حتى ذكراها، فكان يقدم لفؤادي بمثابة عزاء وعداً بالنسيان كان على العكس يزيد من يأسه. وليس يعني ذلك أنه ينبغي أن لا يحسّ فؤادنا، بعد ما يتم الفراق، آثار العادة المسكّنة، ولكنه سوف يستمر حتى ذاك في العذاب. وإن الخشية من مستقبل نحرم فيه رؤية من نحب وحديثهم، ومنهما نستخلص اليوم أثمن أفراحنا، إن تلك الخشية تتعاظم بدلاً من أن تتبدد إن ظننا أنه سينضاف إلى عذاب وأن لا نبالي به، لأن أنانا تكون قد تبدلت والحالة هذه: فليس سحر ذوينا وعشيقتنا وأصدقائنا ما سيتبدد من حولنا فحسب، بل سوف يتم انتزاع مودتنا لهم من فؤادنا الذي تؤلف اليوم قسماً كبيراً منه انتزاعاً تاماً إلى حد نستطيع معه أن نصادف متعة في هذه الحياة المنفصلة عنهم التي تملؤنا فكرتها اليوم هلعاً. سوف يكون الأمر إذن بمثابة موت حقيقي لذاتنا، موت تليه بالحقيقة قيامة ولكن في أنا مختلفة لا يمكن لأجزاء الأنا القديمة التي كُتِبَ عليها الموت أن ترتفع إلى مستوى حبها وإنما تلك الأجزاء - حتى ما كان منها هزيلاً كأكثر ما يكون شأن التعلق الغامض بحجم غرفة وبجوها - التي تجزع وترفض ضمن أشكال من التمرد ينبغي أن نبصر فيها شكلاً خفياً جزئياً ملموساً حقيقياً من مقاومة الموت، من المقاومة الطويلة اليائسة اليومية للموت المجزأ المتتالي على النحو الذي يداخل فيه كامل مدة حياتنا فينزع منا في كل لحظة مزقاً من ذواتنا تتكاثر على جيفتها خلايا جديدة. ولم يكن القلق المذعور الذي

أحس به تحت هذا السقف المجهول والشديد الارتفاع، بالنسبة إلى مزاج عصبي كمزاجي (يعني مزاجاً يؤدي إلى الوسطاء، أي الأعصاب، وظائفهم أسوأ الأداء فلا يوقفون شكوى أكثر عناصر الأنا التي تزمع أن تزول اتضاعاً وهي في طريقها إلى الوعي، بل يدعون لها على العكس أن تبلغه واضحة مرهقة مؤلمة لا تحصى)، لم يكن سوى احتجاج صداقة لا تزال باقية في نفسي وأكنها لسقف مألوف غير مرتفع. وما من شك أن هذه الصداقة سوف تزول إذا احتلت أخرى مكانها (ويكون الموت آنذاك ثم حياة أخرى جديدة قد أتما عملهما المزدوج تحت عنوان العادة) بيد أنها سوف تتألم كل مساء إلى أن تضمحل، وقد ثارت في ذلك المساء على وجه الخصوص، إذ وضعت بمواجهة مستقبل قد تحقق ولا مكان لها فيه من بعد، وأخذت تعذبني بصوت نواحها في كل مرة تحاول فيها نظراتي، وهي لا تستطيع الانصراف عما يجرحها، أن تحط على هذا السقف الذي لا تدركه العين.

ولكن في صباح الغد! - وبعدما جاء خادم يوقظني ويأتيني بماء ساخن وبينما كنت أغسل وجهي وأحاول دون جدوى العثور على الأشياء التي كنت بحاجة إليها في حقيبتي التي كنت لا أستخرج منها في غير انتظام سوى تلك التي لا يمكن أن تفيدني في شيء، أيّة فرحة، وأنا أفكر مذ ذاك في متعة الغداء والنزهة، أن أبصر في النافذة وفي سائر واجهات المكتبات، وكأنما في كوى حجرة على متن سفينة، البحر عارياً لا ظلال عليه مع أنه كان في الظل على نصف امتداده الذي كان يحدده خط دقيق متحرك وأن أتابع بالعين الأمواج التي كانت تندفع الواحدة تلو الأخرى كجماعة من القفازين فوق خشبة للقفز! وكنت أعود في كلّ لحظة، وأنا أمسك بين يدي بالمنشفة المتصلبة المنشّاة التي كتب عليها اسم الفندق والتي كنت أنفق بها جهوداً لا تجدي في تنشيفي، كنت أعود قرب النافذة لألقي نظرة أخرى على هذا الميدان الخلاب الكثير الجبال وعلى القمم الثلجية لأمواجها التي من حجر الزمرد المصقول الشفاف في هذه النقطة

أو تلك، أمواجها التي تقبل بعنف هادئ وبعبسة الأسود تؤلف سفوحها وتهدم تلك السفوح التي تضيف إليها الشمس ابتسامة لا ترف على وجه. تلك النافذة التي كنت سأقف أمامها كلّ صباح بعد ذلك وكأنما أمام زجاج عربة نمتَ فيها لترى إن كانت سلسلة جبال مشتهاة قد اقتربت أثناء الليل أو ابتعدت - وهي بالمناسبة تلال البحر تلك الذي تستطيع قبل أن تعود إلينا متراقصة أن تتراجع بعيداً جداً إلى درجة أني ما كنت أبصر، على مسافة بعيدة تموجاتها الأولى في أفق شفاف ضبابي مائل إلى الزرقة كتلك الجليديات التي نراها في أقصى لوحات رسامي «توسكانا» الأوائل، إلا بعد سهل رملي واسع. وفي مرّات أخرى كانت الشمس تضحك قريباً مني على تلك المياه التي من خضرة في مثل الطراوة التي تحفظها لمروج جبال «الألب» حركة الضوء الرجراج أكثر مما تفعل رطوبة الأرض (في الجبال التي تمتد فيها الشمس ههنا وهناك كعملاق ينحدر فرحاً وبقفزات غير متساوية على سفوحه). وإنما الضوء، في هذه الثغرة التي يفتحها الشاطئ والمياه وسط باقي العالم لتسهل مرور الضوء وتراكمه فيها، إنما هو الذي يغيّر ويحدد على وجه الخصوص مواقع الوهاد في البحر بحسب الاتجاه الذي يجيء منه والذي تتابعه أعيننا. وليس يبدل اختلاف الضوء اتجاه مكان ولا يضع نصب أعيننا أهدافاً جديدة يبعث فينا رغبة الوصول إليها أقل مما يفعل مشوار طويل قطعناه بالفعل في أثناء رحلة. وحينما كانت تجيء الشمس في الصباح من خلف الفندق وتكشف أمام ناظريّ الرمال المنورة حتى معاقل البحر الأولى، كانت تبدو وكأنها تكشف لي عن سفح آخر وتحثّني أن أتابع على طريق أشعتها المتحولة رحلة ثابتة ومنوعة عبر أجمل مواقع لمنظر الساعات المتموج. كانت الشمس منذ ذلك الصباح الأول تريني في البعيد، بإشراقة ترفّ حول يدها، قمم البحر الزرقاء التي لا تحمل اسماً على أية خريطة جغرافية حتى يأخذها الدوار من جراء رحلتها الرائعة على صفحة قممها ووهادها المدوية التي تعمها الفوضى فتبادر إلى غرفتي تحتمي فيها من الريح وترتاح فوق السرير

المخرب وتنثر ثرواتها فوق المغسلة المبلولة وفي الحقيبة المفتوحة حيث تزيد من جراء روعتها ذاتها وبذخها الذي في غير محله من الشعور بالفوضى. أما هواء البحر فقد بدا بعد ساعة في قاعة الطعام الكبيرة - وفيما كنا نتناول طعام الغداء ونعتصر من «زمزمية» ليمونة بضع قطرات ذهبية على سمكتي موسى خلفتا بعد قليل في قصعاتنا خصلات حسكهما، الجعد كريش الطير، الرنان كمثل قيثارة - بدا من أسف مؤلماً لجدتي ألا تحسّ بأنفاسه العليلة بسبب الإطار الشفاف والمغلق الذي كان يفصلنا، على غرار واجهة زجاجية، عن الشاطئ ويسمح لنا في الوقت نفسه بمشاهدته كلياً، وكانت السماء تنتشر فيه انتشاراً تماماً حتى لتبدو زرقتها وكأنها لون النوافذ، وغيماتها البيضاء وكأنها عيب في الزجاج. وكنت أتساءل، وقد أقنعت ذاتي بأني أجلس على الرصيف البحري أو في أقصى البهو الذي يتحدث عنه «بودلير»، إن لم تكن «شمسه المشرقة على البحر» - وهي شديدة الاختلاف عن شعاع المساء البسيط والسطحي كخط مذهب ومرتعش - تلك التي كانت في هذه اللحظة تتوهج في البحر كحجر الياقوت وتخمّره وتجعله أشقر لبنيّ اللون كشراب «البيرة»، مزبداً كالحليب فيما تتنقّل بين الحين والحين ههنا وهناك ظلال زرقاء واسعة تبدو وكأنما يتلهى إله في تنقيلها بتحريك مرآة في السماء. والمؤسف أن قاعة الطعام التي في «بالبيك» لم تكن تختلف بمظهرها فحسب عن «قاعة» كومبريه المطلة على البيوت المقابلة، قاعة «بالبيك» هذه العارية المليئة بأشعة خضراء كالمياه في حوض سباحة والتي يرفع المدّ الصاعد وضياء الشمس على بضعة أمتار منها سوراً من زمرد وذهب لا يمكن دكه ولا يثبت في مكان، وكأنما أمام المدينة السماوية ما كنت أهتم لأحد في «كومبريه» بما أن الكل كان يعرفنا. أما في حياة الحمامات البحرية فإنك لا تعرف جيرانك. ولم أكن قد بلغت بعد من السن ما يكفي للتخلي عن رغبتي في أن أروق الناس وأمتلكهم وظل لديّ من الحساسية ما حال دون ذلك. ولم تتجمع لديّ اللامبالاة الأكثر نبلاً التي ربما خالجت رجل

المجتمعات حيال الأشخاص الذين كانوا يتناولون طعام الغداء في قاعة الطعام أن الشبان والشابات الذين يمرون فوق جدار السد والذين كان يعذبني التفكير بأنه لن يتسنى لي القيام برحلات معهم، والعذاب أقل على أية حال مما لو أقدمت جدتي التي لا تأبه باللياقات الاجتماعية ولا تهتم إلّا بصحّتي على أن تطلب إليهم، والطلب مذل بالنسبة إلي، أن يقبلوا بي رفيقاً في رحلاتهم. كنت أنظر إليهم بفضول محموم في نور الشاطئ المبهر الذي تتغيّر فيه الأبعاد الاجتماعية وأتابع حركاتهم جميعها عبر هذه الفتحة المزججة الواسعة التي تسمح بدخول هذا القدر الوافر من النور سواء أعادوا باتجاه دارة مجهولة أم خرجوا منها يحملون مضاربهم للذهاب إلى ملعب لكرة المضرب أم امتطوا جياداً تدوس حوافرها فؤادي. على أن تلك الفتحة كانت تحجب الهواء، وهو عيب فيما ترى جدتي، التي لم تكن تستطيع احتمال فكرة أن أفقد فائدة ساعة من الهواء الطلق ففتحت خلسة أحد ألواح الزجاج مما تناثرت به في الوقت نفسه، بالإضافة إلى لوائح الطعام، الصحف وأغطية الرأس والقبعات العائدة لجميع الذين كانوا يتناولون طعام الغداء. أما هي التي ساندتها الأنفاس السماوية فقد ظلت هادئة تبتسم، كالقديسة «بلاندين»، وسط الشتائم الذي ضاعفت من إحساسي بالعزلة والغم إذ جمعت ضدّنا السائحين باحتقارهم وشعرهم المنكوش وحنقهم.

وكانوا يتألفون في قسم منهم من شخصيات بارزة من أهم مقاطعات هذا الجزء من فرنسا، كرئيس أول من مدينة «كان» ونقيب محامين من مدينة «شيربور» وكاتب عدل مرموق من مدينة «المانس» وجميعهم ينطلقون من النقاط التي كانوا مشتتين فيها طوال العام كمثل قناصة أو أحجار في لعبة «الداما» ويبادرون إلى التجمع في هذا الفندق، الأمر الذي كان يضفي على روّاد مثل هذه الفنادق الممتازة في «بالبيك»، وهم بالعادة أغنياء تافهون ومن بلدان مختلفة، طابعاً محلياً بارزاً إلى حد ما. كانوا يحتفظون على الدوام بغرفهم ويشكلون مع زوجاتهم اللواتي تداخلهن طموحات إلى

الأرستقراطية جماعة صغيرة انضم إليها محامٍ كبير وطبيب كبير من باريس، وكانا يقولان لهم يوم الرحيل:

- «آه! صحيح، أنتم لا تستقلون القطار الذي نستقله، وهذا امتياز فسوف تصلون ساعة تناول الغداء».

- «ومن أين هذا الامتياز؟ أنتم الذين يقطنون العاصمة باريس، المدينة الكبيرة، فيما أقطن في مركز مقاطعة بسيط عدد سكانه مائة ألف، أو بالأصح مائة وألفان حسب التعداد السكاني الأخير. ولكن ما قيمة ذلك إلى جانب عددكم الذي يبلغ مليونين ونصف المليون، أنتم الذين سيلقون من جديد الأسفلت وكامل روعة العالم الباريسي؟»

كانوا يقولون ذلك ويشددون على حرف «الراء» على طريقة الفلاحين، دون أن يضمنوا القول أية مرارة إذ كان يمكن لمشاهير من مقاطعتهم أن يجيئوا كسواهم إلى باريس - فقد سبق أن عرضوا مرّات عديدة على رئيس محكمة «كان» مقعداً في محكمة النقض - ولكنهم فضّلوا البقاء حيث هم حباً بمدينتهم أو بالعيش الخفي أو بالشهرة أو لأنهم رجعيون أو للمتعة الناجمة عن علاقات الجوار بالقصور وكثيرون على أي حال ما كانوا يلتحقون في الحال بمركز محافظتهم.

وبما أن خليج «بالبيك» كان يؤلف عالماً صغيراً فريداً داخل العالم الكبير وسلة فصول تجمعت فيها، على شكل دائرة، الأيام بأنواعها والشهور المتوالية إلى حد أنك كنت تبصر نور الشمس يغمر بيوت «ريفبيل»، فيما السماء داكنة فوق «بالبيك»، لا في الأيام التي تتسنى لك فيها رؤية هذه المدينة فحسب، الأمر الذي كان يؤذن بالعاصفة، بل إلى حد أنك كنت أكيداً، بعدما يلف البرد «بالبيك»، أنك واجد على ذلك الشاطئ الآخر شهرين أو ثلاثة من الحر الإضافي، - فقد كان أولئك الذين تبدأ عطلتهم الصيفية، من بين روّاد الفندق الكبير، متأخرة أو تدوم فترة طويلة يقومون، حينما تحل الأمطار ويسود الضباب لدى اقتراب الخريف، بتحميل حقيبتهم على زورق يجتازون به الخليج للحاق بالصيف

في «ريفبيل» أو «كوستدور». كانت تلك الجماعة الصغيرة في فندق «بالبيك» تنظر بارتياب إلى كل قادم جديد، وكان الجميع، فيما يبدون أنهم لا يهتمون به، يسائلون بشأنه صديقهم رئيس خدم الفندق. فقد كان هو نفسه - «إيميه» - الذي يعود في كل عام لإحياء فصل الصيف ويحجز لهم طاولاتهم، والسيدات عقيلاتهم اللواتي يعلمن أن زوجته تنتظر مولوداً كن يشتغلن بعد وجبات المسلوق مع السلطة وهو أمر معروف بعامّيته ولا يقدم عليه أحد في مجتمع مدينة «آلانسون» الراقي. وكانوا يصطنعون موقفاً من السخرية المتعالية حيال أحد الفرنسيين الذي يطلقون عليه لقب «صاحب الجلالة» والذي سبق بالفعل أن نصّب نفسه ملكاً على جزيرة صغيرة من أوقيانيا يقطنها بعض المتوحشين فحسب. كان قد حلّ في الفندق مع عشيقته الحلوة التي كان الصغار يهتفون لدى مرورها بهم في طريقها إلى المسبح: «عاشت الملكة!» لأنها كانت تنثر فوقهم قطعاً من ذوات الخمسين فلساً. أما رئيس المحكمة ونقيب المحامين فقد كانا يرفضان حتى أن يبدو أنهما يبصرانها، وإن نظر إليها أحد أصدقائهما ظنا من واجبهما إعلامه أنها عاملة صغيرة.

- «لكن ثمة من أكد لي أنهما يستخدمان الحجرة الملكية في «أوستاند».

- «بالطبع! فهم يؤجرونها مقابل عشرين فرنكاً، وبوسعك أن تأخذها إن راقك ذلك. ثم إني أعلم علم اليقين أنه أرسل يطلب مقابلة الملك الذي أبلغه أنه لا يجدر به أن يعرف هذا السلطان المهرج».

- «ذلك بالحقيقة مثير. إن ثمة نفراً من الناس!..».

وما من شك أن كل ذلك كان صحيحاً، بيد أن الكاتب العدل ورئيس المحكمة ونقيب المحامين إنما كان يهزهم الغضب أيضاً إلى هذا الحد وكانوا يعبّرون عن سخطهم على نحو ملحوظ لدى مرور ما كانوا يسمونه بالمساخر من جراء الشعور المزعج لديهم بأنهم في نظر قسم وافر من الجمهور محض بورجوازيين طيبين لا يعرفون هذا الملك وهذه الملكة

المبذرين لمالهما، والسخط يعلم به صديقهم رئيس الخدم الذي كان مضطراً أن يحسن وفادة العاهلين، وهما أوفر كرماً منهما أصالة، فكان إذ يدون طلبهما يغمز من بعيد لزبائنه القدامى نظرة ذات مغزى وربما كان ثمة أيضاً قليل من هذا الإزعاج نفسه الذي مرده أن يحسبهم الناس خطأ أقل أناقة وألا يمكنهم أن يوضحوا أنهم أكثر أناقة، وذلك في قرارة «السيد الظريف» الذي ينعتون به أحد الشبان المتأنقين وهو ابن مصدور متهتك لأحد الصناعيين الكبار وكان كل يوم يتناول طعام الغداء مع الشمبانيا وهو يرتدي سترة جديدة ويضع زهرة أوركيدا في عروته ثم يمضي شاحباً هادئاً وعلى شفتيه ترفّ ابتسامة لا مبالية فيرمي على طاولة البكارا في الكازينو مبالغ باهظة «لا يملك الوسائل اللازمة لخسارتها» حسبما يقول الكاتب العدل ويتخذ هيئة العالم بالأمور، لرئيس المحكمة الأول الذي كانت زوجته «تعلم من مصادر موثوق بها» أن هذا الشاب المطبوع بطابع أواخر القرن كان يُميت والديه غماً.

وما كان نقيب المحامين من جهة أخرى يكف وأصدقاؤه عن الهزء بسيدة عجوز غنية وذات لقب لأنها لم تكن تتنقل إلا ويصحبها خدم البيت بأسرهم. وكانت زوجة الكاتب العدل وزوجة رئيس المحكمة الأول كلما أبصرتاها في قاعة الطعام أثناء الوجبات تتفحصانها بوقاحة بمنظارهما بالمظهر الدقيق المحاذر نفسه الذي تبديانه لو أنها كانت طبقاً يحمل اسماً فخماً ولكن مظهره مريب فيتم استبعاده بحركة متعالية وتكشيرة اشمئزاز بعد حكم في غير صالحه تمّ بناءً على ملاحظة منظّمة.

وما من شك أنهما كانتا تتوخيان بذلك أن تبرزا فحسب أنه إن كانت ثمة أمور تعوزهما - كبعض امتيازات السيدة العجوز في هذا الظرف وأن تكونا على علاقة بها - فما ذلك لأنهما لا تستطيعان بلوغها بل لأنهما لا تريدانه. ولكنهما انتهتا إلى إقناع ذاتهما بالأمر، وإن إلغاء كل رغبة، إن إلغاء حب الاطّلاع على أشكال الحياة التي لا نعرفها وأمل أن نحسن في أعين أشخاص جدد، وقد حلّ محلها لدى أولئك النساء تظاهر بالازدراء

وغبطة مصطنعة، إن ذلك الإلغاء هو الذي كان من مساوئه حملهن على وضع الكدر تحت عنوان الانشراح وعلى الكذب المستمر على أنفسهن، وهما شرطان يضمنان تعاستهن. بيد أن الجميع في هذا الفندق كانوا يعلمون دون شك بالطريقة نفسها، وإن بصيغ مختلفة، وإن لم يضحّوا بكبريائهم فقد كانوا يضحون على الأقل لبعض مبادئ تربوية أو لعادات فكرية بالاضطراب اللذيذ الناجم عن التدخل في حياة مجهولة. ولا ريب أن العالم الصغير الذي كانت تعتزل السيدة العجوز في داخله لم تكن تفسده المرارة اللاذعة شأن الجماعة التي تقهقه من حنق فيها زوجتا الكاتب العدل ورئيس المحكمة الأول. لقد كان يفوح منه على العكس عطر رقيق متقادم العهد ولكنه لا يقل اصطناعاً. ذلك أن السيدة العجوز ربما لاقت روعة في الإغراء وفي اجتذاب ما خفي من ودّ جماعة جديدة (الأمر الذي تتجدد به بدورها)، تلك الروعة التي تخلو منها المتعة الناجمة عن قصر علاقات المرء على جماعة من عالمه الخاص وعن التذكر بأن الازدراء غير المطلع الذي يحيطه به الغير لا يستحق اهتمامه، بما أن ذلك العالم أفضل الموجود. وربما أحست أنها لو وصلت مجهولة إلى الفندق الكبير في «بالبيك» فربما بعثت بفستانها الذي من صوف أسود وقبعتها المتقادمة ابتسامة على شفتي أحد الماجنين الذي ربما همس من «كرسيه الهزاز»: «بئس العجوز» أو استثارت على وجه الخصوص سخرية واحد من ذوي القدر قد احتفظ بين سالفيه الأشيبين، كما هي حال رئيس المحكمة الأول، بوجه ريان وعينين ذكيتين على نحو ما تحب وبادر في الحال ينبّه العدسة المقربة للمنظار الزوجي إلى ظهور هذه الظاهرة الغريبة، وربما كان بداعي الخشية اللاواعية من تلك الدقيقة الأولى التي يعلم المرء أنها قصيرة ولكنها ليست لذلك أقل رهبة - كمثل الغطسة الأولى في الماء - أن ترسل هذه السيدة سلفاً واحداً من خدمها يُطلع الفندق على شخصيتها وعاداتها وتقطع على المدير تحياته وتمضي باستعجال فيه من الحياء أكثر مما فيه كبرياء إلى غرفتها حيث ترفع ستائر شخصية حلّت محل

تلك التي كانت تتدلى من النوافذ وسواتر وصور شمسية بينها وبين العالم الخارجي الذي كان لا بدَّ من التكيف معه، حاجز عاداتها إلى حد أن منزلها الذي ظلّت في أحضانه هو الذي كان يسافر أكثر مما تفعل هي.

ولما وضعت بينها من جهة وبين العاملين في الفندق ومموّنيه من جهة ثانية خدمها الذين كانوا ينوبون عنها في الاحتكاك بهذه الإنسانية الجديدة ويحافظون على الأجواء المعتادة حول سيدتهم، وأقامت أحكامها المسبقة بينها وبين السباحين لا تبالي بأن تزعج جماعة ما كانت صديقاتها ليستقبلنهم، فقد ظلّت مذ ذاك تعيش في عالمها بمراسلة أصدقائها وبالذكرى التي تحفظها عن منزلتها والشعور العميق به وبجودة عاداتها وعمق تهذيبها. وحينما تنزل كل يوم لتقوم بنزهة في عربتها المكشوفة كانت وصيفتها التي تحمل حاجاتها وراءها وخادمها الذي يتقدمها يبدوان كأولئك الحراس الذين يقفون على أبواب سفارة تزدان بعلم البلد الذي تنتمي إليه فيضمنون لها، على أرض أجنبية، حقها في أن تكون خارج أراضي الدولة. ولم تغادر غرفتها قبل منتصف ما بعد الظهر يوم وصولنا، ولم نشاهدها في غرفة الطعام التي صحبنا المدير ساعة الغداء إليها بحمايته لأننا وصلنا حديثاً، كرقيب يسوق أغراراً إلى العريف الخياط ليوصي لهم على ملابس ولكننا شاهدنا بالمقابل بعد لحظة أحد نبلاء الريف وابنته، وهما من أسرة مغمورة في مقاطعة بريتانيا ولكنها عريقة جداً، ويدعيان السيد «ستيرماريا» والآنسة «ستيرماريا»، وكانا قد خصانا بمائدتهما ظناً منهما أنهما لن يعودا إلا في المساء. ولما جاءا إلى «بالبيك» لمجرد لقاء بعض أصحاب القصور الذين يعرفانهم في الجوار فما كانا يقضيان في قاعة الطعام في الفندق، بين الدعوات المقبولة في الخارج والزيارات التي يقومان بها، سوى الوقت الضروري فحسب. وكانت عجرفتهما تقيهما من أيّ توادّ إنساني ومن أي اهتمام بالمجهولين الذين يجلسون من حولهم والذين يحافظ السيد «ستيرماريا» فيما بينهم على المظهر المجافي المعجل المتعالي القاسي المتصعب السيئ النية الذي يتخذه المرء في مطعم للسكك

الحديدية بين مسافرين لم يرهم قط ولن يراهم ثانية وليس من علاقة معهم فيما عدا أن يحمي من أذاهم فرّوجه البارد ومقعده في عربة القطار. وما إن باشرنا طعام الغداء حتى جاء من يطلب إلينا بناءً على أمر السيد «دو ستيرماريا» الذي وصل منذ لحظة ورجا رئيس الخدم بصوت عالٍ، ودون أية لفتة يعتذر بها إلينا، أن يسهر على ألا تتكرر مثل هذه الهفوة إذ يسوؤه أن احتلّ طاولته «أناس لا يعرفهم».

وما كان بالتأكيد يداخل الشعور الذي يدفع إحدى الممثلات (وهي على كل حال أكثر شهرة بسبب أناقتها وظرفها ومجموعات الخزف الألماني الجميل التي بحوزتها منها من جراء بعض الأدوار التي أدّتها على مسرح «الأوديون») وعشيقها، وهو شاب طائل الثراء انصرفت إلى الثقافة من أجله، ورجلين مرموقين من فئة الأرستقراطيين إلى الاعتزال في الحياة والسفر سوية فحسب وتناول طعام الغداء في «بالبيك» في ساعة متأخرة جداً بعد ما ينتهي الجميع منه وقضاء النهار في صالتهم في لعب الورق، ما كان يداخله أيّ مقصد سوء وإنما قوامه متطلبات الميل الذي بهم إلى بعض أشكال الحديث الظريف وبعض ما رهف ذوقاً من طيّب المآكل والذي يلاقون من جرائه متعة في العيش سوية وتناول طعامهم معاً فحسب، ولعله يجعلهم لا يطيقون العيش المشترك مع أناس لم يتسنّ لهم التدرب على ذلك. لقد كان كل منهم في حاجة لأن يعلم، حتى أمام مائدة طعام جاهزة أو أمام مائدة لعب، أن لدى المدعو أو الشريك الذي يجلس قبالته وجهاً من وجوه المعرفة يسمح له بتعرّف سقط المتاع الذي يباهي به الكثير من المنازل الباريسية على أنه أثاث أصيل من «العصر الوسيط» أو «عصر النهضة»، ومعايير مشتركة في كل الأمور للتمييز بين الصالح والطالح والكل كامن في نفسه معلّقاً غير مستعمل وليس من شك أن هذه الحياة الخاصة التي كان يرغب هؤلاء الأصدقاء أن يظلوا مغموسين فيها أنّى كانوا لم تعد تبرز في تلك اللحظات إلا عبر استحسان أو تعجب نادر وغريب ينطلق وسط الصمت الذي يسود الطعام أو اللعب، أو بسبب

الفستان الرائع الجديد الذي ارتدته الممثلة الشابة لتناول طعام الغداء أو لتلعب البوكر. ولكنها كانت كافية، إذ تلفهم على ذلك النحو بعادات يعرفونها أدق المعرفة، لتحميهم من أسرار الحياة المحيطة بهم. وفي أثناء فترات ما بعد الظهر الطويلة لم يكن البحر معلقاً قبالتهم إلا على نحو لوحة ممتعة الألوان عُلّقت في بهو عازب ثري ولم يكن أحد اللاعبين يرفع عينيه إليها إلا في أثناء فواصل اللعب، وليس لديه إذ ذاك أمر أفضل يفعله، ليستخلص منها دليلاً على الطقس الجميل أو الساعة ويذكّر الآخرين بأن العصرونية تنتظرهم. وما كانوا في المساء يتعشون في الفندق حيث تدفق الينابيع الكهربائية الضوء دفقاً في قاعة الطعام الكبرى فتضحي بها وكأنها حوض مائي فسيح وغريب يتطاحن أمام واجهته الزجاجية سكان «بالبيك» من عمال وصيادي أسماك إلى جانب أسر بعض صغار البورجوازيين ولا تبصرهم العين في الظلام، يتطاحنون كيما يشاهدوا الحياة المترفة التي تترجح بلطف في تموجات من الذهب وهي خارقة في نظر الفقراء بمقدار ما هي حياة أسماك ورخويات غريبة (وإنها لمسألة اجتماعية كبيرة أن نعلم إن كان السور الزجاجي سوف يحمي على الدوام مأدبة الحيوانات العجيبة وإن كان القوم المغمورون الذين ينظرون بنهم في الظلام لن يبادروا إلى التقاطها في الحوض وافتراسها). وبانتظار ذلك ربما كان في صفوف الجمهور الواقف الذي يختلط في الظلمة كاتب، هاوي سمكيات بشرية كان ينظر إلى فكوك وحوش نسائية مسنة تنطبق على قطعة طعام مزدرد ويستمتع بتصنيفها بحسب الجنس والخصائص الفطرية وبحسب الخصائص المكتسبة كذلك التي تجعل سيدة مسنة من بلاد الصرب، تذكّر استطالة فمها بسمكة بحرية كبيرة لأنها تعيش منذ طفولتها في مياه ضاحية «سان جيرمان» العذبة، تأكل السلطة كواحدة من أسرة «لاروشفوكو».

وفي تلك الساعة كان يشاهد الرجال الثلاثة ينتظرون بلباس السهرة المرأة التي كانت تخرج بعد قليل من المصعد، بعدما استدعته من غرفتها، وكأنما من صندوق لُعَب، وهي ترتدي فستاناً جديداً في كل مرة تقريباً

ومناديل تختارها وفق ذوق خاص بعشيقها ثم يذهب أربعتهم، وكانوا يرون أن الظاهرة الدولية المتمثلة في الفندق الفخم الذي استوطن «بالبيك» قد جعلت البذخ يزدهر فيها لا المآكل الطيبة، فيسرعون داخل سيارة لتناول طعام العشاء على بعد نصف فرسخ من هناك في مطعم صغير ذائع الصيت كانوا ينصرفون مع الطاهي فيه إلى محاضرات لا تنتهي حول محتويات لائحة الطعام وإعداد الأطباق. ولم تكن الطريق المحفوفة بأشجار التفاح والتي تنطلق من «بالبيك»، لم تكن في نظرهم سوى المسافة التي ينبغي اجتيازها - وتكاد لا تتميّز في حلك الليل عن تلك التي تفصل بين مساكنهم الباريسية و«المقهى الإنكليزي» أو البرج الفضي - قبل الوصول إلى المطعم الصغير الأنيق حيث تنشر مناديل العشيقة، فيما أصدقاء الشاب الغني يحسدونه لأن لديه عشيقة أنيقة الملبس إلى هذا الحد، تنشر أمام الجماعة الصغيرة ما يشبه حجاباً عطراً مطواعاً ولكنه يفصل بينها وبين العالم.

أما أنا فقد كنت، لسوء حظّ هدأة بالي، بعيداً عن أن أشبه سائر هؤلاء الناس. فقد كنت أهتم بالكثيرين منهم وودت ألا يجهلني رجل متعب الجبين متهرب النظرة بين غمائم أحكامه المسبقة وتربيته، عنيت سيد المنطقة الكبير الذي لم يكن سوى صهر «لوغراندان»: فقد كان يجيء بين الحين والحين في زيارة إلى «بالبيك» ويخلي الفندق في يوم الأحد، من جراء الحفلة الراقصة التي يقيمها مع زوجته في الحديقة، من جزء من نزلائه لأن واحداً أو اثنين من بينهم كانا يدعيان إلى هذه الحفلات ولأن الآخرين كانوا يختاورن ذلك اليوم للقيام بنزهة بعيدة كي لا يبدو أنهم لم يدعوا. وكان قد أسيئ استقباله على أية حال في اليوم الأول في الفندق حينما لم يكن يعرف الخدم بعد هويته، وقد وصلوا حديثاً من الشاطئ اللازوردي . فلم يكن يرتدي الفانيلا البيضاء، بل هو سارع، من جراء عادة فرنسية قديمة وجهل بحياة الفنادق الكبيرة، إلى نزع قبعته حالما دخل إلى بهو تجلس فيه نساء، الأمر الذي حدا بالمدير ألا يلمس حتى طرف

قبعته ليرد على تحيته وقد حسب أنه بالتأكيد من أكثر الطبقات اتضاعاً وما كان يدعوه الرجل الذي «يخرج من صفوف العوام». وحدها امرأة الكاتب العدل أحّست بجاذب يشدها إلى الوافد الجديد الذي ينضح بكل الخشونة المصطنعة التي يمتاز بها الأنيقون من الناس وأعلنت، بنفاذ البصيرة الذي لا يخطئ والسلطة التي لا اعتراض عليها التي يتمتع بها شخص لا يملك مجتمع مدينة «مانس» الراقي أسراراً بالنسبة إليه، أن المرء يحس أمامه أنه في حضرة رجل رفيع الذوق رفيع التهذيب يختلف عن كل ما يصادفه المرء في «بالبيك» وما تحكم أنه لا تحسن مخالطته ما دامت لم تخالطه. ربما كان مرد هذا الحكم المشجع الذي أطلقته على صهر «لوغراندان» المظهر الباهت الذي لامرئ لا يوحي بشيء من الرهبة وربما لأنها عرفت في هذا النبيل المزارع الذي له هيئة القندلفت العلامات الماسونية لاكليروسيتها الخاصة.

وعبثاً علمتُ أن الشبان الذين كانوا يمتطون الجياد كل يوم أمام الفندق هم أبناء صاحب مخزن أزياء حديثة غير نزيه ما كان والدي ليرضى بالتعرُّف إليه في يوم، فقد كانت «حياة حمامات البحر» تجعل منهم في نظري تماثيل أنصاف آلهة على صهوات الجياد وأفضل ما كان يمكن أن أعقد الآمال عليه ألا يدعوا لنظراتهم أن تقع على الصبي المسكين الذي أمثّله والذي ما كان يغادر غرفة الطعام في الفندق إلا ليبادر إلى الجلوس على الرمل. وددت لو أوحي ببعض العطف حتى للمغامر الذي كان ملكاً على جزيرة مقفرة في أوقيانيا وحتى للمصدور الشاب الذي كنت أحب أن أفترضه يخفي خلف مظاهره الوقحة روحاً وجلة رقيقة ربما أغدقت عليّ وحدي كنوزاً من الحنان، وبما أن مشاهدة المرء مع بعض الأشخاص (خلافاً لما يروى عادة عن علاقات تنشأ أثناء السفر) تستطيع فضلاً عن ذلك أن تضيف إليه على شاطئ يعود إليه أحياناً معاملاً لا يوازيه شيء في حياة المجتمع الحقيقية، فليس من أمر لا يستبعد في حياة أهل باريس، بل هم يعنون به أشد العناية، كما هو أمر الصداقات التي تنشأ في الحمامات

البحرية. وكنت أهتم بالرأي الذي يمكن أن يكوّنه عني جميع هؤلاء الأعيان المؤقتين أو المحليين الذين كانت نزعتي إلى وضع نفسي موضع الناس وإعادة صياغة حالتهم الفكرية تجعلني أضعهم لا في مرتبتهم الحقيقية، تلك التي ربما شغلوها في باريس مثلاً وقد تكون وضيعة جداً بل في المرتبة التي يظنون أنها لا بدَّ مرتبتهم، وإنها لكذلك، «بالبيك»، والحق يُقال، حيث غياب المقياس العام يعطيهم نوعاً من التفوّق والأهمية الخاصة، وما كان ازدراء أي من هؤلاء الأشخاص يشق عليّ، وأسفي، بقدر ما يشق ازدراء السيّد «دو سيترماريا».

ذلك أنني لاحظت ابنته حال دخولها ووجهها الجميل الشاحب الذي يكاد يميل إلى الزرقة وما كان فريداً في شكل قامتها المديدة ومشيتها ويذكّر حقاً بسلالتها وتربيتها الأرستقراطية، يزيد من وضوح الأمر أنني كنت أعرف اسمها - شأن تلك الفكر المعبرة التي ابتدعها موسيقيون عباقرة والتي تصور توهج اللهب وخرير النهر وهدوء الحقول بالنسبة إلى المستمعين الذين وجّهوا خيالهم الاتجاه الصحيح إذ قرؤوا مسبقاً الكتيب. كانت «السلالة» تضيف إلى مفاتن الآنسة «دو ستيرماريا» علّتها فتجعلها أقرب إدراكاً وأوفر كمالاً. كانت تجعلها كذلك أكثر اشتهاء إذ تعلن أنها نادرة المثال مثلما يزيد الثمن المرتفع من قيمة حاجة حسُنت لدينا وكان الفرع الوراثي يعطي لون وجهها المؤلّف من عصارات مختارة طعم فاكهة البلدان الغريبة أو الخمرة الشهيرة. غير أنّ صدفة وضعت فجأة بين أيدينا، أنا وجدّتي، وسيلة أضفت علينا في نظر جميع نزلاء الفندق مهابة فوريّة. ذلك أنّ مدير الفندق، منذ هذا اليوم الأوّل ولحظة كانت السيّدة العجوز تنزل من شقّتها وتمارس، بفضل الخادم الذي كان يتقدمها والوصيفة التي كانت تعدو خلفها تحمل كتاباً وغطاء منسيين، تأثيرها على النفوس وتستثير لدى الجميع فضولاً واحتراماً بدا واضحاً أنّ السيّد «دو ستيرماريا» كان أقلّ من يستثنى منه، انحنى على جدّتي وهمس في أذنها متلطفاً (مثلما يُرون الشاهَ الفارسيّ أو ملكةَ «رانافالو» لمتفرّج مغمور لا

يمكن بالتأكيد أن تكون له أيّة علاقة بالعاهل الجبّار ولكنّه يمكن أن يجد من المتع أن رآه على بضع خطوات منه): «المركيزة دو فيلباريسيس»، فيما لم تستطع تلك السيّدة وهي تبصر جدّتي في اللحظة نفسها أن تملك نظرة أطلت منها الدهشة والغبطة.

يمكن الظن بأن الظهور المفاجئ لأكثر الجنيات اقتداراً خلف ملامح عجوز صغيرة ما كان ليبعث فيّ مقداراً أكبر من السرور وأنا على ما أنا عليه من افتقار لأية وسيلة للاقتراب من الآنسة «دو ستيرماريا» في بلد لم أكن أعرف فيه أحداً، وأقصد من وجهة النظر العملية، ذلك لأن عدد النماذج البشرية على الصعيد الجمالي محدود جداً حتى لا تتسنى للمرء في الغالب وأينما ذهب غبطة لقاء جماعة من معارفه ودون أن يبحث عنهم في لوحات أرباب الفن القدامى مثلما كان يفعل «سوان». فقد اتفق لي هكذا منذ الأيام الأولى لإقامتنا في «بالبيك» أن ألتقي بـ«لوغراندان» وبواب «سوان» وحتى بالسيّدة «سوان» نفسها، وقد أضحوا الأول خادم مقهى والثاني غريباً عابر سبيل لم أره ثانية والأخيرة مدرِّب سباحة. وإن ضرباً من المغنطة يجتذب بعض السمات في المظهر والعقلية ويضمها الواحدة إلى الأخرى على نحو لا ينفصم حتى إن الطبيعة حينما تُدخل أحد الناس في جسم جديد فإنها لا تشوهه إلى حد بعيد. فقد كان «لوغراندان» الذي استحال خادم مقهى يحتفظ بقامته وصورة أنفه الجانبية وجزء من ذقنه على حالها. أما السيدة «سوان» فقد تبعها في الذكورة ووظيفة مدرب السباحة لا مظهرها المعتاد فحسب بل طريقة ما في التحدث، ولكنها لم تكن تستطيع أن تأتيني بنفع، وهي تتمنطق بزنارها الأحمر، وترفع لأقل ارتفاع في الأمواج الراية التي تحظر السباحة «لأن المدربين حذرون فهم نادراً ما يحسنون السباحة»، أكثر مما لعلها كانت تستطيع ذلك في اللوحة الجدارية التي عنوانها «**حياة موسى**» والذي تعرّفها «سوان» فيها بملامح ابنة «جيترو». أما السيدة «دو فيلباريسيس» هذه فقد كانت هي الحقيقية ولم تقع ضحية سحر سلبها قوتها بل كانت قادرة على العكس أن تضع في خدمة

قوتي سحراً يضاعفها مئة مرة، سحراً أزمع أن أجتاز بفضله، وكأنما يحملني جناحاً طائر خرافي، المسافاتِ الاجتماعيةَ اللامحدودة التي كانت تفصلني عن الآنسة «دو ستيرماريا» على الأقل في «بالبيك» في بضع لحظات.

ولئن كان ثمة لسوء الحظ من يعيش أكثر من آخر سواه سجين عالمه الخاص فإنما جدتي ولعلها ما كانت حتى تحتقرني ولا فهمتني لو علمت أنني أعلّق أهمية على رأي جماعة لم تلاحظ حتى جودهم وسوف تغادر «بالبيك» دون أن تكون حفظت أسماءهم وأنني أبدي اهتماماً بأشخاصهم، ولم أجرؤ على الإقرار أمامها بأنه، لو رآها هؤلاء الناس أنفسهم تتحدث مع السيّدة «دو فيلباريسيس» لأصابني من جراء ذلك سرور عظيم لأنني كنت أحس أن المركيزة تتمتّع بمهابة في الفندق وأن صداقتها ربما رفعت من قدرنا في نظر السيد «دو ستيرماريا». وليس يعني ذلك على كل حال أن صديقة جدتي كانت تمثل في نظري بأقل قدر ممكن شخصية من طبقة الأرستقراطيين، فقد كنت شديد التعود على اسمها الذي أضحى مألوفاً في أذني قبل أن يتوقف عقلي لديه عندما كنت أسمع من ينطق به في المنزل وأنا لا أزال طفلاً. ولم يكن يضيف لقبها إليه سوى خاصّية غريبة مثلما قد يفعل اسم قليل الاستعمال، على نحو ما يتفق في أسماء الشوارع التي لا نبصر فيها شيئاً أكثر نبلاً في شارع «اللورد بايرون» أو في شارع «روشيشوار» الشعبي جداً والمبتذل أو في شارع «دو غرامون» منه في شارع «ليونس رينو» أو في شارع «هيبوليت لوبا». وما كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» لتوحي لي بشخصية من عالم خاص أكثر من ابن عمها «ماك ماهون» الذي لم أكن أميّزه عن السيّد «كارنو» وهو رئيس للجمهورية مثله، «وعن راسباي» الذي سبق أن اشترت «فرانسواز» صورته مع صورة «بيوس التاسع». كانت جدتي تدين بمبدأ قوامه أنه يجدر بالمرء في أثناء السفر ألا يقيم من بعد علاقات مع أحد وأنه لا يذهب إلى شاطئ البحر ليشاهد الناس وأن الوقت يتسع له كاملاً في باريس لتلك الغاية، وأنهم يضيّعون

عليك الوقت الثمين الذي ينبغي قضاؤه بكامله في الهواء الطلق وأمام الأمواج بالمجاملات والتفاهات، ولما رأت من الأيسر لها افتراض أن الجميع يشاطرونها هذا الرأي الذي يسمح بتوهم التخفي المتبادل بين أصدقاء قدامى تجمعهم الصدفة في الفندق نفسه، فقد اكتفت لدى سماع الاسم الذي ذكره لها المدير أن تشيح بعينيها وبدت كأنها لا تبصر السيدة «دو فيلباريسيس» التي أدركت أن جدتي لا ترغب في تعرف جديد بالناس فنظرت بدورها في اتجاه مبهم، وابتعدت وظللت في عزلتي كغريق بدا أن مركباً يقترب منه ثم غاب فيما بعد دون أن يتوقف.

كانت تتناول كذلك وجبات طعامها في قاعة الطعام، ولكن في الطرف الآخر. ولم تكن تعرف أحداً من الأشخاص الذين يقطنون الفندق أو يجيئون إليه في زيارة، ولا حتى السيّد «دو كامبرمير». وقد رأيت بالفعل أنه لم يسلّم عليها ذات يوم قبل فيه مع زوجته دعوة نقيب المحامين إلى طعام الغداء، وقد أخذ هذا الأخير، إذ أسكره شرف جلوس هذا النبيل إلى مائدته، أخذ يتجنب أصدقاءه في الأيام الأخرى ويكتفي بأن يوجه إليهم من البعيد بعينه كي يشير إلى هذا الحدث التاريخي ولكن على نحو حذر كي لا يمكن تفسير الإشارة على أنها دعوة للاقتراب.

وقالت له زوجة الرئيس الأول في المحكمة: «حسن، إني آمل أنك ترتدي أحسن الثياب، وأنك رجل أنيق».

وسأل نقيب المحامين وهو يخفي فرحه خلف دهشة مبالغ فيها: «أنيق؟ ولماذا؟» ثم قال وقد أحسّ أنه عاجز عن التظاهر مدّة أطول: «بسبب المدعوّين لديّ؟ ولكن ما مجال الأناقة في أن يكون لديك أصدقاء على مائدة غدائك؟ لا بدّ أن يتناولوا طعام الغداء في مكان ما!».

- «بلى، ذلك أنيق! أما كانت أسرة «دو كامبرمير»، قل لي؟ لقد تعرّفتهم تماماً. إنّها مركيزة، وأصيلة، ولكن لا عن طريق النساء».

- «أوه! إنها امرأة في غاية البساطة، إنها فاتنة وليس من كان أقلّ تصنّعاً. حسبت أنك تزمع المجيء، فقد كنت أومئ إليك... ولعلّني كنت

أقدّمك»، يقول وهو يصلح بتهكّم طفيف من ضخامة هذا العرض، شأن «أحشورش» حينما يقول لـ«أستير»: «أينبغي أن أعطيك نصف ممالكي؟».

- «لا، لا، لا، نظلّ مختبئين كالبنفسجة المتواضعة». وأجاب نقيب المحامين وقد ازداد جرأة الآن وقد زال الخطر: «ولكنّي أكرّر لك أنّك أخطأت، فما كانوا ليلتهموك، ألن نقوم بلعبتنا الصغيرة في الورق؟».

- «بطيبة خاطر، فما كنّا نجرؤ أن نعرض الأمر عليك وأنت الآن تتعامل مع المركيزات!».

- «ولكن ليس فيهنّ ما كان خارقاً إلى هذا الحدّ فإني أتعشى معهن في مساء الغد مثلاً. أتود الذهاب عوضاً عنّي؟ إني أفعل بملء الخاطر فإنّي بصراحة أفضل المكوث هنا».

- «لا، لا،!... فقد يعزلونني بتهمة الرجعية»، يقول رئيس المحكمة صائحاً وهو يضحك حتى لتدمع عيناه لمزحته تلك. ثم يضيف وهو يلتفت إلى الكاتب العدل: «ولكنك تتردد بدورك على «فيتيرن».

- «أوه! إني أذهب هناك أيام الآحاد، والمرء يدخل من باب ويخرج من آخر ولكنهم لا يتناولون طعام الغداء في بيتي مثلما يفعلون في بيت نقيب المحامين».

لم يكن السيّد «دو ستيرماريا» في «بالبيك» في ذلك اليوم، لأسف نقيب المحامين الكبير. ولكنه قال لرئيس الخدم بلهجة ماكرة:

- «إيميه، بوسعك أن تقول للسيد دو ستيرماريا: إنه ليس النبيل الوحيد في قاعة الطعام هذه. أما رأيت هذا السيّد الذي تناول طعام الغداء برفقتي هذا الصباح؟ هذان الشاربان الدقيقان والمظهر العسكري؟ حسن، إنه المركيز «دو كامبريمير».

- «حقاً؟ إن ذلك لا يدهشني!».

- «سوف يعلّمه ذلك أنه ليس الوحيد الذي يحمل لقباً. وخذها مني! فلا بأس أن تُخْرِسَ هؤلاء النبلاء. تدري يا «إيميه»، لا تقل له شيئاً إن

شئت، لأن ما أقوله أنا لا أقوله من أجلي، وهو على أية حال يعرف ذلك تماماً».

وفي الغد أقبل السيّد «دو ستيرماريا» الذي كان يعلم أن نقيب المحامين دافع عن أحد أصدقائه، قبل ان يقدم ذاته بنفسه.

- «لقد أراد أصدقاؤنا المشتركون، آل «دو كامبرمير»، أرادوا بحق أن يجمعونا ولكن أيامنا لم تتطابق، لست أدري أنا»، يقول نقيب المحامين الذي يتصور شأن العديد من الكذابين أن لن تكون ثمة محاولة للكشف عن جزئيات قليلة الشأن مع أنها تكفي (إن وضعت الصدفة بين يديك الحقيقة المتواضعة التي تناقضها) لتميط اللثام عن طباع معيّنة ولتوحي بالريبة أبداً.

وأخذت أنظر إلى الآنسة «دو ستيرماريا» كما أفعل دوماً، ولكن على نحو أيسر أثناء ما ابتعد والدها للتحدث مع نقيب المحامين وبقدر غرابة وقفاتها التي تتسم بالجرأة وتتصف على الدوام بالجمال، كما هي حالها حينما ترفع كأسها فوق ساعديها ومرافقها على الطاولة، كان جفاء النظرة السريعة الإنهاك لديها والقسوة المتأصلة العائلية التي تحس بها في قرارة صوتها ولا تحجبها تماماً نبراتها الشخصية، وقد أثارت استياء جدتي، وضربٌ من صمام الأمان الوراثي كانت تعود إليه حالما تنتهي من إفراغ فكرتها الخاصة في نظرة عين أو نبرة صوت، كان كل ذلك يردّ فكر من كان ينظر إليها إلى السلالة التي أورثتها هذا النقص في التوادّ الإنساني وثغرات في الإحساس وقلة في اتساع المواهب يبرز نقصها في كل حين. وظننتني أحس مع ذلك، إزاء بعض نظرات كانت تمرّ مقدار لحظة في أعماق حدقتها التي سرعان ما تجف وتحس فيها تلك العذوبة التي تبلغ حد الاتضاع والتي يخلّفها الميل السائد إلى الملذات الجسدية لدى أكثرهن اعتزازاً، تلك التي لا تعترف عما قليل إلا بمهابة واحدة، المهابة التي يتمتع بها في نظرها كل شخص يستطيع أن يذيقها إياها ولو كان مهرجاً أو مشعوذاً ربما هجرت زوجها ذات يوم من أجله، وإزاء مسحة من

لون وردي شهواني زاهٍ كان يتألق على وجنتيها الشاحبتين شبيه باللون الذي تزدهي به أعماق النيلوفر الأبيض في نهر «فيفون». ظننتني أحس أنها ربما سمحت بيسر أن أبادر وأبحث لديها عن طعم تلك الحياة الشاعرية جداً التي كانت تقضيها في قمقاطعة «بريتانيا»، تلك الحياة التي ما كان يبدو أنها تعيرها اهتماماً كبيراً إما لفرط تعودها وإما لتأنّق فطري وإما لاشمئزازها من فقر أهليها أو بخلهم، ولكنها تحتويها مع ذلك حبيسة داخل جسدها. ولعلّها ما كانت تجد إمكانات مقاومة في احتياطي الإرادة الهزيل الذي أوْرِثَتْهُ والذي كان يضفي على ملامحها شيئاً من الارتخاء. وكانت قبعة اللباد الرمادية التي تعلوها ريشة مستكبرة تقادم زيها بعض الشيء تزيدها نعومة في نظري لا لأنها تنسجم مع لونها ببياض الفضة ولون الورود، بل لأنها تجعلني أفترضها فقيرة فتقرّبها بذلك مني. ولما كانت ملزمة بموقف مفتعل من جراء وجود والدها ولكنها تعتمد في ملاحظة الذين يقفون أمامها وفي تصنيفهم مبادئ تغاير مبادئه، فربما أبصرت فيّ لا المرتبة القليلة الشأن بل الجنس والعمر. ولو اتفق أن يخرج السيّد «دو ستيرماريا» ذات يوم بدونها، وإن أقبلت السيّدة «دو فيلباريسيس» على وجه الخصوص تجلس إلى طاولتنا فأولتها بذلك فكرة عنّا تشجّعني على الاقتراب منها، فربما استطعنا تبادل بعض الأحاديث وضرب موعد وتوثيق علاقتنا، ربما استطعنا في شهر ظلّت فيه وحيدة بدون ذويها في قصرها الخيالي أن نتنزّه نحن الاثنين وحيدين في المساء في ضوء الشفق الذي تلتمع فيه خافتة أزهار الخلنج الورديّة فوق الماء الذي أضحى قاتماً وتحت السنديان الذي تضربه الأمواج الخافقة. ربما طفنا سوية أرجاء هذه الجزيرة التي يطبعها الكثير من الروعة بالنسبة إليّ لأنها احتبست حياة الأنسة «دو ستيرماريا» المعتادة ولا تزال ترقد في ذاكرة عينيها. فقد كان يبدو لي أنني ما كنت لأمتلكها حقاً إلا هناك وبعدما يقدّر لي اجتياز تلك الأمكنة التي تلفّها بالكثير من الذكريات - ذلك الحجاب الذي تود رغبتي انتزاعه وهو من تلك التي تضعها الطبيعة بين المرأة وبعض الأشخاص (وبالمقصد نفسه

الذي يحملها بالنسبة إلى الجميع على وضع عملية الإنجاب بينهم وبين أكثر الملذات شدة، وبالنسبة إلى الحشرات على جعل الطلع الذي ينبغي أن تحمله قبل رحيق الأزهار) حتى يضطروا وقد خدعهم وهم امتلاكها على هذا النحو امتلاكاً أكثر تماماً، أن يحتلوا بادئ الأمر المناظر التي تعيش ضمن إطارها والتي تبدو أكثر فائدة لخيالهم من لذة الحواس، بيد أنها ما كانت كافية بدون هذه اللذة لاجتذابهم.

ولكني اضطررت أن أحول نظراتي عن الآنسة «دو ستيرماريا»، لأن والدها، وقد رأى دون شك أن التعرُّف بشخصية مهمة عملية طريفة ووجيزة تكفي نفسها بنفسها ولا تتطلب كيما تجيء بكامل الأهمية التي تتضمنها سوى مصافحة ونظرة ثاقبة دونما حديث فوري أو علاقات لاحقة، كان قد استأذن نقيب المحامين وعاد يجلس قبالتها وهو يفرك يديه شأن رجل حصل منذ قليل على مكسب ثمين. أما نقيب المحامين فقد كنت تسمعه، بعد انقضاء الهزة الأولى التي ولدتها تلك المقابلة. شأنه في الأيام التي سلفت، يتحدث بين حين وآخر إلى رئيس الخدم قائلاً:

- «ولكنني لست ملكاً أنا يا «إيميه»، فبادر واقترب من الملك... قل لي أيها الرئيس، يبدو أنها طيبة جداً سمكات التروتة الصغيرة هذه وسنطلب إلى «إيميه» بعضاً منها. «إيميه»، السمكة الصغيرة هذه التي هناك تبدو لي جديرة بثقتنا تماماً فاحمل إلينا من هذا السمك وبقدر ما نشتهي يا «إيميه».

كان يردد في كل حين اسم «إيميه»، الأمر الذي كان من نتائجه حينما يتفق له أحد على مائدة عشائه أن كان المدعو يقول له: «أرى أنك على أحسن حال في هذا المحل» ويظن من واجبه كذلك أن يلفظ باستمرار اسم «إيميه» من جراء هذه النزعة التي يمتزج فيها في الآن نفسه الخجل والتفاهة والغباء والتي تدفع بعض الناس إلى الاعتقاد أنّ مِنْ الظرف والأناقة تقليد الجماعة الذين يجالسونهم تقليداً حرفياً. كان يردده دون انقطاع ولكنما يقوله بابتسامة إذ كان يهمه أن يعلن على الملأ علاقاته الطيبة برئيس الخدم

وتفوقه عليه في الآن نفسه، وكان رئيس الخدم يبتسم هو الآخر ابتسامة تداخلها الرقة والاعتزاز كلما تردد اسمه على شفتيه مظهراً بذلك أنه يشعر بهذا التكريم ويدرك ذلك المزاح.

ومهما بدت وجبات الطعام رهيبة دوماً بالنسبة إليّ في مطعم «الفندق الكبير» الفسيح الذي يغص عادة بالزبائن فقد كانت تضحي أكثر رهبة كلما وصل لقضاء بضعة أيام صاحب لا هذا الفندق الكبير فحسب (أو مديره العام الذي انتخبته شركة ممولين، لست أدري)، بل صاحب سبعة أخرى أو ثمانية، تنتشر في أرجاء فرنسا الأربعة وكان يطوف فيما بينها ليمضي من حين إلى آخر أسبوعاً في أحدها، حينئذ كان يطلع في كل مساء وفي أول العشاء تقريباً على مدخل قاعة الطعام هذا الرجل القصير القامة ذو الشعر الأبيض والأنف الأحمر وهو من برودة أعصاب ولياقة خارقتين وكان يُعَدُّ فيما يبدو، في لندن ومونت كارلو على حد سواء، أحد خيرة أصحاب الفنادق في أوروبا، وذات مرة خرجت فيها لحظة في أول العشاء حيّاني إذ مررت أمامه لدى عودتي كي يعلن دونما شك أنني كنت في حماه، ولكنه فعل ببرودة لم أستطع أن أتبين إن كان سببها تحفّظ مَنْ لا يغفل أيّ شخص هو أو الاحتقار الذي يبديه لنزيل لا شأن له. فأما الذين كان لهم على العكس شأن عظيم جداً فقد كان المدير العام ينحني أمامهم بقدر مساوٍ من البرودة ولكنّ الانحناءة أشد والأجفان يخفضها بنوع من الاحترام والاحتشام كما لو كان أمامه في جنازة والد المتوفاة أو القربان المقدس. ولم يكن يقوم، فيما عدا تلك التحيات الجافة النادرة، بأية حركة كأنما ليبرز أن عينيه الملتمعتين اللتين تبدوان وكأنما تطفران من وجهه كانتا تبصران كل شيء وتنظمان كل شيء وتضمنان في «عشاء الفندق الكبير» الكمال في التفاصيل والانسجام في المجموع سواء بسواء. كان يحس بالطبع أنه أكثر من مُخرِج وأكثر من قائد أوركسترا، إنه قائد أعلى حقيقي. ولما كان يحكم أن نظرة متأملة بلغت أقصى شدتها تكفيه ليتيقن أن كل شيء جاهز وأن ليس من خطيئة مرتكبة يمكن أن تؤدي إلى الهزيمة، وكيما

يتحمل في النهاية مسؤولياته، فقد كان يمتنع لا عن كل إشارة فحسب بل حتى عن تحريك عينيه اللتين تحيطان بكامل العمليات وتديرانها وقد جمدهما الانتباه. كنت أحس أن حركات ملعقتي ذاتها لا تفوته وكان الاستعراض الذي قام به يقطع عليّ شهيتي على مدى العشاء بكامله حتى لو توارى بعد الحساء. أما شهيته فكانت حسنة جداً كما كان بوسعك أن ترى ذلك أثناء طعام الغداء الذي كان يتناوله شأن فرد بسيط في قاعة الطعام وفي الساعة نفسها التي يتناوله فيها الجميع. لم يكن يميّز طاولته سوى أن المدير الآخر، المدير المعتاد كان يظل، فيما هو يأكل، واقفاً إلى جانبه يحدثه طوال الوقت. فقد كان مرؤوساً للمدير العام فيحاول لذلك تملقه ويخاف منه خوفاً عظيماً. كان خوفي أقل في أثناء تلك الأغدية إذ كان يضيع حينئذ بين الزبائن فيبدي احتشام لواء يجلس في مطعم يؤمه جنود في ألا يبدو وكأنه يهتمّ بهم. بيد أني كنت أتنفس بحرية أوسع حينما كان البواب يعلن عليّ وقد أحاطت به حاشية من خدمه: «إنه ذاهب في صباح الغد إلى «دينار» ومن هناك يذهب إلى «بياريتز» وبعدها إلى «كان».

كانت حياتي في الفندق قد أضحت لا حزينة فحسب لأنني لا أملك علاقات فيه، بل مزعجة لأن «فرانسواز» كانت قد أقامت العديد منها. ويمكن أن يبدو أنه كان لا بد لها أن تسهل أمامنا أموراً كثيرة ولكن كان الواقع بخلاف ذلك تماماً. ولئن لاقى الكادحون بعض المشقة في أن تعاملهم «فرانسواز» بمثابة جماعة من معارفها ولا يستطيعون ذلك إلا لقاء بعض شروط التأدب العظيم إزاءها، فلقد كانوا بالمقابل الجماعة الوحيدة التي لها شأن لديها ما إن تفلح في ذلك. كانت مدوّنتها القديمة تعلّمها أنها غير ملزمة بأي شيء تجاه أصدقاء معلميها وأنها تستطيع إن كانت في عجلة من أمرها أن تطرد سيدة جاءت لزيارة جدتي. ولكن أكثر قواعد السلوك دقة وإطلاقاً كانت تنظم أفعالها في ما يخص معارفها هي، أي إزاء جماعة العامّة الذين تقبل أن يتخطوا باب صداقتها الصعبة، فبعدما تعرفت

«فرانسواز» إلى صاحب المقهى وإلى وصيفة قصيرة القامة كانت تخيط فساتين لسيدة بلجيكية، لم تعد تصعد بعد لإعداد حاجات جدتي حالاً بعد الغداء، بل تفعل بعد ساعة لأن صاحب المقهى يود أن يعد لها قهوة أو مغليّ أعشاب في القهوة، وأن الوصيفة تسألها المجيء إليها لتشاهدها وهي تخيط، وأن الرفض كان مستحيلاً وفي عداد الأمور التي لا يقدم عليها المرء. ثم إنّه كان من واجبها مراعاة الوصيفة الصغيرة القدّ مراعاة خاصة فقد كانت يتيمة وتمت تربيتها لدى غرباء كانت تمضي لقضاء بضعة أيام عندهم بين الحين والحين. كان ذلك الوضع يثير شفقة «فرانسواز» وكذلك ازدراءها الذي يلونه العطف فما كانت تستطيع أن تعدّ مَنْ لا جذور لها مساوية لها هي التي تملك أسرة وبيتاً صغيراً ورثته عن والديها ويقوم شقيقها فيه بتربية بعض الأبقار. ولما كانت تلك الصغيرة تأمل في الذهاب لزيارة أولياء نعمتها في الخامس عشر من شهر آب، لم تكن تملك «فرانسواز» نفسها أن تردد قولها: «إنها تثير ضحكي فهي تقول: آمل أن أذهب إلى منزلي في الخامس عشر من شهر آب. تقول إلى منزلي! والبلدة ليست حتى بلدتها، فقد التقطها بعض القوم، وتقول إلى منزلي كما لو كان بالحقيقة منزلها. يا للصغيرة المسكينة! ما أشد ما بها من تعاسة أن لا تعلم ما معنى أن يكون للمرء منزل».

ولو لم ترتبط «فرانسواز» بعلاقة إلا مع وصيفات يصطحبهنّ بعض النزلاء، وكنّ يتناولن طعام العشاء معها في أمكنة البريد ويحسبنها، أمام قبعتها التي من الدانتيلّا وملامحها الجانبية الدقيقة، سيّدة ربّما كانت نبيلة، اضطرّتها الظروف إلى القيام بمهمة مرافقة لجدتي أو دفعها تعلّقها بها إلى ذلك، لو أن «فرانسواز» لم تعرف باختصار القول سوى جماعة لم يكونوا من الفندق لَمَا كان الأذى كبيراً لأنها ما كانت لتستطيع الحؤول دون أن يفيدونا بشيء من جرّاء أنّهم لا يستطيعون، أيّة كانت الأحوال، وحتى لو كانوا مجهولين لديها، أن يفيدونا في شيء. ولكنّها ارتبطت بعلاقات صداقة كذلك مع مشرف على التموين وعامل في المطبخ ومشرفة على أحد

الطوابق. وقد نجم عن ذلك في ما يخصّ حياتنا اليوميّة أن أخذت «فرانسواز»، التي كانت تدقّ الجرس يوم وصولنا، حين لم تكن تعرف أحداً بعد، كيفما اتّفق ولأقلّ الأمور وفي ساعات ما كنّا لنجرؤ، جدّتي وأنا، أن نقدم فيها عليها وتجيبنا إن نحن وجّهنا إليها أقلّ ملاحظة بهذا الشأن: «ولكنّنا ندفع ما فيه الكفاية من أجل ذلك»، كما لو دفعت بنفسها، أخذت الآن، منذ أن أضحت صديقة إحدى شخصيات المطبخ، الأمر الذي بدا لنا فأل خير في ما يخصّ راحتنا، إن ألم بي وبجدّتي برد في أقدامنا، أخذت «فرانسواز» لا تجرؤ أن تدقّ الجرس ولو كانت الساعة عاديّة تماماً، وتؤكد أن الأمر لن يُستساغ لأن ذلك سوف يضطّرهم إلى إشعال الأفران ثانية أو يبلبل عشاء الخدم فيستاؤون. ثم تنتهي بعبارة لم تكن على الرغم من الطريقة غير الواثقة التي تلفظها بها أقلّ وضوحاً وتخطّئنا على نحو قاطع: «واقع الأمر أنّ...»، وما كنّا نلحّ مخافة أن توجّه لنا أخرى أكثر جسامة: «ذلك أمر ذو بال!...». وقصارى القول إنّنا أصبحنا بذلك لا نستطيع الحصول من بعد على الماء الساخن لأن «فرانسواز» أضحت صديقة من كان يهتمّ بتسخينه.

وارتبطنا في نهاية الأمر بدورنا بعلاقة صداقة رغماً عن جدّتي ولكن بطريقها، فقد التقت مصادفة ذات صباح هي والسيّدة «دو فيلباريسيس» الواحدة بالأخرى على عتبة باب واضطرّتا أن تقترب الواحدة من الأخرى ولكنهما لم تفعلا دون أن تتبادلا مسبقاً إشارات تنمّ عن دهشة وتردّد وتقوما بحركات تراجع وارتياب وأخيراً باحتجاجات تأدّب واغتباط كما هي الحال في بعض المشاهد لدى «موليير» يقوم فيها ممثّلان، كل بدوره، بمناجاة داخليّة منذ فترة طويلة وهما على بعض خطوات الواحد عن الآخر والمفروض أن أحدهما لم ير الآخر بعد، وفجأة يلمح أحدهما الآخر فلا يستطيعان تصديق ما يريان وتتقاطع أقوالهما ويأخذان أخيراً في التحدّث معاً وقد جارى القلب الحوار ويرتمي كلّ منهما بين ذراعي الآخر. وأرادت السيّدة «دو فيلباريسيس» بداعي التحفّظ مفارقة جدّتي بعد فترة،

ولكن هذه الأخيرة فضّلت على العكس أن تستوقفها حتى الغداء إذ كانت ترغب أن تعلم منها كيف تفعل لتأخذ بريدها قبلنا وتحصل على شواء جيّد (فقليلاً ما كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» وهي شديدة النهم، تستسيغ طعام الفندق حيث تُقَدّم لنا وجبات ترى جدّتي التي تستشهد دوماً بالسيّدة «دو سيفينييه» أنها «سخيّة حتى لتُميتك جوعاً»). وتعوّدت المركيزة أن تأتي في كل يوم، بانتظار أن يقدّم لها طعامها، فتجلس حيناً بالقرب منّا في قاعة الطعام دون أن تسمح بأن ننهض وأن نكلّف أنفسنا أي عناء. كنّا على الأكثر غالباً ما نتأخر في حديثنا معها بعد انقضاء العشاء في تلك الآونة القذرة التي تبعثر فيها الأمواس على الخوان قرب الفوط المحلولة. أمّا في ما يخصني فقد كنت أجهد، كيما أحتفظ بفكرة أنّني في أقصى نقطة من الأرض وذلك كي أستطيع التولّع بِـ«بالبيك»، أن أنظر إلى أبعد من ذلك وألّا أبصر سوى البحر وأن أبحث فيها عن انفعالات وصفها «بودلير» وألا أدع نظراتي تحطّ على مائدتنا إلا في الأيّام التي كانت تُقدم لنا فيها سمكة ضخمة هي ضرب من وحوش البحر عاصرت، بخلاف الأمواس والشّوك، الحقب الأولى التي شرعت فيها الحياة تتدفّق في المحيط في زمن السيمريّين، وحوش صُمّم جسمها ذو الفقرات التي لا تحصى والأعصاب الزرقاء الورديّة على يد الطبيعة، ولكن وفق مخطّط معماريّ، على هيئة كاتدرائيّة بحريّة متعدّدة الألوان.

وكمثل حلّاق يغتبط لدى رؤيته أن ضابطاً يخدمه باحترام خاصّ قد تعرف إلى زبون دخل منذ قليل وباشر معه حديثاً قصيراً إذ هو يدرك أنهما من الطبقة نفسها ولا يسعه إلا أن يبتسم وهو يبادر إلى جلب طاس الصابون لأنّه يعلم أن متعاً اجتماعية، بل أرستقراطيّة، تنضاف في دكّانه إلى الأشغال العاديّة التي يضطلع بها محض محلّ حلاقة، كذلك كان يذهب «إيميه» وقد رأى أن السيّدة «دو فيلباريسيس» ألْفَتْ فينا معارف قدامى، ليجيئنا بأوعية المضمضة بالابتسامة المستكبرة في اتّضاعها المدروسة في احتشامها التي لسيّدة منزل تعلم كيف تنسحب في الوقت

المناسب وربّما بدا كذلك كوالد تهزّه السعادة والحنان ويسهر على الخطوبة السعيدة التي عُقدت على مائدته دون أن يعكّر صفوُها. كان يكفي على أيّة حال أن يتمّ التلفّظ باسم شخص يحمل لقباً حتى تهزّ السعادة «إيميه»، بخلاف «فرانسواز» التي ما كان يمكن أن يُقال في حضرتها «الكونت فلان» دون أن يتجهّم وجهها ويضحي كلامها جافاً مقتضباً، الأمر الذي كان يعني أنها تهوى النبلاء، لا أقلّ ممّا يفعل «إيميه» بل أكثر. ثم إن «فرانسواز» كانت تتّسم بالمزيّة التي تجد أنها لدى الغير أكبر المعايب: لقد كانت متغطرسة لم تكن من السلالة المحبّبة الفيّاضة بالطيبة التي ينتمي إليها «إيميه». فهؤلاء يحسّون بغبطة شديدة ويجهرون بها حينما تروى لهم واقعة مثيرة في كثير أو قليل ولكنّها جديدة ولم ترد في الجريدة. أمّا «فرانسواز» فما كانت تودّ أن تبدو في دهشة. ولئن قيل في حضرتها إن الأرشيدوق «رودولف»، الذي ما ارتابت يوماً بوجوده، حي يرزق، لا ميت كما كان يبدو مؤكّداً، لأجابت «أجل»، كما لو عرفت ذلك منذ زمن بعيد. لكأنّما كان ينبغي، كي لا يسعها أن تسمع حتى من فمنا نحن الذين كانت تدعوهم بتواضع كبير مواليها والذين روّضوها ترويضاً كلّياً تقريباً اسم أحد النبلاء دون أن تضطرّ إلى كبح حركة غاضبة، لكأنّما كان ينبغي أن تشغل الأسرة التي انحدرت منها مكانة في قريتها تتّسم باليسر والاستقلال ولا يعكّر صفوها في التقدير الذي كانت تنعم به سوى هؤلاء النبلاء أنفسهم الذين عمل لديهم «إيميه» على العكس بمثابة خادم منذ الطفولة. إن لم تتمّ تربيته على أيديهم بداعي الصّدقة. كان إذن على السيّدة «دو فيلباريسيس»، في نظر «فرانسواز»، أن تستغفر لكونها نبيلة. ولكن هذا الأمر يؤلف، بالضبط، أقلّه في فرنسا، الموهبة التي يتمتّع بها السادة العظام والسيّدات الراقيات وشغلهم الوحيد على السواء. وإذ كانت «فرانسواز» تنساق خلف نزعة الخدم الذين لا يكفّون عن جمع ملاحظات جزئية حول صلات مواليهم بالأشخاص الآخرين يخلصون منها إلى تعميمات خاطئة - كما يفعل البشر في ما

يخصّ حياة الحيوانات - فقد كانت تجد في كلّ لحظة أنهم لم يفونا حقنا، والاستنتاج يدفعها إليه بيسر حبّها المفرط لنا واللذة التي تصيبها من إزعاجنا على حدّ سواء. ولكن، حينما لاحظت «فرانسواز»، دون أن يكون ثمة خطأ ممكن، صنوف المداراة العديدة التي تحيطنا بها وتحيطها هي الأخرى السيّدة «دو فيلباريسيس» فقد عذرتها أن تكون «مركيزة». وبما أنها لم تنفكّ يوماً عن امتنانها لها لكونها مركيزة فقد فضّلتها على جميع الأشخاص الذين كنّا نعرفهم. أضف إلى ذلك أنّه لم يجهد أحد في أن يكون ودوداً بهذا القدر من الاستمرار. ففي كلّ مرّة تلاحظ فيها جدتي كتاباً تقرؤه السيّدة «دو فيلباريسيس» أو تقول إنها استملحت فاكهة حملتها صديقة إلى هذه الأخيرة، كان أحد الخدم يصعد بعد ساعة يحمل إلينا الكتاب أو الفاكهة. وحينما كنّا نراها فيما بعد كانت تكتفي بالقول ردّاً على شكرنا، وكأنها تبحث عن عذر لهديّتها في بعض وجوه جدواها: «ليس رائعة فنية ولكنّ الصحف تصل متأخرة جدّاً ولا بدّ للمرء من حاجة يقرؤها» أو «من الفطنة دوماً أن يحصل المرء على فاكهة هو أمين منها على شاطئ البحر».

- «ولكن يبدو لي أنّكم لا تأكلون المحار البتّة» تقول السيّدة «دو فيلباريسيس» (وتزيد بذلك من شعور القرف الذي كان بي ساعتها، لأنّ لحم المحار النيء كان يثير اشمئزازي أكثر ممّا تشوّه شاطئ «بالبيك» في نظري لزوجةُ قناديل البحر)، إنّه فاخر على هذا الشاطئ! آخ! سوف أقول لوصيفتي أن تبادر لأخذ رسائلكم ورسائلي في الوقت نفسه. كيف ذلك؟ أو تكتب لكِ ابنتكِ كلّ يوم؟ ولكن ما عساكم تلاقون مما ينقله أحدكم للآخر!».

وصمتت جدّتي، بيد أنّه يمكن الظنّ أنّها فعلت ازدراء هي التي كانت تردّد لوالدتي كلمات السيّدة «دو سيفينييه»: «ما إن تردني رسالة حتى أودّ في الحال أخرى، فإنّي لا أحيا إلّا بورودها. وقليلون من الناس جديرون بإدراك ما أحسّ به» وأخذت أخشى أن تطبّق عليّ السيّدة «دو فيلباريسيس»

خلاصتها: «إنّي أبحث عمّن كانوا ضمن هذا العدد الصغير وأتحاشى الآخرين» وانتقلت إلى امتداح الفاكهة التي بعثت بها السيّدة «دو فيلباريسيس» إلينا ليلة البارحة، وكانت بالفعل جميلة إلى حدّ أن قال لي المدير على الرغم من غيرة أطباق فواكهه المطبوخة المزدراة: «إنني مثلك أكثر شغفاً بالفاكهة من أي حلوى أخرى»، وقالت جدّتي لصديقتها إن استحسانها لها تزايَدَ بقدر ما كانت الفاكهة تقدّم في الفندق رديئة بعامّة. وأضافت قولها: «لا أستطيع أن أقول كالسيّدة «دو سيفينييه» إنّنا لو رغبنا لنزوة في النفس أن نجد فاكهة رديئة لانبغى لنا إحضارها من باريس» - «آه! أجل، فأنت تقرئين السيّدة «دو سيفينييه». إني أراك منذ اليوم الأول تحملين «**رسائلها**» (ويفوتها أنها لم تلمح جدّتي البتة في الفندق قبل أن تلتقي بها على عتبة هذا الباب). ألا ترين أن هذا الاهتمام المستمرّ بابنتها مبالغ فيه بعض الشيء، فإنها تفرط في الحديث عنه كيما يكون صادقاً تماماً. وإنما تعوزها التلقائيّة. ورأت جدّتي أن النقاش عقيم فأخفت «**مذكّرات السيّدة دو بوسيرجان**» إذ جعلت حقيبتها فوقها كي تتجنّب الحديث عن أمور تحبّها في حضرة من لا يسعه إدراكها.

حينما كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تلتقي «فرانسواز» في الآونة التي (تسميها هذه الأخيرة «الظهر») وتنزل فيها وهي تعتمر قبعة جميلة ويسربلها التقدير العام، «لتناول طعامها في غرفة الخدم»، كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تستوقفها لتسألها عن أخبارنا. وتنقل إلينا «فرانسواز» رغبات المركيزة: «لقد قالت: أقرئيهم سلامي»، تقول وهي تقلّد صوت السيّدة «دو فيلباريسيس» وتظنّ أنها تستشهد حرفيّاً بأقوالها فيما لا تشوهها أقلّ ممّا فعل أفلاطون بأقوال سقراط والقدّيس يوحنّا بأقوال يسوع. كانت «فرانسواز» بالطبع شديدة التأثّر بهذه الالتفاتات. فأكثر ما تمضي إليه أنها لم تكن تصدّق جدّتي وتحسب أن هذه الأخيرة تكذب لصالح طبقتها. إذ يدعم الأغنياء بعضهم بعضاً، ساعة تؤكّد أن السيّدة «دو فيلباريسيس» كانت فتّانة فيما مضى. صحيح أنّه لم يظلّ من تلك الفتنة سوى بقايا هيّنة جدّاً ما

كان بالإمكان أن يستعاد منها جمالها المتهدّم ما لم يكن المرء أوسع حيلة فنيّة من «فرانسواز». فإنّه لا ينبغي أن تنظر فحسب، بل أن تترجم كلاً من القسمات كي تدرك أي مدى من الجمال بلغته امرأة عجوز.

قالت لي جدّتي: «ينبغي أن أفكر مرّة في سؤالها إن كنتُ مخطئة وإن لم تكن على بعض القربى بآل غيرمانت»، فأثارت بذلك حنقي، إذ كيف كان يمكنني الاعتقاد بأصل مشترك بين اسمين ولجا نفسي، الأوّل من باب التجربة الدنيء المخجل والآخر من باب المخيّلة الذهبيّ؟

كثيراً ما كنت ترى منذ بضعة أيّام أميرة «لوكسمبور» التي جاءت تصطاف بضعة أسابيع في المنطقة تمر في عربة فخمة. تمرّ فارعة الطول صهباء اللون جميلة يعتور أنفها بعض الطول. لقد توقّفت عربتها أمام الفندق وجاء خادم يتحدّث مع المدير ثم عاد إلى العربة وحمل معه فاكهة رائعة (كانت تجمع في سلّة واحدة فصولاً مختلفة كالخليج نفسه) ومعها بطاقة كتب عليها: «أميرة لوكسمبور» وسُطّرت فيها بعض كلمات بقلم الرصاص. فلأي أمير مسافر يقطن ههنا متخفّياً كان يمكن أن تُهدى هذه الفواكه، هذا الخوخ الأزرق المخضوضر المنوّر المستدير استدارة البحر في تلك الآونة وهذا العنب الشفّاف المعلّق بالقضبان اليابسة كأحد أيام الخريف الصافية وهذا الإجّاص الذي بزرقة سماء ما وراء البحار؟ فليس يُحتمل أن تكون الأميرة ابتغت زيارة صديقة جدّتي. بيد أن السيّدة «دو فيلباريسيس» بعثت إلينا عشيّة اليوم الثاني عنقود العنب النضر الذهبيّ وخوخاً وإجّاصاً عرفناهما أيضاً مع أن الخوخ انتقل شأن البحر ساعة عشائنا إلى اللون الخبّازي وأن بعض أشكال من سحب ورديّة كانت ترفّ فوق زرقة الإجّاص التي بلون ما وراء البحار. وبعد بضعة أيّام التقينا بالسيّدة «دو فيلباريسيس» لدى خروجنا من الحفلة السمفونية التي كانت تُقام على الشاطئ في الصباح. ولما كنت موقناً بأنّ الأعمال التي أسمعها فيها (كمقدّمة «**لوهانغرين**» وافتتاحيّة «**تانهاوزر**»، إلخ.) إنّما تعبّر عن أسمى الحقائق فقد كنت أجهد في الارتفاع قدر المستطاع كي أبلغ إلى

حيث هي، وكنت أستخلص من ذاتي كيما أفهمها أفضل وأعمق ما كانت تنطوي عليه نفسي آنذاك وأستودعها كلّ ذلك.

بيد أني رأيت ونحن نغادر الحفلة الموسيقيّة وإذ توقّفنا في طريقنا إلى الفندق، أنا وجدّتي، لحظة على السدّ لنتبادل بضع كلمات مع السيّدة «دو فيلباريسيس» التي كانت تنقل إلينا أنها أوصت لنا في الفندق على فطائر محمّصة وبيض بالكريما، رأيت أميرة «لوكسمبور» من البعيد آتية باتّجاهنا وهي تستند جزئياً إلى شمسية بطريقة تطبع بها جسمها المديد الرائع بتلك الانحناءة الخفيفة وتجعله يتّخذ هذا الخطّ الزخرفيّ العزيز جدّاً على قلب النساء اللائي كنّ جميلات في عهد الإمبراطورية ويعرفن كيف يدعن لجسمهنّ، والكتفان مرخيّتان والظهر مدفوع إلى أعلى والخصر أجوف، أن يخفق بليونة كمثل منديل حول هيكل جذع خفيّ وقاس ومائل اخترقه. كانت تخرج كلّ صباح لتقوم بجولتها على الشاطئ في الساعة التي يعود فيها الجميع تقريباً بعد السباحة لتناول الغداء، وبما أن غداءها ما كان يتم إلا في الواحدة والنصف فلم تكن تعود إلى دارتها إلا بعدما يهجر السبّاحون السدّ المقفر الحارق بفترة طويلة. وقدّمت السيّدة «دو فيلباريسيس» جدّتي وشاءت أن تقدّمني ولكنها اضطرّت أن تسألني اسمي لأنها لم تكن تتذكّره. ربّما لم تعرفه في يوم أو هي نسيت في جميع الأحوال منذ سنوات عديدة لمن زوّجت جدّتي ابنتها، وبدا أن هذا الاسم قد خلّف في نفس السيّدة «دو فيلباريسيس» انطباعاً شديداً. وفي تلك الأثناء مدّت لنا أميرة «لوكسمبور» يدها وأخذت تلتفت بين الحين والحين وهي في حديثها مع المركيزة لتخصّنا أنا وجدّتي بنظرات عطف تمتزج بها بدايات القبلة التي نضيفها إلى ابتسامتنا حينما نخصّ بها طفلاً رضيعاً مع مربّيته. ثم إنها لا شكّ أخطأت، وهي راغبة ألا تبدو وكأنها تتربّع في أجواء تسمو على أجوائنا، في حساب المسافة لأنّ نظراتها تشربت، من جرّاء خطيئة في «العيارات»، بمقدار من الطيبة توقّعت معها اقتراب اللحظة التي ستداعبنا فيها بيدها كحيوانين ودودين أمرّا رأسيهما إليها عبر شبك الحاجز في حديقة الحيوانات.

واتخذت في الحال فكرة الحيوانات هذه وغابة بولونيا كثافة أشدّ في نظري. فقد كانت الساعة التي يطوف فيها على السدّ باعة جوالون يصيحون ويبيعون حلوى وسكاكر وخبزاً محلى. وأوقفت الأميرة أوّل بائع مرّ بها وهي لا تدري ما تفعل بغية الإعراب عن عطفها. فلم يكن بعد لديه سوى رغيف من الشيلم من صنف ما يرمى للبطّ. فأخذت الأميرة وقالت لي: «هذا لجدّتك». ولكنّها قدّمته لي مع ذلك وهي تقول لي بابتسامة رقيقة: «سوف تعطيها إيّاه بنفسك» وتحسب أن متعتي سوف تكون أتمّ إن لم يقم وسطاء بيني وبين الحيوانات. واقترب باعة آخرون فملأت جيوبي من كل ما يحملون، من علب محزومة تماماً، وما لذ من الرقائق وحلوى «البابا» والسكر النباتي. وقالت لي: «تأكل منها وتُطعم جدّتك أيضاً»، وأمرت أن يدفع للباعة الزنجيّ القصير الذي يرتدي الساتين الأحمر والذي كان يتبعها في كلّ مكان ويثير دهشة روّاد الشاطئ ثم ودّعت السيّدة «دو فيلباريسيس» ومدّت لنا يدها وقد عقدت النيّة أن تعاملنا بطريقة صديقتها نفسها كأصدقاء حميمين وأن تضع نفسها في مستوانا. إلا أنها حدّدت مستوانا دون شك في موقع أقلّ تدنّياً على سلّم الكائنات فقد أعربت الأميرة لجدتي عن مساواتها لنا بوساطة هذه الابتسامة الأموميّة الرقيقة التي نخصّ بها طفلاً حينما نودّعه مثلما نفعل مع شخص كبير. لم تعد جدّتي، بفضل تقدّم غريب على طريق التطوّر، بطّة أو ظبية بل ما لعلّ السيّدة «سوان» كانت تدعوه «بيبي» (baby). وأخيراً عادت الأميرة، بعدما تركتنا نحن الثلاثة، تتابع مشوارها على السدّ المشمس وهي تلوي قامتها الرائعة التي كانت تعانق الشمسيّة البيضاء المبقّعة بالأزرق التي تمسك بها السيّدة «دو لوكسمبور» مطويّة في يدها، تلوي قامتها كمثل حيّة حول عصا. كانت أوّل صاحبة سمو بالنسبة إليّ، وأقول الأولى لأن الأميرة «ماتيلد» لم تكن البتّة صاحبة سمو بالنسبة إليّ في تصرّفاتها. أمّا الثانية فلن تكون دهشتي بها أقلّ، كما سوف نرى فيما بعد، من جرّاء ظرافتها. وقد تعلّمت في اليوم التالي إحدى صيغ تلطّف كبار القوم، وهم الوسطاء المجانيون بين الملوك والبورجوازيّين، حينما

قالت لنا السيّدة «دو فيلباريسيس» «لقد أَلْفَتْكما رائعين. إنها امرأة تتمتّع بحصافة كبيرة وبفؤاد واسع وليست كالكثيرات من الملكات أو صاحبات السمو. إنها تتمتّع بقيمة حقيقيّة». وأضافت السيّدة «دو فيلباريسيس» بهيئة المتيقّن وقد فتنها أن يسعها القول: «أظنّ أنها ستغتبط جداً بلقائكما ثانية».

بيد أن السيّدة «دو فيلباريسيس» قالت لي في هذا الصباح نفسه، وهي تفارق أميرة «لوكسمبور»، أمراً زاد من دهشتي ولم يكن من قبيل التلطّف - فقد سألتني قائلة: «هل - أنت ابن المدير في الوزارة؟ آه! يبدو أن والدك رجل رائع، وهو يقوم برحلة جميلة جداً في هذه الآونة».

وكنّا قد علمنا قبل بضعة أيّام بوساطة رسالة من أميّ أن والدي ورفيقه السيّد «دو نوربوا» فقدا أمتعتهما.

- «لقد عادا فلقياها أو هما لم يفقداها في يوم بالأحرى، فإليكما ما جرى»، تقول السيّدة «دو فيلباريسيس» التي كانت تبدو أكثر اطّلاعاً منّا على تفاصيل الرحلة دون أن نعلم كيفيّة ذلك: «أظنّ أن والدك سوف يقدّم موعد عودته إلى الأسبوع القادم إذ من المرجّح أنّه سيعدل عن الذهاب إلى منطقة الجزيرة. ولكنّه يرغب في تخصيص يوم إضافي لطليطلة لأنّه معجب بواحد من تلامذة «تيتسيانو» لا أذكر اسمه ولا يشاهد كما ينبغي إلّا هناك».

وكنت أتساءل أيّة صدفة وضعت في منظار اللامبالاة الذي كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تنظر من بعيد عبر زجاجه إلى اضطراب جمهور الناس الذين تعرفهم، اضطراب مجمل زهيد مبهم، وفي المكان الذي تنظر منه إلى والدي قطعةً من زجاج مكبر إلى أقصى حدّ كانت تريها على نحو شديد البروز وبأدقّ التفاصيل كل ما يروق لديه والضرورات التي تضطّره أن يعود ومتاعبه الجمركية وشغفه بالرسّام «إلغريكو» وتبرز لها، إذا تغيّر المقادير في سلّم رؤيتها، هذا الرجل وحده بالغ الطول وسط آخرين في غاية القصر كمثل «جوبيتير» الذي جعل له «غوستاف مورو» قامة تفوق قامات البشر حينما رسمه بالقرب من إحدى الغانيات الهزيلات.

واستأذنت جدّتي السيّدة «دو فيلباريسيس» كي نتمكّن من المكوث فترة

أطول أمام الفندق نستنشق الهواء بانتظار أن يُشار إليها عبر الزجاج بأن غداءنا قد جهز. وبلغ الأسماع ضوضاء، فإذا هي عشيقة ملك المتوحّشين الشابة تعود للغداء بعدما فرغت من حمّامها.

وصاح نقيب المحامين بحنق وكان يمرّ ساعتها: «إنها بالحقيقة كارثة حتى لتحملك على هجر فرنسا!».

وكانت زوجة الكاتب العدل في تلك الأثناء تحملق في وجه الملكة المزيّفة، فقال نقيب المحامين للرئيس: «لا أستطيع أن أقول لك كم تزعجني السيّدة «بلانديه» وهي تنظر على هذا النحو إلى هؤلاء الناس. وددت لو أستطيع أن أصفعها. إنهم بذلك يولون أهمية لهذه الحثالة التي لا تبغي بالطبع سوى أن يُهتمّ بها. ألا قل لزوجها أن ينّبهها إلى أنّ الأمر مثير للسخرية. وأمّا أنا فلن أخرج من بعد معهما إن بدا أنهما يعيران المتنكرين اهتمامهما».

أمّا مجيء أميرة «دي لوكسمبور» التي وقفت عربتها أمام الفندق يوم حملت معها الفاكهة فلم تخفَ على جماعة زوجة الكاتب العدل ونقيب المحامين ورئيس المحكمة الأول، وقد ساورهنّ أشدّ القلق منذ بعض الوقت ليعلمن أهي مركيزة حقيقية أم مغامرة هذه المدعوّة بالسيّدة «دو فيلباريسيس» التي تتمّ معاملتها بالكثير من مظاهر التكريم الذي تتحرّق هؤلاء السيّدات جميعهنّ إلى أن يُبَلَّغْنَ أنها غير جديرة به، وحينما كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تجتاز الردهة كانت زوجة الرئيس الأول، التي تستشفّ العاهرات أنّى كان، ترفع أنفها عن كتابها وتنظر إليها نظرة تنفجر بها صديقاتها في ضحك شديد.

كانت تقول بكبر: «تدرين، أنا أشرع دوماً بسيِّئ الظنون، ولست أسلّم بأنّ المرأة متزوّجة بالحقيقة إلا بعدما تُبرز أمامي إخراجات القيد والشهادات الموثّقة. لا بأس عليكنّ على أيّة حال فسوف أبادر إلى إجراء تحقيقي الصغير».

وفي كل يوم تهرع هاتيك السيّدات جميعهن ضاحكات: «إنّنا نتسقّط

الأخبار». بيد أنّ زوجة رئيس المحكمة وضعت إصبعها على فمها عشيّة زيارة أميرة «دي لوكسمبور».

- «ثمّة جديد».

- «السيّدة «بونسان» هذه خارقة! ما رأيت قط... ولكن ما وراءك؟ قولي».

- «ما ورائي أن امرأة ذات شعور صفراء تضع قدماً من الحمرة على وجهها وتملك عربة تفوح منها رائحة التفاهة على بعد فرسخ، من تلك التي لا تملك مثلها سوى أولئك الآنسات المحترمات، جاءت منذ قليل لزيارة المركيزة المزعومة».

- «آه! يا ربي! أرأيت! إنها تلك السيّدة التي رأيناها، ألا تذكر أيها النقيب، ووجدنا أنها تورث انطباعاً سيّئاً، ولكنّا ما علمنا أنها جاءت من أجل المركيزة. امرأة يتبعها زنجيّ، أليس كذلك؟».

- «ذلك بالتمام».

- «آه ما عدت أستغرب بعد الذي قلت. ألست تعرف اسمها؟».

- «بلى؟ لقد تظاهرت بالخطأ فأخذت البطاقة، إن الاسم الحركي الذي تحمله هو أميرة «دي لوكسمبور»! كم كنت محقاً في حذري! إنها لمتعة أن تخالط ههنا هذا الصنف المسمّى بـ«بارونة آنج»».

واستشهد نقيب المحامين بـ«ماتوران رينييه» في كتابه «**ماسيت**» أمام رئيس المحكمة الأوّل.

ينبغي لنا على أية حال ألّا نعتقد بأن سوء التفاهم هذا كان مؤقتاً على غرار تلك التي تتشكّل في الفصل الثاني من مسرحيّة هزلية كيما تزول في الفصل الأخير. فقد بدت السيدة «دو لوكسمبور» ابنة شقيق ملك إنكلترا وإمبراطور النمسا والسيّدة «دو فيلباريسيس»، لقد بدتا على الدوام حينما تجيء الأولى لاصطحاب الثانية في نزهة بعربتها امرأتين غريبتي الأطوار من النوع الذي يصعب تحاشيه في مدن المياه. إن ثلاثة أرباع رجال ضاحية«سان جيرمان» ينظر إليهم قسم كبير من البورجوازيّين على أنهم

معدمون خليعون (وإنهم لكذلك أحياناً كلّ بمفرده) ولا يستقبلهم أحد بالتالي. والبورجوازية نزيهة جدّاً بهذا الصدد، ذلك أن مفاسدهم لن تحول على الإطلاق دون أن يتمّ استقبالهم بأعظم تقدير حيث لن يتم لها ذلك على الإطلاق، وإنهم يتصوّرون بدورهم إلى أبعد حدّ أن البورجوازية تعلم ذلك حتى إنّهم يتصنّعون البساطة في ما يخصّهم والقدح بحق أصدقائهم ولا سيما «الذين يرتفع نجمهم»، الأمر الذي يُتِمّ سوء التفاهم. وإن اتّفق أن يكون رجل من المجتمع الراقي على صلة بالبورجوازية الصغيرة لأنّ واقع الحال أنّه يحتلّ، نظراً لثرائه الباهظ، رئاسة أكثر الشركات الماليّة خطراً، فإنّ البورجوازية التي أبصرت أخيراً رجلاً من النبلاء جديراً بأن يكون من كبار البورجوازيّين، ربّما أقسمت أنّه لا يخالط المركيز لاعب الميسر المنكوب في ما هو الذي تحسبه عديم المعارف بقدر ما يبدو أكثر لطفاً. ثم هي يطيش صوابها حينما يزوّج الدوق رئيس مجلس إدارة الشركة الضخمة ابنه ابنة المركيز لاعب الميسر ولكنّ اسمه من أعرق الأسماء في فرنسا، مثلما يفضّل ملك تزويج ابنه ابنة ملك مخلوع على ابنة رئيس جمهورية قائم على رأس عمله. وإنّما يعني ذلك أن كلّاً من هذين العالمين يحمل عن الآخر فكرة في مثل وهميّة تلك التي يحملها سكّان شاطئ يقع على أحد أطراف خليج «بالبيك» عن الشاطئ الواقع في الطرف الآخر: «فمن «ريفبيل» يشاهد بعض «مركوفل المستكبرة»، ولكنّ الأمر يخدع بحدّ ذاته لأن المرء يحسب أنّه يُشاهد من «مركوفيل» فيما تظلّ روعة «ريفبيل» على العكس غير مرئيّة في أعظم جزء منها.

لما رأى طبيب «بالبيك» الذي استدعي لنوبة حمّى ألمت بي أنّه ينبغي ألا أمكث طول النهار على شاطئ البحر في هاجرة النهار وفي الحرّ الشديد وسطّر لي بعض الوصفات الصيدلانية، أخذت جدّتي الوصفات باحترام ظاهر تبيّنت فيه في الحال عزمها الأكيد ألّا تنفّذ واحدة منها ولكنّها أخذت في حسابها النصح على الصعيد الصحيّ وقبلت عرض السيّدة «دو فيلباريسيس» أن تحملنا على القيام ببعض المشاوير في عربتها وطفقت

أذهب وأجيء حتى ساعة الغداء من غرفتي إلى غرفة جدّتي. لم تكن تطلّ مباشرة على البحر شأن غرفتي ولكنما يسرح النظر منها في ثلاث جهات مختلفة: في إحدى زوايا السدّ وفي إحدى الباحات وفي الحقول، وكان أثاثها مختلفاً بمقاعده التي طرزت بخيوط معدنية دقيقة وبزهور ورديّة اللون كأنما تنبعث منها الرائحة اللذيذة النديّة التي تلقاها وأنت داخل. وفي تلك الساعة التي تجيء فيها أشعة من أماكن عرض وكأنما من ساعات مختلفة، أشعة تنكسر بها زوايا الجدار وتضع على الصوانة بالقرب من شعاع يعكسه الشاطئ مدبجاً مزركشاً كأزهار الطريق، وتعلق على الحائط الجناحين المطويين المرتعشين الدافئين لضياء يتأهّب لاستعادة طيرانه، وتدفئ على غرار حمّام قطعةً من سجّادة ريفيّة أمام نافذة الفناء الصغير الذي تطرزّه الشمس بحاشية مفرّضة كورق الكرمة، وتزيد من سحر زخرف الأثاث إذ تبدو وكأنها تعرّي حرير المقاعد المزهر وتنزع تخاريمه، في تلك الساعة كانت تبدو تلك الغرفة التي أطوف بها حيناً قبل أن أرتدي ثيابي للنزهة وكأنها موشور تتفكّك فيه ألوان الضياء الخارجي، وخليّة تنفرط فيها عصارات النهار التي أزمع تذوّقها مشتّتة مسكرة بارزة للعيان، وحديقة آمال تذوب في خفقان أشعة فضيّة وتويجات ورود ولكنّي أقدمت قبل كل شيء على إزاحة ستائري في لهفتي لأعلم أيّ بحر كان يلهو على ضفاف الشاطئ في ذلك الصباح كمثل جنيّة البحر. ذلك أن كلاً من تلك البحار ما كان يمكث أكثر من يوم واحد. كان ثمة في الغد آخر يشبهه أحياناً، ولكنّي لم أبصر البتّة البحر نفسه مرّتين متواليتين.

كان من بينها ما كان نادر الجمال إلى حدّ أن متعتي، إذ أبصره، كانت تزداد من جرّاء المفاجأة. فبداعي أي امتياز كشفت النافذة في هذا الصباح دون سواه إذ انفتحت أمام ناظريّ المفتونين الجنيّة «غلوكونوميه»[١]

---

(١) Glaukonomè هو اسم جنية البحر، والجزء الأول يعني باليونانية اللون الأخضر ويذكر بلون البحر على الشاطئ، وترمز جنيات البحر إلى حركة الأمواج وتراقص الضوء على صفحاتها.

التي كان لجمالها الكسول بأنفاسه المتراخية شفافيّة زمرّدة ضبابية. كنت أرى عبرها تدفّق العناصر الموزونة التي تلوّنها؟ كانت تدع للشمس أن تلهو بابتسامة يوهنها ضباب خفيّ إن هو إلا مساحة خالية مقطعَة حول صفحته الشفّافة التي أضحت بذلك أكثر اختصاراً وأشد إثارة كمثل تلك الإلهات اللواتي يبرزهنّ النحّات فوق باقي الكتلة الصخرية التي لا يحمّل نفسه عناء تهذيبها. كذلك كان بلونه الفريد يدعونا إلى النزهة على تلك الدروب الوعرة الأرضيّة التي سوف نلمح منها، ونحن نجلس في عربة السيّدة «دو فيلباريسيس» على مدى النهار، خفق أمواجه اللينة النديّة ولا نبلغها في يوم.

كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تأمر بإعداد عربتها في ساعة مبكّرة كي يتّسع لنا الوقت للذهاب إمّا إلى «سان مارس لو فيتو» وإمّا إلى صخرات «كيتهولم» وإمّا إلى أي مكان نزهة آخر هو بالنسبة إلى عربة بطيئة إلى حدّ ما بعيد جدّاً ويقتضي النهار بكامله. وكنت في غمرة الفرح الناجم لديّ عن الرحلة الطويلة التي نزمع القيام بها أدندن لحناً سمعته حديثاً وأمضي في جيئة ورواح بانتظار أن تكون السيّدة «دو فيلباريسيس» قد تأهبت. فإن كان اليوم يوم أحد لم تكن عربتها وحيدة أمام الفندق فقد كانت عدّة عربات مؤجرة تنتظر لا الأشخاص المدعوين إلى قصر «فيتيرن» لدى السيّدة «دو كامبرمير» فحسب بل أولئك الذين كانوا يصرّحون، بدلاً من المكوث حيث هم كأطفال معاقبين، أن يوم الأحد يوم مملّ في «بالبيك» فيذهبون فور الغداء ويختبئون في شاطى مجاور أو يزورون موقعاً أثرياً. وغالباً ما كانت السيدة «بلانديه» تجيب بلهجة قاطعة حينما يسألونها إن هي ذهبت إلى منزل آل «كامبرمير»: «لا، كنّا في شلّالات «بيك»»، كما لو كان السبب الوحيد الذي لم تقضِ من أجله النهار في «فيتيرن». فيقول نقيب المحامين بلهجة العطف:

- «إنّي أحسدك، وكنت بادلتك المكان فهو أكثر إمتاعاً».

كان قد انغرس بالقرب من العربات أمام المدخل حيث كنت أنتظر،

كمثل شجيرة من صنف نادر خادم شاب ما كان يسترعي الانتباه من جرّاء التناسق الفريد في شعره الملوّن أقلّ مما تفعل بشرته النباتيّة. أمّا في الداخل، وفي البهو الذي يوافق «النارتكس» أو كنيسة الموعوظين في الكنائس الرومينية حيث يحقّ للذين لا يقطنون الفندق أن يمروا. فما كان رفاق الوصيف «الخارجيّ» يعملون أكثر منه بكثير ولكنّهم يقومون على الأقل ببعض الحركات. والمرجّح أنهم كانوا في الصباح يساعدون في التنظيف، ولكنّهم كان يمثلون هناك بعد الظهر كمجرّد مغنّين في جوقة يظلّون على المسرح ليزيدوا في عدد الممثلين الصامتين حتى حينما لا يفيدون في شيء. وكان المدير العام، ذاك الذي كان يبعث فيّ أشدّ الخوف، يعتزم زيادة عددهم زيادة بالغة في السنة القادمة إذ كان لديه مشاريع كبيرة. وكان قراره يملأ صدر مدير الفندق بغمّ عظيم وهو يرى أن جميع هؤلاء الأولاد إنّما هم محض مسبّبي مشكلات ويعني بذلك أنّهم يعرقلون المرور ولا يفيدون في شيء. كانوا على الأقلّ يملؤون فراغ الحركة ما بين الغداء والعشاء، ما بين ذهاب النزلاء وعودتهم، شأن تلاميذ السيّدة «دو مانتنون» الذين يقومون بوصلة مسرحيّة بلباس فتيان يهود في كل مرّة تذهب فيها «أستير» أو «جواد». ولكنّ الخادم في الخارج بألوانه الثمينة وقامته الفارعة النحيلة، وكنت أنتظر في مكان ليس ببعيد عنه أن تنزل المركيزة، ظلّ يحافظ على جمود ينضاف إليه شيء من الكآبة لأنّ أشقاءه الكبار هجروا الفندق سعياً وراء مصائر لامعة وكان يحسّ أنّه وحيد على هذه الأرض الغريبة وتصل أخيراً السيّدة «دو فيلباريسيس». ربّما انبغى أن يدخل في صلب وظائف الخادم ذي الحلّة الرسميّة أن يهتمّ بعربتها ويُصعدها إليها، ولكنّه كان يعلم أن شخصاً يصطحب خدمه إنّما يعمل على أن يخدموه ويهَب عادةً القليل من الإكراميات في الفنادق، وأن نبلاء ضاحية«سان جيرمان» القديم يسلكون السبيل نفسه. كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تنتمي إلى تينك الفئتين. ويستخلص الخادم الشجريّ من ذلك أن ليس له أن ينتظر شيئاً من المركيزة فيدع لرئيس خدمها ولوصيفتها أن

يُجلساها مع متاعها ويحلم حزيناً بمصير أشقّائه المشتهى ويحتفظ بجموده النباتيّ.

وكنّا نمضي، فندخل بعدما ندور حول محطّة السكّة الحديدية بوقت وجيز في طريق ريفيّة أصبحت بعد قليل في نظري مألوفة كطرق «كوميريه» من العطفة التي كانت تبدأ فيها بين البساتين المسيّجة الساحرة حتى الزاوية التي نغادرها فيها والتي تمتدّ على جانبيها أراضٍ محروثة. وكنت ترى داخلها ههنا وهناك شجرة تفّاح حُرِمَتْ بالحقيقة أزهارها ولم تعد تحمل سوى باقة من المدقّات. ولكنّها كانت كافية لتفتنني لأنني كنت أتعرّف هذه الأوراق التي لا تُضاهى والتي مرّت على مساحتها الواسعة منذ وقت يسير أذيال الساتين الأبيض لأزهارها المحمرّة كما هو أمر سجّادة المنصّة في حفلة زواج انقضت الآن.

وكم مرّة وقع لي في باريس في شهر أيّار من السنة التالية أن أشتري غصن شجرة تفّاح لدى بائع الزهور وأمضي الليل بعد ذلك أمام أزهارها التي كان يتفتّح فيها العطر الكثيف نفسه الذي لا يزال يعفّر بزبده براعم الأوراق والتي يبدو أن البائع إنّما أضاف بين تويجاتها البيض يحدوه كرم يديه لي وميل إبداعيّ كذلك وتباين ألوان بارع، أضاف من كل جانب زراً ورديّاً ملائماً. كنت أنظر إليها وأجعلها تحت ضوء مصباحي - فترة طويلة إلى حدّ أنّي كثيراً ما كنت لا أزال في مكاني حينما كان الفجر يكسوها بالحمرة نفسها التي لا بدّ كان يكسو بها «بالبيك» في الآن نفسه - وأحاول أن أحملها بالخيال إلى تلك الطريق وأن أضاعف من أعدادها وأنشرها في الإطار المُعَدّ، على اللوحة المهيّأة تماماً التي تؤلفها تلك البساتين المسيّجة التي كنت أعرف خطوطها عن ظهر القلب والتي وددت لو أعود فأراها - وسوف أراها ذات يوم - في الفترة التي يغطي الربيع بألوانه خطوط رسومها بألوانه بدفق النبوغ الفتّان.

كنت قد ألّفت، قبل أن أستقلّ العربة، لوحة البحر التي أمضي للبحث عنها وآمل أن أبصرها تحت الشمس الساطعة ولم أكن أشاهدها في

«بالبيك» إلا مجزأة بين الكثير من البقع المحصورة التافهة التي لا يقبل بها حلمي، بقع السبّاحين والمقصورات ويخوت النزهة. ولكن حينما كنت ألمح، وقد وصلت عربة السيّدة «دو فيلباريسيس» إلى أعلى المنحدر. حينما كنت ألمح البحر بين أغصان الأشجار، حينئذ كانت تزول دونما شكّ من هذه المسافة البعيدة تلك التفاصيل المعاصرة التي جعلته كأنّما خارج الطبيعة والتاريخ فيسعني إذ أنظر إلى الأمواج أن أجهد في التفكير بأنّها هي نفسها التي يصفها الشاعر «لو كونت دوليل» في ديوان«**أورستي**» حينما كان مقاتلو اليونان الأبطال ذوو الشعور الطويلة «كمثل انطلاقة طيور لاحمة في ضياء الفجر يضربون اللجّة الداوية بمئة ألف مجذاف». ولكني لم أعد بالمقابل على قرب كافٍ من البحر الذي ما كان يبدو لي نابضاً بالحياة بل جامداً، ولم أعد أشعر بالقوّة تحت ألوانه المنشورة كألوان لوحة بين الأوراق حيث كان يبدو في قلّة تماسك السماء ولكنّه أكثر قتامة منها.

ولما تبينت السيّدة «دو فيلباريسيس» أنني أحب الكنائس أخذت تعدني بأنّنا سوف نبادر إلى زيارة هذه الكنيسة مرّة وتلك مرّة أخرى ولا سيّما كنيسة «كاركفيل» التي تختفي تماماً تحت أوراق لبلابها العتيق»، تقول بحركة من يدها تبدو وكأنها تغمر بذوق رفيع الواجهة غير الموجودة بأوراق أغصان ناعمة غير مرئية كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تملك في الغالب، إلى جانب هذه الإشارة التصويريّة الصغيرة، كلمة صحيحة تحدّد بها روعة بناء أثريّ وميزته الفريدة وتتجنّب على الدوام المصطلحات التقنية ولكنّها لا تستطيع أن تخفي أنّها تلمّ إلماماً بالأمور التي تتحدّث عنها. وكان يبدو أنها تحاول أن تلقى عذراً لذلك في أنّ أحد قصور والدها الذي نشأت فيه كان واقعاً في منطقة فيها كنائس من نمط ما كان حول «بالبيك» ولعلّه كان من الخزي ألّا تكون اكتسبت ميلاً إلى فنّ العمارة، والقصر على أيّ حال أجمل نموذج للعمارة في عصر النهضة. ولما كان إلى ذلك متحفاً حقيقياً وقد عزف فيه من جهة ثانية «شوبان» و«ليست» وقرأ فيه «لامارتين» أشعاره

وسطّر فيه جميع الفنّانين المعروفين على مدى قرن خواطر وأنغاماً ووضعوا رسوماً على كتاب العائلة فلم تكن السيّدة «دو فيلباريسيس» تقدّم سوى هذا المنشأ الماديّ البحت لإحاطتها بجميع الفنون إمّا تظرّفاً وإمّا عن حسن تهذيب أو عن تواضع حقيقيّ أو افتقار إلى الروح الفلسفيّة وتبدو في النهاية وكأنها تنظر إلى الرسم والموسيقى والآداب والفلسفة على أنّها وقف على فتاة نشأت نشأة أرستقراطيّة إلى أبعد الحدود في بناء أثريّ مصنّف وشهير. ولكأنّما لم يكن في نظرها لوحات غير تلك التي يرثها المرء. وقد سرها أن أحبَّت جدّتي عقداً كانت تلبسه ولا يخفيه فستانها. لقد كان في رسم بريشة «تيتسيانو» الثاني جدّة لها ولم يبرح العائلة في يوم فكان يتأكد على هذا النحو أنّه حقيقي. كانت لا تودّ سماع من يتحدّث عن لوحات لا يدري أحد كيف تمّ شراؤها على يد أحد الأثرياء إذ كانت متيقنة سلفاً أنها مزيفة ولا يهزّها أيّ شوق لرؤيتها. وكنّا نعلم أنّها ترسم بدورها زهوراً بألوان مائيّة وقد حدّثتها عنها جدّتي وقد سبق أن سمعت من يمتدحها. فبدلت السيّدة «دو فيلباريسيس» موضوع الحديث عن تواضع ولكن دون أن تبدي دهشة أو سروراً أكثر ممّا تفعل فنّانة معروفة إلى حد كافٍ ولا يجيئها المديح بجديد. واكتفت بأن قالت إن ذلك تسلية رائعة لأنّه إن لم تكن الزهور التي تبدعها الريشة بديعة فإنّما يحملك رسمها على الأقلّ على العيش في صحبة الزهور الطبيعية التي لا يملّ المرء جمالها ولا سيّما إن اضطرّ أن ينظر إليها عن كثب ليقلدها. ولكن السيّدة «دو فيلباريسيس» كانت تهب نفسها عطلة لتريح عينيها.

وقد أدهشنا، أنا وجدّتي، أن نبصر إلى أيّ حدّ كانت أكثر «ليبرالية» حتى من أكبر قسم من البورجوازيين. فكانت تعجب أن يثور الناس لطرد «اليسوعيّين» قائلة إن الأمر وقع على الدوام حتى في عهود الملكية حتى في اسبانيا. وكانت تدافع عن الجمهورية ولا تنعى عليها محاربتها رجال الدين، إلا بهذا المقدار: «لعلّني أرى أنّ الحؤول دون ذهابي إلى القدّاس إن رغبت في ذلك في مثل سوء إلزامي بالذهاب إليه إن لم تكن لي فيه

رغبة»، وتطلق حتى بعض كلمات من مثل: «النبلاء اليوم، ما عساهم يكونون!»، «الرجل الذي لا يعمل لا يساوي شيئاً في نظري» ربّما لمحض ما تشعر بالإثارة والحلاوة والبيان الذي تكتسبه بين شفتيها.

كثيراً ما اتّفق لنا سماع آراء متقدّمة - ولكنّها لا تبلغ حدّ الاشتراكيّة «بعبع» السيّدة «دو فيلباريسيس» - يجري التعبير عنها بصراحة وبالضبط على لسان أحد هؤلاء الأشخاص الذين ترفض نزاهتنا في دقتها ووجلها إزاء ما تكنّه من تقدير لذكائهم شجب أفكار المحافظين حتى قاربنا الظنّ، أنا وجدّتي، بأن قد اجتمع لرفيقتنا الطيّبة المعشر مقياس الحقيقة وأنموذجها في كلّ أمر. كنّا نصدقها دون جدال فيما تصدر أحكامها على ما تملك من لوحات «تيتسيانو» وعلى أعمدة قصرها وروح النكتة لدى «لوي فيليب». بيد أن السيّدة «دو فيلباريسيس» - شأن هؤلاء البحّاثة الذين يثيرون الذهول إن وُجّهوا إلى الرسم لدى قدماء المصريين وإلى نقوش «الأتروسكيّين» ويتحدثون عن الأعمال الفنيّة الحديثة على نحو تافه حتى لنتساءل إن لم نكن بالغنا من خطر العلوم التي ضلعوا فيها لأنّه لا تبرز فيها تلك الضحالة نفسها التي لا بدّ ضمّنوها إيّاها على نحو ما فعلوا في دراساتهم الغبيّة حول «بودلير» - إن أنا سألتها عن «شاتوبريان» و«بلزاك» و«فيكتور هوغو»، والكلّ جرى استقبالهم بالأمس لدى ذويها ولمحتهم بأمّ العين، كانت تضحك من إعجابي وتروي عنهم نكاتٍ مثيرة مثلما فعلت منذ قليل عن كبار القوم أو رجال السياسة، وتصدر أحكاماً قاسية على هؤلاء الكُتّاب لأنّهم افتقروا بالضبط إلى ذاك التواضع، إلى ذاك الاحتجاب وذاك الفنّ البسيط الذي يكتفي بجرّة قلم واحدة ولا يتثاقل، الذي يتجنّب قبل كلّ شيء سخرية التفخيم، إلى تلك البديهة الحاضرة وتلك الميزات التي قوامها الاعتدال في الرأي والبساطة والتي علّموها أنّ القيمة الحقيقيّة تتسامى إليها. كان واضحاً أنّها لا تتردّد في أن تفضّل عليهم رجالاً ربّما تفوّقوا بالحقيقة من جرّائها على أمثال «بلزاك» و«هوغو» و«فينيي» ـ في صالة أو في أكاديمية أو في مجلس وزراء ـ شخصيات من

أمثال «موليه» أو«فونتان» أو «فيترول» أو «بيرسو» أو «باسكييه» أو «لوبران» أو «سالفاندي» أو «دارو».

- «ومثل ذلك روايات «ستندال» الذي بدا لي أنكم معجبون به. ولعلكم كنتم تدهشونه أشدّ الدهشة وأنتم تحدّثونه بهذه اللهجة. وكثيراً ما قال لي والدي الذي كان يلقاه في منزل السيّد «ميريميه» - وهذا على الأقلّ صاحب موهبة -: «إنّ «بيل» - وهو اسمه - كان من سوقيّة مريعة ولكنّه صاحب فكاهة على مائدة عشاء ولا يدع لأحد أن يخدعه في ما يتعلّق بكتبه. وقد وسعكم على أيّة حال أن تروا بأنفسكم بأيّة رفعة مَنْكبين ردّ على مديح السيّد «دو بلزاك» المبالغ فيه. لقد كان في ذلك على الأقلّ رجلاً طيّب المعشر».

كان في حوزتها مجموعة تواقيع لجميع هؤلاء الرجال العظام وتحسب فيما يبدو، وهي تتذرّع بالعلاقات الخاصّة التي أقامتها أسرتها، أن رأيها في ما يخصهم أكثر صواباً من رأي شبّان مثلي لم يستطيعوا التردّد عليهم.

- «أظنّ أنّي أستطيع التحدّث عنهم، فقد كانوا يتردّدون على منزل والدي؛ وينبغي أن نصدّق في ما يخصّهم، كما يقول «سانت بوف» الذي كان واسع الذكاء، الذين رأوهم عن كثب واستطاعوا أن يحكموا حكماً أكثر دقة على ما كانوا يساوون».

وفيما كانت العربة تتسلّق طريقاً صاعدة بين أراضٍ مفلوحة كانت بعض أزاهير الترنشاه المتردّدة الشبيهة بأزاهير «كومبريه» تتبع عربتنا فتزيد من حقيقة الحقول وتضيف إليها دمغة الأصالة كالزهيرة الثمينة التي كان بعض أساطين الفنّ القدامى يوقّعون بها لوحاتهم. وتسبقها جيادنا بعد قليل، ولكنّنا نلمح بعد خطىً قليلة واحدة غرست بانتظارنا نجمتها الزرقاء في العشب أمامنا. وتتجرّأ كثيرات فتُقْبِلُ وتقف على حافة الطريق فإذا ما يشبه السديم يتشكّل من ذكرياتي البعيدة والأزهار المؤالفة.

ثمّ نأخذ في الانحدار عن المرتفع. حينئذ كنا نلتقي بواحدة من تلك المخلوقات تتسلّقه سعياً على الأقدام أو على درّاجة أو في عربة خفيفة أو

في عربة فاخرة - وهن أزاهير النهار الصاحي ولكنّهن لسن كأزاهير الحقول لأنّ كلّ واحدة تتضمن شيئاً ليس في الأخرى ويحول دون أن نستطيع إشباع الرغبة التي ولّدتها فينا مع مثيلاتها - كفتاة مزرعة تسوق بقرتها أو هي نصف مستلقية فوق عربة نقل، أو ابنة دكانيّ في نزهة، أو آنسة أنيقة تجلس على مقعد عربة مكشوفة قبالة والديها. كان «بلوك» بالتأكيد قد فتح لي عصراً جديداً وغيّر قيمة الحياة في نظري يوم أطلعني أنّ الأحلام التي نقلتها في عزلتي من جهة «ميزيغكيز» حينما أمنّي النفس بفلّاحة تمرّ بي وآخذها بين ذراعي لم تكن وهماً لا يوافق شيئاً خارج ذاتي، بل إن جميع الفتيات اللواتي كنّا نلتقي بهن كنّ على أتمّ الاستعداد للاستجابة لمثل تلك الأمنيات سواء أكنّ قرويّات أم آنسات. وحتى إن انبغى الآن، وقد كنت مريضاً ولا أخرج وحدي، ألا أستطيع في يوم ممارسة الحبّ معهنّ فقد كنت مع ذلك سعيداً سعادة طفل ولد في سجن أو مستشفى وظنّ طويلاً أنّ الجسم البشري لا يستطيع أن يهضم إلا الخبز الجافّ والأدوية ثم علم فجأة أنّ الدراق والمشمش والعنب ليست مجرد زينة للحقول بل هي أطعمة لذيذة يمكن هضمها. إن العالم ليبدو له أفضل والحياة أرحم حتى لو لم يسمح له سجّانه أو ممرّضه بقطف هذه الفاكهة الجميلة. ذلك لأنّ الشوق يبدو لنا أوفر جمالاً وأنّنا نستند إليه بثقة أكبر حينما نعلم أنّ الواقع يطابقه خارج ذواتنا حتى لو لم يكن ممكن التحقيق بالنسبة إلينا. وإنّنا نفكر باغتباط أكبر بحياة يمكننا فيها أن نتخيل أنّنا نشبعه - بشرط أن نستبعد لحين من فكرنا العقبة الصغيرة العارضة الخاصة التي تحول دون أن نحقّق الأمر شخصياً. وقد أصبحتُ، في ما يخص الفتيات الجميلات اللواتي يمررن بي، منذ اليوم الذي علمت فيه أنّه يمكن تقبيل وجناتهنّ، وأتطلع إلى معرفة نفوسهنّ. وقد بدا لي العالم أجدر بالاهتمام.

كانت عربة السيّدة «دو فيلباريسيس» تمضي سريعة، فلا يكاد يتّسع لي الوقت لأبصر البنيّة التي تجيء في اتجاهنا. ولكن - بما أنّ جمال الكائنات ليس كجمال الأشياء وأنّنا نحس أنّه جمال مخلوق فريد واعٍ ذي

إرادة - حالما كانت سمته الفرديّة، تلك النفس المبهمة والإرادة المجهولة لديّ، ترتسم في أعماق نظرته الشاردة على شكل صورة صغيرة مقلّصة إلى حدّ بعيد ولكنّها كاملة، كنتُ أحسّ في الحال ببوادر الرغبة في مثل إبهامها وصغر حجمها، وهي الردّ الخفي لغبار الطلع المهيّأ تماماً للمدقّات، الرغبة في ألا أدع لتلك الفتاة أن تمرّ دون أن يتنبّه فكرها لشخصي، دون أن أمنع رغباتها من التوجّه إلى آخر غيري، دون أن أبادر للانغراس في أحلامها والاستيلاء على قلبها. ولكنّ عربتنا تبتعد والفتاة الحلوة أصبحت وراءنا وبما أنّها لا تملك عني أيّاً من التصورات التي تؤلف الشخصيّة فإن عينيها، وما رأتاني إلا لماماً، قد نسيتاني. أتراني ألفيتها جميلة إلى هذا الحد لأنّني لمحتها فحسب؟ ربّما. ذلك أنّ استحالة التوقّف بالقرب من امرأة وخطر ألا نعود فنلقاها في يوم آخر إنّما يكسبانها بادئ الأمر على نحو مفاجئ السحر نفسه الذي يضفيه على بلد ما المرض أو الفقر اللذان يحولان دون أن نزوره، أو على الأيّام الباهتة التي تبقت لنا في الحياة القتال الذي سنلقي فيه دون شكّ حتفنا. فلو لم تكن العادة لا نبغي أن تبدو الحياة، والحالة هذه، رائعة في عيني قوم تتهدّدهم المنيّة في كلّ ساعة - يعني في عيني البشر كافّة. ثم إنّ الخيال، إن انساق خلف تمنّي ما لا نستطيع امتلاكه، فإن انطلاقته لا يقيدها واقع تمت مشاهدته مشاهدة ضافية في تلك اللقاءات التي ترتبط مفاتنُ عابرة السبيل فيها ارتباطاً مباشراً بسرعة العبور. ويكفي أن يحلّ الليل وتسرع العربة في سيرها بين الحقول أو في المدينة حتى لا يظلّ جذع أنثى تشوّهه، شأن تمثال من مرمر عتيق السرعة التي تجرفنا والشفق الذي يغمره إلا ويطلق على فؤادنا من كل زاوية طريق ومن أعماق كلّ دكان سهام «الجمال»، الجمال الذي ربّما يغرينا أن نتساءل أحياناً إن كان في هذه الدنيا غيرَ ذاك الجزء المتمّم الذي يضيفه إلى عابرة سبيل مجزأة سريعة التلاشي خيالُنا الذي يستثيره الأسف.

ولو استطعت النزول والتحدث إلى الفتاة التي كنّا نلقاها فربّما بدّد أوهامي عيب في بشرتها لم أميّزه من العربة. (ولكان بدا لي فجأة حينئذٍ

كلّ جهد في ولوج حياتها مستحيلاً. ذلك لأنّ الجمال سلسلة من الفرضيّات التي تقلّصها القباحة إذ تسد الطريق التي سبق أن رأيناها تنفتح على المجهول). ربّما زودتني كلمة واحدة تقولها وزودتني ابتسامة بمفتاح ورموز غير متوقّعة كيما أقرأ تعابير وجهها ومشيتها اللذين ربّما أصبحا في الحال لا شأن لهما. ذلك ممكن، لأنّني ما التقيت في الحياة بفتيات مشتهيات إلى هذا الحدّ إلا في الأيّام التي كنت فيها بصحبة شخص رزين ما استطعت فراقه على الرغم من آلاف الأعذار التي كنت أبتدعها. فبعد بضع سنوات أعقبت السنة التي ذهبت فيها للمرّة الأول إلى «بالبيك» وإذ كنت في عربة لأقوم بنزهة في باريس مع صديق لوالدي ولمحت امرأة تمشي مسرعة في الليل رأيت من الجنون أن أفقد بداعي اللياقات حصّتي من السعادة في الحياة الوحيدة القائمة دون شكّ فقفزت أرضاً دون اعتذار وأخذت أبحث عن المجهولة وأضعت أثرها في تقاطع شارعين وعدت فلقيتها في ثالث ووجدتني أخيراً فاقد الأنفاس تحت أحد المصابيح قبالة السيّدة «فيردوران» العجوز التي كنت أتجنبها في كلّ مكان والتي صرخت فرحة ذاهلة: «أواه! لطيف منك أنّك جريت لتسلّم عليّ!».

كنت أؤكد لجدتي وللسيّدة «دو فيلباريسيس» في ذلك العام في «بالبيك»، وساعة تتمّ تلك اللقاءات، أنّه من الأفضل أن أعود وحدي سيراً على الأقدام بسبب ألم شديد في رأسي. وكانتا ترفضان السماح لي بالنزول فأضيف الفتاة الجميلة (والتقاؤها من جديد أعسر بكثير من العثور على بناء أثري إذ كانت مغفلة الاسم ومتنقلة) إلى مجموعة سائر اللواتي كنت أمنّي النفس برؤيتهنّ عن كثب. على أنّه اتفق لإحداهنّ أن عادت فمرّت أمامي وضمن شروط حسبت معها أنّني سوف أستطيع التعرّف إليها حسبما أشاء. كانت تلك بائعة حليب جاءت من مزرعة تحمل كميّة إضافيّة من القشدة للفندق. وظننت أنّها تعرفت إليّ بدورها فقد كانت تنظر إليّ باهتمام ربما كان سببه الدهشة التي سبّبها لها اهتمامي. وفي الغد، وهو يوم استرحت فيه على مدى الصباح بكامله، وحين جاءت «فرانسواز» نحو

الظهر تفتح ستائري سلمتني رسالة وضعت في الفندق من أجلي. وما كنت أعرف أحداً في بالبيك. فلم أشكّ أنّ الرسالة كانت من بائعة الحليب. وكانت من «بيرغوت»، وأسفي، الذي حاول أن يلقاني وهو في طريقه، فلمّا علم أنّني نائم ترك لي هذه الكلمة الرائعة التي جعل لها عامل المصعد مظروفاً ظننته سُطِّر بيد بائعة الحليب. لقد خاب أملي خيبة شنيعة، ولم تحمل لي فكرة أنّ استلام رسالة من «بيرغوت» أكثر صعوبة وأكثر إثارة للزهو من أيّ عزاء عن أنها لم تكن من بائعة الحليب. وهذه الفتاة نفسها لم ألقها ثانية أكثر مما تم لي ذلك مع اللواتي كنت ألمحهنّ فقط من عربة السيّدة «دو فيلباريسيس». كانت مشاهدتهن ثم فقدانهن جميعاً يزيدان من حالة الاضطراب التي أعيش فيها فأجد بعض الحكمة لدى الفلاسفة الذين يوصوننا بوضع حدّ لرغباتنا (إن هم قصدوا التحدّث عن التوق إلى الأشخاص فإنّه وحده الذي يمكنه أن يخلّف الضيق في النفس إذ ينطبق على ما كان من المجهول الواعي. أمّا افتراض أن الفلسفة إنما تقصد التحدث عن الرغبة في الثروات فمن أشد العبث). ولكنّي كنت مع ذلك على استعداد لأحكم أنّ تلك ناقصة لأنّني كنت أقول في نفسي إن تلك اللقاءات تزيد في نظري من جمال عالم يُنبت هكذا على سائر الطرقات الريفيّة أزاهير غريبة وشائعة في الوقت نفسه وهي من كنوز النهار العابرة ومكاسب النزهات غير المتوقّعة وقد حالت ظروف طارئة، لعلها لن تتكرر على الدوام، حالت وحدها دون أن أفيد منها وهي التي تزوّد الحياة بطعم جديد.

ولكنّي ربما شرعت، في أملي أنّني قد أستطيع يوماً، وقد أصبحت أكثر حرية أن ألقى على طرقات أخرى فتيات مشابهات، ربّما شرعت منذ ذاك أفسد السمة الفرديّة البحتة التي تطبع الرغبة في العيش بالقرب من امرأة وجدناها جميلة، وأخذت أعترف اعترافاً ضمنياً بوهم تلك الرغبة لمجرّد أني كنت أسلّم باحتمال بعثها بوسيلة مصطنعة.

في اليوم الذي اصطحبنا فيه السيّدة «دو فيلباريسيس» إلى «كاركفيل»

حيث تقوم تلك الكنيسة المغطاة باللبلاب التي سبق أن حدّثتنا عنها، والتي شيّدت فوق رابية وتشرف لذلك على القرية وعلى النهر الذي يجتازها والذي احتفظ بحسرة الصغير من العصر الوسيط، حسبت جدتي أنّه ربّما سرّني أن أكون وحيداً لمشاهدة هذا البناء فعرضت على صديقتها أن تبادرا لتناول العصرونية في دكان الحلواني الكائنة في الساحة التي كانت تشاهد بوضوح وتبدو بقشرتها المذهبة وكأنها جزء آخر من تحفة كلها قديمة. وتم الاتفاق أن أبادر إلى لقائهما هناك. كان لا بدّ لي في هذه الكتلة الخضراء التي تُركتُ أمامها، في سبيل أن أعرف أنّ ثمة كنيسة، أن أبذل جهداً يسمح لي أن أحصر أكثر فأكثر فكرة الكنيسة. ذلك أنّه كما يتفق للتلاميذ الذين يدركون أتمّ الإدراك معنى إحدى الجمل حينما يلزمون في عملية الترجمة من اللغة وإليها بتعريتها من الصيغ التي تعوّدوها، كنت أراني مضطراً في ما يخص فكرة الكنيسة هذه التي لم تكن بي حاجة إليها عادة أمام قباب أجراس تعرفها من تلقاء ذاتها، أن أعود باستمرار إليها كي لا أغفل أن قوس هذه الخصلة من اللبلاب كان هنا قوس عقد زجاجي وأن بروز الأوراق هناك ناجم عن بروز تاج عمود. ولكنّ ريحاً خفيفة كانت تهب حينئذ فيرتعش لها المدخل المتحرّك الذي تجري على صفحته اضطرابات تتدافع وترتعش مثلما النور. كانت الأوراق تتدفق موجات تدفع موجات وتجذب الواجهةُ النباتية المرتعشة خلفها الأعمدةَ المتموجة المُدَاعَبَة المتهرّبة.

وإذ كنت أغادر الكنيسة رأيت أمام الجسر القديم فتيات من القرية يقفن بكامل زينتهنّ لأنّ اليوم ولا ريب كان يوم أحد وينادين على الصبية الذين يمرون بهنّ. كان ثمة واحدة طويلة القامة دون الأخريات في لباسها ولكنها تبدو وكأنّها تطغى عليهن بضرب من النفوذ - إذ تكاد لا تجيب على ما يقلنه لها - وتظهر أكثر رزانة وأوفر تصميماً، وكانت نصف جالسة على حافة الجسر تدلي ساقيها وأمامها وعاء مليء بأسماك اصطادتها على الأرجح منذ وقت قليل. كان لونها مسمرّاً وعيناها عذبتين ولكنّ لها نظرة

استخفاف بما حولها وأنفاً صغيراً ناعم الشكل ساخره. كانت نظراتي تحطّ على بشرتها وكان يمكن لشفتيّ أن تظنّا لدى الاقتضاء أنّهما تبعتا نظراتي. ولكنّني ما كنت أودّ الوصول إلى جسدها فحسب بل إلى الشخص الذي كان يعيش داخله أيضاً والذي لا نلامسه إلا على نحو واحد قوامه أن نسترعي انتباهه ولا نلجه إلا على نحو واحد قوامه بعث فكرة فيه.

وكان وجود الصيّادة الحسناء الداخلي لا يزال يبدو لي مقفلاً وبي شك إن كنت ولجته حتى بعدما لمحت صورتي تنعكس خلسة في مرآة لحظها وفق مؤشر انعكاس كان مجهولاً لدي كما لو أقمت في ساحة بصر ظبية. وكما لعلّه ما كان يكفيني أن تلاقي شفتاي متعة على شفتيها بل أن تمنحاها إياها. كذلك وددت لو أنّ الفكرة المكوّنة عنّي التي ستلج ذلك الوجود وتتشبث به لن تقود إليّ انتباهها فحسب بل إعجابها ورغبتها وتضطرها أن تحفظ ذكراي حتى اليوم الذي يمكنني فيه أن ألقاها ثانية. وأبصرت آنذاك على بضع خطوات المكان الذي تزمع أن تنتظرني فيه عربة السيّدة «دو فيلباريسيس». لم تمرّ بي سوى لحظة وقد أحسست مع ذلك أن الفتيات شرعن في الضحك إذ رأينني أتوقّف على هذا النحو. وكنت أحمل خمسة فرنكات في جيبي فأخرجتها منه وأمسكت بقطعة النقود للحظة أمام عيني الفتاة الجميلة قبل أن أشرح لها المهمّة التي أكلفها إيّاها وكيما أزيد من احتمال أن تصغي إليّ، ثم قلت للصيّادة:

– «بما أنه يبدو أنّك من هذه المنطقة فهل تتكرمين بمشوار صغير من أجلي؟ ينبغي الذهاب أمام دكان حلواني تقع، فيما يبدو، على ساحة، ولكني لا أدري أين هي، وهناك تنتظرني عربة. مهلاً!... تسألين كي لا يختلط الأمر عليك إن كانت تلك عربة المركيزة «دو فيلباريسيس». ستتبينينها تماماً على أية حال فإنّ لها حصانين».

كان ذلك ما أبغي أن تعرفه كي تحمل عنّي فكرة عظيمة. إلا أنّي ما إن نطقت بكلمتي «مركيزة» و«حصانين» حتى انتابني فجأة هدوء عظيم. أحسست بأنّ الصيّادة سوف تتذكرني وبجزء من رغبتي في لقائها ثانية

يتلاشى مع هلعي بألا يمكنني لقاؤها ثانية. لقد بدا لي أنّني أقدمت على مسّ شخصها بشفتين خفيتين وأنّني حسُنْتُ في عينيها. وقد قلّص هذا الاستيلاء بالقوة على فكرها، هذا الامتلاك اللامادي قلص من سرّها الخفيّ بقدر ما يفعل الامتلاك الجسديّ.

وانحدرنا إلى «هوديمنيل»، وغمرتني فجأة تلك السعادة العميقة التي لم أحس بها كثيراً منذ إقامتي في «كومبريه»، سعادة شبيهة بتلك التي أولتاني إيّاها، في ما أولتا، قبّتا جرسيات «مارتنفيل». ولكنّها ظلّت ناقصة هذه المرّة. فقد اتّفق أن رأيت ثلاث شجرات ترتفع على جانب الطريق المحدودبة التي كنّا نسير عليها، ولا بدّ أنها كانت بمثابة مدخل إلى ممرّ مشجّر وكانت تؤلف خطوطاً لا أراها للمرة الأولى ولا أفلح في التعرّف على المكان الذي تبدو وكأنّها انتزعت منه ولكنّما بي إحساس بأنّه كان مألوفاً لديّ فيما مضى. وإذ تعثر فكري بين سنة بعيدة واللحظة الحاضرة ترنحت ضواحي «بالبيك» وأخذت أتساءل إن لم يكن كلّ هذا المشوار وهماً، و«بالبيك» مكاناً لم أذهب إليه في يوم إلا في الخيال، والسيّدة «دو فيلباريسيس» شخصيّة روائيّة، والشجرات الثلاث الواقع الذي تلقاه حينما ترفع عينيك عن الكتاب الذي كنت تقرؤه والذي كان يصوّر لك وسطاً بلغ بك الأمر أن تظنّ أنّك نُقِلْتَ بالفعل إليه.

كنت أنظر إلى الشجرات الثلاث وأبصرها تماماً ولكن فكري يحسّ أنها تخفي شيئاً لا أتمكن منه كتلك الحاجات الواقعة بعيداً جداً عنا التي تلامس أصابعنا الممدودة في نهاية ذراعنا المبسوطة غلافها فحسب بين الحين والحين دون أن تفلح في الإمساك بها. حينئذ نرتاح هنيهة كي نقذف بذراعنا إلى الأمام بقوّة أعظم ونحاول بلوغ نقطة أبعد. على أنّه كان لا بدّ لي أن أكون وحدي كي يتسنّى لفكري أن يجمع شتاته ويتحفّز للاندفاع. لكم وددت لو أستطيع الانزواء مثلما كنت أفعل في نزهاتي في جانب «غيرمانت» حينما كنت أعتزل بعيداً عن ذويّ! بل بدا لي أنّه لا بدّ من الإقدام على الأمر. وكنت أعرف هذا الصنف من المتعة الذي يقتضي

والحقّ يُقال نشاطاً يمارسه الفكر على ذاته ولكنّ متع الاستهتار الذي يحملك على التخلي عنها تبدو إزاءها شديدة التفاهة. ما كنت أشعر بتلك المتعة التي كان موضوعها مُسْتشفا فحسب، وكان علي أن أصنعها بنفسي، سوى مرّات قليلة، ولكنما يبدو لي في كلّ منها أن الأمور التي جرت في الفترة الفاصلة كانت غير ذات بال تقريباً وأنّني أستطيع أن انصرفت إلى حقيقتها وحدها أن أبدأ أخيراً حياة حقيقيّة. ووضعت حيناً من الوقت يدي أمام ناظري ليمكنني إطباقهما دون أن تتنبّه السيّدة «دو فيلباريسيس» للأمر. وظللت لا أفكر في شيء ثم وثبت من موقع فكري المكدّس الذي تملّكتْه تملكاً أشدّ وثبة أطول باتّجاه الشجرات أو بالأحرى في اتّجاه داخلي كنت أبصرها آخر نقطة منه في داخلي. وأحسست ثانية خلفها بالغرض نفسه المعروف لدي ولكنّه مبهم ولم أستطع إرجاعه إليّ. ولكنّي كنت أبصرها تقترب ثلاثتها كلما تقدّمت العربة. فأين نظرت إليها قبل ذاك؟ لم يكن ثمة مكان حوالي «كومبريه» له ممرّ مشجّر بمدخل من هذا القبيل، كما لم يكن للموقع الذي تذكّرني به مكان في الريف الألماني حيث ذهبت مع جدّتي في إحدى السنين للاستشفاء في مدن المياه. أفينبغي الظنّ أنّها أقبلت من سنوات أصبحت مغرقة البعد في حياتي حتى زال من ذاكرتي المنظر الذي كان يحيط بها زوالاً تامّاً وأنّها، شأن تلك الصفحات التي يهز مشاعرك فجأة أن تعود فتلقاها في مؤلَّف كنت تظنّ أنّك ما قرأته في يوم، ظلّت وحدها تطفو على صفحات سِفْرِ طفولتي الأولى المنسي؟ أم تراها كانت على العكس من قبيل مناظر الأحلام تلك التي لا تتبدّل على الأقل بالنسبة إليّ أنا الذي لم يكن مظهرها الغريب داخلي سوى تجسيد في أثناء النوم للجهد الذي كنت أصرفه في أثناء اليقظة إمّا لأبلغ به السرّ في مكان كنت أستشفّه خلف مظهره، مثلما وقع لي ذلك مرّات عدّة في جانب «غيرمانت»، وإمّا لأحاول إعادته إلى مكان سبق أن تقت إلى التعرّف به فبدا لي منذ اليوم الذي عرفته فيه سطحيّاً تماماً شأن «بالبيك»؟ أكانت محض صورة جديدة تماماً انفصلت من أحد أحلام الليلة السابقة ولكنّها

أضحت باهتة حتى لتبدو لي وكأنّها تأتي من موقع أبعد بكثير؟ أم أني ما رأيتها في يوم وكانت تخفي خلفها كمثل شجرات غيرها وخصلة عشب رأيتها جميعها في جانب «غيرمانت»، معنى في مثل غموض ماضٍ سحيق وصعوبة إدراكه حتى إني كنت أظنّ، إذ تستدعيني إلى تعميق فكرة، أنّ عليّ التعرّف إلى ذكرى؟ أم هي لم تكن حتى تخفي فكرة وهو تعب في حاسّة الرؤية لديّ يريني إيّاها مزدوجة في الزمان مثلما يتم لنا أن نرى الأشياء مزدوجة في المكان؟ لست أدري. ولكنّها كانت تتقدم نحوي؛ ربّما كانت أشباحاً خرافية دائرية لساحرات أو لربّات الأقدار تعرض عليّ نبواءتها. وحسبتها بالأحرى أطيافاً من الماضي ورفاقاً أعزّاء من طفولتي وأصدقاء راحلين يستعيدون ذكرياتنا المشتركة، وكمثل أشباح تبدو كأنما تسألني أن أصطحبها وأردها إلى الحياة. كنت أتعرّف في حركاتها الساذجة المليئة بالحماسة الأسف العاجز الذي لحبيب فقد القدرة على الكلام ويحسّ أنه لن يستطيع أن يقول لنا ما يريد وما لا نفلح في تخمينه. وبعد قليل تخلّت عنها الطريق على مفرق طرق. كانت تذهب بي بعيداً عما أظنّ أنّه حقيقيّ وحده وكما لعلّه كان أسعدني بالحقيقة، فتشبه بذلك حياتي.

ورأيت الشجرات تبتعد وهي تلوّح بأيديها اليائسة كأنما تقول لي: ما لا تعلمه منّا اليوم لن تعرفه في يوم. فإن تركتنا نتهاوى في أقصى هذا الدرب الذي كنّا نحاول أن نرتفع منه إليك فإن جزءاً من ذاتك كنا نجيئك به سوف يهوي كلّه في العدم وإلى الأبد. ولئن لقيت فيما بعد نوع المتعة والاضطراب الذي خبرته مرّة أخرى منذ قليل وتعلّقت به ذات مساء - بعد فوات الأوان ولكن على مدى الأيّام - فإن لم أعلم في يوم من تلك الشجرات نفسها ما كانت تبغي أن تنقله إليّ ولا في أي مكان سبق لي أن شاهدتها. وحينما انعطفت السيّارة فأوليتها ظهري ولم أعد أراها، وفيما كانت السيّدة «دو فيلباريسيس» تسألني لماذا أبدو حالم المظهر، كنت حزيناً كما لو اتفق لي أن أفقد صديقاً أو أن أموت لذاتي أو أن أنتشل ميتاً أو أنكر إلهاً.

كان لا بد من التفكير في العودة. وكانت السيّدة «دو فيلباريسيس» التي تملك شيئاً من حسّ الطبيعة أبعد عن التأثر مما تملك جدّتي ولكنّها تجيد التعرّف حتى خارج المتاحف والمنازل الأرستقراطيّة إلى الجمال البسيط والعظمة الكامنين في بعض الأشياء القديمة، كانت تقول للحوذيّ أن يسلك طريق «بالبيك» القديمة وهي قليلة الروّاد ولكنّما تكتنف جانبيها أشجار دردار معمرة كانت تبدو رائعة لناظرينا.

وبعد ما عرفنا هاتي الطريق القديمة عدنا، بغية التغيير، في طريق أخرى، ما لم نكن سلكناها في الذهاب، طريق تخترق غابتي «سانترين» و«كانتلو». كانت العصافير المحتجبة التي لا تحصى والتي تتجاوب بالقرب منّا في الشجر تخلّف ذات الإحساس بالهدوء الذي يغمرنا ساعة نطبق عينينا. كنت أصغي وأنا مقيّد على مقعدي الجانبيّ مثل «بروميثيوس» على صخرته إلى حوريّات البحار. وحينما كنت ألمح بالصدفة أحد تلك العصافير يمرّ من ورقة تحت أخرى فقد كان بينه وبين ذلك الغناء النزر اليسير من الرباط الظاهر حتى ما كنت أحسبني أرى سبب هذا الغناء في هذا الجسم الصغير المتنقّل المستعجب الذي لا بصر له.

كانت تلك الطريق شبيهة بالكثير غيرها ممّا يُشَاهَدُ في فرنسا تصعد وفق ميل على شيء من القسوة ثم تذهب في انحدار طويل. ولم ألق فيها في ذلك الحين نفسه فتنة كبيرة إذ كنت مسروراً بأن أعود فحسب. بيد أنها أصبحت بعد ذاك في نظري علّة مسرّات إذ ظلّت في ذاكرتي بمثابة بداية اتّصلت بها في الحال، دون أن يحدث انقطاع، جميع الطرقات المشابهة التي قد أمُرُّ عليها فيما بعد أثناء نزهة أو رحلة ويمكن بفضلها أن تتواصل مباشرة مع فؤادي. فما إن تسلك العربة أو السيّارة واحدة من تلك الطرقات التي تبدو وكأنها مواصلة لتلك التي سبق أن اجتزتها مع السيّدة «دو فيلباريسيس» فإنَّ ما سوف يستند إليه في الحال شعوري الراهن وكأنّما إلى ماضيَّ الأقرب مني إنّما هي (بعد ما تتلاشى السنوات التي تفصل بينها) الانطباعات التي تمّت لي في أوقات ما بعد الظهر تلك وأنا في نزهة

بالقرب من «بالبيك» حينما كانت الأوراق ترسل شذاها الطيّب ويرتفع الضباب ويبدو غروب الشمس للعين، ما وراء القرية التالية، وكأنّه بين الأشجار قرية أخرى حراجية بعيدة لن نصل إليها في المساء نفسه. وسوف تتعزّز تلك الانطباعات وقد رُبِطَتْ بتلك التي كنت أحسّ بها الآن في منطقة أخرى وعلى طريق مشابهة إذ تحيط نفسها بجميع الأحاسيس الثانوية التي تجمع بينها من هواء نقيّ وفضول وكسل وشهيّة ومرح وتستبعد كلّ ما عداها، وتتّخذ بذلك قوام نمط خاصّ من المتعة وما يقارب إطاراً حياتيّاً لا يتسنّى لي لقاؤه ثانية إلا فيما ندر على أيّة حال، ولكنّ استفاقة الذكريات فيه كانت تضع وسط الواقع المدرك على الصعيد الماديّ قسطاً لا بأس به من الواقع المستذكر المختلط بالأحلام المتهرّب كي يوقظ فيّ وسط هذه المناطق التي أمرّ فيها أكثر من شعور جمالي، كي يوقظ فيّ رغبة عابرة، ولكنّها ثائرة، في العيش فيها مذ ذاك إلى الأبد. فكم مرّة بدا لي الجلوس على مقعد جانبيّ قبالة السيّدة «دو فيلباريسيس» والالتقاء بأميرة «لوكسمبور» التي كانت تبعث إليها بتحيّاتها من عربتها والعودة للعشاء في الفندق الكبير، لمحض أنّي شممت رائحة أوراق الشجر، بمثابة سعادة من تلك التي تمتنع على الوصف لا يستطيع لا الحاضر ولا المستقبل أن يردّاها ولا يتذوّقها المرء إلا مرّة واحدة في الحياة.

وكثيراً ما حتى كانت تغرب الشمس قبل أن نعود، فأذكر بوجل للسيّدة «دو فيلباريسيس»، وأنا أدلّها على القمر في السماء، هذه العبارة الجميلة أو تلك لِـ«شاتوبريان» أو «فينيي» أو «فيكتور هوغو»: «كان يسكب سرّ الكآبة القديم ذاك» أو «يبكي مثل «ديانا» على حافّة ينابيعها» أو «كان الظلام زفافيّاً جليلاً مهيباً». وكانت تسألني قائلة:

- «وترى أن ذلك جميل و«عبقريّ» حسبما تقول؟ سأقول لك إني أعجب دوماً إذ أرى أنّ الناس يأخذون الآن على مجمل الجدّ أشياء كان أصدقاء هؤلاء السادة أوّل من يسخر منها فيما هم يقرّون تماماً بمزاياهم. فلم يكن الناس يجودون بلقب عبقري كمثل يومنا هذا الذي إن تقل لكاتب

فيه إنّه لا يملك سوى الموهبة حسب ذلك شتيمة. إنّك تذكر لي جملة كبيرة للسيّد «دو شاتوبريان» حول ضوء القمر. وسترى أنّ لديّ ما يدفعني إلى معارضة ذلك. فكثيراً ما كان يجيء السيّد «دو شاتوبريان» إلى منزل والدي. وكان على أيّ حال محبّباً حينما نكون وحدنا، فقد كان حينذاك بسيطاً مسلّياً، بيد أنّه ما إن تيسّر له جماعة حتى يأخذ في التصنّع فيضحي مثيراً للسخرية. كان يدّعي في حضرة والدي أنه ألقى باستقالته في وجه الملك وأنّه أدار أعمال مجمع انتخاب البابا، ويفوته أنّه كلّف والدي بنفسه كي يرجو الملك استعادته وأنّ والدي سمعه يجود بأكثر التخمينات بعداً عن المعقول حول انتخاب البابا. كان ينبغي أن تسمع حول هذا المجمع الانتخابيّ الشهير السيّد «دو بلاكاس»، وهو من غير طينة السيّد «دو شاتوبريان». أمّا في ما يخصّ جمل هذا الأخير حول ضوء القمر فقد أضحت بكل بساطة عبئاً على المنزل. فكلّما اتفق أن تكون الليلة قمراء حول القصر وكان ثمة مدعوّ جديد كان يُشار عليه أن يصطحب السيّد «دو شاتوبريان» لاستنشاق الهواء بعد العشاء. ولم يكن يفوت والدي حينما يعودان أن ينفرد بالضيف: «هل كان السيّد «دو شاتوبريان» شديد البلاغة؟» - أجل. - حدّثك عن ضياء القمر. - نعم، وكيف عرفت ذلك؟ - «مهلاً، أما قال لك؟» ويذكر له الجملة. - «أجل، ولكن أيّ سرّ في الأمر؟» - «وقد حدثك حتى عن ضياء القمر فوق ريف روما». - «ولكنك ساحر». ولم يكن والدي ساحراً ولكنّ السيّد «دو شاتوبريان» كان يكتفي دوماً بتقديم المقطوعة الجاهزة نفسها.

ولدى سماع اسم «دو فيني» أخذت في الضحك.

- «ذاك الذي كان يقول: «أنا الكونت ألفريد دو فدينيي». قد يكون المرء «كونت» أو لا يكون، فليس للأمر أيّة أهميّة».

وربّما وجدت أن في الأمر مع ذلك بعض الأهميّة إذ كانت تضيف قولها:

- «لست متيقّنة بادئ الأمر أنّه حمل اللقب، وكان على أيّة حال من

سلالة هيّنة جدّاً ذلك السيّد الذي روى في قصائده عن «شعار أسرته النبيلة». فما أرفع الذوق وما أكثر ما يثير القارئ! ذلك من قبيل ما كان يقول «موسّيه»، وهو محض بورجوازيّ من باريس، بلهجة فخمة: «الباشق الذهبيّ الذي تزدان به خوذتي». إن سيّداً عظيماً حقّاً لا يتفوّه البتّه بمثل هذه الأمور. كان «موسّيه» يتمتّع ببعض الموهبة على الأقل بوصفه شاعراً. ولكنّي لم أستطع قطّ، فيما عدا كتاب «**سان مارس**»، أن أقرأ شيئاً للسيّد «دو فينيي»، فالسأم يُسقط الكتاب من بين يديّ. أمّا السيّد «موليه» الذي كان يتمتّع بذكاء وكياسة يساويان المقدار الذي ينقص السيّد «دو فينيي»، فقد تدبّر أمره على ما يرام وهو يستقبله في المجمع اللغوي. ما بك، ألا تعرف خطابه؟ إنّه رائعة من خبث ووقاحة.

وكانت تأخذ على «بلزاك»، وتدهش أن ينظر إليه أبناء أشقّائه بإعجاب، أنّه ابتغى وصف مجتمع «لم يكن يرحّب به» وروى عنه ألفاً من الأمور اللامعقولة، أمّا في ما يخصّ «فيكتور هوغو»، فقد كانت تقول لنا إنّ والدها السيّد «دو بويّون» الذي كان له رفاق بين الشباب الرومانتيكي قد دخل بفضلهم إلى العرض الأوّل لمسرحيّة «**هيرناني**» ولكنّه لم يستطع المكوث حتى النهاية لشدة ما وجد أشعار هذا الكاتب، وهو موهوب ولكنّه على شيء من الغلواء، مضحكة، ولم يسبغ عليه لقب الشاعر الكبير إلا بفضل مقايضة وبمثابة مكافأة لقاء التسامح المغرض الذي نادى به إزاء هذيان الاشتراكيّين الخطير.

وأخذنا نلمح الفندق وأضواءه الشديدة العداء في المساء الأوّل لدى وصولنا، وقد أضحت الآن حامية عذبة تنبئ بدفء المنزل. وحينما كانت تصل العربة على مقربة من الباب كان البوّاب والخدم وعامل المصعد، بفيض من المجاملة والسذاجة والقلق اليسير من جرّاء تخلّفنا، يتجمهرون على الأدراج بانتظارنا، وأضحوا، بعد ما ألفناهم، من تلك الكائنات التي ما أكثر ما تتبدّل أثناء حياتنا مثلما نتبدّل بدورنا ولكنّنا نجد فيها، لحظة تصبح إلى حين مرآة عاداتنا، عذوبةً في أن نحسّ أنّ صورتنا تنعكس فيهم

بأمانة وصداقة. وإنّنا نفضّلها على أصدقاء لم نرهم منذ فترة طويلة لأنها تتضمن قسطاً أوفر ممّا نحن عليه في الحالة الراهنة. وحده الخادم ذو الحلّة جيء به إلى الداخل، وقد تعرّض لأشعة الشمس في النهار، كي لا يعاني من قسوة العشيّة وقد لُفّ بأقمشة صوفيّة كانت تذكّر، إذا ما قرنت بكآبة شعره البرتقالي وتورّد وجنتيه الغريب، كانت تذكّر وسط الردهة المزجّجة بنبتة يحفظونها من البرد داخل دفيئة. كنّا ننزل من العربة ويساعدنا في ذلك عدد من الخدم يفوق ما يلزم، ولكنّهم كانوا يحسّون بأهميّة المشهد ويظنون أنّهم ملزمون بأداء دور فيه. وكنت أشعر بجوع شديد، فكنت لذلك لا أصعد في الغالب، كي لا أؤخّر ساعة العشاء، إلى الغرفة التي أصبحت في نهاية المطاف غرفتي على نحو حقيقي إلى حدّ أنّ رؤية الستائر الكبيرة البنفسجيّة والمكتبات الواطئة إنما أصبحت تساوي أن ألقى نفسي وحيداً مع هذه الأنا نفسها التي كانت الأشياء، كما الناس، تقدّم لي صورتها، وكنّا ننتظر جميعنا في البهو أن يُقبل رئيس الخدم ويقول لنا إن الطعام جاهز. كانت تلك أيضاً فرصة لنستمع إلى السيّدة «دو فيلباريسيس».

- «إننا نتمادى في استغلالك» تقول جدّتي.

- «كيف ذلك، إني في غاية السرور وأجد ذلك رائعاً»، تجيب صديقتها بابتسامة مغناجة وهي تسرع في أدائها بلهجة رخيمة تتعارض وبساطتها المعتادة.

ذلك أنّها لم تكن بالفعل طبيعيّة في تلك اللحظات، فقد كانت تذكر تربيتها والأساليب الأرستقراطية التي يجدر بسيّدة كبيرة أن تُظْهِر بها للبورجوازيّين أنها سعيدة لوجودها معهم وأنْ لا عجرفة لديها. والتقصير الوحيد على صعيد التهذيب الحقيقي لديها كان يكمن في فرط مجاملاتها، فقد كنت تُدْرِك فيها تلك العادة المهنيّة لدى سيّدة من ضاحية «سان جيرمان» ترى على الدوام في بعض البورجوازيّين جماعة قُدِّرَ عليها أن تثير استياءهم في هذا اليوم أو ذاك فتستغلّ أشدّ الاستغلال جميع الفرص التي

يتسنّى لها فيها في سجل حسابات لطافتها معهم أن تسجل تقدّماً برصيد دائن يسمح لها بعد قليل أن تسجل في حقل الديون العشاء أو اللقاء الذي لن تدعوهم إليه. وهكذا فإن حسّها الطبقيّ، بعد ما أثّر فيها بالأمس تأثيراً نهائيّاً ولا يعلم أنّ الظروف أصبحت غيرها الآن وأنها ستتمنّى في باريس أن تلقانا كثيراً في بيتها، إن حسّ السيّدة «دو فيلباريسيس» الطبقي كان يدفعها بحماس محموم، وكأنّما الوقت المهيأ كيما تبدو لطيفة أضحى قصيراً، إلى أن تضاعف معنا، إذ نحن في «بالبيك»، من إرسال الورود والشمّام وإعارة الكتب والمشاوير في عربتها وصنوف العبارات العاطفيّة. وبذلك ظلّت ملاطفات السيّدة «دو فيلباريسيس» اليومية وكذلك السهولة المؤقّتة الصيفيّة التي كانت جدّتي تتقبّلها بها - شأنهما في ذلك شأن تألّق الشاطئ المبهر وتأجّج الحجرات المتعدّدة الألوان وأنوارها تحت مياه المحيط، وحتى شأن دروس الفروسية التي كان يتمّ فيها تأليه بعض أبناء التجّار على غرار الإسكندر المقدوني - ظلّتا في ذاكرتي بمثابة علامات مميّزة لحياة حمّامات البحر.

- «هيّا سلّموا معاطفكم كي يحملوها إلى فوق».

وكانت جدّتي تسلّمها للمدير، ويأخذني الأسف بسبب لطائفه معي لقلّة المراعاة هذه التي يبدو أنّه يعاني منها.

- «أظنّ أن هذا السيّد جُرح في كبريائه» تقول المركيزة. «إنه يحسب نفسه على الأرجح سيّداً أكبر من أن يأخذ شالاتكم. إنّي أذكر الدوق «دو نمور»، وكنت صغيرة جدّاً بعد، وهو يدخل على والدي الذي كان يقطن الطابق الأخير في فندق «بويّون» يحمل حزمة كبيرة تحت ذراعه ورسائل وصحفاً. وأحسبني أرى الأمير بلباسه الأزرق في إطار بابنا الذي صنع من خشب جميل، وكان يقوم بذلك «باغار» فيما أعتقد، تلك القضبان الدقيقة، كما تعلمون، والمرنة إلى حدّ أنّ نجّار الأبنوس كان يجعلها تؤلّف أحياناً من العقد الصغيرة والأزهار كأنّما شرائط تُعقد حول باقة. وقال لوالدي: «خذ يا «سيروس»، هذا ما أعطاني بوابك من أجلك». لقد قال لي:

«بما أنّك ذاهب لدى السيّد الكونت فلا داعي لصعود الطوابق ولكن احرص ألّا تتلف الحبل». ثمّ تقول لجدّتي وهي تأخذ بيدها: «الآن وقد سلَّمتِ أغراضك اجلسي، هيّا اقعدي ههنا».

- «إن كان الأمر سواء لديك فلن أجلس في هذا المقعد فهو أصغر من أن يتّسع لاثنين وكبير عليّ وحدي فلن أرتاح فيه».

- «إنك تذكّرينني بمقعد ظلّ عندي لفترة طويلة، لقد كان بالتمام كهذا المقعد نفسه، ولكنّي لم أستطع الاحتفاظ به في النهاية لأنّ دوقة «دو برالان» التعيسة هي التي أعطته لوالدتي. ولم تشأ والدتي بادئ الأمر. مع أنها كانت أكثر الناس بساطة، ولكنّها لا تزال تحتفظ بأفكار جاءت من عصر آخر ولم أكن منذ ذلك الحين أدركها تمام الإدارك، لم تشأ أن يقدّموها للسيّدة «دو برالان» وكانت بَعدُ آنذاك الآنسة «سيبستياني»، فيما ترى هذه الأخيرة أنّه لا يقع عليها بما أنها دوقة أن تقدّم نفسها». وتضيف السيّدة «دو فيلباريسيس»، وقد فاتها أنها لا تدرك هذا النوع من الفوارق الطفيفة: «وحتى لو لم تكن سوى السيّدة «دو شوازول» لكان ادّعاؤها وارداً بالحقيقة. فآل «شوازول» هم خيرة كبار القوم ويتحدّرون من شقيقة للملك لويس الثخين وكانوا ملوكاً حقيقيّين في منطقة «باسّينيي». صحيح أنّنا نبزّهم بالمصاهرات وذيوع الصيت ولكنّ القدم واحد تقريباً. وقد نجم عن مسألة الأفضليّة هذه حوادث مضحكة كمثل غداء قُدّم بعد ساعة ويزيد استغرقتها إحدى السيّدات لتوافق على أن يُعَرَّف بها. وقد أصبحتا على الرغم من ذلك صديقتين حميمتين وقد أعطت والدتي مقعداً من نمط هذا المقعد كان كلّ واحد يرفض الجلوس فيه مثلما فعلت قبل حين. وذات يوم سمعت والدتي عربة تدخل إلى باحة فندقها وسألت خادماً صغيراً من عساه يكون. «إنها السيّدة دوقة لاروشفوكو، يا سيّدتي الكوتيسّة». - «حسن، سأستقبلها». وانقضى ربع ساعة ولا أحد: «عجباً! أين عساها تكون السيّدة دوقة لاروشفوكو؟» - «إنها على الأدراج تفقد أنفاسها يا سيّدتي الكونتيسّة»، يقول الخادم الصغير الذي وصل منذ قليل من الريف

حيث تعوّدت والدتي لحسن حظّها أن تأخذهم، وكثيراً ما حضرت ولادتهم. فهكذا تجد في بيتك خدماً طيّبين، وذلك أوّل أنواع الترف. حتى كانت دوقة «لاروشفوكو» بالفعل تصعد بمشقّة إذ كانت ضخمة شديدة الضخامة حتى إنّ والدتي، لدى دخولها، ساورها القلق مقدار لحظة وهي تتساءل أين يمكن أن تجلسها. واسترعى انتباهها في تلك اللحظة المقعد الذي أعطتها إيّاه السيّدة «دو برالان» فقالت وهي تدفعه نحوها: «هلّا تفضّلت بالجلوس». وملأته الدوقة حتى حوافيه. على أنها ظلّت على الرغم من هذه الضخامة على شيء من الظرف. وكان أحد أصدقائنا يقول: «لا تزال تشيع حولها بعض الأثر حينما تدخل». «إنها تفعل على الخصوص حينما تخرج». تجيب أمي التي كانت تجيئها الكلمة أقلّ لياقة ممّا يمكن القبول به اليوم. وما كانوا يلاقون حرجاً حتى في منزل السيّدة «دو لاروشفوكو» أن يسخروا في حضرتها من تقاطيعها الفضفاضة فتضحك أوّل من يضحك. وسألت والدتي السيّد «دو لاروشفوكو» ذات يوم جاءت فيه لزيارة الدوقة ولم تلمح، وقد استقبلها الزوج في المدخل، الزوجة التي كانت في شرفة في الزاوية القصوى: «أوحدك ههنا؟ أو ليست السيّدة «دو لاروشفوكو» موجودة؟ فإنّي لا أراها». فأجاب الدوق الذي اشتهر بآراء من أقلّ ما عرفت سداداً ولكنّه لا يخلو من شيء من الظرافة: «كم أنت لطيفة!».

وبعد ما أصعد مع جدّتي بعد العشاء كنت أقول لها إنّ الميزات التي كانت تفتننا لدى السيّدة «دو فيلباريسيس» كاللباقة والنعومة والبساطة والاتّضاع ربّما لم تكن قيّمة جداً بما أنّ الذين ملكوا أعلى درجاتها لم يبلغوا إلّا مبلغ «موليه» و«لوميني»، ولئن أمكن أن يجعل غيابها العلاقات اليوميّة غير مستحبّة فإنه لم يحل دون أن يضحي مزهوّون تنقصهم سلامة البصيرة ويسهل الضحك منهم مثل «بلوك»، لم يحل دون أن يضحوا «شاتوبريان» «وفينيي» و«هوغو» و«بلزاك» المتغطرسين الذين يفتقرون الى الرشاد ويسهل الاستهزاء بهم، كما فعل «بلوك».

إلّا أنّ جدّتي كانت تصرخ لدى سماع اسم «بلوك». ثم كانت تمتدح السيّدة «دو فيلباريسيس». وكما يُقال إن مصلحة الجنس هي التي توجّه ميول كل واحد على صعيد الحبّ وهي التي تجعل النساء النحيفات يبحثن عن الرجال السمان والسمينات عن النحاف كي يتكوّن الطفل كأقرب ما يكون إلى الوضع السويّ، كذلك كانت متطلّبات سعادتي التي تتهدّدها العصبيّة وميلي المرضيّ إلى الكآبة والعزلة هي التي تجعلها على نحو غامض تولي المقام الأوّل لميزتَي الاعتدال وسداد الرأي الخاصتّين لا بالسيّدة «دو فيلباريسيس» فحسب بل بمجتمع أستطيع أن ألاقي فيه تسلية وهدوءاً - مجتمع شبيه بالذي تفتّح فيه ذكاء أمثال «دودان» و«ريموزا»، فضلاً عن «بوسيرجان» و«جوبير» و«سيفينييه»، ذلك الذكاء الذي يضع في الحياة مقداراً من السعادة والكرامة أكبر ممّا تفعل صنوف الإفراط المناقضة التي قادت أمثال «بودلير» و«بو» و«فيرلين» و«رامبو» إلى عذابات وفقدان اعتبار لا تبتغيها جدّتي لحفيدها. وكنت أقاطعها لأعانقها وأسألها إن هي لاحظت جملة قالتها السيّدة «دو فيلباريسيس» وفيها تَبْرُزُ المرأة التي تتمسّك بمحتدها أكثر ممّا تُقِرُّ بالأمر.

وهكذا كنت أضع بين يدي جدتي انطباعاتي لأنّني ما عرفت قطّ مقدار الاعتبار الواجب لأحد الناس إلا بعد ما تدلّني على ذلك. وفي كلّ مساء كنت أبادر وأحمل إليها الرسوم السريعة التي استوحيتها في النهار من جميع تلك الكائنات اللا موجودة التي لم تكن هي.

وذات مرة قلت لها: «لن أستطيع العيش بدونك». فأجابتني بصوت مضطرب: «ذلك ما لا يجدر بنا. يجب أن نصنع لنا قلباً أكثر قسوة من ذلك، وإلا فما الذي يحلّ بك إن ذهبتُ في رحلة؟ أملي على العكس أنك ستكون كثير التعقل شديد السعادة». - «يمكنني أن أكون متعقلاً إن ذهبتِ لبضعة أيام ولكن سوف أعد الساعات». -«فلو ذهبت لشهور....، (ولمجرد هذه الفكرة أخذ قلبي ينقبض) بل لسنوات...، بل لِ...».

ونصمت كلانا، ولا يجرؤ أحدنا على النظر إلى الآخر. بيد أني كنت

أعاني من قلقها أكثر مما أعاني من قلقي، فاقتربت لذلك من النافذة وقلت لها بصوت واضح وأنا أشيح بعيني عنها:

- «تعلمين إلى أي حد أنا رجل عادات. فإني تعيس في الأيام الأولى التي تمّ فيها انفصالي عن الناس الذين أحبهم أكثر ما أحب. إلا أني أتعود فيما أظل على مقدار الحب نفسه لهم، وتضحي حياتي هادئة عذبة. وقد أتحمل فراقهم شهوراً وسنين...».

واضطررت أن أصمت وأن أنظر كلياً من النافذة. وخرجت جدتي لحظة من الغرفة. ولكني أخذت أتحدث في الغد عن الفلسفة بلهجة من أكثرها لامبالاة، بيد أني تدبرت أمري كي تنتبه جدتي لأقوالي وقلت إن الأمر الغريب وإن المادية تبدو وكأنها باطلة بعد مكتشفات العلم الأخيرة وإن المرجح لا يزال خلود الأنفس واجتماعها الآتي.

أبلغتنا السيّدة «دو فيلباريسيس» أنها لن تستطيع عما قليل لقاءنا كثيراً كذي قبل، ذلك أن ابناً شاباً لابنة شقيق لها يعدّ لمدرسة «سومور» وهو الآن في ثكنة في الجوار في قرية «دونسيير»، يزمع المجيء ليقضي بالقرب منها عطلة تمتد بضعة أسابيع وسوف تصرف له الكثير من وقتها، وكانت قد امتدحت لنا في أثناء نزهاتنا ذكاءه الكبير وعلى وجه الخصوص طيبة قلبه. وكنت أتصور مذ ذاك أنه سيشعر بالود نحوي وأنني سوف أكون صديقه المفضّل، وحينما ألمحت عمتّه لجدتي قبل مجيئه أنه وقع لسوء الحظ بين مخالب امرأة سيئة السيرة جُنّ بحبّه ولن تدع له أن يفلت، ولما كنت متيقناً أن هذا النوع من الحب إنما يفضي حتماً إلى الجنون والجريمة والانتحار وفكّرت في الوقت القصير جداً المخصص لصداقتنا، وقد تعاظمت في فؤادي دون أن أكون رأيته بعد، أخذت أبكيها وأبكي المصائب التي تنتظره وكأنما أبكي شخصاً عزيزاً نُقِلَ إلينا منذ قليل أنه مصاب بمرض خطير وأن أيامه معدودة.

وفي إحدى فترات ما بعد الظهر القائظة كنت في غرفة طعام الفندق التي تركت نصف مظلمة لِيَقوها حر الشمس، وذلك بإسدال ستائر كانت

تصفّرها فيما تدع هذه لزرقة البحر أن ترفّ بين شقوقها، حينما أبصرت في الممر الأوسط الذي ينطلق من الشاطئ على الطريق شاباً يمر طويل القامة نحيفاً مديد العنق يرفع الرأس عالياً باعتزام، شاباً حادّ العينين له بشرة شقراء وشعر ذهبي يبدو وكأنه امتص أشعة الشمس كلها. كان يسير مسرعاً وقد ارتدى قماشاً طيّعاً يميل إلى البياض ما كنت أحسب قط أن رجلاً يجرؤ أن يرتديه. وكانت عيناه بلون البحر وعن إحداهما يهوي في كل لحظة زجاج نظارة. ونظر كل باستغراب إليه وهو يمر، وكانوا يعلمون أن هذا المركيز الشاب الذي من أسرة «دو سان لو آن بريه» معروف بأناقته. فقد سبق لجميع الصحف أن وصفت البزة التي قام فيها منذ وقت قريب بدور الشاهد لدوق «أوزيس» الشاب في مبارزة. كان يبدو أن الميزة الخاصّة في شعره وعينيه وبشرته وهيئته، ولعلها كلها كانت تميّزه وسط الجمهور على غرار عرق ثمين من حجر عين الهرّ أزرق منوّر تغلّفه مادة خام، إنما ينبغي أن تقابلها حياة تغاير حياة الناس الآخرين ونتيجة لذلك وحينما تنافست عليه أجمل نساء المجتمع الراقي قبل العلاقة التي اشتكت منها السيّدة «دو فيلباريسيس» كان وجوده على شاطئ مثلاً بالقرب من الجميلة الذائعة الصيت التي كان يخطب ودّها لا يبرزها أتم الإبراز فحسب بل يجذب الأنظار إليه وإليها على حد سواء. وإنما ذلك بسبب أناقته ووقاحة الأسد الغضنفر لديه وبسبب جماله الخارق على وجه الخصوص، والبعض يرى أنه يبدو حتى مخنثاً، ولكنهم لا يأخذون عليه ذلك لأنهم يعلمون مقدار رجولته وأنه كان شغوفاً بحب النساء. وكان ابن قريبة السيّدة «دو فيلباريسيس» ذاك الذي حدثتنا عنه. وابتهجتُ لفكرة أنني سوف أعرفه على مدى بضعة أسابيع وتأكدت أنه سوف يمنحني كامل مودته. واجتاز بخطى سريعة كامل عرض الفندق وكأنه يلاحق نظارته ذات الزجاجة الواحدة التي كانت ترفرف كفراشة أمامه. كان آتياً من الشاطئ وكان البحر الذي يملأ زجاج الردهة إلى نصفه يصنع له خلفيّة يبرز عليها بكامل قامته كما هي الحال في بعض رسوم شخصية يبغي فيها بعض الرسامين، دونما احتيال من

أي نوع على أدق أنواع الملاحظة للحياة الحالية ولكن بانتقاء إطار مناسب لنموذجهم كمرج للعب البولو أو الغولف وميدان سبق وسطح يخت، تقديم مقابل حديث لتلك اللوحات التي كان يبرز فيها المعلمون الأوائل الصورة البشرية في الموقع الأول من المنظر الطبيعي. حتى كانت تنتظره أمام الباب عربة بجوادين. وفيما كانت نظارة ابن قريبة السيّدة «دو فيلباريسيس» تستأنف قفزاتها المرحة على الطريق المشمسة أقدم هذا الأخير، بالأناقة والسلطان اللذين يفلح عازف بيانو كبير في إبرازهما في أكثر اللمحات بساطة حيث لم يكن يبدو ممكناً أن يفلح في إظهار تفوقه على عازف من الدرجة الثانية، فأخذ الزمام الذي سلمه إياه الحوذي وجلس بالقرب منه وأطلق العنان للجياد فيما كان يفضّ رسالة سلّمه إياها مدير الفندق.

ولكن بأية خيبة أصبت في الأيام التالية حينما تبينت، في كل مرة لقيته فيها في الخارج أو في الفندق - بياقته العالية وهو يوازن باستمرار حركات أعضائه حول نظارته المتهربة المتراقصة التي تبدو وكأنها مركز ثقلها -، أنه لا يحاول التقرّب منا رأيت أنه لا يحيينا مع أنه ما كان يمكن أن يجهل أننا أصدقاء عمته! وإذ تذكرت اللطافة التي سبق أن أبدتها لي السيّدة «دو فيلباريسيس» والسيّد «دو نوربوا» من قبلها أخذت أحسب أنهما ربما كانا نبيلين من الصنف الممازح وأن ثمة لا بدّ بنداً خفياً في القوانين التي تحكم الطبقة الأرستقراطية ربما سمح للنساء ولبعض الدبلوماسيين أن يتخلوا في علاقاتهم مع الطبقة الدنيا ولسبب كنت أجهله عن الغطرسة التي كان ينبغي لمركيز شاب أن يمارسها على العكس ممارسة لا رحمة فيها. كان يمكن لعقلي أن يقول لي خلاف ذلك. ولكن خاصية السن المضحكة التي كنت اجتازها - وليست جدباء على الإطلاق بل هي شديدة الخصب - قوامها أننا لا نستشير العقل فيها وأن أقل صفات الأشخاص تبدو وكأنها جزء لا يتجزأ من شخصيتهم. فالمرء لا يعرف الهدوء إذ تحيط به من كل جانب الوحوش والآلهة. وليس من حركة على وجه التقريب بدرت منا آنذاك إلا ونود فيما بعد لو نستطيع شطبها. على أن ما ينبغي أن نأسف له على

العكس فإننا لا نملك من بعد العفوية التي كانت تدفعنا إلى القيام بها. وإنما يرى المرء الأمور فيما بعد رؤية عملية وفي توافق تام مع باقي المجتمع، ولكن سن المراهقة هو الزمن الوحيد الذي تعلمنا فيه شيئاً.

وقد لاقت تلك الوقاحة التي كنت أستشفها لدى السيّد «دو سان لو»، مع كل ما تتضمنه من قسوة طبيعية، ما يؤكدها في موقفه منا كل مرة كان يمر فيها بالقرب منا بجسمه الفارع المنتصب دوماً ورأسه المرفوع ونظرته الثابتة، بل القاسية إذ الكلمة لا تفي بالغرض تماماً، الخالية من ذاك الاحترام الغامض الذي نكنّه لحقوق المخلوقات الأخرى وإن لم تكن تعرف عمتك والذي كان من شأنه أني لم أكن واحداً أمام سيدة عجوز وأمام مصباح غاز. كانت تلك التصرفات الشديدة الجفاء بعيدة عن الرسائل الساحرة التي كنت لبضعة أيام خلت أتخيّل أنّه يسطّرها لي ليبثني ودّه بقدر ما تبعد عن حماسة المجلس والشعب الذي تَصَوَّرَ مريضُ الخيال أنّه يستثيره بخطاب باقٍ على الأيام حالته الباهتة المغمورة إذ يلفي نفسه، بعدما حلم وحده لحسابه الخاص وفي العلن، وبعدما هدأت الهتافات الخياليّة، يعود بخفّي حنين. وحينما عادت السيّدة «دو فيلباريسيس» فحدّثتنا، تحاول دون شكّ أن تمحو الانطباع السيئ الذي خلفته فينا تلك المظاهر التي تنمّ عن طبيعة متعجرفة وشريرة، حينما حدّثتنا عن طيبة حفيدها التي لا تنضب (وكان ابن إحدى بنات أشقائها ويكبرني بقليل) عجيب كيف يضفون في المجتمع، خلافاً لكل حقيقة، صفات الطيبة على من قلبهم حجر حتى ولو كانوا لطافاً من ناحية أخرى مع أشخاص لامعين ينتمون إلى وسطهم. وأضافت السيّدة «دو فيلباريسيس» نفسها، وإن على نحو غير مباشر، توكيداً للملامح الأساسيّة، وهي أكيدة بالنسبة إليّ، التي تسم طبيعة ابن قريبتها في يوم التقيت فيه بكليهما في طريق ضيّقة إلى حدّ أنه لم يسعها إلا أن تعرّفه بي. وبدا وكأنّه لم يسمع أن اسماً يُذكر أمامه فلم تهتزّ عضلة في وجهه. وأبرزت عيناه اللتان لم يلتمع فيهما أي نور ضعيف ينمّ عن توادّ إنساني، إفراطاً في جمود اللحظ ولا جدواه ولعلّه ما من أمر لولاه كان يميزهما عن

مرآتين لا حياة فيهما. ثم حدّق إليّ بتينك العينين القاسيتين كما لو يودّ الاستعلام عنّي قبل أن يردّ لي تحيتي ومدّ بحركة مفاجئة بدت وكأنها تنجم عن منعكس عضليّ أكثر منها عن فعل إرادي مدّ ذراعه بكامل طولها وفتح لي يده عن بعد وقد جعل بيني وبينه أكبر مسافة فاصلة ممكنة. وحينما بعث إليّ في الغد ببطاقته حسبت أن الأمر أمر مبارزة على الأقل. ولكنّه لم يحدّثني إلا عن الأدب وأعلن بعد حديث طويل أنه راغب أشدّ الرغبة أن يلقاني عدّة ساعات كل يوم. ولم يبرهن في أثناء هذه الزيارة عن ميل شديد جدّاً إلى أمور الفكر فحسب، بل أعرب لي عن ودّ لا يماشي كثيراً تحية البارحة. وحينما رأيته يكرر تلك التحية كلما يعرّفونه بأحدهم أدركت أنها مُجرّد عادة اجتماعية ينفرد بها قسم من أسرته وقد أكسبت أمُّه جسمه تلك العادة، وكانت شديدة الاهتمام أن يُحْسَنَ تهذيبه على نحو رائع. كان يقوم بتلك التحيات دون أن يفكر فيها أكثر مما يفكر بأثوابه الجميلة وبشعره الجميل. وكان الأمر خلواً من الدلالة الأخلاقية التي أوليته إياها بادئ ذي بدء، وشيئاً تعلمه محض التعلم كمثل تلك العادة الأخرى التي تعوّدها، في أن يطلب تقديم نفسه في الحال إلى ذوي من كان يعرفه والتي أضحت لديه غريزيّة إلى حدّ أنّه انقضّ عليّ إذ رآني غداة لقائنا وسألني دون أن يحييني أن أذكر اسمه لجدتي التي كانت بالقرب مني بالسرعة المحمومة نفسها التي تعصف به لو أن هذا الطلب ناجم عن غريزة دفاعيّة كالحركة التي يتّقي بها ضربة أو يطبق بها عينيه أمام رشقة ماء يغلي والتي لعله كان من الخطر بدونها أن يمكث ثانية أخرى.

ورأيت بعد انقضاء طقوس التعاويذ الأولى هذا الكاهن المستخف يضْحي ألطف شاب ألتقيته في يوم ومن أكثرهم تودداً كمثل جنيّة شكسة تخلع مظهرها الأول وتزدان بصنوف الجمال والسحر. وقلت في نفسي: «حسن، لقد اغتررت بخصوصه ووقعت ضحية سراب ولكني لم أفز على الأول إلا لأقع في آخر، فهو سيد كبير شغوف بطبقة النبلاء ويحاول تخفية الأمر». بيد أنّ كل روعة تهذيب «سان لو» وسائر لطفه كانا سيكشفان لي

بعد انقضاء وقت قليل عن كائن آخر ولكنّه يختلف عن ذاك الذي كنت أشتبه به.

ذلك أن هذا الشاب الذي يبدو أرستقراطياً ورياضياً متعالياً لم يكن يكنّ احتراماً أو يبدي فضولاً إلا لأمور الفكر ولا سيما لهذه التظاهرات التحديثية في الآداب والفنّ التي كانت تبدو مدعاة لهزء عمته الشديد. وكان مشبعاً من جهة ثانية بما كانت تدعوه بالتشدّقات الاشتراكية ويفيض بأشدّ الاحتقار لطبقته ويقضي ساعات في دراسة «نيتشه» و«برودون». كان واحداً من أولئك المثقفين الذين يهزهم الإعجاب بسرعة ويسجنون أنفسهم بين دفتي كتاب، وهمهم سمو الفكر فحسب. ثم إن التعبير عن هذه النزعة المجردة إلى أبعد حدّ والتي كانت تبعد «سان لو» كثيراً عن مشاغلي المعتادة كان يزعجني بعض الشيء مع أنّه يبدو لي مؤثراً. وبوسعي أن أقول إني حينما علمت تمام العلم من كان والده ويوم فرغت من قراءة مذكرات زاخرة بالطرائف حول هذا الكونت المشهور المدعو «دو مارسانت» الذي يختصر الأناقة التي تمتاز بها إلى حدّ بعيد حقبةٌ أصبحت الآن بعيدة أصابني الحنق، وقد عمرت ذهني الأحلام ورغبت في الحصول على إيضاحات حول الحياة التي قضاها السيد «دو مارسانت»، أن تسامي «روبير دوسان لو» إلى حب «نيتشه» و«برودون»، عوضاً عن أن يكتفي بأن يكون ابن أبيه وأن يكون قادراً على توجيه خطاي عبر الرواية المتقادمة الطراز التي ألّفتها حياة هذا الأخير. وما كان والده ليشاطرني أسفي، فقد كان هو الآخر رجلاً ذكياً يتجاوز حدود حياته كرجل مجتمعات راقية. وإن لم يتسع له الوقت لمعرفة ابنه فقد تمنى أن يساوي هذا الأخير أكثر منه. ويقيني أنه كان سيعجب به، خلافاً لبقية الأسرة، ويغتبط أن يهجر ما ألف صنوف لهوه الهزيلة إلى تأملات جافة، وربما قرأ خفية، دون أن يبوح بالأمر بالتواضع الذي يميّز السيد الكبير الذكي، الكتّاب المفضلين لدى ابنه كي يقيس مدى تفوق «روبير» عليه.

كان ثمة على أي حال هذا الأمر الذي ينطوي على بعض الأسى

وقوامه أنه إن قدَّرَ السيّد «دو مارسانت» ذو العقل المنفتح إلى حد بعيد ابناً شديد الاختلاف عنه حق قدره فإن «روبير دو سان لو» بوصفه من جماعة تحسب أن الجدارة وقف على بعض صيغ الفنّ والحياة كان يحفظ ذكرى يملؤها الحنان ولكنما يخالطها شيء من الازدراء لوالد اهتم طوال حياته بالصيد وسباق الخيل وتثاءب في عروض «فاغنر» وشغف بنتاج «أوفنباخ». لم يكن «سان لو» على قدر من الذكاء كافٍ ليدرك أن القيمة الفكرية لا تمت بصلة إلى الالتزام بصيغة جمالية معينة وكان يخص «فكريّة» السيّد «دو مارسانت» إلى حد ما بنوع الازدراء نفسه الذي كان يمكن أن يبديه لـ«بوالديو» أو لـ«لابيش» ابن لـ«بوالديو» أو ابن لـ«لابيش» كانا من أنصار أكثر الأدب رمزية أو أكثر الموسيقى تعقيداً. كان «روبير» يقول: «كانت معرفتي بوالدي يسيرة جداً، ويبدو أنه كان رجلاً ظريفاً. مصيبته كانت العصر المؤسي الذي عاش فيه، فأن يولد المرء في ضاحية «سان جيرمان» ويعيش في عصر «**هيلين الجميلة**» أمر يؤدي إلى كارثة في حياة ما. ولو كان بورجوازياً صغيراً شغوفاً بالحلبة لتغير ربما عطاؤه، فمنهم حتى من يقول إنه كان يهوى الأدب. ولكن كيف لنا أن نعلم، وما كان يعنيه بالأدب إنما يتألف من أعمال فنية بالية فحسب». أمّا في ما يخصني فلئن كنت أجد «سان لو» على شيء من الجدية فإنه ما كان يفهم ألا أن أكون أكثر جدية. فإذ كان لا يقدر أمراً إلا بقدر ما يحتوي عليه من ذكاء ولا يدرك افتتان الخيال الذي توليني إياه بعض المؤلفات التي يحكم أنها سطحية، كان يعجب أن يمكنني الاهتمام بها أنا الذي كان يتصور، هو، أنه أدنى مني بكثير.

ومنذ الأيام الأولى كسب «سان لو» ودّ جدتي لا باللطف المستمر الذي كان يبذل قصارى جهده في الإعراب عنه لكلينا فحسب بل بالعفوية التي كان يطبعه بها كما يطبع كل شيء. والعفوية - لأنها دونما شك تسمح بتحسس الطبيعة خلف تفنن الإنسان - إنما كانت الصفة التي تفضلها جدتي على كل الصفات سواء أتجلت في الحدائق حيث لا تحب أن يكون ثمة

أحواض شديدة الانتظام كما هي حال حديقة «كومبريه»، أم في المطبخ حيث تكره تلك «التركيبات» التي تكاد لا تتعرف فيها الأطعمة التي استخدمت في إعدادها، أم في الأداء على البيانو الذي لا تريده بالغ التأنق مفرط الإتقان؛ وقد بلغ بها الأمر أن تبدي إعجاباً خاصاً بالنوطة المتعثرة وبالنوطة الناشزة لدى «روبنشتاين». تلك العفوية كانت تستسيغها حتى في ثياب «سان لو» وهي طيّعة لأناقة لا تزويق فيها ولا تصنّع، لا تيبّس فيها ولا نشاء. ويزيد من قدر هذا الشاب الغني لديها الطريقة اللامبالية الطليقة التي يبديها في العيش وسط البذخ دون أن تفوح منه رائحة المال ودون عجرفة، بل هي تلقي سحر تلك العفوية في العجز الذي لازمه - وهو يزول بعامّة مع الطفولة آن تزول بعض الخصائص الفيزيولوجية التي تسم تلك السن - في أن يحول دون أن يعكس وجهه انفعالاً ما. فإن أمراً كان يتوق إليه مثلاً ولا يتوقعه كان يبعث فيه، وإن اقتصر على كلمة تهنئة، غبطة مفاجئة لاهبة سريعة التصعد والانتشار إلى حد لا يقوى معه على احتباسها وإخفائها، فتحتل وجهه على نحو لا يقاوم التواءة السرور وتغشى بشرة خديه التي رقت بإفراط حمرة شديدة وتعكس عيناه الخجل والفرح - وكانت جدتي تتأثر أعمق التأثر بمظهر الصراحة والأناقة الرقيق هذا الذي ما كان على أية حال خدّاعاً لدى «سان لو»، على الأقل في الفترة التي ربطتني به الصداقة. على أني عرفت شخصاً آخر، ومثله كثيرين، لم تكن الصراحة الفيزيولوجية الكامنة في تلك الحمرة العابرة لتتنافى البتة لديه والمخادعة الأخلاقية، فكثيراً ما تقيم البرهان فحسب على الحدة التي تشعر بالمتعة حتى لتصاب بالعجز إزاءها وتضطر إلى الإعراب عنها للآخرين طبائع قادرة على أحط صنوف المكر. على أن ما كانت جدتي تعشقه على وجه الخصوص في عفوية «سان لو» هوالطريقة التي يقر بها دون مواربة بوداده لي والذي توافيه للتعبير عنه كلمات لعلها لا تستطيع أن تجد هي، فيما تقول، ما كان أكثر صحة ويتّسم بحب حقيقي، كلمات كانت تصدقها «سيفينييه» و«بوسيرجان». ولم يكن يجد حرجاً في الهزء

بمعايبي - التي اكتشفتها بدقة أشاعت المسرة في نفسها - ولكن بحنان، كما لعلها فعلت هي، فيما يشيد على العكس بفضائلي بحرارة واسترسال لا يعرف تحفظات الجفوة التي يظن فعامة شبان في سنه أنهم يولون بفضلها أهمية لأنفسهم. وكان يبدي في تفادي أقل إزعاج يلم بي وفي وضع أغطية فوق ساقي إن أخذ الطقس في البرودة دون أن أتنبه للأمر وفي تدبر أمره دونما إعلان عن ذلك للمكوث معي في المساء إلى ساعة متأخرة إن أحسّ أني حزين أو متعب الصحة، كان يبدي حذراً ترى جدتي أنه مبالغ فيه من وجهة نظر صحتي التي ربما كان مزيد من القسوة خيراً لها ولكنه كان يترك فيها أعمق الأثر بوصفه برهاناً على مودته لي.

وسرعان ما تم الاتفاق بيني وبينه أننا أصبحنا صديقين حميمين وإلى الأبد، وكان يقول «صداقتنا» كما لو تحدث عن أمر مهم ولذيذ كائن خارج ذواتنا وقد دعاه بعد قليل أفضل مسرة في حياته - إن وضعنا جانباً حبه لعشيقته. كانت تلك الأقوال تسبب لي ضرباً من الغم وكنت مربكاً في الاستجابة لها لأنني ما كنت أشعر في وجودي معه وفي التحدث إليه - ولعل تلك كانت حالي مع أي سواه - بشيء من تلك السعادة التي كان يمكن على العكس أن أحس بها حينما كنت بدون رفيق. فكنت أحس أحياناً وأنا وحدي أحد تلك الانطباعات التي توليني هناء لذيذاً تتدفق من أعماق نفسي. ولكن ما إن يتفق لي أن أكونه مع أحدهم، وما إن أتحدث إلى صديق حتى يعكس فكري مساره ويوجه أفكاره باتجاه محادثي هذا لا باتجاهي أنا، وحينما كانت تسير في هذا الاتجاه المعاكس كانت لا تكسبني أية متعة. فبعدما يتم لي فراق «سان لو» كنت أضع بوساطة كلمات نوعاً من الترتيب في الدقائق المشوشة التي قضيتها معه، فأقول في نفسي إن لديّ صديقاً طيباً، وإن الصديق الطيب أمر نادر. وكنت أتذوق في أن أحس أني محاط بخبرات عسيرة الاكتساب ما كان بالضبط عكس المتعة الطبيعية لدي، عكس المتعة الناجمة عن أنني استخرجت من ذاتي وحملت إلى النور أمراً كان دفيناً في عتمتي الداخلية. فإن قضيت ساعتين أو ثلاثاً

في التحدث مع «روبير دوسان لو» وكان أن أعجب بما قلت له، كنت أحس بنوع من تبكيت الضمير والأسف والتعب لأنني لم أظل وحدي وقد جهزت أخيراً للعمل. ولكني كنت أقول في نفسي: إن ذكاء المرء ليس وقفاً على نفسه وإن أعظم الناس قد رغبوا في التقدير وإنه لا يسعني احتساب ساعات كوّنت فيها عن نفسي فكرة رائعة في ذهن صديقي بمثابة الضائعة وأقنع نفسي بيسر أنه ينبغي لي أن أسعد بذلك وكنت أتمنّى ألا تنزع مني هذه السعادة في يوم تمنّياً يزداد شدة بقدر ما يتم لي الشعور به. فالمرء يخشى أكثر ما يخشى زوال خبرات ظلّت خارج ذواتنا لأن فؤادنا لم يستول عليها. كنت أحسني قادراً على ممارسة فضائل الصداقة خيراً من كثيرين غيري (لأنني أقدم دوماً خير أصدقائي على تلك المصالح الشخصية التي يتعلق بها الآخرون ولا تساوي شيئاً في نظري) لا على بلوغ الفرح من جراء شعور يزيل الفوارق الكائنة بين نفسي ونفوس الآخرين - مثلما هنالك فوارق بين نفوس كل واحد منا - عوضاً عن أن يزيدها. وفي مقابل ذلك كان فكري بين حين وآخر يتبين في «سان لو» كائناً أعمّ منه هو «النبيل» كان يحرك أعضاءه ويرتب حركاته وأعماله وكأنه روح داخلية. حينئذ كنت وحيداً في تلك اللحظات، مع أني بالقرب منه، كما لعلني كنته أمام منظر طبيعي أدركت التناسق فيه. ذلك أنه لم يكن من بعد سوى موضوع يسعى حلمي إلى تعميقه. كنت أحس فرحاً شديداً أن ألقى فيه على الدوام هذا الكائن السابق القديم العهد، هذا الأرستقراطي الذي يطمح «روبير» بالضبط إلى ألا يكونه، ولكنه فرح عقل لا فرح صداقة. وما كنت أحس في الخفة الخلقية والجسدية التي تطبع تودده بهذا القدر من الظرافة، وفي الطلاقة التي يقدم بها عربته لجدتي ويصعدها إليها، وفي الحذاقة التي يقفز بها من مقعده حينما يخشى عليّ من البرد ليلقي بمعطفه على كتفي، ما كنت أحس فيها فحسب المرونة الوراثية التي تميز الصيادين الكبار الذين ألفوا منذ أجيال أجداد هذا الشاب الذي ما كان ينزع إلا إلى أمور الفكر. وازدراؤهم للثروة الذي، إذ بقي لديه إلى جانب الميل الذي

به إليها كي يتمكن من الاحتفال بأصدقائه على نحو أفضل. كان يجعله يضع وسائل بذخه على أقدامهم بهذا القدر من اللامبالاة. كنت أحس فيها على وجه الخصوص اليقين أو الأوهام التي توهم بها السادة العظام أنهم «أكثر من الآخرين» والتي لم يستطيعوا من جرائها أن يورثوا «سان لو» تلك الرغبة في أن يبدي أنه «مساوٍ للآخرين»، ذلك الخوف أن يبدو مفرطاً في مجاملاته والذي كان بالحقيقة مجهولاً لديه وهو الذي يلطخ أصدق مظاهر الود الشعبي بهذا القدر من الجفاء والتصنع. وكنت آخذ على نفسي أحياناً أني أستمتع على هذا النحو باحتساب صديقي عملاً فنياً أي بالنظر إلى حركة جميع أجزاء كيانه وكأنما نظمتها ووفقت بينها فكرة عامة ارتبطت فيها جميعها ولكنه لم يكن يعرفها ولا تضيف بالتالي شيئاً إلى صفاته الخاصة، إلى هذه القيمة الشخصية التي يؤلفها الذكاء والأخلاق والتي كان يعلق عليها هذا القدر من الأهمية.

بيد أنها كانت إلى حد ما شرط وجودها. فإنما كان يتسم ذلك النشاط العقلي وتلك التطلعات الاشتراكية التي تدفعه إلى التماس صداقة طلاب شبان مدّعين لا أناقة في ملبسهم بشيء من النقاء الحقيقي والتجرد لا يتفق لهم لأنه كان نبيلاً. كان يلتمس بصدق، إذ يحسب أنه وريث طبقة جاهلة وأنانية، أن يغفروا له ذلك المنبت الأرستقراطي الذي كان يفتنهم على العكس فيسعون بسببه إليه فيما يتظاهرون إزاءه بالجفاء وحتى بالوقاحة. وكان يسوقه ذلك إلى القيام بمحاولات تقرب من أناس لعلّ ذويّ كانوا يدهشون، وهم مخلصون للأصول الاجتماعية في «كومبريه»، ألّا يتحول عنهم. وفي يوم كنت أجلس فيه و«سان لو» على الرمل سمعنا شتائم تنطلق من خيمة كنا نوليها ظهرنا ضد أعداد اليهود الكبيرة التي تعج بها «بالبيك». كان الصوت يقول: «لا تستطيع أن تخطو خطوتين دون أن تلقى أحدهم. لست مبدئياً ضد جنس اليهود على نحو قاطع ولكنهم ههنا فيض ولا يطرق أسماعك إلا ما كان من هذا القبيل: «قل لي أبراهام، لقد رأيت جاكوب»، لكأنك في شارع أبو قير». وأخيراً خرج الرجل الذي كان

يحمل على هذا النحو على إسرائيل من الخيمة ورفعنا ناظرينا إلى عدو السامية هذا، فإذا هو رفيقي «بلوك». وسألني «سان لو» في الحال أن أذكّره أنهما التقيا في المسابقة العامة التي أحرز «بلوك» فيها جائزة الشرف، ثم في جامعة شعبية.

وأكثر ما هنالك أنني كنت أبتسم أحياناً أن أعثر لدى «روبير» على تعاليم اليسوعيين في الضيق الذي تولده فيه خشية جرح شعور الآخرين كلما وقع أحد أصدقائه المثقفين في زلة اجتماعية أو جاء أمراً مضحكاً ما كان يعلق عليه، هو «سان لو»، أية أهمية ولكنه يحس أن الآخر ربما أصابه الخجل إن لاحظ أحد الأمر. وإنما «روبير» من كان يحمرّ خجلاً كما لو أنه كان المذنب، كذاك اليوم مثلاً الذي أضاف فيه «بلوك» وهو يعده أن يبادر إلى لقائه في الفندق:

- «بما أنني لا أستطيع احتمال الانتظار وسط الأناقة الزائفة التي تطبع هذه الخانات الكبيرة وأنه قد يغشى على من جراء الغجر هناك، قل لعامل المصعد أن يخرسهم وأن يُعْلِمك في الحال».

وما كنت شخصياً شديد التمسك بمجيء «بلوك» إلى الفندق فلم يكن في «بالبيك» وحده لسوء الحظ، بل برفقة شقيقاته اللواتي كان لهن فيها الكثير من الأقارب والأصدقاء. على أن هذه الجماعة اليهودية كانت ملفتة للأنظار أكثر منها ممتعة. وكان شأن «بالبيك» كشأن بعض البلدان، شأن روسيا أو رومانيا، حيث تعلمنا دروس الجغرافيا أن السكان اليهود لا يتمتعون فيها بالامتياز نفسه الذي اكتسبوه في باريس مثلاً ولم يبلغوا فيها درجة الاندماج نفسها. فحينما كانت بنات أعمام «بلوك» وكان أعمامه أو بنو دينهم، ذكوراً أو إناثاً، يؤمّون الكازينو، وقد اجتمعوا على الدوام لا يخالطهم أي عنصر آخر، البعض إلى الحفلة الراقصة والآخرون ينعطفون باتجاه لعبة «البكارا»، كانوا يؤلفون موكباً متجانساً في حد ذاته ويختلف تمام الاختلاف عن الناس الذين كانوا ينظرون إليهم أثناء مرورهم ويلقونهم هـهنا في كل عام دون أن يبادلوهم قط التحية، سواء في مجتمع آل

«كامبرمير» أو جماعة رئيس المحكمة أو رهط البورجوازيين الكبار أو الصغار أو حتى بعض تجار حبوب من باريس ما كانت بناتهم الجميلات المعتزات الساحرات الفرنسيات كتماثيل مدينة «رانس» ليقبلن الاختلاط بهذا القطيع من البنات القليلات التهذيب اللواتي يبلغ بهن اهتمامهن بأزياء مراكز الاصطياف البحرية حد الظهور على الدوام وكأنهن يعدن من صيد القريدس أو هن في طور رقص «التانغو». أما في ما يخص الرجال فقد كان البروز الشديد في قسماتهم يذكّر، على الرغم من تألق بدلات «السموكن» والأحذية الملمعة، بتلك البحوث التي ينعتونها بالذكاء لرسامين كان عليهم وضع رسوم إيضاحية للأناجيل أو لكتاب **ألف ليلة وليلة** ففكروا بالبلاد التي يجري فيها المشهد وجعلوا للقديس بطرس أو لعلي بابا بالضبط الوجه الذي لأضخم شخصية في «بالبيك». وعرفني «بلوك» بشقيقاته اللواتي كان يخرسهن بأقصى الجفاء وكن يضحكن بأعلى أصواتهن لأقل نكات شقيقهن وهو موضع إعجابهن ومعبودهن. وقد كان من المرجح لذلك أن يتضمن هذا الوسط كأيّ وسط آخر، وربما أكثر من أي وسط آخر، الكثير من المباهج والميزات والفضائل. على أنه كان ينبغي الدخول إليه لاختبار ذلك. ولكنه ما كان يروق أحداً ويحس بذلك ويرى فيه البرهان على عداء للسامية يقف في وجهه صفاً متراصاً مغلقاً لا يفكر أحد على أية حال في شق درب إليه. أما في ما يخص عامل المصعد[١]، فقد قلل من فرص دهشتي أن سبق لـ«بلوك» أن سألني قبل بضعة أيام لماذا جئت إلى «بالبيك» (ويبدو له على العكس طبيعياً جداً أن يكون هو هناك) وإن كان ذلك «بأمل التعرّف إلى الجميلات»، ولما قلت له إن هذه الرحلة توافق إحدى أقدم أمنياتي، إلا أنها أقل عمقاً لدي مع ذلك من أمنيتي في الذهاب إلى «البندقية» أجاب: «أجل، بالطبع، لتتناول

---

(١) Lift وردت بالإنكليزية وجاءت على لسان «بلوك» Laift لتوهمه أن حرف i يلفظ دوما ai بالإنكليزية.

المثلجات مع السيدات الجميلات فيما تتظاهر بقراءة «**حجارة فينايس**» *Stones of Venaice*[1] للورد «جون راسكين»، هذا الكاتب الممل الحزين وأحد أكثر من يميتك ضجراً». كان «بلوك» يحسب إذن بالتأكيد أن جميع الأفراد الذين ينتمون إلى الجنس المذكر في إنكلترا لوردات، وليس ذلك فحسب بل إن حرف i يلفظ على الدوام .ai أما «سان لو» فقد كان يجد أن هذه الخطيئة التلفظية إنما تتناقص خطورتها بمقدار ما كان يرى فيها نقصاً في مجال تلك المبادئ الاجتماعية تقريباً التي كان صديقي الجديد يزدريها بقدر ما يملك ناصيتها. ولكن خشيته من أن يحسب «بلوك» بعد فوات الوقت، وقد علم ذات يوم أنهم يقولون «فينس» وأن «راسكين» لم يكن لورداً، أن «روبير» ألفاه مضحكاً، إن خشيته تلك حملت هذا الأخير على الشعور بأنه مذنب كما لو أنه خلا من ذلك التسامح الذي يفيض منه وكما لو أحس بالحمرة التي ستكسو ذات يوم دون شك محيا «بلوك»، تكسو محياه مسبقاً وبحركة معكوسة. فقد كان يعتقد تماماً أن «بلوك» يعلق على تلك الخطيئة أهمية أكثر منه، الأمر الذي أقام «بلوك» عليه البرهان بعد ذلك بقليل في يوم سمعني أقول فيه «ليفت» فقاطعني بقوله:

آه! يقولونها «ليفت» وأضاف بلهجة جافة متعالية؛ «وليس للأمر في جميع الأحوال أهمية أية كانت». والجملة تماثل رد الفعل، وهي واحدة لدى جميع الناس الذين يداخلهم الاعتزاز بالنفس، في أشد الظروف خطورة وفي أقلها على حد سواء، فيكشفون آنذاك، كما هي الحال في هذه الأخيرة سواء بسواء، إلى أي مدى يبدو الأمر المعني مهماً في نظر ذاك الذي يعلن أنْ لا أهمية له والجملة مأساوية أحياناً، تلك التي تنطلق قبل سواها، وما أشد أساها إذ ذاك، من شفتي أي رجل على شيء من الاعتزاز بالنفس وقد سلبوه منذ قليل آخر أمل كان يتشبث به برفض خدمة يؤدونها له: «حسن لا أهمية لذلك على الإطلاق. سأتدبر أمري بطريقة

---

(١) حجارة البندقية، ويلفظها «بلوك» فينايس لتوهمه المبدأ السابق نفسه.

أخرى». والطريقة الأخرى التي لا أهمية على الإطلاق أن يتحول إليها قد تكون الانتحار أحياناً.

ثم قال لي «بلوك» أشياء في غاية اللطف، وكان راغباً بالتأكيد أن يكون لطيفاً معي. ولكنه سألني مع ذلك: «أمن جراء ميل بك إلى الارتفاع إلى مصاف النبلاء - وهم نبلاء جانبيون جداً على أية حال، ولكنك لا تزال ساذجاً - تعاشر «دو سان لو آن بريه»؟ لا بدَّ أن تجتاز أزمة تحذلق حادة. قل لي هل هذا متحذلق؟ بلى، أليس كذلك؟» وليس يعني ذلك أن رغبته في التودد إليّ قد تبدلت، ولكن ما يدعى في فرنسية غير صحيحة إلى حد ما «بسوء التربية» كان عيبه، وبالتالي العيب الذي لم يكن يلاحظه وبالأولى ذاك الذي ما كان يظن أنه يمكن للآخرين الامتعاض منه.

ليس تواتر الفضائل المتماثلة لدى الجميع، وأوساط البشر، أكثر غرابة من تعدد العيوب الخاصة بكل فرد. وليس الحس السليم دونما شك «الأمر الأكثر انتشاراً في العالم» بل الطيبة، فالمرء يدهش أن يراها من تلقاء ذاتها في البقع البعيدة أبعد ما يكون، القصية أكثر ما يكون، كما تزهر في بطن وادٍ شقيقة بغيرها من شقائق سائر العلم ولم ترها في يوم ولا عرفت البتة سوى الريح التي تهز أحياناً قبعتها الحمراء المتوحدة. وأن هذه الطيبة القائمة وإن لم تمارس، وقد شلتها المصالح، وفي كل مرة لا يحول دافع أناني دون أن تفعل، كما هي الحال في أثناء قراءة رواية أو صحيفة، تتفتح وتتجه حتى داخل فؤاد ذاك الذي يظل رقيقاً كهاوي مسلسلات، وهو قاتل في الحياة، إلى الضعيف والبار والمضطهد. على أن تنوع العيوب ليس أقل روعة من ماثل الفضائل. فإن لدى أكثر الناس كمالاً عيباً معيناً يثير الاستنكار أو الحنق. فهذا يتمتع بذكاء عظيم ويرى كل شيء من وجهة نظر سامية ولا يقول البتة سوءاً في أحد، ولكنه ينسى في جيبه أكثر الرسائل أهمية وقد طلب إليك بنفسه أن تسلمه إياها، ثم يفوت عليك موعداً أساسياً دون أن يعتذر إليك، والبسمة على شفتيه، لأنه يفخر بأنه لا يعرف الساعة في يوم. وذاك يتمتع بالكثير من الرقة واللين والأساليب الناعمة إلى حد

أنه لا ينقل لك البته عن نفسك إلا الأمور التي يمكن أن تسعدك ولكنك تحس أنه يصمت عن بعضها ويدفنه في فؤاده حيث يفسد وهو مختلف عن كل ما عداه، وإن المتعة التي يلقاها في أن يراك عزيزة عليه حتى ليفضل أن يميتك تعباً على أن يفارقك. وثالث يتصف بصراحة أكثر ولكنه يبلغ بها حد التمسك بأن تعلم، بعدما قدمت أعذاراً حول حالتك الصحية لأنك لم تبادر بزيارته، أنك شوهدت متجهاً إلى المسرح وأن وجهك ينضح بالعافية، أو أنه لم يستطع الإفادة كلياً من المسعى الذي قمت به من أجله والذي عرض عليه على أية حال ثلاثة آخرون القيام به وليس يدين لك به والحالة هذه إلا على نحو طفيف. ولعل الصديق السابق كان سيتظاهر في كلا الظرفين بأنه يجهل أنك ذهبت إلى المسرح وأن أشخاصاً آخرين كان يمكن أن يؤدوا له الخدمة نفسها. فأما هذا الصديق الأخير فإنه يشعر بحاجة أن يردد أو يكشف لأحدهم ما يمكن أن يزعجك أكثر ما يكون الإزعاج وتفتنه صراحته ويقول لك بحزم: «إني على هذا الشاكلة».

وآخرون يزعجونك بفضولهم المفرط أو بلامبالاتهم المطلقة حتى لتستطيع التحدث إليهم عن أكثر الأحداث إثارة دون أن يدروا ما الخبر، فيما يظل آخرون شهوداً ليجيبوك إن كانت رسالتك تتعلق بأمر يخصك أنت لا هم. أو هم إن قالوا لك إنهم سيجيئون ليطلبوا منك أمراً ولا تجرؤ على الخروج مخافة أن تفوتك فرصة لقائهم لا يجيئون ويدعونك تنتظر أسابيع لأنهم ظنوا، إذ لم يتسلموا منك الجواب الذي لا تطالب به رسالتهم على الإطلاق، أنهم أغضبوك. وبعضهم يحدثونك، مسترشدين برغبتهم لا برغبتك فلا يدَعون لك أن تنبس بكلمة إن كانوا فرحين ويرغبون في لقائك؛ أياً كان العمل الملحّ الذي يقع عليك إتمامه؛ فأما إذا شعروا أنهم متعبون من جراء الطقس أو أنهم معكرو المزاج فلست تستطيع استخراج كلمة من أفواههم ويواجهون جهودك بفتور وخمول ولا يكلّفون أنفسهم عناء الإجابة عما تقول حتى بكلمات يتيمة أكثر ممّا يفعلون لو لم يسمعوك. إن كلاً من أصدقائنا قد لصقت به معايبه إلى حدّ نضطر معه كيما نظلّ على محبته أن

نسلاها - بالتفكير بنبوغه وبطيبة قلبه وحنانه - أو ألا نحسب لها بالأحرى حساباً فنبدي في سبيل ذلك كامل حسن نيّتنا. بيد أنّ إصرارنا في تغاضينا عن رؤية معيبة صديقنا إنّما يفوقه إصراره على الانصراف إليها من جرّاء عمى قلبه أو ذاك الذي يتّهم به الآخرين. ذلك أنه لا يراه أو يحسب أن ليس من يراه. وبما أنّ خطر أن لا نروق الغير ناجم بوجه خاصّ عن صعوبة تقدير ما لا يلاحظ عليه وما يلاحظ فإنّما يجدر على الأقلّ ألا يتحدّث المرء عن نفسه بداعي الحذر لأن ذلك موضوع يمكن التأكّد فيه من أن رؤية الآخرين ورؤيتنا الخاصّة لا تتوافقان البتّة. ولئن اتّفق لنا من المفاجآت حينما نكتشف حياة الآخرين الحقيقية خلف العالم الظاهر بقدر ما يتّفق لدى زيارة بيت عاديّ المظهر ولكنّ داخله مليء بالكنوز أو بِعَتَلات اللصوص [لاقتحام الأبواب] أو بالجثث، فلن يصيبنا أقلّ منها إن نحن علمنا من الكلام الذي يتناولوننا في غيابنا أيّة صورة مختلفة كلّ الاختلاف كانوا يحملونها في أذهانهم عنّا وعن حياتنا بدلاً من تلك التي كوّناها عن أنفسنا بفضل ما كان كلّ منهم يقوله عنها. ويمكننا إذن في كل مرّة تحدّثنا فيها أن نتيقّن أن أقوالنا الحذرة التي لا سوء فيها والتي تمّ الإصغاء إليها بتأدّب ظاهر وموافقة كاذبة إنّما أدّت إلى أكثر التعليقات حقاً أو حرماً وأقلها في جميع الأحوال عطفاً علينا. وإن أقلّ ما نتعرّض له أنْ نزعِجَ من جرّاء التفاوت الكائن بين الفكرة التي نحملها عن ذواتنا وأقوالنا، ذلك التفاوت الذي يجعل أقوال الناس عن أنفسهم مثيرة للسخرية إثارة تلك الدمدمات التي يجود بها هواة موسيقى مزيّفون يحسّون بحاجة دندنة لحن يحبونه فيعوّضون عن قصور همساتهم غير الواضحة بحركات حازمة وهيئة مُعْجَبَة لا يبرِّرها ما ينقلونه إلى أسماعنا. ولا بدّ أن نضيف إلى العادة السيّئة في التحدّث عن النفس وعن معايبنا تلك العادة الأخرى التي تبدو كأنها تؤلّف وإيّاها كتلة واحدة قوامها أن نشجب لدى الآخرين عيوباً شبيهة بالضبط بالعيوب التي فينا. وإنّما يتحدّث المرء على الدوام عن هاتيك العيوب وكأنما تلك طريقة في التحدّث المشدود دوماً إلى ما يطبعنا إنّما يلاحظه

أكثر من أيّ أمر آخر لدى الغير. فيقول قصير النظر عن آخر سواه: «ولكنّه يكاد لا يستطيع فتح عينيه»؛ وتساور الشكوك مصدوراً حول السلامة الرئويّة لدى أصلبهم عوداً؛ ولا يتحدث قذر إلا عن الحمامات التي يحجم عنها الآخرون؛ ويزعم كريه الرائحة أنّ ثمة من تنبعث منه روائح كريهة؛ ويبصر الزوج المخدوع في كلّ مكان أزواجاً مخدوعين، والمرأة الطائشة نسوة طائشات، والمتحذلق المتحذلقين. ثم إن كلّ نقيصة، شأن كل مهنة، تتطلّب معارف خاصة وتطوّرها وليس يغضبنا أن نبرز تلك المعارف. فالشاذ جنسيّاً يكتشف الشاذّين، والخياط الذي دعي إلى المجتمع الراقي ما كاد يحدّثك بعد حتى أعجب قماش ردائك وتتحرّق أصابعه شوقاً إلى تحسّس ميزاتها، وإن سألت بعد حديث دام بضع لحظات مصاباً بأسنانه عن رأيه الصريح حولك لنقل إليك عدد أسنانك غير الصالحة وليس ما يبدو له أكثر أهمية ولك، بعدما لاحظت أسنانه، أكثر إضحاكاً، ولسنا نحسب الآخرين عمياناً حينما نتحدّث عن أنفسنا فحسب بل نتصرّف كما لو كانوا كذلك. فثمّة إله خاصّ بالنسبة إلى كلّ منا يخفي عيبه أو يعده بحجبه عن الأنظار مثلما يطبق عيون الذين لا يغتسلون ويسدّ أنوفهم دون خطّ الوسخ الذي يحملونه في آذانهم ورائحة التعرّق التي تعشّش في ثنيات الذراعين ويقنعهم أنهم يستطيعون نقل هذه وذاك دونما حرج في المجتمع الذي لن يلاحظ شيئاً. ويتصوّر الذين يلبسون أو يهدون اللآلئ المزيّفة أنّها ستعد حقيقيّة.

كان «بلوك» سيئ التهذيب مريض الأعصاب تحذلقاً، وكان لانتمائه لأسرة قليلة الاحترامَيحتمل وكأنّما في قاع البحار الضغوط التي لا تحصى التي يمارسها عليه المسيحيّون على السطح، وليس هم فحسب، بل كذلك المسافات المتنضّدة للطبقات اليهوديّة التي تفضل طبقته وكل واحدة منها توسع التي هي أدنى منها مباشرة احتقاراً. ولعلّ شقّ الطريق إلى الهواء الطلق بالارتقاء من أسرة يهودية إلى أسرة يهودية كان سيقتضي «بلوك» عدّة آلاف من السنين. فخير له محاولة فتح منفذ من جهة أخرى.

حينما حدّثني «بلوك» عن أزمة التحذلق التي لا بدّ كنت أجتازها

وطلب إليّ الإقرار أمامه بأنني كنت متحذلقاً كان بوسعي أن أجيبه: «لو كنت كذلك لما تردّدت عليك». ولكنّي قلت له فقط إنه كان قليل الودّ. حينئذ أراد أن يعتذر ولكن حسب الطريقة التي هي بالضبط طريقة الرجل غير المهذّب الذي يزداد سعادة في العودة عن أقواله أن يلقى فرصة يزيدها بها سوءاً، فقد أخذ يقول لي الآن في كلّ مرّة يلتقني فيها: «سامحني، لقد جلبت لك الغم والعذاب وأسأت إليك دونما سبب. على أنّك لا تستطيع أن تتصوّر - والإنسان بعامّة وصديقك بخاصّة حيوان شديد الغرابة - المودة التي أحملها لك أنا الذي يضايقك إلى هذا الحدّ من القسوة. وكثيراً ما بلغ بي الأمر حدّ ذرف الدموع». وسمعته يطلق شهقة.

أمّا ما كان يدهشني لدى «بلوك» أكثر من عادته السيئة فإلى أيّ مدى كانت نوعيّة حديثه غير متساوية. فقد كان هذا الفتى المتعصّب جدّاً الذي يقول عن أكثر الكُتّاب شهوة: «إنه غبيّ فظيع وهو معتوه تماماً»، كان يروي بين حين وآخر نوادر ليس فيها ما يضحك بمرح كبير ويذكر هذا الرجل الضحل تماماً على «أنّه رجل طريف حقاً». ولم تزل تلك الازدواجية في الحكم على ذكاء الناس وقيمتهم والاهتمام الذي يثيرونه تدهشني إلى اليوم الذي عرفت فيه «بلوك» الاب.

ولم أحسب أنّنا سوف نفلح يوماً في التعرّف إليه لأنّ «بلوك» الابن كان قد تحدّث بالسوء عني إلى «سان لو» وعن «سان لو» إليّ. وقد قال لِـ«روبير» على وجه الخصوص إنّني كنت (على الدوام) متحذلقاً شنيعاً. «بلى، بلى» يقول، «إنه يفتنه التعرف بالسيّد اللوغراندان». كانت طريقة «بلوك» تلك في إبراز كلمة علامة السخرية والأدب في آن واحد. ودهش «سان لو» الذي لم يسبق أن سمع في يوم اسم «لوغراندان»: «ولكن من عساه يكون؟» - «آه! إنّه شخص عظيم جداً»، يجيب «بلوك» ضاحكاً وهو يضع يديه في جيبي سترته برعشة المقرور ويقينه أنّه يتأمل في تلك اللحظة الهيبة الطريفة التي لأحد نبلاء الأقاليم الخارقين الذين لا تساوي جماعة «باربيه دوريفييي» شيئاً إذا ما قيست بهم. كان يعزّي النفس عن أنه لا

يفلح في تصوير السيّد «لوغراندان» بإعطائه عدداً من «اللامات» وبتذوّقه ذلك الاسم كما يفعل بخمرة معتّقة. على أنّ تلك المتع الذاتية كانت تظل مجهولة لدى الآخرين. ولئن تحدّث بالسوء عنّي إلى «سان لو» فلم ينقل إليّ أقل من ذاك عن «سان لو». وقد عرف كلّ منّا تفاصيل ضروب النميمة تلك منذ اليوم التالي، وما ذلك لأنّنا ردّدناها الواحد للآخر، الأمر الذي كان بدا لنا مستنكراً جداً ولكنّه يبدو طبيعياً جداً ولا مفرّ منه تقريباً في نظر «بلوك» حتى إنه فضّل، في خشيته، وإذ حسب بحكم المؤكّد أنّه لن يقدم إلا على اطلاع هذا أو ذاك على ما يزمعان أن يعرفاه، أن يتّخذ الخطوة الأولى فانتحى بـ«سان لو» ناحية وأقرّ له أنّه تحدّث بالسوء عنه عمداً كي يُردِدَ الأمر على مسامعه وأقسم له بـ«زوس بن خرونوس»[1] حارس الأيمان أنّه يحبّه وأنّه يبذل النفس في سبيله ومسح دمعة من عينه. وتدبّر أمره في اليوم نفسه كي يلقاني وحدي واعترف أمامي وصرّح أنه عمل لمصلحتي لأنه يعتقد أن ثمة نوعاً من العلاقات الاجتماعية وخيم العاقبة بالنسبة إليّ وأنّني «أساوي أكثر من ذلك». ثم أخذ يدي بتأثّر السكارى، مع أن سكره كان عصبياً محضاً، وقال لي «صدّقني، ولتضع «كير»[2] السوداء يدها عليّ في الحال وتجتز بي أبواب «هاديس»[3] تلاحقني كراهية الناس إن لم أنتحب البارحة طوال الليل وأنا أفكر فيك وفي «كومبريه» وفي مودّتي اللامحدودة لك وفي بعد ظهيرات في الصفّ أنت حتى لا تذكرها. أجل، طوال الليل، أقسمت بذلك، ولكني أعلم للأسف، بما أني عارف بالنفوس، أنّك لن تصدقني». وما كنت أصدّقه بالفعل وما كان قسمه بـ«كير» يضيف وزناً كبيراً إلى تلك الأقوال التي أحسّها تُستنبط في اللحظة نفسها وفيما هو آخذ في حديثه، لأن العبادة الهيلينّيّة كانت لدى «بلوك» أدبيّة بحتة. وأياً كانت الحال فما إن يأخذ في

---

(١) le Kronion Zeus زوس كبير الآلهة وسيد الأولمبوس (جبل في اليونان).

(٢) Ker لعلها من آلهات الموت.

(٣) Hades إله جهنم عند الاغريق.

الحنان ويرغب أن يفيض حناناً على واقعه مختلقة حتى كان يقول: «أقسم لك» للذة هستيرية في الكذب أكثر منه لغاية حملك على الاعتقاد بأنّه يقول الحقيقة».

وما كنت أصدّق ما يقوله لي ولكنني لا أحمل له ضغينة لأنّني ورثت عن أمّي وجدّتي عجزي عن الحنق حتى على من كانوا أكبر ذنباً وألّا أدين البتّة أحداً.

وما كان «بلوك» على ذلك فتى شريراً على نحو مطلق، فقد كان قادراً على إتيان الكثير من البوادر اللطيفة. ولما لم يعد لي بعد خيار، منذ زالت تقريباً سلالة «كومبريه»، السلالة التي تحدّر منها أفراد ظلّوا على حالهم تماماً مثل جدّتي وأمّي، إلا بين بهائم شرفاء ميّتي الإحساس صادقين سرعان ما تبرز لك محض رنّة صوتهم لا يهتمون البتّة بأمور حياتك - وبين جنس آخر من الناس يفهمونك ما داموا بالقرب منك ويعزّونك ويرقّون حتى لتدمع عيونهم ويثأرون لأنفسهم بعد ساعات فيسخرون منك بقسوة ولكنهم يعودون إليك وهم دوماً على مثل تفهّمهم وظرفهم واندماجهم المؤقّت بك، ففي اعتقادي أنني أفضّل على الأقل معاشرة هذه النوعية من الناس إن لم أفضل قدرهم الخلقي.

وعاد «بلوك» يقول: «لا تستطيع أن تتصور ألمي حينما أفكر فيك؛ وهذا في الأساس جانب يهوديّ إلى حدّ ما»، يضيف قوله بلهجة ساخرة وهو يقلّص حدقة عينه كما لو كان الأمر أن يحدّد بالمجهر كميّة ضئيلة جداً من «الدم اليهودي»، وكما ربّما استطاع أن يقول (ولكنه ما كان ليقول) سيّد فرنسي كبير جاء في عداد جدوده. وكلّهم مسيحيّون «صاموئيل بيرنار» أو في زمن أكثر تقادماً مريم العذراء التي يدّعي اللاويّون[1]، فيما يُقال إنهم ينحدرون منها، «يعاود الظهور لديّ». ثم يضيف: «إني أحبّ أن أفرد على

---

(١) Les Levy: لاوي ابن يعقوب وقد أطلق اسمه على سبط من أسباط إسرائيل خرج منهم الكهنة أو اللاويون.

هذا النحو في عواطفي الجزء الضئيل على أيّة حال الذي يمكن رده إلى أصولي اليهودية». لقد تفوّه بهذه الجملة لأنه بدا له من الظرف والجرأة على حدّ سواء أن يقول الحقيقة حول جنسه، تلك الحقيقة التي كان يتدبّر نفسه في المناسبة ذاتها كي يلطّفها إلى حد غريب، كالبخلاء الذين يقررون تسديد ديونهم ولا تحالفهم الجرأة إلا على دفع نصفها. وإن نوع الغشّ الذي قوامه أن يجرؤ المرء على إعلان الحقيقة ولكن بأن يمزج بها قسماً لا بأس به من الأكاذيب التي تفسدها لأكثر شيوعاً ممّا نعتقد وحتى لدى الذين لا يمارسون ذلك بالعادة إذ تيسّر لهم بعض الأزمات في الحياة، وبخاصّة تلك التي تكون فيها علاقة حبّ في خط فرصة تعاطيه.

وانتهت كل صنوف الطعن التي يجود بها «بلوك» سراً لِـ«سان لو» ضدّي ولي ضدّ «سان لو» بدعوة إلى العشاء. ولست على تمام اليقين بأنه لم يقم بادئ الأمر بمحاولة ليظفر بـ«سان لو» وحده. والمعقولية تجعل تلك المحاولة مرجّحة ولكنّها لم تتكّلل بالنجاح لأنّ «بلوك» إنما قال لي ولِـ«سان لو» ذات يوم: «أيها المعلّم العزيز وأنت أيّها الفارس الذي يحبّك «آرس»(١)، «دو سان لو آن يريه» يا مروّض الجياد، بما أنّي التقيت بكما على شاطئ «آمفيتريت»(٢) الذي يدوّي بالأمواج المزبدة قرب خيام الـ«مينيير» ذوي المراكب السريعة، فهل تودان المجيء كلاكما في أحد أيام الأسبوع لتناول العشاء لدى والدي الشهير الذي لا عيب فيه؟» كان يوجه لنا تلك الدعوة لأنّه يرغب الارتباط بعلاقة أوثق مع «سان لو» الذي سيُدخله الأوساط الأرستقراطية، حسبما يأمل. ولعل تلك الأمنية لو جاءت على لساني ومن أجلي، لعلّها كانت بدت لـ«بلوك» علامة أبشع أنواع التحذلق وتطابق تماماً الرأي الذي يحمله عن جانب كامل من طبيعتي لم يكن يعتبره على الأقل حتى ذاك الجانب الرئيسيّ. ولكن الأمنية

(١) Arès إله الحرب لدى اليونان ويقابله مارس لدى الرومان.

(٢) ملكة البحر تمثّلفي عربة تجرها الدلافين فوق الماء.

نفسها تبدو له إن صدرت عنه البرهان على حب حميد للاستطلاع من جانب عقله الذي يتوق إلى بعض التغربات الاجتماعية التي يمكن أن يلقى فيها بعض الفائدة الأدبيّة. أما السيّد «بلوك» الوالد فقد أحس بصدمة عنيفة حينما قال له ابنه إنّه سوف يصطحب للعشاء أحد أصدقائه، وقد سرد بلهجة المرضي والتهكّم لقبه واسمه: «المركيز دو سان لو آن بريه»، وصاح قائلاً: «المركيز دو سان لو آن بريه! يا ويحك!» ولجأ إلى الشتيمة التي تمثل لديه أقوى دليل على التبجيل الاجتماعي. وألقى على ابنه القادر على الارتباط بمثل هذه العلاقات نظرة معْجَبة كانت تعني: «إنّه مدهش حقاً. فهل هذه الآية النادرة ولدي؟» وسبّبت لرفيقي من السرور بقدر ما يتمّ له لو أضيف إلى راتبه الشهري خمسون فرنكاً. وذلك أنّ «بلوك» لم يكن مرتاحاً في بيته وكان يحسّ أنّ والده يعدّه ضالاً لأنّه كان يعيش في جوّ من الإعجاب بـ«لو كونت دوليل» و«هيريديا» وغيرهم من «القرباط» فأما العلاقات مع «سان لو آن بريه» الذي سبق أن كان والده رئيس قناة السويس! (يا ويحك) فتلك نتيجة «لا جدال فيها».

وازداد بنفس المقدار أسفهم أنْ تركوا في باريس المنظار المجسّم مخافة إتلافه. وكان «بلوك» الوالد يتقن وحده فن استخدامه أو يملك على الأقل حقّ استخدامه. وما كان يقوم بذلك على أية حال إلا نادراً وبرويّة تامّة في الأيام التي تقام فيها حفلات ويحضر خدم من الرجال احتفاءً بذلك. فكان ينبثق من حفلات المنظار المجسّم هذه كأنما امتياز ومنّة ينالها المحظيون بالنسبة إلى من يحضرونها. وبالنسبة إلى ربّ البيت يقيمها جاه شبيه بالذي تضفيه الموهبة وما كان يمكن أن يجيء أوفر اتّساعاً له لو تمّ أخذ المنظار على يد السيّد «بلوك» نفسه وكان الجهاز من اختراعه. كانوا يقولون في الأسرة: «أما كنت مدعواً البارحة إلى منزل «سلومون»؟ - «كلا، لم أكن من المختارين! وما الذي قدّم هناك؟» - «احتفال عظيم، المنظار المجسّم وكل ما يدور حوله». - «آه! إن قدّم المنظار المجسم، فإنّي آسف إذ يبدو أنّ «سلومون» رائع حينما يعرضه».

وقال السيد «بلوك» لابنه: «ما عساك تريد، ينبغي ألا نعطيه كل شيء دفعة واحدة فيظل لديه على هذا النحو ما يشتهيه».

لقد راودته بالتأكيد في حنانه الأبوي، وكيما يثير مشاعر ابنه، فكرة استحضار الآلة. ولكن الزمن المادي كان يعوزهم أو هم ظنوا بالأحرى أن سيعوزهم. بيد أننا اضطررنا أن نطلب إرجاء العشاء لأن «سان لو» لم يستطع أن يبرح المكان إذ كان ينتظر عمّاً يزمع المجي لقضاء ثمانٍ وأربعين ساعة بالقرب من السيّدة «دو فيلباريسيس»، وبما أن هذا العم كان شديد الولع بالتمرينات الرياضيّة ولا سيما رياضة السير الطويل على الأقدام وسوف يقطع الطريق من القصر الذي يقضي فيه الصيف سيراً على الأقدام في قسم كبير منه ويمضي الليل في المزارع فقد كان الوقت الذي سيصل فيه إلى «بالبيك» غير محدد تماماً. ولقد كلفني «سان لو»، وهو لا يجرؤ على مغادرة المكان، أن أحمل إلى «انكارفيل» حيث مكتب الاتصالات اللاسلكية البرقية التي كان صديقي يبعث بها يومياً إلى عشيقته. كان العمل الذي ينتظرونه يدعى «بالاميد» وقد أخذه عن اسم ورثه عن جدوده أمراء صقلية. وحينما كنت أعثر فيها بعد في قراءاتي التاريخية على ذلك الاسم نفسه وقد حمله كبير القضاة هذا أو أمير الكنيسة ذاك، كميدالية جميلة من عصر النهضة - والبعض يقولون كتحفة قديمة حقيقية - لازمت الأسرة على الدوام تنتقل من سلف إلى خلف بدءاً من ديوان الفاتيكان وحتى عم صديقي، كنت أحس بالمتعة المقصورة على أولئك الذين لا يستطيعون تشكيل مجموعة ميداليات أو متحف للرسم فيبحثون عن الأسماء القديمة (كأسماء مناطق وثائقية وطريفة كخريطة قديمة أو منظر فروسية أو لافتة أو مجموعة أعراف، وأسماء معمودية يدوي فيها ويوافي الأسماع في النهايات الفرنسية الجميلة القصوى اللساني والنبرة التي تتسم بسوقية عرقية واللفظ الخاطئ الذي كان أجدادنا يلحقون بموجبه بالكلمات اللاتينية والساكسونية تشويهات دائمة أضحت فيما بعد المشرِّعات الرفيعة الشأن في كتب القواعد) ويقدمون لأنفسهم، بإجمال القول، بفضل مجموعات

الأصوات القديمة هذه حفلات موسيقية شأن الذين يحوزون آلات «فيولا» كبيرة وصغيرة كي يعزفوا موسيقى الأمس على آلات قديمة. وقد نقل إليّ «سان لو» أن عمه «بالاميد» كان يتميز حتى في المجتمع الأرستقراطي الأكثر انغلاقاً على ذاته بأنه عسير الملتقى بنوع خاص ومتعالٍ ومتشبث بأرستقراطيته ويؤلف مع زوجة أخيه وبعض الشخصيات المختارة الأخرى ما كان يدعى بنادي العنقاء. وكان مرهوب الجانب وحتى هناك من جراء ما يبدي من صنوف الوقاحة إلى حد أنه اتفق فيما مضى لأناس في المجتمع الراقي كانوا يودون التعرّف به وطلبوا ذلك من أخيه نفسه ووجهوا بالرفض، «لا، لا تطلبوا مني أن أقدمكم لأخي «بالاميد» فقد نقرن جهودنا جميعاً بجهود زوجتي ولا نستطيع ذلك، أو قد تتعرضون إلى ألا يكون لطيفاً ولست أريد ذلك». وكان في نادي الفروسية قد سمّي مع بعض الأصحاب مئتي عضو لا يسمحون أن يقدموا لهم البتّة. وكان يعرف لدى كونت باريس بلقب «الأمير» نظراً لأناقته واعتزازه بنفسه.

وحدّثني «سان لو» عن شباب عمه، وقد انقضى منذ زمن بعيد. فقد كان يجيء كل يوم بنسوة إلى شقة كان يملكها مع اثنين من أصدقائه في مثل جماله، الأمر الذي كانوا يُدْعَوْنَ من جرائه بـ«ربات الفتنة الثلاث».

- «ذات يوم طلب رجل هو اليوم الرجل الأكثر بروزاً في ضاحية «سان جيرمان»، كما قد يقول «بلزاك»، ولكنه كان يبدي ميولاً غريبة في فترة أولى مؤسفة إلى حد ما. طلب إلى عمي أن يجيء إلى تلك الشقة. ولكنه ما إن وصل حتى أخذ يبوح بعواطفه لا للنسوة بل لعمي «بالاميد» وتظاهر عمي بأنه لا يفهم وخرج بصديقيه بحجة ما، ثم عادوا فأمسكوا بالمتهم وجردوه من ثيابه وضربوه حتى سال دمه وألقوا به خارجاً في برد بلغ عشر درجات تحت الصفر وهناك تمّ العثور عليه وقد أشرف على الموت، وقد قام القضاء بتحقيق تحمل المنكود الحظ أقصى المشقة ليحمله على العدول عنه. ولعل عمي لا يقوم اليوم بتنفيذ عمل في مثل هذه القسوة. ولست تتخيّل عدد أبناء الشعب الذين يحيطهم بحبه، هو الكثير

الاستعلاء مع ذوي المجتمعات الراقية، ويحميهم على أنهم يقابلونه بنكران الجميل، فخادم خدمه يلقى له خدمة في باريس، وفلاّح يأمر بتعليمه مهنة. وإنما ذلك الجانب اللطيف نوعاً ما الذي يتوافر له بعكس الجانب المجتمعي. ذلك أن «سان لو» كان ينتمي إلى هذا الصنف من شبان المجتمع الراقي الذين اتخذوا مواقعهم على ارتفاع استطاع أن ينمّي هذه العبارات: «وإنما اللطيف إلى حد ما لديه، هو لطافته اللافتة»، وهي بذرات ثمينة سرعان ما تنتج طريقة في تصور الأشياء يحسب المرء نفسه فيها لا شيء والشعب كل شيء، وما هو، باختصار القول، عكس الكبرياء الشعبي». يبدو أنه لا يمكن أن نتصور إلى أي مدى كان المثل الذي يحتذى به وإلى أي حد كان يسيّر مجتمعَ شبابه بأسره. كان يفعل في ما يخصه ما يروقه أكثر ما يروق وما يرتاح إليه أكثر ما يرتاح، ولكن الأمر يتم تقليده في الحال على يد المتحذلقين. فإن عطش في المسرح وأمر أن يجيئوا بشراب إلى زاوية مقصورته القصيّة امتلأت الصالات الصغيرة الواقعة خلف كل مقصورة بالمرطبات في الأسبوع التالي. وفي صيف كثير الأمطار شكا فيه من بعض الآلام الرئوية أوصى على معطف من قماش من وبر اللاما طيّع، ولكنه دافئ، ويكاد لا يستخدم إلا في صنع أغطية السفر، وحافظ على أقلامه الزرقاء والبرتقالية. ورأى كبار الخياطين زبائنهم يوصونهم في الحال على معاطف زرقاء ذات حواشٍ ولها وبر طويل. ولئن رغب لسبب، أي سبب، في أن ينزع كل سمة احتفالية عن عشاء في قصر كان يمضي فيه النهار ولم يحمل معه، بغية الإشارة إلى هذا الفارق، لباساً رسمياً وجلس إلى المائدة بسترة ما بعد الظهيرة أصبح الزي السائد تناول العشاء بالسترة العادية. وإن استخدم بدلاً من ملعقته شوكة أو أدوات طعام من اختراعه أوصى صائغاً عليها أو أصابعه لتناول قطعة من الحلوى، لم يعد يسمح بالتصرف على نحو آخر. وقد داخلته رغبة في أن يسمع ثانية بعض رباعيات موسيقية لـ«بتهوفن» (إذ هو على الرغم من جميع أفكاره السخيفة بعيد عن الغباء ويتمتع بمواهب كثيرة) واستقدم فنانين ليقوموا

بعزفها له ولبعض الأصدقاء في كل أسبوع. فكان غاية الأناقة في ذلك العام الدعوة إلى اجتماعات قليلة الروّاد يتم فيها سماع موسيقى الحجرة. وأظن على أية حال أنه لم يصبه الملل في حياته فلا بد وهو بمثل جماله أن توافر له العديد من النساء ولعلني من جهة ثانية لا أستطيع أن أقول لك بالضبط أيهن إذ هو شديد التكتم. ولكني أعلم أنه كثيراً ما خدع خالتي المسكينة، الأمر الذي لم يحل دون أن يكون رائعاً معها وأنها كانت تعبده وأنه بكاها على مدى سنوات. ولا يزال يذهب كل يوم تقريباً إلى المقبرة حينما يكون في باريس».

وفي صبيحة غداة اليوم الذي حدثني فيه «روبير» على هذا النحو عن عمه فيما كان ينتظره، وعبثاً فعل على أية حال، وفيما كنت أمر وحدي أمام الكازينو في عودتي إلى الفندق أحسست أن أحداً كان ينظر إليّ وما كان ببعيد عني. فأدرت رأسي فأبصرت رجلاً في حوالى الأربعين من عمره، وكان شديد طول القامة على شيء من السمنة وله شاربان شديدا السواد، يحدق إليّ بعينين وسعهما الانتباه، فيما يضرب بنطاله بخيزرانة، بعصبية ظاهرة. وكانت تخترق عينيه بين حين وآخر وفي كل اتجاه نظرات بالغة النشاط كمثل تلك التي ينفرد بها أمام شخص مجهول أناس يوحى إليهم، لسبب أو لآخر، بأفكار لا تراود آخر سواهم - من مثل المجانين أو الجواسيس على سبيل المثال. ثم رماني بنظرة جانبية أخيرة تجمعت فيها الجرأة والحذر والسرعة والعمق، كطلقة أخيرة يطلقها المرء لحظة الهرب واتخذ فجأة، بعدما أجال النظر من حواليه، هيئة شاردة متعالية، وتحول بانقلاب مفاجئ في كامل شخصه إلى إعلان انغمس في قراءته وهو يدمدم لحن أغنية ويرتّب الوردة الريانة التي تتدلّى من عروته وأخرج من جيبه دفتراً صغيراً بدا وكأنه يسجل عليه عنوان العرض المسرحي المعلن عنه، وأخرج مرتين أو ثلاثاً ساعته وشد فوق عينيه قبعة من القش الأسود أطال حاشيتها بيده الموضوعة على صورة واقية كأنما ليبصر إن لم يجئ أحد وأبدى حركة الاستياء التي يبرز المرء فيها حسبما يعتقد أنه عيل صبره

من الانتظار ولكنه لا يقوم بها البتة حينما ينتظر حقاً، ثم ردّ قبعته إلى خلف فكشف عن قصة شعر قصيرة جداً استبقت مع ذلك في كل جانب جناحي حمامة مموجين على شيء من الطول وأطلق الزفرة القوية التي يطلقها الأشخاص الذين لا يشعرون لا بالحر الشديد بل بالرغبة في إبداء الإحساس بالحر الشديد. وراودتني فكرة نصّاب فنادق ربما سبق أن استرعينا انتباهه أنا وجدتي في الأيام السابقة، وكان يعد لفعلة شريرة، وأخذ يتبين منذ قليل أنني فاجأته وهو يرقبني. وربما كان يحاول فحسب، بغية تضليلي عن طريق مظهره الجديد، أن يعبّر عن الشرود والتجرد ولكنه يفعل بمبالغة عنيفة حتى ليبدو وكأنما يهدف إلى تبديد الشكوك التي لا بدّ ساورتني بمقدار يساوي على الأقل ثأره لإذلال سمته إياه على غير علم مني. وليبعث في نفسي لا فكرة أنه لم يبصرني بل إني موضوع أقل بكثير من أن يسترعي انتباهه. كان يقوس قامته كمن يتحدى ويزم شفتيه ويرفع شاربه ويركز في نظراته شيئاً من اللامبالاة والقسوة وما يقارب الإهانة، حتى إن غرابة ملامحه كانت تجعلني أحسبه لصاً وطوراً فاقد العقل. بيد أن هندامه الشديد الأناقة كان أكثر رصانة وأكثر بساطة من جميع المستحمّين الذين كنت أشاهدهم في «بالبيك»، وكان مطمئناً بالنسبة إلى سترتي التي كثيراً ما أذلّها بياض ملابسهم البحرية الناصع والمبتذل.

ولكن جدتي كانت آتية نحوي. وقد قمنا بجولة معاً؛ وكنت في انتظارها بعد ذلك بساعة أمام الفندق الذي دخلت إليه لحظة عندما شاهدت السيّدة «دو فيلباريسيس» تخرج بصحبة «سان لو» والمجهول الذي حدق إليّ بشدة أمام الكازينو. واخترقتني نظرته بسرعة البرق على نحو ما فعلت لحظة لمحته، ثم ارتدّت، وكأنه لم يبصرني، تقف أدنى بقليل كليلة أمام عينيه كالنظرة المحايدة التي تتظاهر بأنها لا تبصر شيئاً في الخارج وهي عاجزة أن تقرأ شيئاً في الداخل، النظرة التي تعبّر فحسب عن السرور لإحساسها من حولها بالأهداب التي تباعدها باستدارتها الهانئة، النظرة التقية الجامدة التي لبعض المنافقين والنظرة المغرورة التي لبعض الأغبياء.

ورأيت أنه غيّر بدلته. كانت البدلة التي يرتديها أكثر قتامة؛ ذلك ولا شك لأن الأناقة الحقيقية أقل بعداً عن البساطة من الأناقة الزائفة. بيد أنه كان ثمة أمر آخر: فقد كنت تشعر من مسافة أقرب أنه إن كاد اللون يكون مفقوداً تماماً في ملابسه فما ذلك لأن أقصاه عنها لا يبالي به بل لأنه يحرمه بالأحرى عن نفسه لسبب أو آخر. وكان الاعتدال الذي تبرزه يبدو وكأنه من ذلك الناجم عن الخضوع لحمية أكثر منه عن فقدان الشهية. وكان خيط من لون أخضر عاتم ينسجم في قماش البنطال وخط الجوارب بدقة تكشف عن رهافة ذوق تمّ ترويضه في كل مكان وقد تمّ له هذا التغاضي الوحيد بداعي التسامح فيما تبدو بقعة حمراء على ربطة العنق تكاد لا تراها وكأنما تمادٍ لا تجرؤ الإقدام عليه.

وقالت السيّدة «دو فيلباريسيس»: «كيف حالك؟ إني أقدم لك ابن شقيقي البارون «دو غيرمانت»، فيما يغمغم الرجل المجهول، دون أن ينظر إليّ، في غير وضوح: «سرّني ذلك» ويتبعها بقول «إيه، إيه، إيه» ليضفي على تلطيفه شيئاً من التحامل على النفس ثم يثني خنصره وسبابته وإبهامه ويمد إلي إصبعه الثالثة وبنصره ولا خاتم فيهما فأشد عليهما من فوق قفازه السويدي، ثم هو يتحول عني إلى السيّدة «دو فيلباريسيس» دون أن يرفع نظره إليّ. وقالت هذه الأخيرة ضاحكة:

- «يا إلهي، أتراني فقدت عقلي؟ ها إني أدعوك البارون «دو غيرمانت». إني أقدم لك البارون «دو شارلوس». وتضيف قولها: «وليس الخطأ على أي حال كبيراً إلى هذا الحد فإنك مع ذلك من آل «غيرمانت»».

وخرجت جدتي في تلك الأثناء فسرنا سوية. ولم يشرّفني عم «سان لو» بكلمة واحدة ولا حتى بنظرة واحدة. ولئن كان يتفرّس في وجوه المجهولين (وقد أطلق في أثناء هذا المشوار القصير مرتين أو ثلاثاً نظرته المخيفة العميقة على هيئة مسبر على جماعة يعبرون السبيل عديمي الشأن ومن أكثر الأسر وضاعة) فإنه في مقابل ذلك لم ينظر في أية لحظة، إن حكمت في الأمر انطلاقاً من ذاتي، إلى من كان يعرفهم - كشرطي في

مهمة سرية ولكنه يدع أصدقاءه خارج دائرة الرقابة التي تقتضيها مهنته. وتركته هو وجدتي والسيّدة «دو فيلباريسيس» يتبادلون الحديث واستوقفت «سان لو» خلفهم:

- «قل لي، أتراني سمعت تماماً؟ لقد قالت السيّدة «دو فيلباريسيس» لعمك إنه من آل «غيرمانت».

- «أجل بالطبع، فإنه «بالاميد دو غيرمانت»».

- «ولكن أهو من آل «غيرمانت» أنفسهم الذين يملكون قصراً بالقرب من كومبريه» ويزعمون أنهم ينحدرون من «جنفييف دو برابان»؟

- «حتماً، وربما أجابك عمي، وهو من أشد من تعلق بالشعارات، إن «صيحتنا»، صيحتنا الحربية التي أضحت فيما بعد «باسافان»، كانت بادئ الأمر كومبريزيس»، يقول ضاحكاً كي لا يدور وكأنه يزهو بامتياز الصيحة هذا الذي كانت تتمتع به البيوتات الملكية وحدها تقريباً ورؤساء العصابات العظام. «إنه شقيق مالك القصر الحالي». مكتبة سُر مَن قرأ

وهكذا كانت أشد أواصر القربى تربط بآل «غيرمانت» السيّدة «دو فيلباريسيس» هذه التي ظلّت فترة طويلة جداً من نظري السيّدة التي أعطتني شوكولاته تمسك بها بطة حينما كنت صغيراً، وكانت آنذاك أكثر بعداً عن جانب «غيرمانت» منها لو كانت سجينة في جانب «ميزيكليز»، وأقل تألقاً وقد جعلتها أدنى مكانة من تاجر البصريات في «كومبريه»، والتي أخذت الآن في ارتفاع خيالي مفاجئ يوازي الهبوط الذي لا يقل مفاجأة عنه والذي تتعرض له أشياء أخرى في حوزتنا، وهذا وذاك كلاهما إنما يدخلان في طور مراهقتنا وفي أجزاء حياتنا التي يستمر فيها شيء من هذه المراهقة تغيّرات في مثل تعدد امساخات «أوفيديوس».

- «ألا توجد في هذا القصر جميع التماثيل النصفيّة العائدة لأسياد «غيرمانت» القدامى؟»

وأجاب «سان لو» بلهجة ساخرة: «بلى. وإنّه لمشهد رائع. على أنّي أجد، وأقولها بيني وبينك، كلّ هذه الأمور تافهة إلى حدّ ما، إلّا أنّ في

«غيرمانت»، والأمر أكثر إثارة، رسماً مؤثّراً تماماً لعمّتي بريشة «كاريير». إنّه جميل كمثل لوحات «ويستلر» أو «فيلاسكيز»، يضيف «سان لو» الذي لم يكن يحافظ دوماً بدقة على سلّم المراتب في اندفاع العقائديّ المستجدّ. «هنالك أيضاً لوحات مؤثّرة لـ«غوستاف» مورو». إن عمتي ابنة شقيقة صديقتك السيّدة «دو فيلباريسيس» وقد تربّت على يدها وتزوجت ابن عمها الذي كان كذلك ابن أحد أشقاء عمتي «دو فيلباريسيس»، وهو دوق «غيرمانت» الحالي».

- «وما عسى يكون عمك إذن؟».

- «إنّه يحمل لقب البارون «دو شارلوس». فحينما توفي أخو جدي كان ينبغي أن يحمل عمّي «بالاميد» على نحو نظاميّ لقب أمير «لوم» الذي كان لقب شقيقه قبل أن يصبح دوق «غيرمانت»، لأنّهم يبدلون في أسمائهم في هذه الأسرة مثلما يبدلون في قمصانهم. ولكنّ لعمّتي أفكاراً خاصّة حول هذا كلّه ولما كان يرى أنهم يفرطون بعض الشيء في استخدام الإمارات الإيطالية وألقاب عظماء إسبانيا، إلخ. ومع أنّه كان يملك حق الخيار بين أربعة أو خمسة من ألقاب الأمراء فقد احتفظ بلقب البارون «دو شارلوس» احتجاجاً وببساطة يداخلها الكثير من الكبرياء. «كلّ الناس أمراء، يقول، في يومنا هذا، فلا بدّ لك إذن أن تملك ما يميزك؛ لسوف أحمل لقب أمير حينما أود السفر متخفياً». وليس في اعتقاده من لقب أعرق من لقب البارون «دو شارلوس». وسوف يزودك عمّي، كيما يبرهن لك أنّه سابق للقب آل «مونمورانسي» الذي كانوا يقولون زوراً إنّهم أول بارونات في فرنسا فيما هم الأولون في منطقة «إيل دو فرانس» فحسب حيث كانت معاقل إقطاعهم، سوف يزوّدك بشروح على مدى ساعات، وبسرور يفعل لأنّه على الرغم من رهافة حسّه وعمق موهبته يرى أنّ ذلك موضوع حديث مثير تماماً»، يقول «سان لو» مبتسماً. «وإذ لست على شاكلته فلن تحملني على التحدّث عن الأنساب، فلست أعرف ما كان قاتلاً وبالياً أكثر منها، والحياة قصيرة جداً».

لقد أخذت أتعرّف الآن في النظرة القاسية التي جعلتني منذ قليل أدير رأسي بالقرب من الكازينو تلك التي رأيتها مثبتة عليّ في «تانسونفيل» أن نادت السيّدة «سوان» على «جيلبيرت».

- «ولكن ألم تكن السيّدة «سوان» في عداد العشيقات الكثيرات اللواتي قلت إنهن توافرن لعمّك السيّد «دو شارلوس»؟

- «لا، على الإطلاق! وأعني أنّه صديق كبير لِـ«سوان» وقد دعمه على الدوام دعماً كبيراً. ولكن لم يقل أحد قطّ إنّه كان عشيق امرأته، ولعلك تثير في المجتمع الكثير من الدهشة إن بدا أنك تصدّق ذلك».

ولم أجرؤ على الإجابة بأنهم ربّما داخلتهم دهشة أكبر في «كومبريه» لو بدا أنّي لا أصدّق ذلك.

اغتبطت جدّتي كثيراً بالسيّد «دو شارلوس». كان يولي دونما شكّ جميع قضايا المنشأ والوضع الاجتماعي أهميّة قصوى، وقد لاحظت جدّتي ذلك ولكن دون أن تبدي شيئاً من تلك القسوة التي يداخلها بالعادة حسد خفيّ واغتياظ لرؤية آخر يستمتع بمكاسب نرغب فيها ولا نستطيع حيازتها. ولما كانت جدّتي على العكس راضية عن حالها ولا يؤسفها البتّة أنها لا تعيش في مجتمع أكثر رونقاً ولا تستعين إلا بعقلها لمراقبة عيوب السيّد «دو شارلوس»، فقد كانت تتحدّث عن عمّ «سان لو» بهذا العطف المتجرّد المشرق الذي يقارب الودّ والذي نكافئ به موضوع ملاحظتنا المتجرّدة مقابل المتعة التي تزوّدنا بها ويزيد منه أنّ موضوعها كان يستشف هذه المرّة شخصيّة تبرزه مطامحه، وهي طريفة على الأقلّ إن لم تكن مشروعة، إبرازاً واضحاً فوق الأشخاص الذين كان يتسنىّ لها بعامّة لقاؤهم. على أنّ السيّدة كانت قد اغتفرت بهذا اليسر للسيد «دو شارلوس» تحيّزه الأرستقراطي بالنظر إلى الذكاء ورقّة المشاعر اللذين يتحلى بهما على وجه الخصوص وكانا شديدين لديه إلى حدّ بعيد خلافاً للعديد من أهل المجتمع الذي كان «سان لو» يسخر منهم. بيد أنّ هذا التحيز لم يضحّ به العمّ ولا ابن أخيه سواء بسواء لميزات أسمى. فقد

وفّق السيّد «دو شارلوس» بالأحرى بينه وبينها. فإن كان يملك بوصفه سليل دوقات «نيمور» وأمراء «لامبال» وثائق وأثاثاً وسجَاداً ورسوماً أنجزها لأجداده «رافائيل» و«فيلاسكيز» و«بوشيه». ويستطيع أن يقول إنه بالضبط «يزور» متحفاً ومكتبة بمجرّد الطواف بذكريات أسرته كان يضع على العكس كامل تراث الأرستقراطية في المقام الذي أنزله منه ابن أخيه. وربّما لم يشأ كذلك، وهو أقل عقائديّة من «سان لو» وأقلّ تشدّقاً بالكلمات وأكثر واقعية في ملاحظة الناس، أن يهمل عنصر جاه أساسيّاً في نظرهم ويمكن إن هو وفّر لخياله متعاً خالية الغرض أن يكون في الغالب عوناً شديد الفعالية في نشاطه النفعيّ. وأنّ باب الجدال لا يزال مفتوحاً بين من كانوا من هذه النوعية وبين الذين يخضعون للمثل الأعلى الداخليّ الذي يدفعهم إلى التخلّص من تلك المكاسب للسعي إلى تحقيقه فحسب. فيشبهون بذلك الرسّامين والكتّاب الذي يتخلّون عن براعتهم والشعوب الفنّانة التي «تتحدّث» والشعوب المحاربة التي تتّخذ مبادرة نزع السلاح الشامل والحكومات المطلقة التي تنقلب ديمقراطية وتلغي قوانين قاسية دون أن يكافئ الواقع في الغالب سعيهم النبيل، إذ يفقد هؤلاء مهارتهم وأولئك تفوقهم، وتضاعف النزعة السلمية الحروب بعض الأحيان، والتسامح الجرائم. ولئن كان لا يمكن النظر إلى جهود الصدق والتحرّر لدى «سان لو» إلّا على أنّها بالغة النبل، إن حكمنا عليها من زاوية عواقبها الخارجية، فقد كان من الجائز الاغتباط بفقدانها لدى السيّد «دو شارلوس» الذي أمر بنقل قسم كبير من خشبيّات فندق «غيرمانت» الرائعة إلى منزله عوضاً عن أن يستبدل بها، شأن ابن أخيه، أثاثاً من الطراز الحديث وقطعاً من طراز «لوبور» و«غيومان». وليس أقلّ صحّة من ذلك أنّ مثل السيّد «دو شارلوس» الأعلى كان شديد التصنّع وأنّه كان، إن أمكن مقاربة هذه الصفة من كلمة المثل الأعلى، اجتماعياً بقدر ما كان فنيّاً فقد كان يرى في بعض النساء ذوات الجمال العظيم والثقافة النادرة واللواتي امتزجت أسماء جدّاتهن قبل قرنين بجميع أمجاد النظام القديم

وكامل أناقته كياسة تجعله لا يستطيع الاستمتاع إلا بصحبتهنّ. وليس من شك في أن الإعجاب الذي يخصهنّ به كان صادقاً إلا أن الإعجاب تداخلته إلى حدّ كبير ذكريات تاريخيّة عديدة توقظها أسماؤهن مثلما تؤلّف ذكريات العصور القديمة أحد أسباب المتعة التي يلقاها مثقّف في قراءة قصيدة للشاعر «هوراسيوس» ربّما كانت أدنى من قصائد من أيّامنا قد يظل هذا المثقف نفسه عديم الاهتمام بها. كانت كل واحدة من تلك النساء في مقابل بورجوازيّة جميلة، كانت في نظره مثلما هي في مقابل لوحة معاصرة تمثّل طريقاً أو عرساً تلك اللوحات القديمة التي يعرف المرء تاريخها بدءاً بالبابا أو الملك اللذين أوصيا عليها ومروراً بهذه الشخصيات أو تلك التي يذكرنا وجودها بالقرب منهم عن طريق الهبة أو الشراء أو الاستيلاء أو الميراث بحدث أو على الأقلّ بمصاهرة ذات أهمية تاريخية وبالتالي بمعارف اكتسبناها، ويضفي عليها فائدة جديدة ويزيد من الإحساس بغنى ما تحيط به ذاكرتنا أو سعة اطلاعنا. كان السيّد «دو شارلوس» يغتبط أن يفضي تحيز مماثل لتحيّزه بحؤوله دون أن يخالط هذا النفر من كبريات السيّدات نساءً أقلَّ صفاءَ عرق. إلى تقديمهنّ على مذبح ولعه خالصات في نبلهنّ الذي لم تَشُبْهُ شائبة كمثل واجهة من القرن الثامن عشر تجثم فوق أعمدتها المسطّحة التي من رخام ورديّ ولم تبدّل الأزمنة الحديثة شيئاً فيها.

كان السيّد «دو شارلوس» يكرِّم لدى هاتيك النساء «نبل» العقل والقلب الحقيقي، ويتلاعب على هذا النحو باللفظة بالتباس يخدعه هو نفسه وفيه يقيم زيف هذا التصوّر الهين، هذا اللبس المؤلّف من أرستقراطيّة وأريحيّة وفن، ولكنما يقيم كذلك فيه سحره وهو محفوف بالمخاطر بالنسبة إلى جماعة مثل جدّتي ربما بدا لها التحيّز الأكثر فظاظة والأكثر براءة مع ذلك لدى نبيل لا تهمّه سوى الأحياء ولا يقيم وزناً للباقي، ربّما بدا لها مدعاة للسخرية، ولكنّها تنهار مقاومتها ما إن يبرز شيء أمامها تحت مظاهر التفوّق العقليّ حتى إنها كانت تجد الأمراء كأكثر

ما يحسد بين جميع الرجال لأنهم استطاعوا أن يتّخذوا أمثال «لابروبير» و«فينلون» بمثابة مربّين.

وفارقنا أمام الفندق الكبير أبناء آل «غيرمانت» الثلاثة، فقد كانوا يزمعون الذهاب لتناول طعام الغداء في منزل أميرة «لوكسمبور». وحينما كانت جدّتي تودّع السيّدة «دو فيلباريسيس» و« سان لو» عاد السيّد «دو شارلوس» بضع خطوات إلى الوراء. ولم يكن بعد كلّمني حتى ذاك، وقال لي بعد أن وصل بالقرب منّي: «سوف أتناول الشاي هذا المساء بعد تناول العشاء في شقّة عمتي «فيلباريسيس» وآمل أنّك ستتكرّم بالمجيء مع السيّدة جدّتك». ثمّ لحق بالمركيزة.

ومع أن اليوم كان يوم أحد فلم يكن أمام الفندق عربات أكثر ممّا في بداية الموسم. كانت زوجة الكاتب العدل على وجه الخصوص ترى أنّه من باهظ التكاليف استئجار عربة في كلّ مرّة لتجنّب الذهاب لدى أسرة «كامبرمير» فكانت تكتفي بالبقاء في غرفتها.

وكانوا يسألون الكاتب العدل قائلين: «هل السيّدة «بلانديه» متوعكة الصحة؟ فإنّنا لم نشاهدها اليوم».

- «إنّها تشكو من ألم طفيف في الرأس. فالحر. وهذه العاصفة؛ يكفيها أقلّ القليل. ولكنّي أعتقد أنكم ستشاهدونها هذا المساء، فقد أشرت عليها بالنزول، ولا يمكن إلا أن يعود عليها ذلك بالخير».

لقد حسبت أن السيّد «دو شارلوس» شاء أن يكفّر عن قلّة التهذيب التي صدرت عنه بحقي في أثناء مشوار الصباح بدعوته إيّانا على هذا النحو إلى شقّة عمته التي لم أشكّ أنّه أنبأها بالأمر. إلّا أني حينما وصلت إلى صالة السيّدة «دو فيلباريسيس» وأردت أن أحيّي ابن أخيها، عبثاً أخذت في الدوران حوله وهو يروي بصوت حادّ قصّة فيها بعض التجريح بواحد من أقاربه فلم أستطع الظفر بنظرته. وقررت أن أحيّيه وبصوت قوي لأنبئه بحضوري، ولكنّي أدركت أنه لاحظ الأمر، فقبل أن تنطلق كلمة واحدة من بين شفتيّ ولحظة كنت أنحني رأيت إصبعيه

ممدوتين كي أشدّ عليهما دون أن يلتفت إليّ أو يقطع حديثه. كان بالتأكيد قد رآني دون أن يُظهر ذلك ولاحظت حينئذ أن عينيه اللتين لا تثبتان البتّة على محدّثه كانتا تتنقّلان باستمرار في كل اتّجاه كعيون بعض الحيوانات المذعورة أو عيون هؤلاء الباعة العاملين في الهواء الطلق الذين يتفحصون، فيما يجودون بكلامهم المعسول ويعرضون بضاعتهم غير القانونية، ودون أن يديروا رؤوسهم، نقاط الأفق المختلفة التي يمكن أن تجيء الشرطة منها. وقد أدهشني بعض الشيء في تلك الأثناء أن أرى أن السيّدة «دو فيلباريسيس» التي سعدت بمجيئنا كانت تبدو وكأنها لا تتوقعه. وزاد من دهشتي أن أسمع السيّد «دو شارلوس» يقول لجدّتي: «آه! إنّها لفكرة طيبة تلك التي خطرت لكم بالمجيء. ذلك رائع، أليس كذلك يا عمّتي؟» وليس من شكّ أنّه لاحظ دهشة هذه الأخيرة لدى دخولنا وحسب بوصفه رجلاً تعود أن يعطي النغمة الأساسية، نوطة الـ«لا»، أنّه يكفيه ليحيل هذه الدهشة فرحاً أن يشير إلى أنّه يشعر به بنفسه وأنّ ذلك هو الشعور الذي ينبغي أن يثيره مجيئنا. وقد صدقت حساباته في ذلك لأنّ السيّدة «دو فيلباريسيس» التي كانت تقدر ابن أخيها بالغ التقدير وتعلم إلى أيّ مدى كان يصعب أن يحسن المرء في عينه بدت فجأة وكأنها وجدت لجدتي صفات جديدة ولم تنفكّ عن الاحتفاء بها. ولكنّي لم أستطع إدراك أن يكون السيّد «دو شارلوس» قد نسي في بضع ساعات الدعوة المقتضبة جدّاً ولكنّها مقصودة في الظاهر إلى حدّ بعيد ومتعمّدة تماماً تلك التي وجّهها إليّ في الصباح نفسه، وأن دعا فكرة انطلقت كلّها منه «فكرة طيّبة» راودت جدّتي. وقلت له بهوس في الدقّة احتفظت به حتى السنّ التي أدركت فيها أنّك لا تعلم الحقيقة حول المقصد الذي داخل رجلاً بسؤاله عنه وأن الخطر الناجم عن سوء تفاهم من المرجح أنّه لن يفطن أحد له أقلّ من ذاك الناجم عن إلحاح ساذج: «ولكن، تذكر تماماً يا سيّدي، أليس كذلك، أنّك أنت من طلب إليّ في هذا الصباح أن نجيء هذا المساء؟» ولم تكشف أيّة حركة وأيّ صوت أن يكون السيّد «دو شارلوس»

قد سمع سؤالي. وإذ رأيت ذلك أعدت الكرة كالدبلوماسيّين أو كهؤلاء الشبان المتخاصمين الذين ينفقون عزيمة صادقة لا كلل فيها ولكنّها لا طائل تحتها في الحصول على إيضاحات صمّم الخصم على أن لا يقدّمها. ولم يجبني السيّد «دو شارلوس» أكثر ممّا فعل من قبل، وخيّل إليّ أنّه أبصر ابتسامة ترفّ على شفتيه، ابتسامة الذين يحكمون من علٍ على الطبائع وصنوف التربية.

وبما أنّه كان يرفض أيّ إيضاح فقد حاولت أن أقدم لنفسي إيضاحاً ولم أفلح إلا في التردّد بين العديد منها وربّما لم يكن أي منها هو الصحيح. فربما لم يتذكّر وربما كنت أنا من أساء فهم ما قاله لي صباحاً... والأكثر احتمالاً أنّه لم يشأ عن عجرفة أن يبدو وكأنه حاول اجتذاب أناس كان يحتقرهم وفضّل أن يلقي عليهم تبعة مبادرتهم إلى المجيء. ولكن لماذا أصرّ، إن كان يحتقرنا، على أن نجيء، أو على أن تجيء جدّتي بالأحرى، ذلك أنّه وجّه الحديث إليها وحدها من بيننا في أثناء تلك الأمسية ولم يوجهه مرة واحدة إليّ. كان يكتفي، وهو يتحدّث إليها وإلى السيّدة «دو فيلباريسيس» على السواء حديثاً بالغ الحرارة وقد اختبأ إلى حد ما خلفهما كما لو كان في زاوية مقصورة قصيّة، إذ يحوّل بين حين وآخر النظرة الباحثة التي يرسلها من عينيه الثاقبتين، كان يكتفي بتثبيتها على وجهي بالجدّية نفسها ومظهر الاهتمام نفسه الذي يبديه لو كان مخطوطاً من العسير حلّ رموزه.

ولا ريب أن وجه السيّد «دو شارلوس» كان شبيهاً بوجه العديد من الرجال الجميلين لو لم تكن ثمّة هاتان العينان. وحينما قال لي «سان لو» بعد ذلك، وهو يروي لي عن آخرين من آل «غيرمانت»: «إنّهم بالطبع لا يبدون بهذا المظهر الأصيل، مظهر السيّد الكبير حتى أطراف أنامله الذي يبدو به عمي بالاميد»، مؤكداً أنّ المظهر الأصيل والأناقة الأرستقراطية لم يكن فيهما على الإطلاق ما خفي أو كان جديداً بل قوامهما عناصر تعرّفت إليها دون صعوبة ودون أن أحسّ بانطباع خاصّ، كان ينبغي أن أشعر أنّ

واحدّاً من أوهامي يتلاشى. بيد أنّ هذا الوجه الذي كانت تضفي عليه طبقة خفيفة من المساحيق هيئة وجه مسرحيّ إلى حدّ ما، عبثاً كان السيّد «دو شارلوس» يغلق ملاحمه إغلاقاً تاماً، فقد كانت العينان بمثابة صدع، بمثابة كوّة لم يستطع وحدها إغلاقها، وكنت تحسّ فجأة، حسب النقطة التي اتخذت مكانك فيها بالنسبة إليه، أنّ شعاعاً يمرّ بك منها وقد انطلق من جهاز داخلي لا يبدو أن فيه ما يطمئن حتى بالنسبة إلى من كان يحمله في داخله، دون أن يتحكم به تماماً، في حالة من التوازن اللامستقر الذي يوشك دوماً أن ينفرط. وكان ما تعبّر عنه تلك العينان من حذر وقلق مستمر، إلى جانب كامل الإرهاق الذي من جرّائهما يطبع الوجه، مهما بولغ في رسمه وترتيبه، فيبرز حول العينين وحتى حدود زرقة تعاظمت دائرتها، كان يذكّر بعمليّة تخفّ، بعمليّة تنكّر قام بها رجل ذو سلطان أضحى في خطر أو محض رجل خطر ولكنّه واقع في مأساة. وددت لو أستشفّ ما كان ذلك السرّ الذي لم يكن يحمله الرجال الآخرون في صدروهم والذي سبق أن أظهر لي نظرة السيّد «دو شارلوس» غامضة إلى هذا الحدّ عندما رأيته في الصباح قرب الكازينو. ولكني لم أعد أستطيع الظنّ، مع ما أعرفه الآن عن أهليه، بأنّها نظرة لصّ أو هي، بعدما سمعت ما سمعت من حديثه، نظرة مجنون. فلئن كان جافاً إلى هذا الحد معي فيما كان بالغ اللطف مع جدتي فربّما لم يكن مردّ ذلك نفور شخصيّ؛ ذلك أنّه بقدر ما كان بعامّة رقيقاً بحق النساء اللواتي كان يروي عن عيوبهنّ دون أن يتخلّى عادة عن تسامح كبير، بذلك القدر كان يحسّ تجاه الرجال، والشبّان منهم بخاصّة، بكراهية يذكّر عنفها بتلك التي يحسّ بها بعض أعداء المرأة تجاه النساء. فقد قال السيّد «دو شارلوس» عن اثنين أو ثلاثة من الشبّان المخنثين من أسرة «سان لو» أو من أصدقائه المقربين وقد ذكر هذا الأخير أسماءهم مصادفة، قال بلهجة تكاد تكون ضارية وتخالف تماماً بروده المعتاد: «إنّهم سفلة تافهون». وفهمت أن ما كان يأخذه فوق كلّ شيء على شباب اليوم أنّهم يجاوزون الحدّ في التخنّث. كان يقول

بازدراء: «إنّهم نساء حقيقيات». ولكن أية عيشة ما كانت لتبدو مخنّثة إزاء تلك التي يودّ أن يعيشها الرجال والتي لم يجدها في يوم وافية العزيمة والرجولة؟ (فقد كان هو نفسه، في رحلات يقطعها سيراً على الأقدام وبعد ساعات من الجري، يلقي بجسده اللاهب في الأنهار الجليدية). وما كان يرتضي حتى أن يضع رجلٌ خاتماً واحداً في إصبعه.

بيد أنّ هذا التعنت في الرجولة لم يحل دون أن يتحلى بأرقّ أنواع الإحساس. فقد أجاب السيّدة «دو فيلباريسيس» التي كانت ترجوه أن يصف لجدّتي قصراً أقامت فيه السيّدة «دو سيفينييه» ثم أضافت أنها ترى شيئاً من المغالاة الكلامية في هذا الغمّ الناجم عن مفارقة هذه السيدة المملّة المدعوّة «دو غرينيان»:

- «ليس ما يبدو لي، على العكس، أكثر صحّة. ولقد كان ذلك على أيّة حال عصراً كانت تلك المشاعر مفهومة فيه أحسن الفهم. وإنّ ساكن «مونوموتابا» لدى «لافونتين» إذ يجري إلى منزل صديقه الذي ظهر له في نومه على شيء من الكآبة. والحمامة التي ترى أن أعظم الشرور هو غياب الحمامة الأخرى، ربما تبدّياً لك يا عمتي في مثل غلواء السيّدة «دو سيفينييه» إذ لا تستطيع انتظار اللحظة التي ستنفرد فيها بابنتها. وما أجمل ما تقول لها حينما تفارقها: «إن هذا الفراق يولّد ألماً في نفسي أحسه على غرار ألم في الجسم والمرء في الغياب سخيّ بالساعات، فهو يتقدّم عبر زمن يصبو إليه».

كانت جدّتي شديدة الغبطة لسماعها من يتحدّث عن هذه «الرسائل» بالضبط كما لعلها كانت فعلت، وتدهش أن يستطيع رجل إدراكها على أحسن وجه. وكانت ترى للسيّد «دو شارلوس» صنوفاً من النعومة والحساسيّة أنثويّة. وقلنا بعد ذلك فيما بيننا، عندما أضحينا وحدنا وتحدّثنا عنه كلانا، إنّه لا بدَّ خضع لتأثير عميق فرضته عليه امرأة هي أمّه، أو هي فيما بعد ابنته إن كان له أولاد. أمّا أنا ففكّرت في نفسي: «هي عشيقة»، إذ عدت إلى التأثير الذي بدا لي أن عشيقة «سان لو» مارسته عليه والذي

يسمح لي أن أتبيّن إلى أيّ حدّ ترهف النساء مشاعر الرجال الذين يعيشون معهنّ.

وأجابت السيّدة «دو فيلباريسيس» قائلة: «من المرجّح أنّه لم يكن لديها، ما إن تصبح بالقرب من ابنتها، ما تقوله لها».

- «بلى بالتأكيد. وإن اقتصر الأمر على ما كانت تدعوه «بالأمور الطفيفة جدّاً حتى يلاحظها غيري وغيرك». وكانت على أية حال بالقرب منها. وهذا «لابروبير» يقول لنا إن ذلك كل شيء: «أن تكون بالقرب ممن تحبّ ويستوي لديك أن تحدّثهم أو لا تحدّثهم». وأضاف السيّد «دو شارلوس» بصوت حزين: «وإنّه لعلى حقّ، فتلك السعادة الوحيدة؛ وإنّما الحياة، واأسفي، قد أسيء في تدبيرها إلى حدّ أنّك نادراً ما تتذوق تلك السعادة، وكانت السيّدة «دو سيفينييه» أقلّ من سواها مدعاة للرثاء، فقد سلخت قسماً كبيراً من حياتها بالقرب ممن كانت تحبّه».

- «لقد فاتك أنّ الأمر لا يتعلّق بالحبّ، بل بابنتها».

فعاد يقول بلهجة المطّلع، لهجةٍ حازمة وتقارب أن تكون حاسمة: «ولكن ليس المهم في الحياة ما نحبّ بل أن نحبّ. وأن ما كانت تحسّ به السيّدة «دو سيفينييه» إزاء ابنتها يمكن أن يشبه بالضبط الحبّ الجارف الذي وصفه «راسين» في مسرحيّة «**أندروماك**» أو مسرحية «**فيدر**» أكثر بكثير مما تشبهه العلاقات التي أقامها الفتى «سيفينييه» مع عشيقاته. وهو كذلك شأن حبّ هذا المتصوف أو ذاك لإلهه. وإنما تنجم الحدود الضيّقة جداً التي نرسمها حول الحبّ من جهلنا الكبير بالحياة فحسب».

وسأل «سان لو» عمّه بلهجة يشوبها ازدراء طفيف: «أتحبّ **أندروماك** و**فيدر** كثيراً؟».

فأجاب السيّد «دو شارلوس»: «إن أيّة مأساة لـ«راسين» تطبعها الحقيقة أكثر من مسرحيّات السيّد «فيكتور هوغو» جميعها».

وهمس «سان لو» في أذني قائلاً: «الناس بالحقيقة شيء مروّع. يفضلون «راسين» على «فيكتور هوغو»، ذلك بالحقيقة أمر فظيع! لقد اغتم

بصدق لأقوال عمّه. ولكنّه يجد عزاء في أن يقول «بالحقيقة» وخصوصاً في قوله «فظيع».

لم يكن السيّد «دو شارلوس» يكشف عن شعور رقيق يندر بالفعل أن يبدي مثله الرجال في تلك الأفكار حول الكآبة الناجمة عن العيش بعيداً عمّا يحبّه المرء (والتي لا بدّ حملت جدتي على أن تقول لي إن ابن شقيق السيّدة «دو فيلباريسيس» كان يدرك بعض الأعمال الفنيّة أفضل بكثير من عمّته وإنّ لديه على وجه الخصوص شيئاً يضعه فوق معظم جماعة النادي). كان صوته نفسه، شأن بعض أصوات الكونترالتو التي لم تراعَ فيها إلى حدّ كافٍ الطبقة الوسيطة والتي يبدو غناؤها وكأنّه إنشاد ثنائيّ يتناوبه رجل شاب وامرأة شابّة، يتوقّف لحظة يعبّر عن تلك الأفكار البالغة الرقّة على نوطات عالية ويتّخذ عذوبة غير متوقعة ويبدو كأنه يحوي فرق غناء من خطيبات وأخوات يسكبن حنانهن. على أنّ عشّ الفتيات الذي كان السيّد «دو شارلوس» سيتألم أشدّ الألم، أن يبدو، على الرغم من كرهه للتخنّث أيّاً كان، وكأنه يأويه في صوته فلم يكن يقتصر فيه على أداء المقطوعات العاطفيّة وتنغيمها. فغالباً ما كان يطرق الأسماع، فيما يتحدث السيّد «دو شارلوس»، ضحكتهن الحادّة النديّة، ضحكة تلميذات داخليّات أو نساء مدلّلات يتدبرن أمر قريبهنّ بصنوف من خبث النمّامات الداهيات.

فقد روى أنّ منزلاً سبق أن كان لأسرته ونامت فيه «ماري أنطوانيت» وكانت حديقته من تصميم «لونوتر» أصبح الآن ملكاً لرجال المال الأثرياء من عائلة «إسرائيل» الذين اشتروه. «وإسرائيل، وهو الاسم الذي يتكنّى به هؤلاء الناس، إنما يبدو لي اسم جنس وعرق أكثر منه اسماً علماً. ولست تدري، فربما لم يتكنّ هذا الصنف من الناس بأسماء وأشير إليهم باسم الجماعة التي ينتمون إليها فحسب». وصرخ قائلاً: «ليس في الأمر ما يضير! أن يكون منزل آل «غيرمانت» ويضحي ملكاً لعائلة «إسرائيل»!!! ويذكّرني ذلك بالغرفة التي في قصر «بلوا» والتي قال لي فيها الحارس الذي يقود الزوار: «ههنا كانت «ماري ستيورات» تقيم صلاتها وههنا أضع

الآن مكانسي». ولست أبغي بالطبع أن أعلم شيئاً عن هذا المنزل الذي لطّخ شرفه، وكذلك عن ابنة عمي «كلارا دو شيميه» التي هجرت زوجها. ولكنّي أحتفظ بصورة الأوّل ولا يزال على حاله، كما أحتفظ بصورة الأميرة حين لم يكن في عينيها الواسعتين من نظرات إلّا لابن عمّي. وإنما تكتسب الصورة شيئاً من الكرامة التي تنقصها حينما تكفّ عن كونها نسخة عن الواقع وترينا أشياء لم تعد موجودة». ثم قال لجدّتي: «بوسعي أن أزوّدك بواحدة منها بما أن هذا النوع من هندسة البناء يعجبك»، ولما رأى في تلك اللحظة أن منديله المطرّز الذي في جيبه تبرز منه حواشٍ ملونة وأراه بحركة سريعة وعلى وجهه ملامح الذعر التي تعلو محيّا امرأة بالغة الاحتشام على غير براءة وهي تخفي مفاتن تحكم بفرط من التحفظ أنّها قليلة الاحتشام.

وعاد يقول: «تصوري أنّ هؤلاء الناس بدؤوا بتخريب حديقة «لونوتر»، وهو أمر مستنكر كتمزيق إحدى لوحات «بوسان» سواء بسواء. وكان ينبغي أن تودع عائلة «إسرائيل» السجن لذلك». ثم أضاف بعد لحظة صمت وهو يبتسم: «صحيح أنّ ثمة دونما شكّ أموراً أخرى كثيرة كان ينبغي من جرّائها أن يقيموا فيه! إنك تتصورين على أيّة حال الأثر الذي تخلّفه حديقة إنكليزية أمام هذا الطراز المعماريّ».

وقالت السيّدة «دو فيلباريسيس»: «ولكنّ البيت من طراز «تريانون» الصغير نفسه، وقد أمرت «ماري أنطوانيت» مع ذلك بإقامة حديقة إنكليزية فيه».

فأجاب السيّد «دو شارلوس»: «حديقة تشوّه بالحقيقة واجهة «غابرييل». ولعلّه الآن من الوحشيّة بالتأكيد هدم «المزرعة»، ولكني أشكّ مع ذلك أن تكون بهذا الصدد لإحدى نزوات السيّدة «إسرائيل» الروعة نفسها التي تلازم ذكرى الملكة».

وفي أثناء ذلك كانت جدّتي قد أشارت لي أن أصعد للنوم على الرغم من إلحاح «سان لو» الذي كان قد ألمح في حضرة السيّد «دو شارلوس»،

وأعظيم خجلتي، إلى الكآبة التي كثيراً ما تنتابني في المساء قبل النوم والتي كان لا بدّ أن يجدها عمّه أمراً يفتقر إلى الكثير من الرجولة. وتأخّرت بضع لحظات ثم ذهبت ودهشت أشدّ الدهشة حينما سمعت قليلاً بعد ذلك من يطرق باب غرفتي وإذ سألت من الطارق تناهى إليّ صوت السيّد «دو شارلوس» وهو يقول بلهجة جافّة:

- «أنا شارلوس. هل يمكنني الدخول يا سيّد؟» وعاد يقول باللهجة نفسها بعدما أغلق الباب: «كان ابن أخي يروي منذ قليل، يا سيد، أنّك تشكو بعض الإزعاج قبل النوم وأنّك معجب من جهة أخرى بكتب «بيرغوت». وبما أني أحمل في حقيبتي كتاباً له لا تعرفه على الأرجح فإنّي أجيئك به كي أساعدك على قضاء هذه الآونة التي تحسّ أنّك غير سعيد فيها».

وشكرت السيّد «دو شارلوس» بانفعال وقلت له إنني خشيت على العكس أن يكون ما قاله «سان لو» عن انزعاجي لدى اقتراب الليل قد أظهرني أمام عينيه أكثر غباء ممّا كنت».

فأجاب بنبرة أكثر عذوبة: «لا بالتأكيد. قد لا تملك مزايا شخصيّته، لست أدري، وما أقلّ من يملكون! ولكنّك تملك الشباب إلى حين على الأقلّ وذلك إغراء على الدوام. وأفدح الحماقات على أيّة حال، يا سيد، أن يجد المرء المشاعر التي لا يحسّ بها مضحكة أو معيبة. وإنّي أحبّ الليل وتقول إنّك تخشاه؛ كما أحبّ الورود ولي صديق تصيبه الحمى من جرّاء رائحتها. أفتظنّ لذلك أني أحسبه أقل شأناً منّي؟ إنّي أجهد في فهم كلّ شيء وأحترس من شجب أيّ شيء. لا تبالغ على أية حال في الشكوى، ولكنّي لن أقول إن صنوف الكآبة هذه ليست شاقّة فإني أعرف ما يمكن أن ينتابك من عذاب لأمور قد لا يفهمها الآخرون. ولكنّك قد أجدت على الأقل بصرف مودّتك إلى جدّتك. إنّك تراها كثيراً. ثم إنّه حنان مصرّح به وأعني حناناً يُرَدُّ لك، وما أكثر ما لا يمكن أن نقول عنه ذلك!».

كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ينظر إلى هذه الحاجة ويرفع تلك. وكان يخيّل أنّ لديه أمراً ينبغي التصريح لي به ولكنّه لا يرى بأيّة عبارات يفعل. فأضاف قوله:

- «لديّ هنا كتاب آخر لِـ«بيرغوت» وسآتيك به»؛ وقرع الجرس، فجاء خادم بعد حين، وقال السيّد «دو شارلوس» بلهجة متعالية: «هيّا ابحث لي عن رئيس الخدم، فليس ههنا سواه من يستطيع القيام بمهمّة على نحو ذكيّ». وسأل الخادم: «أهو السيّد «إيميه»، يا سيّدي؟» - «لست أعرف اسمه؛ بلى. أتذكّر أنّي سمعت من يدعوه «إيميه». هيّا أسرع فإني مُعجل». وأجاب الخادم وهو يود أن يبدو على اطلاع بالأمر: «سيكون في الحال ههنا، فقد رأيته بالضبط في الأسفل». وانقضى بعض الوقت، وعاد الخادم. «إن السيّد «إيميه» نائم، يا سيّدي؛ ولكني أستطيع القيام بهذه المهمّة». - «لا، عليك أن توقظه فحسب». - «لا أستطيع يا سيّدي، فإنّه لا ينام ههنا». - «دعنا وشأننا إذن». وقلت، بعدما ذهب الخادم: «ولكنّك شديد الطيبة يا سيّدي، يكفيني كتاب واحد لِـ«بيرغوت» - «وهو ما يبدو لي على أية حال». كان السيّد «دو شارلوس» يمشي. وانقضت بضع دقائق على هذا النحو، ثم دار على نفسه بعد لحظات من التردّد واستدراكات عديدة وألقى إليّ بصوته الذي عاد فأضحى لاذعاً: «طابت ليلتك يا سيّد»، ومضى.

وبعد هذه العواطف السامية كلها التي سمعته يردّدها في ذلك المساء دهشت أشد في الغد الذي كان يوم رحيله أن سمعت السيّد «دو شارلوس» يقول لي، على الشاطئ بعد الظهر ولحظة كنت أزمع أن أستحمّ، وفيما كان يقترب منّي لينبئني بأنّ جدّتي في انتظاري حال خروجي من الماء، يقول، وهو يقرص رقبتي، بألفة وضحكة سوقيّتين:

- «ولكنّنا لا نبالي البتّة بجدّتنا، أليس كذلك، أيّها الوغد السافل؟».

- «كيف ذلك، إني أعشقها يا سيّد!...».

فقال وهو يتراجع خطوة وبهيئة بالغة الجفاء: «ما زلت شاباً يا سيّد

ويجدر بك أن تفيد من ذلك لتتعلّم أمرين: أولهما أن تمتنع عن الإعراب عن مشاعر أكثر تلقائيةً من أن لا يُضْمِرهَا المرء، وثانيهما ألّا تنقضّ للإجابة على الأمور التي تُقال قبل اكتناه مدلولها. فلو احتطت لنفسك منذ قليل لجنّبت النفس أن تبدو وكأنّك ترسل الكلام جزافاً كالطُّرش وأن تضيف بذلك إلى المراسي المطرزة على ثوب السباحة لديك أضحوكة ثانية. لقد أعرتك كتاباً لِ«بيرغوت» أنا بحاجة إليه، فاعمل على أن تبعث به إليّ في غضون ساعة على يد رئيس الخدمة هذا الذي يحمل اسماً مضحكاً يفيض عنه(١) والذي أفترض أنّه ليس نائماً في هذه الساعة. لقد جعلتني أتنبّه إلى أنّي حدثتك مساء البارحة عن إغراءات الشباب قبل الأوان بكثير. ولعلّي كنت أدّيت لك خدمة أفضل بتنبيهك إلى طيشه وتناقضاته وقلّة إدراكه. آمل يا سيّدي ألا يكون هذا الحمّام البارد أقلّ فائدة لك من سباحتك. ولكن لا تظلّ هكذا دون حراك فقد تصاب بالبرد. إلى اللقاء يا سيّدي».

وليس من شكّ أنّه أسف لهذه الأقوال. فقد وصلني بعد وقت قليل الكتاب الذي أعارني إياه والذي بعثت به إليه لا عن طريق «إيميه» الذي كان في «عطلة». بل عن طريق عامل المصعد - وقد جُلِّدَ بسختيان أنزل في صفحته في قطعة من الجلد المحزّز تمثّل في بروز خفيف غصناً من زهر آذان الفأر.

بعد ما ذهب السيّد «دو شارلوس» تسنّى لنا أخيراً أنا و«روبير» أن نذهب لتناول طعام العشاء في منزل «بلوك». وأدركت أثناء ذلك الاحتفال الصغير أنّ الحكايات التي كان يجدها رفيقنا مضحكة بأيسر السبل إنّما كانت حكايات للسيّد «بلوك» الوالد وأن الرجل «الغريب تماماً» كان أبداً واحداً من أصدقائه يراه على هذا النحو. هنالك عدد من الناس ننظر إليهم بإعجاب في طفولتنا، فوالد أشدّ ظرفاً من باقي الأسرة، وأستاذ يفيد في

---

(١) اسم رئيس الخدم Aimé أي المحبوب أو الحبيب.

نظرنا من الميتافيزيقا التي يكشفها لنا، ورفيق أطول باعاً منّا (مثلما سبق أن كان «بلوك» بالنسبة إليّ) يحتقر «موسيّه» كاتب «الرجاء باللّه» في حين لا نزال نحبّه، وحينما نكون قد بلغنا مرحلة العم «لوكونت» أو «كلوديل» لا يثير حماسة من بعد سوى:

«في «سان بليز» وفي «زويكا»
كنت، كنت مطمئنّ النفس»....

مكتبة
t.me/soramnqraa

ويضيف إليها:

«بادوفا» مكان شديد الجمال
فيه دكاترة في الحقوق عظام...
ولكنيّ أفضّل الـ«بولنتا»...
وتمرّ «التوباتيلا»
في معطفها الأسود الطويل

ولا يحفظ من «الليالي» جميعها سوى هذا المقطع:

«في الهافر أمام الأطلسيّ
وفي البندقيّة، في الليدو القبيح
حيث يُقبل البحر الأدرياتي الشاحب
ليموت فوق عشب أحد القبور».

ذلك أنّنا، بالنسبة إلى من نبدي به إعجاباً وثقة، نجمع له ونورد بإعجاب أشياء أدنى بكثير من تلك التي لو انصرفنا إلى عبقريتنا الخاصّة لرفضناها بقسوة، مثلما يستخدم كاتب في رواية كلمات وشخصيّات بحجّة أنها حقيقية وهي تشكّل في المجموعة الحيّة على العكس وزناً زائداً، جزءاً لا شأن له. إن رسوم «سان سيمون» التي خَطّها دون أن يعجب بنفسه، لا ريب في ذلك، رائعة، أمّا اللمحات التي يوردها على أنها جذّابة على

لسان ظرفاء عرفهم فقد ظلّت قليلة الشأن أو أصبحت متعذّرة الفهم. ولعلّه كان يترفّع عن استنباط ما يورده على أنّه بالغ الرقة أو زاهي الألوان على لسان السيّدة «كورنويل» أو لويس الرابع عشر، والأمر تجدر ملاحظته على أيّة حال لدى كثيرين غيره ويحتمل تفسيرات مختلفة يكفي أن نستبقي منها الآن هذا التفسير وقوامه أننا، في الذهنيّة التي «نُرَاقِبُ» بها، في مستوى أدنى بكثير من ذاك الذي نكون فيه حينما نبتكر.

كان هنالك إذن داخل رفيقي «بلوك» قطعة من «بلوك» الوالد يتخلّف بها هذا الأخير عن ابنه مقدار أربعين عاماً، فيروي طرائف سخيفة ويضحك منها داخل صديقي بقدر ما كان يفعل «بلوك» الوالد الخارجيّ الحقيقي، إذ كانت تنضاف إلى الضحكة التي يطلقها هذا الأخير، ولا ينسى أن يردّد الكلمة الأخيرة مرتين أو ثلاثاً كي يحسن الجمهور تذوّق حكايته. الضحكة الصاخبة التي لم يكن يفوت الابن أن يحيّي بها حكايات والده. وهكذا كان «بلوك» الشاب، بعدما يتمّ له قول الأمر الأكثر ذكاء، يبرز المكتسبات التي أخذها عن أسرته فيروي لنا للمرّة الثلاثين بعد النكبات التي كان «بلوك» الوالد يستخرجها (في الوقت الذي يستخرج فيه سترته الرسمية) في الأيام الاحتفاليّة فحسب التي كان «بلوك» الشاب يصطحب فيها أحداً يجدر به أن يفتنه: كأحد أساتذته أو ميل له يحوز سائر الجوائز أو أنا و«سان لو» في ذلك المساء. يقول مثلاً: «ناقد حربيّ طويل الباع استنتج بطريقة علميّة، مدعماً استنتاجه بالبراهين. لأيّة أسباب محتّمة سوف يُهْزَمُ اليابانيون وينتصر الروس في الحرب الروسيّة اليابانية» أو «إنّه رجل بارز يعدّونه ماليّاً كبيراً في الأوساط السياسيّة وسياسيّاً كبيراً في الأوساط الماليّة». كانت هذه الحكايات قابلة التبديل مع واحدة عن البارون «دو روتشيلد» وثانية عن السيّد «روفوس إسرائيل»، وهما شخصيّتان يجرى وضعهما على المسرح بأسلوب ملتبس يمكن أن يحملك على الاعتقاد بأنّ السيّد «بلوك» قد عرفهما معرفة شخصيّة.

وقد وقعت بنفسي في الفخّ وحسبت بدوري، من جرّاء الطريقة التي

تحدّث بها «بلوك» الوالد عن «بيرغوت»، أنّه كان في عداد أصدقائه القدامى. ولكنّ السيّد «بلوك» لم يكن يعرف مشاهير الناس إلا «بدون أن يعرفهم» لأنّه شاهدهم من بعيد في المسرح أو الشوارع. وكان يتصوّر علاوة على ذلك أن هيئته واسمه وشخصيّته لم تكن مجهولة لديهم وأنهم كثيراً ما يضطرّون إذ يلمحونه أن يقاوموا رغبة خفية في المبادرة إلى تحيته. إن رجال المجتمعات الراقية لا يفهمون أهل المواهب والفن الأصيل على نحو أفضل لأنهم يعرفونهم ويستقبلونهم على موائد العشاء. ولكنك حين يتسنى لك أن تعيش قليلاً في المجتمعات الراقية فإن غباء أهلها يحملك على أن تتمنى بشدة لو تعيش في الأوساط المتواضعة التي لا يعرف المرء فيها إلا «دون أن يعرف» وعلى أن تفترض فيها الكثير من الذكاء. وكنت أزمع أن أتبين ذلك وأنا أتحدث عن «بيرغوت».

لم يكن «بلوك» الوحيد الذي يلقى نجاحاً لدى شقيقاته اللواتي لا يكفّ عن الصياح بهن مغمغاً وهو يغوص برأسه في قصعته فكان يضحكهن بذلك حتى لتدمع عيونهن وكن على أية حال قد تبنّين لغة شقيقهن التي كن يتكلمنها بطلاقة كما لو أنها كانت إلزامية والوحيدة التي يمكن أن يستخدمها أناس أذكياء. فحينما وصلنا قالت الكبرى لواحدة ممن يصغرنها: «إمضي وأبلغي والدك الحكيم وأمك الموقرة» فقال لهن «بلوك»: «أيتها الكلبات، أقدم لكن الفارس «سان لو» ذا الرماح السريعة الذي جاء لبضعة أيام من «دونسيبير» ذات المنازل التي من حجر صقيل والغنية بالجياد». ولما كان سوقياً بقدر ما كان مثقفاً فقد كان الخطاب يُختتم عادة بمزاج أقل هوميروسية: «هيا أقللن من فتحة أرديتكن ذات المشابك الجميلة، فما هذا التصنع الذي أرى؟ إنه ليس والدي على كل حال». وتتهاوى الآنسات «بلوك» في عاصفة من الضحك. وقلت لشقيقهن مدى ما أولاني من مسرات إذ أوصاني بقراءة «بيرغوت» الذي تعشقت كتبه.

كان لِـ«سوان» الأب الذي لا يعرف «بيرغوت» إلا من بعيد وحياة «بيرغوت» إلا من أقاويل عامة الناس. كانت له طريقة غير مباشرة كذلك

في الاطلاع على مؤلفاته بالاستعانة بأحكام ظاهرها أدبي. كان يعيش في عالم الأمور التقريبية الذي نشيد فيه الفراغ ونطلق الأحكام في الضلال ولا يقلل انعدام الصحة والكفاءة فيه من الثقة بالنفس، بل العكس صحيح. وإنها لمعجزة الاعتزاز بالذات الخيّرة، فإذ يتيسر للقليل من الناس علاقات لامعة ومعارف عميقة يحسب أولئك الذين تعوزهم أنهم الأوفر نصيباً لأن نظرة المدرجات الاجتماعية تجعل كل صف يبدو هو الأفضل بالنسبة إلى من يشغله ويرى أن أعيان القوم الذين يسميهم ويذمهم دون أن يعرفهم ويبدي رأيه فيهم ويحتقرهم دون أن يفهمهم هم أقل حظوة منه وأسوأ قسمة ومدعاة للرثاء وحتى في الحالات التي لا يكفي فيها تكثير الحسنات الشخصية الزهيدة عن طريق الاعتزاز بالذات لتضمن لكل واحد كمية السعادة التي تلزمه والتي تفوق الكمية الممنوحة للآخرين. فإن الحسد ههنا ليسد هذا الفارق. صحيح أن الحسد إن تمّ التعبير عنه بجمل زاخرة بالازدراء فلا بدّ من ترجمة «لا أريد التعرّف به» بـ«لا أستطيع التعرّف به» وهو المعنى العقلي: أما المعنى الذي يداخله الهوى فهو بالتأكيد «لا أريد التعرف به». وإننا لنعلم أن ذلك غير صحيح ولكننا لا نقوله مع ذلك بداعي الخدعة المحضة، بل نقول لأننا هكذا نشعر ويكفي ذلك لإزالة المسافة الفاصلة أي لبلوغ السعادة.

وإذ تُفْسح المركزية الذاتية على هذا النحو لكل إنسان أن يبصر العالم المتنضد تحته وهو مَلِك عليه، فقد كان السيّد «بلوك » يسمح لنفسه أن يكون ملكاً لا يرحم حينما يبصر وهو يتناول الشكولاته في الصباح توقيع «بيرغوت» في أسفل مقالة في الصحيفة التي لم يكد يفتحها بعد، فيجود عليه متعالياً بمقابلة يختصرها ويصدر حكمه ويخص نفسه بالمتعة المريحة التي قوامها أن يردد بعد كل بلعة من الشراب الغالي: «بيرغوت» هذا أصبح متعذّر القراءة. كم يمكن أن يكون هذا الحيوان مزعجاً حتى ليبلغ بك أن تلغي اشتراكك، ما أشدّ تعقيده! وأي حشو فارغ!» ويتناول من جديد «عروساً» بالزبدة.

كانت أهميّة «بلوك» الوالد قد امتدت قليلاً خارج دائرة رؤيته الخاصة. فقد كان أولاده بادئ الأمر يعدّونه رجلاً متفوقاً. والأولاد ينزعون دوماً إمّا إلى انتقاص والديهم وإمّا إلى إعلاء شأنهم، والوالد أبداً أفضل الآباء بالنسبة إلى الابن الصالح حتى بمعزل عن جميع الأسباب الموضوعية الداعية إلى الإعجاب به. على أن هذه الأخيرة لم تكن غائبة تمام الغياب لدى السيّد «بلوك» الذي كان متعلماً رقيقاً ودوداً بالنسبة إلى ذويه. كانوا في أقرب الأسر يزدادون أنساً به بقدر ما تدور حفلات العشاء والسهرات العائلية، في تفتّت الحياة البورجوازية، حول أشخاص يُقال عنهم إنّهم لطفاء ومسلّون ولعلّهم في المجتمع لا يصادفون نجاحاً أكثر من عشيّتين، فيما نحكم على الناس في المجتمع الراقي «وفق معيار غير معقول على أيّة حال وحسب قواعد خاطئة ولكنّها ثابتة بالمقارنة مع مجموع الأنيقين الآخرين. وفي هذا الوسط الذي لا وجود فيه أخيراً لأمجاد الأرستقراطيّين الزائفة فإنّما يستبدلون بها امتيازات أكثر لا معقوليّة من ذلك أن تشابهاً مزعوماً في شكل الشاربين والأنف المرتفع كان. في ما يخصّ أسرته وحتى درجة بعيدة جدّاً من القرابة. يجعلهم يدعون السيّد «بلوك» بـ «دوق أومال المزيّف» (أو ليس الذي يعتمر في دنيا «خدام المنتديات» قبّعته بالورب ويرتدي سترته مشدودة عليه ليظهر بـ«فيما يُعتقد بمظهر الضابط الأجنبي. أو ليس نوعاً من الشخصيّة بالنسبة إلى رفاقه؟»).

كان التشابه من أكثرها غموضاً. على أنّه يخيّل إليك أنّه بمثابة لقب. كانوا يردّدون قولهم: «بلوك؟ أيّ بلوك؟ دوق أومال؟» مثلما يقال: «الأميرة مورا؟ أيّة أميرة؟ ملكة نابولي؟» وهناك عدد من العلامات الطفيفة الأخرى كان يضفي عليه في النهاية في نظر أبناء العم أناقة مزعومة. كان السيّد «بلوك» الذي لم يبلغ به الحال حدّ اقتناء عربة يستأجر من الشركة بعض الأيّام عربة مكشوفة بجوادين ويجتاز بها غابة بولونيا وقد استلقى بالعرض مسترخياً يضع إصبعين على صدغه وأخريين تحت ذقنه، ولئن كان الذين لا يعرفونه يرون بسبب ذلك أنّه «صاحب مشكلات» فقد كانوا يوقنون

في الأسرة أن العم «سالمون» ربّما استطاع، في ما يخصّ الأناقة، أن ينافس «غرامون» - «كادروس». كان من أولئك الأشخاص الذين تنعتهم زاوية أخبار المجتمع في صحيفة «الراديكالي» حينما توافيهم المنيّة وبسبب مائدة مشتركة مع رئيس تلك الصحيفة في أحد مطاعم الشوارع بـ«الوجه الذي يعرفه الباريسيون تمام المعرفة». وقد قال «بلوك» لي ولـ«سان لو» إن «بيرغوت» يعلم تمام العلم لماذا كان هو السيّد «بلوك» لا يحيّيه وإنّه كان يتجنّب نظراته حالما يلمحه في المسرح أو الندوة. وكست الحمرة وجه «سان لو»، لأنه فكر أن هذه الندوة لا يمكن أن تكون نادي السباق الذي سبق أن كان والده رئيساً له. وكان لا بدّ أن تكون من جهة أخرى ندوة مغلقة نسبيّاً إذ قال السيّد «بلوك» إنّ «بيرغوت» ما عاد يُستقبل اليوم فيها على حدّ زعمه. ولذلك سأل «سان لو» وهو يرتجف خوفاً من «أن يقلّل من شأن الخصم»، إن كانت تلك الندوة ندوة الشارع الملكيّ «التي كانت أسرة «سان لو» تعدّها «دون المستوى» وحيث يعلم أنهم يستقبلون بعض اليهود فأجاب السيّد «بلوك» بلهجة لامبالية فيها اعتزاز وخجل: «لا» إنها ندوة صغيرة ولكنّها أوفر إمتاعاً وتدعى «ندوة الحمقى» ويطلقون فيها أحكاماً قاسية على الرأي العام. وسأل «بلوك» الابن والده كيما تتوافر له فرصة لكذبة مشرّفة: أليس السيّد «روفوس إسرائيل» رئيساً لها؟» دون أن يرتاب أنّ رجل المال هذا لم يكن يتمتع في نظر «سان لو» بما يتمتع به من مهابة في نظر ذويه. ولم يكن السيّد «روفوس إسرائيل» بالحقيقة في «ندوة الحمقى» بل كان واحداً من موظّفيه، بيد أنّه كان على علاقة طيّبة بربّ عمله وكان في حوزته لذلك بطاقات تعود لرجل المال الكبير فيقدّم واحدة منها للسيّد «بلوك» حينما يسافر هذا الأخير على خطّ كان السيّد «روفوس» مديره، الأمر الذي كان يحمل «بلوك» الوالد على أن يقول: «سأمرّ على الندوة لأطلب توصية من السيّد «روفوس». وكانت البطاقة تمكّنه من أن يبهر رؤساء القطارات. وأبدت الآنسات «بلوك» اهتماماً أكبر بـ«بيرغوت» فعدن إليه بدلاً من موالاة الحديث حول «الحمقى»، وسألت الصغرى

أخاها بلهجة من أكثرها جدّيّة إذ كانت تظنّ أن ليس في العالم للدلالة على أرباب المواهب من تعابير غير تلك التي يستخدمها: «أتراه «جدعاً» مدهشاً حقاً «بيرغوت» هذا؟ أهو من فئة «الدراويش» العظام، من «الجدعان» أمثال «فيلييه» أو «كاتول»؟ وقال السيّد «نسيم برنار»: «لقد التقيت به في عدّة اجتماعات عامّة إنّه أخرق وضرب من شخصيّة شليميل»[1]. لم يكن في هذا التلميح إلى أقصوصة «شاميّسو» ما يضير إلى حدّ بعيد، ولكنّ هذا النعت «شليميل» كان من ضمن تلك اللغة المحليّة التي نصفها ألماني والنصف يهوديّ كانت تفتن السيّد «بلوك» في استعمالها بين الأقربين ولكنّما يجدها سوقيّة وفي غير محلّها في حضرة الغرباء ورمى لذلك عمّه بنظرة قاسية وقال «بلوك»: «إنّه رجل موهبة» وقالت شقيقته بلهجة رصينة كأنّما لتقول إنّ لي عذري في هذه الشروط: «آه!» وقال «بلوك» الوالد بازدراء: «جميع الكتّاب أصحاب موهبة». وقال ابنه وهو يرفع شوكته ويغضّن عينيه بلهجة مستهزئة شيطانيّة: «بل يبدو أنّه يزمع ترشيح نفسه للأكاديمية» فأجاب «بلوك» الوالد الذي لم يكن يبدو أنّه يحتقر الأكاديمية احتقار ابنه وبناته: «دعك من هذا، فليس يملك الحجم اللازم» - «والأكاديمية منتدى على كلّ حال، و«بيرغوت» لا يتمتع بأيّة ضمانة» يقول عمّ السيّدة «بلوك» الغنيّ. وهو شخص وديع لا يعرف الأذيّة. ولعل نسبة «برنار» كانت كافية لتوقظ وحدها مواهب التشخيص لدى جدّي. إلا أنها ربّما بدت لا تنسجم إلى حدّ كاف مع وجه كان يبدو وكأنما جيء به من قصر «داريوس» وأعيد تركيبه على يد السيّدة «ديولافوا» لو لم يسهم اسم «نسيم»، وقد اختاره هاوٍ رغب في أن يكلّل هذا المحيّا الذي من مدينة «سوس» بإكليل شرقي. في أن يرفرف من فوقه جناحا ثور برأس إنسان من خورساباد. ولكن السيّد «بلوك» لم يكن يكفّ عن شتم عمّه إمّا لأن

---

(١) Schelemihl بطل رواية للكاتب «شاميسو» (Chamisso) باع ظله للشيطان في مقابل المال ثم عاد فاسترده بعد عذاب طويل.

البساطة المستسلمة لمن كان هدف مضايقاته كانت تستثيره وإمّا لأنّ الدارة يدفع أجرتها السيّد «نسيم برنار» فيبغي المستفيد أن يُظهر أنّه يحتفظ باستقلاله وأنّه على وجه الخصوص لا يحاول عن طريق المصانعات أن يضمن لنفسه ميراث الغنيّ المقبل. كان هذا الأخير مجروح الشعور أن تتم معاملته بهذه الفظاظة في حضرة رئيس الخدم، فهمس بجملة متعذرة الفهم كنت تميز فيها فقط: «حينما يحضر «الميسخوريس»، وميسخوريس تعني في الكتاب المقدس خادم الله. وكان آل «بلوك» يستخدمون اللفظة فيما بينهم للدلالة على الخدام ويُبدون على الدوام اغتباطاً بذلك لأن اليقين بأنه لن يفهمهم لا المسيحيون ولا الخدام أنفسهم إنما كان يبعث في نفس السيد «نسيم برنار» والسيد «بلوك» حماسة لميزتهم الخاصة المضاعفة في كونهم «أسياداً» و«يهوداً»، ولكن سبب هذا الارتياح الأخير كان ينقلب سبب استياء عندما يكون ثمة أناس. وكان يرى «بلوك»، حينما سمع عمه يقول «ميسخوريس» أنه يبالغ في إبراز جانبه الشرقي، مثلما تغتاظ امرأة لعوب دعت بعض صديقاتها مع جماعة راقية إن هن ألمحن إلى مهنهن كنساء لعوبات أو استخدمن كلمات غير لائقة ولذلك فبدلاً من أن يخلف رجاء عم «بلوك» في صدره بعض الأثر لم يستطع هذا الأخير، وقد خرج عن طوره، أن يملك نفسه من بعد، فلم يُضِع بعدها فرصة واحدة يسب فيها عمه التعيس.

صاح السيّد «بلوك» قائلاً، فيما يحني السيّد «نسيم برنار» حزيناً فوق صحته لحية جعدة كالتي للملك «سرجون»: «بالطبع حينما تتوافر ثمة حماقة سخيفة تقولها أمكننا التأكد أنك لن تدعها تفلت. ولعلك كنت أوّل من يلحس قدميه لو كان حاضراً هنا». وكان رفيقي يشبه كثيراً شقيق جدّه منذ أن أضحت لحيته في مثل تجعيد تلك وزرقتها.

وقال السيّد «نسيم برنار» لِـ«سان لو»: «ويحك، أأنت ابن المركيز «دو مارسانت»؟ لقد عرفته تمام المعرفة» وظننت أنّه يبغي أن يقول «عرفته» بالمعنى الذي كان «بلوك» يعرف فيه «بيرغوت»، أي بمجرّد الرؤية. ولكنّه

أضاف قائلاً: «كان والدك أحد أصدقائي الحميمين» وفي أثناء ذلك كست وجه «بلوك» حمرة شديدة. وبدا والده شديد الانزعاج فيما تضحك الآنسات «بلوك» وهنّ يكتمن ضحكتهنّ. ذلك أن الميل إلى التباهي، وقد كتمه «بلوك» الوالد وأبناؤه، قد ولد لدى السيّد «نسيم برنار» عادة الكذب المتواصل. فقد كان السيد «نسيم برنار» على سبيل المثال يأمر أثناء سفره أن يجيئه خادمه في الفندق على نحو ما ربّما يفعل «بلوك» الوالد، بجميع صحفه إلى قاعة الطعام وفي منتصف الغداء حينما يجتمع الكلّ هناك ليتبيّنوا تماماً أنّه يسافر وبصحبته خادم. إلا أن العم كان يقول للناس الذين يرتبط معهم بصداقة إنّه عضو في مجلس الشيوخ، الأمر الذي ما كان ابن الشقيق ليُقدم عليه البتّة وعبثاً يوقن أنهم سيعلمون ذات يوم أنّ اللقب منتحل إلا أنّه لا يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يقاوم رغبته في اتخاذه. كان السيّد «بلوك» يتألم كثيراً من جرّاء أكاذيب عمّه وجميع ما تسبّب له من إزعاجات. فقال بصوت خافت لِـ«سان لو»: «لا تعره انتباهك فإنّه كثير الكذب»، الأمر الذي زاد من اهتمامه إذ كان شديد الاهتمام بنفسيّة الكذّابين. وأكمل القول رفيقنا «بلوك»: «بل وأكذب من «أوذيسيوس» الذي من «إيتاكا» مع أنّ «أثينيه» دعته أكذب الناس». وصاح السيّد «نسيم برنار» قائلاً: «ويحي! ما كنت أتوقع لوالدك تناول طعام العشاء مع ابن صديق! ولكن لديّ في باريس صورة لوالدك ورسائل منه ما أكثرها كان يدعوني على الدوام «عمّي» ولم يدر أحد سبب ذلك. كان رجلاً فاتناً متألّقاً. وإني أذكر عشاء في منزلي في «نيس» حضر فيه «ساردو» و«لابيش» و«أوجييه»، وتابع السيّد «بلوك» الوالد بلهجة ساخرة: و«موليير» و«راسين» و«كورنيي»، وأتمّ ابنه التعداد إذ أضاف قائلاً: «و«بلوتوس» و«ميناندروس» و«كاليذاسا»». وقطع السيد «نسيم برنار» روايته فجأة وقد جُرِح شعوره وظلّ صامتاً حتى نهاية العشاء فحرم نفسه عن زهد متعة عظيمة.

وقال «بلوك»: «سان لو» يا ذا الخوذة البرونزيّة عد فخذ قليلاً من هذه

البطّة ذات الفخذين المكتنزين شحماً، اللذين سكب عليهما مضحّي الطيور الداجنة الشهير العديد من أكواب النبيذ الأحمر».

كان من عادة السيّد «بلوك»، بعدما طلع بالمعتّق من الحكايات عن السيّد «روفوس إسرائيل» وآخرين إكراماً لصديق مرموق أن يبتعد، وقد أحس أنّه هزّ مشاعر ابنه إلى درجة الحنان كي لا يهون في عيني الفتى الصغير. بيد أن السيّد «بلوك» كان يضيف إن توفر سبب رئيسي تماماً، كحالة مثلاً حينما نجح ابنه في امتحان «التبريز»، كان يضيف إلى مجموعة الطرائف المعتادة هذه النكتة الساخرة التي يخصّ بها بالأحرى أصدقاءه الشخصيّين والتي أحس «بلوك» الأصغر باعتزاز شديد إذ رآه يرويها لأصدقائه هو: «ذنب الحكومة لا يغتفر، فإنّها لم تستشر السيّد «كوكلان»! وقد أعلن السيّد «كوكلان» أنّه مستاء» (كان السيّد «بلوك» يفخر بأنّه رجعيّ ويحتقر جماعة المسرح).

إلا أن الحمرة كست وجوه الآنسات «بلوك» وشقيقهنّ حتى بلغت أطراف الآذان لشدّة ما أصابهم من تأثر حينما أمر «بلوك» الوالد كيما يبدو ملكي التصرّف حتى النهاية إزاء زميلي ابنه أن يحضروا الشامبانيا وأعلن بلهجة لا مبالية أنّه عمل كيما يزيد من بهجتنا على حجز ثلاثة مقاعد للعرض الذي كانت تقدّمه في العشيّة نفسها في الكازنيو فرقة أوبرا هزليّة، كان يأسف أن لم يستطع الحصول على مقصورة، فقد شغلت جميعها. كثيراً ما جربها على أيّة حال، والمرء أفضل حالاً في الصالة. ولئن كان عيب الابن، يعني ما كان يحسبه الابن خافياً على أعين الآخرين، لئن كان الفظاظة، فعيب الوالد كان البخل. ولذلك تمّ تقديم نبيذ عاديّ فوّار في قنينة بمثابة شامبانيا كما تمّ استئجار مقاعد في الأمكنة المخصّصة للعامّة التي تساوي نصف القيمة وذلك بمثابة مقاعد في الصالة، وقد أدخل في روعه بأعجوبة بفضل تدخّل عيبه السماوي أن لن يلاحظ الفارق أحد لا على المائدة ولا في المسرح (حيث كانت جميع المقصورات خالية) وحينما سمح لنا السيّد «بلوك» أن نغمس شفتينا في أقداح عريضة يزيّنها

ابنه باسم «أكواب عميقة الجنبات» دعانا لمشاهدة لوحة كان يعشقها إلى حدّ أنه كان يحملها معه إلى «بالبيك» وقال لنا إنّها من أعمال «روبنس». وسأله «سان لو» بسذاجة إن كانت تحمل توقيعاً فأجاب السيّد «بلوك» وقد كسا الاحمرار وجهه أنّه اقتطع التوقيع بسبب الإطار، الأمر الذي لا يرتدي أيّة أهميّة بما أنّه لا يبغي بيعه. ثم صرفنا بسرعة ليغوص في «**الجريدة الرسمية**» التي كانت أعدادها تزحم المنزل والتي أضحت قراءتها ضرورية له، فيما قال لنا، «من جرّاء وضعه البرلماني» الذي لم يزوّدنا بأيّة إيضاحات حول طبيعته الحقّة وقال لنا «بلوك»: «آخذ منديلاً لأن ريح الجنوب وريح الشمال تتنافسان فوق البحر الكثير الأسماك وإن تأخرنا بعد العرض فلن نعود إلا في تباشير الفجر ذي الأنامل الأرجوانية». ثم سأل «سان لو» قائلاً، حينما أصبحنا في الخارج (وارتجفت خوفاً إذ سرعان ما أدركت أن «بلوك» إنّما كان يتحدث عن السيّد «دو شارلوس» بهذه اللهجة الساخرة): «بالمناسبة، من كان ذاك الكراكوز العظيم الذي كان يرتدي بدلة عاتمة والذي شاهدتك تأخذه في نزهة على الشاطئ صبيحة قبل البارحة؟» «فأجاب «سان لو» مغضباً: «إنّه عمّي وكانت «الزلّة» للأسف بعيدة عن أن تبدو في نظر «بلوك» أمراً ينبغي تجنّبه فأخذ يتلوى من الضحك»: «تهاني، كان ينبغي أن أحرز إنّه رائع الأناقة وله سحنة مضحكة جدّاً لِخَرِف من أفضل طراز» وردّ «سان لو» بحنق: «إنّك مخطئ أتم الخطأ، فهو شديد الذكاء». - «يؤسفني ذلك إذ هو إذ ذاك أقلّ كمالاً وددت كثيراً على أيّة حال لو أتعرف إليه فإني متأكّد أنّني قد أسطّر روايات مناسبة على دراويش من هذه الطينة، وهذا إن مرّ أمامك يقتلك ضحكاً. ولكني قد أهمل الجانب الكاريكاتوري في السحنة التي أضحكتني، عذري إليك، فترة طويلة. والجانب في أساسه مبتذل في نظر فنان مولع بجمال الجُمل الشكليّ، وقد أبرز الجانب الأرستقراطيّ لدى عمّك الذي يخلف فيك باختصار القول أثراً ضخماً ويدهشك حالما تنقضي الضحكة الأولى من جراء أسلوب رفيع جدّاً». ثم قال وهو يوجّه حديثه إليّ في هذه المرّة:

«لكن ثمة أمراً في مجال مختلف تماماً أريد أن أسألك عنه وفي كل مرّة نجتمع فيها ينسيني إله من ساكني «الأولمبوس» السعداء، ينسيني تماماً أن أسألك هذه المعلومات التي كان يمكن أن تفيدني من قبل أعظم الفائدة وسوف تفيدني بالتأكيد. فمن هي تلك المرأة الجميلة التي التقيتك بصحبتها في حديقة الحيوانات يرافقها سيّد أحسب أنّي أعرفه بالشكل وفتاة طويلة الشعر؟» وكنت قد لاحظت تماماً أنّ السيّدة «سوان» لم تكن تتذكّر اسم «بلوك» بما أنّها ذكرت لي اسماً آخر ووصفت صديقي بأنّه تابع لوزارة لم أفطن البتّة مذ ذاك أن أستعلم إن كان دخلها. ولكن كيف كان يمكن لِـ«بلوك» الذي طلب، حسبما قالت لي حينذاك، التعرف إليها أن يجهل اسمها؟ لقد أصابني من الدهشة ما ظللت معه فترة دون إجابة فقال لي: «تهانيّ في جميع الأحوال، فلا بدّ أنّك لم تحسّ بالملل معها، لقد سبق أن التقيت بها بضعة أيّام قبل ذلك في قطار «الحزام»، وقد تكرّمت بفكّ حزامها لصالح خادمك وإنّي ما قضيت البتّة فترات في مثل روعتها، وكنّا نزمع اتّخاذ جميع التدابير لنلتقي ثانية حينما دفعت قلة الذوق شخصاً كانت تعرفه إلى الصعود ما قبل المحطة الأخيرة» ولم يبدُ أن الصمت الذي لزمته قد راق «بلوك»، فقال لي «كنت آمل أن أعرف بفضلك عنوانها وأن أبادر فأتذوّق في منزلها عدّة مرّات في الأسبوع متع «إيروس»[1] العزيزة على قلوب الآلهة، ولكنّي لا ألح بما أنّك اخترت التكتم بشأن محترفة وهبتني ذاتها ثلاث مرّات على التوالي وبأكثر الطرق تفنّناً بين باريس و«مطلع النهار». سوف أعود فألقاها بالتأكيد في هذه العشيّة أو تلك».

وذهبت لزيارة «بلوك» بعد ذلك العشاء. وردّ لي زيارتي ولكنّي كنت قد خرجت، وشاهدته «فرانسواز» يسأل عنّي ولم تكن بعد بالمصادفة قد رأته حتى ذاك مع أنّه جاء إلى «كومبريه». ولم تعلم لذلك سوى أن أحد السادة الذين كنت أعرفهم قد مر ليراني وتجهل لأيّ سبب، وكان لباسه

---

(١) إله الحب لدى قدماء اليونان.

عاديّاً ولم يخلّف لديها انطباعاً كبيراً. ولكن عبثاً كنت أعلم أن بعض أفكار «فرانسواز» الاجتماعية سوف تظلّ دوماً مستغلقة عليّ، وكانت ربّما تقوم في جزء منها على خلط بين الكلمات وأسماء أخذ بعضها مرّة وإلى الأبد محلّ بعضها الآخر. إلا أني لم أستطع أن أمنع نفسي، أنا الذي منذ زمن بعيدٌ عن طرح أسئلة على نفسه في تلك الحالات، عن البحث عمّا يمكن أن يمثله اسم «بلوك» من أمر عظيم في نظر «فرانسواز». ذلك أني ما إن قلت لها إن ذلك الشابّ الذي أَبْصَرتُهُ كان السيّد «بلوك» حتى ارتدّت بضع خطوات إلى الوراء لشدّة ما كان ذهولها وخيبتها عظيمين، وصاحت بهيئة المصعوق: «كيف ذلك، أهذا هو السيّد «بلوك»؟ كما لو انبغى أن تملك شخصيّة بمثل تلك المهابة هيئة «تكشف لك» في الحال أنّك في حضرة أحد عظماء الأرض، وبطريقة من يجد أن شخصيّة تاريخيّة ليست على مستوى شهرتها كانت تردّد بلهجة منفعلة تحسّ فيها بالنسبة إلى المستقبل بذور ارتيابيّة شاملة: «كيف ذلك، أهذا هو السيّد «بلوك»! حقاً لا يخيّل إليك ذلك حينما تراه». كانت تبدو وكأنّها تحقد عليّ لذلك كأنما ضخّمت لها في يوم شخص «بلوك». ولكنّها تكرّمت وأضافت: «حسن، مع كلّ ما يمكن أن يكون عليه السيّد «بلوك» فإن باستطاعة سيّدي أن يقول إنّه يضاهيه تماماً».

ووقعت لها بعد قليل بشأن «سان لو» الذي كانت تعبده خيبةٌ من نوع آخر ومدّة أقلّ: فقد عرفت أنّه جمهوري. لقد كانت «فرانسواز» ملكية على الرغم من أنّها تقول، وهي تتحدّث مثلاً عن ملكة البرتغال بقلّة الاحترام تلك التي تمثّل لدى الشعب أقصى الاحترام: «إميليا، أخت فيليب». فأما أن يقف مركيز، وقد بهرها، في صفّ الجمهوريّة فأمر لا يبدو حقيقيّاً في نظرها من بعد. وكانت تبدي التبرّم نفسه كما لو أني أعطيتُها علبة حَسِبَتها من ذهب فشكرتني عليها بفيض من العاطفة ثمّ كشف لها جواهري أنّها من طلاء. وسحبت في الحال تقديرها لِـ«سان لو»، ولكنّها أعادته إليه بعد قليل إذ فكّرت أنّه لا يستطيع، وهو المركيزِ «دو سان لو»، أن يكون جمهوريّاً

وأنّه كان يتظاهر فحسب بداعي المصلحة لأن الأمر يمكن أن يعود عليه، مع الحكومة القائمة، بالنفع الكبير. ومنذ ذلك اليوم توقّف جفاؤها إزاءه وحنقها عليّ. كانت تقول حينما تتحدث عن «سان لو» «إنّه مراءٍ»، تقولها بابتسامة عريضة طيّبة يدرك منها المرء تمام الإدراك أنّها أخذت تقدره من جديد بقدر ما فعلت في اليوم الأوّل وأنّها غفرت له.

ولكنّ صدق «سان لو» وتجرده كانا على العكس مطلقين، وإنّما ذلك النقاء الأخلاقي الكبير الذي إذ لا يستطيع أن يُشبع ذاته كليّاً داخل شعور أناني كالحبّ ولا يلاقي من جهة أخرى في نفسه الاستحالة التي لديّ على سبيل المثال، استحالة العثور على غذاء روحيّ في غير ذاته، إنّما هو الذي كان يجعله قادراً حقاً على الصداقة بقدر ما كنت عاجزاً عنها.

ولم تكن «فرانسواز» في ضلال أقلّ حول «سان لو» حينما تقول إنّه يبدو هكذا وكأنّه لا يزدري الشعب ولكنّ ذلك غير صحيح، فما كان عليك إلا أن تراه حينما كان يغتاظ من حوذيّه. لقد اتّفق بالفعل لِ«روبير» بعض الأحيان أن يؤنّبه ببعض الخشونة ولكنّها لديه أقلّ برهاناً على الشعور بالفارق بين الطبقات منها على المساواة بينها. فقد قال لي بمثابة ردّ على اللوم الذي كنت أوّجهه إليه لأنه عامل ذاك الحوذي بخشونة: «ولكن لماذا أتصنّع التحدّث إليه بأدب؟ أو ليس مساوياً لي؟ أو ليس منّي في مثل قرب أعمامي وأولاد أعمامي مني؟ تبدو وكأنّك ترى أنّه يجدر بي معاملته باحترام معاملة الأدنى!» وأضاف باشمئزاز: «إنّك تتكلم كالأرستقراطيّين».

ولئن كان ثمّة بالفعل طبقة يحسّ إزاءها بالكراهية والتحيّز فإنّما كانت الأرستقراطيّة وإلى حدّ الاعتقاد الصعب بتفوّق شخص من المجتمع الراقي بقدر ما يعتقد بسهولة بتفوّق رجل الشعب. وإذ كنت أحدّثه عن أميرة «لوكسمبور» التي التقيتها مع عمّته قال لي:

– «إنّها بلهاء كمثيلاتها جميعهن، وهي على أيّة حال قريبتي إلى حدّ ما».

ولما كان متحيّزاً ضدّ الجماعة التي تتردّد عليه فنادراً ما كان يرتاد

المجتمع الراقي وكان الموقف المستخفّ أو العدائي الذي يتّخذه فيه يزيد لدى جميع الأقربين من أهله الغمّ الناجم عن علاقته بامرأة من «دنيا المسرح»، علاقة ينعون عليها أنّها مشؤومة بالنسبة إليه وأنّها نمّت لديه على وجه الخصوص روح الانتقاد تلك وروح التمرّد، وأنها «أفقدته سواء السبيل» بانتظار أن يفقد مكانته تماماً. ولذلك كان الكثير من الرجال السطحيّين في ضاحية«سان جيرمان» لا يرحمون حينما يتحدّثون عن عشيقة «روبير» كانوا يقولون: «المومسات يؤدّين وظيفتهنّ وهنّ كغيرهن في ذلك سواء بسواء. أمّا هذه فلا! لن نغفر لها! فقد أساءت كثيراً إلى شخص نحبّه». لم يكن بالتأكيد أوّل من شُدّت قدمه إلى قيد. ولكن الآخرين كانوا يلهون لهو رجال المجتمع وظلّوا يفكرون في السياسة وفي كلّ شيء تفكير أهل المجتمع. أما هو فقد كانت أسرته تجده «ناقماً». ولم تكن تتبيّن أنّه في ما يخصّ العديد من شباب المجتمع الراقي إنّما تكون عشيقتهم في الغالب معلّمهم الحقيقي، والعلاقات التي من هذا القبيل مدرسة الأخلاق الوحيدة التي يطّلعون فيها على ثقافة رفيعة ويتعلّمون فيها المعارف غير المغرضة، ولولا ذاك لظلّوا غير مثقفي العقول قساة في صداقاتهم يفتقرون إلى اللين والذوق. والمرأة حتى في طبقات الشعب الدنيا (التي كثيراً ما تشبه الطبقات العليا في ما يخصّ البذاءة) تميل، إذ هي أرقّ شعوراً وأشدّ إرهافاً وأوفر فراغاً، إلى بعض اللباقات وتحترم بعض مواقع الجمال في الشعور والفنّ وتضعها، وإن هي لم تدركها، فوق ما كان يبدو مشتهى كأكثر ما يكون لدى الإنسان من مال ومكانة. وسواء أتعلّق الأمر بعشيقة أحد روّاد النوادي الشباب كـ«سان لو» أم بعشيقة عامل شاب (فالكهربائيون مثلاً يعدّون اليوم في صفوف الفروسيّة الحقّة)، فإن عشيقها ينظر إليها بالكثير من الإعجاب والاحترام حتى لا يعمّمها على ما تحترمه هي ذاتها وتعجب به، وبذلك ينقلب سلّم القِيم بالنسبة إليه، فإنّها بسبب جنسها نفسه ضعيفة وتعتريها اضطرابات عصبيّة لا تفسّر. ولعلّها كانت تثير سخرية هذا الشابّ القويّ لدى رجل، وحتى لدى امرأة غيرها، لدى امرأة هو ابن

أخيها أو ابن عمّها ولكنه لا يستطيع رؤية من يحبّها تتعذّب. فالنبيل الشابّ الذي له عشيقة شأن «سان لو» إنّما يتعوّد حينما يمضي لتناول العشاء معها في الملهى أن يحمل في جيبه مسحوق الناردين الذي قد تحتاجه وأن يأمر الخادم بحزن ودون سخرية أن يهتمّ، بإغلاق الأبواب دونما ضجّة وألا يضع غطاءً رطباً على المائدة كي يجنّب صديقته ذلك الضيق الذي لم يشعر به في يوم في ما يخصّه والذي يؤلّف في نظره عالماً خفياً علّمته أن يؤمن بحقيقته، الضيق الذي يرثي له الآن دون أن يحسّ لذلك بحاجة إلى معرفته والذي سيرثي له حتى عندما ستحسّ به أخريات غيرها. إن عشيقة «سان لو» (شأن الرهبان الأوائل في العصر الوسيط في ما يخصّ المسيحيّة) قد علمته الإشفاق على الحيوانات لأنها كانت تتعشقها، فلا تتنقّل البتّة دون كلبها وترنجاتها وببغاواتها، وكان «سان لو» يسهر عليها بعناية الأم ويعدّ الذين لا يحسنون إلى الحيوانات من صنف البهائم. وإنّ ممثّلة، أو ما كان على حدّ زعمها من هذا القبيل، كتلك التي كانت تعيش معه - سواء أكانت ذكيّة أم لا، وهو أمر كنت أجهله - إنّما جنّبته مخاطر التحذلق وشفته من الطيش إذ جعلته يجد مخالطة نساء المجتمع مملّة ويرى من باب المشقّة وجوب الذهاب إلى أمسية. ولئن شغلت العلاقات الدنيويّة بفضلها حيّزاً أقلّ في حياة عشيقها الشاب، فقد علّمته عشيقته أن يسبغ على صداقاته نبلاً ورقّة مشاعر في حين كان الغرور أو المصلحة سيوجّهانها مثلما ستطبعها الخشونة لو كان مجرد رجل منتديات. فسرعان ما كانت تميّز، بغريزة المرأة لديها وإذ كانت تقدّر أكثر من سواها لدى الرجال بعض صفات الرقّة التي ربّما أنكرها بدونها أو استخفّ بها، ذاك الذي من بين أصدقاء «سان لو» يحمل له مودّة حقّة وتفضّله. وكانت تفلح في حمله عنوة على الإحساس بجميل هذا الأخير، وعلى أن يعرب له عن ذلك، وعلى ملاحظة الأشياء التي تشيع السرور في نفسه وتلك التي تبعث فيها الغمّ. وأخذ «سان لو» بعد قليل، دون أن تكون به حاجة من بعد إلى أن تنبّهه، يهتمّ بكلّ ذلك، وفي «بالبيك» التي لم تكن حاضرة فيها وبالنسبة إليّ أنا

الذي لم تره قطّ والذي ربّما لم يحدّثها بعد عنه حتى في رسائله، كان يغلق من تلقاء ذاته نافذة عربة استقلّها ويبعد الأزهار التي تؤذيني، وحينما اضطرّ لدى رحيله أن يودّع عدّة أشخاص في الآن نفسه تدبّر أمره لمفارقتهم قبل الأوان بقليل كي يظلّ وحده معي وآخر الكلّ ويقيم هذا الفارق بينهم وبيني ويعاملني معاملة تختلف عن الآخرين. كانت عشيقته قد فتحت عقله على اللامرئي وأدخلت شيئاً من الجديّة في حياته وضروباً من الرقّة في فؤاده، إلا أن كلّ ذلك قد خفي على الأسرة الباكية التي كانت تردّد قولها: «سوف تقتله تلك العاهرة وإنها بانتظار ذلك تلطّخه بالعار». والصحيح أنّه كان قد فرغ من جني كامل الفائدة التي يمكن أن تمنحه إيّاها، وما كانت الآن إلا سبباً في عذاب لا ينقطع، ذلك أنّها أخذت تكرهه وتعذبه. فقد شرعت ذات يوم تجده غبياً ومضحكاً لأن الأصدقاء الذين اتّخذتهم في صفوف كُتّاب وممثّلين شباب قد أكّدوا لها أنّه كذلك فكانت تردّد بدورها ما قالوا بهذه الحماسة وانعدام الحذر اللذين يبديهما المرء في كلّ مرّة يستقي فيها من الخارج ويتبنى آراء وعادات كان يجهلها كليّاً. كانت تعلن بملء الخاطر، شأن أولئك الممثّلين، أنّ الهوّة بينهما يتعذّر اجتيازها لأنّهما من جنس مختلف وأنّها من أهل الفكر وهو عدوّ الفكر بالمولد ومهما زعم في ذلك. كان ذاك الرأي عميقاً في نظرها فتحاول إثباته في أكثر أقوال عشيقها تفاهة وفي أقلّ حركاته. ولكن حينما أقنعها الأصدقاء أنفسهم علاوة على ذلك أنّها إنّما تهدم، فيما يقولون، الآمال الكبرى التي بشرت بها، وذلك في صحبة لا تلائمها، وأن عشيقها سوف يؤثر عليها في نهاية المطاف، وأنّها تخرّب مستقبلها الفني في العيش معه، فقد انضافت إلى احتقارها لـ«سان لو» الكراهية نفسها التي تعمرها لو أنّه أصرّ على أن ينقل إليها مرضاً قاتلاً. كانت تلتقي به أقلّ ما يمكن فيما توالي تأجيل لحظة القطيعة النهائية والتي كانت تبدو لي قليلة الاحتمال إلى حدّ بعيد. كان «سان لو» يقدم في سبيلها على تضحيات يبدو من العسير معها أن تلقى رجلاً آخر يقبل الإقدام على مثلها، ما لم تكن فاتنة الجمال (ولكنه لم يشأ في يوم أن

يريني صورتها قائلاً لي: «إنّها ليست بادئ الأمر على جمال كبير، ثم إنّها لا تنجح في الصور إذ هي صور آنيّة أخذتها بنفسي بآلة «الكوداك» وربّما زوّدتك بفكرة خاطئة عنها»). ولم يخطر لي أن ميلاً جارفاً إلى الشهرة، حتى عندما لا تتوافر لنا الموهبة، وأن التقدير، مجرّد التقدير الخاصّ، الذي يغدقه أشخاص يتمتعون بالمهابة بالنسبة إلينا، يمكن أن يألفا (وربّما لم تكن تلك حالة عشيقة «سان لو») حتى في نظر امرأة لعوب، دوافع أكثر حسماً من متعة كسب المال. أمّا «سان لو» الذي لم يكن يحسب عشيقته، دون أن يدرك تمام الإدراك كلّ ما كان يجول في خاطرها، صادقة تماماً في مآخذها الظالمة عليه ولا في عهود الحبّ الأبديّ التي تقطعها، فقد كان يوافيه بعض الأحيان شعور بأنها سوف تهجره حينما تستطيع ذلك وقد رفض لهذا السبب، تدفعه دونما شك غريزة البقاء في حبّه الذي ربّما فاق «سان لو» نفسه بُعْدَ نظر، وإذ يبدي من جهة أخرى دهاء عمليا كان يتّفق لديه وأكثر اندفاعات القلب زخماً وأقلّها تبصّراً، رفض أن يشكلّ لها رأس مال واقترض مبلغاً ضخماً كي لا يعوزها شيء ولكنّه لا يسلّمها إيّاه إلا يوماً بعد يوم. وليس من شكّ أنّها كانت تنتظر، إن هي فكّرت حقاً بهجرانه، تنتظر بأعصاب باردة أن تكون «جمعت أرباحها»، الأمر الذي ربّما اقتضى ولا شكّ المبالغ التي يجود بها «سان لو» وقتاً قصيراً جدّاً ولكنّه على أيّة حال وقت يُمنح علاوة ليمدّ في سعادة صديقي الجديد أو في شقائه.

لقد بدأت هذه الفترة المأساوية في علاقتهما - التي بلغت الآن النقطة الأكثر حرجاً والأشدّ قسوة بالنسبة إلى «سان لو»، فقد حظرت عليه البقاء في باريس حيث يغيظها وجوده وأرغمته على قضاء عطلته في «بالبيك» بالقرب من ثكنته - بدأت ذات مساء في منزل عمّة «سان لو» الذي حصل منها على إذن بأن تجيء صديقته لتلقي أمام العديد من المدعوين مقاطع من مسرحيّة رمزية سبق أن مثّلتها مرّة على مسرح طليعي وجعلته يقاسمها الإعجاب الذي تحسّ به هي نفسها.

ولكنّها حينما ظهرت، تحمل زنبقة في يدها وترتدي لباساً تمّ نقله عن «أَمَة الرّب»[١] وسبق أن أقنعت «روبير» أنّه «نظرةُ فنّ» حقيقيّة، استقبلتها لدى دخولها إلى ذلك الحفل المؤلّف من أرباب منتديات ودوقات بابتسامات أحالها أسلوب الإنشاد الرتيب وغرابة بعض الكلمات وتردادها الكثير ضحكاً متّصلاً جرى كتمه بادئ الأمر ثم أضحى لا يقاوم إلى حدّ أنّ المنشدة المسكينة لم تستطع الاستمرار. وفي الغد اتجهوا بالإجماع باللائمة على عمّة «سان لو» لأنّها سمحت لفنّانة مضحكة إلى هذا الحدّ أن تظهر في منزلها ولم يكتمها أحد الدوقة المشهورين أنْ عليها إلقاء التبعة على نفسها إن هي جرّت عليها الانتقاد:

- «عجباً! هم لا يقدّمون لنا مشاهد بهذه القوة! ولو توافرت لهذه المرأة الموهبة، ولكنّها ليست على شيء منها ولن تكون على شيء في يوم. يا اللّه! ليست باريس بمثل الغباء الذي يقولون، وليس المجتمع مؤلفاً من بلهاء فحسب. لقد ظنّت هذه الآنسة الصغيرة بالطبع أنّها تذهل باريس، ولكنّ باريس أعسر من أن يدهشها ذلك، وثمّة على أيّة حال أمور لن يحملونا على ازدرادها».

أمّا الفنّانة فقد خرجت وهي تقول لـ«سان لو»:

- «لدى أيّة بلهاوات، لدى أيّة فاجرات فاقدات التهذيب لدى أيّ أوغاد رميت بي؟ ثم إني أفضّل أن أقول لك إنّه ما من رجل من الحاضرين إلا وغمز لي بعينه وداعبني بقدمه ولأنّني رفضت محاولاتهم حاولوا الثأر لأنفسهم».

وقد أحالت تلك الأقوال نفور «روبير» من أرباب المجتمعات الراقية كراهية أكثر عمقاً وأشدّ مرارة يبعثها في نفسه على نحو خاص أقل من يستحقونها من أقارب متفانين أوفدتهم الأسرة وجهدوا في إقناع صديقة

---

(١) Ancilla Domini هي قول العذراء للملاك إذ بشّرها بأنها ستصبح والدة المسيح اللوحة للرسام «فرانجيليكو».

«سان لو» بأن تقطع علاقتها به، وهو المسعى الذي كانت تعرضه وكأنّه من وحي حبّهم لها. ومع أن «روبير» كفّ في الحال عن التردد عليهم فقد كان يظنّ حينما يكون بعيداً عن صديقته، كما هي حاله الآن، أنّهم يفيدون من ذلك، هم أو غيرهم ليعيدوا الكرّة وربّما نالوا حظوة لديها. وحينما كان يتحدث عن الماجنين الذين يخدعون أصدقاءهم ويحاولون إفساد النساء ويجهدون في الإتيان بهن إلى بيوت الدعارة كان وجهه ينضح ألماً وكراهية.

- «لعلّني أقتلهم ويبكّتني ضميري أقلّ مما يفعل لكلبٍ هو على الأقلّ حيوان لطيف وصادق ومخلص إليك. ومنهم مَن يستحقالمقصلة أكثر من الأشقياء الذين قادهم إلى الجريمة الفقر وقسوة الأغنياء.

«كان يقضي الجزء الأكبر من وقته في إرسال كتب وبرقيات إلى عشيقته. وفي كلّ مرة كانت تجد فيها عن بعد، فيما تمنعه عن المجيء إلى باريس، وسيلةً للخصام معه، وكنت أعلم ذلك من ملامح وجهه المهلهلة. ولما كانت عشيقته لا تقول له البتّة ما تأخذه عليه، ويرتاب هو أنها إن لم تكن تقوله فلأنّها ربما لا تعرفه وأنّها ضاقت به ذرعاً فحسب، ودّ مع ذلك لو يحصل على إيضاحات، فكان يكتب إليها: «قولي لي أيّ سوء فعلت، فإني على استعداد للاعتراف بأخطائي»، إذ كان من نتائج الحزن التي يحسّ به اقتناعه بأنّه أساء التصرّف.

إلّا أنّها كانت تجعله ينتظر انتظاراً لا حدود له جوابات خالية إلى ذلك من المعنى، ولذلك كنت أرى «سان لو» يعود من البريد مقطب الجبين على الدوام تقريباً وفي الغالب صفر اليدين، وكان الوحيد مع «فرانسواز» الذي يذهب من بين نزلاء الفندق جميعهم ليجلب رسائله أو ليحملها بنفسه لنفاد صبر العاشق في ما يخصّه ولحذر الخدام في ما يخصّها، (وكانت البرقيّات تضطرّه إلى السير مسافات أطول).

حينما قالت جدّتي بهيئة تفيض غبطة، بضعة أيّام بعد العشاء في منزل أسرة «بلوك» إن «سان لو» سألها منذ قليل إن كانت لا تودّ أن يصورها قبل

أن يغادر «بالبيك»، وحينما رأيت أنّها ارتدت لذلك أجمل ملابسها ولا تزال مترددة بين عدّة تسريحات أحسست بشيء من الحنق لهذه الفعلة الصبيانية التي أدهشتني كثيراً في ما يخصها. وقد حصل أن تساءلتُ إن لم أكن أخطأت بشأن جدّتي وإن كنت لا أضعها في مكانة عالية جداً وإن كانت بمثل ما ظننت على الدوام من تجرد في ما يخص شخصها وإن كانت لا تتصف بما كنت أحسبه غريباً عليها أكثر الغرابة، عنيت الدلال.

وللاسف تركت لهذا الاستياء الذي يسبّبه لي مشروع الجلسة الفوتوغرافية، ولا سيّما الارتياح الذي تبدو جدّتي وكأنّها تحسّ به من جرائها، أن يستبين على نحو كاف كيما تلاحظه «فرانسواز» وتبادر عن غير قصد إلى مضاعفته وهي تسمعني مقالة عاطفية مشفقة لم أشأ أن أبدو وكأنّي أوافقها عليها.

– «آه! يا سيدي، سيدتي المسكينة هذه التي ستغتبط أيّما غبطة أن يؤخذ رسمها، كما أنّها ستضع القبّعة التي دبرّتها لها صديقتها العتيقة «فرانسواز»، دعها تفعل يا سيّدي».

وأقنعت نفسي أنّني لم أكن قاسياً في هزئي من رقة مشاعر «فرانسواز» إذ أتذكّر أن أمّي وجدّتي، وهما المثالان اللذان أحتذيهما في كل شيء، غالباً ما فعتلا كذلك. إلّا أن جدّتي قالت لي وقد لاحظت أنّني أبدو متكدراً، إنّها تتخلّى عن جلسة الرسم هذه إن أمكن أن تزعجني. ولم أشأ ذلك وأكّدت لها أني لا أرى في الأمر ما يضير. وتركتها تتزين ولكنّي حسبت أنّني أبدي نفاذ بصيرة وقوة بإسماعها بعض أقوال ساخرة جارحة تهدف إلى إبطال أثر المتعة التي يبدو أنّها تجدها في أخذ رسمها حتى إنّي إن أجبرت على مشاهدة قبّعة جدّتي الرائعة فقد أفلحت على الأقل في أن أزيل عن وجهها ملامح الغبطة تلك التي كان ينبغي أن تسعدني والتي تبدو لنا، مثلما يتّفق ذلك في الأغلب ما دام الذين نحبّهم أفضل ما يكون الحبّ لا يزالون على قيد الحياة، بمثابة المظهر المغيظ الذي يتجلى به عيب وضيع أكثر منها بمثابة صيغة السعادة الثمينة التي نودّ لو تتوافر لهم على

يدنا. كان مزاجي المعكر ناجماً على وجه الخصوص عن أن جدتي بدت في ذلك الأسبوع وكأنّها تتهرب منّي وأنني ما استطعت أن أخصّ بها نفسي لحظة واحدة لا في النهار ولا في العشيّة. فحينما كنت أعود بعد الظهر لأنفرد بها قليلاً يقولون لي ليست هناك أو هي أغلقت على نفسها مع «فرانسواز» لمشاورات طويلة لا يؤذن لي بتعكيرها. وحينما كنت أفكر، بعدما قضيت السهرة خارجاً مع «سان لو»، في طريق عودتي باللحظة التي سأستطيع فيها لقاء جدّتي ومعانقتها، عبثاً كنت أنتظر أن تنقر على الحائط تلك النقرات الطفيفة التي تقول لي أن أدخل لأتمنى لها ليلة سعيدة فلا أسمع شيئاً. وكنت أستلقي في النهاية على سريري وفي نفسي بعض الحقد من أنّها تحرمني بما تبدي من لامبالاة جديدة تماماً عوّلت عليها كثيراً وأظلّ أصغي، خافق الفؤاد شأني في أيام طفولتي، إلى الجدار الذي لا ينطق بكلمة، ثم أنام بين دموعي.

اضطّر «سان لو» في هذا اليوم، شأنه في الأيام السابقة، أن يذهب إلى «دونسيير» حيث ستدعو الحاجة إليه الآن على الدوام حتى نهاية ما بعد الظهيرة بانتظار أن يعود إليها نهائياً. وأسفت ألّا يكون في «بالبيك»، فقد رأيت نساء شابات بدا لي من بعيد أنّهن فاتنات ينزلن من العربات وتدخل بعضهنّ إلى قاعة الرقص في الكازينو والأخريات إلى دكان بائع المثلجات. وكنت في واحدة من فترات الشباب تلك الخالية من حبّ معيّن، الشاغرة، التي يتوق المرء فيها إلى «الجمال» ويبحث عنه ويراه في كل مكان - كما يبحث العاشق عن المرأة التي شغف بها. فإن مكّنتنا علامة حقيقية واحدة - القليل الذي نتبيّنه من امرأة نراها من بعيد أو من الخلف - من إسقاط «الجمال» أمامنا فإننا نتخيّل أننا عرفناها ويخفق فؤادنا ونحث الخطى ونظل دوماً على نصف اليقين بأنّها كانت هي بشرط أن تكون المرأة قد توارت، ولسنا ندرك خطأنا إلا إذا استطعنا اللحاق بها.

كان يستهويني فعلاً، بتزايد أوجاعي، أن أبالغ في قيمة أبسط صنوف

المتعة بسبب المصاعب نفسها التي تعترضني لبلوغها. فالنساء الأنيقات، كنت أحسب أنّي ألمحهن في كل مكان لأنّني ما كنت أقربهنّ في أي مكان، لمزيد من التعب إن كنت على الشاطئ ومزيد من الخجل إن كنت في الكازينو أو في دكان حلوانيّ. مع أنّي كنت أود أن أعلم، إن وجب عليّ أن أموت عمّا قريب، كيف كانت عن كثب وفي الواقع أجمل فتيات يمكن أن تجود بهنّ الحياة، وإن كان من سيفيد من هذا الجود آخر غيري أو حتى لا أحد (فلم أكن أتبيّن أن رغبة في الامتلاك تكمن في أساس فضولي). ولعلني كنت أجرؤ على الدخول إلى قاعة الرقص لو كان «سان لو» معي. وإذ كنت وحيداً مكثت أمام الفندق الكبير فحسب أنتظر لحظة الذهاب للقاء جدّتي حينما أبصرت خمس بنيّات أو ستّاً، ولا يزلن بعد في آخر السدّ تقريباً يضطربن كبقعة غريبة، يتقدّمن مختلفات بالمظهر والمسلك عن سائر الأشخاص الذين تعودنا رؤيتهم في «بالبيك» بقدر ما يمكن أن تبدو زمرة من طيور النورس جاءت من حيث لا ندري وتقوم بخطى معدودة على الشاطئ - تلحق المتخلفات بالأخريات مرفرفة بأجنحتها - بنزهة يبدو هدفها غامضاً بالنسبة إلى المستحمين الذين تبدو وكأنّها لا تراهم بقدر ما هو محدد تحديداً واضحاً بالنسبة إلى عقلها كطيور.

كانت إحدى هاتيك المجهولات تدفع بيدها دراجتها أمامها، وتمسك اثنتان أخريان بعصيّ للعبة الغولف، وكان لباسهن يختلف عن لباس فتيات «بالبيك» الأخريات اللواتي كانت من بينهن من يمارسن الألعاب الرياضية دون أن يتخذن لذلك لباساً خاصاً.

كانت الساعة تلك التي تجيء فيها السيّدات والرجال في كل يوم للقيام بجولتهم على السد فيتعرضون لنيران المنظار الذي لا رحمة فيه والذي كانت تثبّته عليهم، وكأنّهم ينقلون عيباً تصر على معاينة أدق تفاصيله، زوجة رئيس المحكمة الأول، وهي تجلس باعتزاز أمام كشك الموسيقى وسط صف المقاعد الرهيب هذا الذي سيبادرون بأنفسهم عمّا قليل إلى الجلوس فيه بعدما تحولوا من ممثلين إلى نقّاد ليحكموا بدورهم

على الذين سيمرون أمامهم. كان جميع هؤلاء الناس الذين يسيرون بمحاذاة السد وهم يتأرجحون بشدة كما لو كان سطح سفينة (إذ لا يفلحون في رفع ساق دون أن يحركوا في الوقت نفسه ذراعهم ويحولوا عيونهم ويعيدوا توازن أكتافهم ويعوضوا حركة ترجّح في الجانب المقابل الحركة التي قاموا بها في الجانب الآخر، ودون أن تحتقن وجوههم) ويتظاهرون بأنّهم لا يرون الأشخاص الذين يسيرون إلى جانبهم أو يجيئون في الاتجاه المعاكس ليوهموا أنّهم لا يهتمون بهم ولكنّهم يختلسون النظر إليهم كي لا يقع لهم أن يصدموهم، كانوا على العكس يتعثرون بهم ويصطدمون بهم لأنهم كانوا بالمقابل موضع الاهتمام الخفيّ نفسه من جانبهم، الاهتمام الذي يخفونه تحت ستار التعالي الظاهر نفسه، لأنّ حبّ الجمهور - والخشية منه بالتالي - هو أحد أقوى الدوافع لدى الناس جميعهم إمّا لأنّهم يحاولون إعجاب غيرهم أو إدهاشهم وإمّا ليعربوا لهم عن احتقارهم: فالاعتزال لدى المتوحّد، حتى الكلي من الذي يدوم إلى آخر الحياة، إنّما ينطلق في الغالب من حب غير متزن للجمهور يتغلب على أي شعور آخر إلى حدّ أنّه يفضّل، إذ لا يستطيع أن يفوز لدى خروجه بإعجاب البوابة والمارة والحوذي المتوقف، أن لا يروه البتّة وأن يتخلى لذلك عن كل نشاط يستوجب الخروج خارجاً.

أمّا البنيّات اللواتي شاهدتهن فقد كن يمضين قدماً، وسط جميع هؤلاء الناس الذين كان بعضهم يلاحقون فكرة ولكنّهم يفضحون حركتها إذ ذاك بتقطع في الحركات وشرود في النظرات يقل الانسجام فيهما كما في ترنح جيرانهم المشبوه، يمضين دون تردد ولا توتّر إذ ينفّذن بالضبط الحركات التي يبغينها وقد اكتسب كلّ من أعضائهنّ استقلالاً تامّاً بالنسبة إلى سواه واحتفظ الجزء الأكبر من أجسامهن بهذا الجمود الذي يبهرنا إلى حد بعيد لدى راقصات الفالس المجيدات ولم يعدن بعيدات عنّي، وكنّ كلهنّ على جمال مع أنّ لكلّ واحدة قسمات تختلف تمام الاختلاف عن الأخريات ولكني كنت أبصرهنّ، والحق يقال، منذ لحظات قليلة ودون أن

أجرؤ على التحديق إليهنّ، الأمر الذي لم يتسنّ لي بعد معه إضفاء شخصية خاصة على أيّة منهنّ. وفيما عدا واحدة كان أنفها المستقيم وبشرتها السمراء يجعلانها مختلفة وسط الأخريات كمثل ملك مجوسٍ عربيّ القسمات في لوحة من لوحات عصر النهضة، كنت لا أعرفهن إلا بزوج من العيون القاسية العنيدة الضاحكة لهذه، وبوجنتين اتخذ فيهما اللون الوردي تلك الصبغة النحاسيّة التي تحمل إليك صورة زهر الجيرانيوم حتى تلك الملامح لم أكن بعد قد ألصقت أيّاً منها على نحو لا ينفصم على واحدة من الفتيات دون أخرى. وحينما كنت أرى (حسب الترتيب الذي تنتشر فيه هذه المجموعة الرائعة لأنها تتجاور فيها أكثر المظاهر اختلافاً وتتقارب فيها جميع الألوان ولكنّها غامضة على غرار موسيقى لا أفلح في فصل جملها والتعرّف إليها لحظة تمرّ أمامي، وكنت ميّزتها ثم نسيتها في الحال) شكلاً بيضوياً أبيض وعينين سوداوين وعينين خضراوين تبرز أمامي لم أكن أدري أهي نفسها التي سبق أن فتنتني منذ قليل ولا أستطيع ردّها إلى هذه الفتاة التي تسنّى لي أن أفضّلها عن الأخريات وأتعرّفها. كان ذلك الغياب، داخل عيني، للحدود التي سأقيمها عمّا قليل بينها ينشر عبر جماعتهن تموجاً متناسقاً وانبعاثاً مستمراً لجمال مبهم جماعي متنقل.

ربّما لم تكن المصادفة وحدها في الحياة هي التي اختارت جميع هاتيك الصديقات على هذا القدر من الجمال كيما تجمع بينهنّ. فربّما كانت تلك الفتيات (اللواتي كان مظهرهن كافياً للكشف عن طبيعتهن الجريئة الطائشة القاسية) بالغات الحساسية إزاء كل ما يثير السخرية وإزاء كلّ قباحة، وعاجزات عن التأثر بما كان من قبيل الفكر أو الأخلاق، فألفين أنفسهن بين أترابهن يحسسن إحساساً طبيعياً بالنفور إزاء جميع اللواتي كان الخجل والارتباك وغياب اللباقة وما سوف يسمّينه «بالنمط الثقيل» يفضح لديهن ميولاً فكريّة أو عاطفية فاستبعدنهنّ، فيما ارتبطن على العكس بعلاقة صداقة مع أخريات يدفعهن إليهن مزيج من الجمال والرشاقة والأناقة الجسمية، وهي الصيغة الوحيدة التي يستطعن فيها تمثّل الصراحة

التي تتّسم بها طبيعة فاتنة والوعد بساعات طيّبة يقضينها سويّة. وربّما كانت الطبقة التي ينتمين إليها والتي ما كنت لأستطيع تحديدها قد بلغت في تطورها ذلك الحدّ الذي ينتج فيه وسط اجتماعي شبيه بمدارس النحت المتناسقة الخصبة التي لا تبحث بعد عن الملامح المعذّبة، على نحو طبيعي وبغزارة، أجساماً جميلة بسيقان جميلة وخصور جميلة ووجوه تنضح عافية وراحة بمظهر رشيق ماكر، وذلك إمّا بفضل الإثراء وتوافر أوقات الفراغ، وإما بفضل العادات الرياضيّة الجديدة التي انتشرت حتى في بعض الأوساط الشعبيّة ورياضة بدنية لم تنضف بعد إليها رياضة الفكر. أفلم تكن نماذج من الجمال البشري تتسم بالنبل والهدوء تلك التي كنت أراها أمام البحر وكأنّها تماثيل تقف في وجه الشمس على أحد شواطئ اليونان؟

كنّ يبدين، وكأنّما حكمن من داخل سربهن الذي كان يتقدّم بمحاذاة السد كمذنّب مضيء، وتؤلف الجمهورَ المحيط بهنّ كائنات من جنس آخر وما كان حتى عذابه ليوقظ في نفوسهن شعوراً بالتضامن، كأنهن لا يرينه ويجبرن الأشخاص المتوقفين على الابتعاد على نحو ما يفعلون لدى مرور آلة أفلتت ولا ينتظر منها أن تتجنب المشاة ويكتفين على الأكثر، إن ولّى رجل عجوز لا يرتضين وجوده ويرفضن ملامسته، إن ولّى بحركات مرتعدة أو خانقة ولكنّها متسرعة ومضحكة، بأن يتبادلن النظرات ويضحكن. وما كنّ يبدين إزاء ما لم يكن من جماعتهن أي تظاهر بازدرائه، إذ كان ازدراؤهن الصادق كافياً. على أنّهنّ ما كنّ يستطعن رؤية حاجز دون التلهي باجتيازه بالاستعداد للوثوب من فوقه أو بالقفز والقدمان مضمومتان، فقد كنّ يزخرن بل يفضن من ذلك الشباب الذي يحس المرء بكبير الحاجة إلى إنفاقه إلى حد أنّه لا يدع البتة، حتى حينما يكون نهب الحزن أو الأوجاع، وينساق في ذلك خلف ضرورات السن أكثر منه خلف مزاجه اليوميّ، لا يدع فرصة للقفز أو التزحلق تمرّ به دون أن ينصرف إليها بملء وعيه فيقطع سيره البطيء ويملؤه - كما يفعل «شوبان» بالجملة الأكثر كآبة - بانعطافات رشيقة تمتزج فيها النزوة العابرة بالبراعة. كانت امرأة صاحب مصرف

عجوز قد أجلست زوجها، بعدما ترددت بين اتجاهات مختلفة، على مقعد قبالة السدّ يقيه كشكُ الموسيقيين الريحَ والشمس. وكانت قد غادرته منذ قليل، إذ رأته مرتاحاً في جلسته، لتذهب وتشتري له صحيفة تقرؤها له فيما بعد وتروّح عنه، وهي فترات غياب قصيرة كانت تتركه وحيداً في أثنائها ولا تتجاوز بها البتة حد الدقائق الخمس، الأمر الذي يبدو له طويلاً جداً، ولكنها كانت تكرره مرّات كافية ليخيّل إلى الزوج العجوز الذي تحيطه بعنايتها وتحجبها عنه في آن واحد أنّه لا يزال قادراً على العيش كسائر الناس ولا حاجة له إلبتة بالرعاية. وكانت منصة الموسيقيّين تؤلف فوقه مقفزاً طبيعياً ومغرياً أخذت الكبرى في المجموعة الصغيرة تعدو عليه دون تردد وقفزت من فوق العجوز المذعور الذي لامست القدمان الرشيقتان قبعته البحريّة مما أثار ضحك الفتيات الأخريات ولا سيّما عينين خضراوين في وجه دمية أبدتا بشأن هذه الفعلة إعجاباً ومرحاً خيّل إليّ أنّني أميّز فيهما قليلاً من الحياء، حياء خجول ومتباهٍ لا يتوافر لدى الأخريات. وقالت إحدى أولئك الفتيات بصوت سكير مخنوق وبلهجة نصف ساخرة: «يا للعجوز المسكين، إنّه يشقّ عليّ فهو يبدو نصف ميت». ووالين السير بضع خطوات ثم توقفن لحظة في منتصف الطريق، دون أن يبالين بإيقاف حركة المارة، كومة غير منتظمة متراصة غريبة مزقزقة كأنّها اجتماع استشاري لطيور اجتمعت لحظة تزمع الطيران، ثم واصلن نزهتهن البطيئة على امتداد السد فوق البحر.

لم تعد ملامحهن الساحرة الآن مختلطة غير مميزة. فقد قسمتُهن وجمعتُهن (إذ كنت أجهل اسم كلّ منهن) حول الطويلة القامة التي قفزت من فوق المصرفي العجوز، والقصيرة التي تبرز على الأفق البحري وجنتاها الممتلئتان وعيناها الخضراوان، وذات اللون المسمرّ والأنف المستقيم التي تبدو مختلفة وسط الأخيرات، وأخرى ذات وجه في بياض البيضة يرسم فيه أنف صغير قوساً دائرياً كمنقار كتكوت، وجه من مثل ما يتوافر لبعض صغار الشباب، وأخرى غيرها فارعة الطول ترتدي معطفاً

بدون أكمام (كان يضفي عليها مظهراً فقيراً جداً ويكذّب إلى حد بعيد تصرفها الأنيق حتى إن التفسير الذي كان يتبادر إلى الذهن قوامه أن لهذه الفتاة أبوين رفيعي المكانة يضعان اعتزازهما فوق مستوى المستحمين في «بالبيك» وأعلى من أناقة الملبس حتى لدى أبنائهما كيما يستوي في نظرهما تماماً أن يدعاها تتنزه فوق حاجز السد في لباس ربّما حكم صغار القوم أنّه بالغ التواضع)، وفتاة ذات عينين برّاقتين ضاحكتين ووجنتين سمينتين كامدتين تحت قبعة سوداء يغور فيها رأسها وكانت تدفع دراجة وتمايل أردافها بشدة مستخدمة، إذ مررت بالقرب منها، ألفاظاً عاميّة شديدة البذاءة (ميزت بينها مع ذلك جملة «عاش حياته» المشؤومة) تقولها صائحة بأعلى صوتها إلى حد أني تخليت عن الافتراض الذي أقمت أساسه فوق معطف رفيقتها وخلصت بالأحرى إلى أن جميع هؤلاء الفتيات كن ينتمين إلى الجماعات التي تتردد على ملاعب سباق الدراجات ولا بدّ أنهن العشيقات الفتيات جداً لمتسابقي الدراجات. ولم يدخل على أية حال في أي من افتراضاتي إمكان أن يكنّ فاضلات. فقد أدركت للوهلة الأولى - في الطريقة التي يتبادلن بها النظرات وهن يضحكن، وفي النظرة الملحاحة لذات الوجنتين الكامدتين - أنهن ما كن كذلك. وكانت جدتي على كل حال قد سهرت دوماً عليّ بنزاهة بالغة الرقة حتى لا أعتقد أن مجموع الأشياء التي يجب ألا نقدم عليها لا يتجزأ وأن فتيات أبدين قصوراً في احترام الشيخوخة إنّما تستوقفهن فجأة رقة الضمير حينما يدور الأمر حول متع أكثر إغراء من القفز فوق ابن ثمانين.

على أن الرد الذي تتبادله نظراتهن، الآن وقد انفردت كل منهن بخصائصها، نظراتهن التي تتوقد بالزهو والروح الرفاقية والتي يشرق فيها بين الحين والحين الاهتمام تارة وطوراً اللامبالاة الوقحة التي تتألق بها كل واحدة حسبما يدور الأمر حول صديقاتها أو المارة، إلى جانب ذلك الشعور بمعرفة بعضهن بعضاً معرفة حميمة كافية كي يتنزهن على الدوام سوية، إنّما كان يقيم بين أجسامهن المستقلة المنفصلة، فيما يتقدمن على

مهل، روابط خفية ولكنّها متسقة كظلال واحدة دافئة وجو واحد يجعل منهن كلاً متجانساً في أجزائه بقدر ما كان مختلفاً عن الجمهور الذي ينتشر موكبهن على مهل في وسطه.

وفيما كنت أمر بالقرب من السمراء ذات الوجنتين الضخمتين التي كانت تدفع دراجة، التقت نظراتي مقدار لحظة بنظراتها الجانبية الساخرة المنبعثة من أعماق ذلك العالم اللاإنساني الذي كان يحتبس حياة هذه العشيرة الصغيرة، هذا المجهول العسير المنال الذي لا يمكن بالتأكيد أن تبلغ إليه فكرة ما كنت عليه أو أن تجد لها فيه مكاناً.

فهل أبصرتني تلك الفتاة التي تعتمر قبعة لا حواشي لها تغمرها حتى أقصى جبينها، وهي تنصرف تماماً إلى ما تقوله رفيقاتها، هل أبصرتني لحظة التقاني البريق الأسود المنبعث من عينيها؟ وإن هي أبصرتني فماذا أمكن أن أمثّل في عينيها؟ ومن أعماق أي عالم كانت تميّزني؟ لعله كان من الصعب عليّ أن أقوله بقدر ما يعسر علينا، حينما تبدو لنا عبر المنظار الفلكي بعض الخصائص في كوكب مجاور، أن نخلص منها إلى أن بشراً يقطنونه وأنهم يروننا وأية أفكار أمكن أن توقظ فيهم هذه الرؤية.

ولو ظننّا أنْ ليست عينا مثل تلك الفتاة سوى قرص ملتمع من الميكا لما تُقنا إلى معرفة حياتها وشدها إلينا. ولكننا نحسّ أن ما يلتمع داخل هذا القرص العاكس ليس ناجماً عن تركيبه المادي وحده، وأنها الأطياف العاتمة المجهولة لدينا لتلك الأفكار التي يكوّنها هذا الشخص في ما يخص الناس والأماكن التي يعرفها - كمروج ميادين سابق الخيول ورمل الدروب التي ربما قادتني إليها على متن دراجة عبر الحقول والأحراج، تلك الحورية الصغيرة التي هي أشد فتنة في نظري من حورية الجنة الفارسية - وأنّها كذلك أطياف البيت الذي تزمع الدخول إليه والمشروعات التي تضعها أو التي توضع من أجلها، وأنها على وجه الخصوص هي، برغباتها وصنوف ودّها ونفورها وإرادتها الغامضة المستمرة. كنت أعلم أنني لن أمتلك راكبة الدراجة الفتيّة هذه إن لم أمتلك

كذلك ما كان دفيناً في عينيها. وإنما حياتها كلها بالتالي ما كان يبعث الرغبة في نفسي، رغبة مؤلمة لأنني كنت أحسها متعذرة التحقق. ولكنها مسكرة لأن ما سبق أن كان حتى ذاك حياتي، وكفّ فجأة عن أن يكون كل حياتي، إذ لم يعد سوى جزء صغير من المجال الممتد أمامي الذي كنت أتحرق إلى اجتيازه والذي تؤلفه حياة تلك الفتيات، كان يعدني بهذا الامتداد للذات، بهذه المضاعفة الممكنة للذات التي هي السعادة. وليس من شك أن فقدان أية عادة مشتركة بيننا - وأية فكرة مشتركة أيضاً - كان لا بدّ أن يزيد من صعوبة أن أصادقهن وأن أحسن في عيونهنّ. بيد أنه ربما كان بفضل تلك الفوارق والشعور بأنه لا يدخل في تركيب طبيعة تلك الفتيات وأعمالهن عنصر واحد أعرفه أو أمتلكه إن أخذ يعقب الشبع فيّ التعطشُ - الشبيه بما يحترق به جوف أرض عطشى - إلى حياة سوف تمتصها نفسي بقدر متزايد النهم وجرعات كبيرة وتشرّب تام لا نقصان فيه لأنها لم تبلغها منها حتى ذاك قطرة واحدة.

كنت قد أطلت النظر إلى راكبة الدراجة ذات العينين البراقتين إلى حد بدت معه وكأنها لاحظت الأمر، فقالت للكبرى كلمة لم أسمعها ولكنها أضحكت هذه الأخيرة. ولم تكن تلك السمراء، والحق يُقال، من كانت تروقني أكثر ما تروق لأنها كانت بالضبط سمراء وأنه منذ اليوم الذي أبصرت فيه «جيلبيرت» في منحدر «تانسونفيل» الصغير ظلّت فتاة صهباء مذهبة البشرة تمثّل في نظري المثل الأعلى المتعذر المنال. ولكن أما أحببت «جيلبيرت» نفسها لأنها على وجه الخصوص تبدت لي محاطة بتلك الهالة التي قوامها أنها صديقة «بيرغوت» وأنها تمضي لزيارة الكاتدرائيات معه؟ أفما كنت أستطيع على النحو نفسه أن أغتبط لأني رأيت تلك السمراء تنظر إلي (الأمر الذي كان يبعث فيّ أمل أن تتزايد سهولة إقامة علاقات معها بادئ الأمر)، ذلك أنها سوف تقدمني للأخريات، لفاقدة الشفقة التي قفزت من فوق العجوز، ولقاسية الفؤاد التي قالت: «يشقّ عليّ هذا الشيخ المسكين»، ولجميعهن على التوالي، وكانت تتمتع على أية حال بالجاه

الناجم عن أنها الرفيقة التي تلازمهنّ؟ على أن الافتراض بأنني أستطيع أن أضحي ذات يوم صديق هذه أو تلك من أولئك الفتيات، وأن تلك العيون التي كانت نظراتها تدهشني أحياناً وهي تلهو عليّ دونما علم منها كشعاع شمس على صفحة جدار يمكنها في يوم بسيمياء عجائبيّة أن تدع فكرة وجودي وبعض المحبة لشخصي تنسابان عبر جزيئاتها التي تدق عن الوصف وأنني سأستطيع بدوري اتخاذ مكاني بينهن وفي المركب الذي ينشرنه بمحاذاة البحر، - كان ذلك الافتراض يبدو لي وكأنه يحتبس تناقضاً لا حلّ له كما لو ظننت من الممكن، وأنا أقف متفرجاً أمام إفريز «عتيق» أو لوحة جدارية تمثّل موكباً أن أتخذ مكاناً بين المطوِّفات الإلهيات وقد ملكهنّ حبي.

فهل كانت سعادة التعرّف بتلك الفتيات إذن ضرباً من المُحال؟

لعلها بالتأكيد ما كانت أول ما أتخلّى عنه من هذا القبيل. فما كان عليّ إلا أن أتذكر العديد من المجهولات اللواتي حملتني العربة التي تبتعد بأقصى سرعة إلى هجرهنّ إلى الأبد حتى في «بالبيك» حتى السرور الذي تشيعه المجموعة الصغيرة في نفسي، وهي رفيعة المظهر كأنما تؤلفها عذراوات هيلينّيات. إنما كان ينجم عن أنها تتّسم بشيء من هروب عابرات السبيل. وإن سرعة زوال الأشخاص الذين لا نعرفهم، والذين يضطرّوننا إلى الإقلاع من الحياة المعتادة حيث تكشف النساء اللواتي نتردّد عليهن عن عيوبهنّ في نهاية المطاف، إنما تضعنا في حالة المطاردة تلك التي لا شيء يكبح فيها من بعد جماح الخيال. فإن جرّدناها من متعنا فإنما يعني ذلك ردّ تلك المتع إلى محض ذاتها أي إلى لاشيء. وربما فتنتني هؤلاء الفتيات أقل لو تم عرضهنّ لدى إحدى أولئك القوّادات اللواتي بدا جلياً على كل حال أني لا أحتقرهنّ وعُزِلْنَ عن العنصر الذي كان يوليهنّ الكثير من الألوان والغموض. فلا بدّ للخيال، وقد أيقظه الشك في إمكان بلوغ غرضه، أن يبدع هدفاً يحجب الآخر عنّا ويحول، إذ يحلّ محلّ لذة الحواسّ فكرة الولوج في حياة معيّنة، دون أن نتعرّف إلى تلك اللذّة وأن

نحسّ مذاقها الحقيقي ونقلصها إلى مداها. لا بدّ أن يحلّ بيننا وبين السمكة التي رأيناها مرّة تُقَدَّم على مائدة لبدا أنّها لا تساوي آلاف الحيل وصنوف المواربة اللازمة لنأخذها، لا بدّ أن يحلّ، في عشيّات الصيد، اضطراب الماء الذي يبرز على صفحته، دون أن نعلم تمام العلم ما نحن فاعلون به، ما ملس من اللحم وغام من الشكل في انسياب زرقة شفّافة رجراجة.

لقد أفادت تلك الفتيات كذلك من هذا التبدّل في النسب الاجتماعية الذي يميّز حياة حمّامات البحر. ذلك أن جميع الامتيازات التي نستطيل بها ونَعظُم في وسطنا المعتاد تضحي لامرئيّة هناك، بل هي زالت في الواقع؛ وفي مقابل ذلك لا يتقدّم الأشخاص الذين تُفترض لديهم مثل تلك الامتيازات على غير وجه حقّ إلا ويضخّمهم امتداد مستعار، امتداد كان يزيد من سهولة أن تتّخذ مجهولات، وفي ذلك النهار أولئك الفتيات، أهمية عظيمة في عيني ويجعل من المستحيل عليّ أن أطلعهنّ على ما يمكن أن أكون عليه من أهميّة.

ولئن جاء لصالح نزهة المجموعة الصغيرة أن لم تكن سوى فقرة من هروب عابرات سبيل لا ينقطع، هروب أقلقني على الدوام، فقد رُدَّ ذاك الهروب هنا إلى حركة بطيئة حتى لتُقارِب الجمود. فأن تَبْدُوَ الوجوه بالضبط في طور قليل السرعة إلى هذا الحدّ، الوجوه التي لا يحملها إعصار بل هي هادئة واضحة، أن تبدو جميلة بعد في عيني فإنما كان ذلك يحول دون أن أعتقد، مثلما فعلت كثيراً حين كانت تحملني عربة السيدة «دو فيلباريسيس»، أنّ بعض التفاصيل، من مثل بشرة مبقّعة وعيب في فتحات الأنف ونظرة تافهة وابتسامة كشرة وقوام قبيح، ربما حلّت عن قرب أكثر، وإن اتفق لي أن أتوقّف لحظة، ربما حلّت في وجه المرأة وجسمها محلّ تلك التي كنت دونما شك تخيّلتها، فقد كانت تكفيني رشاقة في القوام ولون نديّ ألمحه كيما أضيف إليهما في الحال عن حسن قصد كتفاً رائعة ونظرة ساحرة كنت أحمل على الدوام في خاطري ذكراها أو فكرتها السابقة، إذ إن تلك التحليلات السريعة لشخص نبصره لماماً

إنّما تعرّضنا على هذا النحو للأخطاء نفسها التي توقعنا فيها تلك القراءات المفرطة السرعة التي نُحِلُّ فيها، انطلاقاً من مقطع واحد ودون أن نفسح لأنفسنا مجال تعرّف المقاطع الأخرى، محلّ اللفظة المكتوبة أخرى تختلف عنها أشدّ الاختلاف وتزوّدنا بها ذاكرتنا. ولم يكن بالإمكان أن تسير الأمور الآن على هذا النحو. فقد نظرت مليّاً إلى وجوههنّ، ورأيت كلاً من تلك الوجوه، لا في جميع صوره الجانبيّة، وفيما ندر مواجهة، ولكن وفق مظهرين أو ثلاثة فيها من الاختلاف ما يكفي كي أستطيع القيام إما بالتصحيح وإمّا بالتثبّت وإقامة البرهان على مختلف افتراضات الخطوط والألوان التي تقدّمها النظرة الأولى جزافاً، وكي أتبيّن أنّه لا يزال فيها، من خلال التعابير المتعاقبة، شيء مادي لا يتحول. وكان يمكنني لذلك أن أقول في نفسي قول اليقين إنّه لم يتّفق لي قطّ لا في باريس ولا في «بالبيك» وفي أفضل افتراضات ما كان يمكن أن تكون عليه عابرات السبيل اللواتي استوقفن نظراتي، حتى إن تيسّر لي البقاء للتحدّث معهن، من خلّف في نفسي ظهورهنّ ثم اختفاؤهنّ دون أن أعرفهنّ أسفاً أكبر مما قد تخلّف هؤلاء ومن ألهمني أن مودّتهنّ يمكن أن تجيئني بهذا القدر من النشوة. فلم يقع لي أن رأيت لا بين الممثّلات ولا بين الفلاحات أو الآنسات نزيلات المدارس الدينيّة الداخلية ما كان بمثل ذلك الجمال وقد طُبع بهذا القدر من المجهول وكان ثميناً على نحو لا يقدر ويحتمل أنّه متعذّر المنال إلى هذا الحدّ. لقد كنّ أنموذجاً رائعاً وفي أحسن حالة للسعادة المجهولة والممكنة في الحياة إلى حدّ أني كنت يائساً، وكاد يكون ذلك لأسباب فكرية، ألا أستطيع القيام ضمن شروط فريدة لا تدع أي مكان لخطأ محتمل بتجربة ما يقدّمه لنا الجمال المشتهى مما كان زاخراً بالأسرار وما نتعزّى عن أنّنا لن نمتلكه ذات يوم في البحث عن اللذّة مثلما رفض أن يفعل «سوان» في السابق قبل «أوديت» - لدى نساء لم نشتهيهن، بحيثنموت دون أن نكون عرفنا في يومٍ ما كانت عليه تلك اللذّة الأخرى. وما من شكّ أنه تكون في الواقع لذّة مجهولة وأن يضمحل سرّها عن كثب

وألا تكون سوى إسقاط لذة ومحض سراب. ولكني لا أستطيع في هذه الحالة إلا أن ألقي التبعة على حتميّة قانون في الطبيعة - إن ينطبق على هذه الفتيات ينطبق على سائر الفتيات - لا على رداءة الموضوع. فقد كان ما لعلني كنت أصطفيه من بينها جميعاً متبيّناً بارتياح عالم النبات أنه لا يمكن أن تجتمع لنا انواع اكثر ندرة من أنواع هذه الأزهار الفتيّة التي كانت تقطّع في هذه اللحظة أمامي خطّ المياه بسياجها الخفيف، كمثل أيكة من ورود «بنسلفانيا» تزدان بها حديقة فوق الجرف وتنحصر بينها كلّ المسافات يقطعها مركب بخاري في المحيط وهو بطيء في انسيابه على الخطّ الأفقي الأزرق الذي يمتدّ من ساق إلى أخرى حتى لتستطيع فراشة كسلى تخلّفت في أعماق التويج الذي جاوزه جسم السفينة منذ فترة طويلة، تستطيع، كيما تطير وهي واثقة أنها ستصل قبل السفينة، انتظار ألّا يفصل بين بتلة هذه الأخيرة والبتلة الأولى في الزهرة التي تمخر صوبها سوى جزء صغير لازورديّ واحد.

وعدت لأنّه كان عليّ أن أذهب لتناول طعام العشاء في «ريفبيل» بصحبة «روبير» وأن جدتي كانت تضطرني قبل الذهاب إلى الاستلقاء في تلك العشيّات مدة ساعة على سريري، وهي قيلولة أمر طبيب «بالبيك» بعد حين أن تعمّم على سائر العشيّات الأخرى.

ولم تكن على أية حال بحاجة في سبيل أن تعود، إلى مغادرة حاجز السدّ والدخول إلى الفندق عن طريق البهو، يعني من الخلف. فقد أصبحت الأيام الآن في تمام الصيف، بفضل تسبيق شبيه بما يتم نهار السبت في «كومبريه» حيث كنا نتغدى قبل الموعد بساعة طويلة إلى حدّ أنّ الشمس كانت لا تزال عالية في كبد السماء. حين نعدّ مائدة العشاء في الفندق الكبير في «بالبيك» وكأنما تلك ساعة عصرونية. ولذلك كانت النوافذ الواسعة المزجّجة ذات المزالق تظلّ مفتوحة على سويّة السدّ. ولا يقع عليّ إلا تخطّي إطار دقيق من تحت خشب فأجدني في قاعة الطعام التي كنت أغادرها في الحال لأستقلّ المصعد.

ولدى مروري أمام المكتب بادرتُ المدير بابتسامة وغنمت، لا يخالجني أي اشمئزاز، بأخرى علت محيّاه، وكانت عنايتي المتفهمة قد والت منذ وجودي في «بالبيك» حقنها فيه وتحويلها شيئاً فشيئاً على غرار أحد مستحضرات التاريخ الطبيعي. فقد أضحت قسماته مألوفة لدي ومحمّلة بمعنى تافه ولكنّه بيّن كخطّ مقروء ولم تعد تشبه في شيء تلك الحروف الغريبة التي لا تطاق والتي حملها إليّ وجهه في ذلك اليوم الأول الأول الذي أبصرتُ فيه أمامي شخصاً أصبح الآن منسياً أو إن أنا أفلحت في استذكاره يصعب التعرّف إليه ومن العسير مماثلته بالشخصية التافهة المهذبة التي لم يكن سوى صورتها الكاريكاتورية القبيحة المختصرة. ورننت، بعيداً عمّا انتابني من خجل وكآبة عشيّة وصولي، أنادي عامل المصعد الذي لم يعد يظل صامتاً فيما كنت أرتفع إلى جانبه في المصعد وكأنما في قفص صدري متحرّك ينزلق على طول العمود الصاعد، بل كان يردّد قائلاً: «ما عاد ثمة من الناس بمقدار ما كان منذ شهر. سيبدؤون بالرحيل ففترات النهار تتناقص». كان يقول ما يقول لا لأنه صحيح، بل لأن لديه التزاماً في قسم آخر من الشاطئ أوفر دفئاً وودّ لو نرحل جميعنا بأسرع ما يمكن كيما يغلق الفندق أبوابه وينعم ببضعة أيام قبل أن يعود إلى عمله الجديد. ولم تكن عبارتا «يعود» و«الجديد» متناقضتين بأيّة حال، ذلك أنّ لفظة «يعود» كانت في ما يخص عامل المصعد الصيغة المعتادة للفظة «يباشر». الأمر الوحيد الذي أدهشني أنه ارتضى أن يقول «عمل» لأنه كان ينتمي إلى هذه البروليتاريا الحديثة التي ترغب في أن تمحو آثار نظام الخَدَم في اللغة. وقد أعلمني بعد لحظة على أيّ حال أنه سوف يحوز في «الوضع» الذي «يعود» إليه «رداء» أجمل و«مرتباً» أفضل. أما لفظتا «بزة الخدمة» و«الأجور» فتبدوان له باليتين وغير لائقتين. ولما كانت المفردات، بتناقض لا يصدق، قد استمرت لدى «أرباب العمل» على الرغم من كل شيء بعد زوال مفهوم اللامساواة فقد كنت أسيء دوماً فهم ما يقوله لي عامل المصعد. فمن ذلك أن الأمر الوحيد الذي كنت أهتمّ به

أن أعلم إن كانت جدتي في الفندق. ولكن عامل المصعد كان يقول لي مستبقاً أسئلتي: «لقد خرجت هذه السيدة من شقتكم منذ قليل». وكنت أخدع على الدوام فأظنّ أنها جدتي. «لا، هذه السيدة التي هي مستخدمة لديكم فيما أعتقد». ولما كانت الطاهية لا تدعى مستخدمة في لغة البروجوازيين القديمة التي لا بدَّ زالت فقد كنت أفكر مدى لحظة: «ولكنه على ضلال، فلسنا نملك معملاً ولا مستخدمين». ثم أتذكر فجأة أن اسم المستخدم، شأن إطلاق الشاربين بالنسبة إلى نُدُل المقاهي، يطلق على الخدام لإرضاء كبريائهم وأن تلك السيّدة التي خرجت منذ قليل هي «فرانسواز» (ربما في زيارة إلى المقهى أم هي مضت تراقب خياطة وصيفة السيدة البلجيكية)، ولكن ذاك الإرضاء لم يكن بعد كافياً لعامل المصعد فقد كان يطيب له أن يقول وهو يرثي لحال طبقته «لدى العامل» أو «لدى صغير القوم» مستخدماً المفرد نفسه الذي يلجأ إليه «راسين» حينما يقول: «الفقير...». إلا أني لم أعد أتحدث عادة إلى عامل المصعد لأن حماس اليوم الأول والخجل لديّ كانا قد ولّيا بعيداً. فهو من كان يظل الآن دون أن توافيه أجوبة في أثناء الرحلة القصيرة التي كان يقطع مسافتها عبر الفندق المجوف على هيئة دمية والذي يتخذ النورُ في أعماقها نعومةَ المخمل لا يتناقض شيئاً فشيئاً وترق به أبواب الموزعات أو درجات السلالم الداخلية التي تحيلها إلى تلك الصفرة المذهبة الواهية المفعمة بالأسرار كغروب يقطع فيه «رامبرانت» تارة دعامة نافذة أو ذراع بئر. وفي كل طابق كان ثمة نور ذهبيّ ينعكس على السجادة فيؤذن بغياب الشمس وينبئ عن نافذة المراحيض.

كنت أتساءل إن كانت الفتيات اللواتي رأيتهن منذ قليل يقطنّ «بالبيك» ومن عساهنّ كنّ. وعندما تتوجه الرغبة على هذا النحو وجهة جماعة بشرية صغيرة تصطفيها فكل ما يمكن أن يتعلق بها يضحي باعثاً للانفعال ثم للأحلام. فقد اتفق أن سمعت سيّدة تقول على حاجز السدّ: «إنها صديقة الصغيرة سيمونيه» بمظهر تدقيق المستكبر الذي يوضح قائلاً: «إنّه الرفيق

الذي لا يفارق الصغير لاروشفوكو». وكنت تحسّ في الحال في وجه الشخص الذي ينقل إليه الأمر ميلاً إلى إمعان النظر في صاحبة الحظّ التي كانت «صديقة الصغيرة سيمونيه». وهو بالتأكيد امتياز لا يبدو موفوراً لجميع الناس. ذلك أن الأرستقراطية أمر نسبي. فهنالك قرى صغيرة نائية قليلة الغلاء تَرى فيها ابن تاجر أثاث بمثابة أمير الأناقة ويبسط سلطانه على بلاط له وكأنه أحد أمراء «غال» الصغار. غالباً ما حاولت منذ ذاك أن أتذكر كيف تردد في داخلي على الشاطئ اسم «سيمونيه» هذا، ولا يزال حينذاك غير واضح في شكله الذي لم أحسن تمييزه وكذلك في ما يخص مدلوله وإشارته إلى هذ الشخص أو ربما ذاك، ويتسم باختصار القول بذلك الغموض وتلك الجدة اللذين يؤثران فينا إلى حد بعيد فيما بعد حينما يكون ذلك الاسم الذي تنحفر حروفه في كل ثانية أكثر فأكثر في نفوسنا من جراء اهتمامنا الذي لا ينقطع قد أضحى (وهو ما لن يتفق لي بشأن الصغيرة «سيمونيه» إلا بضع سنوات بعد ذاك) اللفظَ الأول الذي نلقاه (إما لحظة استيقاظنا وإما بعد إغماء) حتى قبل فكرة الساعة والمكان الذي نحن فيه، بل ربما قبل كلمة «أنا» كما لو أضحى الشخص الذي يُطْلَقُ عليه ذاتَنا أكثر من ذاتنا وكما لو كانت فترة الراحة التي تنتهي قبل أية فترة أخرى، كما لو كانت، بعد لحظات من اللاوعي، تلك التي لم نفكر في أثنائها به...
ولست أعلم لماذا قلت في نفسي منذ اليوم الأول إن اسم «سيمونيه» كان ينبغي أن يكون اسم واحدة من الفتيات. ولم أعد أكف عن التساؤل عن كيفية إمكان التعرّف بأسرة «سيمونيه»، وذلك على يد أناس تحكم أنهم يفوقونها - الأمر الذي لن يكون عسيراً إن كن مجرد عاهرات بسيطات من صفوف الشعب - حتى لا يمكنها أن تحمل عني فكرة زرية. ذلك أنه لا يمكنك أن تحيط تمام الإحاطة وأن تقوم بامتصاص كامل لمن يزدريك ما دامت لم تقهر ذلك الازدراء. وإننا في كل مرة تحتل نفوسنا فيها صورة نساء مختلفات إلى هذا الحد وما لم يقضِ عليها النسيان أو منافسة صور أخرى، لا تنعم بالراحة إلا إذا حولنا تلك الغريبات إلى ما يشبهنا، إذ

تتمتع نفسنا في هذا الصدد بنوع رد الفعل والنشاط نفسه الذي يميّز جسمنا المادي الذي لا يمكن أن يتغاضى عن دخول جسم غريب إلى باطنه دون أن يعمل في الحال على هضم الدخيل وتمثله. كان لا بد أن تكون الصغيرة «سيمونيه» أجملهن جميعاً - ومن ربما أمكن أن تصبح، فيما بدا لي، عشيقتي لأنها الوحيدة التي بدت مرتين أو ثلاثاً على التوالي، وهي تلتفت نصف التفاتة، وكأنها شعرت بنظرتي المثبتة عليها. وسألت عامل المصعد إن لم يكن يعرف في «بالبيك» جماعة من آل «سيمونيه»، فأجاب إذ لا يوجد أن يقول إنه يجهل شيئاً بأنه يبدو له أنه سمع من يتحدث بهذا الاسم. ولما وصلت إلى الطابق الأخير، رجوته أن يأمر من يأتيني بآخر لوائح الغرباء.

وخرجت من المصعد ولكني عوضاً عن أن أمضي إلى غرفتي سرت قدماً في الممر لأن الخادم المشرف على الطابق، مع أنه يخشى التيارات الهوائية، كان قد فتح في الزاوية القصوى النافذة التي تطل لا على البحر بل على الرابية والوادي ولكنها لا تفسح المجال البتة لرؤيتها لأن زجاجها وهو من النوع العاتم كان مغلقاً في أكثر الأحيان. وقفت أمامها وقفة قصيرة وما ينبغي لأقدّم صنوف التكريم للمنظر الذي كانت تكشف عنه في هذه المرة ما بعد الرابية التي يستند إليها الفندق والتي لا تضم سوى بيت أقيم على مسافة صغيرة منه، إلا أن خط المنظور وضياء المساء كانا يضفيان عليه، فيما يحافظان على حجمه، نقوشاً بديعة وبريقاً مخملياً وكأنما على واحد من تلك الأبنية الهندسية المنمنمة، من مثل معبد صغير أو كنيسة صغيرة من المصوغات والمينا يستخدمان بمثابة مذاخر ولا يعرضان إلا في ما ندر لتكريم المؤمنين. على أن لحظة التعبد تلك جاوزت حدها لأن الخادم الذي كان يمسك مجموعة مفاتيح بيد ويحييني بالأخرى، وهو يلمس قلنسوة القندلفت التي يعتمرها ولكن دون أن يرفعها من جراء هواء المساء النقي والبارد أقبل يغلق مصراعي النافذة كما يفعل لمصراعي مذخر فحجب عن عيني المتعبتين البناء المصغّر والذخيرة الذهبية.

ودخلت غرفتي، كانت اللوحة التي أجدها في نافذتها تتبدل كلما تقدم بنا الفصل. كان الجو بادئ الأمر مشرقاً ولا يضحي قاتماً إلا حينما يتردّى الطقس. وكان البحر حينئذ، داخل الزجاج الأخضر الضارب إلى الزرقة الذي ينفخه بأمواجه المستديرة، كان البحر الذي رصّ بين مضلعات نافذتي الحديدية كأنما داخل رصاص زجاج ملون يبعثر على طول حافة الشاطئ الصخرية العميقة خطوط مثلثات مريّشة بزبد جامد مخطط بنعومة ريشة أو زغب خطهما قلم «بيزانيللو» وتم تثبيتهما بواسطة هذه المينا البيضاء القشدية المظهر التي لا تتحول وتمثل طبقة من الثلج في زجاجات «غاليه».

وبعد قليل تقلصت ساعات النهار، وحينما كنت أدخل غرفتي كانت السماء البنفسجية، وكأنما وسمها شكل الشمس القاسي الهندسي العابر الساطع (الشبيه بصورة تمثل علامة عجائبية أو ظهوراً روحياً)، تنحني صوب البحر على محور الأفق كمثل لوحة دينية فوق المذبح الرئيسي فيما تبدو أقسام الغروب المختلفة، في واجهات مكتبات الأكاجو الواطية التي تغطي الجدران على امتدادها، وكنت أردها بالفكر إلى اللوحة الرائعة التي اقتطعت منها، تبدو كتلك المشاهد المختلفة التي نفّذها فيما مضى أحد أرباب الفن القدامى لجمعية دينية على مذخر تُعرض مصاريعه في قاعة متحف الواحد إلى جانب الآخر وقد فصل بعضها عن بعض فيردها خيال الزائر وحده إلى مكانها في أسفل صدر المذبح.

وحينما كنت أصعد إلى غرفتي بعد بضعة أسابيع كانت الشمس قد غابت. وكان شريط من سماء حمراء فوق البحر متراصّ حاد المقطع كمرق اللحم الهلامي المجمّد، وشبيه بذاك الذي كنت أشاهده في «كومبريه» فوق «الجلجلة» لدى عودتي من النزهة واستعدادي للنزول إلى المطبخ قبل العشاء، ثم كانت السماء بعد قليل، فوق البحر الذي أضحى بارداً أزرق كالسمك المدعو بالبوري، وقد اكتسبت اللون الوردي نفسه الذي لواحدة من سمك السلمون الذي ربّما قُدّم لنا عما قليل في

«ريفبيل»، كانت هذه السماء وذاك الشريط يذكيان المتعة التي سأصيبها من جراء ارتداء حلتي الرسمية بغية الخروج للعشاء. وفوق البحر على مقربة من الشاطئ تحاول أدخنة أن يرتفع بعضها فوق بعض الآخر طبقات تتزايد اتساعاً، أدخنة بسواد السخام ولكنها صقيلة متماسكة كالعقيق بادية الثقل حتى لتبدو في أعلاها، وهي تميل فوق الجذع المشوه وحتى خارج مركز ثقل تلك التي حملتها حتى الآن، وكأنها توشك أن تجتذب هذا البناء الذي بلغ الآن منتصف السماء وتدفع به في البحر. إن رؤية سفينة تبتعد كمسافر في الليل كانت تخلّف فيّ هذا الانطباع نفسه الذي تمّ لي في عربة القطار بأني أتحرر من ضرورات النوم ومن الاحتجاز داخل غرفة. ولم أكن أحس على أية حال أني في الغرفة التي كنت فيها بما أنني أزمع مغادرتها بعد ساعة لأستقل العربة. وارتميت على سريري. كانت صور البحر تحيط بي من كل جانب كما لو كنت على سرير أحد المراكب التي كنت أبصرها بالقرب مني والتي ربما دهش المرء أن يراها تتحرّك ببطء في الظلام كطيور تمّ عاتمة ساكنة ولكنها لا تنام.

ولم تكن في الغالب إلا مجرد صور. فقد كنت أنسى أن إقفار الشاطئ الكئيب يتعاظم خلف ألوانها، الشاطئ الذي تجول فيه ريح المساء الحائرة التي أحسست بها لدى وصولي إلى «بالبيك» بقلق عظيم. ولم أعد على أية حال، حتى في غرفتي، وأنا أنصرف تماماً إلى الفتيات اللواتي رأيتهن يخطرن أمامي، في حالة نفسية تتسم بما يكفي من الهدوء والتجرد كيما أخرج بانطباعات جمالية عميقة حقاً. كان انتظار العشاء في «ريفبيل» يزيد مزاجي طيشاً فيما يعجز فكري عن أن يضيف عمقاً خلف لون الأشياء إذ كان يسكن في ذلك الحين سطح جسمي الذي سأبادر إلى كسائه كيما أحاول الظهور بأبهج مظهر ممكن أمام عيون النساء اللواتي سيحدّقن إليّ في المطعم المشع بالأنوار. ولو لم تنطلق من تحت نافذتي طيور الخطّف والسنونو في طيران عذب لا يعرف الكلل انطلاقة نافورة مائية، انطلاقة ألعاب نارية حية تجمع الفسحات التي تفصل بين سهامها العالية بالانطلاقة

البيضاء الثابتة على هيئة أثلام أفقية طويلة، لولا هذه المعجزة الساحرة المتمثلة في هذه الظاهرة الطبيعة المحلية التي كانت تربط المناظر الممتدة أمام عيني بالواقع لأمكنني الظن بأنها محض انتقاء يتجدد كل يوم بين لوحات تعرض جزافاً في المكان الذي أقيم فيه ودون أن تربطها به علاقة لزوم. فمرّة عرض لرواسم يابانية ترى فيها، إلى جانب قصاصة رقيقة لشمس حمراء مستديرة استدارة القمر، سحابة صفراء تبدو وكأنها بحيرة ترتسم عليها سيوف سوداء على غرار أشجار ضفتها، وخطاً بلون وردي رقيق لم يتفق لي أن رأيته ثانية منذ أول علبة تلوين ينتفخ على هيئة نهر تبدو المراكب على ضفتيه وكأنها تنتظر على اليابسة أن يبادروا إلى جرّها لوضعها في الماء. وكنت أقول في نفسي بالنظرة المتعالية السئمة الطائشة التي ينظر بها هاوٍ أو تنظر امرأة أثناء طواف يتم بين زيارتين اجتماعيتين في أرجاء معرض فني: «عجيب، غروب الشمس هذا أمر مختلف، بيد أنه سبق لي أن رأيت بمثل عذوبة هذا الأخير وبمقدار ما يبعث فيك من دهشة». وكنت أصيب متعة أوفر في الأمسيات التي تبدو فيها سفينة امتصها الأفق وميّعها فتبدو من لونه ذاته، كما هي الحال في إحدى اللوحات الانطباعية، إلى حد أنها تبدو من المادة نفسها كذلك وكأنما اقتطع جسمها وحبالها، التي دقّت فيها وشفّت، في زرقة السماء الضبابية. وأحياناً يملأ المحيط كامل نافذتي تقريباً وقد زاد في ارتفاعها شريط من السماء يحيط به من الأعلى فقط خط لونه من زرقة البحر نفسها فأظنه لا يزال هو البحر بسبب ذلك ولا يدين بلونه المختلف إلا لفعل الضوء. وفي يوم آخر كان البحر يرتسم في القسم السفلي فحسب من النافذة فيما يمتلئ كامل القسم المتبقي بالكثير من الغيوم التي يتراصّ بعضها فوق بعض شرائط أفقية حتى لتبدو ألواح الزجاج من جراء تعمّد الفنان أو اختصاص لديه وكأنها تقدم «دراسة سحب» بينما تعرض الواجهات المختلفة في المكتبة سحباً مشابهة، ولكنها في جزء آخر من الأفق، وقد اختلفت لوناً من جراء الضياء فتبدو وكأنما تقدم ما يشبه التكرار العزيز على قلوب بعض أساتذة الفن

المعاصرين لمظهر واحد لا يتبدل يباشرونه دوماً في ساعات مختلفة ولكنما يمكن أن تشاهد جميعها في الآن نفسه وفي الحجرة نفسها بفضل ثبات الفنّ وقد نفذت بالباستيل ووضعت تحت الزجاج. وأحياناً ينضاف بتأنق بديع إلى صفحة السمع والبحر المتماثلين في لونهما الرمادي شيء من اللون الوردي، فيما تبدو فراشة أغفت في أسفل النافذة وكأنها تخط بجناحيها في أسفل هذا «التزاوج الرمادي الوردي» القريب من نهج أعمال «وستلر» التوقيع المفضل لدى الأستاذ «شيلسيا»، ثم يزول حتى اللون الوردي ولا يظل شيء أنظر إليه. فكنت أنهض لحظة وقبل أن أستلقي ثانية كنت أسدل الستائر الكبيرة وكنت أبصر من سريري خط الضوء الذي يمكث فوقها فتأخذه العتمة ويدق شيئاً فشيئاً. ولكني كنت أفسح للساعة التي تعودت فيها الجلوس إلى المائدة أن تموت هكذا في أعلى الستائر دون أن أغتمّ ودون أن أبدي لها أسفاً لأنني أعلم أن هذا النهار من نوع يغاير الأنهر الأخرى وهو أكثر امتداداً كمثل النهار القطبي الذي يقطعه الليل دقائق معدودات فقط. كنت أعلم أن أنوار مطعم «ريفبيل» الساطعة تتهيأ للخروج من خادرة هذا الغسق بتحول بديع. فأقول في نفسي: «حان الوقت»، وأتمطّى فوق السرير وأنهض وأفرغ من أمور نظافتي. كنت ألاقي لذة في هذه اللحظات اللامجدية التي خفّت من كل عبء مادي والتي كنت ألجأ فيها، فيما الآخرون يتناولون طعام العشاء في الأسفل إلى استخدام القوى المتراكمة لديّ في سكون هذا النهار لمجرد تنشيف جسمي وارتداء لباسي الرسمي وعقد ربطة عنقي والقيام بجميع هذه الحركات التي كانت توجهها مذ ذاك المتعة المرتقبة في لقاء ثانٍ لهذه المرأة التي سبق أن استرعت انتباهي آخر مرة في «ريفبيل» والتي بدا أنها تنظر إليّ ولعلها ما غادرت المائدة حيناً إلا بأمل أن ألحق بها. وإنما كنت أغتبط بأن أضيف إلى نفسي كل هذه المغريات لأنصرف بكامل شخصي ونشاطي لحياة جديدة حرة لا هم فيها، أدعم فيها صنوف حيرتي بهدوء «سان لو» وأنتقي من بين أصناف التاريخ الطبيعي وواردات البلدان جميعها تلك التي ربما

أغرت نهمي أو خيالي بما تؤلف الأطباق غير المألوفة التي أوصى عليها صديقي في الحال.

وحلّت في نهاية المطاف الأيام التي لم أعد أستطيع فيها العودة من السد عبر قاعة الطعام، فلم يعد زجاج نوافذها مفتوحاً إذ الليل قد حلّ في الخارج وأسراب الفقراء والفضوليين الذين اجتذبهم وهج الأنوار التي لا يستطيعون بلوغها تتدلى على جوانب الخلية الزجاجية المتلألئة المالسة عناقيد سوداء تقسو عليها الريح الشمالية.

ودق الباب. فإذا هو «إيميه» الذي أصرّ أن يحمل إليّ بنفسه لوائح الغرباء الأخيرة.

واهتم «إيميه» قبل ذهابه بأن يقول لي إن «دريفوس» مذنب وألف مذنب. وقال لي: «سوف تتوافر معرفة كل شيء لا في هذا العام، بل في العام المقبل، ومن قال لي ذلك سيد على علاقة وثيقة جداً بالأركان العامة». وسألته إن هم لن يقرروا كشف كل شيء في الحال قبل نهاية العام. فأردف «إيميه» يقول: «لقد وضع سيكارته»، وهو يمثل المشهد بالإيماء ويهز رأسه وسبابته مثلما فعل عميله يريد بذلك أن يقول: «ينبغي ألّا نكون متطلبين». لن يتم ذلك في هذا العام يا «إيميه»، يقول وهو يربت على كتفي. فالأمر غير ممكن. أما في الفصح فبلى! وضرب «إيميه» بلطف على كتفي وهو يقول لي: «ترى، إني أريك بالضبط كيف فعل». إما لأن ألفة أحد كبار القوم أرضت غروره وإما لأستطيع على نحو أفضل تقدير قيمة الحجة والأسباب التي تدعونا للأمل بصورة صحيحة تماماً.

وأصبت برعشة طفيفة في القلب حينما شاهدت في الصفحة الأولى من لائحة الغرباء الكلمات التالية: «سيمونيه وعائلته». فقد كنت أحمل في صدري أحلاماً قديمة يعود تاريخها إلى طفولتي وكان يزودني فيها بكامل الحنان الذي يعمر قلبي ولكنه، فيما يحس به، لا يتميز عن تلك الأحلام، كائن يختلف عني ما أمكن الاختلاف. أما هذا الكائن فقد قمت بصنعه مرة أخرى مستخدماً في سبيل ذلك اسم «سيمونيه» وذكرى التناسق الذي كان

سائداً بين الأجسام الفتية رأيتها تنتشر فوق الشاطئ في موكب رياضيّ خليق بالفن القديم وبـ«جيوتو». لم أكن أدري من كانت من بين تلك الفتيات الآنسة «سيمونيه»، إن اتفق أن تدعى واحدة منهن بهذا الاسم، ولكني أعلم أن الآنسة «سيمونيه» تحبّني وأني سوف أحاول التعرّف بها بفضل «سان لو». إلا أنه لسوء الطالع لم يحصل على تمديد لإجازته إلا بناء على هذا الشرط وكان ملزماً بالعودة كل يوم إلى «دونسيير». على أني ظننت أنه يمكنني الاعتماد من أجل حمله على الإخلال بواجباته العسكرية، حتى على ما كان أكثر من محبته لي، على الفضل نفسه الذي يميّز عالم الطبيعة البشرية والذي كثيراً ما داخلني - حتى دون أن أكون رأيت الشخص الذي يجري فيه الحديث ولمجرد سماعي من يقول إنّ ثمّة أمينة صندوق حلوة لدى بائع فواكه - في التعرّف بصنف جديد من الجمال النسائي. ولكني ما كنت على حقّ، بشأن ذلك الفضول. حينما أملت أن أثيره في صدر «سان لو» بالتحدّث إليه عن فتياتي، فقد شلّه لفترة طويلة.

لديه الحبّ الذي به لتلك الممثلة التي كان عشيقها. ولعلّه كان يقمعه لو أحسّ أقلّ ما يحسّ به بسبب ضرب من الاعتقاد الخرافي بأنّ إخلاص عشيقته يمكن أن يرتبط بإخلاصه هو. وإنّما انطلقنا للعشاء في «ريفبيل» دون أن يعدني بالاهتمام بفتياتي اهتماماً جاداً.

كانت الشمس، حينما كنّا نصل إلى هناك في الفترات الأولى، قد غابت منذ قليل، ولكنّما لا يزال ثمة نور. وفي حديقة المطعم التي لم تُشعل أنوارها بعد كان الحرّ يتلاشى ويترسّب وكأنّما في قعر وعاء تبدو هلاميّة الهواء الشافّة العاتمة على امتداد جوانبه شديدة التماسك إلى درجة تبدو بها شجيرة ورد كبيرة ملتصقة بالجدار المظلم الذي تمدّ على صفحته عروقاً ورديّة وكأنّما هي من نوع التشجرّ الذي يشاهد في صميم حجر عقيق يمان. وبعد قليل لم نعد نغادر العربة إلا والليل قد حلّ ويغلب حتى ألا ننطلق من «بالبيك» إلا ساعتها إن كان الطقس رديئاً وأجّلنا وقت الإسراج بأمل هدأة جويّة. إلا أنّي كنت في تلك الأيّام أسمع هبوب الريح دون

اكتئاب إذ أعلم أنّه لا يعني الرجوع عن مقاصدي والاحتباس داخل غرفة، وأعلم أن المصابيح التي لا تحصى في قاعة الطعام الواسعة في المطعم الذي سندخله على صوت موسيقى الغجر سوف تقهر بيسر الظلمة والبرد إذ تلصق بهما مكاويها الذهبيّة الواسعة، فكنت أصعد متهلّلاً إلى جانب «سان لو» في العربة التي تنتظرنا تحت وابل المطر.

كانت أقوال «بيرغوت» التي يقول فيها إنّه مقتنع، على الرغم من مزاعمي، بأنّي مهيّأٌ لأتذوّق على وجه الخصوص متع العقل قد أعادت لي بشأن ما يمكن أن أفعله فيما بعد أملاً يخيّبه كل يوم السأم الذي أعانيه من الجلوس إلى طاولة لمباشرة دراسة نقديّة أو رواية. فكنت أقول في نفسي: «ربّما لم تكن المتعة التي أصبناها في تسطير صفحة جميلة المقياس الصادق لقيمتها، ربّما لم تكن سوى حالة ثانوية تنضاف إليها في الغالب ولكنّ غيابها لا يمكن أن يقيم حجّة مسبقة ضدّها. وربّما تمّ تأليف بعض الروائع فيما يتثاءب كاتبها». وكانت جدّتي تهدّئ شكوكي بقولها إنّني سوف أعمل بجدّ وفرح إن كنت في صحّة جيّدة. ولمّا رأى طبيبي من الحكمة أن ينبهّني إلى المخاطر الكبيرة التي يمكن أن تعرّضني لها حالتي الصحيّة ورسم لي جميع صنوف الحيطة الواجب اتّباعها لأتجنّب وقوع حادث فقد أخذت أخضع جميع المتع للهدف الذي حكمت أنّه أشدّ خطراً منها بما لا يقاس وقوامه أن أكتسب قوى كافية لأتمكّن من تحقيق العمل الفنيّ الذي ربّما حملته في داخلي وأخضعت نفسي مذ أضحيت في «بالبيك» لرقابة دقيقة ومستمرة؛ فما من أحد يستطيع حملي على لمس فنجان القوة الذي ربّما حرمني من نوم الليل الضروريّ كي لا يصيبني التعب في الغد. ولكن حينما كنّا نصل إلى «ريفبيل» كانت تتلاشى في الحال - بسبب الإثارة الناجمة عن متعة جديدة وإذ أجدني في هذا القطاع المختلف الذي يزجّنا فيه الظرف الاستثنائي بعدما قطع الخيط الذي نسجناه بطول أناة منذ العديد من الأيّام والذي كان يقودنا باتّجاه التعقّل -، وكأنما لن يكون غد االبتّة من بعد ولا غايات سامية يجب تحقيقها، تلك

الآليّة الدقيقة لقواعد صحيّة حكيمة التي كانت تعمل للحافظ عليها. وفيما كان أحد الخدم يطلب مني معطفي كان «سان لو» يقول لي:

- «ألن تصاب ببرد؟ لعلّه من الأفضل لك أن تحتفظ به فليس الطقس حارّاً جدّاً».

فأجيب: «لا، لا»، ولعلّي ما كنت أحسّ بالبرد، ولكنّي لم أعد أعرف في جميع الأحوال خشية أن يصيبني المرض وضرورة ألّا أموت وأهميّة أن أعمل. فكنت أسلّم معطفي؛ وندخل قاعة المطعم على أنغام موسيقى حربية يعزفها الغجريّون، ونتقدّم بين صفوف الموائد المثقلة بالطعام وكأنّما في درب ممهد إلى المجد، وإذ نحسّ بالحماسة المتهلّلة التي يبعثها في جسمنا إيقاع الأوركسترا التي كانت تغدق علينا تكريمها العسكري واستقبال المنتصرين هذا الذي لم نكن أهلاً له كنّا نخفيها خلف هيئة رزينة جافية ومشية يثقلها الإعياء كل لا نحاكي تلك المتأنّقات في المقاهي الغنائية اللواتي يجئن لأداء مقطوعة خلاعية على أنغام لحن حربي فيدخلن المسرح جاريات بالمظهر الحربّي الذي لقائد منتصر.

كنت منذ تلك اللحظة رجلاً جديداً لم يعد حفيد جدّتي ولن يذكرها إلا لدى الخروج، ولكنّه الشقيق المؤقّت للخدم الذين يزمعون أن يقدّموا لنا الطعام.

أمّا كميّة البيرة، والشمبانيا من باب أولى، التي ما وددت في «بالبيك» بلوغها في مدى أسبوع في حين كان يمثّل طعم هذه المشروبات في هدوء وعيي ووضوح رؤيته لذة واضحة القيمة ولكنّما يضحّي بها بيسر. أمّا كمية البيرة فقد كنت أبتلعها في مدى ساعة واحدة وأضيف إليها شيئاً من «البورتو» وأنا أكثر شروداً من أن أستطيع تذوّقه. وكنت أعطي عازف الكمان الذي فرغ من عزفه الليرتين الذهبيّتين اللتين وفّرتهما منذ شهر من أجل القيام بشراء ما لم أكن أتذكّره. وكان بعض الخدم الذين يقومون بتقديم الطعام يهربون، وقد أفلتوا بين الطاولات، بأقصى السرعة وعلى راحتهم المبسوطة قصعة يبدو منها أنّ هدف هذا النوع من السباق هو ألّا

يدعوها تهوي. وكانت منفّخات الشوكولاته تصل بالفعل إلى المكان المقرّر دون أن تنقلب وتظلّ حبّات البطاطا المحضّرة بالطريقة الإنكليزية على الرغم من العَدْو الذي لا بدّ زعزعها مرتّبة شأنها في البداية حول حَمَلِ «بويّاك».

واسترعى انتباهي أحد هؤلاء الخدم، وكان بالغ الطول قد اكتسى رأسه بشعر أسود رائع وخضّب وجهه بلون يذكّر ببعض أصناف الطيور النادرة أكثر منه بصنف البشر. وكان إذ يجري دون انقطاع، وربّ قائل دون هدف، من أقصى القاعة إلى أقصاها إنّما يذكّر بواحدة من تلك الببغاوات التي تملأ الأقفاص الكبيرة في حدائق الحيوان بألوانها المتوهّجة واضطرابها اللامدرك وبعد قليل انتظم المشهد، في ناظري على الأقلّ، على نحو أكثر نبلاً وسكينة. فقد أخذ كل ذلك النشاط المدوّخ يستقرّ بانسجام هادئ. كنت أنظر إلى الطاولات المستديرة التي تملأ المطعم لجمهرتها التي لا تحصى كأنّما هي كواكب على نحو ما تُمَثّلُ هذه الأخيرة في لوحات الأمس المرمّزة. لقد كان ثمّة على كلّ حال قوّة جذب لا تقاوم بين مختلف الكواكب، فقد كان المتعشّون على كل طاولة لا ينظرون إلّا إلى الطاولات التي لا يجلسون إليها، باستثناء صاحب دعوة غنيّ ههنا أفلح في اصطحاب كاتب مشهور فكان يجهد في أن يستخلص منه بعض مزايا الطاولة الدوارة أقوالاً تافهة تدهش بها السيّدات. ولم يكن الاتساق بين هذه الطاولات الكواكبيّة ليحول دون الدوران المستمرّ لجماعة الخدم العديدة وكانوا، لأنّهم وقوف بدل أن يكونوا جلوساً شأن المتعشين، يتحرّكون في فلك علويّ. لا ريب أن أحدهم كان يسرع لحمل مقبّلات وتبديل خمرة وإضافة أقداح. ولكنّ طوافهم المستمر ما بين الطاولات المستديرة كان يستخلص في النهاية على الرغم من تلك الأسباب قانون سيره المدوّخ والمنظّم. وخلف كتلة من الأزهار تجلس أمينتا صندوق بشعتان انصرفتا إلى حسابات لا تنتهي وتبدوان كساحرتين تهتمان بطريق الحسابات الفلكية بتوقّع التقلّبات التي يمكن أن تحدث هذه القبّة السماوية

المصمّمة وفق علوم العصر الوسيط. وكنت أرثي قليلاً لحال جميع المتعشين لأنني أحس أن الطاولات المستديرة لم تكن كواكب في نظرهم لأنّهم لم يجروا في الأشياء تقطيعاً يريحنا من مظهرها المعتاد ويسمح لنا بإدراك وجوه التشابه. كانوا يظنّون أنّهم يتناولون عشاءهم مع هذا الشخص أو ذاك وأن الطعام سيكلّف هذا المقدار تقريباً وأنّهم سيعيدون الكرّة في الغد. وكانوا يبدون وكأنّهم لا يحسّون البتّة بانتشار موكب خدم صغار يحملون على شكل تطواف خبزاً في سلال إذ لم يكن لديهم في تلك اللحظة على الأرجح شغل ملحّ. كان بعضهم، ولا يزالون في مقتبل العمر وقد أرهقتهم الصفعات التي يكيلها لهم رؤساء الخدم لدى مرورهم يحدّقون بنظرات كئيبة إلى حلم بعيد ولا يعزّيهم عن ذلك إلا تعرّف أحد زبائن فندق «بالبيك» بهم. وكانوا فيما مضى مستخدمين فيه، فيتوجه بالحديث إليهم ويقول لهم شخصيّاً أن يرفعوا الشمبانيا التي لم تكن صالحة للشرب، الأمر الذي كان يملؤهم زهواً.

كنت أسمع هدير أعصابي التي نعمت بارتياح مستقلّ عن الأمور الخارجيّة التي يمكن أن توليها إيّاه التي كان أقلّ تحرّك أسبّبه لجسمي وانتباهي كافياً ليولّد فيّ الإحساس به مثلما يولّد ضغط طفيف الشعور باللون في عين مطبقة. كنت احتسيت حتى ذاك الكثير من شراب الـ«بورتو»، ولئن كنت أطلب المزيد فذلك من جرّاء تأثير الارتياح الذي حملته الأقداح الجديدة. وكنت أدع للموسيقى أن تقود بنفسها متعتي على كل نوطة موسيقية فكانت تقبل حينئذ لتحط عليها طائعة. ولئن كان مطعم «ريفبيل»، شأن تلك الصناعات الكيمائية التي تُنْتَجُ فيها بكميّات كبيرة عناصر لا نلقاه في الطبيعة إلا عرضاً ونادراً جدّاً، لئن كان يجمع في آن واحد نساء تناديني في أعماقهن احتمالات السعادة أكثر ممّا قد يتوافر لي مصادفة في النزهات أو الرحلات على مدى عام، فإن هذه الموسيقى التي كنّا نسمعها - وهي من صنوف التوليف الموسيقي لرقصات فالس ومسرحيّات غنائية ألمانية وأغنيات من المقاهي الموسيقيّة وكلّها جديد عليّ

- كانت تشكلّ بدورها كأنّما مكان ملذّات مجنّحاً ينضاف فوق الآخر وهو أبعث على النشوة منه. ذلك أن كلّ فكرة موسيقيّة، وهي فريدة على نحو ما تكون امرأة، لم تكن تخصّ محظيّاً معيّناً، كما لعلّ هذه الأخيرة كانت تفعل، بسرّ اللذّة التي تحتويها. فقد كانت تعرضه عليّ وتنظر إليّ من طرف العين وتقبل عليّ في مشية تتّسم بالغنج أو النذالة وتدنو منّي وتداعبني كما لو أضحيت فجأة أشدّ فتنة أو أكثر اقتداراً أو أوفر غنى. وكنت أجد في تلك الألحان شيئاً من القسوة؛ ذلك لأن كل إحساس مجرّد بالجمال وكلّ بريق للعقل كانا مجهولين لديها، فاللّذة الجسديّة وحدها قائمة بالنسبة إليها. وإنّها الجحيم الأشدّ قسوة والأكثر افتقاراً إلى المنافذ بالنسبة إلى الغير، إن التعيس الذي تُقَدَمُ له هذه اللذّة - هذه اللذّة التي تتذوّقها المرأة المحبوبة مع آخر - وكأنها الشيء الوحيد الكائن في العالم بالنسبة إلى التي تملؤه بكليّته. ولكنّي فيما كنت أردّد بصوت خافت نوطات هذا اللحن وأبادله قبلته، كانت اللذّة الخاصّة به التي يذيقني إيّاها تضحي عزيزة عليّ إلى حدّ أنّني ربّما هجرت ذويّ للحاق بالفكرة الموسيقيّة في الدنيا الفريدة التي تنشئها في عالم اللامرئي خطوطاً تفيض بالنعومة الحالمة تارة وطوراً بالحيويّة. ومع أنّ لذّة كتلك ليست من النوع الذي يضفي قيمة أكبر على الشخص الذي تنضاف إليه لأنّه وحده من يحسّ بها، ومع أنّه، في كلّ مرّة سُؤْنا أثناء حياتنا في عيني امرأة لمحتنا، كانت تجهل إن كنّا نملك في تلك اللحظة أو لانملك ذلك الهناء الداخلي والذاتي الذي ما كان بالتالي ليبدّل شيئاً في الحكم الذي أصدرته بحقّنا، فقد كنت أحسّني أوفر قوّة وأكاد لا أُقاوم كان يبدو لي أنّ حبّي لم يعد أمراً مزعجاً يمكن الهزء منه بل هو يتمتّع بالضبط بالجمال المؤثر والإغراء اللذين لتلك الموسيقى التي تشبه بدورها وسطاً مؤنساً التقينا فيه أنا ومن كنت أحبّها وقد أضحينا فجأة حميمين.

لم تكن ترتاد ذلك المطعم نساء فاسقات فحسب بل كذلك جماعة من دنيا الأناقة الرفيعة كانوا يجيئون لتناول العصرونية في نحو الساعة الخامسة

أو يقيمون فيه ولائم عشاء. كانت العصرونيات تتمّ في رواق طويل مزجّج ضيّق على شكل ممرّ يمتدّ انطلاقاً من الردهة إلى قاعة الطعام على أحد جوانب الحديقة التي لا يفصله عنها (باستثناء بعض أعمدة من الحجر) سوى الزجاج الذي يتمّ فتحه ههنا أو هناك. الأمر الذي كان ينجم عنه، علاوة على التيّارات الهوائية الكثيرة، التماعات للشمس مفاجئة متقطّعة وضوء مبهر غير ثابت يكاد يحول دون تمييز «المتعصرنات»، فيخيّل لذلك إليك، حينما يكنّ هناك وقد تكوّمن طاولتين فطاولتين على امتداد القطّارة الضيّقة، إذ كنّ يتلألأن في كلّ حركة يقمن بها لاحتساء الشاي أو تبادل التحيّة ما بينهنّ، أن ثمّة خزّاناً أو قفّة كدّس فيها الصيّاد الأسماك المتألقة التي اصطادها والتي تتلألأ أمامك في بريقها المتبدّل. ونصفها خارج الماء تغمره أشعّة الشمس.

وبعد بضع ساعات وفي أثناء العشاء الذي كان يُقدَّم بالطبع في قاعة الطعام كانت تُضاء الأنوار مع أنّه لا يزال ثمّة ضوء في الخارج، الأمر الذي كنتَ معه تبصر أمامك في الحديقة بالقرب من أكشاك تستمدّ نورها من ضوء الشفق وتبدو كأنّها أطياف المساء الشاحبة، ممرات معرّشة تخترق خضرتها القاتمة آخر أشعّة الشمس وتبدو من القاعة المضاءة بالمصابيح والتي يقدّم فيها العشاء، تبدو من خلف الزجاج - لا كما لعلّه كان يقال عن السيّدات اللواتي كنّ يتناولن العصرونية في أواخر بعد الظهر على امتداد الممرّ الضارب إلى الزرقة والذهبيّ في شبكة متلألئة ندية - بل كأنّها نباتات حوض مائي عملاق شاحب الخضرة أنواره خارقة الطبيعة. وتتمّ مغادرة الموائد. ولئن ظل المدعوون أثناء الطعام، فيما ينفقون الوقت في النظر إلى مدعوّي الطاولة المجاورة والتعرّف بهم واستسمائهم، يشدّهم إلى مائدتهم الخاصّة ترابط تام، فإن قوّة الجذب التي تحملهم على الدوران في فلك مضيفهم ذاك المساء كانت تفقد من قوّتها حنيما كانوا يتّجهون بغية احتساء القهوة إلى ذاك الممرّ نفسه الذي استخدم لتناول العصرونية. وغالباً ما كان يتّفق أن تتخلّى هذه المائدة أو تلك أثناء السير عن جسيم أو أكثر

من جسيماتها كانت تنفصل، بعدما تعرّضت بشدّة لجاذبية المائدة التي تنافسها، كانت تنفصل عنها إلى حين ويحلّ محلّها فيها رجال أو سيّدات جاؤوا يحيّون أصدقاء لهم قبل أن يلحقوا بالركب وهم يقولون: «ينبغي أن أسرع للّحاق بالسيد. . . الذي أنا ضيفه هذا المساء». لكأنّما كان ثمّة على مدى لحظات باقتان منفصلتان تبادلتا بعض أزهارهما. ثم كان يخلو الممرّ نفسه. وكثيراً ما لا يضاء هذا الممشى الطويل، إذ كان لا يزال هنالك نور حتى بعد العشاء، فيبدو إذ تكتنفه الأشجار التي تتدلّى في الخارج من الجانب الآخر للزجاج وكأنّه ممرّ في حديقة مشجرة حالكة السواد. وأحياناً تتأخّر فيه مدعوّة في الظلام. وقد لاحظت فيه ذات مساء كنت أجتازه للخروج أميرةَ «لوكسمبور» الجميلة تجلس وسط جماعة لا أعرفها. وكشفت عن رأسي دون أن أتوقّف. فعرفتني وأحنت رأسها وهي تبتسم. وانبعثتْ من تلك الحركة نفسها وارتفعت رخيمةً فوق تلك التحيّة بكثير بعض الكلمات الموجّهة إليّ ولا بدّ أنّها كانت تمنّيات لليلة سعيدة طويلة بعض الشيء لا لكي أتوقّف بل لتتمّ بها التحيّة فحسب ولتجعل منها تحيّة منطوقة. ولكنّ الكلمات ظلّت غير مميّزة وتواتر الصوت الذي سمعته وحده عذباً وبدا لي موسيقياً حتى لكأنّ عندليباً أخذ يغنّي بين أغصان الأشجار المحلولكة.

وإن اتّفق أن قرّر «سان لو»، لاختتام الأمسية مع زمرة أصدقاء له سبق أن التقيناها، أن يتوجّه إلى كازينو أحد الشواطئ المجاورة وإن وضعني وحدي، وهو ذاهب معهم، في عربة فقد كنت أوصي الحوذيّ أن يذهب بأقصى سرعة كي يتناقص طول اللحظات التي سأقضيها دون أن يتوافر لي عون من يعفيني من أن أقدّم بنفسي لحساسيتي - بالرجوع إلى الوراء وبالخروج من السلبية التي وقعت فيها وكأنّما داخل مسنّنات - تلك التبدّلات التي كنت أتلقّاها من الآخرين منذ وصولي إلى «ريفبيل». وما كان الاصطدام المحتمل بعربة تجيء في الاتجاه المعاكس على تلك الدروب التي لا تتسع إلا لواحدة والتي يخيم عليها ليل دامس، ولا قلّة

ثبات أرض الجرف التي غالباً ما تنزلق، ولا قرب سفحه الذي يطلّ عمودياً على البحر، ما كان شيء من ذلك كلّه يلقي في الجهد الصغير اللازم ليحمل إلى عقلي تمثّل الخطر والخشية منه. فكما أنّه ليست الرغبة في أن يصبح المرء مشهوراً، بل تعوّده أن يكون مجدّاً هو الذي يمكنه من إنتاج عمل فني، كذلك ليس تهلل اللحظة الحاضرة بل أفكار الماضي الحكيمة هي التي تساعدنا على الحفاظ على المستقبل. ولئن سبق لي أن ألقيت بعيداً عنّي لدى وصولي إلى «ريفبيل» عكّازات التفكير ومراقبة الذات التي تعين ضعفنا على السير في الطريق القويمة فأجدني فريسة ضرب من اللاتوافق النفسي فقد كانت الكحول التي توتّرت به أعصابي توتّراً خارقاً قد أضفت على الدقائق الراهنة ميزة وسحراً لم ينتج عنهما أن أصبحت أهلاً أكثر من ذي قبل للدفاع عنها ولا حتى أكثر تصميماً على ذلك، فإذ تدفعني حماستي إلى تفضيلها ألف مرّة على باقي حياتي فقد كانت تعزلها عنها فإذا أنا سجين الحاضر شأن الأبطال، شأن السكيرين. ولم يعد ماضيّ، وقد احتجب مؤقتاً، يُسقط أمامي ظلّ ذاته هذا الذي ندعوه مستقبلنا. ولمّا وضعت هدف حياتي لا في تحقيق أحلام ذاك الماضي بل في سعادة الدقيقة الحاضرة، فإنني لم أعد أبصر أبعد منها، إلى حدّ أنّي كنت، وبتناقض ما كان إلا ظاهراً، في اللحظة التي أشعر فيها بمتعة خارقة، وأحسّ فيها أنّ حياتي يمكن أن تكون سعيدة وينبغي أن تكتسب في نظري قيمة أكبر، كنت في تلك اللحظة أدعها دون تردّد، بعدما تخلصت من الهموم التي استطاعت أن توحي بها إليّ حتى ذاك، رهينة حادث طارئ. وإنّما كنت باختصار القول أركز بين دفّتي أمسية واحدة اللامبالاة التي عمّت في ما يخص باقي الناس كامل حياتهم حيث يواجهون يوميّاً ودونما ضرورة مخاطر رحلة في البحر أو نزهة بالطائرة أو السيّارة في حين ينتظرهم في المنزل الشخص الذي سيحطّمه موتهم أو في حين لا يزال يرتبط بهشاشة دماغهم الكتاب الذي يؤلّف ظهوره القريب العلّة الوحيدة لوجودهم. والأمر واحد لو جاء أحدهم إلى مطعم

«ريفبيل»، في الأمسيات التي نمكث فيها هناك، وقد عقد العزم على قتلي، فإذ كنت لا أبصر من بعد إلا في مكان بعيد لا حقيقة لوجوده جدّتي وحياتي الآتية والكتب التي ينبغي لي تأليفها، وإذ كنت ألتصق كثيراً برائحة المرأة التي تجلس إلى المائدة المجاورة وبتأدّب رؤساء الخدم وشكل الفالس التي تعزف، والتصق بالإحساس الراهن لا امتداد لي أبعد من حدوده ولا هدف سوى ألّا أُفصل عنه، فإني كنت أموت مشدوداً إليه وأسمح بأن أُذْبَحَ دون أن أبدي مقاومة أو حركة كنحلة خدّرتها رائحة الدخان ولا تهتمّ من بعد بالحفاظ على مؤونةِ جهودها المتراكمة وعلى نحل خليّتها.

وينبغي أن أقول علاوة على ذلك إن قلّة الشأن التي كانت تهوي فيها أكثر الأمور خطراً في مقابل ثورة حواسي العنيفة كانت تحتوي في النهاية حتى الآنسة «سيمونيه» وصديقاتها. فقد أخذت عمليّة التعرّف بهنّ تبدو لي الآن سهلة ولكنّها لا تثير اهتمامي لأنّ إحساسي الراهن وحده، بفضل قوّته الخارقة والغبطة التي تبعثها أقلّ تبدّلاته وحتى محض استمراره، هو الذي كان يرتدي أهميّة في نظري. وما كان كامل ما تبقّى، الأهل والعمل والمتع وفتيات «بالبيك»، يساوي أكثر من فقاعة رغوة وسط ريح قويّة لا تدع لها أن تستقرّ، وما كان له وجود إلا بالنسبة إلى هذه القوّة الباطنة: فالسكر يحقّق على مدى ساعات قليلة المثاليّة الذاتيّة والظواهريّة المحضة، فلا شيء من بعد إلا ظواهر ولا وجود له إلّا تبعاً لذاتنا السامية. وليس يعني ذلك على أيّ حال ألّا يستطيع حبّ حقيقي، إن اتّفق لنا شيء منه، الاستمرار في حالة كتلك. ولكنّنا نحسّ تماماً، شأننا في وسط جديد، أن ضغوطاً مجهولة قد غيّرت أبعاد هذا الشعور إلى حدّ أنّنا لا نستطيع احتسابه مشابهاً. إنّنا نلقى هذا الحبّ نفسه ولكنّه في موقع آخر ولا يضغط من بعد علينا وقد ارتضى الإحساس الذي يوليه إيّاه الحاضر والذي يكفينا لأنّنا لا نهتمّ بما لم يكن راهناً. ولكنّ المُعامِل الذي يغيّر القِيم على هذا النحو لا يغيّرها للأسف إلا في ساعة السكر هذه. فالأشخاص الذين

فقدوا أهميّتهم والذين كنّا ننفخ عليهم مثلما نفعل على فقاعات صابون سوف يستعيدون في الغد كثافتهم، وينبغي أن نحاول من جديد العودة إلى مباشرة الأعمال التي لم تكن تعني شيئاً بل الأدهى من ذلك أن حساب الغد هذا، وهو حساب الأمس ذاته، الذي سنواجه حتماً مشكلاته، هو الحساب الذي يحكمنا حتى في أثناء تلك الساعات إلا في نظرنا نحن. فإن كانت بالقرب منّا امرأة فاضلة أو تناصبنا العداء فإنّما يبدو لنا هذا الأمر العسير جدّاً نهار البارحة - وقوامه أن نفلح في إعجابها - إنما يبدو لنا الآن مليون مرّة أكثر يسراً دون أن يكون به شيء من ذلك لأنّنا لم نتغيّر إلا في أعيننا نحن، إلّا في أعيننا الباطنة. وتبدو بدورها مستاءة في اللحظة نفسها أنْ سمحنا لأنفسنا ببعض التمادي بقدر استيائنا في الغد لأنّنا نقدنا الخادم مئة فرنك وللسبب نفسه الذي أُجّلَ فقط بالنسبة إلينا، يعني غياب السكر.

ما كنت أعرف أيّة من النساء اللواتي كنّ في «ريفبيل» واللواتي كنّ يظهرن لي، إذ يؤلّفن جزءاً من سكري مثلما تؤلّف الانعكاسات جزءاً من المرآة، ألف مرّة أكثر اشتهاء من الآنسة «سيمونيه» التي يتناقص وجودها شيئاً فشيئاً. ونظرت إليّ شقراء فتيّة وحيدة كئيبة المظهر من تحت قبّعة القشّ التي شُكّت بزهر الحقول، نظرت إليّ لحظة بهيئة حالمة وبدت لي محبّبة. ثمّ جاء دور أخرى، فثالثة، وأخيراً سمراء متألّقة المحيّا، وكلهن معروفات تقريباً، إن لم يكن لديّ فلدى «سان لو».

ذلك إنّه قبل أن يتعرّف بعشيقته الحاليّة كان قد سلخ فترة طويلة في دنيا المجون المغلقة إلى حدّ أنّه ما من امرأة تقريباً من بين جميع النساء اللواتي كنّ يتعشّين في تلك الأمسيات في «ريفبيل»، واللواتي كان العديد منهنّ هناك بالتصادف إذ جئن إلى شاطئ البحر، بعضهنّ للقاء عشيقهن والأخريات لمحاولة العثور على عشيق، إلا ويعرفها لأنّه قضى معها - هو أو واحد من أصدقائه - ليلة على الأقلّ. وما كان يلقي التحيّة عليهنّ إن كنّ بصحبة رجل ويتظاهرن بدورهن بأنهنّ لا يعرفنه فيما ينظرن إليه أكثر من

سواه لأنّ اللامبالاة التي اشتهر بها إزاء أيّة امرأة لم تكن على خشبة مسرحه كانت توليه في نظر هؤلاء النسوة مهابة خاصّة. وتهمس إحداهنّ قائلة: «إنّه العزيز «سان لو»، ويبدو أنّه لا يزال على حبّ هذه الغبيّة. إنها حبّه الكبير. ما أجمل الفتى! إني ألقاه ساحراً! وأيّة أناقة! هنالك من النساء من يتوافر لهنّ حظّ رائع. إنّه لا غبار عليه في كلّ مجال. لقد عرفته تمام المعرفة حينما كنت مع «دورليان». لقد كانا متلازمين كالظلّ. وأيّة حياة ماجنة في ذلك الحين! ولكنّ الأمور تبدّلت ولا يدع لها أن تستمرّ. آه! يمكنها أن تقول إنّها كبيرة الحظّ. وإني أتساءل ما عساه يجد فيها. لا بدّ أنّه مع ذلك شديد الغباء. إنّ لها قدميْن شبيهين بالمراكب وشاربيْن من النمط الأميركي وثياباً داخليّة وسخة! وأظنّ أن عاملة صغيرة لا ترتضي سراويلها. هيّا انظري قليلاً أيّة عينين له فقد يلقي المرء نفسه في النار في سبيل رجل كهذا. اخرسي، ويحك، لقد عرفني، إنّه يضحك. آه! لقد كان يعرفني تمام المعرفة. ما عليك إلّا أن تحدّثيه عنيّ». كنت أفاجئ بينهنّ وبينه نظرة، ووددت لو يقدّمني لهاتيك النساء وأن يمكّنني أن أطلب منهنّ موعداً وأن يتفضلن به عليّ حتى لو لم أستطع القبول. فبدون ذاك ربّما ظلّ وجههنّ في ذاكرتي خلواً من هذا الجزء من ذاته - وكأنّما احتجب خلف حجاب - هذا الجزء الذي يختلف باختلاف النساء كلهن ولا يسعنا تخيّله لدى إحداهن إن لم نبصره فيها ولا يظهر إلا في النظرة الموجّهة إلينا والتي توافق على رغبتنا وتعدنا بأنّها سوف تُلبّى. على أن وجههنّ، وإن بدا مقلّصاً إلى هذا الحدّ، كان بالنسبة إليّ أكثر بكثير من وجه النساء اللواتي أعلم أنهن فاضلات ولا يبدو لي كوجههنّ في ذاكرتي خلواً من هذا الجزء من ذاته - وكأنّما احتجب خلف حجاب -، هذا الجزء الذي يختلف باختلاف النساء كلهن ولا يسعنا تخيّله لدى إحداهن إن لم نبصره فيها ولا يظهر إلا في النظرة الموجّهة إلينا والتي توافق على رغبتنا وتعدنا بأنها سوف تُلبّى. على أن وجههنّ، وإن بدا مقلّصاً إلى هذا الحدّ، كان بالنسبة إليّ أكثر بكثير من وجه النساء اللواتي أعلم أنهنّ فاضلات ولا يبدو لي

كوجههنّ عادياً دون خلفيّة تؤلّفه قطعة واحدة لا كثافة لها. وما من شكّ أنّه لم يكن بالنسبة إليّ ما لا بدّ أنّه كان بالنسبة إلى «سان لو» الذي كان يتذكّر ويرى، خلف لا مبالاة القسمات الجامدة، وهي شفّافة في ما يخصه، إذ تتظاهر بأنّها لا تعرفه وخلف سخافة التحيّة نفسها التي ربّما وُجّهت كذلك لأيّ سواه، كان يتذكّر ويرى ما بين شعور محلولة وشفتين متهالكتين وعينين نصف مطبقتين لوحة كاملة صامتة كتلك التي يغطيّها الرسّامون بلوحة محتشمة ليخدعوا بها غالبيّة الزوّار. أمّا في ما يخصّني، أنا الذي كان يشعر أن لم ينفذ شيء من كيانه إلى هذه أو تلك من هاتيك النساء ولن يُحْمَلَ فيها على الدروب المجهولة التي ستسير عليها في أثناء حياتها، فقد ظلّت تلك الوجوه بالتأكيد مغلقة. بيد أنّه كان يكفيني مذ ذاك أن أعلم أنها كانت تتفتح حتى تبدو لي ذات قيمة ما كنت لأراها لها لو لم تكن سوى ميداليات جميلة عوضاً عن أن تكون قلائد تختفي خلفها ذكريات حبّ. وأمّا في ما يخصّ «روبير» الذي يكاد لا يطيق المكوث في مكانه حينما يكون جالساً ويخفي خلف ابتسامة رجل البلاط النهم الذي به تصرّف رجل الحرب، فقد كنت أتبين، لمّا أحسنتُ النظر إليه، كما كان لا بدّ لقوّة عظم وجهه المثلّث الشكل أن تكون نفسها من شدّة بأس أسلافه وهي أقرب أن تكون لنبّال فوّار النشاط منها لمثقف ناعم. ذلك أنّ البناء الجريء وهندسة عصر الإقطاع كانا يبرزان خلف البشرة الناعمة. وكانت رأسه تذكّر بتلك الأبراج في قلعة عتيقة ظلّت شرفاتها غير المستخدمة بارزة للعيان ولكنّما تمّ إعدادها من الداخل بمثابة مكتبة.

وكنت أقول في نفسي أثناء عودتي إلى «بالبيك» عن واحدة من هاتيك المجهولات قدّمني لها دون أن أتوقّف لحظة وأكاد مع ذلك لا أنتبه للأمر: «ما أطيبها امرأة!» مثلما يتمّ غناء لازمة. كانت تملي عليّ تلك الأقوال بالتأكيد حالة عصبيّة أكثر منها رأياً يتّسم بالدوام. بيد أنّه لا يقلّ عن ذلك صحّةً أنّني لو كنت أحمل ألف فرنك معي ولا يزال هنالك جواهريّون في حوانيتهم في تلك الساعة لاشتريت للمجهولة خاتماً. وحينما تنقضي

ساعات حياتنا وكأنّما على مستويات شديدة الاختلاف فإنّه يتّفق للمرء أن يغدق من نفسه أكثر مما ينبغي في سبيل أشخاص مختلفين يبدون لك في الغد عديمي الشأن. ولكنّك تحسّ أنّك مسؤول عمّا قلتَه لهم البارحة وتبغي الوفاء بوعدك.

ولما كنت أعود في تلك الأمسيات في ساعة متأخّرة كنت أسرّ بأن ألقى في غرفتي التي لم تعد تناصبني العداء السرير الذي ظننت في يوم وصولي أنّه سوف يستحيل دوماً عليّ أن أرتاح فيه وحيث كانت تبحث أعضائي المرهقة الآن عن السند المعين، فكانت الفخذان منيّ والوركان والكتفان تجهد جميعها على التوالي أن تلتصق كلّ نقطة فيها بالشراشف التي تغطّي الفراش كما لو ابتغى تعبي، شأن نحّات، أن يسبك قالباً كاملاً لجسم إنساني. ولكني ما كنت أستطيع النوم إذ كنت أحسّ باقتراب الصباح، وقد هجرني الهدوء وهجرتني العافية. كان يبدو لي في ضيقي أني لن أجدهما بعد في يوم. كان لا بدّ لي أن أنام نوماً طويلاً لألتقيهما. ولكنّما ستوقظني على أيّة حال، وإن أغفيت، الفرقة السمفونية بعد ساعتين. وفجأة يأخذني النوم وأهوي في هذا السبات العميق الذي ينكشف لنا فيه الرجوع إلى الشباب واستعادة السنين الماضية والمشاريع الضائعة والتحرّر من حاجات الجسد وهجرة الأرواح واستذكار الأموات وأوهام الجنون والعودة إلى ممالك الطبيعة الأكثر أوّلية (إذ يقولون إنّنا غالباً ما نبصر حيوانات في الحلم ولكنّما يفوتهم أنّنا فيه على الدوام تقريباً حيوان حرم من هذا العقل الذي يلقي على الأشياء شعاعاً من يقين، ولا نقدّم فيه على العكس لمسرح الحياة سوى رؤية مهزوزة يلاشيها النسيان في كلّ دقيقة إذ تزول الحقيقة السابقة أمام الثانية التي تليها كما يزول عرض بالفانوس السحري أمام آخر يليه حينما يتمّ تبديل الصفيحة الزجاجية) وجميع تلك الأسرار التي نحسب أنّنا لا نعرفها فيما يتمّ بالحقيقة اطلاعنا عليها كلّ ليلة تقريباً بالإضافة إلى السرّ الآخر العظيم، سرّ الفناء والقيامة. لقد جعلت منّي الإنارة المتعاقبة التائهة لمناطق أظلمت في ماضيّ، لقد

جعلت مني، إذ أضحت أكثر شروداً من جرّاء عمليّة الهضم العسيرة لعشاء «ريفبيل»، كائناً لعلّ أقصى سعادته أن يلتقي بـ«لوغراندان» الذي اتّفق أن تحدّثت إليه في الحلم.

ثمّ إن حياتي نفسها قد حجبتها عنيّ حجباً كلياً مناظرُ جديدة كتلك التي تقام على حافّة خشبة المسرح والتي يقدّم ممثّلون أمامها فاصلاً ترفيهيّاً فيما تتمّ خلفها عمليّات تبديل اللوحات. أمّا المناظر التي كنت أقوم فيها آنذاك بدوري فكانت من نمط الحكايات الشرقيّة وما كنت أعلم فيها شيئاً عن ماضيّ ولا عن نفسي بسبب هذا القرب الشديد لمناظر تفصلني عنهما. وكنت محض شخص يُضرب بالعصيّ وتُنزل به عقوبات مختلفة من جرّاء خطيئة لم أكن أتبيّنها ولكنّ قوامها أنّني أكثرت من شرب البورتو. وفجأة أستفيق وألاحظ أنني لم أسمع الفرقة السمفونية بفضل نوم طويل، كان بعد الظهر قد حلّ، وقد تأكّدت من ذلك في ساعتي بعد عدّة محاولات لأستوي في فراشي، محاولات غير مجدية بادئ الأمر تقطّعها لحظات يهوي رأسي بها على الوسادة، ولكن من النوع القصير الذي يلي النوم وصنوف الانتشاء الأخرى سواء أكانت الخمرة مصدرها أو نقاهة معيّنة. وكنت متيقّناً على أيّة حال أن الظهر قد انقضى حتى قلبما أنظر إلى الساعة. لم أكن مساء البارحة سوى كائن مُفْرَغ فاقد الوزن ولا أستطيع (إذ ينبغي أن يكون المرء قد استلقى ليتمكّن أن يجلس، وأن يكون قد أغفى ليتمكّن أن يصمت) التوقّف عن الحركة أو الكلام وكنت لا قوام لي ولا مركز ثقل وقد اندفعت ويبدو لي أنّني ربّما استطعت موالاة رحلتي الكئيبة حتى القمر. ولئن لم تبصر عيناي الساعة في أثناء نومي فقد أفلح جسمي في حسابها وقاس الوقت لا على ميناء ساعة مثّلت تمثيلاً سطحيّاً بل بوزن متدرّج لجميع قواي المستعادة التي جعلها، شأن ساعة جداريّة ضخمة، تنحدر درجة فدرجة من دماغي إلى باقي جسمي حيث أخذت تراكم الآن حتى أعلى ركبتيّ كامل مؤوناتها الوفيرة. وإن صحّ أنّ البحر كان فيما مضى وسطنا الحيويّ الذي لا بدّ أن نغمس فيه دمنا كيما نستعيد قوانا،

فتلك حال النسيان والعدم الذهنيّ، إذ يبدو المرء حينذاك وكأنّه يغيب عن الزمان بضع ساعات. ولكنّ القوى التي تنضدت في أثناء ذلك الوقت دون أن يتمّ إنفاقها إنّما تقيسه بوساطة كميتها بمثل دقّة أثقال الساعة الجداريّة أو الكومات المتداعية في الساعة الرمليّة. ولست تستطيع من جهة أخرى الإفلات من نوم كهذا على نحو أيسر ممّا يتمّ لك في السهر الطويل لشدّة ما تنزع الأشياء جميعها إلى الدوام، وإن صحّ أنّ بعض المخدّرات تحمل على النوم فإنّ النوم الطويل مخدّر يفوقها قوّة ويعسر بعده على المرء أن يفيق. وكمثل بحّار يبصر تماماً الرصيف الذي سيربط به قاربه، ولا يزال مع ذلك تهزّه الأمواج، فقد كان يخيّل إليّ تماماً أني أنظر إلى الساعة وأنهض ولكنّ جسمي يعود فيأخذه النوم في كل لحظة. كان الهبوط عسيراً وقد أهويت مرّتين أو ثلاثاً على وسادتي قبل أن أنهض وأبلغ ساعتي وأقارن الوقت الذي تشير إليه مع ذاك الذي تشير إليه وفرة الموادّ التي لدى ساقيّ المنهكتين.

وأخيراً كنت أبصر بوضوح: «الساعة الثانية بعد الظهر!»، وأقرع الجرس، ولكني أغوص في الحال في نوم كان ينبغي أن يكون هذه المرّة أطول بما لا يقاس إن حكمت في الأمر بما لقيت لدى الاستيقاظ من راحة ورؤية لليل لا محدود تجاوزته. وبما أن استيقاظي إنّما سبّبه دخول «فرانسواز» وكان قرعي للجرس سبباً لهذا الدخول، فإن هذه الإغفاءة الجديدة، التي كان يبدو أنها لا بدّ جاءت أطول من تلك وقد جلبت لي الراحة والنسيان، لم تدم أكثر من نصف دقيقة.

وتفتح جدّتي باب غرفتي فأطرح عليها ألف سؤال حول أسرة «لوغراندان».

ليس يكفي القول إني عدت إلى الهدوء والعافية، ذلك أن ما فصلني عنهما البارحة كان أكثر من مجرّد مسافة فقد وقع عليّ طوال الليل أن أكافح ضدّ تيّار معاكس، ثم إني لم أجد نفسي بالقرب منهما فحسب فقد عادا إلى داخلي. وفي نقاط محدّدة، ولا تزال تؤلمني بعض الشيء داخِلَ

رأسي الفارغ الذي سيتحطم ذات يوم فيدع لأفكاري أن تفلت إلى الأبد، كانت هذه الأخيرة قد استعادت مكانها مرّة أخرى ولقيت من جديد تلك الحياة التي لم تفلح حتى الآن، واأسفي، في الاستفادة منها.

لقد نجوت مرة أخرى من استحالة النوم وسيل النوبات العصبيّة والغرق فيها. ولم أعد أخشى كل ما كان يتهدّدني عشيّة البارحة حينما كنت أفتقر إلى الراحة. لقد انفتحت أمامي حياة جديدة. ودون أن آتي بحركة واحدة، إذ لا أزال منهدّ القوى وإن دبّت فيّ العافية، كنت أتذوّق تعبي متهلّلاً، فقد سبق له أن عزل وحطّم عظام ساقيّ وذراعيّ وأُحِسُّ أنها جُمّعت أمامي وتتأهّب للتلاحم وأنني سوف أُنْهِضُها إمّا غُنِّيت فقط شأن مهندس الأمثال.

وتذكّرت فجأة الشقراء الفتيّة ذات المظهر الكئيب التي شاهدتها في «ريفبيل» والتي نظرت إليّ مقدار لحظة. وكثيرات غيرها على مدى الأمسية بكاملها بدين لي ممتعات، وقد انتصبت الآن وحدها في أعماق ذكرياتي. كان يخيّل إليّ أنّها لاحظتني وكنت أتوقّع أن يجيئني أحد الخدم في «ريفبيل» لينقل إليّ كلمة منها. لم يكن «سان لو» يعرفها ويعتقد أنّها فتاة لائقة. ولعلّه من العسير على المرء أن يراها، أن يراها دون انقطاع. ولكنّي كنت مستعدّاً لكلّ شيء في سبيل ذلك ولم أعد أفكّر إلا فيها. والفلسفة غالباً ما تروي عن أفعال حرّة وأفعال مسيرة. وربّما لم يكن ثمة ما كان مفروضاً علينا كلياً أكثر من ذاك الذي يعمل، بفضل قوّة صاعدة ثمّ ضغطها أثناء العمل، وبعدما يخلد فكرنا إلى الراحة، على إعادة ذكرى على هذا النحو، وكانت حتى ذاك قد مُهّدت على سويّة الأخريات من جرّاء قوّة الشرود الضاغطة، ويجعلها تندفع لأنّها كانت تحوي على غير علم منّا وأكثر من الأخريات سحراً لا ننتبه له إلا بعد انقضاء أربع وعشرين ساعة. وربّما لم يكن كذلك من فعلٍ في مثل حريّته لأنّه لا يزال خلواً من العادة، من هذا النوع من الهوس الذهني الذي ييسر في الحبّ الانبعاث الحصريّ لصورة شخص معيّن.

كان ذلك اليوم بالضبط غد اليوم الذي شهدت فيه مرور موكب الفتيات الجميل أمام البحر. وسألت بشأنهن العديد من روّاد الفندق الذين كانوا يفدون في كلّ عام تقريباً إلى «بالبيك»، فلم يستطيعوا تزويدي بالمعلومات. وقد أوضحت لي صورة فوتوغرافية السببَ فيما بعد. فمن ذا كان يستطيع الآن أن يتعرّف فيهنّ، وما كدن يهجرن، ولكنّهن هجرن، سنّاً يتبدّل فيها المرء تماماً، أو هذه الكتلة غير المتبلورة الرائعة، ولا تزال طفولية بعد، لبنيّات كان يمكن أن يراهنّ المرء، لبضع سنوات خلت، جالسات على الرمل على شكل دائرة حول خيمة وكأنهنّ مجموعة نجوم بيضاء مبهمة لا يميّز المرء فيها عينين أكثر التماعاً من سواهما ووجهاً ماكراً وشعراً أشقر إلا ليضيّعها، وسرعان ما تختلط داخل لا وضوح السديم وبياضه.

وما من شكّ أن ما كان يفتقر إلى الوضوح في تلك السنوات التي لا تزال غير بعيدة إنما الجماعة نفسها، لا رؤية تلك الجماعة كما كانت حالهن البارحة في أوّل ظهور لهن أمامي. كان هؤلاء الأطفال الحديثو السنّ لا يزالون حينذاك في هذه الدرجة الأولية من التكوّن، تلك التي لم تضع الشخصيّة فيها خاتمها على كلّ وجه. وكمثل تلك الأجسام البدائيّة التي قلّ أن يوجد فيها الفرد بحدّ ذاته وإنّما تؤلّفه الكتلة المرجانية أكثر ممّا يؤلّفه كلّ من الفروع المكوّنة للكتلة، كنّ يمكثن محتشدات على الدوام. وأحياناً توقِع إحدهن جارتها أرضاً فتنطلق إذ ذاك ضحكة صاخبة تبدو وكأنّها التجلّي الوحيد لحياتهنّ الشخصيّة فتهزّهنّ جميعهنّ معاً وتمّحي بها وتختلط تلك الوجوه الحائرة القسمات الملتوية في تجمّد عنقود واحد متلألئ راعش. وفي صورة قديمة زوّدنني بها ذات يوم واحتفظت بها، كانت جماعتهنّ الطفوليّة تتألّف مذ ذاك من عدد المشاركات نفسه الذي ألّف فيما بعد موكبهنّ النسائيّ. وإنّك لتحسّ فيها أنّهن لا بدّ ألّفن مذ ذاك بقعة فريدة ترغم على النظر إليهنّ ولكنّما لا يستطيع المرء تعرّفهنّ فيها إفراديّاً إلا بالمحاكمة العقليّة وبترك المجال مفتوحاً لجميع التحوّلات الممكنة في أثناء الشباب إلى الحدّ الذي تجور فيه تلك الأشكال التي أُعِيدَ

تأليفها على شخصيّة متميّزة أخرى ينبغي كشف هوّيتها بدورها وربّما اتّفق لوجهها الجميل، بسبب ترافقه وقامة مديدة وشعر أجعد، أن يكون فيما مضى هذه القسمات المتلوّية المتغضّنة الجعدة التي تزوّدنا بها الصورة الفوتوغرافية. وغالباً ما كان يقع لأفضل صديقاتهنّ، من جرّاء أن المسافة التي قطعتها السمات الجسمانيّة لكلّ من تلك الفتيات في وقت قليل كانت تجعل من تلك السمات معياراً شديد الإبهام، وأنّ ما كان مشتركاً بينهنّ وجماعياً كان منذ ذاك شديد البروز، أن يخلطن بين واحدة وأخرى في تلك الصورة إلى حدّ أنّه ما كان يمكن أن يحسم الشكّ في النهاية سوى هذا الأمر أو ذاك في ملبسهنّ ممّا كانت إحداهنّ على يقين بأنها ارتدته باستثناء الأخريات. وكنّ منذ الأيّام الشديدة الاختلاف والشديدة القرب مع ذلك، كنّ لا يزلن ينسقن وراء الضحك مثلما تبيّنتُ ذلك البارحة، ولكنّه ضحك لم يعد ضحك الطفولة المتقطّع والآليّ تقريباً، وهو استرخاء تشنّجي كان فيما مضى يغوص في كلّ لحظة بتلك الرؤوس. مثلما كانت كتل الأسماك في نهر الـ«فيفون» تتبدّد وتختفي لتتشكلّ من جديد بعد لحظة. لقد أضحى لملامحهنّ الآن سلطان على ذواتهنّ وأصبحت أعينهنّ مثبّتة على الهدف الذي تلاحقه. كان لا بدّ البارحة من قلّة وضوح نظرتي الأولى وارتعاشها، كيما أخلط على نحو غير مميّز، مثلما فعل الفرح الصاخب الماضي والصورة القديمة، من الفروع المرجانية التي تفرّدت اليوم وانفصلت عن الكتلة المرجانية الشاحبة.

وما من شكّ أنّي كثيراً ما منّيت النفس لدى مرور فتيات جميلات بلقائهنّ ثانية. وما كنّ يعاودن الظهور عادة، ولعلّ الذاكرة التي سرعان ما تنسى وجودهن تسترجع ملامحهنّ بصعوبة. وربّما لم تعرفهنّ عيوننا، فيما يتفق لنا أن تخطر أمامنا فتيات أخريات لن نلقاهنّ كذلك ثانية. ولكنّما المصادفة تردّهنّ أحياناً بإلحاح أمامنا، وهو ما وقع للجماعة الصغيرة الوقحة. وتبدو المصادفة إذ ذاك جميلة لأنّنا نميّز داخلها كأنّما بداية تنظيم وجهد لتأليف حياتنا، وإنّها لتولي الإخلاص سهولة وحتميّةً وفي بعض

الأحيان - وبعد انقطاعات أمكن أن تحمل لنا أمل أن نكفّ عن التذكّر - قسوةً، الإخلاص لصور سوف نظنّ فيما بعد أنّه كُتب علينا امتلاكها، ولعلّنا بدونها كنّا نسيناها بادئ الأمر بيسر كبير شأن صور غيرها كثيرة.

وسرعان ما أدركت إقامة «سان لو» نهايتها، ولما يتمّ لي لقاء تلك الفتيات ثانية على الشاطئ. كان يمكث في «بالبيك» بعد الظهر وقتاً أقصر من أن يستطيع الاهتمام بهنّ ومحاولة التعرّف بهنّ من أجلي. وكان يتوافر له في المساء متّسع أكبر من الوقت ويوالي اصطحابي كثيراً إلى «ريفبيل». وإنّك لتجد في تلك المطاعم، كما هي الحال في الحدائق العامّة والقطارات، أناساً احتجبوا خلف مظهر عاديّ ويذهلنا اسمهم إن اتّفق أن اكتشفنا بعد استفسار عارض أنّهم ليسوا الوافد العاديّ المسالم الذي افترضناه بل هم لا يقلّون عن كونهم الوزير أو الدوق الذي كثيراً ما سمعنا من يتحدّث عنه. وقد سبق لنا أن شاهدنا أنا و«سان لو» مرّتين أو ثلاثاً في مطعم «ريفبيل»، وحين يشرع الجميع في مغادرة المكان، رجلاً طويل القامة مفتول العضلات منتظم القسمات متشيّب اللحية، ولكن نظرته الحالمة تظلّ تحدّق بجد في الفراغ، يقبل ويجلس إلى إحدى الطاولات. وفيما كنّا نسأل صاحب المطعم ذات مساء من عسى يكون هذا المتعشّي المنعزل المتخلّف، قال لنا: «كيف ذلك، أما كنتما تعرفان الرسّام الشهير «إيلستير»؟ كان «سوان» قد ذكر اسمه مرّة أمامي وقد نسيت تماماً وقد نسيت تماماً بأيّ شأن. ولكنّ إغفال إحدى الذكريات، شأن إغفال أحد أطراف الجملة في قراءة ما، لا يسهّل الشكّ بل انبثاق يقين مبكر. فقلت لِـ«سان لو»: إنّه أحد أصدقاء «سوان» وفنّان ذائع الصيت عظيم القدر. وفي الحال مرّت بي وبه، كما الرعشة، فكرة أنّ «إيلستير» فنّان عظيم ورجل مشهور ثم إنّه ما كان يرتاب، وقد اختلطنا بالنسبة إليه مع المتعشّين الآخرين، بالحماسة التي تخلّفها فينا فكرة نبوغه. ولا ريب أن جهله بإعجابنا به ومعرفتنا لِـ«سوان» ما كان ليظلّ عيباً لو لم نكن في الحمّامات البحرية. بيد أنّنا إذ ظللنا في سنّ لا تستطيع الحماسة فيها أن تظلّ صامتة

وانتقلنا إلى حياة يبدو فيها المجهول خانقاً سطّرنا كتاباً مذيّلاً باسمائنا كشفنا فيه النقاب لِـ«إيلستير» عن هاويين يتعشّقان فنّه وصديقين لصديقه الكبير «سوان» يتمثّلان في الشخصين الجالسين على خطوات منه وطلبنا فيه إليه أن نعرب به عن احترامنا. وأخذ خادم على عاتقه حمل تلك الرسالة المستعجلة إلى الرجل الشهير.

ربما لم يكن «إيلستير» مشهوراً بعد في ذلك الحين بالقدر الذي داعبه صاحب المؤسسة وما أصبح عليه بعد ذلك بسنوات قليلة على أنّه حذر ولكنّه كان أحد الأوّلين في ارتياد هذا المطعم حين لم يكن بعد سوى ما يشبه المزرعة، وفي اصطحاب عشيرة من الفنّانين إليه وقد هجروه جميعاً إلى مكان آخر حالما أصبحت المزرعة التي كان يجري تناول الطعام فيها في ظلّ شجرة كُنّة بسيطة مركزاً أنيقاً، وما كان «إيلستير» نفسه يعود إلى هذا المكان إلا من جرّاء غياب زوجته التي يسكن معها في مكان ليس ببعيد عن هناك. ولكنّ الموهبة الفذّة، حتى إنّ لم يُعْتَرف بَعْدُ بها، إنما ينجم عنها بالضرورة بعض ظاهرات الإعجاب من تلك التي استطاع صاحب المزرعة أن يميّزها في أسئلة أكثر من إنكليزية واحدة مرّت هناك وهي متعطّشة إلى المعلومات حول الحياة التي كان يقضيها «إيلستير» أو في عدد الرسائل التي ترد هذا الأخير من البلاد الأجنبيّة. وقد لاحظ صاحب المطعم أكثر من ذلك أنّ «إيلستير» كان يكره الإزعاج في أثناء الشغل وأنّه كان ينهض ليلاً ليصحب جليساً يقف أمامه عارياً على شاطئ البحر حينما تكون الليلة قمراء وقد أسر في نفسه أن هذا القدر من الجهود لم يذهب هدراً ولا جاء إعجاب السيّاح بغير وجه حقّ حينما تمّ له أن يتعرّف في إحدى لوحات «إيلستير» إلى صليب من الخشب كان مغروساً في مدخل «ريفبيل»، فكان يردّد بذهول: «إنّه هو بالتمام، فثمّة أجزاؤه الأربعة! آه، وأيّ جهد ينفق كذلك في هذا السبيل!».

وما كان يدري إن كانت لوحة صغيرة لِـ«شروق الشمس على البحر» وهبه إيّاها «إيلستير» لا تساوي ثروة.

ورأيناه يقرأ رسالتنا ويضعها في جيبه ويتابع عشاءه ويشرع في طلب حوائجه وينهض يبغي الذهاب وكنّا على كبير يقين أنّنا صدمناه بمسعانا إلى حدّ أنّنا نتمنّى الآن (بمقدار ما خشينا) أن يمضي دون أن يكون لاحظنا ولم نفكّر لحظة واحدة بأمر كان ينبغي أن يبدو لنا من أكثرها أهميّة، وقوامه أنّ تحمّسنا لِـ«إيلستير»، الذي ما كنّا لنسمح بأن يُشكّ بصدقه والذي كان بوسعنا إقامة البرهان عليه في أنفاسنا التي يقطّعها الانتظار ورغبتنا في أن نقدم على أي عمل صعب أو بطولي في سبيل الرجل العظيم، لم يكن إعجاباً مثلما تصوّرناه لأننا لم نشاهد قطّ أي شيء لِـ«إيلستير». كان يمكن لشعورنا أن يتّخذ بمثابة موضوع له فكرة «الفنّان العظيم» لا عملاً فنيّاً كان مجهولاً لدينا. كان ذلك بالأكثر إعجاباً في الفراغ والإطار العصبيّ والهيكل العاطفي لإعجاب فارغ المضمون، يعني شيئاً يرتبط بالطفولة ارتباطاً لا انفصام له بمقدار غياب بعض الأعضاء لدى الإنسان البالغ. لقد كنا بعد طفلين. كان «إيلستير» في تلك الأثناء يوشك أن يبلغ الباب حينما انعطف فجأة وأقبل علينا. وجرفني ذعر لذيذ من مثل ما لم يكن بوسعي أن أعانيه بعد بضع سنوات لأنّه في القوت الذي تقلّل فيه السنّ القدرة على ذلك فإنّ تعوّد المجتمع يقصي أيّة فكرة في بعث فرص بمثل هذه الغرابة والإحساس بهذا النوع من الانفعالات.

وفي الكلمات القليلة التي أقبل «إيلستير» يقولها لنا وهو يجلس إلى مائدتنا لم يجبني البتّة في مختلف المرّات التي حدثّته فيها عن «سوان». وأخذت أعتقد أنّه لا يعرفه. ولكنّ ذلك لم يحل دون أن يطلب مني الذهاب لألقاه في مرسمه في «بالبيك»، تلك الدعوة التي لم يوجّهها لِـ«سان لو» والتي أكسبتني إيّاها بضع كلمات جعلته يحسب أنّي أحبّ الفنون. وما كانت توصية «سوان» لتكسبني إيّاها لو كان «إيلستير» على علاقة صداقة به «لأنّ نصيب المشاعر المتجرّدة أكبر ممّا يعتقد في حياة الناس». وغمرني بلطف يفوق لطف «سان لو» بقدر ما يفوق هذا الأخير أنس بورجوازي صغير. ذلك لأن لطف السيّد الكبير إذا ما قورن بلطف

فنّان كبير بدا وكأنّه تمثيل وتصنّع. كان «سان لو» يحاول أن ينال الإعجاب، أمّا «إيلستير» فكان يحبّ أن يعطي وأن يهب من ذاته. ولعلّه كان يهب كلّ ما يملك من أفكار وأعمال فنيّة وما تبقّى، وهو في عينه أقلّ بكثير، لمن استطاع أن يفهمه. ولكنّه لقلّة توافر المجتمع الذي يمكن احتماله كان يعيش في عزلة وفي توحّش؛ كان رجال المجتمع الراقي يدعونه تصنّعاً وسوء تهذيب والسلطات العامّة روحاً شرّيرة وجيرانه جنوناً وأسرته أنانيةً واستعلاء.

ولا ريب أنّه فكّر أوّل الأمر بسرور، داخل العزلة نفسها، أنّه يخاطب عن بعد، بوساطة أعماله، أولئك الذين لم يقدّروه حقّ قدره أو جرحوا شعوره ويزوّدهم بفكرة أرفع عن نفسه. وربّما عاش إذ ذاك وحيداً لا بداعي اللامبالاة بل بداعي حبّ الآخرين، ومثلما تخليّت عن «جيلبيرت» لأعود فأبرز أمامها ذات يوم بمظهر محبّب أكثر كان هو يخصّ بعضهم بعمله الفنّي بمثابة عودة إليهم يحبّونه من خلالها دون أن يلقوه ويعجبوا به ويتحدّثوا عنه. فليس الزهد كلّياً على الدوام في بدايته، حينما نعقد العزم عليه بروحنا القديمة وقبل أن يتمّ له التأثير فينا عن طريق ردّ الفعل، سواء في ذلك زهد المريض والراهب والفنّان والبطل. على أنّه إن ودّ الإنتاج لبعض الناس فقد عاش لذاته وهو ينتج بعيداً عن المجتمع الذي أضحى لا يبالي به. فقد ولّدت معاناة العزلة حبّ هذه الأخيرة في نفسه على نحو ما يتّفق بالنسبة إلى كلّ أمر عظيم خشيناه بادئ الأمر لأننا نعلم أنّه لا يتلاءم وأموراً صغيرة تهمنّا ويحرمنا إيّاها أقلّ مما يفصلنا عنها. وإنّما قوام كامل اهتمامنا قبل معرفته أن نعلم إلى أيّ مدى يمكننا أن نوفّق بينه وبين بعض المتع التي تكفّ عن كونها متعاً حالما يتيسّر لنا أن نعرفه.

ولم يمكث «إيلستير» وقتاً طويلاً في التحدث إلينا. وقد منّيت النفس بالذهاب إلى مشغله في غضون اليومين أو الأيام الثلاثة القادمة، إلا أنّنا غداة تلك الأمسية، وإذ كنت قد صحبت جدّتي إلى غاية السدّ باتجاه جروف «كانابفيل»، التقينا لدى العودة، في زاوية أحد الشوارع الصغيرة

المؤديّة إلى الشاطئ على نحو عمودي، بفتاة كانت تسير، منكّسة الرأس كحيوان يُعاد به غصباً إلى الإسطبل وتمسك بعصيّ للغولف، أمام امرأة حازمة هي على الأرجح مربيّتها الإنكليزية أو مربيّة إحدى صديقاتها وتبدو شبيهة برسم «جيفريز» من أعمال «هوغارت»، حمراء الوجه كما لو كان شرابها المفضّل «الجين» بدلاً من الشاي وتمدّ بعقفة سوداء لبقايا مضغة شارباً لها متشيّباً ولكنّه غزير. كانت البنيّة التي تسير أمامها شبيهة بفتاة المجموعة الصغيرة التي كان لها عينان ضاحكتان في وجه جامد ممتلئ الخدّين تظلّله قبّعة سوداء. كانت تلك التي تعود في هذه اللحظة تعتمر هي الأخرى قبعة سوداء ولكنّها تبدو أكثر جمالاً من تلك وخطّ أنفها أكثر استقامة وفتحته في الأسفل أكثر اتّساعاً وأشدّ اكتنازاً. ثم إن تلك بدت لي فتاة متعجرفة شاحبة اللون، وهذه طفلة مروّضة مورّدة اللون. بيد أنّي خلصت، بما أنّها كانت تدفع أمامها درّاجة مماثلة وترتدي قفّازين مماثلين من جلد الأيّل، إلى أن الفروق ربّما نجمت عن الطريقة التي كنت أجلس بها وعن الظروف لأنّه من غير المرجّح أن يكون ثمة في «بالبيك» فتاة ثانية وجهها على ذلك مماثل إلى هذا الحد وقد جمعت في ملبسها الخصائص نفسها. وأرسلت في اتّجاهي نظرة سريعة. وحينما التقيت في الأيّام التالية بالمجموعة الصغيرة على الشاطئ، وحتى حينما عرفت فيما بعد جميع الفتيات اللواتي كنّ يؤلفنها، لم يتوافر لي اليقين المطلق في يوم بأنّ أيّة منهنّ - حتى تلك التي كانت تشبهها أكثر ما تشبهها من بينهنّ، وأعني فتاة الدرّاجة - كانت بالتمام تلك التي رأيتها ذلك المساء في آخر الشاطئ وفي زاوية الشارع. تلك الفتاة التي كادت لا تختلف، مع أنّها تختلف بعض الشيء، عن التي كنت لاحظتها في الموكب.

ومنذ فترة ما بعد الظهيرة تلك أصبحت فتاة عصيّ الغولف، ويفترض أنّها الآنسة «سيمونيه»، هي التي أخذت تشغل بالي أنا الذي فكّر على وجه الخصوص في الطويلة في الأيّام السابقة. كانت تتوقّف كثيراً وسط الأخريات فتضطّر صديقاتها اللواتي يبدون وكأنّهن يحترمنها كثيراً إلى

التوقّف كذلك. وإنّي أعود فأراها الآن على هذا النحو تتوقّف ملتمعة العينين في ظلّ قبّعتها، أراها ترتسم خطوطاً على الشاشة التي يمدّها البحر خلفها وتفصلها عنّي فسحة شفّافة لازورديّة هي الزمن الذي انقضى مذ ذاك، وإنّها الصورة الأولى التي دقّت في ذاكرتي، الصورة المشتهاة والملاحقة ثم المنسيّة ثم المستعادة لمحيّا كثيراً ما أسقطته مذ ذاك في الماضي ليمكنني أن أقول في نفسي عن فتاة كانت في غرفتي: «إنّها هي!».

وربّما كانت صاحبة اللون الغرنوقي والعينين الخضراوين من لعلّني اشتهيت أكثر ما اشتهيت التعرّف إليها أيضاً. وأيّة كانت في جميع الأحوال تلك التي كنت أفضّل رؤيتها، في هذا اليوم أو ذاك، فقد كانت الأخريات بدونها كافيات لهزّ مشاعري، إذ كان شوقي، وإن انصب مرّة على واحدة دون سواها ومرّة على أخرى، يوالي - شأن غموض نظرتي في اليوم الأوّل - في الجمع بينهنّ وفي أن يجعل منهنّ العالم الصغير المنفصل الذي تداخله حياة مشتركة والذي لا ريب أنهنّ كنّ يبغين على أيّة حال تأليفه. ولعلّني كنت، إذ أُضحي صديق إحداهن، سأدخل - شأن وثني مرهف الذوق أو مسيحي رقيق الحاشية لدى البرابرة - مجتمعاً يجدّد الشباب وتسوده العافية واللامبالاة واللذة والقسوة وانتفاء الطابع الفكريّ والفرح.

كانت جدّتي التي رويت لها عن التقائي بـ«إيلستير»، والتي كان يبهجها كلّ ما يمكن أن أكسبه على الصعيد الفكريّ من صداقته، ترى من غير المنطق واللطف ألّا أكون بادرت بعد لزيارته. لكنّي ما كنت أفكّر إلا في المجموعة الصغيرة ولا أجرؤ على الابتعاد وقد أعوزني التأكّد من الساعة التي ستمرّ فيها تلك الفتيات فوق السدّ. كانت جدّتي تعجب كذلك لأناقتي، فقد تذكّرت فجأة البزّات التي أهملتها حتى الآن في زاوية صندوقي. فكنت أرتدي كلّ يوم بزّة مختلفة، وقد بلغ بي الأمر أن كتبت إلى باريس كي يبعثوا إليّ بقبعات جديدة وربطات عنق جديدة.

وإنه لسحر عظيم ينضاف إلى الحياة في مركز حمامات بحريّة كما هي حال «بالبيك» إن أصبح وجه فتاة جميلة، وجه بائعة محاريّات أو حلوى أو زهور، وقد ارتسم بألوان زاهية داخل فكرنا، إن أصبح يوميّاً ومنذ الصباح بالنسبة إلينا هدف كلّ من تلك الأيّام المشرقة التي لا عمل فيها والتي نقضيها على الشاطئ، فإذا هي حينئذ من جرّاء ذلك، وإن تكن خالية من الأعمال، رشيقة كأيّام العمل موجّهة ممغنطة تندفع بلطف وجهة لحظة قريبة، تلك التي سنتلذّذ فيها، فيما نبتاع فطائر وأزهاراً ومحارات برؤية الألوان مبثوثة على وجه امرأة في مثل نقاء الألوان على صفحة زهرة. إلا أنّك، في ما يخصّ هؤلاء البائعات الصغيرات، تستطيع بادئ الأمر التحدّث إليهن، الأمر الذي يجنّبك أن تشيّد بالخيال الجوانب الأخرى التي لا تزوّدك بها الملاحظة البصريّة البسيطة. وأن تعيد ابتكار حياتهنّ وتغالي في سحرها وكأنّما أمام صورة مرسومة. ويمكنك أن تعلم على وجه الخصوص، لأنّك بالضبط تتحدّث إليهنّ، أين يمكن لقاؤهنّ وفي أيّة ساعات. بيد أن الأمر لم يكن البتّة على هذا النحو بالنسبة إليّ في ما يخص فتيات المجموعة الصغيرة. فلما كنت جاهلاً بعاداتهنّ كنت أبحث، حينما لا أشاهدهنّ في بعض الأيام ولا أدري سبب غيابهنّ، إن كان هذا الغياب أمراً ثابتاً وإن كُنَّ لا يُشَاهَدْنَ إلا مرّة كلّ يومين أو حينما يكون الطقس كذا أو إن كان ثمة أيّام لا يُشَاهَدْنَ فيها البتّة. وكنت أتصوّر نفسي سلفاً صديقاً عليهنّ وأقول لهنّ: «ولكنّكنّ ما كنتنّ هناك في يوم كذا؟ – آه، أجل، ذلك لأنّ اليوم كان يوم سبت ولا نجيء البتّة السبت لأن. . .». ولو أنّ الأمر في مثل بساطة أن نعلم أنّه من غير المفيد أن نلحّ في نهار السبت المشؤوم وأنّنا نستطيع التجوال في الشاطئ في كل اتّجاه، والجلوس أمام واجهة الحلواني والتظاهر بأكل حلوى خفيفة والدخول لدى تاجر الغرائب وانتظار ساعة الاستحمام والحفلة الموسيقيّة ووصول مياه المدّ وغروب الشمس وحلول الليل دون أن نشاهد المجموعة الصغيرة المشتهاة؛ ولكنّ اليوم المشؤوم ربّما لم يعاود الكرة مرّة في الأسبوع،

ولعلّه لا يقع بالضرورة في يوم سبت. وربّما كان لبعض الظروف الجويّة تأثير عليه أو كانت بعيدة كلّ البعد عنه. وكم من الملاحظات المتأنيّة، لا الهادئة بأيّة حال، ينبغي لنا جمعها حول الحركات غير المنتظمة في ظاهرها لتلك العوالم المجهولة قبل أن يمكننا التيقّن أنّنا لم تخدعنا المصادفات وأن توقعاتنا لن تُضَلّل قبل أن نستخلص القوانين الثابتة التي اكتسبناها بفضل تجارب قاسية والتي تحكم علم الفلك المولّه هذا! وإذ أذكر أنّني لم ألقهنّ في مثل هذا اليوم نفسه كنت أُسِرّ لذاتي بأنهن لن يأتين وأنّه لا جدوى من مكوثي على الشاطئ، فيتّفق أن ألمحهنّ. وكنّ في مقابل ذلك لا يجئن في يوم حسبت، بقدر ما تمّ لي افتراض أنّ ثمة قوانين كانت تنظّم عودة تلك المجموعات النجميّة، أنّه ينبغي أن يكون يوم يمن. بيد أنّه كان ينضاف إلى شكّي الأوّل هذا بأنّي سألقاهنّ أو لا ألقاهنّ في اليوم نفسه شك آخر أدهى بكثير وقوامه إن كنت سألقاهن في يوم لأنّني أجهل إجمالاً إن كنّ لن يرحلن إلى أميركا أو يعدن إلى باريس. وكان ذلك كافياً لأشرع في حبّهنّ. وقد يتملّكك ميل إلى شخص ما، إلا أنّه لا بدّ لتفسير هذه الكآبة وهذا الشعور بما لا يمكن تداركه وصنوف الضيق هذه التي تهيئ مناخ الحب - ولعله هو بالأحرى، لا شخص معين، الهدف نفسه الذي يحاول الهوى أن يشدّه بلهفة إليه - لا بدّ من احتمال استحالة ما. هكذا كانت تنشط مذ ذاك تلك التأثيرات التي تتكرر في غضون ظروف غراميّة متلاحقة (يمكن أن تقع على أيّة حال ولكنّها تتمّ بالأحرى في حياة المدن الكبرى بشأن عاملات نجهل أيّام عطلتهنّ ويرعبنا أنّنا لم نشاهدهنّ ساعة خروج عاملات المشغل)، أو التي تجدّدت على الأقلّ في غضون مناسباتي الغراميّة. وربّما كانت لاصقة بالحب، وربّما أقبل كلّ ما كان مزية خاصّة بالأوّل ينضاف إلى ما يليه بالذكرى، بالإيحاء، بالعادة ويضفي، من خلال الفترات المتعاقبة في حياتنا، طابعاً عاماً على مظاهره المختلفة.

كنت أتّخذ جميع الحجج ذريعة لأبادر إلى الشاطئ في الساعات التي

يحدوني فيها أمل إمكان لقائهن. وإذ لمحتهنّ ذات مرّة في أثناء غدائنا لم أعد آتي إليه إلّا متأخّراً وأنا في انتظار لا ينتهي على السدّ للحظة مرورهنّ هناك، وأظلّ طوال الوقت اليسير الذي أقضيه جالساً في قاعة الطعام أسائل بعينيّ زرقة الزجاج، وأنهض قبل المحلّيات كي لا يفوتني لقاؤهن إن اتّفق أن تنزّهن في غير الساعة المحدّدة وأغتاظ من جدّتي في قسوتها اللامتعمدة حينما تحملني على المكوث معها إلى ما بعد الساعة التي تبدو لي مواتية. وكنت أحاول أن أمدّ في طول الأفق بأن أضع كرسيّي بالورب، فإن وقع لي أن ألمح أيّاً من الفتيات فكأنّما رأيت، إذ يشاركن جميعهنّ في الجوهر الخاصّ نفسه، في هلوسة متنقلة شيطانيّة قبالتي شيئاً من الحلم المعادي، والمشتهي بتلهف مع ذلك، الذي كان لا وجود له قبل ذاك بلحظة إلا في دماغي، وهو راكد فيه على أيّة حال على نحو مستمرّ.

ما كنت أحبّ أيّة منهنّ، إذ أحبهن كلّهن، بيد أن لقاءهنّ المحتمل كان العنصر اللذيذ الوحيد في أيّامي وكان يبعث وحده في صدري آمالاً كالتي نحطّم بها كل العقبات، آمالاً يعقبها الحنق في الغالب إن لم تتّفق لي رؤيتهنّ. كانت الفتيات في ذلك الحين يحجبن جدّتي بالنسبة إليّ. ولعلّ رحلة كانت تروقني في الحال إن عَنَتِ الذهاب إلى مكان لا بدّ هنّ فيه. وإنّما كان فكري مشدوداً بلطف إليهنّ حينما أظنّ أنّي أفكّر في أمر آخر أو في لا شيء ولكن حينما كنت أفكّر فيهن، وإن لم أدرِ عن ذلك، فإنّما كنّ في نظري، على نحو أكثر بعداً عن الشعور، تموّجات البحر الوعرة الزرقاء وارتسام موكب أمام البحر. وإنما البحر ما كنت آمل لقاءه إن ذهبت إلى مدينة هنّ فيها. فالحبّ الذي ينصبّ حصراً على شخص ما إنّما هو أبداً شيء آخر.

أخذت جدّتي تعرب لي عن ازدراء يبدو لي ناجماً عن نظرة ضيقة بعض الشيء، لأنّني كنت آنها شديد الاهتمام بالغولف وكرة المضرب وسمحتُ أن تفوتني فرصة مشاهدة فنّان تعلم أنّه من أكبرهم في أثناء عمله والاستماع إلى حديثه. وكنت قد تبيّنت في «الشانزيليزيه» فيما مضى

وأدركت مذ ذاك أفضل من ذي قبل أنّنا إذ نعشق امرأة فإنّما نسقط فيها محض حالة من الحالات نفسنا، وأن المهمّ بالتالي ليس قدر المرأة بل عمق الحالة، وأن الانفعالات التي تبعثها فينا فتاة عاديّة يمكن أن تعيننا على أن نجذب إلى وعينا أجزاء من ذاتنا أشدّ صميميّة وألصق بشخصيّتنا وأكثر بعداً وأوفر جوهراً مما تفعل المتعة التي يولينا إيّاها حديث رجل متفوّق أو حتى التأمّل المعجب بأعماله الفنيّة.

واضطررت في النهاية أن أنصاع لجدّتي بانزعاج يزيد فيه أنّ «إيلستير» كان يسكن بعيداً إلى حد ما عن السدّ في أحد أحدث شوارع «بالبيك». واضطرّني حرّ النهار أن أستقلّ الحافلة الكهربائيّة التي تمرّ في شارع «الشاطئ» فكنت أجهد، كيما أحسب أنّي في مملكة «السيمريّين» القديمة، وربّما في موطن الملك «مارك» أو في موقع غابة «بروسيلياند»، في أن لا أنظر إلى البذخ الزهيد القيمة في الأبنية التي تنتشر أمامي والتي ربّما كانت دارة «إيلستير» من أوفرها قباحة في فخامتها ولكنّه استأجرها مع ذلك لأنّها الوحيدة من بين سائر الدارات المتوافرة في «بالبيك» التي يمكن أن تيسّر له مرسماً فسيحاً.

وقد اجتزت، وأنا أشيح أيضاً بوجهي، الحديقة التي ازدهت بمرجة - بمساحة صغيرة كما هي الحال لدى أيّ من بورجوازيّي ضاحية باريس - وتمثال صغير لبستاني متظرّف وكرات زجاجية تنظر إلى صورتك فيها وحواشٍ من أزهار البيغونيا وعريش صغير تستريح في ظلّه كراسٍ هزّازة حول طاولة حديديّة. بيد أني، بعد جميع هذه الجوانب التي تطبعها البشاعة الحضريّة، لم أعدّ أعير انتباهي زخارف الأفاريز البنيّة حينما أصبحت داخل المرسم! وألفيتني في أتمّ السعادة، ذلك أنّي في ما يخصّ جميع الدراسات التي من حولي كنت أحسّ بإمكان ارتقائي إلى معرفة شاعريّة خصبة بالمسرّات لأشكال كثيرة لم أكن فصلتها حتى ذاك عن المنظر الكليّ للواقع. وبدا لي مرسم «إيلستير» بمثابة مختبر لإعادة خلق العالم أستخلص فيه، من الركام الذي يمثّل جميع ما نرى من أشياء، إذ

رسمها على مستطيلات مختلفة من القماش وُضعت في كلّ اتّجاه، موجة هنا تسفح بحنق فوق الرمال زبدها الليلكيّ، وشابّاً هناك في قماش سميك أبيض يستند إلى ذراعه فوق سطح أحد المراكب. وقد اكتسبت سترة الشاب والموجة المتناثرة مكانة جديدة بما أنهما يستمرّان في الوجود وإن فقدا ما كانا يعتبرانه يؤلّف قوامهما، إذ لا تستطيع الموجة أن تبلّلك من بعد ولا السترة أن تكسو أحداً.

كان المبدع لحظة دخلت في طور إنجاز شكل الشمس لدى المغيب بالريشة التي يمسكها بيده.

كانت الستائر مسدلة في جميع الجوانب تقريباً والمرسم بارداً إلى حدّ ما ومعتماً إلا في مكان يلقي فيه الضياء الشديد على الجدار زخرفته الساطعة العابرة. وحدها نافذة صغيرة مستطيلة يحيط بجنباتها زهر العسل ظلّت مفتوحة وكانت تطلّ من خلف حديقة مستطيلة على شارع عريض. فكان الجو في الجزء الأكبر من المرسم عاتماً كثيف الكتلة ولكنّه نديّ متألّق في الزوايا حيث يرصّعه الضياء كمثل كتلة من الكريستال الصخري يلتمع ههنا وهناك أحد سطوحه المنحوت الصقيل كأنّه مرآة ويتقزّح. وفيما كان «إيلستير» يوالي الرسم نزولاً عند رغبتي كنت أجول في نصف العتمة ذاك أتوقّف أمام لوحة ثمّ أمام أخرى.

وما كان العدد الأكبر من تلك التي تحيط بي ما كنت أفضّل أن أشاهده له من تلك الرسوم التي تعود إلى طريقتيه الأولى والثاني، كما تنوّه بذلك مجلّة إنكليزية كانت مرميّة على طاولة صالة الاستقبال في الفندق الكبير، الطريقة الأساطيريّة وتلك التي خضع فيها لتأثير اليابان وكلاهما ممثّلتان أروع تمثيل، فيما يقال، في مجموعة السيّدة «دو غيرمانت». كان ما لديه في مرسمه يكاد يقتصر بالطبع على مناظر بحريّة أخذت هنا في «بالبيك». بيد أنّه كان بوسعي أن أميّز فيها أنّ سحر كلّ منها قائم على ضرب من تحوّل الأشياء الممثّلة شبيه بالتحوّل الذي ندعوه في الشعر مجازاً وأنّه إن كان اللّه الآب قد خلق الأشياء بإطلاق أسماء عليها، فإن

«إيلستير» كان يعيد خلقها بنزع تلك الأسماء عنها أو بإطلاق أسماء أخرى عليها. وإنّما تستجيب الأسماء التي تدل على الأشياء، إنّما تستجيب على الدوام لمفهوم عقليّ غريب عن انطباعاتنا الحقيقية يضطرّنا إلى أن نزيل منها كل ما لا يتعلّق بذاك المفهوم.

لقد سبق أن وقع لي أحياناً أمام نافذتي في فندق «بالبيك»، في الصباح حينما كانت «فرانسواز» تنزع الأغطية التي تحجب النور، وفي المساء حينما كنت أنتظر لحظة الذهاب مع «سان لو»، أن أتّخذ من جرّاء تأثير ناجم عن أشعّة الشمس قسماً في البحر أكثر عتمة بمثابة شاطئ بعيد أو أن أنظر بغبطة إلى منطقة زرقاء غير واضحة المعالم دون أن أدري إن كانت من البحر أو السماء. وسرعان ما كان عقلي يعيد بين العناصر الخطّ الفاصل الذي كان انطباعي قد أزاله. وكان يتّفق لي من هذا القبيل في غرفتي في باريس أن أسمع شجاراً وما يقرب أن يكون فتنة إلى أن أردّ إلى علّتها، إلى عربة تقترب جلبة سيرها على سبيل المثال، تلك الضجّة التي كنت أزيل منها حينذاك تلك الزعقات الحادّة والناشرة التي سمعتها أذني بالحقيقة ولكن عقلي يعلم أن ليس من عجلات تحدثها. وإنّما صُنِعَتْ أعمال «إيلستير» من تلك اللحظات النادرة التي يبصر فيها المرء الطبيعة على نحو ما هي عليه، على نحو شاعري. وكانت إحدى صوره المجازيّة الأكثر تردّداً في المناظر البحريّة التي كانت إلى جانبه في هذه اللحظة، كانت بالضبط تلك التي تشبّه الأرض بالبحر فتحذف كلّ خطّ فاصل بينهما. كان ذلك التشبيه الذي يتكرّر في لوحة واحدة بصورة ضمنيّة وعلى نحو لا يعرف الكلل هو الذي يدخل فيها تلك الوحدة القويّة المتعدّدة الأشكال التي كانت سبب الحماسة التي يثيرها رسم «إيلستير» في صدر بعض الهواة، ولا يتبينون أحياناً ذلك السبب بوضوح.

كان «إيلستير» على سبيل المثال قد هيّأ ذهن المتفرّجين لمجاز من هذا القبيل - في لوحة تمثّل مرفأ «كاركتوي»، لوحة أنجزها منذ أيّام قليلة وأطلت في النظر إليها - وذلك بأن استخدم تعابير بحريّة حصراً للمدينة

الصغيرة وحضريّة حصراً للبحر، فإمّا أن تحجب المنازل جزءاً ممن المرفأ إذ يمتدّ حوض لإصلاح السفن أو حتى البحر نفسه على شكل خليج داخل اليابسة، كما يتّفق ذلك باستمرار في منطقة «بالبيك» هذه، فإذا السطوح في الجانب الآخر من الطرف المتقدّم الذي شيّدت عليه المدينة تبرز فوقها (على غرار ما قد تفعل المداخن أو قبب الجرسيات) الصواري التي تبدو وكأنها تجعل من السفن التي تعود إليها شيئاً حضريّاً شيّد على اليابسة وتزيد في هذا الانطباع مراكب أخرى ظلّت على امتداد المكسر ولكنّها متراصّة الصفوف حتى ليتحدّث الناس فوقها من مركب إلى آخر دون أن يمكن تمييز الخطّ الفاصل بينها وبين فرجة الماء، وهكذا كان يبدو أسطول الصيد الصغير هذا أقلّ التصاقاً بعالم البحر من كنائس «كريكبيك» مثلاً، تلك الكنائس التي تبدو في البعيد، والماء يحيط بها من كلّ جانب لأنّك كنت تشاهدها بمعزل عن المدينة في ابيضاض الشمس والأمواج، وكأنها تنبثق من المياه التي تنفّخت مرمراً أو زبداً، وتؤلّف، وقد لفّها نطاق قوس قزح متعدّد الألوان، لوحة خياليّة روحانية. وقد أفلح الرسّام في أماميّة الشاطئ في تعويد العين أن لا تبصر حدّاً ثابتاً وخطاً فاصلاً مطلقاً بين اليابسة والمحيط. كان الرجال الذين يدفعون مراكب إلى البحر يجرون في الماء وعلى الرمل سواء بسواء، فقد كان يعكس في بلله هياكل كما لو كان ماءً. والبحر نفسه ما كان يتقدّم على نحو منتظم بل يتبع تعرّجات الشاطئ الرملي الذي كان المنظور يزيد من تعرّجه حتى لتبدو سفينة في عرض البحر، وتكاد تحجبها منشآت الصناعة البحرية التي تمتدّ داخل البحر، وكأنها تمخر داخل المدينة. وتبدو نسوة يجمعن القريدس بين الصخور، لأنّ الماء يحيط بهنّ وبسبب المنخفض الذي يهبط بالشاطئ، بعد حاجز الصخور الدائري (من الجانبين الأكثر اقتراباً من اليابسة)، إلى مستوى البحر. وكأنهنّ داخل مغارة بحريّة تكتنف جوانبها القوارب والأمواج وقد انفتحت ما بين المياه التي تباعدت تحميها على نحو عجائبيّ. ولئن كانت اللوحة بكاملها تخلّف هذا الانطباع عن المرافئ

التي يمتدّ فيها البحر داخل اليابسة وتبدو اليابسة فيها من البحر والناس برمائيّين، فإن قوّة العنصر البحريّ كانت تتفجّر في كلّ مكان. فقد كنت تحسّ، بالقرب من الصخور وعلى مدخل الرصيف حيث كان البحر مضطرباً، كنت تحسّ، من جرّاء جهود البحّارة ومَيَلان القوارب المضطجعة بزاوية حادّة إزاء العموديّة الهادئة التي تبرز بها المخازن والكنيسة ومنازل المدينة التي يعود بعضهم إليها وينطلق الآخرون منها إلى الصيد، أنهم يقفزون بخشونة على متن الماء كأنّما على ظهر حيوان جموح سريع العدو كانت قفزاته المفاجئة ستلقي بهم أرضاً لولا مهارتهم. وكانت زمرة من المتنزّهين تخرج على متن قارب يهتزّ كعربة خفيفة، وبحّار متهلّل ولكنّه متيقّظ أيضاً يقوده كأنّما بأعنّة ويمضي بالشراع المتوثّب، وكلّ يقف في مكانه تماماً كي لا يزيد من الثقل في أحد الجوانب ولا ينقلب، وكان الناس يسرعون هكذا عبر الحقول المشمسة والأمكنة الظليلة مندفعين فوق السفوح. وكان صباحاً جميلاً على الرغم من العاصفة التي هبّت. وتكاد حتى تحس كذلك بالتأثيرات القوية التي كان على التوازن البديع الذي تبدو به القوارب الساكنة أن يبطلها وهي تنعم بالشمس والبرودة في الأجزاء التي يبدو فيها البحر ساكناً حتى لتكاد الانعكاسات تبدو أوفر صلابة وحقيقة من هياكل المراكب التي تبخرت بفعل ضياء الشمس، وجعلها المنظور يتراكب بعضها فوق بعضها الآخر. أو لعلك كنت بالأحرى لا تقول بأجزاء أخرى من البحر. فقد كان بين تلك الأجزاء قدر من الفروق يماثل ما كان بين واحد منها والكنيسة المنبثقة من المياه والمراكب التي وراء المدينة. وكان العقل بعدها يجعل مادّة واحدة مما كان هنا أسود بفعل العاصفة وفي البعيد موحّد اللون تماماً مع السماء وصقيلاً مثلها وهناك شديد البياض من شمس وضباب وزبد، شديد الكثافة بعيد الشبه بالأرض تكتنفه المنازل إلى حدّ تفكر معه بطريق رُصفت بالحجارة أو بحقل ثلجيّ يصيبك الذعر أن تبصر عليهما سفينة ترتفع عموديّاً وعلى اليبس كمثل عربة تمرح وهي خارجة من مخاضة، إلا أنّك

تدرك بعد فترة وأنت تبصر فوق الهضبة الصلبة العالية اللامتساوية مراكب مترنّحة، أنّه لا يزال هو البحر يتماثل في جميع مظاهره المختلفة.

ومع أنهم يقولون بحقّ إنّه لا تقدّم في الفنّ ولا اكتشافات، بل هي تنحصر في العلوم، وإنّه إذ يعاود كلّ فنّان لحسابه الخاصّ جهداً فرديّاً فلا يمكن أن يلقى عوناً أو إعاقة في جهود آخر سواه، إلا أنّه لا بدّ من الاعتراف بأن الفنّ السابق يفقد شيئاً من أصالته على نحو رجعيّ بمقدار ما يبرز الفنّ بعض القوانين وبعدما تقوم صناعة ما بتعميمها. لقد عرفنا منذ بدايات «إيلستير» ما يدعونه صوراً فوتوغرافية «رائعة» لمناظر أو لمدن. فإن حاولنا إيضاح ما يعنيه الهواة في هذه الحالة بتلك الصفة لوجدنا أنها تنطبق عادة على صورة غريبة لشيء معروف، صورة تختلف عن تلك التي تعوّدنا رؤيتها، غريبة ولكنّها حقيقية وهي لهذا السبب تضاعف من ذهولنا لأنها تدهشنا وتخرجنا من عاداتنا فيما تردّنا في الآن نفسه إلى داخل ذواتنا إذ تذكّرنا بانطباع معيّن. فواحدة من تلك الصور «الرائعة» ستوضح لنا على سبيل المثال قانون المنظور، فترينا هذه الكاتدرائيةَ التي تعوّدنا أن نراها في أوسط المدينة وقد صوّرت على العكس من نقطة مصطفاة تبدو منها ثلاثين مرّة أعلى من المنازل وقد امتدّت على ضفّة النهر التي هي في الواقع بعيدة عنها. وقد سبق لجهد «إيلستير» في ألّا يعرض الأشياء على مثل ما يعلمها، بل وفق تلك الأوهام البصريّة التي تؤلّف نظرتنا الأولى، أن قاده بالضبط إلى توضيح بعض من قوانين المنظور وهي إذ ذاك أشد إذهالاً لأنّ الفنّ كان الأوّل في إماطة اللثام عنها. فيبدو نهر بسبب انعطاف مجراه وخليج بسبب تقارب الجروف الظاهر وكأنهما يحفران وسط السهل أو الجبال بحيرة مغلقة تماماً من كلّ جانب. وفي لوحة أخذت من «بالبيك» في يوم صيف قائظ كان يبدو فيها انحسار للبحر داخل أسوار من الغرانيت الورديّ اللون وكأنّه ليس من البحر الذي يبدأ في نقطة أبعد. ولم يكن يوحي بتواصل المحيط سوى طيور النورس التي تحوم حول ما يبدو للناظر أنّه من الحجر فتتنسم على العكس نداوة الماء. وثمة قوانين أخرى كانت

تُستخلص من تلك اللوحة نفسها كمثل رشاقة الأشرعة البيضاء القزمية على حضيض الجروف الضخمة، وكانت تبدو فوق المرآة الزرقاء كأنّها فراشات غافية، وبعض صنوف التعارض بين شدّة سواد الظلال وشحوب الضوء. فقد حظي تلاعب الظلال هذا الذي جعلته الصورة الفوتوغرافية مبتذلاً بدوره باهتمام «إيلستير» إلى حدّ أن طاب له فيما مضى أن يرسم لوحات سراب حقيقي يبدو فيه حصن يُتَوِّجه برج على هيئة حصن دائريّ تماماً يعلوه برج في قمته وفي أسفله برج مقلوب إمّا لأن النقاء الخارق في طقس صحو قد أضفى على الظلال التي تنعكس في الماء صلابة الحجر وبريقه، وإمّا لأنّ الضباب الصباحيّ جعل الحجر في مثل ضبابيّة الظلال. كذلك كان يبدأ ما وراء البحر خلف صفّ من الحراج، بحر جديد يلوّنه غروب الشمس بلون الورد، وإن هو إلا السماء. كان النور الذي يبتدع، كأنّما أجساماً صلبة جديدة، يدفع بهيكل المركب الذي يرسل عليه ضياءه إلى خلف الهيكل الذي بقي في الظلّ فيقيم كأنّما درجات سلّم من الكريستال على الصفحة المستوية على الصعيد الماديّ ولكنما تكسّرها الإنارة، صفحةِ البحر في الصباح. وكان النهر الذي يجري تحت جسور المدينة قد تمّ رسمه من نقطة يبدو منها مقطّع الأوصال كليّاً ينبسط ههنا على شكل بحيرة، ويدقّ هناك فإذا هو خيط ماء، ويقطعه في مكان آخر قيام هضبة دونه تتوجها الأشجار وإليها يبادر إنسان المدينة في المساء إلى تنسّم هواء المساء العليل، وما كان يؤمّن انتظام خطوط هذه المدينة المزعزعة سوى خطّ قباب الجرسيات العموديّ الذي لا ينثني، تلك القباب التي لا تذهب صعداً بل هي تبدو بالأحرى، حسب شاقول الثقالة الذي يرسم الإيقاع كأنّما في لحن سير ظافر، وكأنها تمسك الكتلة التي تفوقها إبهاماً، كتلة المنازل المتناضدة في الضباب، معلّقة من تحتها، على امتداد النهر المحطّم المفكّك. (وبما أنّ أعمال «إيلستير» الأولى تعود إلى الفترة التي كان يجري فيها تزويق مناظر الطبيعة بحضور إنساني) فقد كان الدرب، هذا الجزء نصف المؤنسن في الطبيعة، فوق الجرف وفي الجبل ضحيّة

انكسافات المنظور، شأن النهر أو المحيط. وسواء أحال حرف جبل أم ضباب شلّال أم البحر دون أن نتابع خطّ الطريق المتّصل الجليّ بالنسبة إلى المتنزّه لا بالنسبة إلينا، فقد كان الإنسان الصغير التائه بثيابه المتقادمة الزيّ في هذه الأمكنة المنعزلة يبدو في الغالب كأنّما استوقف أمام هاوية، إذ الدرب الذي يسير عليه ينتهي هناك، فيما نرى، على ارتفاع يجاوزه بثلاث مئة متر في أحراج الصنوبر تلك، بعين داخلها الحنان وبقلب مطمئنّ، بياضَ رمله الدقيق الرفيق بقدم المسافر يعود إلى الظهور، ولكنّ سفح الجبل كان قد حجب عنا شرائطه الوسيطة التي تدور حول الشّلال أو الخليج.

وكان يزيد من الإعجاب بالجهد الذي يبذله «إيلستير» لينزع عنه في إزاء الواقع جميع مفاهيم عقله، أنّ هذا الرجل الذي كان يصطنع الجهل قبل أن يرسم وينسى كلّ شيء عن نزاهة (لأنّ ما نعرفه ليس ملكاً لنا) كان يتمتّع بالضبط بعقل مثقف ثقافة استثنائية. فلمّا كنت أعترف له بالخيبة التي أصابتني أمام كنيسة «بالبيك» قال لي:

– «كيف تصيبك الخيبة من جرّاء هذه البوابة، فإنها أجمل كتاب مقدس قصصيّ أمكن أن يراه الشعب قطّ. إنّ هذه العذراء وسائر النقوش النافرة التي تروي حياتها إنّما تمثّل التعبير الأوفر رقّة والأكثر إلهاماً في قصيدة العبادة والمدائح الطويلة هذه التي سينشئها العصر الوسيط تمجيداً للعذراء. فلو تعلم ما تمّ للنحّات الشيخ من اكتشافات رقيقة وأفكار عميقة وشعر رائع، إلى جانب الدقّة الأكثر تأنّياً في ترجمة النصّ المقدّس! ففكرة هذا القماش الرقيق الكبير الذي يحمل فيه الملائكة جسد العذراء وهو أكثر قدسيّة من أن يجرؤوا على مسّه مباشرة (وقلت له إن الموضوع نفسه عولج في كنيسة «سانت آندريه دي شان»، وكان قد شاهد صوراً فوتوغرافية لبوّابة هذه الكنيسة الأخيرة، ولكنّه لفت انتباهي إلى أن الحماسة التي يبديها هؤلاء الفلاحون الصغار الذين يسارعون جميعاً حول العذراء أمر مختلف عن وقار الملاكين العظيمين الإيطاليي المظهر تقريباً الممشوقين الرقيقين)؛

والملاك الذي يحمل نفس العذراء ليجمعها إلى جسدها؛ وفي لقاء العذراء وأليصابات حركة هذه الأخيرة التي تلامس نهد مريم وتعجب أن تحسّه منتفخاً؛ والذراع المربوطة للقابلة التي لم تشأ تصديق الحبل بلا دنس دون أن تلمس بيدها؛ والنطاق الذي ترمي به العذراء إلى القدّيس توما لتقدّم له البرهان على قيامتها؛ وذلك الحجاب أيضاً الذي تنتزعه العذراء عن صدرها لتحجب به عري ابنها الذي تجمع الكنيسة من أحد جنبيه الدم الذي هو شراب سرّ القربان المقدّس، فيما يقف الكنيس اليهودي الذي حلّت نهاية عهده في الجانب الآخر معصوب العينين يحمل صولجاناً نصف محطّم ويفلت منه إلى جانب التاج الذي يسقط عن رأسه لوحيْ الشريعة القديمة؛ والزوج الذي إذ يساعد زوجته الشابّة، ساعة الدينونة الأخيرة، على مغادرة القبر يضغط بيدها على قلبه ليطمئنها ويبرهن لها أنّه يخفق حقاً، أفما تلك كذلك فكرة لطيفة ولقية بديعة؟ والملاك الذي يذهب بالشمس والقمر وقد أصبحا لا جدوى منهما بما أنّه قيل إن نور الصليب سيكون سبع مرّات أكثر قوّةً من نور الكواكب؛ وذاك الذي يغمس يده في الماء المعدّ لحمّام يسوع ليرى إن كانت سخونته كافية؛ وذاك الذي يخرج من السحاب ليضع الإكليل على جبين العذراء؛ وجميع أولئك الذين ينحنون من أعالي السماء بين أعمدة شرفات أورشليم السماوية ويرفعون أيديهم من ذعر أو ابتهاج لدى رؤية عذابات الأشرار وسعادة المختارين! فإن أمامك ههنا جميع دوائر السماء وإنها لمقطوعة شعريّة لاهوتية ورمزية عملاقة. ذلك من دنيا الجنون، ذلك من دنيا الآلهة، وإنّه ليفوق ألف مرّة كلّ ما ستشاهده في إيطاليا حيث تمّ على أيّة حال نقل هذا الإفريز نقلاً حرفيّاً على يد نحّاتين أقلّ نبوغاً بكثير. فأنت تدرك أن كلّ ذلك مسألة نبوغ. ليس ثمّة فترة يتمتّع فيها كل الناس بالنبوغ، فكلّ ذلك مجرّد مزاح ربّما فاق رواية العصر الذهبيّ. صدّقني، إن الذي قام بنحت هذه الواجهة كان في مثل اقتدار جماعة اليوم الذين تعجّب بهم أشدّ الإعجاب وكان صاحب أفكار في مثل عمق أفكارهم. ولو ذهبنا سويّة لأريتك ذلك. إن

ثمة بعض أقوال من رتبة صلاة «انتقال العذراء» تُرجمت بحذاقة لم يبلغ مثلها «رودون».

لم تكن تلك الرؤيا السماوية التي كان يحدّثني عنها ولا تلك القصيدة اللاهوتية العملاقة التي كنت أدرك أنّها سُطّرت هناك، لم تكونا مع ذلك، حينما انفتحت عيناي اللتان تعجّان بالأشواق أمام الواجهة، ما رأيت. فقد حدّثته عن تماثيل ضخمة لقدّيسين وضعت فوق طَوّالات وتؤلّف نوعاً من الممرّ العريض. فقال لي: «إنّه ينطلق من أقصى العصور ليقضي في النهاية إلى يسوع المسيح. فمن جهةٍ أجداده بالروح ومن جهة أخرى ملوك يهوذا أجداده بحسب الجسد. إن جميع القرون ماثلة هنا. ولو أمعنت النظر في ما بدا لك أنّه طوّالات لاستطعت أن تسمّي الجاثمين فوقها، فتحت قدمي موسى كنت عرفت العجل الذهبيّ، وتحت قدمي إبراهيم الكبش، وتحت قدمي يوسف الشيطان الذي يقدّم المشورة لامرأة «بوتيفار».

وقلت له كذلك إنّني كنت أتوقّع رؤية بناء فارسيّ تقريباً وإن ذلك دونما ريب من أسباب تقديري الخاطئ. فأجاب قائلاً: «لا، في قولك الكثير من الصحّة. فإن بعض الأقسام شرقيّة تماماً. وهناك تاج عمود ينقل موضوعاً فارسياً بدقّة بلغت حدّاً لا يكفي معه استمرار التقاليد الشرقية لشرحها. ولا بدّ أنّ النّحات نقل عن صندوق صغير حمله بحّارة معهم». وسوف يريني بالفعل فيما بعد صورة تاج عمود أبصرت عليه تنانين صينيّة إلى حدّ ما يفترس بعضها بعضاً، ولكنّ هذه المنحوتة الصغيرة لم تسترع انتباهي داخل مجمل البناء الذي لم يكن يشبه ما أرتني إيّاه تلك الكلمات: «كنيسة فارسية تقريباً».

لم تكن المسرّات الفكريّة التي كنت أتذوقها داخل ذاك البناء، لم تكن لتحول دون أن أحسّ بالألوان الدافئة ونصف عتمة الحجرة المتلألئة، وفي أقصى النافذة الصغيرة التي يكتنف جنباتها زهر العسل، في الشارع الريفيّ تماماً، بصلابة جفاف التي تحرقها الشمس ولا يحجبها سوى شفافية البعد وظلال الأشجار، مع أنها جميعها بنا كأنما رغم إرادتنا.

وربما جاء الهناء اللاواعي الذي يبعثه في نفسي ذلك النهار الصيفيّ يزيد، على نحو ما يفعل الرافد، الفرح الذي تبعثه في نفسي رؤية «مرفأ كاركتوي».

كنت أحسب «إيلستير» متواضعاً ولكني أدركت أنّني كنت على ضلال إذ رأيت وجهه تلوّنه الكآبة حينما جئت على ذكر كلمة المجد في معرض شكري له. فالذين يعتقدون أنّ أعمالهم خالدة - وكانت تلك «إيلستير» - يتّخذون عادةَ وضْعها في حقبة ليسوا من بعد فيها سوى تراب. وإنّما تثير فكرة المجد أشجانهم إذ تضطرهم إلى التفكير بالزوال لأنها لا تنفصل عن فكرة الموت. وغيّرت الحديث لأبدّد سحابة الكآبة المستكبرة تلك التي حمّلتُ بها جبين «إيلستير» غير متعمد. فقلت له وأنا أفكر في الحديث الذي تبادلناه مع «لوغراندان» في «كومبريه» والذي كان يسرّني أن أسمع رأيه فيه: «لقد أشاروا عليّ ألا أذهب إلى مقاطعة «بريتانيا»، لأنّ ذلك ضارّ بالنسبة إلى ذهن ميّال إلى الأحلام». فأجابني قائلاً: «لا، لا، حينما يكون الذهن ميالاً إلى الأحلام فلا ينبغي أن نقصيه عنها وأن نخصّه منها بمقادير. فإن ذهنك لن يعرف أحلامه ما دمت تصرفه عنها. وسوف تصبح ألعوبة ألف من الظواهر لأنّه لم يتسنّ لك إدراك طبيعتها. ولئن كان قليل من الحلم أمراً خطيراً، فليس ما يشفيك منه قدْراً من الحلم أقلّ بل قدراً أكبر، بل كامل الحلم. جدير بالمرء أن يعرف أحلامه معرفة كلية كي يعاني منها فيما بعد. وثمّة نوع من الفصل بين الحلم والحياة غالباً ما يجدي أن نقوم به حتى لأتساءل إن لم يجدر بنا ممارسته على سبيل الاحتياط وعلى نحو وقائي مثلما يزعم بعض الجّراحين أنّه ينبغي إزالة الزائدة الدودية لدى جميع الأطفال لتفادي. إمكان حدوث التهاب الزائدة مستقبلاً.

كنّا قد ذهبنا أنا و«إيلستير» إلى أقصى المرسم أمام النافذة التي تشرف من خلف الحديقة على شارع عرضاني ضيّق يكاد يكون درباً صغيراً في قرية. وقد جئنا إلى هناك لنستنشق هواء أواخر ما بعد الظهر وقد أصبح بارداً. وكنت أحسبني بعيداً عن فتيات المجموعة الصغيرة فقد انصعت في

النهاية لرجاء جدّتي أن أبادر للقاء «إيلستير» وذلك إذ ضحيّت لمرّة واحدة بأمل لقائهن. ذلك أنّ المرء لا يدري أين يوجد ما يبحث عنه وغالباً ما يبتعد فترة طويلة عن المكان الذي يدعونا إليه الجميع لأسباب أخرى. ولكنّنا لا نشكّ بأنّنا ربّما رأينا فيه بالضبط الشخص الذي نفكّر فيه. كنت أنظر على نحو غير محدّد إلى هذا الدرب الريفيّ الذي كان خارج المرسم ويمرّ قريباً جدّاً منه ولكنّه ليس ملكاً لِ«إيلستير». وفجأة ظهرت تسير فيه بخطى سريعة راكبة الدراجة الفتيّة التي من المجموعة الصغيرة، وعلى شعرها الأسود قبّعتها التي تخفضها على وجنيتها السمينتين وعينيها المرحتين الملحاحتين بعض الشيء. وفوق ذلك الدرب السعيد الحظّ الذي امتلأ على نحو عجيب بعذب الوعود رأيتها تحت الشجر تحيّي «إيلستير» تحيّة صداقة مشرقة كأنّها قوس قزح يجمع في نظري بين عالمنا الأرضيّ ومناطق حسبتها حتى ذاك متعذّرة الإدراك. وزادت فاقتربت لتمدّ يدها للرسام دون أن تتوقّف ورأيت أنّ لها شامة على ذقنها. وقلت لِ«إيلستير»: «أتعرف هذه الفتاة يا سيّد؟» وأنا أدرك أنّه ربّما استطاع أن يعرّفني بها وأن يدعوها إلى منزله. وامتلأ ذاك المرسم الهادئ بأفقه الريفيّ بأمر إضافي لذيذ، كما هو شأن منزل كانت تطيب الإقامة فيه لأحد الأطفال ثم هو يعلم أنّه يَعدُّ له إلى ذلك، بفضل السخاء الذي تتمتّع به الأشياء الجميلة والناس الكرام في مضاعفة عطاياهم إلى ما لا حدود، عصرونية بديعة. وقال لي «إيلستير» إنّها تدعى «ألبيرتين سيمونيه» وسمّى لي صديقاتها الأخريات اللواتي وصفتهن له بدّقة كافية لا تدع له مجالاً للشكّ تقريباً. وقد ارتكبت خطأ بشأن وضعهنّ الاجتماعي ولكن بعكس الاتّجاه المعهود في «بالبيك». فقد كنت أنظر بسهولة إلى أبناء أصحاب حوانيت يمتطون الجياد على أنّهم أمراء. أمّا هذه المرّة فقد وضعت في وسط مشبوه بنات من البورجوازيّة الصغيرة الشديدة الثراء في دنيا الصناعة والأعمال. وكان ذاك الوسط لأوّل وهلة أقلّ ما يثير اهتمامي، إذ لا يملك في نظري الأسرار التي تحيط بالطبقة الشعبية أو بمجتمع شبيه بمجتمع آل

«غيرمانت». ولا ريب أنني ما كنت ربّما أفلحت في مقاومة الفكرة التي قوامها أنّهنّ بنات تجّار كبار لو لم يضفِ عليهن إزاء عيني المفتونتين الفراغ الباهر الذي يسم حياة الشواطئ مهابة مسبقة لن يفقدنها من بعد. ولم يسعني سوى أن أعجب إلى أيّ مدى كانت البورجوازيّة الفرنسيّة مُحْتَرَفاً رائعاً لأكثر صنوف النحت تنوّعاً. فكم من نموذج غير متوقّع، وأيّ ابتكار في طابع الوجوه، وأيّ حزم في القسمات وأيّة نضارة وأيّة سذاجة! كان يخيّل إليّ أن هؤلاء البورجوازيّين العتاق الذين انحدرتْ منهم ربّاتُ الصيد وهاتيك الحوريّات هم أعظم المثّالين. وقبل أن يتّسع لي الوقت لأتبيّن تحوّل هؤلاء الفتيات على الصعيد الاجتماعي، ولشدّة ما تتّخذ اكتشافات الخطأ تلك والتبدّلات في الفكرة التي نحملها عن شخص ما آنية تفاعل كيميائي، كانت قد أقامت خلف مظهر النمط السوقيّ لتلك الفتيات اللواتي حسبتهنّ عشيقات متسابقي درّاجات وأبطال ملاكمة فكرة أنّهن يستطعن تماماً أن يكنّ على علاقة صداقة مع أسرة هذا أو ذاك من الكُتّاب العُدُل الذين كنّا نعرفهم. لم أكن أدري تماماً من عسى تكون «ألبيرتين سيمونيه»، وكانت تجهل بالتأكيد ما سوف تصبح ذات يوم بالنسبة إليّ. حتى اسم «سيمونيه» هذا الذي سبق أن سمعته على الشاطئ لو طلب إليّ أن أكتبه لكتبته بنون مشدّدة ولا يداخلني شكّ بالأهميّة التي تعلّقها تلك الأسرة على ألّا تملك سوى نون غير مشدّدة. فكلما انحدرت في السلم الاجتماعي تعلّق التحذلق بتوافه ربّما لم تكن عديمة القيمة أكثر من امتيازات الأرستقراطية ولكنّها تدهشك أكثر لأنها أشدّ إبهاماً وأكثر التصاقاً بكلّ فرد، فربّما كان هنالك جماعة من آل «سيمونيه» قاموا بأعمال فاشلة أو ربما كان أسوأ. ومهما يكن من أمر فإن آل «سيمونيه» كانوايغضبون على الدوام حينما يتمّ تشديد النون في اسمهم وكأنّما ذلك افتراء عليهم وكانوا يفخرون بأنّهم قوم «سيمونيه» الوحيدون بنون غير مشدّدة ربّما فخار آل «مونمورانسي» بأنّهم أوّل بارونات فرنسا. وسألتُ «إيلستير» إن كانت تلك الفتيات يقطنّ «بالبيك» فأجاب بنعم بالنسبة إلى بعض منهن. كانت

دارة إحداهنّ تقع بالضبط في أقصى الشاطئ حيث تبدأ جروف «كانابفيل». ولما كانت تلك الفتاة صديقة كبيرة لِ«ألبيرتين سيمونيه» فقد أصبح ذلك لي سبباً إضافياً للاعتقاد بأنّ هذه الأخيرة هي التي التقيت بها حينما كنت مع جدّتي. صحيح أنّ ثمّة الكثير من تلك الشوارع التي تعامد الشاطئ وتخطّ الزاوية نفسها إلى حدّ لا أستطيع معه أن أحدّد بالضبط أيّها كان. وإنّك لتودّ أن تتذكّر على نحو دقيق، ولكنّ الرؤية كانت غير واضحة في تلك اللحظة نفسها. بيد أنه كان من الثابت عمليّاً أن «ألبيرتين» وتلك الفتاة التي دخلت إلى منزل صديقتها كانتا تؤلّفان شخصاً واحداً مفرداً. ولكني لو أردت على الرغم من ذلك، وفيما تتنضّد الصور التي لا تحصى والتي خلّفتها لديّ فيما بعد لاعبة الغولف السمراء، مهما اختلف بعضها عن بعضها الآخر، (لأني أعلم أنّها تعود كلّها لها) وأنّي لو أستعيد حبل الذكريات فبمقدوري استعراض جميع تلك الصور دون أن أبرح الشخص نفسه، وذلك تحت ستار هذا التماثل وكأنّما في درب تواصل داخليّ، لو أردت في مقابل ذلك أن عود القهقرى حتى تلك الفتاة التي التقيت بها يوم كنت مع جدّتي فلا بدّ لي من العودة إلى الهواء الطلق. وإنّي متيقّن أنّ من أعود فألقاها هي «ألبيرتين» وهي نفسها التي كانت كثيراً ما تقف وسط صديقاتها أثناء النزهة تتجاوز بقامتها أفق البحر؛ ولكنّ هذه الصور جميعها تظلّ منفصلة عن تلك لأنني لا أستطيع أن أضفي عليها على نحو لاحق هويّة لم تكن تملكها في نظري آن لفتت انتباهي؛ ومهما أمكن أن يؤكّده لي حساب الاحتمالات فإن تلك الفتاة ذات الوجنتين السمينتين التي رمتني بنظرة شديدة الجرأة في زاوية الشارع الصغير والشاطئ والتي أظنّ أنّه كان يمكن أن أظفر بحبّها، لم أرها البتّة ثانية بالمعنى الحصريّ لكلمة رأى ثانية.

فهل انضافت حيرتي بين مختلف فتيات المجموعة الصغيرة اللواتي ظللن يحتفظن كافّة بشيء من السحر الجماعيّ الذي سبق أن بعث الاضطراب بادئ الأمر في نفسي، هل انضافت هي الأخرى إلى تلك

الأسباب كي تدع لي فيما بعد، حتى في زمن حبّي الأكبر - حبّي الثاني - لِـ«ألبيرتين»، ضرباً من الحريّة المتقطّعة والوجيزة جدّاً في ألّا أحبّها؟ لقد احتفظ حبّي أحياناً ببعض «حريّة الحركة» بينه وبين صورة «ألبيرتين» ممّا كان يتيح له، شأن إضاءة غير مركّزة، أن ينتقل على الأخريات قبل أن يعود فيحطّ عليها وذلك لأنّه هام بين جميع صديقاتها قبل أن يتّجه نهائيّاً إليها. ولم يكن يبدو لي أن الصلة بين الألم الذي أحسّه في قلبي وذكرى «ألبيرتين» لازمة، إذ ربّما استطعت أن أربطها بصورة فتاة أخرى، الأمر الذي كان يسمح مقدار لحظة بملاشاة الواقع، لا الواقع الخارجي فحسب شأن الحال في حبّي لِـ«جيلبيرت» (الذي تبيّنت أنه حالة باطنة كنت أستخلص فيها من ذاتي وحدها الميزة الفريدة والطابع الخاصّ لدى من كنت أحبّ وكلّ ما كان يجعله لازماً لسعادتي)، بل حتى الواقع الباطن والذاتيّ المحض.

- «ليس يمرّ يوم إلا وتخطر هذه أو تلك من بينهنّ أمام المرسم وتدخل لتقوم بزيارة قصيرة لي»، يقول «إيلستير» ويبعث اليأس هكذا في نفسي من جرّاء فكرة أنني لو بادرت إلى زيارة حالما طلبتْ إليّ جدّتي ذلك لكنت على الأرجح قد تعرّفت منذ زمن طويل بِـ«ألبيرتين».

وابتعدتْ ولم تعد تُشاهد من المرسم. وخطر لي أنّها بادرت إلى اللحاق بصديقاتها على السدّ. ولو أتيح لي أن أكون هناك مع «إيلستير» لتعرّفت بهنّ. واستنبطت ألف حجّة كي يرضى بالمجيء للقيام بجولة معي على الشاطئ. لم أعد أنعم بالهدوء نفسه الذي سبق ظهور الفتاة داخل إطار النافذة الصغيرة الشديدة السحر حتى ذاك في ظلّ زهر العسل وهي الآن خالية تماماً. وبعث «إيلستير» في نفسي غبطة يخالطها العذاب إذ قال لي إنّه سيخطو بصحبتي بضع خطوات ولكنّه مضطّر أن ينهي بادئ الأمر القطعة التي كان يرسمها. وكانت أزهاراً ولكنّها من غير تلك التي لعلّني كنت أفضّل أن أوصيه برسمها أكثر ممّا برسم لأحد الأشخاص كيما أطّلع ممّا يشكفه لي نبوغه على ما بحثت عنه كثيراً إزاءها دون جدوى - كأزاهير

الزعرور البيضاء والورديّة وأزهار الترنشاه وأزاهير التفاح. وكان «إيلستير» يحدّثني فيما يرسم عن علم النبات وأنا لا أصغي إليه تقريباً، فلم يعد يكفي نفسه بنفسه وقد أصبح من بعد محض الوسيط اللازم بين تلك الفتيات وبيني. والمهابة التي كان يضفيها عليه، بضع لحظات قبل ذلك. نبوغه في نظري لم يعد ذا قيمة إلّا بوصفه يضفي بعض المهابة عليّ في نظر المجموعة الصغيرة التي سيتمّ تقديمي إليها على يده. مكتبة سُر مَن قرأ

كنت في جيئة ورواح، وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن يكون فرغ من عمله وكنت آخذ دراسات لأنظر إليها وكثير منها قد تكدّس بعضه فوق بعض وصفحته إلى الجدار. وألفيتني على هذا النحو أبرز لوحة بالألوان المائية لا بدّ أنها كانت تعود إلى زمن في حياة «إيلستير» أقدم بكثير وقد بعثت في نفسي تلك النشوة الخاصة التي تجود بها أعمال فنيّة لا تتّسم بصنع رائع فحسب بل تحوي كذلك موضوعاً فريداً وساحراً إلى حدّ أنّنا نخصّه هو بقسم من سحرها كما لو لم يقع على الفنّان إلّا اكتشاف ذلك السحر وإلا ملاحظته، وقد سبق أن تحقّق ماديّاً في الطبيعة، ونقله. فأمّا أن يكون وجود مثل تلك الموضوعات الجميلة حتى بمعزل عن ترجمة الرسّام لها ممكناً فأمر يرضي فينا نزعة ماديّة فطريّة يكافحها العقل وهي بمثابة ثقل يوازن صنوف التجريد الجماليّ. وكانت - تلك اللوحة المائيّة - رسماً لامرأة شابّة غير حلوة بيد أنها نموذج غريب، ويغطّي رأسها منديل قريب الشبه بقبّعة مستديرة عليها حاشية شريط حريريّ كرزيّ اللون، وكانت تمسك بإحدى يديها اللتين بقفّازين من النوع النصفي لفافة مشعلة فيما ترفع الثانية على سويّة ركبتها نوعاً من قبّعة الحدائق الكبيرة وهي محض ستارة من قشّ لاتّقاء الشمس، وعلى مقربة منها مزهريّة مليئة بالورود فوق طاولة كثيراً ما ينجم تميّز تلك الأعمال على وجه الخصوص، وهي الحال هنا، عن أنها نُفّذت في شروط خاصّة لا نتبيّنها بادئ الأمر تبيّناً واضحاً، كأن تكون الملابس الغريبة لجليس نسائي، على سبيل المثال، زيّاً تنكّريّاً لحفلة تنكريّة راقصة، أو على العكس أن يكون المعطف الأحمر الذي لشيخ يبدو

وكأنّه ارتداه إرضاء لنزوة من نزوات الرسّام ثوب الأستاذ أو المستشار أو شال الكاردينال. كان طابع الالتباس لدى الشخص الذي يقع رسمه أمامي ناجماً، دون أن أدرك ذلك، عن أنّه كان لممثّلة شابّة من الزمن الماضي بثياب نصف تنكرية بيد أن قبعتها المستديرة التي كان شعرها منفوشاً تحتها ولكنّه قصير، وسترتها المخمليّة التي لا بطانة لها والتي تنشق عن صدريّة بيضاء جعلتاني أتردّد حول زيّ الجليس وجنسه حتى إني ما كنت أعلم بالضبط على ما تقع عيناي فيما عدا أنها أرقّ اللوحات المرسومة وما كان يعكّر المتعة التي توليني إيّاها سوى خشية أن يفوّت عليّ «إيلستير» الفتيات إن تأخّر لأن الشمس مالت وانحدرت في النافذة الصغيرة. لم يكن شيء في تلك اللوحة المائية قد تمّت ملاحظته في الواقع وتمّ رسمه بسبب فائدته في المشهد، فالثياب لأنه ينبغي أن تكون المرأة بثيابها والمزهريّة بداعي الأزهار. أمّا زجاج المزهريّة الذي يُعشق لذاته فقد كان يبدو وكأنّه يحتوي الماء الذي تغوص فيه سوق أزهار القرنفل في ما كان بمثل صفائه وبمثل ميوعته تقريباً. وكانت ملابس المرأة تلفّها بمادّة تتّسم بسحر مستقلّ وأخويّ، وإنها لو استطاعت الأعمال الصنعيّة أن تنافس روائع الطبيعة في سحرها لناعمة ولذيذة لملمس العين ونضرة الألوان كفراء قطّة وتويجيات قرنفلة وريش حمامة. وكان بياض الصدريّة، كبياضنعومة الإرزيز وعلى ثنياتها الخفيفة جريسات كجريسات زنابق الوادي، يتلألأ بأضواء الحجرة المنعكسة، وهي حادّة بدورها ورقيقة في تنوع ألوانها كباقات زهور تزيّن القماش. وكان يعلو مخمل السترة الملتمع المصدّف، كان يعلوه ههنا وهناك شيء منفّش مفرّض أزغب يذكّرك بتشعّث أزهار القرنفل في الإناء. ولكنّك كنت تحسّ على وجه الخصوص أنّ «إيلستير»، الذي لم يكن يبالي بما يمكن أن يبدو لا أخلاقيّاً في تنكّر ممثّلة شابّة كان الفن الذي ستؤدّي به دورها أقلّ أهميّة دونما شكّ في نظرها من الجاذب المثير الذي سوف تبديه لحواس بعض المشاهدين المتبلّدة أو المتهتّكة، قد اهتّم على العكس بهذه الملامح الملتبسة وكأنّما بعنصر جماليّ أهّل لأن يبرز وقد عمل ما بوسعه

ليلفت الأنظار إليه. فعلى امتداد خطوط الوجه كان الجنس يبدو كأنّه على شفا الإقرار بأنّه جنس فتاة على شيء من الاسترجال. ثم يتلاشى، وتلقاه من جديد في نقطة بعدها يوحي أكثر ما يوحي بفكرة مخنّث فتي فاسق حالم، ثم يعاود الهرب ويظلّ متعذّر الإدراك. ولم يكن طابع الكآبة الحالمة في النظرة، بتعارضه والأمور الثانوية التي من دنيا المجون والمسرح، ما كان أقلّها إثارة. وكنت تظنّ على أيّة حال أنّه لا بدّ مصطنع وأنّ الشخص الشابّ الذي يبدو كأنّه يعرض نفسه للمداعبات في هذه البزّة المغرية قد رأى على الأرجح من المثير أن يضيف إليها التعبير الخياليّ عن عاطفة دفينة وعن غمّ لم يجرِ البوح به. وكان قد خُط في أسفل الرسم: «**السيّدة ساكريبان**، تشرين الأوّل ١٨٧٢» ولم أستطع أن أملك إعجابي - «أوه، لا قيمة لذلك، إنها عجالة شباب، وكانت بزّة لصالح مجلّة منوّعات. كل ذلك بعيد جدّاً الآن» - «وما الذي حلّ بالجليس؟» وجاءت دهشة أثارتها أقوالي تسبق على وجه «إيلستير» الهيئة اللامبالية الساهية التي طرحها عليه بعد مضي ثانية. وقال لي: «هات أعطني سريعاً هذه اللوحة، فإني أسمع السيدة «إيلستير» آتية. ومع أنَّ المرأة الشابة ذات القبعة المستديرة لم تمثّل، بالتأكيد، أي دور في حياتي، فليس يجدي أن تقع عينا امرأتي على هذه اللوحة المائيّة. إنّي لم أحتفظ بها إلّا بمثابة وثيقة مسليّة حول المسرح في تلك الحقبة». وقبل أن يخفي «إيلستير» اللوحة خلفه حدّق إليها بانتباه، ولعله لم يرها منذ فترة طويلة وهمس قائلاً: «ينبغي ألا أحتفظ بغير الرأس فأسفل اللوحة رديء الرسم حقاً إلى حدّ بعيد وتبدو اليدان من عمل مبتدئ». واغتممت لوصول السيّدة «إيلستير» التي ستزيد في تأخيرنا. وبعد قليل اكتست حافّة النافذة بلون ورديّ، ولعلّ خروجنا سيكون خسارة محضة فلم يعد ثمة أيّ نصيب لنا في لقاء الفتيات ولا أهميّة من بعد بالتالي أن تفارقنا السيّدة «إيلستير» بسرعة تزيد أو تقلّ ولم تمكث على أيّة حال فترة طويلة جدّاً. وقد ألفيتها مملّة إلى حدّ كبير. كان بوسعها أن تكون جميلة لو كانت في العشرين من سنيها تقود ثوراً في

الريف الروماني ولكنّ شعرها الأسود كان آخذاً في البياض وكانت عاديّة دون أن تكون بسيطة لأنها تحسب أنّ فخامة الحركة وجلال الوقفة أمران يتطلّبهما جمالها المرموق الذي أفقدته السنون على أيّة حال جميع مواطن إغرائه. وكان يؤثّر فيك ولكنّما يدهشك أن تسمع «إيلستير» يقول كلّما سنح القول وبعذوبة تفيض احتراماً كما لو يبعث في نفسه محض النطق بهذه الكلمات الحنان والإجلال: «يا جميلتي غابرييل!» وحينما اطّلعتُ فيما بعد على رسم «إيلستير» الأساطيري اكتسبت السيّدة «إيلستير» في نظري أنا الآخر جمالاً. وأدركت أنّه خصّ في الواقع بطابع يكاد يكون إلهيّاً نموذجاً معيّناً مثاليّاً يختصره ببضعة خطوط، ببضعة رقوش عربيّة تتردّد دون انقطاع في أعماله الفنيّة، ومعياراً معيّناً، لما أنّه كرّس كامل وقته وكامل الجهد الفكري الذي يسعه القيام به وكامل حياته باختصار القول لمهمّة إبراز هذه الخطوط على نحو أفضل ونقلها نقلاً أوفر أمانة. كان ما يوحي به هذا المثل الأعلى لِ«إيلستير»، كان بالحقيقة طقوساً جليلة وصارمة إلى حدّ لا يتيح له البتّة أن يكون راضياً. كان ذلك المثل الأعلى الجزء الأكثر جفاء من ذاته: ولم يستطع من جرّاء ذلك أن ينظر إليه بتجرّد ويستخلص منه انفعالات إلى اليوم الذي لقيه فيه وقد حقّق في الخارج، في جسم امرأة، جسم تلك التي أضحت فيما بعد السيّدة «إيلستير» والتي استطاع أن يلقاه لديها - مثلما لا يتّفق لنا ذلك إلّا بالنسبة إلى ما ليس ذاتنا - جديراً بالثناء مؤثّراً إلهيّاً. وأية راحة من جهة أخرى أن يضع شفتيه على هذا «الجمال» الذي كان ينبغي له حتى ذاك أن يستخلصه من ذاته والذي يُقَدَّم له الآن، وقد تجسّد على نحو خفيّ، لسلسلة من صنوف المشاركة الروحيّة الفعّالة! لم يكن «إيلستير» في تلك الحقبة في فجر الشباب الذي لا ينتظر فيه تحقّق مثله الأعلى إلّا من قوة الفكر فقد كان يقترب من السنّ التي يعتمد المرء فيها على قضاء حاجات الجسد لحفز قوى الروح والتي يشرع فيها تعب الروح، بالميل الذي يبعثه فينا إلى الماديّة، وتناقص النشاط بإمكان تقبّل مؤثّرات دون مقاومة، يحملنا على الإقرار بأنّ ثمّة بعض الأجسام وبعض

المهن وبعض الإيقاعات المتميّزة التي تحقّق مثلنا الأعلى على نحو تلقائيّ حتى لنأتي برائعة فنيّة حتى دونما نبوغ وبمحض نقل حركة كتف وتوتّر عنق. إنها السنّ التي نعشق فيها مداعبة الجمال بالعين خارج ذواتنا، وبالقرب منّا، وفي طنفسة، وفي رسم أَوّلي جميل لِ«تيتسيانو» يُعثر عليها لدى تاجر سلع عتيقة، ولدى عشيقة في مثل جمال لوحة «تيتسيانو». وحينما أدركت ذلك لم أعد أستطيع رؤية السيّدة «إيلستير» دون أن تداخلني الغبطة وفقد جسمها من ثقله لأنّني ملأته بفكرة، فكرة أنها مخلوقة لا ماديّة ورسم من أعمال «إيلستير». ولقد كانت رسماً في نظري وفي نظره هو الآخر دون شكّ. إن معطيات الحياة لا تدخل في حساب الفنّان وليست في نظره سوى فرصة للكشف عن عبقريّته. وإنك لتحسّ تماماً إن رأيت عشرة رسوم متراصفة لأشخاص مختلفين قام «إيلستير» بتنفيذها أنها قبل كلّ شيء من أعمال «إيلستير». بيد أنّه بعد مدّ العبقريّة الصاعد هذا الذي يغمر الحياة حينما يتعب الدماغ، فإن التوازن يتحطّم شيئاً فشيئاً وتعود الحياة إلى التغلّب كمثل نهر يستعيد مجراه بعد التيّار المعاكس الناجم عن مدّ عظيم. فقد استخلص الفنّان شيئاً فشيئاً في أثناء امتداد الفترة الأولى قانون عطائه اللاواعي وصيغته. إنه يعرف أيّة مواقف إن كان روائياً وأية مناظر إن كان رساماً، تزوده بالمادة التي لا أهميّة لها في حدّ ذاتها ولكنّها ضروريّة لبحوثه كما هي حال المخبر أو المرسم، وهو يعلم أنّه صنع روائعه بتلاعب أضواء مخفّفة ووخزات ضمير تبدّل من فكرة الذنب، وبوساطة نسوة يقفن تحت الأشجار أو يغمرهنّ الماء إلى النصف على هيئة تماثيل. ثم يأتي يوم لن تتوافر له فيه من بعد، من جرّاء وهن دماغه، القدرة على القيام، إزاء تلك المواد التي كانت تستخدمها عبقريّته، بالجهد الفكري الذي يستطيع وحده إنتاج عمله الفنيّ، ولكنّه سوف يوالي السعي خلفها ويسعد بوجوده بالقرب منها بسبب المتعة الروحيّة التي توقظها في نفسه، وإن هي إلا بداية العمل وهو، إذ يحيطها بنوع من المعتقد الخرافيّ كما لو كانت تسمو على الأمور الأخرى وكما لو يكمن فيها مذ ذاك جزء

وافر من العمل الفنيّ الذي تحتويه جاهزاً إلى حدّ ما، لن يمضي إلى أبعد من التردّد على النماذج والشغف بها. فسوف يتحدّث بلا نهاية إلى مجرمين أدركتهم التوبة وألّف تبكيت ضمائرهم واصطلاحهم بالأمس موضوع رواياته، ويبتاع منزلاً في الريف في منطقة يخفّف فيها الضباب النور، ويقضي ساعات طوالاً ينظر إلى نسوة يستحممن، ويجمع الأقمشة الجميلة وهكذا كان جمال الحياة، وهو قول خلو إلى حدّ ما من المدلول ومرحلة واقعة قبل حدود الفنّ، وقد رأيت «سوان» فيما مضى يتوقّف فيها، المرحلة التي سيتراجع شيئاً فشيئاً إليها ذات يوم أمثال «إيلستير» من جرّاء تباطؤ العبقريّة الخلاقة والولع بالأشكال التي كانت عوناً لها والرغبة في إنفاق أقلّ جهد ممكن.

وكان قد أتى أخيراً على وضع آخر جرّة ريشة في أزهاره. وأضعت لحظة في النظر إليها، وما كان لي فضل في الإقدام على ذلك لأني أعلم أن الفتيات لن يكنّ على الشاطئ. على أنّي كنت سأنظر إليها حتى لو حسبت أنّهن لا يزلن هناك وأن هذه الدقائق الضائعة تفوّتهنّ علي، إذ كنت ربّما أقول في نفسي إن «إيلستير» يهتمّ بأزهاره أكثر منه بلقائي مع الفتيات. كانت طبيعة حدّتي، وهي بالضبط نقيض أنانيتي الكليّة، تنعكس مع ذلك في طبيعتي. فقد كنت، في ظرف لا يتعرّض فيه فرد لا أبالي به، وقد أظهرت دوماً له المودّة أو الاحترام، إلّا للإزعاج فيما أنا فيه عرضة للخطر، كنت لا أستطيع إلّا أن أرثي لحاله ممّا ألمّ به من إزعاج وكأنّما من أمر جلل. وأن أحتسب الخطر المحيق بي كلاشيء. إذ كان يبدو لي أن الأمور لا بدّ ظاهرة له بهذه المقاييس. وكنت أذهب، كيما أقول الأمور على حقيقتها، حتى إلى أبعد من ذلك فلا أكتفي بأن لا آسف للخطر الذي أتعرّض له بل أسعى إلى مجابهة ذلك الخطر وأحاول على العكس في ما يخصّ الخطر المحيق بالآخرين أن أجنّبهم إيّاه حتى ولو أصبحت أكثر عرضة لأن أصاب أنا. ومردّ ذلك أسباب عدّة ليست في صالحي. منها أنّني إن كنت أعتقد على وجه الخصوص، ما دمت أتفكّر

في الأمور فحسب، أنّ الحياة غالية عليّ، ففي كل مرّة ألفيتني في غضون حياتي تحاصرني هموم أخلاقيّة أو اضطرابات عصبيّة فحسب، وهي صبيانيّة أحياناً حتى لتخونني الجرأة في روايتها، إن اتّفق أن يحلّ آنذاك ظرف غير متوقّع يحمل لي في طيّاته احتمال أن ألقى حتفي، كان هذا الاهتمام الجديد طفيفاً بالنسبة إلى غيره إلى حدّ أنّي كنت أستقبله بشعور من الارتياح يبلغ حدّ الابتهاج. وقد اتّفق هكذا أن عرفت هذا الأمر الذي كان يبدو لي، حينما أُعمل الفكر، غريباً عن طبيعتي ويصعب إلى حدّ بعيد تصوّره، عنيت نشوة الخطر، مع أنّي أقلّ الناس شجاعة بيد أنّي حتى لو كنت، حينما يداهم خطر مميت، في فترة كليّة الهدوء والسعادة، لا يسعني إن كنت برفقة شخص آخر إلّا أن أضعه في مأمن وأن أختار لنفسي المكان الخطير. وعندما علّمني عدد كبير كافٍ من التجارب أنّي كنت أتصرّف دوماً على هذا المنوال وبسرور، اكتشفت، واعظيم خجلتي، أن سبب ذلك أنّي كنت شديد التأثّر برأي الآخرين بعكس ما اعتقدت دوماً به وأكّدته. وليس لهذا النوع من الاعتزاز الخفيّ بالنفس أيّة علاقة بالزهو أو الكبرياء. ذلك أن ما قد يرضي هذه أو ذاك لا يبعث في نفسي أيّة مسرّة، وقد أحجمت دوماً عنه ولكنَّ الجماعة الذين أفلحت أمامهم في إخفاء المكاسب الصغيرة التي كان يمكن أن تزودهم عنّي بفكرة أقلّ رداءة لم أستطع في يوم أن أحجب عن نفسي متعة أن أظهر لهم أنّي أهتمّ باستبعاد الموت عن دربهم أكثر مني عن دربي. وبما أنّ الدافع لديّ آنذاك هو الاعتزاز بالنفس لا الفضيلة، فإنه من الطبيعيّ جدّاً أن يتصرّفوا في كل مناسبة على نحو مغاير. وما أبعدني عن أن ألومهم في ذلك، ولعلّني كنت ربّما أقدم على الأمر لو كان الدافع لديّ فكرة واجب سيبدو لي في هذه الحالة ملزماً لهم ولي على حدّ سواء. وإنّي على العكس أجدهم حكماء إلى حدّ بعيد في المحافظة على حياتهم في حين لا أستطيع أن أحول دون أن أضع حياتي في الموقع الثاني، الأمر الذي يبدو محالاً ومستنكراً على نحو خاصّ منذ أن خلتني أتبيّن أن حياة العديد من الناس الذين أقف

أمامهم حينما تنفجر قنبلة أقلّ بكثير. بيد أنّ الفترة التي كنت سأعي فيها فارق القيمة هذا كانت لا تزال بعيدة يوم تلك الزيارة لِ«إيلستير» ولم يكن ثمّة من خطر وإنّما مجرّد ألّا يبدو عليّ أنّي أعلّق على المتعة التي كنت أتحرّق شوقاً إليها، وذلك نذير للاعتزاز الخبيث بالذات، أهميّة أكبر ممّا على عمل الرسّام المائيّ الذي لم يفرغ منه. وأخيراً تمّ ذلك، وما إن أضحيت خارجاً حتى تبينّت أن الوقت أبكر ممّا كنت أعتقد، لشدّة امتداد النهار في ذلك الفصل، وذهبنا إلى السدّ، وكم حيلة لجأت إليها كي أحمل «إيلستير» على المكوث في المكان الذي كنت أحسب أنّه لا يزال يمكن أن تمرّ الفتيات منه! وما كنت أكفّ، وأنا أريه الجروف التي تتعالى بالقرب منّا، عن سؤاله التحدّث عنها كيما أنسيه الساعة وأحمله على المكوث، وبدا لي أنّنا سنكون أوفر حظّاً في تطويق الجماعة الصغيرة بالذهاب إلى أقصى الشاطئ وقلت لِ«إيلستير» وقد لاحظت أن إحدى تلك الفتيات كانت كثيراً ما تذهب إلى تلك الجهة: «وددت أن أشاهد معك هذه الجروف من مكان أقرب بقليل» أضفت دون أن أفكّر بأن طابع الجدّة الذي كان يتجلّى بهذا القدر من القوّة في «مرفأ كاركتوي» من أعمال «إيلستير»، إنّما يعود ربّما إلى رؤية الرسّام أكثر منه إلى مزيّة خاصة بهذا الشاطئ «حدّثني عن «كار كتوي» في هذه الأثناء آه! كم أودّ الذهاب إلى «كار كتوي»! ربما كان، منذ أن رأيت هذه اللوحة، أكثر ما أتوق إلى معرفته بالإضافة إلى «رأس راز» الذي ربّما اقتضى من هنا رحلة كاملة على أيّة حال» فأجابني «إيلستير»: «وحتى لو لم يكن أكثر قرباً فسوف أشير عليك مع ذلك بـ«كاركتوي»، إنّ «رأس راز» رائع ولكنّه في نهاية المطاف لا يزال الجرف النورماندي أو البريتاني العظيم الذي تعرفه. أمّا «كاركتوي» فأمر مختلف تماماً بصخوره التي تمتدّ على شاطئ خفيض ولست أعرف في فرنسا ما يضاهيه ويذكّرني ذلك بالأحرى ببعض مناظر فلوريدا. إنّه غريب جدّاً وهو على أيّة حال موحش إلى حدّ بعيد كذلك. وهو واقع بين «كليتور» و«بينهوم» وتعلم مدى إقفار هذه النواحي، إن خطّ

الشواطئ لساحر. إنّ الشاطئ عاديّ هنا، أمّا هناك فلست أستطيع أن أقول لك بأيّ سحر يتّسم وأيّة عذوبة».

وحلّ الليل وانبغى أن نعود، وكنت أعيد «إيلستير» باتجاه دارته حينما برزت فجأة في أقصى الشارع، كـ«مفيستوفيليس» يطلع فجأة أمام «فاوست»، وكأنّما ذاك محض تجسيد خياليّ شيطاني للمزاج المناقض لمزاجي والحيويّة الهمجيّة القاسية التي خلا منها ضعفي وفرط حساسيّتي المؤلمة ونزعتي الفكريّة - بعض بقع من الجوهر الذي يستحيل الخلط بينه وبين أيّ شيء آخر، بعض أعداد متفرّقة من مجموعة الفتيات المرجانية، وكنَّ يبدين وكأنهنّ لا يرينني، ولا يستبعد مع ذلك أنهن كنَّ ولا شكّ يطلقن عليّ آنذاك حكماً ساخراً. ولمّا أحسست أن اللقاء بينهنَّ وبيننا واقع حتماً وأنَّ «إيلستير» يزمع أن يناديني أدرت ظهري كسبّاح يوشك أن يتلقّى الموجة، وتوقّفت تماماً وتركت رفيقي الذائع الصيّت يوالي طريقه وظللت في الخلف أنحني صوب واجهة بائع عاديّات كنّا نمرّ أمامه في تلك اللحظة وكأنّما أخذني اهتمام مفاجئ بتلك الواجهة. وما كان يغضبني أن أبدو قادراً على التفكير بغير تلك الفتيات وأعلم مذ ذاك على نحو غامض أنّني سوف أتخذ، حينما يدعوني «إيلستير» كي يقدّمني، نوع النظرة المستفسرة التي تكشف لا عن الدهشة، بل عن رغبة المرء في أن يبدو في دهشة - على قدر ما يبدو كلّ منا ممثّلاً رديئاً أو القريب طويل باع في الفراسة - وأنّني ربّما بلغ بي الأمر أن أشير إلى صدري بالبنان كي أسأل: «أهو أنا الذين تناديه؟» وأسرع والرأس مخفوض طاعةً وخضوعاً والوجه يخفي ببرودةٍ الإزعاجَ من جرّاء أنّني أُقصى عن تأمل خزفيّات عتيقة ليتمّ تقديمي إلى أشخاص لا أرغب في معرفتهم. كنت في تلك الأثناء أنظر إلى الواجهة بانتظار اللحظة التي سينطلق فيها اسمي من فم «إيلستير» ليصيبني مثل رصاصة مرتقبة وغير مؤذية. وكان من نتيجة يقيني بتقديمي إلى الفتيات لا أن أمثّل إزاءهن دور اللامبالاة فحسب بل أن أحسّ بها. وتمَّ كتم متعة التعرّف بهنّ، وقد أضحت مذ ذاك محتّمة، وتمَّ تقليصها فبدت لي أقلّ من

متعة التحدّث إلى «سان لو» وتناول العشاء مع جدّتي والقيام برحلات في الضواحي، سوف آسف أن أضطرّ على الأرجح إلى إهمالها من جرّاء علاقاتي بأشخاص قليلي الاهتمام بالآثار التاريخية. ولم يكن ما يخفّف من المتعة التي سأصيبها وُشُوكُ تحقيقها فحسب بل فوضى تحقيقها. إن قوانين في مثل دقّة تلك التي تحكم توازن السوائل تحافظ على تنضّد الصور التي نألفها في ترتيب ثابت يقلبه قرب حلول الحدث رأساً على عقب. كان «إيلستير» يزمع أن ينادي علي، وما كنت تصورت على الإطلاق لا في غرفتي ولا على الشاطئ أنّني سأتعرف على هذا النحو بتلك الفتيات. أما ما كان يوشك الوقوع فحدث مختلف لم أكن معداً له، وما كنت أتعرف فيه لا شوقي ولا موضوعه، وكدت آسف أن أكون خرجت مع «إيلستير». وهناك على وجه الخصوص تقليص المتعة التي ظننتني بادئ الأمر سأصيبها ومردها اليقين بأن ليس ثمة ما يستطيع من بعد انتزاعها مني. فاستعادت وكأنما بفضل قوة مطاطة كامل ارتفاعها حينما كفّت عن معاناة كابوس ذلك اليقين في اللحظة التي قررت فيها أن أدير رأسي فرأيت «إيلستير» الذي وقف على بضع خطوات مع الفتيات يستودعهن. وكان وجه من كانت أقربهن إليه، وهو سمين تشرق فيه نظراتها، كان يبدو وكأنّه قطعة حلوى اقتطعها فيها حيّز لرقعة من السماء. كانت عيناها، وإن شخصت نظراتها، تخلف انطباعاً بالحركة مثلما يقع في بعض أيام الرياح القوية حيث يسمح الهواء، مع أنّه غير منظور، تبيّن السرعة التي يمر بها على زرقة السماء. والتقت نظراتها بنظراتي مقدار لحظة كصفحات السماء المرتحلة أيام العاصفة والتي تقترب من سحابة أقل سرعة فتحاذيها وتلامسها وتجاوزها ولكنّما يجهل بعضها بعضاً وتمضي بعيداً عن بعضها. كذلك تقابلت نظراتنا مقدار لحظة وكل منها يجهل ما تتضمنه القارة السماوية الماثلة أمامه من وعود وصنوف وعيد بالنسبة إلى المستقبل. بيد أن نظراتها غامت قليلاً في اللحظة التي مرت فيها بالضبط تحت خط نظراتي دون أن تخفف سيرها. كذلك القمر، في

ليلة صافية تدفعه فيها الرياح، يمر تحت سحابة ويحجب إشراقته لحظة ثم سرعان ما يعود إلى الظهور. ولكن «إيلستير» كان قد فارق الفتيات دون أن يناديني وسلكن طريقاً مختصرة، أما هو فأقبل نحوي. لقد انهار كل شيء.

قلت إن «ألبيرتين» لم تبدُ لي في ذلك اليوم مثلها في الأيام السابقة ولسوف تبدو لي في كل مرة مختلفة. ولكنّي شعرت في تلك اللحظة أن بعض التبدلات في مظهر شخص وأهميته وحجمه يمكن أن تنجم كذلك عن قابلية التحول في بعض الحالات التي تقف بين هذا الشخص وبيننا. وأنّ إحدى الحالات التي تلعب أهم دور بهذا الصدد إنّما هي الظن (فظنّي في ذلك المساء بأني سأتعرف إلى «ألبيرتين» ثم زواله جعلاها بفاصل بضع ثوان غير ذات شأن تقريباً في عينيّ ثم عظيمة الأهمية إلى ما لا حدود، وبعد بضع سنوات حمل إليّ ظنّي ثم زوال الظن بأن «ألبيرتين» كانت تُخلص لي وتجلب تغيّرات مماثلة).

صحيح أنّه سبق لي في «كومبريه» أن رأيت غمّي أنْ لا أكون بالقرب من أمّي يتناقص أو يتعاظم وفق الساعات وحسبما ألج هذه أو تلك من الصيغتين الكبيرتين اللتين تتوزعان إحساسي، غمّي ذاك وهو طوال بعد الظهر خفيّ خفاء ضياء القمر ما دامت الشمس ساطعة ثم هو إذ يحل الليل يسود وحده نفسي القلقة بدلاً من ذكريات واهنة قريبة. بيد أني علمت في ذاك اليوم، إذ رأيت «إيلستير» يفارق هؤلاء الفتيات دون أن يناديني، أن تبدلات الأهمية التي ترتديها في نظرنا هذه المتعة أو ذاك الغم يمكن أن لا تنجم عن تناول هاتين الحالتين فحسب بل عن تبدل في مكان اعتقادات خفيّة تبرز لنا الموت على سبيل المثال غير ذي شأن لأنها تسكب عليه ضياء من دنيا الأوهام وتتيح لنا هكذا أن نعلّق أهمية على ارتياد أمسية موسيقية قد تفقد من سحرها إن زال فجأة لدى نبأ مفاده أنّنا سوف نرد الموت على المقصلة، الاعتقاد الذي يغمر هذه الأمسية. صحيح أن شيئاً في داخلي كان يعلم دور الاعتقادات هذا، عنيت الإرادة، ولكنّها عبثاً تعلمه إن استمرّ العقل والإحساس في تجاهله. وهذان الأخيران صادقان

حينما يظنان أننا نرغب في هجر عشيقة تعلم إرادتنا وحدها أننا متعلقون بها. ذلك أنّه يغشّي عليهما الاعتقاد بأنّنا سوف نلقاها ثانية بعد لحظة. فإن زال ذلك الاعتقاد وعرفا فجأة أن هذه العشيقة ذهبت إلى غير رجعة فإن العقل والإحساس يضحيان آنذاك، وقد فقدا تركيزهما، كمن فقد عقله، وتتعاظم المتعة الهينة إلى ما لا حدود.

تبدلٌ في الاعتقاد، وعدمية في الحب كذلك، الحب السابق الوجود والمتنقل الذي يتوقف أمام صورة امرأة لمحض أن تلك المرأة تكاد تكون متعذرة المنال. والمرء مذ ذاك يفكّر في المرأة التي يتمثلها بصعوبة، أقل مما في وسائل التعرف إليها. وتتنامى فينا حالة كاملة من صنوف الضيق النفسي وتكفي لتثبيت حبنا فيها، هي موضوعه الذي نكاد لا نعرفه ويصبح الحب مترامي الحدود، ولسنا نفكر إلى أي مدى تشغل المرأة الحقيقية فيه حيّزاً ضيّقاً. فإن خلونا فجأة من القلق وضيق النفس، شأني في اللحظة التي رأيت فيها «إيلستير» يتوقف مع الفتيات فإنه ليبدو فجأة، بما أنّها هي التي تؤلف كامل حبنا، أن هذا الأخير قد تلاشى آن نمسك أخيراً بالطريدة التي لم نفكر تفكيراً كافياً بما تساوي. فما عساني كنت أعرف عن «ألبيرتين»؟ صورة جانبية أو اثنتان على البحر أقل جمالاً بالتأكيد من صورة نسوة «فيرونيز» اللواتي كان يجدر بي أن أفضلهن عليها لو انقدتُ لأسباب جمالية بحتة. ولكن هل كان يمكن أن أنقاد لأسباب أخرى بما أنّني لا أستطيع، بعد زوال قلقي، أن ألقى سوى تلك الصور الجانبية الصامتة ولا أملك شيئاً غيرها؟ فمنذ أن أبصرت «ألبيرتين» انتابتني كل يوم بشأنها آلاف الأفكار وتابعتُ مع ما كنت أسميه أنا وهي حواراً داخلياً كاملاً كنت أسائلها فيه وأجعلها تجيب وتفكر وتعمل. وما كانت «ألبيرتين» الحقيقية التي لمحتها على الشاطئ، ما كانت تبرز، ضمن سلسلة لا محدودة من أصناف لِـ«ألبيرتين» متخيلة تتتالى في صدري ساعة إثر ساعة، إلا في المقدمة، مثلما لا تظهر النجمة، «مبتكرة» الدور، في سلسلة طويلة من العروض، إلا في العروض الأولى فحسب؛ و«ألبيرتين» تلك كانت محض

طيف تقريباً، وكل ما انضاف إليها كان من ابتكاري لشدة ما تطغى الإسهامات التي تأتي عن طريقنا في مجال الحب - حتى إذا لم ننظر إلّا من وجهة نظر الكمّ - على تلك التي تجئينا عن طريق المحبوب. وإن ذلك ليصحّ في صنوف الحب الفعلية كأكثر ما تكون. فمنها ما يمكن لا أن يتكون فحسب بل أن يبقى حول الزهيد من الأمور - حتى من بين تلك التي نعمت باستجابة جنسية فقد رزق أستاذ سابق لجدتي في مادة الرسم ابنة من عشيقة مغمورة. وماتت الوالدة بعد مولد الطفلة بوقت وجيز فاغتم مدرّس الرسم من جراء ذلك غماً عظيماً لم يمهله بعدها فترة طويلة. وفي الأشهر الأخيرة من حياته فكرت جدتي وبعض سيدات من «كومبريه» لم يشأن في يوم التلميح إلى تلك المرأة في حضرة أستاذهن، ولم يكن عاش معها على أية حال علنياً وكانت علاقته بها قليلة، أن يضمن مصير الابنة الصغيرة بالتشارك ما بينهن لتأمين إيراد لها مدى الحياة. وكان أن قدمت جدّتي بعرض الأمر، واضطرت إلى زجر بعض الصديقات: فهل كانت تلك البنيّة جديرة حقاً بالاهتمام، وهل كانت حتى ابنة ذلك الذي يظن أنّه والدها؟ فلا يمكن البتة أن تكون على ثقة مع نساء على شاكلة الأم. وأخيراً قرّ رأيهن. وجاءت البنت الصغيرة تقدم الشكر، وكانت قبيحة وشبيهة بمدرّس الرسم العجوز شبهاً قطع جميع الشكوك. ولما كان شعرها كل ما تملك من أمر حسن فقد قالت سيدة للأب الذي جاء بها: «ما أجمل شعرها!» وأضافت جدتي وفي اعتقادها أن التلميح إلى ذاك الماضي الذي تظاهروا دوماً بتجاهله لم يعد ذا مغزى إذ ماتت المرأة المذنبة وأصبح الأستاذ شبه ميت: «ذلك لا بدّ في الأسرة، فهل كان لوالدتها مثل هذا الشعر الجميل؟» وأجاب الوالد بسذاجة: «لست أدري، فما رأيتها قط إلا بقبعة».

كان لا بدّ من اللحاق بـ«إيلستير» ولمحت نفسي في مرآة، فلاحظت، علاوة على الكارثة التي حلّت بي من جراء أني لم أتعرف بهن، أن ربطة عنقي بالورب وأن قبعتي تكشف عن شعري الطويل، وما كان يلائمني؛ بيد

أنّه كان من حسن الحظ مع ذلك أن التقين بي حتى على هذا النحو مع «إيلستير» ولا يستطعن أن ينسينني وكان من حسن حظّي أيضاً أن ارتديت في ذلك اليوم، بناءً على مشورة جدتي، صدريتي الحلوة التي كنت على وشك تبديلها بأخرى قبيحة وأن حملت أجمل عصا لدي، ذلك أنّه لا يتم البتة حدث نرغب فيه على غرار ما فكرنا فإن حسنات أخرى ما كنا نأمل فيها تبرز لنا بدلاً من الحسنات التي ظننا أننا نستطيع الاعتماد عليها، والكل يتعادل. وكنا نخشى ما كان أسوأ إلى حد أننا نميل في النهاية إلى أن نرى أن المصادفة في المجموع ككل كانت بالأحرى إلى جانبنا وقلت لـ«إيلستير» إذ وصلت بالقرب منه: «قد كنت سررت كثيراً لو تعرفت إليهن» - «فلماذا تظل إذن على بعد أميال؟» كانت تلك الأقوال التي تفوّه بها، لا لأنها تعرب عن فكرته، فلو أنه كان راغباً في الاستجابة لرغبتي لكان من السهل تماماً عليه أن يناديني، بل ربّما لأنّه سمع جملاً من هذا النوع المألوف لدى أناس عاديين أخذوا بجرم، ولأن الرجال العظام أنفسهم شبيهون بالأناس العاديين في بعض الأمور ويتناولون الأعذار اليوميّة من الجعبة نفسها مثلما يتناولون الخبز اليومي لدى الخباز نفسه، وإمّا لأن مثل تلك الأقوال التي ينبغي أن تُقْرأ بالمقلوب إلى حد ما لأن حرفها يعني عكس الحقيقة، إنّما هي النتيجة اللازمة لرد فعل ما وخطه البياني السلبي «لقد كنّ على عجلة من أمرهن» وفكرت أنهن منعنه على وجه الخصوص من استدعاء شخص لا يشعرن بكثير من الود نحوه، ولولا ذاك لما قصّر في الأمر بعد جميع الأسئلة التي طرحتها عليه حولهن والاهتمام الذي رأى تماماً أنّني أبديه إزاءهن.

وقال لي قبل أن أفارقه على عتبة بابه: «كنت أحدثك عن «كاركتوي» لقد رسمت لوحة أولية صغيرة يشاهد فيها ما يحيط بالشاطئ على نحو أفضل واللوحة لا بأس بها ولكني شيء مختلف» ثم أضاف: «سوف أعطيك لوحتي هذه، إن سمحت، عربوناً لصداقتنا»، ذلك لأن من يحرمونك الأشياء التي ترغب فيها إنّما يعطونك غيرها.

- «لعلني كنت أحب كثيراً أن أحوز صورة فوتوغرافية عن رسم «السيدة ساكريبان» الصغير إن كان لديك منها ولكن ما عسى يكون هذا الاسم؟» - «إنّه اسم شخصية أدّى دورها جليسي في مسرحية غنائية صغيرة سخيفة» - «ولكنك تعلم أني لا أعرفها على الإطلاق يا سيدي ويبدو أنّك تظن العكس». وصمت «إيلستير». وقلت: «ليست مع ذلك السيّدة «سوان» قبل زواجها»، قلت بفضل واحد من تلك التلاقيات الطارئة المفاجئة بالحقيقة، وهي إجمالاً نادرة إلى حدّ ما ولكنها كافية بعد وقوعها لتزوّد بشيء من الأساس نظرية الحدس إن وجّهنا عنايتنا إلى إغفال جميع الأخطاء التي قد تبطلها، ولم يحر «إيلستير» جواباً. كان بالفعل رسماً لِ«أوديت دو كريسي» ولم تشأ الاحتفاظ به لأسباب عديدة بعضها بيّن إلى حد بعيد. وكان ثمة أسباب أخرى، فالرسم سابق للفترة التي نظّمت فيها «أوديت» ملامحها فجعلت من وجهها وقامتها ذلك الابتكار الذي ينبغي أن يحترم خطوطه العريضة عبر السنين حلاقوها وخياطوها، وهي نفسها - في طريقة جلوسها وحديثها وابتسامها ووضع يديها وإرسال نظراتها وتفكيرها - وكان لا بدّ من فساد عاشق أدركه الشبع كيما يفضل «سوان»، على العديد من صور «أوديت» التي لا تقبل التبدل والتي تمثلها زوجته الفاتنة، الصورة الصغيرة التي في غرفته والتي ترى فيها تحت قبعة من القش تزيّنها أزهار بنفسج الثالوث امرأة شابة نحيلة بشعة إلى حد ما منفوشة الشعر متعبة القسمات.

وحتى لو لم يكن الرسم سابقاً لانتظام ملامح «أوديت» وفق طراز جديد، شأن الصورة الفوتوغرافية المفضلة لدى «سوان» بل لاحقاً لها، لكانت رؤية «إيلستير» كافية لزرع الفوضى في هذا الطراز. فالعبقرية الفنية تعمل على غرار درجات الحرارة الشديدة الارتفاع التي تتمتع بقدرة تفكيك مركبات الذرات وجمع هذه الأخيرة وفق ترتيب معاكس تماماً يوافق نمطاً آخر. وإنّما تهدم نظرة الرسام الكبير، كل هذا التناسق المصطنع الذي فرضته المرأة على ملامحها والذي تراقب كل يوم قبل خروجها استمراره

في المرآة وتكلّف القبعة المائلة والشعر الأملس والنظرة اللعوب ضمان استمراريتها، إنّما تهدمها في ثانية واحدة وتقوم محلها بتجميع ملامح المرأة على نحو يرضى به مثلاً أعلى أنثوياً وتصويرياً يحمله في نفسه وغالباً ما يقع كذلك أن ترى عين باحث كبير أنّى كان، ابتداءً من سن معيّنة، العناصر الضرورية لإقامة العلائق التي تهمه وحدها ولعلهم يستطيعون، شأن هؤلاء العمال وهؤلاء المقامرين الذين لا يتشددون في أمرهم ويرتضون ما يقع تحت يدهم، أن يقولوا بصدد أي شيء إنّما يفي ذلك بالغرض. فقد اتّفق من هذا القبيل أن أغرمت ابنة عم لأميرة «لوكسمبور» فيما مضى، وهي من أروع الجميلات، بفن كان جديداً في ذلك العصر فطلبت من أعظم الرسامين الطبيعيين أن ينجز رسمها وفي الحال وجدت عين الفنان ما تبحث عنه في كل مكان، فكان على اللوحة بدلاً من السيدة الكبيرة مستخدمة صغيرة ومن ورائها منظر فسيح مائل بنفسجي اللون يذكرك بساحة «بيغال». ولكن حتى لو لم يبلغ الأمر هذا الحد، فلن يجهد رسم امرأة على يد فنان كبير، لن يجهد على الإطلاق في إرضاء متطلبات المرأة - شأن تلك التي تدفعها مثلاً، عندما يدب المشيب، إلى أن تأخذ لها صور فوتوغرافية بلباس بُنيّة تقريباً يبرز قامتها التي ظلّت فتية وتبدو به وكأنّها شقيقة ابنتها أو حتى ابنة ابنتها على أن «تحزَّمَ» هذه الأخيرة بثيابها بالقرب منها إن قضت الحاجة ودعت المناسبة - وليس ذلك فحسب بل هو يبرز على العكس المساوئ التي تحاول إخفاءها والتي تزيد من إغرائه لأنّها تحمل «طابعاً» معيّناً كمثل وجه شاحب أو حتى ضارب إلى الخضرة، ولكنها كافية لتخيب أمل المشاهد العادي وتحطم في نظره المثل الأعلى الذي كانت المرأة ترفع باعتزاز دعائمه وكان يضعها في شكلها الواحد المتفرد خارج حدود باقي البشر وأعلى منهم إلى أبعد الحدود وليست من بعد، وقد هوت من عليائها وأقامت خارج نموذجها الخاص الذي كانت تتربع فيه لا تشوبها شائبة، سوى امرأة، أيّة امرأة، فقدنا كل ثقتنا في تفوُّقها وذلك النموذج إنّما جعلنا منه قوام جمال أمثال «أوديت»،

بل شخصيتها وهويتها إلى حد أنّه يُسَوّلُ لنا أمام المرسم الذي جرّدها منه لا أن نصيح قائلين: «كم لحق به من بشاعة!» بل «ما أقلّ ما يشبهها!» ونكاد لا نصدّق أن تكون هي، ولا نتعرفها. بيد أن ثمة كائناً نحسّ تماماً أنّه سبق لنا أن رأيناه ولكن ذلك الكائن ليس «أوديت»؛ إن وجه ذلك الكائن وجسمه وهيئته معروفة تماماً لدينا وإنّها لتذكرنا، لا بتلك المرأة التي ما كانت تقف البتة على هذا النحو ولا ترسم جلستها المألوفة خطوطاً غريبة ومثيرة إلى هذا الحد، بل بنساء أخريات، بجميع أولئك اللواتي رسمهن «إيلستير» واللواتي أحب على الدوام، مهما أمكن أن يكونّ مختلفات، أن يجعلهن ينتصبن على هذا النحو مواجهة، والرجل مقوّسة تجاوز التنورة والقبعة المستديرة الواسعة التي يمسكنها باليد تقابل على نحو متناظر، على سوية الركبة التي تغطيها، تلك الأسطوانة الأخرى التي أُخِذت مواجهة، عنينا الوجه والرسم العبقرى أخيراً لا يفكك نموذج امرأة بحسب ما حده غنجها وتصورها الأناني للجمال فحسب، بل هو لا يكتفي، إن كان قديماً، أن يزيد في عمر الأصل على نحو ما تفعل الصورة الفوتوغرافية بإظهاره في ثياب ذهب زيها فليس يبطل في الصورة المرسومة طريقة لباس المرأة فحسب، بل كذلك الطريقة التي كان يرسم بها الفنان وكانت تلك الطريقة، طريقة «إيلستير» الأولى، قيد النفوس الأكثر فداحة بالنسبة إلى «أوديت»، لا لأنّه يجعل منها، شأن صورها الفوتوغرافية آنذاك، صغْرَة ماجنات معروفات، بل لأنّه يجعل رسمها معاصراً لواحد من الرسوم الكثيرة التي وضعها «مانيه» أو «ويستلر» نقلاً عن نماذج كثيرة مرتحلة أصبحت ضحية النسيان أو ملكاً للتاريخ.

كان الاكتشاف الذي قمت به في ما يخص هوية نموذجه يدفعني إلى هذه الأفكار التي كنت أجترّها بصمت إلى جانب «إيلستير» فيما أعود به إلى منزله حينما ساقني هذا الاكتشاف إلى آخر ثان أكثر إثارة بالنسبة إلي ويتعلّق بهويّة الفنان. لقد سبق أن أنجز رسماً لِ«أوديت دو كريسي»، فهل يمكن أن يكون هذا الرجل العبقري، هذا الحكيم، هذا المتوحد، هذا

الفيلسوف ذو الحديث الرائع والذي يحيط بكل أمر، هل يمكن أن يكون الرسام المضحك الفاسق الذي احتضنه آل «فيردوران» فيما مضى؟ وسألته إن كان عرفهم وإن لم يتّفق أن كانوا يلقبونه حينذاك بالسيد «بيش»، فأجابني أن نعم دونما ربكة وكما لو تناول الأمر قسماً من حياته أضحى قديماً بعض الشيء وكما لو لا يرتاب بأمر الخيبة الغريبة التي يبعثها فيّ، ولكنه قرأها، وهو يرفع عينيه، على صفحة وجهي وعلت وجهَه دلائلُ الاستياء ولعل رجلاً أقل سمواً بعقله وقلبه، لعله اكتفى، فيما كنّا قد وصلنا تقريباً إلى منزله بأن يستودعني بجفاء وتجنب بعد ذلك أن يلقاني من جديد. ولكن «إيلستير» لم يسلك هذا المسلك معي، فقد كان يحاول، بوصفه معلماً حقيقياً - وربّما كانت سيّئته الوحيدة على صعيد الإبداع البحت أن يكون معلماً حقيقياً بمعنى كلمة المعلم، هذا لأنّه ينبغي للفنان كيما يكون تماماً ضمن حقيقة الحياة الروحية أن يظل وحيداً وألا يبذر شيئاً من أناه حتى لصالح تلاميذه -، أن يستخلص من كل مناسبة، سواء أتعلقت به أم بالآخرين، ما تحتويه من حقيقة في سبيل إرشاد أفضل للشبان. وقد فضّل والحالة هذه على الأقوال التي ربّما ثأرت لاعتزازه بذاته تلك التي يمكن أن تعلّمني. فقال لي: «ليس من رجل مهما يكون حكيماً لم يتفوّه، في هذه الفترة أو تلك من شبابه، بأقوال أو لم يقض حياة تزعجه ذكراها ومنيته لو يلغيها. على أنّه ينبغي ألا يأسف لذلك على نحو مطلق، لأنّه لا يمكن له التثبت بأنّه أصبح حكيماً، بقدر ما يبدو ذلك ممكناً، إلا إذا مرّ بجميع ضروب التجسيد المضحكة أو البشعة التي ينبغي أن تسبق هذا التجسيد الأخير. إنّي أعلم أن ثمة شباناً، أبناء وأحفاداً لرجال مرموقين، علمهم مربوهم نبالة الفكر والأناقة الأخلاقية منذ المدرسة. وربما لم يقع علمهم أن يحذفوا شيئاً من حياتهم وبوسعهم أن ينشروا كل ما قالوه وأن يذيّلوه بتوقيعهم، ولكنهم فقراء النفوس وذريّة ضعيفة لعقائديّين وحكمتهم سلبيّة وعقيمة. فالحكمة لا توهب ولا بدّ من اكتشافها بعد مشوار لا يستطيع أحد أن يقطعه نيابة عنّا ولا يستطيع أن

يجنّبنا إيّاه، إذ هي نظرة إلى الأشياء. إن الحيوات التي تُعجب بها والمواقف التي تجدها نبيلة لم يرتّبها والد الأسرة أو المربي بل سبقتها بدايات شديدة الاختلاف وأثر فيها كل ما كان سائداً حولنا من شر أو تفاهة وإنها لتمثل كفاحاً وانتصاراً، وإني أدرك أنْ لا تكون صورة ما كنّا عليه في فترة أولى واضحة المعالم وألا تحظى في جميع الأحوال بإعجابنا. على أنّه يجدر بنا ألا ننكرها لأنها شهادة عشناها حقاً وأننا إنما استخلصنا، وفق قوانين الحياة والفكر التي لدينا، من العناصر المشتركة في الحياة ومن حياة المحْتَرَفَات والجماعات الفنيّة إن تعلق الأمر برسّام، ما يجاوزها». وكنا قد وصلنا أمام بابه، وقد خاب أملي أن لم يتم لي التعرّف بتلك الفتيات. بيد أنّه قد تتوافر الآن إمكانيّة لقائهنّ في الحياة، فقد كففن عن مجرد المرور في أفق خلت أنّني لن أبصرهن في يوم يطلعن فيه. ولم يعد يضطرب من حولهنّ ما يشبه هذا الجيشان الكبير الذي كان يفصل بيننا، وإن هو إلا ترجمة الرغبة الدائبة النشاط المتحركة الملحّة التي يغذيها القلق ويبعثها في نفسي تعذّر الوصول إليهن وهروبهن ربما إلى غير رجعة. كنت أستطيع الآن أن أريح شوقي إليهنّ وأن أدخره إلى جانب الكثير غيره مما كنت أؤجل تحقيقه حالما أعلم أنّه أضحى ممكناً. واستودعت «إيلستير»، ووجدتني وحيداً. حينئذ رأيت دفعة واحدة في خاطري، على الرغم من خيبة أملي، جميع تلك المصادفات التي ما كنت لأرتاب بإمكان حدوثها، كأن يكون «إيلستير» بالضبط على علاقة بتلك الفتيات وأن تكون أولئك اللواتي كنّ لا يزلن بالنسبة إليّ في الصباح محض وجوه في لوحة، خلفيتّها البحر، قد رأينني، قد رأينني أرتبط بصداقة رسّام عظيم أصبح يعرف الآن شوقي إلى التعرّف بهنّ وسوف يسدي له العون دونما شكّ. كل ذلك سبّب لي متعة، ولكن تلك المتعة ظلّت خفيّة عليّ، فقد كانت من أولئك الزوّار الذين ينتظرون كيما ينبئونا بحضورهم أن يكون الآخرون قد فارقونا وأن نكون وحدنا، حينئذ نبصرهم ونستطيع أن نقول لهم: أنا ملك أيديكم، ونصغي إليهم ويتفق أحياناً أن

يكون انقضى العديد من الساعات ورأينا الكثير من الناس ما بين اللحظة التي دخلت فيها تلك المتع إلى نفوسنا واللحظة التي نستطيع فيها أن نعود إليها حتى لنخشى أنْ لا يكونوا انتظرونا. ولكنهم طويلو الأناة لا يكلّون وما إن يذهب الجميع حتى نجدهم قبالتنا. وأحياناً نكون نحن المتعبين إلى حدّ يبدو لنا معه أنّه لن يتوافر في فكرنا الوهن ما يكفي من قوة كي نحجز تلك الذكريات وتلك الانطباعات التي تؤلّف أنانا الهشّة بالنسبة إليها المكان الوحيد الذي يمكن أن تأوي إليه وصيغة التحقّق الوحيدة، وربّما أصابنا الأسف لذلك لأن الحياة تكاد لا تثير اهتمامنا إلّا في الأيام التي يختلط فيها تراب الوقائع برمل سحري ويضحي فيها حادث عادي حافزاً للخيال، حينئذ يطل فجأة من أضواء الحلم شامخ من العالم المتعذر الإدراك ويدخل في حياتنا، في حياتنا التي نبصر فيها كالنائم اليقظان الأشخاص الذين حلمنا بهم بشوق الملهوف حتى ظننا أننا لن نشاهدهم في يوم خارج الحلم.

وزاد من قيمة الهدوء الذي حمله إليّ احتمال تعرّفي الآن بتلك الفتيات حينما أشاء أنني ما كنت أستطيع موالاة ترقّبهنّ في الأيام التالية التي شُغلَت بالإعداد لرحيل «سان لو». كانت جدتي راغبة أن تعرب لصديقي عن شكرها إزاء صنوف اللطف العديدة التي أبداها لها ولي. وقلت لها إنه كبير الإعجاب بـ«برودون» وأوحيت إليها بفكرة استقدام رسائل عديدة بخط يد هذا الفيلسوف كانت قد اشترتها. وجاء «سان لو» لمشاهدتها في الفندق في اليوم الذي وصلت فيه وهو عشيّة رحيله. وقرأها بنهم وهو يقلّب كل ورقة باحترام ويحاول استظهار الجمل، ثم نهض وأخذ يعتذر لجدتي أن يكن مكث وقتاً طويلاً جداً حينما سمعها تجيبه قائلة:

- «لا، خذها معك، إنها لك، فإنما أحضرتها لأعطيك إياها».

وتملّكه فرح لم يستطع السيطرة عليه أكثر مما يتاح له بحالة جسدية تجري دون تدخّل الإرادة، وأضحى لونه قرمزياً مثل طفل أقدمنا على

معاقبته، وتأثرت جدتي لرؤية جميع الجهود التي قام بها (دون أن يفلح) ليتمالك الفرح الذي كان يهزه أكثر منها بجميع آيات الشكر التي كان يمكن أن يتفوه بها. أما هو فظل يرجوني، وقد خشي أن يكون أساء الإعراب عن شكره، أن أقبل عذره وهو ينحني في الغد من نافذة القطار المحلّي الصغير الذي استقله للالتحاق بثكنته، وكانت بالفعل قريبة البعد وقد فكّر في أن يذهب إليها بالعربة كما كان يفعل في الغالب حينما كان عليه أن يعود في المساء وليس الأمر أمر رحيل نهائي. بيد أنه كان ينبغي له في هذه المرة أن يضع أمتعته الكثيرة في القطار. فرأى من الأسلم أن يستقله بدوره آخذاً في ذلك برأي المدير الذي أجاب بعدما استشير «أن الأمر يتوازن تقريباً» في العربة أو القطار الصغير، يريد بذلك أن يقول إنّه «يتساوى» (كما لعلّ «فرانسواز» كانت تعبّر عنه بقولها «الأمر يعني ذاته ونفسه»). واستنتج «سان لو» من ذلك قوله: «فليكن، سأستقل القطار الصغير». ولعلني كنت أستقله بدوري، لو لم أكن متعباً وأرافق صديقي إلى «دونسيير». وعلى أني وعدته، طوال كامل الوقت الذي ظللنا فيه في محطّة «بالبيك» - أي الوقت الذي قضاه سائق القطار الصغير في انتظار أصدقاء متخلّفين ما كان يودّ الذهاب بدونهم وكذلك في تناول بعض المرطبات - أن أبادر لزيارته عدة مرّات في الأسبوع. ولما كان بلوك قد جاء بدوره إلى المحطة - الأمر الذي سبب لـ«سان لو» إزعاجاً كبيراً - وإذ رأى هذا الأخير أن صاحبنا كان يسمعه يرجوني المجيء إلى «دونسيير» للغداء والعشاء والسكنى هناك، فقد قال له في النهاية بلهجة بالغة الجفاء، لهجة كان عليها أن تصلح من لطف الدعوة المفتعل وأن تحول دون أن يأخذها «بلوك» على محمل الجدّ: «إن مررت ذات يوم في «دونسيير» في عشية لا أرتبط فيها بموعد كان بوسعك أن تسأل عني في الثكنة، ولكني مرتبط على الدوام تقريباً». وربّما خشي «روبير كذلك ألا أجيء وحيداً فمكّنني على هذا النحو من الحصول على رفيق طريق وعلى مشجع وفي ظنّه أنني أكثر ارتباطاً بـ«بلوك» مما كنت أصرّح به.

وخشيت أن تكون تلك اللهجة وتلك الطريقة في دعوة امرئ فيما يُشار عليه بالامتناع عن المجيء قد جرحتا شعور «بلوك» ورأيت أنه كان من الأفضل لِـ«سان لو» ألا يقول شيئاً ولكني أخطأت، فبعد انطلاق القطار وطوال الوقت الذي سرنا فيه سويّة حتى تقاطع الشارعين حيث كان ينبغي أن نفترق إذ يتجه شارع إلى الفندق والآخر إلى دارة «بلوك»، لم يكفّ هذا الأخير عن سؤالي عن اليوم الذي سنذهب فيه إلى «دونسيير»، ذلك أنه «من السماجة بمكان في ما يخصه ألا يلبي دعوة «سان لو» بعد جميع ضروب اللطافة التي خصّه بها». وسرّني أنه لم يلاحظ، أو أنه كان قليل الاستياء إلى حد يرغب معه في التظاهر بأنه لم يلاحظ بأية لهجة قليلة الاستعجال، وتكاد لا تكون متأدّبة، تمت الدعوة وددت مع ذلك لو جنب «بلوك» نفسه سخرية الذهاب في الحال إلى «دونسيير». ولكنّي ما كنت أجرؤ أن أسدي إليه نصحاً لا يمكن إلا أن يسوءه إذ يُبرز له أن «سان لو» كان أقل استعجالاً مما يبدو هو متحمساً. وكان أكثر حماسة مما ينبغي، ومع أن جميع العيوب التي به من هذا القبيل إنما تعادلها مناقب بارزة لا تتفق لآخرين أكثر تحفظاً، فقد كان يبلغ بقلة التحفظ حدّاً يورث الإزعاج. فالأسبوع لا يمكن، لمن يسمعه، أن ينقضي دون أن نذهب إلى «دونسيير» (ويقول «نذهب» إذ أحسب أنّه كان يعتمد بعض الشيء على حضوري كيما يلقي العذر لحضوره). وقد استوقفني على طول الطريق، أمام القاعة الرياضية الغارقة في أشجارِها وأمام ملعب كرة المضرب وأمام دار المختار وأمام بائع المحاريّات، وهو يتوسل إليّ أن أحدد يوماً، ولما لم أفعل فارقني غاضباً وهو يقول لي: «افعل ما يطيب لك يا سيدي، أما أنا فإني مضطر في جميع الأحوال أن أذهب إلى هناك بما أنه دعاني».

لقد خشي «سان لو» كثيراً أنْ لا يكون أحسن في شكر جدتي إلى حد أنه كلفني بعد الغد أن أنقل إليها شكره في رسالة وصلتني منه من المدينة التي كان يقيم في موقعها والتي بدت على المغلف الذي طبع البريد اسمها عليه وكأنها تبادر إليّ بسرعة وتقول لي إنه كان يفكر فيّ بين أسوارها وفي

مقر لويس السادس عشر للفرسان. كان الورق يحمل شعار «دو مارسانت» وقد ميّزت فيه أسداً يعلوه تاج ينتهي بقبّعة أعيان فرنسا.

«بعد رحلة، يقول لي، تمّت على ما يرام وفيما أقرأ كتاباً ابتعته في المحطة وهو بقلم «أرفيد بارين» (إنه كاتب روسي فيما أعتقد، وقد بدا لي أنه كُتِبَ كتابة رائعة بالنسبة إلى أجنبي، ولكن زوّدني برأيك فلا بدّ أنك تعرف ذلك أنت لجة العلم الذي قرأ كل شيء) أراني عدت وسط هذه الحياة السمجة التي أحسّني منفياً فيها واأسفي إذ لا يتوافر لي فيها ما خلّفته في «بالبيك»، هذه الحياة التي لا ألقى فيها أية ذكرى وداد وأي سحر فكري، الحياة التي قد تحتقر جوّها دونما شك مع أنه لا يخلو من سحر. كل شيء يبدو لي قد تغيّر منذ أن غادرتها، إذ بدأت في هذه الفترة الفاصلة إحدى أكثر الفترات أهمية في حياتي، تلك التي يعود إليها تاريخ صداقتنا. وأملي أنها لن تنقضي في يوم. ولم أتحدّث عنها وعنك إلا إلى شخص واحد، إلى صديقتي التي فاجأتني بمجيئها لقضاء ساعة بالقرِب مني. إنها تودّ كثيراً التعرّف بك وأظن أنكما سوف تتفقان إذ هي بدورِها طويلة باع في الأدب. وكيما أفكر من جديد، في مقابل ذلك، في أحاديثنا وأعيش من جديد تلك الساعات التي لن أنساها البتة فقد اعتزلت أصحابي، وهم فتيان ممتازون ولكنهم عاجزون تماماً عن إدراك ذلك. ولعلّي كدت أفضّل في ما يخص ذكرى اللحظات التي أمضيتها معك أن أستذكرها لذاتي فقط في اليوم الأول ودونه أن أكتب إليك. ولكني خشيت عليك، أنت الفكر المرهف والفؤاد الشديد الحساسية، أن تقلق إن لم تصلك رسالة. إن أنت بالطبع تكرّمت وانحدرت بفكرك إلى الفارس الخشن الذي يقع عليك الكثير في سبيل تشذيبه وجعله على شيء من الإرهاق وأكثر أهليّة بك».

كانت تلك الرسالة تشبه إلى حد بعيد في رقتها تلك التي تخيلت. حينما كنت لا أعرف بعد «سان لو»، أنه سوف يسطرها لي في تلك الأحلام التي أقصاني عنها جفاء استقباله الأول إذ وضعني إزاء واقع شديد

البرودة لم يكتب له البقاء. وبعدما وصلتني، وفي كل مرة كانوا يجيئون فيها بالبريد ساعة الغداء، كنت أعلم في الحال حينما تجيء رسالة منه، إذ كانت تحمل دوماً ذاك الوجه الثاني الذي يبرزه كائن في أثناء غيابه والذي ليس من سبب، بدون قسماته (بدون حروف الكتابة) كي لا نظن أننا ندرك نفساً فرديّة شأن ما هي الحال في خطّ الأنف أو نبرات الصوت.

كان يطيب لي الآن المكوث أمام طاولة الطعام فيما يتم رفع الفضلات ولم أعد أقصر النظر على جانب البحر إن لم تكن الفترة تلك التي يمكن أن تمر في أثنائها فتيات المجموعة الصغيرة. فقد أخذت أحاول أن ألقى في الواقع، وأعشق بمثابة أمر شاعري حركة السكاكين التي توقفت ولا تزال موضوعة بالورب، والاستدارة المكوّرة لفوطة محلولة تدخل الشمس في ثنياتها قطعة من المخمل الأصفر، والقدح الذي أفرغ إلى نصفه والذي يبرز هكذا على نحو أفضل اتساعَ أشكاله الكريمة، وفي قعر زجاجه الشفاف الذي يضاهي تكثّف ضوء النهار بقية خمرة عاتمة ولكنها تتلألأ بالأنوار، وتنقّل الأحجام، وتحوّل السوائل بفعل الأضواء، وتبدل لون الخوخ الذي ينقلب من خضرة إلى زرقة ومن زرقة إلى لون الذهب في قصعة الفواكه التي خلت إلى نصفها، ورحلة الكراسي القديمة التي تبادر مرتين في كل يوم إلى الإقامة من حول غطاء المائدة الممدود فوق الطاولة وكأنما فوق مذبح تقام عليه أعياد الشراهة وعليه ظلّت في زوايا المحارات بعض قطرات ماء لمّاعة وكأنما في أجران ماء مقدسة صغيرة من حجر. كنت أحاول أن ألقى الجمال حيث لم يخطر لي البتة أن يكون، في أكثر الأشياء استعمالاً وفي أعماق حياة «الطبيعات الصامتة».

حينما أفلحتُ بعد بضعة أيام من رحيل «سان لو» في حمل «إيلستير» على إقامة حفلة مسائية صغيرة ألتقي فيها بـ«ألبيرتين»، أسفت ألا أستطيع الاحتفاظ بالفتن والأناقة المؤقتتين تماماً اللتين وجدوهما لديّ لحظة كنت أغادر الفندق الكبير (وقد نجمتا عن استراحة طويلة وعن عناية خاصّة بشؤون الملبس)، وكذلك بنفوذ «إيلستير» من أجل الظفر بشخص آخر أشد

ظرفاً، لقد أسفت أن أنفق كل ذلك لمجرد متعة التعرّف بِـ«ألبيرتين». كان عقلي يحكم أن تلك المتعة قليلة القيمة إلى حد بعيد منذ أن أصبح واثقاً بذاته. ولكن الإرادة في داخلي لم تشارك لحظة واحدة في ذلك الوهم، الإرادة التي تمثّل الخادم الدؤوب الذي لا يتبدل لشخصياتنا المتعاقبة، إنها تختفي في الظلام مزدراة لا تكلّ في إخلاصها وتعمل دون انقطاع، ودون أن تهتمّ بتغيرات أنانا، على ألا يعوزها الضروري في يوم. ففي أثناء ما يشرع العقل والإحساس، لحظة توشك رحلة مشتهاة أن تتحقق، في التساؤل إن كانت حقاً جديرة بالتحقق تدعمها الإرادة التي تعلم أن هذين السيدين البطالين سوف يعاودان اعتبار تلك الرحلة رائعة إن اتفق لها أن لا تتم، تدعمها يتحدثان أمام المحطة ويضاعفان من صنوف حيرتهما، ولكنها تهتم بقطع التذاكر وبوضعنا في العربة بانتظار ساعة الرحيل. وإنها لا تتبدل بقدر ما العقل والإحساس متقلبان ولكنها تبدو وكأنما لا وجود لها تقريباً بما أنها صامتة ولا تدلي بدوافعها. وإنما تخضع الأجزاء الأخرى في أنانا لعزمها الثابت ولكن دون أن تراها فيما تميز بوضوح صنوف تشكلها هي. لقد باشر إحساسي وعقلي إذن نقاشاً حول قيمة المتعة التي قد تورثها معرفة «ألبيرتين» فيما كنت أنظر في المرآة إلى صنوف الزينة الباطلة الهشة التي يودّان الاحتفاظ بها على حالها لمناسبة أخرى ولكن إرادتي لم تسمح بمرور الساعة التي ينبغي الذهاب فيها وكان أن زوّدت الحوذي بعنوان «إيلستير». أما عقلي وإحساسي فقد تيسر لهما، إذ حُمَّ القضاء، أن يحتسبا الأمر مؤسفاً، ولو اتفق لإرادتي أن تقدّم عنواناً آخر لوقعا في الفخّ.

حينما وصلت إلى منزل «إيلستير» بعد ذلك بقليل حسبت بادئ الأمر أن الآنسة «سيمونيه» لم تكن في المرسم. كان هنالك بالتأكيد فتاة جالسة بفستان من الحرير حاسرة الرأس ولكنّي ما كنت أعرف منها هذا الشعر الرائع ولا هذا الأنف ولا هذا اللون وما كنت ألقى فيها تلك الشخصية التي استخلصتها من راكبة دراجة شابة تتنزه بمحاذاة البحر وهي تعتمر قبعة عريضة. وكانت على الرغم من ذلك «ألبيرتين». ولكني لم أهتم بها حتى

حينما علمت ذلك. فحينما يكون المرء شاباً يموت لذاته ساعة يدخل إلى أي اجتماع راقٍ ويصبح رجلاً مختلفاً إذ أن كل صالة عالم جديد نخضع فيه لمنطلق أخلاقي آخر فنركّز انتباهنا على أشخاص ورقصات ولعبات ورق، سرعان ما ننساها في الغد، كما لو انبغى أن تحوز اهتمامنا على الدوام. ورأيتني وأنا مضطر للتقدم باتجاه حديث مع «ألبيرتين» إلى اتباع درب لم أرسمه، درب كان يتوقف في بادئ الأمر أمام «إيلستير» ويمرّ بمجموعات أخرى من المدعوين كان يذكر اسمي أمامهم ثم يحاذي طاولة المأكولات حيث تقدم لي حلوى بتوت الأرض فآكلها فيما أصغي لا حراك بي إلى موسيقى يشرعون في عزفها، رأيتني أولي هذه الوقائع المختلفة الأهمية نفسها التي أوليها لتعريفي بالآنسة «سيمونيه»، هذا التعريف الذي لم يعد سوى إحدى تلك الوقائع والذي نسيت أنه كان لبضع دقائق خلت الهدف الوحيد لمجيئي. أوليس ذلك على أية حال أمر صنوف سعادتنا الحقة ومصائبنا الكبيرة في حياتنا الفعلية؟ فإنه ليردنا، ونحن وسط أشخاص آخرين، من تلك التي نحبها الرد الإيجابي أو القاتل الذي كانا ننتظره منذ عام. بيد أنه لا بدّ من متابعة الحديث، وتنضاف الأفكار بعضها إلى بعضها الآخر فتؤلف صفحة قلّما تطفو على وجهها بين الحين والحين الذكرى التي تفوقها عمقاً ولكنّها ضيقة الرقعة وقوامها أن المصيبة حلّت بنا. فإن كانت السعادة بدلاً من المصيبة فربّما اتفق أن لا نتذكر إلا بعد مرور عدة أعوام أن أعظم حديث في حياتنا العاطفية قد وقع، دون أن يتّسع لنا الوقت لنخصّه بفترة اهتمام طويلة وحتى لنعيه، ضمن اجتماع راقٍ على سبيل المثال وما ذهبنا إليه إلا لانتظار ذاك الحدث.

وحينما طلب «إيلستير» مني المجيء ليقدمني لِـ«ألبيرتين» التي جلست في مكان أبعد بقليل فرغت بادئ الأمر من تناول حلوى بالقهوة وسألت باهتمام سيداً عجوزاً تعرفت إليه منذ قليل، وحسبت أنه يسعني أن أقدّم له الوردة التي أعجب بها في عروة سترتي، أن يزودني بمعلومات مفصّلة عن بعض أسواق البيع النورماندية. وليس يعني ذلك أن التقديم الذي تلاه لم

يبعث فيّ أية متعة ولم يرتدِ في نظري بعض الخطورة. فأما المتعة فلم أعرفها بالطبع إلا بعد ذلك بقليل حينما ظللت وحيداً بعدما عدت إلى الفندق فأضحيت ذاتي من جديد. فأمر المتع كأمر الصور الفوتوغرافية، ما أخذتَه بحضور المحبوب لا يعدو كونه صورة سلبية يتم تظهيرها فيما بعد، وبعدما يعود المرء إلى منزله ويجد في متناوله هذه الحجرة السوداء الداخلية التي يظل مدخلها مسدوداً ما دمنا في حضرة الناس.

ولئن تم على هذا النحو تأجيل تعرفي بالمتعة بضع ساعات فقد أحسست في الحال، في مقابل ذلك، بخطورة ذلك التقديم. فعبثاً نحس ساعة التقديم أننا مُنِحْنَا وأصبحنا نحمل «بطاقة» صالحة لمتع مقبلة، وكنا نجري وراءها منذ أسابيع، فإننا ندرك تماماً أن إحرازها إنما يضع حداً بالنسبة إلينا، لا لتحريات شاقة فحسب - الأمر الذي لا يمكن إلا أن يملأنا حبوراً -، بل لوجود كائن ما، ذاك الذي شوّهه خيالنا وضاعفت من حجمه خشيتنا وقلقنا ألّا يمكننا التعرّف إليه في يوم. ففي اللحظة التي يدوّي فيها اسمنا بين شفتي المقدِّم ولا سيما إنْ أحاطه هذا الأخير، كما فعل «إيلستير»، بتعليقات تقريظية - تلك اللحظة المقدسة الشبيهة باللحظة التي يأمر فيها الجني. في أثناء مشهد سحري، أن يضحي شخص على نحو فجائي شخصاً آخر - يتلاشى ذاك الذي تقنا إلى التقرب منه، إذ كيف يظل بادئ الأمر شبيهاً بذاته بما أن النظرة الواعية والفكرة اللامدركة اللتين كنّا نبحث عنهما قد حلّت محلهما في العينين اللتين كانتا بالأمس تتمركزان في اللانهاية (واللتين ظننا عينينا التائهتين غير المركزتين اليائستين المتباينتين لن تفلحا البتة في لقائهما) صورتنا التي ارتسمت كأنّما في أعماق مرآة تبتسم؟ وإن كان تجسد ذاتنا في ما كان يبدو لنا مختلفاً أكثر الاختلاف عنا هو ما يبدل أكثر ما يبدل الشخص الذي تمّ تقديمنا له فإن شكل هذا الشخص لا يزال مبهماً بعض الشيء، ويمكننا أن نتساءل هل سيكون إلهاً أم طاولة أم طشتاً. ولكن الكلمات القليلة التي ستقولها لنا هذه المجهولة سوف توضح ذاك الشكل بمثل سرعة مثّالي الشمع أولئك الذين يصنعون

أمامنا تمثالاً نصفياً في مدى خمس دقائق. وتضفي عليه صيغة نهائية تستبعد جميع الفرضيات التي كانت تنصرف إليها بالأمس رغبتنا وخيالنا. وليس من شك أن «ألبيرتين» لم تظل بالنسبة إليّ، حتى قبل أن تحضر إلى حفلة بعد الظهر تلك، ذاك الشبح الوحيد الجدير بملازمة حياتنا والذي تمثله عابرة سبيل لا نعرف عنها شيئاً وما كانا نميز ملامحها.

كانت قرابتها بالسيّدة «بونتان» قد سبق أن قلّصت تلك الفرضيات المثيرة إذ سدّت أحد السبل التي يمكن أن تنتشر فوقها. فبقدر ما كنت أقترب من الفتاة وتزداد معرفتي بها كانت تلك المعرفة تتم عن طريق عملية الطرح، إذ تحلّ محل كلّ جزء من الخيال والرغبة فكرة تساوي أقل منهما بكثير، فكرة كان ينضاف إليها بالحقيقة ما يوازي، في مجال الحياة، ما تمنحه بعض الشركات المالية بعد تسديد السهم الأصلي وتدعوه سهم الانتفاع. لقد كان اسمها وصلات القربى لديها حدّاً أوّلياً يحدّ افتراضاتي، وكان لطفها، فيما كنت ألقى بالقرب منها شامتها الصغيرة على الخد تحت العين، حداً آخر. وأخيراً أدهشني أن أسمعها تستعمل العبارة الظريفة «على أكمل وجه» بدلاً من «تماماً» وهي تتحدث عن شخصين فتقول عن الواحد «إنه مجنون على أكمل وجه ولكنه لطيف جداً مع ذلك»، وعن الآخر «إنه سيد عادي على أكمل وجه وممل على أكمل وجه». ومهما يكون من أن استعمال «على أكمل وجه» هذا قليل الاستحسان فإنه يشير إلى درجة من الحضارة والثقافة ما كنت أستطيع أن أتصور أن راقصة الدراجة وربة الغولف الماجنة تبلغها. ولم يحل ذلك على أية حال دون أن تتغيّر «ألبيرتين» مرات عديدة أيضاً بالنسبة إليّ بعد هذا التحول الأول. فالصفات والعيوب التي يبرزها كائن ما مرتّبة في أماميّة وجهه إنما تتراصف وفق تشكيل مختلف تماماً إن نظرنا إليه من جانب مختلف، مثلما الأبنية التي تنتشر في نظام مبعثر على خط واحد في إحدى المدن تتدرج في العمق من وجهة نظر ثانية وتتبادل أحجامها النسبية. فقد ألفيت «ألبيرتين» في البداية وجلة بعض الشيء بدلاً من صلابة المظهر، وبدت لي لائقة أكثر منها سيئة

التهذيب إن انطلقنا في حكمنا من العبارات التي وسمتْ بها جميع الفتيات اللواتي حدثتُها عنهن: «إنها سيّئة التصرف»، إنها «غريبة الأطوار». وكان ما يجلب النظر في وجهها صدغ على شيء من الاحمرار ولا تروقك رؤيته، لا تلك النظرة الفريدة التي كنت أعاود التفكير فيها على الدوام حتى ذاك. بيد أن تلك محض رؤية ثانية وكان ثمة غيرها دون شك مما سوف أنتقل إليها على التوالي. وهكذا لا يمكننا الوصول إلى معرفة كائن معرفة دقيقة، إن كانت تلك المعرفة ممكنة، إلا بعد ما نتعرّف الأخطاء البصرية الأولى، ولا يتم ذلك دون تلمس وتردد. على أن تلك المعرفة غير ممكنة، ذلك أنه فيما يتم تصويب النظرة التي أخذناها عنه يتبدل هو لحسابه الخاص بما أنه ليس هدفاً جامداً، ونحسب أننا نلحق به فيبدل مكانه، وإذ نظن في النهاية أننا نراه على نحو أوضح فإنما أفلحنا في توضيح محض الصور القديمة التي سبق أن أخذناها عنه ولكنها لم تعد تمثله.

بيد أن ذلك المسعى إلى ما لمحناه فحسب، وما صرفنا وقتاً كافياً في تخيله، إن ذلك المسعى، أية كانت الخيبات المحتمة التي لا بدّ يحملها معه، هو الوحيد الذي يتسم بالصواب بالنسبة إلى الحواس ويغذّي فيها الشوق إليه. فأي سأم حزين يطبع حياة الناس الذين يمضون مباشرة في عربة، بداعي الكسلٍ أو الخجل، لدى أصدقاء عرفوهم دون أن يكونوا حلموا بهم من قبل ودون أن يجرؤوا البتة أن يتوقفوا على الطريق بالقرب مما يشتهون!

وعدت إلى المنزل وأنا أفكّر في حفلة بعد الظهر تلك وأعود فأرى قطعة الحلوى بالقهوة التي فرغت في تناولها قبل أن أدع لِـ«إيلستير» أن يصحبني بالقرب من «ألبيرتين» والوردة التي أعطيتها للسيد العجوز، وجميع تلك الجزئيات التي تنتقيها الظروف على غير علم منا والتي تؤلف بالنسبة إلينا ضمن ترتيب خاص وعرضي لوحة اللقاء الأول، بيد أنه خيل إليّ أنّي أبصر تلك اللوحة من زاوية أخرى ومن نقطة بعيدة جداً عني فأدركت أنه لم يكن موجوداً بالنسبة إليّ فحسب حينما كنت أروي

لِـ«ألبيرتين» بعد بضعة شهور عن أول يوم عرفتها فيه فذكّرتني، وأثارت دهشتي الشديدة، بقطعة الحلوى والزهرة التي أعطيتها وكل ما كنت أحسب أنه لا يهم أحداً سواي، إذ لا يمكن أن أقول ذلك، بل إنه لم يشاهده سواي ووجدته على هذا النحو منقولاً على نسخة ثانية ما كنت أرتاب بوجودها في فكر «ألبيرتين». لقد أدركت منذ ذلك اليوم الأول، حينما استطعت أن أبصر لدى العودة الذكرى التي كنت أحملها، أية خدعة تم تنفيذها ببراعة وكيف تحدثت فترة إلى شخص حل محلها بفضل مهارة المشعوذ ودون أن يحمل شيئاً من ذاك الذي لاحقته زمناً طويلاً على شاطئ البحر. كان بوسعي على أي حال أن أستشفّ ذلك بما أن فتاة الشاطئ قد صنعتها يداي. بيد أني كنت أحس على الرغم من ذلك، بما أني ماثلت في حديثي مع «إيلستير» بينها وبين «ألبيرتين»، كنت أحس إزاء هذه الأخيرة بالتزامي الأدبي بالبر بوعود الحب التي قطعتها لِـ«ألبيرتين» الوهمية. تتم خطوبة بالوكالة ويحسب المرء نفسه ملزماً بالزواج فيما بعد من الشخص الوسيط. ولئن زال من حياتي على نحن مؤقت على الأقل قلق كانت ذكرى التصرّفات اللائقة وعبارة «عادي على أكمل وجه» والصدغ الذي تكسوه الحمرة كافية لتهدئته، فقد كانت تلك الذكرى توقظ فيّ نوعاً آخر من الرغبة كان يمكن، مع أنها عذبة لا ألم فيها على الإطلاق وأشبه بعاطفة أخوية، أن تصبح على مر الأيام في مثل خطورة تلك، إذ تبعث في نفسي في كل لحظة الحاجة إلى تقبيل هذه الشخصية الجديدة التي كانت تصرفاتها اللائقة وخجلها وجاهزيتها اللامتوقعة تضع حداً لانطلاقة خيالي اللامجدية ولكنها تبعث فيّ امتناناً يلوّنه الحنان. وبما أن الذاكرة تشرع في الحال في أخذ صورة يستقلّ بعضها عن بعضها الآخر وتزيل أية رابطة وأي تطور بين المشاهد الممثلة فيها، فإن آخر صورة في المجموعة التي تعرضها لا تقضي حتماً على ما سبقها منها. فقد كنت أرى قبالة «ألبيرتين» العادية المؤثرة التي تحدثت إليها «ألبيرتين» الغامضة قبالة البحر. لقد أضحتا الآن ذكريات. أي لوحات لا تبدو لي إحداها أكثر حقيقية من غيرها. وكيما

أجيء على نهاية أمسية التعارف الأولى تلك فقد ذكرت، وأنا أحاول أن أرى ثانية الشامة الصغيرة فوق الخد تحت العين، أنني رأيت الشامة من منزل «إيلستير»، حينما ذهبت «ألبيرتين»، فوق الذقن. كنت ألاحظ باختصار القول، حينما أراها، أن لها شامة ولكن ذاكرتي التائهة كانت تنقّلها بعد ذلك على وجه «ألبيرتين» وتضعها ههنا تارة وطوراً هناك.

وعبثاً يخيب أملي بعض الشيء من أنني ألفيت الآنسة «سيمونيه» فتاة قليلة الاختلاف عن كل ما كنت أعرفه. فمثلما لم تحلّ خيبة ظني أمام كنيسة «بالبيك» دون رغبتي في الذهاب إلى «كامبيرليه» و«بونتافن» و«البندقية»، كذلك كنت أقول في نفسي إنه سوف يسعني بطريق «ألبيرتين» على الأقل أن أعرف صديقاتها في المجموعة الصغيرة، إن كانت هي نفسها غير ما أمّلت أن تكون.

وظننت بادئ الأمر أني سأخفق. فقد رأيت من الخير لي ألا أحاول كثيراً رؤيتها وأن أنتظر فرصة يتوافر لي بها لقاؤها بما أنها ستمكث فترة طويلة في «بالبيك» وسأمكث كذلك. بيد أني خشيت أشد الخشية، حتى إن اتفق لي الأمر كل يوم، أن تكتفي بالرد على تحيتي من بعيد، تلك التحية التي لن تفيدني في شيء إن تكررت يومياً على تلك الحال طوال الفصل.

وبعد ذلك بوقت قليل اقتربت مني على السد، ذات صباح سبق أن تساقط فيه المطر وكان الطقس بارداً تقريباً، فتاة ترتدي قبعة صغيرة وفروة لليدين وكانت شديدة الاختلاف عن تلك التي رأيتها في اجتماع «إيلستير» حتى ليبدو تعرّف الشخص نفسه فيها عملية مستحيلة بالنسبة إلى الفكر. بيد أن فكري أفلح في ذلك، ولكن بعد ثانية من الذهول لم تخفَ عليّ «ألبيرتين» فيما أعتقد. ثم إنها جعلتني أحس من جهة ثانية، وأنا أذكر في تلك اللحظة «التصرفات اللائقة» التي سبق أن أدهشتني، بالدهشة المعاكسة من جراء لهجتها القاسية وأسلوبها الذي يتسم بطابع «المجموعة الصغيرة». وكان الصدغ على أية حال قد كفّ عن كونه المركز البصري المطمئن في الوجه، إما لأني كنت أقف في الجهة الأخرى وإما لأن القبعة غطته، وإما

لأن الالتهاب لم يكن دائماً. وقالت لي: «أي طقس هذا! الحقيقة أن صيف «بالبيك» الذي لا ينتهي مزحة كبيرة. ألا تفعل شيئاً ههنا؟ فما نراك البتة في الغولف ولا في حفلات الكازينو الراقصة، وأنت لا تمارس كذلك ركوب الخيل. كما ينبغي أن تحس بالملل! ألست ترى أن المرء «يتبلّد» في البقاء طوال الوقت على الشاطئ؟ آه! إنك تحب الشمس طويلاً؟ لديك متسع من الوقت على أية حال. وأرى أنك لست مثلي، فإني أعشق جميع أنواع الرياضة! ألم تحضر مسابقات نهر الـ«سونيي»؟

لقد ذهبنا إلى هناك بالترام وإني أدرك أنك لا تجد سلوى في استقلال «طمبر» من هذا القبيل! لقد استغرق المشوار ساعتين! ولعلي كنت أقطع المسافة ثلاث مرّات ذهاباً وإياباً على دراجتي النارية». «لقد أحسست بالرهبة من جراء السهولة التي كانت تقول بها «ألبيرتين» الترام و«الطمبر»، أنا الذي سبق أن أعجب بـ«سان لو» حينما دعا على نحو طبيعي جداً بـ«ذي اللفّات» القطار الصغير المحلي بسبب العطفات التي لا حصر لها في طريقه. كنت أحس بتفوقها في صيغة من التسميات خشيتُ أن تلاحظ تدني مستواي فيها وتزدريه. أضف أن فيض المترادفات التي تملكها المجموعة الصغيرة للدلالة على هذا القطار لم يتكشف لي بعد. كانت «ألبيرتين» في حديثها تظل ثابتة الرأس مُضَيّقَةَ المنخرين لا تحرك إلا طرفي شفتيها، فكان ينجم عن ذلك لهجة متباطئة فيها خنّة ربما تضافرت في تأليفها صفات ريفية وراثية ونزعة الشباب إلى تصنع رباطة الجأش البريطانية ودروس معلمة أجنبية وتضخم احتقاني في غشاء الأنف. كان يمكن أن يبدو ذلك الصوت مقيتاً، وسرعان ما كان يتراجع حينما تزداد معرفتها بالناس ويعود طفولياً بطبيعته. إلا أنه كان فريداً وكان يفتنني. وفي كل مرة تمر بي بضعة أيام دون أن ألقاها كنت أستثير ذاتي وأنا أردد لنفسي: «لا نراك البتة في الغولف» بالصوت الأخنّ الذي قالتها به منتصبة القامة لا تحرك رأسها. وكنت أحسب حينذاك أن ليس من كان أكثر اشتهاء.

كنا نؤلف في ذلك الصباح واحداً من تلك الأزواج التي تزيّن السدّ

ههنا وهناك باجتماعها وتوقفها لمجرّد تبادل بعض عبارات قبل الافتراق ليعاود كل على حدة نزهته المختلفة. وقد أفدت من ذلك الجمود لأبصر وأعلم نهائياً موقع الشامة. ومثلما تم لي بشأن جملة لِ«فانتوي» كانت قد فتنتني في السوناتا وظلّت ذاكرتي تنقّلها من البداية إلى الختام إلى اليوم الذي استطعت فيه، والتوزيع في يدي، أن أجدها وأثبّتها داخل ذاكرتي في مكانها في حركة الشيرتزو، كذلك الشامة التي تذكرتها على الخد تارة وعلى الذقن أخرى توقفت نهائياً على الشفة العليا تحت الأنف. كذلك يتّفق لنا أن نلقي بدهشة أبياتاً نعرفها عن ظهر قلب مقطوعة ما كنا نرتاب بوجودها فيها.

وفي تلك اللحظة، وكأنما لتتكاثر بملء الحرية أمام البحر المجموعة التزيينية الغنية التي يؤلفها إلى تنوع أشكالها مرور موكب العذارى الجميل. العذارى المقمّرات والموردات في آن معاً وقد أحرقتهنّ الشمس والريح، وقامت صديقات «ألبيرتين» ذوات السيقان الجميلة والقامات الطيّعة، بيد أنهن شديدات الاختلاف بعضهن عن بعض، بإبراز زمرتهن التي انتشرت وتقدمت في اتجاهنا أكثر قرباً من البحر وعلى خط يوازيه. واستأذنت «ألبيرتين» في أن أرافقها بضع لحظات. ولكنها للأسف اكتفت بأن حيتهنّ بيدها. فقلت لها: «ولكن صديقاتك سوف يتذمرن إن تركتهنّ» آملاً أن نقوم بنزهة معاً.

واقترب منا شاب منتظم القسمات يمسك بيده مضربين. وكان لاعب «البكارا» الذي كانت حماقاته تثير سخط زوجة رئيس المحكمة الأول. وحيّا «ألبيرتين» بهيئة جافة لامبالية كان يتصور بالطبع أن أقصى التأنق قائم عليها. فسألته قائلة: «هل أنت آت من الغولف يا «أوكتاف»؟ وهل سارت الأمور على ما يرام؟ وهل كنت في أحسن أحوالك؟» فأجاب: «أوه! ذلك يقرفني، فإنني في مأزق».

- «وهل كانت «آندريه» هناك؟» - «أجل. وقد سجلت سبعاً وسبعين».

- «أوه! هذا رقم قياسي». - «سبق أن سجلتُ البارحة اثنتين وثمانين».

لقد كان ابن صناعي شديد الثراء لا بدّ يضطلع بدور على شيء من الأهمية في تنظيم المعرض العالمي المقبل. وقد أذهلني إلى أي مدى تنامت لدى هذا الشاب والأصدقاء الذكور الآخرين القليلين جداً لتلك الفتيات معرفة كل ما كان من قبيل الملابس وطريقة ارتدائها وأصناف السيكار والمشروبات الإنكليزية والجياد - والتي كان يملكها حتى أدق تفاصيلها بمعصومية متعالية تبلغ حد تواضع العالم وصمته - تنامت بمعزل عن غيرها ودون أن يرافقها أقل ثقافة فكرية. فما كان يتردد البتة بشأن ملاءمة «السموكن» أو البيجامة ولكنه لا يرتاب بالحالة التي يمكن فيها استخدام هذه الكلمة أو تلك أو لا يمكن، وحتى بأبسط قواعد الفرنسيّة. كان لا بدَّ أن يكون هذا التفاوت بين الثقافتين واحداً لدى والده رئيس نقابة الملاكين في «بالبيك»، فقد كان يقول في رسالة مفتوحة إلى الناخبين أَمَرَ منذ حين بلصقها على جميع الجدران: «لقد أردت أن أرى المختار «لأكلمه» فيها فلم يشأ الإصغاء لشكواي العادلة». كان «أوكتاف» يحوز في المقصف جوائز في جميع مسابقات «البوسطن» و«التانغو»، إلخ. ، الأمر الذي يساعده، لو شاء ذلك، على إتمام زواج مغرٍ في وسط «حمامات البحر» هذا حيث تتبنى الفتيات «مراقصهن» بالمعنى الحقيقي لا المجازيّ. وأشعل سيكاراً وهو يقول لِـ«ألبيرتين»: «تسمحين» مثلما يستأذن امرؤ في إنهاء عمل مستعجل فيما هو يتحدث. ذلك أنه لا يستطيع البتة «أن يظل دون أن يفعل شيئاً» مع أنه لم يفعل شيئاً في يوم. وبما أن البطالة التامة تملك في النهاية آثار العمل الزائد عن الحد نفسها في المجال النفسي وفي حياة الجسم والعضلات سواء بسواء، فقد بلغ الأمر بالعدم الفكري الذي كان يسكن خلف جبين «أوكتاف» الحالم أن أورثه، على الرغم من مظهره الهادئ، رغبة شديدة وغير مجدية في التفكير كانت تحول دون أن ينام الليل مثلما قد يتفق ذلك لميتافزيقي مجهد.

وإذ فكّرت أني إن عرفت أصدقاء تلك الفتيات فسوف تزداد فرص لقائي بهنّ أوشكت أن أطلب إليها أن تعرّفني به. وقلت ذلك لِـ«ألبيرتين» حالما ذهب وأنا أردّد قائلاً: «إنّني واقع في مأزق». وكنت أفكّر أن أغرس في ذهنها فكرة القيام بذلك في المرة القادمة. فصاحت قائلة: «ويحك! لا أستطيع أن أقدّمك لعاشق نساء ثَريّات. فههنا يعجّ المكان بأمثالهم! ولكنهم ربّما لم يستطيعوا التحدّث إليك. إنّ هذا الأخير يجيد اللعب بالغولف لا أكثر. إني خبيرة بهذا الأمر، لن يوافق ذوقك على الإطلاق». وقلت لها: «سوف تتذمّر صديقاتك إن تركتهن على هذا النحو»، آملاً أنها ستقترح عليّ المضيّ معها للحاق بهنّ. - «دعك من هذا، فلسن بحاجة إليّ». «والتقينا بِـ«بلوك» الذي وجّه إليّ ابتسامة رقيقة ذات مغزى وإذ ارتبك بشأن «ألبيرتين» التي لم يكن يعرفها، أو هو على الأقل كان يعرفها «دون أن يعرفها»، فقد خفض رأسه صوب ياقته بحركة قاسية غليظة. سألتني «ألبيرتين»: «هذا البربريّ ما اسمه؟ لست أدري لماذا يحييني وهو لا يعرفني. ولذلك لم أردّ له تحيّته». ولم يتسع لي الوقت لأجيب «ألبيرتين» إذ قال وهو يتجه مباشرة إلينا: «أستميحك عذراً لمقاطعتك ولكنيّ أردت أن أنبّهك إلى أنيّ ذاهب غداً إلى «دونسيير». لست أستطيع الانتظار من بعد دون إخلال بالأدب، وأتساءل ما عسى «سان لو آن بريه» يظنّ بي. وإني أنبّهك إلى أنّي سأستقل قطار الساعة الثانية، وأنا رهن إشارتك». ولكنيّ لم أعد أفكّر إلّا في لقاء «ألبيرتين» ومحاولة التعرّف بصديقاتها، «ودونسيير» كانت تبدو لي في أقاصي العالم بما أنهنّ لا يذهبن إليها، وربّما جعلتني أعود بعد الساعة التي يذهبن فيها إلى الشاطئ، وقلت لِـ«بلوك» إنّ الأمر يستحيل عليّ. «حسن، سأذهب وحدي. وسأقول لِـ«سان لو»، حسبما ورد في البيتين المضحكين الذين كتبهما السيّد «آروييه»[١]، وذلك بغية إبهاج نزعته الإكليروسية:

---

(١) Arouet اسم «فولتير» الحقيقي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«اعلم أنّ واجبي لا يرتبط بواجبه
فليخلف به إن شاء، أمّا أنا فينبغي أن أؤدّيه.»

وقالت لي «ألبيرتين»:

- «أعترفُ أنّه شابّ جميل نوعاً ما، ولكن كم يثير قرفي!»

لم أفكّر في يوم أنه يمكن لِـ«بلوك» أن يكون شاباً وسيماً، وقد كانه بالحقيقة. فقد كان له وجه محبّب، إلى جانب رأس على شيء من البروز وأنف شديد العقفة ومظهر بالغ اللطافة واقتناع بلطافته. ولكنّه ما كان يستطيع أن يروق «ألبيرتين». وربّما كان ذلك على أيّة حال بسبب الجوانب السيّئة لدى هذه الأخيرة، بسبب قسوة المجموعة الصغيرة وقلّة إحساسها وفظاظتها مع كلّ ما كان سواها. وحينما قمت فيما بعد بالتعارف بينهما لم يتناقص نفور «ألبيرتين». كان «بلوك» ينتمي إلى وسط جعلوا فيه بين الهزء من العالم الراقي والاحترام الكافي الذي لا بدّ مع ذلك أن يبديه رجل «نظيف اليدين» تجاه السلوك اللائق نوعاً من الحلّ الوسط الخاصّ يختلف عن سلوك المجتمع الراقي، وهو مع ذلك نوع من السلوك الاجتماعي ينفرد ببشاعته، فحينما كانوا يقدّمونه كان ينحني بابتسامة يداخلها الارتياب والاحترام المفرط في الآن نفسه ويقول إن تعلق الأمر برجل: «أنا في غاية الغبطة يا سيّدي» بصوت يهزأ من الكلمات التي يتفوّه بها ولكنّه يعي أنّه لرجل لا يتّسم بالفظاظة. وما إن تنقضي هذه الثانية الأولى التي يكرّسها لعرفٍ كان يتّبعه ويهزأ منه في الآن نفسه (على نحو ما كان يقول في الأول من كانون الثاني: «أتمنّى لك فيها الخير والسعادة») حتى يتّخذ هيئة رقيقة ماكرة و«يتفوّه بأشياء حاذقة» كانت في الغالب تفيض حقيقة ولكنّها «تستثير أعصاب» «ألبيرتين». وحينما قلت لها في ذلك اليوم الأوّل إنّه يدعى «بلوك» صاحت قائلة: «كنت أراهن أنه يهوديّ، فتلك طريقتهم في الملازمة والترامي». كان «بلوك» على أيّة حال سوف يثير سخط «ألبيرتين» فيما بعد بطريقة أخرى، فقد كان شأن العديد من المثقفين لا يستطيع أن

يقول الأمور البسيطة ببساطة، وإذ يجد لكل منها نعتاً يتّسم بالحذلقة ثم يبادر إلى التعميم. وكان ذلك يزعج «ألبيرتين» التي لا تحبّ كثيراً أن يهتمّ الناس بما تفعل، وأن يقول «بلوك» بعد ما لوت قدمها ولزمت الهدوء: «إنّها على مقعدها الطويل ولكنّها لا تكفّ، بداعي تعدّد الحضور، عن أن ترتاد في الآن نفسه ملاعب غولف غامضة وملاعب كرة مضرب عاديّة». كان ذلك محض «كلام مرصوف» ولكنّه ربما كان كافياً، بسبب الصعوبات التي تحسّ «ألبيرتين» أنّ الأمر يمكن أن يجلبها لها مع أناس سبق لها أن رفضت دعوتهم بقولها إنّها لا تستطيع الحركة، كيما تنفر فجأة من سحنة الشاب الذي كان يقول تلك الأمور ومن رنّة صوته.

وافترقنا أنا و«ألبيرتين» وقد تواعدنا على الخروج مرّة معاً، لقد تحدّثت إليها دون أن أدري أين تسقط أقوالي وما تنقلب إليه أكثر مما يتفق لي ذلك لو ألقيت حصى في هاوية لا قرارة لها. فأمّا أن يتمّ ملؤها بعامّة على يد الشخص الذي نوجّهها إليه بمعنى يستخلصه من جوهره الخاصّ وهو شديد الاختلاف عن ذاك الذي ضمّناه تلك الأقوال نفسها فأمر تكشفه لنا الحياة اليومية باستمرار. فإن اتّفق إلى ذلك أن نكون بجانب شخص تربيته مستعصية علينا (كتربية «ألبيرتين» بالنسبة إليّ) ومجهولة ميوله وقراءاته ومبادئه، فلسنا ندري إن كانت أقوالنا توقظ في نفسه ما يشبهها أكثر ممّا تفعل لدى حيوان قد يقع علينا مع ذلك أن نفهمه بعض الأمور، حتى لتبدو لي محاولة ارتباطي بصداقة «ألبيرتين» كمثل اتّصال بالمجهول إن لم نقل بالمستحيل، وكمثل تمرين صعب صعوبة ترويض حصان، ممتع إمتاع تربية النحل أو زراعة شجيرات الورد.

لقد سبق أن ظننت لساعات خلت أنّ «ألبيرتين» لن تردّ على تحيّتي إلّا من بعيد، فإذا بنا نفترق منذ قليل وقد عزمنا على رحلة نقوم بها معاً. وقرّرت أن أكون أكثر جرأة مع «ألبيرتين» حينما ألتقي بها ورسمت لنفسي سلفاً خطة كلّ ما سوف أقوله لها وحتى كلّ المتع التي سوف أطلبها منها (الآن وقد تولد لديّ الانطباع التامّ بأنها لا بدَّ من النمط اللعوب). ولكنّ

الفكر يتأثّر كالنبات، كالخليّة، كالعناصر الكيميائيّة، وأمّا الوسط الذي يبدّله إن غُمس فيه فظروف وإطار جديد. فحينما وجدتني ثانية بصحبة «ألبيرتين» قلت لها، وقد أضحيت مختلفاً من جرّاء حضورها ذاته، غير ما سبق أن رسمت. ثم تساءلت وقد تذكرت الصدغ الملتهب، إن كانت «ألبيرتين» لن تقدّر أكثر من ذلك تلطّفاً تعلم أنه خالي الغرض. وكنت أخيراً أحسّ بالحيرة إزاء بعض نظراتها وابتساماتها. فقد كان يمكن أن تدلّ على خفة في الأخلاق وكذلك على مرح يشوبه شيء من البلاهة لدى فتاة تستهويك حيويّتها ولكنّها تملك أساساً من الاستقامة. ولما كان التعبير نفسه يمكن أن يحتمل معاني مختلفة في الوجه كما في اللغة فقد كنت حائراً كتلميذ إزاء صعوبات ترجمة عن اليونانية.

والتقينا في الحال تقريباً في تلك المرّة «آندريه» الطويلة القامة، تلك التي سبق أن قفزت من فوق رئيس المحكمة الأول. واضطرّت «ألبيرتين» أن تعرّفني بها. وكان لصديقتها عينان فاتحتان إلى حدّ مدهش مثلما هو المدخل في شقّة ظليلة من الباب المفتوح إلى غرفة يتخللها ضياء الشمس وانعكاس خضرة البحر الذي يغمره النور.

ومرّ خمسة رجال كنت أعرفهم أتمّ المعرفة بالوجه منذ إقامتي في «بالبيك»، وكثيراً ما تساءلت من يكونون. وقالت لي «ألبيرتين» في قهقهة يلوّنها الازدراء:

«ليسوا جماعة على قسط كبير من اللطف. أما العجوز القصير القامة المخضّب الشعر الذي يضع قفّازين أصفرين فإنّ عليه مسحة خاصة وهو حسن الهيئة، ألا ترى: إنه طبيب الأسنان في «بالبيك». وأمّا السمين فهو المختار، لا ذاك السمين الشديد القصر فلا بدّ أنّك رأيت هذا الأخير، إنّه أستاذ الرقص وهو كذلك على شيء من القبح ولا يطيق احتمالنا لأنّنا نثير الكثير من الضجيج في المقصف ونقضي على مقاعده ونبغي الرقص دون سجّادة ولم يمنحنا لذلك الجائزة البتّة مع أنّه ليس من يحسن الرقص سوانا. إنّ طبيب الأسنان رجل طيّب القلب ولعلّني كنت حييته لأثير سخط

أستاذ الرقص، ولكنّني ما كنت أستطيع لأنّ معهم السيد «دو سانت كروا» المستشار العام وهو رجل من عائلة كريمة جداً انحاز إلى جانب الجمهوريّين لقاء مال. ولم يعد يلقي عليه التحيّة أيّ شخص نظيف اليد. إنه يعرف عمّي بسبب الحكومة ولكنّ بقية الأسرة أولته ظهرها. أمّا الهزيل الذي يرتدي مشمعاً فقائد الفرقة الموسيقية. ويحك، كيف لا تعرفه! إنّه يعزف أروع العزف. ألم تذهب لسماع «**خيّالة الريف**»[1]؟ آه! إنّي أجد ذلك رائعاً! إنّه يقدّم حفلة عزف هذا المساء ولكنّنا لا نستطيع الذهاب إليها لأنها تقام في قاعة دار البلديّة. لا بأس علينا في المقصف، أمّا في دار البلديّة التي نزعوا منها المسيح فسوف تصاب والدة «آندريه» بالسكتة إن ذهبنا إليها. ستقول لي إنّ زوج خالتي في الحكومة. ولكن ما عساك تريد؟ إن خالتي تظلّ خالتي. ولكنّي ما من أجل ذلك أحبها! فلم تراودها البتّة سوى رغبة واحدة: أن تتخلّص منيّ. أمّا المرأة التي كانت حقّاً بمثابة والدتي والتي كانت مزدوجة الفضل بما أنها لا تمثّل شيئاً بالنسبة إليّ فصديقة أحبّها على أية حال بمثابة أمّ، وسوف أريك صورتها». واستحوذ على انتباهنا لحظة «أوكتاف» بطل الغولف ولاعب البكارا. وظننت أنّي اكتشفت رابطة قربى بيننا لأنني علمت في أثناء الحديث أنّه على قرابة بآل «فيردوران» وأنهم إلى ذلك يكنّون له بعض الحبّ. ولكنّه روى بازدراء عن أيّام الأربعاء المشهورة وأضاف أنّ السيّد «فيردوران» يجهل استعمال السموكن الأمر الذي يجعل لقاءه مزعجاً في بعض المسارح الغنائيّة حيث تفضّل إلى حدّ بعيد ألّا يسمع صيحة: «مرحباً يا فتى» يطلقها سيّد يرتدي سترة وربطة عنق يرتديهما كاتب عدل في قرية. ثمّ فارقنا «أوكتاف»، وبعد قليل جاء دور «آندريه» التي وصلت أمام دارتها حيث دخلت دون أن تكون قالت لي كلمة واحدة طوال المشوار بكامله. وزاد من أسفي لذهابها أن

---

(١) Cavalleria Rusticana أوبرا غنائية من أعمال المؤلف «ماسكانيي» (Mascagni).

مرّت، فيما كنت ألفت انتباه «ألبيرتين» إلى أيّ حدّ بدت صديقتها جافّة معي وأقارب بين الصعوبة في حدّ ذاتها التي يبدو أنّ «ألبيرتين» تعاني منها في إفساح المجال لي لمصادقة رفيقاتها والعداء الذي بدا أن «إيلستير» اصطدم به في اليوم الأوّل، وذلك كيما تستجاب أمنيتي، مرّت فتيات حيّيتهنّ وهنّ الآنسات «دامبروساك»، وقد حيّتهنّ «ألبيرتين» بدورها.

وظننت أنّ وضعي إزاء «ألبيرتين» سوف يتحسّن بذلك. لقد كنّ بنات إحدى قريبات السيّدة «دو فيلباريسيس» وكانت تعرف بدورها السيّدة «دو لوكسمبور». كان السيّد «دامبروساك» وعقيلته يملكان دارة صغيرة في «بالبيك» وكانا يعيشان حياة من أكثرها بساطة. وهما فاحشا الثراء، ويرتديان على الدوام السترة نفسها بالنسبة إلى الزوج وفستاناً عاتماً بالنسبة إلى الزوجة. وكان كلاهما يؤدّيان لجدّتي تحيّات واسعة لا تفضي إلى شيء. أمّا البنات، وهنّ في غاية الجمال، فكانت ملابسهن أكثر أناقة، ولكنّها أناقة المدينة لا الشاطئ. كان يبدو عليهنّ، بفساتينهنّ الطويلة وقبّعاتهنّ الواسعة، وكأنهنّ ينتمين إلى صنف بشري يغاير صنف «ألبيرتين». وكانت هذه الأخيرة تعلم تمام العلم من هنّ. «آه! إنك تعرف بنات «دامبروساك» الصغيرات؟ فأنت تعرف جماعة في غاية الأناقة». وأضافت كما لو كان في الأمر تناقض: «وهم على أيّة حال في غاية البساطة. إنهنّ لطيفات جدّاً ولكنّما أُحسن تهذيبهنّ إلى حدّ أنّه لا يُسمح لهنّ بالذهاب إلى المقصف ولا سيّما بسببنا، لأنّ تصرّفنا لا يروق البتّة في المجتمع. هل يعجبنك؟ بالطبع، المسألة مسألة ذوق. إنهن بالضبط صنف الفتيات البريئات، وربّما كان للأمر سحره الخاص، فإن كنت تحبّ الفتيات الصغيرات البريئات فإنّ لك ما تشتهي. والظاهر أنّ بوسعهنّ إثارة الإعجاب بما أن إحداهن مخطوبة للمركيز «دو سان لو»، وقد أورث الأمر الصغرى غمّاً كثيراً إذ كانت مولعة بذاك الشابّ. أمّا أنا فإنّما يُثير أعصابي محض طريقتهم في التحدّث من طرف الشفتين. ثمّ إنهن يتزينّ بأزياء مضحكة، فيذهبن إلى الغولف بفساتين من حرير. إنّهن يتأنّقن في ملبسهنّ

بتصنع يفوق ما يتّفق لنسوة مسنّات أتقنّ فنّ اللباس. هاك السيّدة «إيلستير»، فتلك امرأة أنيقة». فأجبت أنّها بدت لي شديدة البساطة في ملبسها. فأخذت «ألبيرتين» في الضحك. «إنّها ترتدي ملابس في غاية البساطة بالفعل ولكنّها تلبس بطريقة رائعة وهي تنفق إنفاقاً عظيماً كي تصل إلى ما نرى أنّه من البساطة». كانت أثواب السيّدة «إيلستير» لا تسترعي انتباه من لا يملك الذوق السليم والمعتدل في أمور الملبس، وكان يعوزني. أمّا «إيلستير» فكان يملكه إلى أقصى درجاته حسبما قالت لي «ألبيرتين». ولم أكن ارتبت بالأمر ولا بأن الأشياء الأنيقة والبسيطة التي تملأ مرسمه كانت روائع طالما اشتهاها ولاحقها من صفقة إلى أخرى فأحاط بكامل تاريخها إلى اليوم الذي كسب فيه ما يكفي من المال ليتمكّن من امتلاكها. ولكنّ «ألبيرتين»، وهي في مثل جهلي بهذا الشأن، لم تكن تستطيع أن تعلّمني شيئاً. أمّا بشأن الملابس، وقد بصّرتها بذلك غريزة الفتاة المغناجة وربّما أسف الفتاة الفقيرة التي تتذوّق بمزيد من التجرد والرقّة لدى الأغنياء ما لا يسعها أن تتزيّن به، فقد عرفتْ كيف تحدّثني أحسن الحديث عن تأنّق «إيلستير»، وهو متشدّد إلى حدّ أنّه كان يجد أيّة امرأة رديئة الملبس وكان إذ يضع دنيا بأسرها في علاقة تَنَاسُبٍ وفي فوارق طفيفة يوصي لامرأته بأثمانٍ باهظة على شمسيّات وقبّعات ومعاطف علّم «ألبيرتين» كيف تجدها ساحرة وما كان لشخص يعوزه الذوق أن ينتبه لها أكثر مما فعلت أنا. وكانت «ألبيرتين» التي انصرفت قليلاً إلى الرسم دون أن يتجّمع لديها على أيّة حال، حسبما تقّر به، أي «استعداد»، كانت تحس بإعجاب كبير تجاه «إيلستير» وقد أصبحت بفضل ما قاله لها وأراها إيّاه خبيرة باللوحات على نحو يناقض إلى حدّ بعيد تحمّسها لِـ«**خيّالة الريف**». ذلك أنّها كانت بالحقيقة شديدة الذكاء، مع أنّ الأمر يكاد لا يُلاحظ بعد، وأنّ الغباء في الأمور التي تقولها لم يكن غباءها، بل غباء وسطها وسنّها. لقد أثّر «إيلستير» فيها تأثيراً خيّراً ولكنّه جزئي. ولم تكن جميع صيغ العقل قد بلغت لدى «ألبيرتين» درجة النمو نفسها، فقد كان ذوقها في الرسم قد لحق

تقريباً بذوقها في أمور الملبس والزينة وجميع أشكال الأناقة ولكنّما لم يلحق به ذوقها في الموسيقى الذي ظلّ بعيداً إلى الوراء.

وعبثاً كانت «ألبيرتين» تعرف من كانت الآنسات «أمبروساك»، ولما كان من يستطيع الكثير لا يستطيع بالضرورة القليل، فإني لم أجدها بعدما حيّيت تلك الفتيات أكثر استعداداً لأن تعرّفني بصديقاتها. «أنت شديد الطيبة في إيلائهن هذه الأهميّة. لا تعرهنّ انتباهك، فَلَسْنَ على شيء. وماذا يمكن أن تمثّل تلك الصبيّات الصغيرات في نظر رجل بمثل قدرك؟ إنّ «آندريه» على الأقلّ مرموقة الذكاء. إنّها بنيّة طيبّة مع أنّها غريبة الأطوار على أكمل وجه، أما الأخريات فهنّ حقاً حمقاوات». وبعدما فارقت «ألبيرتين» انتابني فجأة غمّ كبير أن أخفى «سان لو» عليّ خطوبته وأن اقترف أمراً سيئاً سوء أن يتزوّج دون أن يكون قطع صلاته بعشيقته. بيد أنّه تمّ تقديمي لِـ«آندريه» بعد بضعة أيّام ولمّا تحدّثْتُ فترة طويلة إلى حدّ ما فقد اغتنمت الفرصة لأقول لها إنّني أودّ لقاءها في الغد، ولكنها أجابتني أن الأمر مستحيل لأنّها لقيت والدتها في حالة سيّئة بعض الشيء ولا تودّ أن تدعها وحدها. ولمّا ذهبت بعد يومين لزيارة «إيلستير» حدّثني عن المودّة الكبيرة التي تكنّها لي «آندريه». وإذ أجبته قائلاً: «ولكنّي أنا الذي يكنّ لها الكثير من المودة منذ اليوم الأوّل وقد طلبت إليها أن ألقاها مجدداً في الغد ولكنّها ما كانت تستطيع». فقال لي «إيلستير»: «أجل، إنّي أعرف ذلك فقد روت لي عنه، وقد أسفتْ للأمر، إلّا أنّها سبق أن قبلت دعوة إلى غداء في الهواء الطلق على عشرة فراسخ من هنا وكان ينبغي أن تذهب إلى المكان في عربة عامّة ولم يسعها من بعد أن تعتذر». ومع أنّ الكذبة كانت غير ذات بال، بما أنّ «آندريه» على معرفة قليلة بي، فما كان يجدر بي أن أستمرّ في التردّد على شخص قادر على مثلها. فإنّما يكرّر الناس إلى ما لا نهاية ما قد فعلوه. فإن ذهبتَ في كلّ عام لزيارة صديق لم يستطع المرّات الأولى أن يجيء إلى الموعد الذي حدّدته أو هو أصيب بالزكام فسوف تعود فتلقاه مصاباً بزكام آخر ولن تجده في موعد آخر لم

يجئ إليه لسبب واحد دائم يظنّ أنه يرى مكانه أسباباً مختلفة يستخلصها من الظروف.

وفي صباح أحد الأيّام التي تلت الصباح الذي قالت لي فيه «آندريه» إنّها مضطرّة أن تبقى إلى جانب والدتها كنت أسير بضع خطوات مع «ألبيرتين» التي رأيتها ترفع في طرف حبل صغير شعاراً غريباً كان يجعلها شبيهة بلوحة «عبادة الأصنام» من أعمال «جيوتّو». وإنّما يدعونه على أيّة حال «ديابولو»[(١)]، وقد أدركه العناء إلى حدّ أنّ المعلّقين في المستقبل سوف يمكنهم التحدّث، أمام رسم فتاة تمسك بواحد منها، وكأنّما أمام هذه الصورة الرمزيّة في «الأرينَا»[(٢)]، حول ما تمسك به بيدها. وبعد لحظة جاءت صديقتهنّ ذات المظهر الفقير التي قهقهت في اليوم الأول تقول بلهجة شديدة القسوة: «إنّه يثير شفقتي هذا العجوز المسكين» وهي تتحدث عن السيّد العجوز الذي لامسته قدما «آندريه» الخفيفتان، جاءت تقول لِـ«ألبيرتين»: «مرحبا، تراني أزعجكما؟» وكانت قد خلعت قبّعتها التي كانت تزعجها فإذا شعرها ينسدل على جبينها كمثل نوع نباتّي رائع ومجهول في دقّة أوراقه ونعومتها. ولم تجب «ألبيرتين» بشيء وربّما أثار سخطها أن تراها حاسرة الرأس، وصمتت صمتاً شديد البرودة لم تبرح الأخرى على الرغم منه وقد ظلت على مسافة منّي من جرّاء «ألبيرتين» التي كانت تتدبّر أمرها أحياناً لتبقى وحدها معها وأحياناً لتسير معي فيما تتركها وراءنا. واضطررت كيما تقدّمني أن أسألها ذلك في حضرة الأخرى. حينئذ رأيت في اللحظة التي ذكرتْ فيها اسمي على وجه تلك الفتاة وفي عينيها الزرقاوين، وكنت قد وجدت لها هيئة شديدة القسوة حينما قالت «هذا العجوز المسكين، إنّه يثير شفقتي»، رأيت ابتسامة قلبيّة محبّة تمرّ

---

(١) نوع من الألعاب مؤلف من فكرة على هيئة مخروطين متصلي القمة تقذف إلى أعلى بوساطة حبل مشدود إلى خشبتين. وتستعاد بعد قذفها.

(٢) L'Arena كنيسة صغيرة شهيرة في مدينة بادوفا تزينها رسوم جدارية من أعمال الرسام الإيطالي «جيوتو» (Giotto).

وتشرق، ومدّت لي يدها. كان شعرها مذهباً ولم يكن وحده كذلك، فلئن كانت وجنتاها مورّدتين وعيناها زرقاوين فإنّما كالسماء التي لا تزال تغمرها حمرة الصباح الأرجوانية ويلوح العسجد فيها في كل مكان ويشرق.

وتحمّست في الحال وقلت في نفسي إنّها طفلة خجول آن تحبّ، وإنّها ظلّت معنا من أجلي ومن جراء حبّها لي على الرغم من صنوف جفاء «ألبيرتين»، وإنّها لا بدّ أسعدها أن تستطيع البوح أخيراً بتلك النظرة المشرقة الطيّبة أنّها سوف تكون رقيقة معي بقدر قسوتها إزاء الآخرين. وليس من شكّ أنّها لاحظتني على الشاطئ حتى حينما كنت لا أعرفها بعد وفكّرت فيّ مذ ذاك، وربّما سخرت من الرجل العجوز كيما تثير إعجابي بها وكانت متجهمة الوجه في الأيّام التالية لأنّها لم تفلح في التعرّف بي. لقد سبق أن لمحتها من الفندق تتنزّه في المساء على الشاطئ، والأرجح أنّها كانت تفعل بأمل أن تلتقي بي. ولم تكن الآن تلازم خطانا، وقد ضايقها وجود «ألبيرتين» وحده بقدر ما يتمّ لها من جرّاء وجود كامل المجموعة الصغيرة على الرغم من موقف صديقتها المتعاظم جفاء، إلّا بأمل أن تظلّ الأخيرة وأن تضرب لي موعداً في حينٍ تتوافر لها فيه وسيلة الهرب دون أن تعلم أسرتها وصديقاتها بالأمر وتحديد موعد في مكان أمين قبل القدّاس أو بعد الغولف. وكان يزيد من صعوبة لقائها أنّ «آندريه» كانت على علاقة سيّئة بها وكانت تكرهها. وقالت لي: «لقد احتملت طويلاً زيفها الفظيع وسفالتها والنذالات التي لا تحصى التي اقترفتها بحقّي. لقد احتملت كلّ شيء بسبب الأخريات. ولكنّ السهم الأخير طفح به الكيل». وروت لي عن ثرثرة قامت بها تلك الفتاة وكان يمكن بالفعل أن تسيء إلى «آندريه».

بيد أنّ الأقوال التي وعدتني بها نظرة «جيزيل» للحظة التي تتركنا فيها «ألبيرتين» معاً لم يتم لها أن تُقال، لأنّ «ألبيرتين» التي اتّخذت مكانها بإصرار فيما بيننا تابعت الإجابة باقتضاب متزايد عن أقوال صديقتها ثم

توقّفت نهائياً ممّا حمل هذه الأخيرة في النهاية على هجر المكان. وأنحيت باللائمة على «ألبيرتين» لأنّها كانت مزعجة إلى هذا الحدّ. «سوف يعلّمها ذلك أن تكون أكثر تحفّظاً. ليست فتاة سيّئة ولكنّها مبرمة. وإنّه لا حاجة بها أن تدسّ أنفها أينما كان. فلماذا تلازمنا دون أن يُطلب منها ذلك؟ لقد كنت على وشك أن أطردها. وإنّي أكره على أيّة حال أن تصفّف شعرها على هذا النحو فذلك يجعلها من الصنف المبتذل». كنت أنظر إلى وجنتي «ألبيرتين» فيما كانت تحدّثني وأسائل نفسي أي عطر وأي مذاق يمكن أن يتوافر لهما: لم تكن في ذلك اليوم نضرة البشرة بل كانت ناعمتها ومن لون ورديّ موحّد ضارب إلى البنفسجي قشديّ المظهر شأن بعض الورود التي يكسوها طلاء شمعيّ. لقد كنت شغوفاً بهما شغف المرء أحياناً بنوع من الزهور. وأجبتها قائلاً: «لم ألاحظ ذلك من قبل». - «ولكنّك نظرت إليها بما فيه الكفاية، وكان يخيّل للمرء أنّك تنوي القيام برسمها»، تقول دون أن يهدّئ من فورتها أنّها هي التي كنت أنظر إليها ساعتها بإمعان. «ولست أحسب مع ذلك أنّها تروقك، فليست البتّة غرض مداعبة، ولا بدّ أنّك تحبّ في ما يخصّك نوع الفتيات هذا. لن يتّسع لها من بعد على أيّة حال أن تلازم الناس وأن تُطرد لأنّها عائدة عمّا قليل إلى باريس». - «وهل تعود صديقاتك الأخريات معها؟» - «لا، وحدها تعود فقط، هي ومربّيتها لأنّ عليها أن تعيد امتحاناتها. إنها ذاهبة للدراسة تلك الصبيّة المسكينة. وليس الأمر مفرحاً بالتأكيد فيمكن أن يتّفق أن تقع على موضوع سهل، إذ الصدفة واسعة جدّاً. من ذلك أن إحدى صديقاتنا طرح عليها الموضوع التالي: «اروي عن حادث شهدته». ذلك حظّ كبير. ولكنّي أعرف فتاة كان عليها أن تعالج (كتابياً علاوة على ذلك): «من تفضّلين أن تتّخذيه صديقاً، «ألسيست» أم «فيلانت»؟ لكم كانت تربكني الإجابة عنه! ما ذلك بادئ الأمر، وبصرف النظر عن كل شيء، سؤال يطرح على فتيات. فالفتيات يصادقن فتيات أخريات ولا يعقل أن يتّخذن رجالاً بمثابة أصدقاء. (وبعثت تلك الجملة الرعدة في نفسي إذ برهنت لي أن حظّي كان

قليلاً بالقبول في صفوف المجموعة الصغيرة). ولكن ما عساك تستطيع أن تقول في هذا الموضوع حتى لو طرح السؤال على الشبّان؟ لقد كتبت عدّة أسر لصحيفة «**الغولوا**» شاكية صعوبة مثل هذه الأسئلة. والأنكى أنّ الموضوع عولج مرتين على نحو مناقض تماماً وذلك في مجموعة من خيرة وظائف الطلّاب الفائزين. الكلّ رهن بالفاحص. فقد كان أحدهم يودّ أن يُقال إنّ «فيلانت» رجل مجتمع مداهن ومنافق، وآخر إنّه لا يمكن إلا أن تعجب بـ«ألسيست» إلّا أنّه مشاكس إلى حدّ بعيد ولا بدّ من تفضيل «فيلانت» عليه على صعيد الصداقة. فكيف تريد ألّا يتيه الطلّاب إن كان الأساتذة على خلاف فيما بينهم؟ والأمر لا يزال هيّناً. ففي كلّ عام تتزايد الصعوبة. وقد لا تستطيع «جيزيل» تجاوز الورطة إلّا بدعم قويّ».

وعدت إلى الفندق ولم تكن جدّتي هناك، فانتظرتها طويلاً. وحينما عادت أخيراً توسّلتُ إليها أن تسمح لي بالقيام ضمن شروط تفوق كلّ توقع برحلة ربّما دامت ثماني وأربعين ساعة، وتناولت طعام الغداء معها وأوصيت على عربة وأمرت بنقلي إلى المحطّة. لن تدهش «جيزيل» أن تراني هناك. وبعدما نبدّل القطار في «دونسيير» فإن في قطار باريس «عربة ممرّاً» أستطيع أن أصطحب «جيزيل» فيها، فيما تغفي مربّيتها، إلى زوايا مظلمة وأن أضرب لها موعداً بشأن عودتي إلى باريس أحاول أن أقرّبها ما أمكن التقريب. ثم أرافقها، حسبما تعرب لي عن رغبتها، حتى «كان» أو حتى «إيفرو» وأستقلّ القطار التالي. ومع ذلك ما عساها كانت تظنّ لو علمت أنني تردّدت طويلاً بينها وبين صديقاتها وأنني وددت أن أظفر بحبّها وحبّ «ألبيرتين» والفتاة ذات العينين الفاتحتين و«روزموند» سواء بسواء! بتبكيت الضمير، لذلك وقد أوشك أن يجمعني الآن بـ«جيزيل» حبّ متبادل. كنت أستطيع أن أؤكّد لها على أية حال بمنتهى الصدق أن «ألبيرتين» لم تعد تروقني. فقد رأيتها تبتعد في هذا الصباح لتتحدّث إلى «جيزيل» وهي توليني ظهرها تقريباً. كان شعرها الذي يبدو مختلفاً من الخلف وأشدّ سواداً يلتمع، كما لو غادرت الماء منذ قليل، فوق رأسها

الذي تحنيه في حرد. وذهب بي التفكير إلى شخص رعديد، وجعلني ذلك الشعر أجسّد في «ألبيرتين» روحاً أخرى تغاير ما فعل حتى ذاك وجهها البنفسجي ونظرتها المفعمة بالأسرار. كان شعرها الملتمع خلف رأسها كلّ ما استطعت أن ألمحه منها في لحظة واحدة، وهو وحده الذي ما زلت أراه. وإنّما تشبه ذاكرتنا تلك المخازن التي تعرض في واجهتها لشخص معيّن هذه الصورة مرة وتلك مرة أخرى. وتظلّ أحدثها بالعادة وحدها في مكان بارز بعض الوقت. كنت أصغي فيما يستحثّ الحوذيّ حصانه إلى كلمات الامتنان والحنان التي تقولها لي «جيزيل» وقد انبثقت جميعها من ابتسامتها الحلوة ويدها الممدودة؛ ذلك أنني في فترات حياتي التي لم أكن فيها عاشقاً وأرغب في أن أكون لم أحمل في نفسي فقط مثلاً أعلى في الجمال الجسماني رأينا أني كنت أتعرّفه من بعيد في كلّ عابرة سبيل كافية البعد حتى لا تتعارض ملامحها الغائمة مع تلك المماثلة، بل أحمل أيضاً الطيف النفسي - وهو دائم الأهبة للتجسّد - للمرأة التي ستقع في غرامي والتي ستكون النسخة المطابقة في التمثيليّة الغرامية التي سطّرتها كلّها في ذهني منذ طفولتي والتي تبدو كل فتاة محبّبة راغبة الرغبة نفسها في تمثيلها بشرط أن تتمتّع إلى ذلك بالمواصفات الجسمانية لتلك الوظيفة. وكان سيناريو تلك التمثيلية وحوادثها ونصّها نفسه، كانت كلها تحتفظ بصيغة لا تتبدّل أيّة كانت النجمة الجديدة التي أرشّحها للاضطلاع بالدور لأوّل مرّة أو لإعادته.

وبعد بضعة أيّام على الرغم من الحماسة الزهيدة التي أبدتها «ألبيرتين» في تقديمنا كنت أعرف مجموعة اليوم الأوّل الصغيرة بأسرها، وقد بقيت بكامل أعضائها في «بالبيك» (فيما عدا «جيزيل» التي لم أستطع، من جرّاء وقفة مطوّلة أمام سور المحطّة وتبدّل في مواعيد القطارات، أن ألحق بها في القطار، وقد انطلق خمس دقائق قبل وصولي، والتي لم أعد أفكّر فيها على أيّ حال) بالإضافة إلى اثنتين أو ثلاث من صديقاتهنّ عرّفنني بهنّ بناء على طلبي. ولمّا كان أمل المتعة التي قد ألقاها لدى فتاة

جديدة إنّما يأتيني من فتاة أخرى عرفتها بطريقها، فقد كانت أقربهنّ عهداً تبدو إذ ذاك كواحد من أنواع الورود تلك التي نحصل عليها بفضل وردة من نوع آخر. وإذ كنت أنتقل من تويج إلى آخر في سلسلة الأزهار هذه، فقد كانت متعة التعرّف إلى أخرى مختلفة تردّني إلى تلك التي كنت مديناً بها لها بامتنان يداخله قدر من الشوق يماثل أملي الجديد. وبعد قليل أخذت أقضي كامل ساعات النهار برفقة تلك الفتيات.

بيد أنّنا نستطيع، وأسفي، أن نميّز في الزهرة الغضّة كأكثر ما تكون النقاط الخفيّة التي ترسم مذ ذاك في نظر الشخص المطلّع ما سوف يكون، من جرّاء جفاف أو إثْمَار اللبّ المزهر اليوم، الشكل الثابت والمقدر مذ ذاك للبذرة. وإنّك لتتابع بابتهاج أنفاً شبيهاً بموجة صغيرة ينتفخ بها ماء الصباح الباكر انتفاخاً لذيذاً وتبدو جامدة يمكن رسمها لأنّ البحر ساكن إلى حدّ لا تبصر معه تيّار الموج. والوجوه البشريّة تبدو وكأنها لا تتغيّر آن تنظر إليها لأن الدورة التي تقوم بها أشدّ بطئاً من أن نلاحظها. بيد أنّه كان كافياً أن تبصر إلى جانب تلك الفتيات أمّهاتهنّ أو عمّاتهنّ لتقيس المسافات التي تكون تلك القسمات، بتأثير جاذبيّة داخلية يمارسها أنموذج شنيع بوجه عام، قد اجتازتها في أقل من ثلاثين عاماً حتى ساعة تضاؤل الأنظار وتلك التي لا يوافي فيها الوجهَ نورٌ من بعد وقد غاص بكامله تحت خطّ الأفق. كنت أعلم أنّه إنّما يقيم، في مثل عمق وحتميّة الوطنيّة اليهوديّة أو الطبائع الوراثية المسيحيّة لدى أولئك الذين يظنّون أنّهم الأكثر تحرّراً من عرقهم، خلف ازهرار بشرة «ألبيرتين» و«روزموند» و«آندريه» الموردة، أنف ضخم يجهلنه، وقد ادُّخِر للظروف، وفم بارز وكرش ربّما أثار الدهشة ولكنّه ينتظر في الواقع خلف الستار وهو على استعداد للدخول إلى المسرح حتمياً وغير متوقّع، تماماً مثل النزعة الدريفوسيّة(١) أو

---

(١) نسبة إلى Dreyfus وهو ضابط يهودي فرنسي اتهم بتهريب معلومات إلى المخابرات الألمانية وظلّت قضيته فترة طويلة الشغل الشاغل للرأي العام الفرنسي بين حامل عليه ومدافع عنه.

الإكليروسيّة أو هذه البطولة الوطنيّة والإقطاعيّة التي تنبثق فجأة، حينما تقضي الظروف، من طبيعة سابقة للفرد نفسه يفكّر فيها ويحيا ويتطوّر ويتقوّى أو يموت دون أن يمكنه تمييزها عن الدوافع الخاصّة التي يضعها موضعها. وإنّما نرتبط حتى ذهنياً بالقوانين الطبيعيّة أكثر ممّا نظنّ بكثير ويمتلك فكرنا سلفاً، كمثل تلك الخفيّات الإلقاح وكمثل تلك النجيليات، الخصائص التي نحسب أنّنا ننتقيها. ولكنّنا لا ندرك سوى الأفكار الثانويّة دون أن نبصر العلّة الأولى (كالجنس اليهودي والأسرة الفرنسيّة، إلخ.) التي أنتجتها بالضرورة والتي نبرزها في اللحظة المناسبة. وفيما تبدو لنا بعضها على أنّها نتيجة تفكير مدروس والأخرى على أنّها ناجمة عن إهمال في شؤون نظافتنا، ربّما أخذنا عن أسرتنا، مثلما تأخذ الفراشيّات شكل بذرتها، الأفكارَ التي نحيا بها والمرض الذي نموت به سواء بسواء.

لقد رأيتهنّ، وكأنّما في أغراس تنضج فيها الأزهار على فترات مختلفة، في صورة سيّدات مسنّات على شاطئ «بالبيك»، رأيت تلك البذرات القاسية والعساقيل الرخوة التي سوف تنقلب إليها صديقاتي ذات يوم. ولكن ما همّ، وفي هذه الفترة فصل الأزهار؟ لذلك كنت أبحث عن عذر كي لا أكون حراً حينما تدعوني السيّدة «دو فيلباريسيس» إلى نزهة. ولم أقم بزيارات لِـ«إيلستير» فيما عدا تلك التي رافقتني فيها صديقاتي الجديدات. ولم يسعني حتى أن أجد عصراً واحداً للذهاب إلى «دونسيير» للقاء «سان لو» حسبما سبق أن وعدته به. ولعلّ اجتماعات الطبقة الراقية والمحادثات الجدية وحتى الحديث الودّي، لعلّها إن هي حلّت محل نزهاتي مع هؤلاء الفتيات كانت تخلّف فيّ الأثر نفسه الذي يصيبنا لو صحبونا ساعة الغداء لا لتناول الطعام بل لإلقاء نظرة على مجموعة صور. فالرجال والشبّان والنساء المسنات أو الناضجات ممّن نحسب أنّنا نأنس بصحبتهم إنّما يقيمون بالنسبة إلينا على محض مساحة مستوية لا كثافة لها لأنّنا لا نعيهم إلّا بالإدراك البصريّ المقصور على نفسه. وإنّما يتّجه هذا الإدراك إلى الفتيات على أنّه مفوّض عن الحواسّ الأخرى، فتمضي هذه

في البحث عن مختلف خصائص الشمّ واللمس والمذاق الواحدة تلو الأخرى وتتذوقها هكذا حتى دونما لجوء إلى اليدين والشفتين، وتستطيع بفضل فنون تبديل المواقع موهبة التأليف بين الأمور التي تبرع فيها الرغبة أن تردّ إلينا خلف لون الوجنتين أو الصدر الملمس والمذاق والملامسات الممنوعة فتضفي على هؤلاء الفتيات الكثافة المعسولة نفسها التي تصنعها حينما تتنقّل بين أغراس الورود أو في كرم تلتهم عناقيده بعينيها.

وإن كان الطقس ماطراً، ومع أنّ الطقس الرديء ما كان يخيف «ألبيرتين» التي كنّا نراها أحياناً بمشمّعها تمرّ سريعة على درّاجتها تحت زخّات المطر، كنّا نمضي النهار في المقصف حيث كان يبدو لي من المستحيل ألّا أذهب إليه في تلك الأيّام. وكنت أحسّ بأشدّ الازدراء تجاه الآنسات «دامبروساك» اللواتي لم يدخلنه البتّة. ولم أكن أتردّد في مساعدة صديقاتي في تدبير الخدع لأستاذ الرقص. وكنا نتعرّض بوجه عام لبعض تعنيفات المدير أو المستخدمين الذين يغتصبون سلطة المدير لأنّ صديقاتي، وحتى «آندريه» التي ظننتها لذلك في اليوم الأول مخلوقة شيطانية والتي كانت على العكس هشّة العود ومثقّفة وكثيرة الأوجاع في ذلك العام، ولكنّها كانت على الرغم من ذلك أقلّ خضوعاً لحالتها الصحيّة منها لما فُطرت عليه هذه السنّ التي تجرف كلّ شيء وتخلط في جوّ من المرح بين المرضى والمعافين، لأنّهنّ ما كنّ يستطعن الذهاب من الردهة إلى قاعة الاحتفالات دون أن يجمعن قواهن ويقفزن فوق المقاعد ويعدن أدراجهنّ متزحلقات على توازنهنّ بحركة رشيقة لليدين ويغنّين مازجات جميع الفنون في أوّل الشباب هذا، شأن شعراء العصور الأولى الذين لم تنفصل الفنون الأدبيّة بعد بالنسبة إليهم والذين يمزجون في قصيدة ملحمية الإرشادات الزراعية بالتعاليم اللاهوتيّة.

و«آندريه» هذه التي بدت لي أكثرهن جفاءً في اليوم الأوّل كانت أكثر رقّة بما لا يقاس وأكثر ودّاً وأوفر نعومة من «ألبيرتين» التي كانت تبدي لها الحنان الرقيق العذب الذي تبديه الشقيقة الكبرى. كانت تجيء إلى

المقصف فتجلس إلى جانبي وتعرف - بعكس «ألبيرتين» كيف ترفض رقصة فالس، أو حتى كيف تتخلّى، إن كنت متعباً، عن الذهاب إلى المقصف لتأتي إلى الفندق. كانت تعرب عن مودّتها لي ولِ«ألبيرتين» بلطائف عاطفيّة تبرهن عن أروع إدراك لأمور القلب لعلّه كان ناجماً في جزء منه عن حالتها المرضيّة. وكانت تملك على الدوام ابتسامة مشرقة لتعذر ولدنة «ألبيرتين» التي كانت تعبّر تعبيراً عنيفاً ساذجاً عن الإغراء الشديد الذي تحمله لها حفلات اللهو التي لا تعرف، شأن «آندريه»، أن تفضّل عليها دونما تردّد الحديث معي.

فحينما كانت تقترب ساعة الذهاب إلى عصرونيّة تُقدَّم في ملعب الغولف كانت تتأهّب إن كنّا كلنّا مجتمعين في ذلك الحين، ثم تُقبل على «آندريه»: «هيّا يا «آندريه» ما عساك تنتظرين للمجيء؟ تعلمين أنّنا ذاهبات لتناول العصرونية في ملعب الغولف». فتجيب «آندريه» وهي تشير إليّ: «لا، أظلّ للتحدث معه». - «ولكنّك تعلمين أنّ السيّدة «دوريو» قد دعتك»، تقول «ألبيرتين» صائحة كما لو لا يمكن تفسير نيّة «آندريه» في البقاء معي إلّا بالجهل الذي لا بدَّ فيه أنها مدعوّة. وتجيب «آندريه» قائلة: «هيّا لا تكوني بلهاء إلى هذا الحد يا صغيرتي». ولا تلحّ «ألبيرتين» مخافة أن يُعرض عليها البقاء بدورها. وتهزّ رأسها وتجيب قائلة: «افعلي ما يحلو لك»، مثلما نقول لمريض يتلذّذ بقتل نفسه شيئاً فشيئاً، «أمّا أنا فسأسرع إذ أظنّ أنّ ساعتك متأخّرة»، ثم تطلق ساقيها للريح. «إنّها رائعة، ولكنّها غريبة الأطوار»، تقول «آندريه» وهي تغمر صديقتها بابتسامة تداعبها وتحكم بها عليها في الآن نفسه. ولئن تُبْدِ «ألبيرتين» في ميلها هذا إلى اللهو بعض ما أبدت «جيلبيرت» في الفترات الأولى فلأنّ بعض الشبه قائم، فيما هو يتطوّر، بين النساء اللواتي نحبهن على التوالي، ذلك الشبه الذي مردّه ثبات مزاجنا لأنّه هو الذي يختارهنّ، مستبعداً جميع اللواتي لا يكنّ مناقضات لنا ومكملات في الوقت نفسه، أي من شأنهنّ أن يشبعن حواسّنا ويعذّبن فؤادنا. وإنّ تلك النسوة لمن إنتاج مزاجنا، وإنهن صورة

وارتسام بالمقلوب والنسخة السلبيّة عن إحساسنا. وهكذا قد يستطيع روائي أن يرسم في غضون حياة بطله ما تتلى من صنوف عشقه في صور متشابهة تقريباً وأن يولينا من جراء ذلك انطباعاً، لا بأنّه يقلد نفسه، بل بأنّه يبتكر لأن ثمّة زخماً أقلّ في تجديد مصطنع ممّا في تكرار مُعَدّ للإيحاء بحقيقة جديدة. على أنّه يجدر به أن يسجّل في طبع المحبّ مؤشّر تحوّل يتّضح تدريجيّاً كلّما بلغ مناطق جديدة ومناخات أخرى في الحياة. وربّما عبّر كذلك عن حقيقة إضافية إن امتنع، فيما هو يرسم طبائع مميّزة لشخصيّاته الأخرى، عن خصّ المرأة المحبوبة بأيّ طابع. إنّنا نعرف طبائع من لا نبالي بهم، ولكن كيف يمكننا إدراك طبع كائن يختلط بحياتنا ولا نميّزه عمّا قليل عن ذواتنا ولا نكفّ عن القيام بافتراضات تزخر بالقلق ونعدّل فيها باستمرار حول دوافعه؟ إن توقنا إلى المرأة التي نحبّ يتجاوز في مسعاه الطابع المميّز لهذه المرأة، إذ ينطلق من خلف حدود العقل. ولعلّنا لو استطعنا التوقّف أمامه لما شئنا ذلك دونما شكّ. ذلكم لأنّ غرض بحثنا القلق أكثر أهميّة من خصائص الطباع تلك الشبيهة بهذه المعيّنات الدقيقة في بشرتنا التي تؤلّف تشكيلاتها المختلفة تفرّد «التعريق» في جسمنا. وإنّ أشعّتنا الحدسيّة لتخترقها وليست الصور التي تأتينا بها صورَ وجه معيّن، بل تمثّل شموليّة الهيكل العظمي الكئيبة المؤلمة.

ولمّا كانت «آندريه» بالغة الثراء و«ألبيرتين» فقيرة ويتيمة، فقد كانت «آندريه» تمكّنها من الإفادة من بذخها بأريحيّة كبيرة. أما في ما يخصّ مشاعرها نحو «جيزيل» فلم تكن بالضبط ما سبق أن ظننت. فقد وردت بعد قليل أخبار من الطالبة، وحينما أبرزت «ألبيرتين» الرسالة التي وردتها منها، تلك الرسالة التي قصدت بها «جيزيل» تزويد المجموعة الصغيرة بأخبار رحلتها ووصولها فيما تعتذر عن تقاعسها عن الكتابة للأخريات دهشت أن أسمع «آندريه» التي حسبتها على أشدّ الخلاف معها تقول: «سوف أكتب لها غداً لأنّني إن انتظرت رسالتها أوّلاً فيمكن أن أنتظر طويلاً فهي مهملة إلى أبعد حدّ». ثمّ أضافت وهي تلتفت إليّ: «قد لا

تجدها بالطبع رائعة، ولكنها طيّبة إلى حدّ بعيد، ثمّ إني أشعر حقاً بمودّة عظيمة نحوها». واستخلصت من ذلك أنّ خلافات «آندريه» لم تكن تدوم فترة طويلة.

وإذ كنا نزمع الذهاب على الدرّاجات إلى الجرف أو الريف، فيما عدا تلك الأيّام الماطرة، كنت أحاول قبل ذاك بساعة أن أتأنّق في مظهري وآخذ في التفجّع إن لم تحسن «فرانسواز» إعداد حوائجي. ولكنّها كانت حتى في باريس ترفع في اعتزاز وحنق قامتها التي أخذت السنون تحنيها لأقلّ ما تؤخذ بخطأ هي المتواضعة الرقيقة اللطيفة حينما يدغدغ اعتزازها بذاتها. ولمّا كان هذا الاعتزاز يؤلّف المحرك الأكبر في حياتها فقد كان ارتياحها وصفو مزاجها في تناسب مباشر مع صعوبة الأمور التي تطلب منها. أمّا تلك التي تقع على عاتقها في «بالبيك» فقد كانت سهلة إلى حدّ تبدي معه على الدوام تقريباً امتعاضاً يتضاعف فجأة مئة مرّة وتقترن به ملامح ساخرة مستكبرة حينما كنت أتذمّر، ساعة الذهاب لملاقاة صديقاتي، من أنّ قبعتي لم تنظّف بالفرشاة أو أنّ ربطات عنقي غير مرتّبة. وكانت، لمحض ملاحظة أن سترة لم تكن في مكانها، لا تباهي بأي اهتمام «أغلقت عليها بدلاً من أن تدعها للغبار» فحسب، بل تأسف، وهي تثني على أعمالها ثناء يماشي الأصول، أن لا يكون من العطلة في شيء تقريباً ما تقضي من أيّام في «بالبيك» وأنّه قد لا يوجد شخص ثانٍ مثلها ليعيش مثل هذه الحياة، تأسف هي التي كان يمكن أن تتحمّل الكثير من المشاقّ دون أن تحكم لذلك أنها فعلت شيئاً. «لا أفهم كيف يمكن أن يترك المرء حاجاته على هذا النحو، وهات نَرَ إن كانت تستطيع أخرى أن تهتدي في هذه الفوضى. إبليس نفسه قد يضلّ طريقه». أو هي تكتفي بأن تتّخذ سيماء ملكة وهي ترميني بنظرات ملتهبة وتلتزم صمتاً تقطعه حالما تكون أغلقت الباب وسارت في الممرّ: وكان يدوّي حينئذ بأقوال أحسّها مليئة بالشتائم ولكنّها تظلّ مبهمة كأقوال شخوص المسرحية التي تسرد أقوالها الأولى خلف الحاجز قبل دخولها على خشبة المسرح. على أنّ

«فرانسواز» كانت تبدو، حينما كنت أستعدّ هكذا للذهاب مع صديقاتي، وإن لم ينقص شيء وكانت صافية المزاج، كانت تبدو مع ذلك صعبة لا تطاق. ذلك أنّها كانت تستخدم مزحات كنت أطلقتها على تلك الفتيات تدفعني حاجتي إلى التحدّث عنهنّ، فتتخذ هيئة من يكشف لي عمّا لعلّني كنت أعرفه خيراً منها لو كان الأمر صحيحاً، بيد أنّه لم يكن كذلك لأنّ «فرانسواز» أساءت الفهم. كان لها شأن سائر الناس طبعها الخاصّ الذي لا يشبه لدى أحدهم البتّة طريقاً مستقيمة ولكنّه يذهلنا بعطفاته الغريبة المحتّمة التي لا ينتبه لها الآخرون والتي يشقُ علينا وجوب المرور فيها. ففي كلّ مرّة كنت أصل فيها إلى نقطة «القبعة ليست في موضعها» و«اسم آندريه أو ألبيرتين» كانت تضطرّني «فرانسواز» إلى سلوك دروب ملتوية وغير معقولة كانت تؤخرني كثيراً. الأمر كذلك حينما كنت أطلب إعداد «سندويتشات» بالجبنة والسلطة وشراء قطع حلوى سوف آكلها ساعة العصرونية فوق الجرف بصحبة تلك الفتيات، وكان يمكن أن تدفعها كلّ واحدة بدورها لو لم يكنّ مغرضات إلى هذا الحدّ، تقول «فرانسواز» التي كانت تهبّ حينئذ لمساعدتها ردّة وراثيّة كاملة من الجشع والسوقيّة القروية والتي يُخيّل إليك أنّ نفس المتوفّاة «أولالي» المقسّمة قد تجسّدت في نظرها، على نحو أشدّ أناقة ممّا في القديس «أيلوا» في الأجسام الفاتنة لصديقاتي في المجموعة الصغيرة. كنت أسمع تلك التّهم وأنا حانق إذ أحسّني أصطدم بأحد تلك الأمكنة التي كان يضحي الدرب الريفيّ المألوف الذي يؤلفه طبع «فرانسواز» غير سالك بعدها، ولا يدوم طويلاً لحسن الحظّ. وبعدما يُعثَر على السترة وتُعَدُّ «السندويشات» كنت أمضي وأبحث عن «ألبيرتين» و«آندريه» و«روزموند» وغيرهن أحياناً ثمّ كنّا ننطلق سيراً على الأقدام أو على الدرّاجات.

لعلّني كنت فضّلت فيما مضى أن تتمّ هذه النزهة في طقس ماطر. كنت أحاول آنذاك أن ألقى في «بالبيك» «بلد السيمريّين» وكانت الأيّام الحلوة أمراً يجدر ألّا يوجد هناك وتدخّلاً لصيف المستحمين التافه في هذه

المنطقة القديمة التي يحجبها الضباب. ولكني الآن ربما بحثت بتلهّف عن كلّ ما سبق أن ازدريته واستبعدته عن عيني، لا عن تلاعب أشعة الشمس فحسب بل عن سباقات اليخوت كذلك وسباقات الخيل، للسبب نفسه الذي ما كنت أبغي معه سوى بحور كثيرة العواصف والذي قوامه أنّ هذه ترتبط شأن تلك فيما مضى بفكرة جماليّة، ذلك أنّه سبق أن ذهبنا أحياناً برفقة صديقاتي لزيارة «إيلستير»، فكان ما فضّل أن يعرضه في الأيّام التي تحضر فيها الفتيات بعض الرسوم التخطيطية لصاحبات يخوت جميلات أو رسم أوّلي أنجز في ميدان سباق خيل بجوار «بالبيك». وأفضيت بادئ الأمر إلى «إيلستير» وأنا خجلان أنّني لم أرتضِ الذهاب إلى الحفلات التي سبق أن أقيمت فيه. فقال لي: «لقد كنت مخطئاً، فما أحلاه وما أغربه كذلك. فهناك أولاً هذا الكائن الخاصّ، الفارس، الذي يحدّق إليه الجم من الأنظار والذي يقف أمام الممرّ كئيباً أشهب في سترته المتألقة لا يؤلّف وحصانه المتوثّب الذي يشدّه إليه سوى كتلة واحدة، فما أحبّ أن تبرز حركاته التي تمليها المهنة وأن تظهر البقعة الملتمعة التي يؤلفها وتؤلّفها كذلك كسوة الأحصنة على أرض ميدان السباق! وأيّ تحوّل لجميع الأشياء في هذا الامتداد الشاسع المضيء في ميدان سباق تذهلك فيه كثرة الظلال والانعكاسات الضوئيّة التي لا تبصرها إلّا هناك! وما أكثر ما تكون النساء جميلات فيه! لقد كانت الحفلة الأولى رائعة بوجه خاصّ، وكان ثمة نساء في غاية الأناقة وسط نور نَديّ هولانديّ يحسّ المرء فيه ببرودة الماء المتغلغلة تداخل الشمس نفسها. لم أرَ النساء في يوم يصلن في عرباتهنّ أو المناظير على عيونهنّ في مثل هذا النور الناجم دونما شكّ عن النداوة البحرية. آه! كم كنت أحبّ أن أعبّر عنها! لقد عدت من تلك السباقات فاقد العقل تعتمل في صدري رغبة، وأيّة رغبة، في العمل! «ثمّ إنّه أبدى افتتاناً بحفلات سباق اليخوت أكثر منه بسباقات الخيول وأدركت أن سباقات يخوت ولقاءات رياضيّة تسبح فيها نسوة أنيقات الملبس في ضياء أزرق مخضوضر على أرض لمعلب بحريّ لسباق الخيول كان يمكن

أن تكون في نظر فنّان حديث موضوعاً ممتعاً بقدر الاحتفالات التي ما أكثر ما يحبّ وصفها أمثال «فيرونيز» و«كارباتشيو». وقال لي «إيلستير»: «إنّما يزيد من صحّة تشبيهك أنّ تلك الاحتفالات كانت في قسم منها مائيّة بسبب المدينة التي كانا يرسمان فيها. بيد أنّ جمال القوارب في ذلك الزمان كان قائماً في الغالب على ثقلها وعلى تعقيدها. وكان ثمة، كما هي الحال هنا، مباريات فوق الماء تُقام بعامّة على شرف سفارة ما شبيهة بالتي صوّرها «كارباتشيو» في «**أسطورة القديسة أورسولا**». لقد كانت السفن ضخمة وقد بُينت مثل العمارات وتبدو وكأنها برمائية، كمثل مدن بندقيّة مقلّصة داخل تلك، حينما كانت تُربط بواسطة جسور متحركة وقد جُلّلت بالساتين القرمزيّ والسجّاد الفارسي وتقلّ نسوة بأثواب من البروكار الكرزيّ أو الدمقس الأخضر على مقربة من الشرفات المرصّعة بالرخام المتعدّد الألوان التي تطلّ منها بغية الفرجة نساء أخريات بأثوابهنّ ذات الأكمام السوداء والفتحات البيضاء المطرّزة باللآلئ أو المزينة بالتخاريم، فلا تدري من بعد أين تنتهي الأرض وأين يبدأ الماء، وما لا يزال القصر أو هو أصبح السفينة أو المركب الشراعي أو السفينة الضخمة أو مركب الدرج. «كانت «ألبيرتين» تصغي بانتباه المتلهّف إلى تفاصيل الملبس تلك وصور البذخ التي يصفها لنا «إيلستير». فصاحت قائلة: «آه! وددت لو أرى التخاريم التي تحدّثنا عنها، فإن غرزة البندقيّة جميلة إلى حدّ بعيد. وما أكثر ما أحبّ الذهاب إلى البندقيّة على أيّة حال!» وقال لها «إيلستير»: «ربما أمكنك عمّا قريب مشاهدة الأقمشة الرائعة التي كانوا يرتدونها هناك. فلم تكن تتسنى رؤيتها إلّا في لوحات رسّامي البندقيّة أو في كنوز الكنائس. والأمر نادر جداً وربّما اتفق لواحد منها أن يمرّ ضمن بيعة علنيّة. بيد أنّه يقال إنّ فنّاناً من البندقيّة يدعى «فورتوني» قد عثر على سرّ صنعها وإن النساء سوف يستطعن، قبل انقضاء بضع سنوات، التنزّه ولا سيما المكوث في منازلهن في أثواب من البروكار الرائع روعة البروكار الذي كانت البندقيّة تزيّنه برسوم من المشرق من أجل سيّداتها

الأرستقراطيات. ولكنّي لا أدري إن كنت سأحبّ ذلك كثيراً وأنْ لن يبلغ ذلك مبلغ الأثواب التي تناقض زمانها بالنسبة إلى نساء اليوم وإن تبخترن في سباقات اليخوت، ذلك أنّه في ما يخصّ مراكبنا الترفيهية الحديثة إنما الأمر يناقض تماماً عصر البندقيّة «سيّدة بحر الأدرياتيك». إن أعظم سحر اليخوت وأثاث اليخوت وأزياء مسابقات اليخوت إنّما يقوم على بساطة أشياء البحر فيها، وما أكثر ما أحبّ البحر! إنيّ أعترف لك أنيّ أفضّل أزياء اليوم على أزياء عصر «فيرونيز» وحتى «كارباتشيو». إن الجميل في يخوتنا - ولا سيما اليخوت المتوسّطة، فلست أحبّ الضّخمة منها إذ هي أقرب إلى السفينة، فأمرها كأمر القبّعات: هنالك قدر معين ينبغي الحفاظ عليه - هو هذا الشيء المتساوي البسيط المضيء الرماديّ الذي يتخذ في الطقس الغائم الضارب إلى الزرقة مظهراً ضبابياً قشدياً. وينبغي أن تبدو الغرفة التي نقف فيها وكأنها مقهى صغير. وإنّما أزياء النساء على ظهر أحد اليخوت من القبيل نفسه، فالظريف هو تلك الأزياء الرشيقة البيضاء الموحّدة اللون التي من قماش أو لينون أو قماش صيني لمّاع أو كتّان والتي تشكّل في ضياء الشمس وزرقة البحر بياضاً في مثل تألّق شراع أبيض. ثمة على أيّة حال عدد قليل جداً من النساء أنيقات الملبس، ولكنّ بعضهنّ رائعات. كانت الآنسة «ليا» في ميدان السباق تعتمر قبعة صغيرة بيضاء وتحمل شمسية صغيرة بيضاء، وكان ذلك أخّاذاً. ولست أدري ما لعلّني أعطي لأحوز تلك الشمسية الصغيرة». لشدّ ما وددت أن أعلم بما تختلف تلك الشمسية الصغيرة عن سواها ولعلّ «ألبيرتين» كانت تودّ ذلك أكثر منيّ لأسباب ثانية مردّها الغنج الأنثوي. ولكنّ الاختلاف كان قائماً في القصة، شأنّ ما كانت «فرانسواز» تقول في ما يخصّ المعجنّات المنفخّة: «إنه سرّ الصنعة». «وكانت بالغة الصغر، بالغة الاستدارة كشمسية صينيّة»، يقول «إيلستير». وذكرتُ شمسيات بعض النساء، فلم تكن البتّة وافية بالغرض. كان «إيلستير» يجد جميع تلك الشمسيات قبيحة. فقد كان يجعل، هو صاحب الذوق الصعب الرفيع، في أمر زهيد هو كلّ

شيء، قوام الفارق بين ما ترتديه ثلاثة أرباع النساء وحاجة حلوة تفتنه وتثير رغبته في الرسم «ليحاول تقديم أشياء مثل جمالها»، على نقيض ما يقع لي أنا الذي يورثه البذخُ، أيّ بذخ، العقمَ.

وقال لي «إيلستير»، وهو يشير إلى «ألبيرتين» التي كانت تلتمع بالشهوة عيناها: «انظر، هاك بُنيّة أدركت كيف تكون القبّعة والشمسيّة». وقالت للرسّام: «كم أحبّ أن أكون غنيّة لأملك يختاً! وسوف أسألك النصح لتربيه. وأيّة رحلات جميلة سوف أقوم بها! وما أجمل أن أذهب إلى سباق اليخوت في «كوف» Cowes ! ثم سيارة! هل ترى أن أزياء النساء في ما يخصّ السيّارات حلوة؟» وأجاب «إيلستير»: «لا، ولكنّها ستضحي كذلك. وثمّة على أيّة حال القليل من الخيّاطين، هنالك واحد أو اثنان، «كالو» مع أنّه يبالغ في ميله إلى الدانتيلا، و«دوسيه» و«شيروي» وأحياناً «باكان». أمّا البقيّة فتثير الاشمئزاز». وسألتُ «ألبيرتين» قائلاً: «هنالك إذن فرق شاسع بين أثواب لِـ«كالو» وغيرها لأيّ خيّاط آخر؟» فأجابت: «ضخم بالطبع يا صغيري. آه! عفوك! بيد أنّ ما يكلّف ثلاث مئة فرنك في مكان آخر إنّما يكلّف لديهم، واأسفي، ألفي فرنك. ولكنّما ليس من وجه شبه بين الاثنين، والأمر واحد في نظر الذين لا يفقهون في ذلك شيئاً». وأجاب «إيلستير»: «بالضبط، ولكن دون أن يبلغ بنا أن نقول إنّ الفرق عميق عمق ما هو كائن بين تمثال في كاتدرائية «رانس» وكنيسة القديس أوغسطينوس». ثمّ قال وهو يوجّه الحديث إليّ على نحو خاصّ، لأن الأمر يرجع إلى حديث لم يشارك فيه تلك الفتيات وما كان على أيّة حال ليثير اهتمامهنّ: «هاك مثلاً، إذ نحن بصدد الكاتدرائيّات، كنت أحدّثك في ذاك اليوم عن كنيسة «بالبيك» وكأنّما عن جرف كبير، عن تكدّس عظيم من حجارة المنطقة، ولكن انظر بالمقابل»، يقول وهو يريني لوحة بالألوان المائيّة، «إلى هذه الجروف (إنها خطوط أوّلية أخذت بالقرب من هناك في محلّة «كرونييه»)، انظر إلى أيّ مدى تذكّر هذه الصخور الضخمة القطوع الناعمة الخطوط بالكاتدرائيّات». لكأنّما كانت بالفعل أقواساً ضخمة ورديّة

اللون، ولكنّها تبدو، وقد رسمت في يوم قائظ، وكأنّها تحوّلت إلى غبار وبخّرها الحرّ الذي كاد يمتصّ البحر وقد انقلب على امتداد اللوحة إلى حالة غازيّة تقريباً. وفي ذلك اليوم الذي قضى فيه الضياء تقريباً على الواقع، كان هذا الأخير قد تركز في مخلوقات عاتمة شفّافة توحي عن طريق التضادّ بحياة أشدّ روعة وأوفر قرباً، عنيت الظلال. فقد هجرت غالبيّتها عرض البحر الملتهب والتجأت ظمأى إلى البرودة على أقدام الصخور لتأمن حرّ الشمس، فيما تطفو أخرى ببطء على سطح الماء كالدلافين وتتشبّث بجنبات قوارب متهادية فتزيد فوق الماء الشاحب من اتّساع أجسامها بجسمها المصقول الأزرق. وربّما كان الظمأ إلى الرطوبة التي تشيعها هو الذي يورث أكثر ما يورث الإحساس بقيظ ذاك اليوم والذي جعلني أقول صارخاً كم كنت آسفاً أنّي لا أعرف محلّة «كرونييه». وأكّدت «ألبيرتين» و«آندريه» أنّي لا بدّ ذهبت إلى هناك مئة مرّة. لقد وقع الأمر في تلك الحال دون علم منّي ودون أن أرتاب بأن مشهدها يمكن أن يوحي إليّ ذات يوم بمثل ذاك الظمأ إلى الجمال، لا الجمال الطبيعي بالضبط كهذا الذي بحثت عنه حتى الآن في جروف «بالبيك»، بل المعماري بالأحرى. ولعلني ما كنت أستطيع أنا على وجه الخصوص الذي لم يلقَ البتّة، وقد جاء ليرى مملكة العواصف، لم يلقَ، في نزهاته برفقة السيّدة «دو فيلباريسيس» المحيط حقيقياً إلى حدّ كافٍ وسائلاً إلى حدّ كافٍ وزاخراً بالحياة إلى حدّ كافٍ ويخلّف إلى حدّ كافٍ الانطباع بأنّه يقذف جبال مياه، وما كنّا نشاهده في الغالب إلّا من البعيد وقد ارتسم في فجوة الأشجار، لعلني ما كنت أستطيع، أنا الذي ما أَحَبَّ أن يراه هادئاً إلّا تحت كفن من ضباب الشتاء، الاعتقاد بأني سوف أحلم الآن ببحر استحال محض بخار ضارب إلى البياض وقد فقد الكثافة واللون. ولكنّ «إيلستير»، شأن هؤلاء الذين يحلمون في تلك القوارب التي خدّرها الحرّ، فقد تذوّق سحر ذلك البحر إلى حدّ من العمق أفلح معه في أن يردّ ويثبت على لوحته حركة الماء الخفيّة وخفقةَ دقيقةٍ سعيدة. وما كنت تفكّر من بعد

إذ ترى هذه الصورة السحريّة إلا بالطواف في العالم لاستعادة النهار الهارب في روعته الآنيّة الغافية.

فكما أنّني، قبل هذه الزيارات لمنزل «إيلستير»، وقبل ما اتّفق لي أن أشاهد له لوحة بحريّة وَضَعَتْ فيها امرأةً شابّة، ترتدي فستاناً من القطن الأزغب أو اللينون في يخت يرفع العلم الأميركي، «الصنو الروحيّ لفستان من اللينون الأبيض وَلِعَلم في مخيّلتي التي داخلتها في الحال رغبة لا ترتوي في أن أرى في الحال فساتين من اللينون الأبيض وأعلاماً قرب البحر كما لو لم يتّفق لي ذلك في يوم حتى ذاك، كما أنّني جهدت على الدوام أمام البحر أن أقصي على السواء من ساحة بصري المستحمّين في الخطّ الأوّل واليخوت ذات الأشرعة الشديدة البياض كملابس الشاطئ وكلّ ما كان يحول دون أن أقنع نفسي بأنني إنّما أتأمّل المياه التي من الأزمات السحيقة والتي كانت تنشر حياتها المبهمة نفسها قبل ظهور النوع البشريّ، وحتى تلك الأيّام المشرقة التي تبدو لي وكأنّها تخلع على الشاطئ الضباب والعواصف هذا المظهر التافه الذي لصيف عامّة الناس وتضع فيه محض علامة توقّف وما يقابل ما يسمّى في الموسيقى بالفاصل الإيقاعي الزائد - كذلك أصبح الطقس الرديء الآن هو الذي أخذ يبدو في نظري وكأنّما أصبح حدثاً عارضاً مشؤوماً لا يمكن من بعد أن يوسع لنفسه مكاناً في دنيا الجمال: لقد أصبحت أرغب بحرارة أن أمضي لألاقي في الواقع ما كان يثير حماستي إلى حدّ بعيد وآمل أن يكون الطقس مؤاتياً بما يكفي لأبصر من أعلى الجروف الظلال الزرقاء نفسها التي في لوحة «إيلستير».

ولم أعد على امتداد الطريق أتّخذ من يديّ ستاراً شأني في تلك الأيّام التي كنت أتصوّر الطبيعة فيها وكأنّما تداخلها حياة سبقت ظهور الإنسان وتناقض جميع تلك التحسينات المملّة التي أدخلتها الصناعة والتي جعلتني حتى ذاك أتثاءب ضجراً في المعارض العامّة أو لدى بائعات القبّعات، وكنت أحاول ألّا أبصر من البحر سوى ذلك المقطع الذي لا مراكب

بخارية فيه كيما أتمثّله وكأنّه من العصور السحيقة ولا يزال يعاصر الحقب التي انفصل فيها عن الأرض، أو هو يعاصر على الأقلّ القرون الأولى في اليونان، الأمر الذي يمكّنني أن أردّد في نفسي بصدق تامّ أبيات «العمّ لوكونت»[١] العزيز على فؤاد «بلوك»:

«لقد ذهبوا، ذهب ملوك السفن السريعة
يحملون فوق البحر العاصف، وأسفي،
رجال اليونان البطلة ذوي الشعور الكثيفة».

ولم يعد بمقدوري احتقار بائعات القبّعات إذ قال لي «إيلستير» إنّ الحركة الرقيقة التي يصنعن بها التجعيدة الأخيرة واللمسة القصوى للعقد أو الريش الذي يعلو قبّعة منجزة ربّما استهواه ردّها بقدر ما تفعل حركة فرسان السباق (الأمر الذي فتن «ألبيرتين»).

بيد أنّه كان ينبغي انتظار عودتي، بالنسبة إلى بائعات القبّعات إلى باريس، وبالنسبة إلى سباقات الخيول واليخوت إلى «بالبيك» حيث لن تقام من بعد قبل العام المقبل. ولا يمكن حتى أن تلقى يختاً يحمل نساء بأثواب من اللينون الأبيض.

وكنّا كثيراً ما نلتقي بشقيقات «بلوك» اللواتي كنت أراني مضطرّاً لتحيتهنّ منذ أن تناولتُ طعام العشاء في منزل والدهنّ. أمّا صديقاتي فكنّ لا يعرفنهنّ. وكانت «ألبيرتين» تقول: «لا يسمحون لي باللعب مع إسرائيليات». ولعلّ الطريقة التي تقول بها «إسرائيلي» بدلاً من «إزرائيلي»[٢] كانت كافية لتشير، حتى إن لم يتمّ سماع أوّل الجملة، إلى أن تلك الشابات البورجوازيات بنات الأسر المتديّنة لم تكن تحرّكهنّ مشاعر الودّ نحو الشعب المختار وهنّ لا بدّ يعتقدن بسهولة أن اليهود

---

(١) الشاعر «لو كونت دوليل» (Leconte de Lisle).

(٢) طريقة درج عليها معظم الفرنسيين في قلب حرب S إلى SZ إن وقع قبل حرفي R وM تأثراً باللفظ اليوناني للحرف في المواقع نفسها.

يذبحون الأطفال المسيحيّين. «وصديقاتك على أية حال سيّئات المسلك»، تقول «آندريه» بابتسامة تشير إلى أنها تعلم تماماً أنهنّ لسن صديقاتي. وتجيب «ألبيرتين» بلهجة الحزم التي يتّسم بها شخص مجرّب: «شأن كلّ ما يمتّ بصلة إلى العشيرة». والصحيح أن شقيقات «بلوك»، وهنّ فائضات الملبس ونصف عاريات في الوقت نفسه، ما كن يخلّفن بمظهرهنّ المائع الجريء الباذخ القذر انطباعاً عظيماً. وكانت إحدى بنات أعمامهنّ التي لم تتجاوز الخامسة عشرة تُثير استنكار المقصف من جرّاء ما تبدي من إعجاب بالآنسة «ليا» التي كان السيّد «بلوك» الوالد يقدر موهبتها أعظم القدر، ولكن ذوقها لم يكن مقبولاً ولا سيّما في ما يخصّ الرجال.

كنّا نتناول العصرونيّة بعض الأيّام في إحدى المزارع المطاعم في الجوار، وهي المزارع المسمّاة «ديكور» و«ماري تيريز» و«دو لاكرواديرلاند» و«دو باغاتيل» و«دو كاليفورني» و«ماري أنطوانيت». وكانت المجموعة الصغيرة قد اختارت هذه الأخيرة.

إلّا أنّنا كنّا نصعد أحياناً، بدلاً من الذهاب إلى إحدى المزارع، حتى أعلى الجرف وبعدما نصل ونجلس على العشب كنّا نحلّ حزمة السندويشات والحلوى. كانت صديقاتي يفضّلن السندويشات وبعجبن أن يرينني آكل قطعة واحدة من الحلوى بالشوكولاته التي تزيّنها خطوط قوطيّة من السكّر أو قطعة من الحلوى بالمشمش. ذلك أنّه لم يكن لديّ ما أقوله للسندويشات بالجبنة والسلطة، وهو غذاء جديد جاهل. أمّا الحلوى فكانت مثقفّة، وأمّا الحلوى بالمشمش فثرثارة. وكان في الأولى تفاهات كريما وفي الثانية نداوة فاكهة تعرف الكثير عن «كومبريه» وعن «جيلبيرت»، «جيلبيرت» التي من «كومبريه» فحسب، بل تلك التي من باريس والتي سبق أن لقيتها في عصرونيّاتها. كانت تذكّرني بقصعات أقراص الحلوى الصغيرة، قصعات **ألف ليلة وليلة** التي كانت تسلّي عمّتي «ليوني» عظيم التسلية بموضوعاتها حينما كانت «فرانسواز» تجيئها يوماً بـ **علاء الدّين أو المصباح السحّري** وآخر بـ **علي بابا** أو **النائم اليقظان** أو **السندباد البحري**

الذي يبحر من البصرة حاملاً كلّ أمواله. وددت كثيراً لو أعود فأراها، ولكنّ جدّتي لا تعلم ما حلّ بها وتظن على أيّة حال أنها قصعات عاديّة تمّ شراؤها في المنطقة. وما همّ، فقد كانت نقوشها الصغيرة بألوانها العديدة ترصّع «كومبريه» القاتمة في مقاطعة «شامبانيا»، مثلما الزجاج الملوّن ذو الأحجار الكريمة المرتعشة في الكنيسة العاتمة، ومثلما عروض المصباح المسحور في أوّل عتمة غرفتي. ومثلما أزرار الهند الذهبيّة وليلك فارس أمام مرأى المحطّة وسكّة حديد المحافظة، ومثلما مجموعة الأواني الصينيّة العتيقة التي تملكها شقيقة جدّتي في منزل السيّدة الريفية العجوز العاتم.

كنت لا أبصر أمامي، وأنا مستلقٍ فوق الجرف، سوى مروج ومن فوقها لا السموات السبع التي في علم الطبيعة المسيحي بل تناضد سماءين فحسب، أولاهما أكثر دكنة - هي البحر - ومن فوقها أخرى أكثر شحوباً. وكنّا نتناول العصرونيّة وإن اتّفق أن حملت معي أيضاً تذكاراً صغيراً أمكن أن يروق هذه أو تلك من صديقاتي غمر الفرح بشدّة مفاجئة وجههنّ الشفاف الذي أضحى أحمر في مدى لحظة إلى حدّ أنّ شفاههنّ لم تكن تقوى على احتباسه فينفجرن بالضحك ليدعن له أن ينطلق. كنّ مجتمعات من حولي، وبين الوجوه القليلة التباعد كان الهواء الذي يفصل بينها يرسم دورباً لازورديّة كأنّما شقّها بستانيّ شاء أن يجعل بعض المتّسع ليستطيع التجوال بنفسه وسط خميلة من الورود.

وكنّا بعد نفاد مؤونتنا نلعب ألعاباً ربّما بدت لي حتى ذاك مملّة، وهي أحياناً في مثل الصبيانيّة التي تطبع لعبة «أيها البرج احترس» أو «من يضحك أوّل الضاحكين»، ولكنّي ما عدت أتخلّى عنها مقابل إمبراطوريّة. فقد كان فجر الشباب الذي لا تزال تصطبغ بحمرته وجوه تلك الفتيات والذي كنت مذ ذاك خارج حدوده، وفي سنّي أنا، كان ينير كلّ شيء أمامهنّ ويبرز، شأن الألوان الهوائيّة في لوحات بعض المعلمين الأوائل، التفاصيل الأكثر تفاهة في حياتهنّ على خلفيّة مذهبة. كانت وجوه تلك

الفتيات نفسها تختلط لدى غالبيّتهن بحمرة الفجر المبهمة تلك لم تنبثق منها بعد قسماتهنّ الحقيقية. فما كنت تبصر سوى لون رائع لا تستطيع أن تميّز خلفه ما ينبغي أن يصبح بعد بضع سنوات خطوط ملامحهنّ. أمّا ملامح اليوم فلم تكتسب أيّة سمة نهائيّة ولا يمكن أن تكون سوى شبه مؤقت بواحد من أعضاء الأسرة المتوفّين خصته الطبيعة بهذه المجاملة التذكاريّة. وما أسرع ما تحلّ اللحظة التي لا يظل للمرء ما يتوقّعه فيها، تلك التي يجمد فيها الجسم ضمن تقاطيع ثابتة لا تخبئ مفاجآت من بعد، والتي يفقد المرء فيها كلّ أمل، إذ يبصر شعوراً تتساقط أو تشيب حول وجوه لا تزال فتيّة، مثلما يبصر على الشجر في قلب الصيف أوراقاً يابسة، وما أشدّ قصر هذا الصباح المشرق حتى ليبلغ الأمر بالمرء ألّا يحبّ سوى الفتيات الفتيَّات جدّاً اللواتي لا يزال الجسد يعمل لديهنّ على غرار عجينة ثمينة. فما هنّ سوى دفق من مادّة قابلة للتمدّد يكيّفها في كل لحظة الانطباع العابر الذي يسودهنّ. لكأن كلّ واحدة بالتناوب تمثال صغير للمرح وجدّية الشباب والغنج والدهشة تقولبه ملامح صريحة وكاملة ولكنّها زائلة. وإنّما تضفي هذه المرونة الكثير من التنوّع والسحر على اللفتات اللطيفة التي تبديها الفتاة لنا. وهي لا غنى عنها كذلك بالتأكيد لدى المرأة، وتلك التي لا نحسن في عينيها أو التي لا تسمح لنا أن نرى أنّنا حسنّا لديها إنّما تتّخذ في عينيها شيئاً من التماثل المملّ. على أن تلك اللطائف نفسها لا تحمل من بعد معها، ابتداء من سنّ معيّنة، تحوّلات طفيفة فوق وجه صلّبته نضالات الحياة وجعلته إلى الأبد مكافحاً أو متهلّلاً. فهذا يبدو - من جرّاء استمرار فعل الطاعة التي تخضع الزوجة للزوج - وجه جندي أكثر منه وجه امرأة. وذاك يبدو، وقد حفرته التضحيات التي قبلت بها الأمّ كل يوم في سبيل أولادها، وجه رسول. وآخر يبدو، بعد سنوات من المحن والعواصف، وجه بحّار عتيق متمرس، لدى امرأة تنبئك ثيابها وحدها عن جنسها. صحيح أن الألطاف التي تحيطنا بها امرأة لا تزال تستطيع، حينما نحبّها، أن تزرع الساعات التي نقضيها بالقرب منها بمباهج جديدة. بيد

أنها ليست على التوالي بالنسبة إلينا امرأة مختلفة. فمرحها يظلّ خارج حدود وجه لم يتبدل. أمّا اليفاعة فسابقة لمرحلة التصلّب الكامل ومن ذلك ينتج أنّنا نحسّ بالقرب من الفتيات بهذا التجدّد الذي يخلّفه منظر الأشكال وهي في طور تغيّر لا يقطع وتحرّك ضمن تعارض لا مستقر يذكر بإعادة الخلق المستمرّة لعناصر الطبيعة الأوّلية التي نتأمل فيها أمام البحر.

لعلّني ما كنت أضحي فقط بحفلة راقية بعد الظهر وبنزهة برفقة السيّدة «دو فيلباريسيس» في سبيل لعبة ورق صديقاتي أو حزوراتهن، فقد نقل إليّ «روبير دو سان لو» عدّة مرّات أنه طلب إذناً لمدّة أربع وعشرين ساعة وسوف يقضيها في «بالبيك» بما أنّني لا أذهب لزيارته في «دونسيير». وقد كتبت إليه في كلّ مرة ألّا يفعل متذرّعاً بأني مضطرّ إلى التغيّب في ذلك اليوم بالضبط لأبادر للقيام في الجوار بواجب عائليّ بصحبة جدّتي. ولا ريب أنّه أصدر حكماً مشيناً بحقّي إذ علم على لسان عمتّه ما قوام الواجب العائلي وأيّ أشخاص كانوا يقومون بالمناسبة بدور الجدة، وربما لم أكن على خطأ مع ذلك في التضحية لا بمتع المجتمعات الراقية، بل بمتع الصداقة في سبيل قضاء كامل النهار في تلك الحديقة والذين يقوون على ذلك - وهم الفنانون بالحقيقة وكنت منذ فترة طويلة على يقين بأني لن أضحي فناناً في يوم - يقع عليهم أيضاً أن يعيشوا لذواتهم، فيما الصداقة بمثابة إعفاء لهم من ذلك الواجب وتنازل عن الذات حتى المحادثة، وهي صيغة الإعراب عن الصداقة، هذيان سطحي لا يقدّم أي مكتسب. فبوسعنا التحدث على مدى حياة كاملة دون أن نقول شيئاً فيما عدا الترداد الذي لا ينتهي لفراغ دقيقة ما، فيما يتم الاتجاه الوحيد الذي لا يوصد أمامنا والذي نستطيع التقدم فيه، بقدر من المشقة أكبر بالحقيقة، من أجل نتيجة قوامها الحقيقة وليست الصداقة مجردة من الفضيلة فحسب، شأن المحادثة، بل هي إلى ذلك مشؤومة. ذلك أن الشعور بالملل الذي لا يمكن إلا أن يحس به بالقرب من صديق لهم، يعني المكوث على سطح ذاتهم بدلاً من متابعة رحلة اكتشافاتهم في الأعماق، أولئك الذين من بيننا يكون قانون نموهم

داخلياً محضاً، ذلك الشعور بالملل إنّما تقنعنا الصداقة بتصويبه حينما نلفي نفسنا وحيدين، وبأن نتذكر بانفعال الأقوال التي أسمعنا صديقنا وأن ننظر إليها على أنّها إسهام ثمين في حين لسنا بمثابة أبنية يمكن أن تضاف إليها حجارة من الخارج، بل أشجار تستمد من نسغها الخاص العقدة التالية في جذعها والقسم الأعلى في أوراقها كنت أكْذِبُ نفسي وأوقف النماء الذي كنت بالفعل أستطيع وقفه، أن أكبر حقاً وأكون سعيداً حينما كنت أغبط نفسي أن أكون موضع حب وإعجاب لدى كائن في مثل طيبة «سان لو» وفي مثل ذكائه ومثل محبذيه، وحينما كنت أكيّف عقلي لا مع انطباعاتي المبهمة الخاصة التي كان من واجب أن أستجليها بل مع أقوال صاحبي الذي كنت أحاول جاهداً، فيما أرددها لنفسي - فيما أحمل على تردادها لي هذا الآخر غيرنا الذي يعيش فينا والذي يسرنا على الدوام أعظم السرور أن نلقي بعبء تفكيرنا عليه - أن ألقي له جمالاً مختلفاً تماماً عن الجمال الذي كنت ألاحقه بصمت حينما كنت وحيداً حقاً ولكنه قد يولي «روبير» ويوليني ويولي حياتي قيمة أكبر. أمّا في الجمال الذي كان يجعله لي هذا الصديق أو ذاك فقد كنت أبدو لنفسي فيه وقد وُقِيْتُ الوحدة داخل جو دافئ مريح وأرغب كريم النفس أن أضحَي بذاتي في سبيله وأنا عاجز باختصار القول عن تحقيق ذاتي، ولئن كانت المتعة التي كنت أتذوقها بالقرب من تلك الفتيات أنانية على العكس، فلم تكن على الأقل قائمة على الكذب الذي يحاول حملنا على الاعتقاد بأننا لسنا في عزلة محتمة ويحول دون أن نقر لأنفسنا حينما نتحدث بأننا لم نعد نحن من يتكلم وأننا نتقولب حينئذ على شبه الآخرين لا على شبه أناس نختلف عنهم. كانت الأقوال المتبادلة بين فتيات المجموعة الصغيرة وبيني قليلة الأهمية ونادرة على أيّة حال تقطّعها في ما يخصني فترات صمت طويلة ولم يكن ذلك ليحول دون أن أصيب في الإصغاء إليهن حينما يكلمنني من المتعة ما أصيب في النظر إليهن واكتشاف لوحة زاهية الألوان في صمت كل واحدة منهن فقد كنت أصغي بلذة لزقزقتهن، إن الحب يعين على التمييز والتفريق

فهاوي الطيور يميّز في الحال في الغابة تلك الزقزقات الخاصة بكل طير والتي يخلط العاميّ ما بينها وهاوي الفتيات يعلم أن الأصوات البشرية أكثر تنوعاً بكثير، فكل صوت يضم قدراً من النوطات أكثر من أوفر الآلات إمكانات، وإن صنوف التأليف التي تجمعها وفقها وفيرة لا تنضب وفرةَ تنوعِ الشخصيات الذي لا حد له. وحينما كنت أتحدث مع إحدى صديقاتي كنت أتبين أن لوحة شخصيتها المبتكرة الفريدة قد رسمتها بمهارة وفرضتها عليّ فرض المُسْتَبِدّ تبدلات نبرات صوتها وخطوط وجهها على حد سواء وأن ذينك مشهدان يترجمان كل على صعيده الواقع الفريد نفسه وليس من شك أن خطوط الصوت، شأن خطوط الوجه، لم تُثبت بعد على نحو نهائي، فالأول قد يتبدل مثلما قد يتغيّر الثاني؛ ومثلما يملك الأطفال غدة يعينهم عصيرها على هضم الحليب ولا وجود لها من بعد لدى الكبار، كذلك كان في زقزقة هؤلاء الفتيات ألوان لا تملكها النساء من بعد، وكن يعزفن على هذه الآلة الأكثر تنوعاً بشفاههن، بهذا الاجتهاد، بهذه الحميّة التي يبديها ملائكة «بيلليني» الصغار، وكلاهما كذلك ينفرد به الشباب حصراً. سوف تفقد الفتيات فيما بعد هذه النبرة المقْنِعة الحماسية التي تضفي سحراً على أكثر الأمور بساطة، كأن تسرد «ألبيرتين» بلهجة تتسم بالسلطة صنوفاً من التلاعب بالألفاظ تصغي إليها الصغيرات بإعجاب إلى أن تتملكهن الضحكة المجنونة بعنف عطسة لا تقاوم، أو تتخذ «آندريه» في الحديث عن أعمالهن المدرسية، وهي أشد صبيانية من ألعابهن، وقاراً طفولياً في أساسه: وكانت أقوالهن ناشزة، كمثل تلك المقاطع الشعرية في الأزمان الغابرة حيث كان يُنشَد الشعر، ولا يزال قليل التمييز عن الموسيقى، على نوطات مختلفة على الرغم من كل ذلك فقد كان صوت تلك الفتيات ينمّ مذ ذاك بوضوح عن الموقف الذي اتخذته كل واحدة من أولئك الصغيرات إزاء الحياة، وهو موقف فردي حتى ليبدو من فرط التعميم أن نقول عن إحداهن: «إنّها تأخذ كل شيء على محمل المزاح» وعن الأخرى: «إنّها تمضي من توكيد إلى توكيد»، وعن ثالثة: «إنّها

تتوقف في حيرة المُنْتَظِر». إن قسمات وجهنا لا تعدو كونها حركات أضحت بفعل العادة نهائية، فالطبيعة، شأن كارثة «بومبيي»، وشأن استحالة حوريات الماء، قد جمدتنا في الحركة المعهودة، كذلك تحتوي نبرات صوتنا فلسفتنا في الحياة وما يُسرّه المرء لذاته في كل لحظة حول الأشياء ولكن تلك القسمات لم تكن دونما شك ملك تلك الفتيات وحدهن، فقد كانت ملك ذويهن، إذ الفرد يسبح في ما هو أعمّ منه ولا يقتصر ما يقدمه الأهل بهذا المعرض على تلك الحركة المعتادة التي تؤلفها ملامح الوجه والصوت بل تتعداها إلى بعض طرق القول وبعض الجمل المقررة التي تشير، شأن نغمة الصوت، وفي مثل لاوعيها وعمقها تقريباً إلى وجهة نظر في الحياة. صحيح أن ثمّة بالنسبة إلى الفتيات بعضاً من تلك العبارات لا يورثهن الأهل إياه قبل سن معيّنة ولا يتم ذلك بعامة قبل أن يصبحن نساء، إذ يحتفظ بها بمثابة احتياطي، من ذلك على سبيل المثال أن «آندريه» التي لا تزال ترسل شعرها فوق ظهرها كانت لا تستطيع بعد أن جرى التحدث عن لوحات أحد أصدقاء «إيلستير» أن تستخدم شخصياً العبارة التي تلجأ إليها والدتها وشقيقتها المتزوجة: «يبدو أن الرجل ظريف». ولكن ذلك آتٍ مع الإذن بالذهاب إلى «القصر الملكي»، أما «ألبيرتين» فقد كانت تقول منذ مناولتها الأولى على غرار صديقة لعمتها: «ربّما وجدت الأمر مريعاً بعض الشيء»، وكانوا قد أورثوها بمثابة هدية عادة حمل الناس على ترداد ما يقال لها كي تظهر مظهر من يهتم ويحاول أن يكوّن لذاته رأياً شخصياً فإن قِيل إن رسم أحد الرسامين جيد أو إن بيته جميل: «آه! أهو جيد رسمُه؟ أهو جميل بيتُه؟» وهناك أخيراً ما كان أعمل من التركة العائلية وهي المادة اللذيذة التي تفرضها المقاطعة الأصلية التي استقين منها أصواتهن والتي تنغرس فيها مباشرة نبراتهن. فحينما كانت «آندريه» تهزّ وتر صوت جافٍ لم يكن باستطاعتها أن تمنع وتر مقاطعة «بيريغور» في آلتها الصوتية من إحداث غنّة تتناسب على أيّة حال وصفاء الجنوب في قسماتها؛ أما صبيانيات «روزموند» المستمرة

فكانت ترد عليها مادّة وجهها وصوتها الشماليين بلهجة مقاطعتها، على كرهها لذلك فقد كنت أستشف حواراً جميلاً بين تلك المقاطعة ومزاج الفتاة الذي يملي النبرات. كان حواراً وليس شقاقاً. فليس من شقاق يمكن أن يفصل الفتاة عن مسقط رأسها. فإنّما هي هو أيضاً. وإن رد فعل المواد المحلية على العبقرية التي تستخدمها والتي تزيدها حيوية على أية حال لا تقلل من فردية العمل الفنّي، وسواء أكان عمل مهندس معماري أم نجار أم موسيقي فإنّه لا يقل دقة في عكس أكثر ملامح شخصية الفنان لطفاً، لأنّه اضطر أن يعمل على أحجار «صانليس» الكلسية أو على أحجار «سترازبور» الرملية الحمراء، وأنّه راعى العقد الخاصة بالدردار، وأخذ في حسبانه وهو يكتب إمكانات الترجيع الصوتي وحدوده، وإمكانات الناي أو الالتو.

كنت أتبين ذلك مع أننا كنا نتحدث قليلاً جداً؛ ففيما كنت برفقة السيدة «دو فيلباريسيس» أو «سان لو» أبدي بأقوالي سروراً يفوق بكثير ما قد أحسّ به، كان تمام ما ينتابني من شعور، وأنا مستلق بين تلك الفتيات، يفوق على العكس بما لا يقاس جدب أحاديثنا وندرتها وتفيض من جمودي وصمتي موجات من السعادة يبادر همسها فيحتضر على أقدام تلك الورود الفتية.

إن عطر زهور أو فاكهة، بالنسبة إلى تافه يرتاح طوال يومه في حديقة مزهرة أو بستان، لا يداخل على نحو أكثر عمقاً ما لا يحصى من الأمور التافهة التي تؤلف خموله أكثر مما يفعل بالنسبة إليّ هذا اللون وهذا الشذا اللذان كانت نظراتي تبادر للبحث عنهما على تلك الفتيات واللذان كانت عذوبتهما تمتزج بي في النهاية كذلك الأعناب تزداد في الشمس حلاوة، لقد حملتْ إليّ تلك الألعاب البسيطة جداً، بفعل استمرارها البطيء، حملت إليّ إلى ذلك، كما هو أمر الذين لا يفعلون شيئاً فيما عدا أن يستلقوا على شاطئ البحر يستنشقون الملح ويتعرضون لأشعة الشمس، استرخاء وابتسامة راضية وانبهاراً غامضاً امتدّ حتى عينيّ.

وأحياناً تبعث في صدري التفاتة لطيفة لهذه أو تلك اختلاجات واسعة تبعد عنّي برهة توْقي إلى الأخريات، من ذلك أن «ألبيرتين» قالت ذات يوم: «من معه قلم؟» وزودتها به «آندريه» و«روزموند» بالورق وقالت لهن «ألبيرتين»: «أيتها النساء الصغيرات العزيزات إني أمنعكن من النظر إلى ما أكتب». وبعد ما جدّت في رسم كل حرف أحسن الرسم وقد أسندت الورقة إلى ركبتيها مدتها إلي وهي تقول: «احذر ألا يراها أحد» وقد فتحتها إذ ذاك وقرأت الكلمات التي كتبتها لي: «إنّك تروقني».

ثم صاحت وهي تلتفت بنزق ووقار إلى «آندريه» و«روزموند»: «ولكنه ينبغي لي بدلاً من كتابة الحماقات أن أريكم الرسالة التي سطرتها لي «جيزيل» هذا الصباح، إني معتوهة، فهي في جيبي، وكم يمكن أن يكون ذلك مفيداً لنا!» لقد ظنّت «جيزيل» من واجبها أن تبعث إلى صديقتها بالبحث الذي كتبته في فحص شهادتها كيما تطلع الأخريات عليها وكانت مخاوف «ألبيرتين» من صعوبة الموضوعات المطروحة قد تجاوزت حدودها السابقة من جراء الموضوعين اللذين كان على «جيزيل» أن تختار بينهما فقد نصّ الأول على ما يلي: «يكتب «سوفوكليس» من الجحيم إلى «راسين» ليواسيه بفشل **(آتالي)**» أما الثاني فعلى ما يلي: «افترض أن السيّدة «دو سيفينييه» تبعث برسالة إلى السيّدة «دو لافاييت»، بعد العرض الأول لمسرحية «إيلستير»، لتقول لها كم أسفت لغيابها». وكانت «جيزيل» بفرط حماسة لا بدّ أثرت في نفوس الفاحصين قد اختارت أول هذين الموضوعين وأكثرهما صعوبة وعالجته معالجة بالغة الروعة حازت بها أربع عشرة درجة وتهاني اللجنة الفاحصة ولو لم يُرتج عليها في امتحان اللغة الاسبانية لنالت التقدير «جيد جداً». وقد قرأت علينا «ألبيرتين» في الحال الموضوع الذي بعثت إليها «جيزيل» بنسخة عنه إذ كانت شديدة الرغبة، بما أنّه ينبغي لها أن تقدم الامتحان نفسه، في استطلاع رأي «آندريه» وهي أقدر منهن جميعاً وتستطيع التزويد بوسائل ناجحة وقالت «ألبيرتين»: «لقد حالفها الحظ، فذلك بالضبط موضوع حملتها معلمة الفرنسيّة ههنا على

التعمّق فيه». كانت الرسالة التي سطرتها «جيزيل» على لسان «سوفوكليس» إلى «راسين» تبدأ كما يلي: «صديقي العزيز، اعذرني أن أكتب إليك دون أن أكون حزت شرف معرفتك لي شخصياً، ولكن أليست مأساتك الجديدة «**آتالي**» البرهان على أنّك درست على أتمّ وجه مؤلفاتي المتواضعة؟ فلم تضع أشعاراً على لسان الأبطال أو الشخوص الرئيسيّة في المسرحيّة فحسب، بل سطّرت ما كان منها رائعاً، واسمح أن أقولها دون تملق، لأدوار الكوارس التي كانت محبّذة فيما يُقال في المأساة اليونانية ولكنها في فرنسا تجديد حقيقي، ثم إنّ فنّك الطليق المنمّق الساحر الدقيق الرقيق إلى أبعد حد قد بلغ من القوة ما أهنئك به. أمّا «آتالي» و«جواد» فتلكما شخصيتان ما كان منافسك «كورنيي» ليفلح في تصميم أفضل منهما. إنّ الطباع رجوليّة والحبكة بسيطة ومتينة، وتلك مأساة ليس المحرّك فيها الحب وإني أهنّئك بذلك أصدق التهنئة. إن أكثر التعاليم شهرة ليست على الدوام أكثرها صحة، وسوف أذكر لك مثالاً على ذلك:

«إن الوصف الرقيق لذاك الغرام
هو أكثر الطرق سلامة لبلوغ القلب».

وقد برهنت أن العاطفة الدينيّة التي تفيض بها أدوار كورسك ليست أقل اقتداراً على هز المشاعر وربّما حار الجمهور في أمره ولكن الخبراء الحقيقيّين يعترفون بحقك لقد حرصت على أن أبعث إليك بكامل تهاني التي أقرنها، أيّها الزميل العزيز، بأسمى مشاعري».

ولم تكفّ عينا «ألبيرتين» عن التألق في أثناء القراءة التي قدمتْها، وصاحت حينما أتت على آخرها قائلة: «إنّه ليخيّل إليك أنها نقلت ذلك فما ظننت «جيزيل» في يوم قادرة على تسطير موضوع كهذا وهذه الأبيات التي تستشهد بها! من أين استطاعت أن تختلس ذلك؟» ولم يتوقّف إعجاب «ألبيرتين»، وقد تغير بالحقيقة موضوعه، ولكنّه تزايد عن ذي قبل، ولم يتوقّف، على غرار أكثر صنوف الاجتهاد اطّراداً عن إدهاشها

أعظم الدهشة طوال الوقت الذي تحدّثت فيه «آندريه» بادئ الأمر، بعد ما استشيرت بوصفها أكبر سنّاً وأطول باعاً، عن وظيفة «جيزيل» بشيء من السخرية، ثمّ باستخفاف لا يفلح في إخفاء جدّية حقيقيّة، وأعادت صياغة الكتاب نفسه بطريقتها الخاصّة وقالت لـ«ألبيرتين»: «لا بأس به، ولكنّي لو كنت مكانك وأعطيتُ الموضوع نفسه، وهو أمر ممكن الحدوث لأنّه كثيراً ما يُطرح، فقد لا أفعل كذلك وإليك كيف أتدبّر أمري فيه. أولاً لو كنت «جيزيل» لما سمحت لنفسي بالتسرّع ولكنت سطّرت على ورقة منفردة مخطّط بحثي ففي السطر الأوّل طرح السؤال وعرض الموضوع، ثم الأفكار العامّة التي ينبغي إدخالها في جسم الموضوع، وأخيراً التقييم والأسلوب والختام وإذ استلهمنا على هذا النحو خطوطاً عامّة فإنّنا نعلم أين نتوجّه، لقد أخطأت «جيزيل» منذ عرض الموضوع أو إن فضّلت، منذ الدخول في الموضوع بما أن الأمر أمر رسالة. وما كان يجدر بـ«سوفوكليس» أن يكتب: «صديقي العزيز، وهو يكتب إلى امرئ من القرن السابع عشر» - «كان حريّاً بها أن تجعله يقول: «عزيزي راسين»، تقول «ألبيرتين» وهي تصرخ بانفعال، «فلعلّ ذلك كان أفضل بكثير». وتجيب «آندريه» بلهجة ساخرة بعض الشيء: «لا، كان الأجدر بها أن تكتب: «سيّدي» كذلك كان ينبغي لها في الختام أن تعثر على ما كان من قبيل: «اسمح يا سيّدي، (وعلى الأكثر يا سيّدي العزيز)، أن أعرب لك ههنا عن مشاعر التقدير التي يشرّفني أن أكون بها خادمك». وتقول «جيزيل» من جهة أخرى إنّ أدوار الكورس في «**آتالي**» أمر جديد، إنها تغفل «إيلستير» ومأساتين قليلتي الشهرة ولكنّما تمّ تحليلهما بالضبط هذا العام على يد الأستاذ، حتى إنّكِ ما إن تذكريهما حتى تتأكّدي من النجاح بما أنّ ذلك موضوعه المفضّل وهما «اليهوديّات» لمؤلّفها «روبير غارنييه» و«أمان» لمؤلّفها «مونكريتيان». وذكرت «آندريه» هذين العنوانين دون أن تفلح في إخفاء شعور بالتفوّق المتسامح برز في ابتسامة، ابتسامة لطيفة إلى حد ما على أيّة حال ولم تتمالك «ألبيرتين» نفسها من بعد وصاحت:

«آندريه، إنّك مذهلة ستكتبين لي هذين العنوانين هل تصدقين؟ أيّ نصيب لو امتُحنْتُ فيهما، وحتى في الشفويّ، أذكرهما في الحال فأثير أعظم الدهشة» بيد أنّه في كلّ مرّة طلبت «ألبيرتين» من «آندريه» فيما بعد أن تردّد على مسامعها عنواني المسرحيّتين كي تسجّلهما ادّعت الصديقة الوافرة العلم أنها نسيتهما ولم تذكّرها بهما على الإطلاق وعادت «آندريه» تقول بلهجة الازدراء الخفيّ ازدراء لرفيقات أكثر صبيانيّة، بيد أنها سعيدة مع ذلك أن تنال الإعجاب وتعلّق على الطريقة التي لعلّها كتبت بها امتحانها أهميّة أكبر ممّا تريد أن تُبدي: «ثم لا بدّ أن يكون «سوفوكليس» في الجحيم حسن الاطلاع ولا بدّ أن يعلم إذن أنّ «**آتالي**» لم تُمثَّل أمام الجمهور العريض، بل أمام الملك - الشمس وبعض رجال البلاط من ذوي الحظوة، أمّا ما تقول «جيزيل» بهذا الصدد عن تقدير العارفين فليس سيئاً على الإطلاق بيد أنّه يمكن إتمامه، إذ يستطيع «سوفوكليس» وقد أضحى خالداً، أن يتمتّع بموهبة التنبّؤ يعلن أن «**آتالي**» حسبما يرى «فولتير» لن تكون «رائعة راسين فحسب، بل رائعة الفكر الإنساني» وكانت «ألبيرتين» تتلقّف كل تلك الأقوال، وحدقتاها تشتعلان حماسة وقد رفضت بأشدّ الحنق عرضاً تقدّمت به «روزموند» لمباشرة اللعب ثم قالت «آندريه» باللهجة اللامبالية الوقحة الساخرة بعض الشيء التي تتّسم بحرارة الاقتناع: «وأخيراً، لو أن «جيزيل» سجّلت بهدوء بادئ الأمر الأفكار العامّة التي ينبغي أن تتوسّع فيها فربّما فكّرتْ فيما لعلّني فعلتُ أنا، أي في إبراز الفارق الكائن في الموحيات الدينيّة في أدوار الكورس لدى «سوفوكليس» وتلك الأدوار لدى «راسين» وكنت حملت «سوفوكليس» على ملاحظة أنّه إن كان يطبع الكورسَ لدى «راسين» مشاعرُ دينيّة كالتي في المأساة اليونانية، فليست الآلهة نفسها مع ذلك، إنّ إله «جُواد» لا يمتُّ بأيّة صلة إلى إله «سوفوكليس». وهذا يجيئنا على نحو طبيعيّ تماماً بالخاتمة بعد نهاية الشرح: «ما همَّ أن تكون المعتقدات مختلفة؟» ويهتمُّ «سوفوكليس» بالإلحاح على ذلك، فهو يخشى أن يجرح «راسين» في

معتقده ويهمس بهذه المناسبة ببضع كلمات حول أساتذته في دير«بورويّال» ويفضّل أن يهنّئ صديقه على سمو عبقريته الشعريّة».

كان الإعجاب والاهتمام قد بعثا في صدر «ألبيرتين» من الحماسة ما أخذت تعرق به عرقاً شديداً. أمّا «آندريه» فكانت تحافظ على برودة الأعصاب المشرقة التي تميّز المرأة المتأنّقة، وقالت قبل العودة مجدّداً إلى اللعب: «وليس يسوء كذلك أن يذكر المرء بعض آراء النقّاد المشهورين» فأجابت «ألبيرتين»: «أجل، لقد قيل لي ذلك وإنَّ أفضلها بعامّة آراء «سانت بوف» و«ميرليه»، أليس كذلك؟» - لستِ على ضلال مطلق، إنَّ «ميرليه» و«سانت بوف» لا يعطيان انطباعاً سيئاً ولكنّما ينبغي أن تذكر على وجه الخصوص «ديلتور» و«غاسك ديفوسيّه»، تقول «آندريه» التي امتنعت على أيّة حال عن أن تكتب الاسمين الآخرين على الرغم من توسّلات «ألبيرتين».

وكنت في تلك الأثناء أفكّر في ورقة الدفتر الصغيرة التي ناولتني إيّاها «ألبيرتين»: «إنّك تروقني»، وكنت أقول في نفسي بعد ذاك بساعة، إني أنحدر في الدروب التي تقود إلى «بالبيك» بانحدار شديد في نظري، إنَّ قصّة حبّي واقعة معها لا محالة.

وإن الحالة التي تتميّز بمجمل علامات نتعرّف بها عادة أنّنا عاشقون كمثل الأوامر التي كنت أصدرها في الفندق بأن لا أُوقَظ بداعي أيّة زيارة، إلّا إذا كانت زيارة هذه أو تلك من الفتيات، وخفقات القلب تلك وأنا أنتظرهن (أيّة كانت من تزمع المجيء)، وحنقي في تلك الأيّام إن لم أستطع العثور على حلّاق ليحلق لي ذقني ولا بدّ أبدو قبيحاً أمام «ألبيرتين» أو «رزوموند» أو «آندريه»، كانت تلك الحالة دونما شكّ، إذ تتجدّد على التوالي بالنسبة إلى هذه أو تلك، مختلفة عمّا ندعوه حبّاً اختلاف الحياة البشريّة عن حياة المرجانيّات حيث يتم تقسيم الوجود والفرديّة إن جاز القول بين أجسام مختلفة. بيد أن التاريخ الطبيعي يعلّمنا أنّه يمكن مراقبة مثل هذا التنظيم الحيواني، وليست حياتنا الخاصّة، بشرط أن تكون قد

تطوّرت بعض الشيء، بأقل توكيداً لحقيقة حالات لم نَرْتَبْ بوجودها فيما مضى وينبغي أن نمرّ بها على أن نهجرها فيما بعد، كمثل تلك الحالة الغراميّة المقسّمة في الآن نفسه، في ما يخصّني، بين عدّة فتيات. المقسّمة أو هي بالأحرى غير مقسّمة لأن ما كان أغلب الأحيان لذيذاً في نظري ومختلفاً عن باقي الناس وما أخذ يصبح عزيزاً إلى حدّ أنّ أملي في لقائه في الغد كان يمثّل أفضل مباهج حياتي إنّما كان بالأحرى كامل زمرة تلك الفتيات إذا ما أخِذَت في مجمل فترات العصر تلك فوق الجرف في أثناء تلك الساعات الكثيرة الهواء وفوق شريط العشب الذي حطّت عليه تلك الوجوه المثيرة جدّاً لخيالي، وجوه «ألبيرتين» و«روزموند» و«آندريه»، وذلك دون أن يمكنني القول أية منهن كانت تجعل تلك الأمكنة عزيزة جداً عليّ وأيّة منهنّ كنت أكثر رغبة في عشقها فلسنا في بداية حبّ وفي نهايته على حدّ سواء نتعلّق حصراً بموضوع ذاك الحبّ، وإنّما التوق إلى الحبّ الذي سوف ينبثق عنه (والذكرى التي يخلّفها فيما بعد) ينتقل مغرياً في منطقة من المفاتن تقبل التبادل فيما بينها - مفاتن مبعثها أحياناً محض الطبيعة أو المأكل أو المسكن - وهي منسجمة فيما بينها بما يكفي كي لا يحسّ بالاستغراب بالقرب من أيّ منها. ولمّا لم أكن بعد قد أصبت باللامبالاة في حضرتهنّ فقد كان بإمكاني أن أراهنّ، والأحرى أن أقول إننيأحسّ بدهشة عميقة في كلّ مرّة أجدني في حضرتهنَّ.

وليس من شكّ أنّ مردّ تلك الدهشة في قسم منها أنَّ الكائن يقدّم لنا آنذاك صفحة جديدة من ذاته ولكن، بما أنّ الذاكرة، لكثرة ما يتعدّد كلّ كائن ولوفرة خطوط وجهه وجسمه، تلك الخطوط التي نلقى القليل القليل منها، حالما نبتعد عن شخصه، في تذكّرنا المبّسط الاعتباطيّ، بما أنَّ الذاكرة قد اختارت خاصيّة أثّرت فينا وعزلتها وضخّمتها فجعلت من امرأة بدت لنا مديدة القامة دراسة بلغ فيها طول قامتها مبلغاً تجاوز الحدّ، أو من امرأة بدت لنا مورّدة شقراء محض «ائتلاف ورديّ وذهبيّ»، فإن جميع الميزات الأخرى، حينما نلقى تلك المرأة ثانية بالقرب منّا، تلك الميزات

التي نسيناها والتي توازن تلك الميزة الأولى إنما تجتاحنا في تعقيدها المبهم فتقلّص القامة وتُغرقُ اللون الورديّ وتُحِلُّ محلَّ ما جئنا نبحث عنه حصراً خصائص نتذكّر أنّنا لاحظناها في المرّة الأولى ولا نفهم أنّنا استطعنا ألّا نتوقّع رؤيتها ثانية كنّا نتذكّر طاووساً ونبادر إلى لقائه فنجد زهرة عود الصليب وليست هذه الدهشة المحتّمة وحيدة، فهنالك أخرى تقوم بالقرب منها انبثقت لا عن الفارق بين تزويقات الذكرى والواقع بل بين الكائن الذي رأيناه آخر مرّة وهذا الذي يظهر لنا اليوم من زواية مختلفة ويبرز لنا في هيئة جديدة أن الوجه البشري بالحقيقة، كما هو أمر وجه الإله في تصوّر شرقي للألوهة، شبيه بعنقود كامل من الوجوه التي تتوالى في مستويات مختلفة ولا نراها دفعة واحدة.

بيد أن دهشتنا تتأتّى في قسم كبير منها من أنَّ الكائن يقدّم لنا كذلك صفحة الوجه نفسها. وإنّنا لفي حاجة إلى جهد عظيم لنخلق من جديد كلّ ما توافر لنا بفضل ما ليس ذاتنا - وإن اقتصر على طعم ثمرة - إلى حد أنّنا ما إن يوافينا الانطباع حتى ننحدر على نحو لا شعوري على سفح الذكرى فنجدنا، دون أن نتبيّن الأمر وفي مدى وقت قصير جدّاً، بعيدين جدّاً عمّا أحسسنا به وبذلك يصبح كلّ لقاء جديد ضرباً من التصحيح يردّنا إلى ما سبق أن رأيناه تمام الرؤية وكنّا لا نتذكّره مذ ذاك، لأن ما يُدعى بتذكّر الفرد إنّما هو بالحقيقة نسيانه. بيد أنّنا ما دمنا نحسن النظر فإنّنا نتعرّف الملمح المنسيّ لحظة يبرز لناظرينا ونرى لزاماً علينا أن نصحّح الخطّ المنحرف، وهكذا كانت الدهشة المستمرة الخصبة التي جعلت تلك اللقاءات اليوميّة مع فتيات شاطئ البحر الجميلات نافعة وملَيِّنة إلى حدّ بعيد بالنسبة إليّ، إنّما تنسجها الذكرى بقدر ما تفعل الاكتشافات. وإن أضفنا إلى ذلك الاضطراب الناجم عمّا كنّ بالنسبة إليَّ، ولم يكن في يوم تمام ما سبق أن ظننت، وكان من جرّائه أن لم يعد أمل اللقاء شبيهاً بالأمل السابق بل بذكرى الحديث الأخير الذي لا يزال يخفق في صدري، أدركنا أن كل مشوار كان يدخل تصحيحاً عنيفاً على أفكاري، ولم يكن على

الإطلاق في الاتجاه الذي أمكن أن أخطّه بترَوٍّ في عزلة غرفتي. فذلك الاتجاه كان يطويه النسيان ويمحي حينما أعود تدوّي في رأسي كمثل خليّة النحل الأقوال التي بعثت الاضطراب في نفسي والتي يظلّ وقعها في نفسي فترة طويلة. إن كلّ كائن يبيد حينما نكفّ عن رؤيته، ثم يجيء ظهوره التالي بمثابة عمليّة خلق جديدة مختلفة عن التي سبقتها مباشرة، إن لم تختلف عنها جميعها. ذلك أن الحدّ الأدنى للتنوّع الذي يمكن أن يسود عمليّات الخلق هذه أحد اثنين فإذ نتذكّر نظرة حازمة وهيئة جريئة فسوف تدهشنا حتماً، أي سوف تؤثّر فينا وحدها فقط في المرّة التالية، في اللقاء المقبل، صورة تقارب الوهن وضرب من النعومة الحالمة، وهما أمران أهملناهما في الذكرى السابقة وإنّما ذلك، في مقارنة ذكرانا بالواقع الجديد، ما سوف يُبرز خيبتنا أو دهشتنا ويبدو لنا بمثابة تصحيح الواقع فيما ينبّهنا إلى أنّنا أسأنا التذكّر. ويصبح مظهر الوجه الذي أهملناه آخر مرّة، وقد أضحى لهذا السبب نفسه الأكثر تأثيراً في هذه المرة والأوفر حقيقة والأكثر تصويباً، يصبح مادّة حلم وذكريات. وإنما الصورة الواهنة المستديرة والملامح الناعمة الحالمة ما سوف نرغب في رؤيته ثانية. ويبادر إذ ذاك من جديد في المرّة التالية ما كان حازماً في العينين الثاقبتين والأنف المستدقّ ليصحّح الفرق الكائن بين رغبتنا والموضوع الذي حسبتْ أنها تقابله. ولم يكن ذلك الإخلاص للانطباعات الأولية الماديّة الصرفة التي أعود فألقاها كلّ مرّة بالقرب من صديقاتي، لم يكن يتعلّق بالطبع بمحض ملامح وجههنَّ، فقد رأين أنني كنت أتأثّر أيضاً بصوتهن، وربما كان أوقع أثراً (لأنّه لا يزودّنا بالمساحات الفريدة الشهوانية نفسها فحسب، بل يؤلّف جزءاً من الهاوية التي لا يدرك قرارها والتي تولي دوار القبلات التي لا أمل فيها)، صوتهن الشبيه بالرنّة الفريدة لآلة صغيرة كانت كلّ منهنّ تضع كامل ذاتها فيها وكانت تنفرد بها، وكان هذا الخطُّ العميق أو ذاك في واحد من تلك الأصوات، خطّ رسمته نبرة خاصّة، كان يدهشني حينما أتعرّفه بعدما نسيته حتى إنّ التصويبات التي كنت أضطرّ إلى القيام بها في

كل لقاء جديد للعودة إلى الدقّة التامّة إنما كانت على حد سواء تصويبات ضابط أوتار أو أستاذ نشيد ورسّام.

فأما التلاحم والانسجام اللذان كانت تنعدم فيهما منذ بعض الوقت، من جراء المقاومة التي تبديها كل واحدة في وجه توسّع الأخريات، الموجات العاطفية المختلفة التي تشيعها في نفسي تلك الفتيات، فقد اختلا لصالح «ألبيرتين» في عشيّة كنّا نلعب فيها لعبة الخاتم، وكان ذلك في حرج صغير فوق الجرف، وإذ كنت بين فتاتين غريبتين عن المجموعة الصغيرة وقد جرى اصطحابهما لأنه كان ينبغي أن نكون كثيري العدد في ذلك اليوم أخذت أنظر نظرة حسد إلى جار «ألبيرتين» الشاب، وأقول بيني وبين نفسي إنه لو اتفق لي مكانه لاستطعت ملامسة يدي صديقتي في أثناء هذه الدقائق غير المترجاة التي ربما لن تعود، ولعلها استطاعت أن تذهب بي بعيداً جداً. وملامسة يدي «ألبيرتين» وحدها ربما بعثت النشوة في نفسي حتى بمعزل عن النتائج التي قد تستجرّها ولا ريب، لا لأنني لم أشاهد في يوم أجمل من يديها، فقد كانت يدا «آندريه»، حتى ضمن زمرة صديقاتها، وهما هزيلتان وأكثر نعومة، تزخران كأنما بحياة خاصة تسلسل القياد لأوامر الفتاة ولكنها مستقلة، وكانتا تمتدان في الغالب أمامها كسلوقيّين جميلين بصنوف من التراخي والأحلام الطويلة وتمطيات مفاجئة لإحدى السلاميات والتي قام «إيلستير» من جرائه بدراسات عديدة حول هاتين اليدين. وكانتا في واحدة منها تشاهَد فيها «آندريه» وهي تدفئهما قرب النار فتكتسبان تحت الأضواء الشفافية المذهبة التي لورقتين خريفيّتين. ولكن يدي «ألبيرتين»، وهما أوفر سمنة، كانتا تستسلمان لحظة ثم تقاومان ضغط اليد التي تشد عليهما مخلفة إحساساً خاصاً تماماً - لقد كان للشد على يد «ألبيرتين» عذوبة تشيع في الحواس وكأنما تنسجم مع لون بشرتها الوردي الضارب قليلاً إلى البنفسجي. كان ذلك الشد يبدو وكأنه يدخلك في الفتاة، في أعماق حواسها، كمثل رنين صوتها اللامحتشم على غرار الهديل أو بعض الأصوات. لقد كانت في عداد تلك

النساء اللواتي يولينك متعة كبيرة في الشد على يدهن حتى لتمتنّ للحضارة التي جعلت المصافحة عملاً مصرّحاً به بين الشبّان والشابات في تلاقيهم. ولو أن عادات التأدّب المرتجلة أحلّت محلّ الشد على الأيدي حركة أخرى لكنت نظرت كل يوم إلى يدي «ألبيرتين» المحرّمتين وبي شوق إلى معرفة ملمسهما يماثل في حرارته شوقي إلى معرفة طعم وجنتيها. ولكنني لم أكن أتطلع في متعة الاحتفاظ بيديها بين يدي فترة طويلة إلى تلك المتعة وحدها لو كنت بجوارها في لعبة الخاتم. فكم من صنوف البوح والتصريحات التي كتمها الحياء حتى ذاك كنت أستطيع أن أحمّل بها بعض الضغط على يديها، وكم كان يهون عليها، إذ تستجيب بضغط آخر، أن تعرب لي عن قبولها، وأي تواطؤ وأية بدايات تلذذ! كان يمكن أن يحرز حبي في مدى بضع دقائق أقضيها على هذا النحو بالقرب منها تقدماً أوفر مما تمّ له مذ عرفتها. وإذ أحسست أنها لن تدوم طويلاً وأنها صائرة إلى نهايتها عما قريب، إذ لن نستمر وقتاً طويلاً دونما شك في هذه اللعبة الصغيرة، وأنه ما إن تنتهي حتى يفوت الأوان، لم أعد أطيق اصطباراً. وتركتُني عمداً آخذ الخاتم، وحينما أصبحت في الوسط تظاهرت لدى مروره بأني لم أنتبه له ولاحقته بنظراتي بانتظار اللحظة التي سيقع فيها بين يدي جار «ألبيرتين» التي كانت وهي تضحك بكل قواها مورّدة الوجنتين تماماً وسط الحماسة والمسرّة اللتين يشيعهما اللعب، وقالت لي «آندريه»: «إننا بالضبط في الغابة الجميلة»، وهي تشير إلى الأشجار التي تحيط بنا بابتسامة في العين خُصِصتُ بها وحدي؛ وتبدو وكأنها تمرّ من فوق رؤوس اللاعبين كما لو كنّا وحدنا على قدر من الذكاء يمكننا من بلوغ ازدواج الشخصية والإدلاء بشأن اللعبة بملاحظة ذات طابع شاعري. وبلغت بها رقة روحها أن أخذت تغني دون أن تكون بها رغبة في ذلك: «لقد مرّ من هنا ابن مقرض الغابة يا سيداتي، لقد مرّ من هنا ابن مقرض الغابة الجميلة» شأنها شأن الذين لا يستطيعون الذهاب إلى «تريانون» دون أن يقيموا فيه احتفالاً من طراز لويس السادس عشر، أو الذين يجدون إثارة

في أن يُنْشَدَ لحن في الإطار الذي كتب من أجله. ولعلني على العكس كنت اغتممت دونما شك ألا أرى روعة ذلك الإنجاز لو اتسع لي الوقت للتفكير فيه. ولكن فكري كان في مكان آخر. وقد شرع اللاعبون واللاعبات يدهشون لغبائي وأنني لا آخذ الخاتم. وكنت أنظر إلى «ألبيرتين» الجميلة اللامبالية المرحة التي تزمع أن تصبح بجواري، دون أن تتوقع ذلك، حينما أوقف الخاتم أخيراً في اليدين اللازمتين بفضل حيلة لم تكن ترتاب بها ولولا ذاك لأغضبتها. وفي حرارة اللعب انحلّ شعر «ألبيرتين» الطويل وتهاوى خصلاً جعدة على وجنتيها اللتين كان يُبرز لونَ بشرتهما الوردية أفضل من ذي قبل بفضل سواده الجاف. وقلت لها وأنا أميل على أذنها كيما أتقرّب منها: «إن لك جدائل «لورا ديانتي» و«إيليونور دو غويين» وسلسلتها التي أحبها «شاتوبريان» حباً جمّاً. ويجدر بك أن يظل شعرك على الدوام مسترسلاً بعض الشيء». وفجأة مرّ الخاتم في يد جار «ألبيرتين»، فوثبت في الحال، وفتحت يديه بشراسة وأمسكت بالخاتم. واضطر أن يبادر إلى مكاني في وسط الدائرة واحتللت مكانه إلى جانب «ألبيرتين». كنت لبضع دقائق خلت أحسد ذلك الشاب حينما كنت أبصر يديه تلتقيان في كل لحظة، بانزلاقهما على الحبْلة، بيدي «ألبيرتين». أمّا الآن وقد جاء دوري فلم أعد أحسّ، وأنا شديد الحياء لأبحث عن تلك الملامسة، شديد الانفعال كيما أتذوّقها، بغير خفق قلبي السريع المؤلم. وفي إحدى اللحظات أحنت «ألبيرتين» صوبي محيّاها المكتنز المورّد بهيئة المتواطئ متظاهرة بذلك أن الخاتم معها كيما تخدع «ابن مقرض» وتحول دون أن ينظر إلى الجانب الذي يمر فيه الخاتم. وأدركت في الحال أن ما كانت تضمره نظرة «ألبيرتين» إنما يتعلق بتلك الخدعة، ولكن اضطربت إذ رأيت صورة سرّ واتفاق لا وجود لهما بيني وبينها تمر على هذا النحو في عينيها، والصورة محض تظاهر لضرورات اللعبة، إلا أنه بدا مذ ذاك أن السرّ والاتفاق ممكنان ولعلهما يجلبان لي عذوبة سماوية. وفيما كانت الفكرة تلهب مخيلتي أحسست بيد «ألبيرتين» تضغط

ضغطاً خفيفاً على يدي وإصبعها اللطيف ينزلق تحت إصبعي ورأيت أنها توجّه إليّ في الوقت نفسه غمزة من عينيها كانت تحاول أن تجعلها خفيّة، وتركّزت في الحال، دفعة واحدة، جمهرة من الآمال ظلّت حتى ذاك خفيّة عليّ، وفكرت في نفسي قائلاً وأنا في قمة الفرح: «إنها تغتنم فرصة اللعبة كي تشعرني بأني أحسن في عينها»، قمة هويت منها في الحال حينما سمعت «ألبيرتين» تقول بحنق: «خذه، ويحك، فقد انقضت ساعة وأنا أعطيك إياه». وأفلتُّ الحبلة وقد دوخني الغم فأبصر «ابن مقرض» الخاتم وانقض عليه واضطررت أن أعود إلى الوسط يائساً وأنا أنظر إلى الحلقة المجنونة التي توالي رقصها من حولي وتلاحقني صيحات جميع اللاعبات الساخرة فأضطر للرد عليها أن أضحك في حين لا رغبة لي في ذلك، فيما لا تكف «ألبيرتين» عن قولها: «لا يلعب الناس حينما لا يريدون الانتباه وكيما يخسر غيرهم. لن ندعوه من بعد في الأيام التي نلعب فيها «آندريه» أو لا أجيء أنا». وشاءت «آندريه»، وهي متفوقة في اللعب وكانت تغني أغنية الغابة الجميلة التي ترددها «روزموند» بداعي روح التقليد ودونما قناعة، شاءت أن تشغلني عن مآخذ «ألبيرتين» عليّ بقولها: «نحن على خطوتين من حقلة «كرونييه» التي كنت راغباً جداً في زيارتها. هيا، فإني سأقودك إلى هناك في درب صغير جميل بينما تتصرّف تلك المجنونات كأطفال في الثامنة». ولما كانت «آندريه» شديدة اللطف معي فقد قلت لها في الطريق كل ما يبدو لي من شأنه أن يحبّبني إلى هذه الأخيرة. وأجابتني إنها بدورها تحبها كثيراً وتجدها ظريفة، بيد أن امتداحي لصديقتها لم يبدُ وكأنه يسرها. وفجأة توقفت في الدرب الصغير الخالي وقد أصابتني في الصميم ذكرى حلوة من أيام الطفولة: فقد تعرّفت، بفضل الأوراق المقطّعة الملتمعة التي تمتد ناحية العتبة، دغلاً من شجيرات الزعرور البيض تعرّت من أزهارها، للأسف، منذ أواخر الربيع. وتدافع من حولي عبق من أشهر مريمية قديمة وأمسيات آحاد واعتقادات وغوايات منسيّة ووددت لو ألتقطها. وتوقفت مقدار ثانية وأفسحت لي «آندريه» المجال

بتبصّر رائع للتحدث لحظة مع أوراق الشجيرة وساءلتها عن أخبار الأزهار، أزهار الزعرور البيضاء تلك الشبيهة بفتيات مرحات طائشات ذوات غنج وتقى. كانت الأوراق تقول لي: «لقد ارتحلت تلك الأوانس منذ فترة طويلة» وربما ظننت أنني ما كنت أبدو، بالنظر إلى الصداقة العظيمة التي أدّعي أني أكنها لها، على اطلاع تام بعاداتها، صداقة عظيمة ولكن صاحبها لم ير أزاهيره ثانية منذ سنوات كثيرة على الرغم من وعوده مع أنها سبق أن كانت حبي الأول لإحدى الأزاهير كما سبق أن كانت «جيلبيرت» حبي الأول لإحدى الفتيات. وأجبت قائلاً: «أجل، أعلم، إنّها ترتحل في حوالي النصف من حزيران، ولكنما يسرني أن أرى المكان الذي سكنت فيه ههنا. فقد جاءت تزورني في «كومبريه» داخل غرفتي وقد جاءت بها أمي عندما كنت مريضاً؛ وكنا نعود فنلتقي مساء السبت في الشهر المريمي. وهل يمكنها الذهاب إليه هنا؟» - «بالطبع! ثمة اهتمام كبير على أية حال بدعوة تلك الأوانس إلى كنيسة «سان دوني دو ديزير»، وهي أقرب رعيّة في الجوار». - «والآن كيف أراها إذن؟» - «لن يمكن ذلك قبل شهر أيار من السنة القادمة» - «وهل يمكنني التأكد أنها ستكون هناك؟» - «كل سنة بانتظام». - «ولكنني لا أدري إن كنت سألقى المكان بالضبط». - بلى! فتلك الأوانس بالغات المرح لا يتوقفن عن الضحك إلا لإنشاد الترانيم حتى إنه لا مجال ثمة للخطأ وستتعرّف عطرَها في أول الدرب».

ولحقتُ بـ«آندريه» وعدت أثني على «ألبيرتين» أمامها. كان يبدو مستحيلاً في نظري أن لا تردّد الثناء على مسمعها بسبب الإلحاح الكبير الذي أبديته. ولكني لم أُبَلّغ في يوم أنّ «ألبيرتين» عرفتها. مع أن «آندريه» كانت أكثر إدراكاً منها لأمور القلب وتبدي رقة في تلطّفها، فالعثور على النظرة والكلمة والفعلة التي يمكن أن تشيع السرور ببراعة ما بعدها براعة، وكتم ملاحظة ربما أولت غماً، والتضحية (فيما تبدو وكأنما لا تضحية هناك) بساعة من اللعب، بل بالصباح بطوله، وبحفلة راقصة في الهواء الطلق لتظل إلى جانب صديق أو صديقة كئيبة ولتعرب له على هذا النحو

أنها تفضل مجرد الاجتماع به على تلك المتع الطائشة، تلكم كانت صنوف لطفها المعتادة. إلا أنك حينما كنت تزداد بها معرفة فإنما يخيل إليك أن أمرها أمر هؤلاء الرعاديد الأبطال الذين يرفضون أن يخافوا والذين تبدو شجاعتهم جديرة بالثناء على وجه الخصوص. ولكأنّما لم يكن في أساس طبيعتها شيء من تلك الطيبة التي تعرب عنها في كل حين يدفعها التأنق الأخلاقي والإحساس والمقصد الكريم في أن تظهر مظهر الصديقة المحبة. وكان يبدو، إمّا أصغيتَ إلى الأشياء الحلوة التي تنقلها إليّ عن مودّة ممكنة بيني وبين «ألبيرتين»، أنّه ربما انبغى أن تعمل بكل قواها على تحقيقها ولكنها، وربما كان الأمر تصادفاً، لم تلجأ البتة إلى أقلّ تملك ممّا يمكن أن يجمعني بـ«ألبيرتين»، ولست أقسم أنْ لم يبعث سعيي لخطب ودّ «ألبيرتين» سخطاً في نفسها، تحسن كتمه على أية حال وربما حاربته عن رهافة شعور، إن هو لم يلد لدى صديقتها حيلاً خفية من شأنها مقاومته. ولعل «ألبيرتين» كانت عاجزة عن آلاف صنوف اللطف المتأنق الذي تملكه «آندريه»، بيد أني لم أكن متيقناً من عمق الطيبة لدى هذه مثلما تمّ لي ذلك فيما بعد بشأن الأولى. كانت «آندريه»، إذ تبدو على الدوام رقيقة متسامحة إزاء طيش «ألبيرتين» المتفجر حيوية، تجود لها بأقوال وبسمات تطبعها الصداقة، بل وأكثر، فقد كانت تتصرف تصرف صديقة. لقد رأيتها يوماً إثر يوم تنفق، كيما تفيد تلك الصديقة الفقيرة من ترفها وكيما تسعدها، تنفق من الجهد، دون أن تكون لها أية مصلحة، أكثر من رجل بلاط يريد كسب حظوة لدى الملك. كانت رائعة عذوبةً وكلماتٍ حزنيةً ولذيذة حينما يُرثَى في حضرتها لفقر «ألبيرتين» وتتكلف في سبيلها جهوداً تفوق ألف مرّة ما لعلها تنفق في سبيل صديقة غنية. ولكن سحابة تكاد لا ترى كانت تغشي جبين «آندريه» وعينيها إن قال أحد أمامها إنّ «ألبيرتين» ليست فقيرة بالقدر الذي يقولون؛ وكانت تبدو معكّرة المزاج. فإن بلغ بهم أن يقولوا إنّ تزويج «ألبيرتين» أقلّ صعوبة، أية كانت الأحوال، ممّا يظنّون، كانت تعارضك بقوّة وتردّد بما يقارب الحنق:

«بلى، واأسفي، سوف لا يمكن تزويجها! إني أعلم ذلك تمام العلم، والأمر يبعث الغم في نفسي!» وكانت حتى الوحيدة من بين تلك الفتيات التي لعلها لم تردّد أمامي البتّة، في ما يخصني، أمراً مزعجاً إلى حدّ ما أمكن أن يُقال عني. بل وأكثر من ذلك كانت تتظاهر، إن رويتُ عنه بنفسي، بأنها لا تصدقه أو هي تفسره بما يجعل القول عديم الأذى، وإنما مجمل هذه الصفات ما يسمى باللباقة. وهي وقف على الناس الذين يهنئوننا إن ذهبنا إلى الميدان، ويضيفون أنه لم يكن ما يدعو للإقدام على ذلك كي يزيد في أعيننا من الشجاعة التي أبديناها دون أن نكون اضطررنا إليها. وهم نقيض الذين يقولون في المناسبة نفسها: «لا بدّ أنك شعرت بإزعاج كبير في أن تقاتل، ولكنك لم تستطع من جهة أخرى أن تقبل بمثل تلك الإهانة، وما كان يمكنك أن تفعل غير ما فعلت». ولكن، بما أن لكل أمر ما له وما عليه، لئن دلت المتعة أو اللامبالاة لدى أصدقائنا بأن يرددوا على مسامعنا أمراً مهيناً قيل بحقنا على أنهم لا يتعاطفون معنا لحظة يحدثوننا ويغرسون الدبوس والسكين في جلدنا وكأنما في كرة منفوخة، فإن فن كتمنا على الدوام ما يمكن أن يكدرنا فيما بلغهم عن أعمالنا أو في الرأي الذي أوحت به إليهم تلك الأعمال إنما يمكن أن يدل لدى الفئة الأخرى من الأصدقاء، لدى الأصدقاء ذوي اللباقة الجمة، على قدر كبير من النفاق. وإنه لا ضير منه إن هم بالفعل لا يستطيعون التكفير بالسوء وإن كان ما يُقال من سوء يعذبهم بقدر ما قد يعذبنا بدورنا، كنت أظن أن تلك حالة «آندريه»، دون أن أتأكد تماماً مع ذلك من الأمر.

وكنا قد خرجنا من الغابة الصغيرة وسرنا في مجموعة من الدروب التي قلّما تطرقها الأقدام، وتبدو «آندريه» عارفة بها تماماً. وقالت لي فجأة: «هيا، إليك محلة «كرونيبيه» الشهيرة، وقد حالفك الحظ إلى ذلك، إليكها في الوقت الذي رسمها فيه «إيلستير» وفي الضياء نفسه». على أني كنت لا أزال شديد الغم لأنني هويت في أثناء لعبة الخاتم من قمة الآمال تلك. ولذلك لم يتيسر لي، بالمتعة التي لا بدّ كنت أحسست بها لولا

ذاك، أن أميز تحت قدمي «الإلهات» البحرية المختبئة بين الصخور حيث تتّقي الحر، تلك التي ترصّدها «إيلستير» وفاجأها تحت طبقة لونية عاتمة في مثل جمال ما قد تصنعه يد أمثال «ليوناردو»، «الظلال» الرائعة المحتمية الخفية، الرشيقة الصامتة، المتأهبة لدى أول خفقة نور للهرب تحت الصخور والاختباء في حفرة، وسرعان ما تعود، ما إن يزول خطر الشعاع الضوئي، بالقرب من الصخرة أو الأشنية وتبدو، في أشعة الشمس، مفتَّتة الجروف والمحيط الشاحب، وكأنها تسهر على إغفاءتهما حارسات رشيقات لا حراك بهن يُبرزن على صفحة الماء جسمهن اللزج والنظرة المتيقظة في عيونهن الداكنة وعدنا للقاء الفتيات الأخريات بغية العودة، كنت أعلم الآن أني أحب «ألبيرتين»، ولكني ما كنت أهتم واأسفي بأن أطلعها عليه ذلك أنه منذ زمن اللعب في «الشانزيليزيه»، إن ظل من تعلق بهم قلبي على التوالي متماثلين تقريباً، فقد أضحى تصوري للحب مختلفاً. فالبوح بمودتي، وإعلانها لمن كنت أحبها، لم يعد يبدو لي، من جهة، أحد المشاهد الرئيسية والضرورية، في الحب، ولا هذا الحب حقيقة خارجية، بل متعة ذاتية فحسب. أما تلك المتعة، فقد كنت أحس أن «ألبيرتين» سوف تفعل ما ينبغي لتصونها بطيبة خاطر تتزايد بقدر ما ستجهل أني أشعر بها.

لم تكن صورة «ألبيرتين» الغارقة في الضياء المنبعث من الفتيات الأخريات وحيدة في العيش داخلي أثناء تلك العودة ولكن، كما أن القمر الذي لا يعدو كونه غيمة بيضاء صغيرة ذات شكل أكثر تميزاً وثباتاً في أثناء النهار يكتسب كامل قوته بعدما يزول هذا الأخير، كذلك كانت صورة «ألبيرتين» وحدها هي التي ارتفعت من فؤادي، بعدما عدت إلى الفندق، وأخذت تتلألأ، وأخذت غرفتي تبدو لي جديدة على نحو مفاجئ، لقد انقضى بالتأكيد زمن طويل منذ لم تعد غرفة العشية الأولى العدائية، فإننا نغيّر دون كلل في سكنانا من حولنا، وكلما جعلتنا العادة في حلّ من الإحساس ألغينا العناصر الضارّة التي كانت تجسّد قلقنا من لون وحجم

ورائحة. ولم تعد كذلك الغرفة التي لا تزال واسعة السلطان على إحساسي، لا لتعذبني بالتأكيد، بل لتزودني بالمسرة، لم تعد حوض الأيام الحلوة الشبيه بمسبح كانت تلك الأيام تبعث فيه إلى نصفه التماعات زرقة بللها النور يغطيها مقدار لحظة شراع هارب ينعكس فيها هوائياً أبيض كدفقة من دفء، ولا غرفة عشيات الرسم الجمالية البحتة. لقد أضحت الغرفة التي مكثت فيها العديد من الأيام حتى لم أعد أبصرها من بعد وها إني أخذت من جديد أفتح عيني عليها ولكن من وجهة النظر الأنانية هذه التي هي وجهة نظر الحب. في هذه المرة كنت أفكّر أن المرآة الجميلة المائلة والمكتبات الأنيقة المزجّجة سوف تخلف في نفس «ألبيرتين» فكرة طيبة عني إن هي جاءت لزيارتي وعوضاً عن مكان عبور أقضي فيه لحظة قبل الهروب باتجاه الشاطئ أو باتجاه «ريفبيل» أخذت غرفتي تصبح من جديد حقيقية وغالية عليّ وأخذت تتجدد إذ كنت أنظر إلى كل قطعة أثاث فيها وأقدرها بعيني «ألبيرتين».

وبعد لعبة الخاتم ببضعة أيام أسعدنا أعظم سعادة، وقد حملتنا أقدامنا إلى مكان بعيد جداً في إحدى نزهاتنا، أن نلقى في «مينفيل» عربتين صغيرتين بعجلتين يمكّناننا من العودة ساعة العشاء، وقد كان من جراء حدة حبي المتنامي لـ«ألبيرتين» أن عرضت على التوالي على «روزموند» و«آندريه» أن يصعدا إلى جانبي، ولم أفعل مرة واحدة بالنسبة إلى «ألبيرتين»، وإن حملت الجميع بعد ذلك، بفضل اعتبارات ثانوية تتعلق بالساعة والطريق والمعاطف، على أن يقرروا، وكأنما غصباً عني، أن أفضل أمر عملي هو أن أنقل معي «ألبيرتين» التي تظاهرت بأنني أسلّم برفقتها مكرهاً. ولكن الحب إذ يسعى للأسف إلى التمثل التام لأجد الكائنات، وليس فهم من كان صالحاً للأكل بمجرد المحادثة، فعبثاً كانت «ألبيرتين» لطيفة ما استطاعت في أثناء تلك العودة فقد تركتني، بعدما أوصلتها إلى منزلها، سعيداً ولكني أشد جوعاً إليها مما كنت ساعة البداية ولا أحتسب اللحظات التي قضيناها معاً سوى تمهيد، لا أهمية له في حد

ذاته، لتلك التي سوف تتلوها. ولكنما كان يتّسم بذلك السحر الأول الذي لا تلقاه ثانية. لم أكن بعد قد طلبت شيئاً من «ألبيرتين»، وكان بوسعها أن تتخيل ما كنت أرغب فيه، وإذ هي غير متيقنة منه، أن تفترض أني لا أرمي إلا إلى علاقات لا هدف واضحاً لها ولا بد أن صديقتي تلقى فيها هذا الغموض اللذيذ الزاخر بالمفاجآت المرتقبة الذي هو الحب الخيالي.

ولم أحاول لقاء «ألبيرتين» على الإطلاق في الأسبوع التالي. كنت أتظاهر بتفضيل «آندريه». فالحب ينشأ، وتودّ أن تظل في نظر التي تحبها المجهول الذي يمكن أن تحبه، ولكنك بحاجة إليها، وأنت أقل حاجة إلى ملامسة جسدها منك إلى انتباهها وفؤادها. تدس في رسالة قولاً مسيئاً يضطر اللامبالية أن تطلب منك لفتة لطيفة، فيضيق الحب بالنسبة إلينا بحركة متناوبة التشابكات التي لا نستطيع فيها من بعد لا أن لا نحب ولا أن نحب. كنت أكرّس لِـ«آندريه» الساعات التي تذهب فيها الأخريات إلى حفلة بعد الظهر أعلم أن «آندريه» تضحّي بها من أجلي بسرور، ولعلها كانت تضحي بها من أجلي حتى بانزعاج بداعي التأنق الأخلاقي وكي لا تخلّف لدى الآخرين ولدى نفسها فكرة أنها تعلق أهمية على متعة دنيوية نسبياً وهكذا كنت أتدبّر أمري لتكون معي وحدي في كل مساء، ولا أفكر في إثارة غيرة «ألبيرتين»، بل في زيادة مهابتي في عينيها أو ألا أفقدها على الأقل إذ أنقل إلى «ألبيرتين» أنها هي من أحب لا «آندريه» وما كنت أقول الأمر كذلك لـ«آندريه» مخافة أن تردده لها. وحينما كنت أتحدث عن «ألبيرتين» مع «آندريه» كنت أتظاهر بفتور ربما كانت «آندريه» أقل اغتراراً به مني وبسرعة تصديقها الظاهرة كانت تتظاهر بتصديق قلّة إكتراثي بـ«ألبيرتين» وبالرغبة في أتمّ وفاق ممكن بيني وبين «ألبيرتين»، والأرجح أنها على العكس لم تكن تصدق الأولى ولا تتمنى الثاني، وفيما كنت أقول لها إني قليلاً ما أهتم بصديقتها لم أكن أفكر إلا في أمر، أن أحاول إقامة صلة بالسيدة «بونتان» التي جاءت لتقيم بضعة أيام على مقربة من «بالبيك» والتي تزمع «ألبيرتين» أن تمضي لديها ثلاثة أيام. ولم أدع بالطبع لِـ«آندريه» أن

تستشفّ الرغبة وحينما كنت أحدثها عن أسرة «ألبيرتين» فبالمظهر الشارد أكثر ما يكون الشرود أفعل. وما كانت تبدي «آندريه» بإجاباتها الواضحة أنها ترتاب بصدقي. فلماذا زلقت إذن وقالت لي ذات يوم: «لقد رأيت بالضبط عمة «ألبيرتين»؟ صحيح أنها لم تقل لي: «لقد تبينت تماماً في أقوالك التي تلقيها كأنما جزافاً أنك لا تفكر إلا في إقامة صلات بعمة «ألبيرتين»، ولكنما كانت كلمة «بالضبط» تبدو وكأنها إنما تتعلق بوجود تلك الفكرة في ذهن «آندريه»، تلك الفكرة التي ترى أكثر تأدباً أن تخفيها عني كانت من فصيلة بعض النظرات وبعض الحركات التي، وإن لم تكتسب صيغة منطقية عقلانية أعدَّت إعداداً مباشراً في سبيل إفهام من يسمع، إنما تبلغ إليه مع ذلك بمدلولها الحقيقي، مثلما الكلام البشري يعود، بعد ما استحال كهرباء في خط الهاتف، فينقلب كلاماً من جديد بغية أن يتم فهمه، وكيما أزيل من ذهن «آندريه» فكرة اهتمامي بالسيدة «بونتان» لم أعد أتحدث عنها بشرود فحسب، بل بنية الإضرار بها، وقلت إني التقيت فيما مضى بتلك المجنونة وأملي ألّا يتفق لي ذلك من بعد.

وحاولت أن أحصل على وعد من «إيلستير» بأن يحدثها عني ويجمعني بها، ولكن دون أن أقول لأحد إنني رجوته بذلك ووعدني بأن يعرّفني بها وهو مع ذلك في دهشة أن أتمنى الأمر فقد كان يعتبرها امرأة محتقرة دساسة نفعية بقدر قلة ما تثير من اهتمام. وإذ فكرت أن «آندريه»، إن أنا لقيت السيدة «بونتان» سوف تعلم الأمر عاجلاً أم آجلاً، فقد ظننت من الخير لي أن أنبئها بذلك فقلت لها: «إن الأمور التي يحاول المرء أكثر ما تكون المحاولة الهرب منها هي التي يبلغ بنا الأمر ألا نستطيع تجنبها فليس في الدنيا ما يمكن أن يزعجني بقدر لقاء السيدة «بونتان»، ولن أفلت منه مع ذلك إذ يزمع «إيلستير» أن يدعوني وإياها»، وصاحت «آندريه» بمرارة: «لم أشك في ذلك لحظة واحدة»، فيما راحت نظرتها التي وسعها الاستياء وعكّرها تلاحق ما لست أدري من أمر خفي لم تكن كلمات «آندريه» تؤلف العرض الأوفر ترتيباً لفكرة يمكن تلخيصها كما يلي: «أعلم

تمام العلم أنّك تحب «ألبيرتين» وأنك تفعل ما بوسعك للتقرب من أسرتها» ولكنها كانت البقايا التي لا شكل لها والتي يمكن إعادة تأليفها، بقايا تلك الفكرة التي إذ صدمتها على الرغم من «آندريه». لم يكن لتلك الأقوال، شأن كلمة «بالضبط» من دلالة إلا بالدرجة الثانية، الأمر الذي يعني أنها من تلك التي توحي إلينا (وليست من التوكيدات المباشرة) بالتقدير أو الارتياب إزاء أحد الناس وتوقعنا في خلاف معه.

وبما أن «آندريه» لم تصدّقني حينما كنت أقول لها إن أسرة «ألبيرتين» لا تثير اهتمامي، فلأنها كانت تظن أني أحب «ألبيرتين» والأرجح أنها ما كانت سعيدة بذلك.

كانت دوماً ثالثتنا في لقاءاتي بصديقتها. بيد أن ثمة أياماً كان عليّ أن ألقى فيها «ألبيرتين» وحدها، أياماً كنت أنتظرها انتظار المحموم وتنقضي دون أن تجيئني بأي أمر حاسم ودون أن تكون ذلك اليوم المهم الذي كنت أعهد بدوره في الحال إلى اليوم التالي الذي لن يؤديه على نحو أفضل. وهكذا كانت تنهار، مثلما الأمواج، تلك القمم الواحدة تلو الأخرى، وتحل غيرها محلها في الحال.

وبعد حوالي شهر من اليوم الذي لعبنا فيه لعبة الخاتم، قيل إن «ألبيرتين» تزمع الذهاب في صباح الغد لقضاء ثمانٍ وأربعين ساعة لدى السيّدة «بونتان» وسوف تأتي، إذ هي مضطرة أن تستقل القطار في ساعة مبكرة، لتنام عشية ذلك اليوم في الفندق الكبير الذي تستطيع منه بوساطة سيارة النقل العامة أن تستقل أول قطار دون إزعاج الصديقات اللواتي تقطن عندهن. ورويت لِـ«آندريه» عن ذلك، فأجابت بلهجة المستاء: «لست أصدق لأني متيقنة أن «ألبيرتين» لن تقبل أن تلقاك إن جاءت وحدها إلى الفندق، فلن يكون ذلك «أصوليّاً»، تضيف وهي تستخدم صفة أخذت تحبها كثيراً، ومنذ وقت قليل، بمعنى «ما يفعله الناس» وأقول ذلك لأني أعرف آراء «ألبيرتين» أما أنا، فما عسى يهمني أن تراها أو لا تراها؟ الأمر سواء عندي».

ولحق بنا «أوكتاف» الذي لم يتردد في أن يقول لِ«آندريه» عدد النقاط التي سجلها بالأمس في لعبة الغولف، ثم «ألبيرتين» التي كانت تتنزه وهي تحرك لعبة «الديابولو» مثلما تحرك راهبة مسبحتها. كانت بفضل تلك اللعبة تستطيع البقاء ساعات وحدها دون أن يصيبها الضجر. وما إن لحقت بنا حتى بدا لي رأس أنفها الثائر الذي كنت أغفلته وأنا أفكر فيها في هذه الأيام الأخيرة وتحت شعرها الأسود تعارضت استقامة جبينها، وما كانت تلك أول مرة، مع الصورة الحائرة التي احتفظت بها، فيما يعلق بياضه بشدة في ألحاظي، وأخذت «ألبيرتين» تتشكّل ثانية أمامي وهي تنفض عنها غبار الذكرى.

إن لعبة الغولف تورث عادة المتع الانفرادية، والمتعة التي توليها لعبة «الديابولو» من ذلك القبيل بالتأكيد، ولكن «ألبيرتين» استمرّت تلعب بها، بعدما لحقت بنا، فيما هي تحادثنا، كمثل سيدة بادرت صديقات لزيارتها فلا تتوقف لذلك عن شغل صنارتها.

وقالت لِ«أوكتاف»: «يبدو أن السيّدة «دو فيلباريسيس» اعترضت لدى والدك (وسمعت خلف كلمة «يبدو» هذه شيئاً من ذلك الجرس الخاص بـ«ألبيرتين»، وفي كل مرة كنت ألاحظ أنني نسيته أتذكر في الوقت نفسه أنيّ لمحت قبل ذلك خلفه هيئة «ألبيرتين» الحازمة والفرنسية. كان يمكن أن أكون كفيفاً وأن أتعرف بعض صفاتها الرشيقة والقروية في ذلك الجرس وفي رأس أنفها المدبب سواء بسواء. فقد كان هذا وذاك يتساويان ويمكن أن يحل أحدهما محل الآخر، وكان صوتها كالذي سوف يحققه، فيما يُقال، جهاز الهاتف الصورة في المستقبل: لقد كانت الصورة البصرية تبرز بوضوح في رنة الصوت) ولم تكتب على أية حال إلى والدك فحسب، بل إلى مختار «بالبيك» في الوقت نفسه كي لا يلعبوا من بعد بالديابولو فوق السد، فقد قذفوا طابة في وجهه».

- «أجل، لقد سمعت من يروي عن هذا الاحتجاج، والأمر مضحك، فليس ههنا الكثير من صنوف التسلية».

ولـم تـشـارك «آنـدريـه» في الـحـديـث، فـهـي لا تـعـرف، ولا تـعـرف «ألبيرتين» ولا «أوكتاف» كذلك، السيّدة «دو فيلباريسيس». وقالت «آندريه» مع ذلك: «لست أدري لماذا أقامت تلك السيّدة الدنيا وأقعدتها، فقد أصابت طابة أيضاً السيّدة «دو كامبرمير» العجوز ولم تتقدّم بشكوى» وأجاب «أوكتاف» بلهجة جديّة وهو يشعل عود ثقاب: «سأشرح لك الفارق، فالسيّدة «دو كامبرمير» فيما أرى، امرأة من دنيا المجتمع الراقي والسيّدة «دو فيلباريسيس» وصوليّة. هل أنت ذاهبة إلى ميدان الغولف بعد الظهر؟» وفارقنا ومثله فعلت «آندريه». وظللت وحيداً مع «ألبيرتين» وقالت لي: «ترى، إني أصفّف شعري الآن على نحو ما تحبّ، فانظر إلى خصلة شعري. جميع الناس يسخرون من ذلك ولا يعلم أحد من أجل من أفعله. سوف تسخر مني عمتي أيضاً، ولن أقول لها السبب كذلك». كنت أبصر وجنتي «ألبيرتين» جانبياً وغالباً ما كانتا تبدوان شاحبتين، ولكنّما كان يرويهما على ذلك النحو دم صاف ينورّهما ويضفي عليهما تلك اللمعة التي تتّصف بها بعض صبيحات الشتاء التي تبدو فيها الحجارة المغمورة جزئياً بنور الشمس وكأنّها من الغرانيت الوردي وينبعث الفرح منها. فأما ذاك الذي كانت توليني إيّاه في ذلك الحين مشاهدة وجنتي «ألبيرتين» فقد كان في مثل حدته، ولكنّه يقود إلى رغبة أخرى لم تكن الرغبة في نزهة بل في قبلة. وسألتها إن كانت المقاصد التي ينقلونها عنها صحيحة فقالت: «أجل، سأقضي هذه الليلة في فندقك وسوف آوي إلى فراشي حتى قبل العشاء، إذ إنّني مصابة برشح طفيف. ويمكنك المجيء لحضور عشائي بالقرب من سريري وبعد ذلك نلعب بما تشاء. كان يسرّني أن تحضر إلى المحطّة في صباح الغد ولكنّي أخشى أن يبدو غريباً، لا في نظر «آندريه» التي تمتاز بالذكاء، بل في نظر الأخريات اللواتي سيكنّ هناك، وربّما أثار الأمر مشكلات إن جرى ترداده على مسامع عمتي. ولكننا نستطيع قضاء هذه الأمسية معاً، ولن تعلم عمّتي شيئاً عن ذلك. إني ذاهبة لأستودع «آندريه»، فإلى لقاء قريب إذن. تعال في وقت مبكّر، تضيف مبتسمة، كي

تتوافر لنا ساعات حلوة نقضيها». وعدت بالذاكرة، لدى سماع تلك الكلمات، إلى أبعد من الزمن الذي كنت أحبّ فيه «جيلبيرت»، إلى الزمن الذي كان الحبّ يبدو فيه بمثابة كيان قابل للتحقّق، لا كيان خارجيّ فحسب. ففيما كانت «جيلبيرت» التي كنت ألتقي بها في «الشانزيليزيه» غير التي أعود فألقاها في داخلي حالما أكون وحدي، فقد كانت تتجسّد «ألبيرتين» الخياليّة فجأة، تلك التي خِلتُ، حينما كنت لا أعرفها بعد، أنّها تنظر إليّ خلسة فوق السدّ والتي بدا أنّها تعود رغماً عنها وهي تراني أبتعد، كانت تتجسّد داخل «ألبيرتين» الحقيقيّة، تلك التي كنت أراها كل يوم والتي أظنّها مليئة بالآراء المسبقة البورجوازية وبالغة الصراحة مع عمتها.

وذهبت للعشاء مع جدّتي وكنت أحسّ في داخلي سراً لا تعرفه. كذلك كان أمر «ألبيرتين»، فغداً تكون صديقاتها معها دون أن يعلمن أن ثمة جديداً بيننا وسوف تجهل السيّدة «بونتان» حينما تقبّل ابنة شقيقها على جبينها أنّني أقف بينهما في تصفيفة الشعر تلك التي كانت تهدف، وقد خفيت على الجميع، إلى أن تحلو في عيني أنا، أنا الذي كان حتى ذاك يحسد السيّدة «بونتان» أشدّ الحسد لأنّها، وهي على صلة قربى بالأشخاص الذين تجمعهم الصلة نفسها بابنة شقيقها، كان عليها أن تلبس الحداد نفسه وتقوم بالزيارات العائليّة نفسها، فإذا أنا بالنسبة إلى «ألبيرتين» أكثر مما كانت عمتها نفسها. فلسوف تفكّر فيّ بالقرب من عمتها. ما الذي سوف يجري عمّا قليل، لم أكن أعرف ذلك بالتمام. ولكن الفندق الكبير والأمسية لا يبدوان لي في جميع الأحوال فارغين من بعد، فقد كانا يحتويان سعادتي. وقرعت الجرس لعامل المصعد لأصعد إلى الغرفة المطلّة على الوادي والتي استأجرتها «ألبيرتين». لقد أضحت جميع الحركات، من مثل الجلوس على مقعد المصعد، عذبة في عيني لأنّها على علاقة مباشرة بفؤادي، فكنت لا أرى في الحبال التي يرتفع بها الجهاز والدراجات القليلة التي تنتظر أن أرتقيها سوى تجسيد لآليّات فرحي ودراجاته. لم يظلّ لي سوى خطوتين أو ثلاث أقوم بها في الممّر قبل

الوصول إلى تلك الغرفة التي كانت تحتوي المادّة الثمينة التي تؤلّف ذلك الجسد المورّد - تلك الغرفة التي سوف تحتفظ، حتى وإن أزمع أن تجري فيها أعمال رائعة، بذلك الاستمرار وبذاك المظهر - الذي تبدو به بالنسبة إلى عابر السبيل غير المطّلع شبيهة بجميع الأخريات التي تجعل من الأشياء شهود المتعة الذين يصمتون بإصرار والأنْجِيَة المتزمّتين والأمينين المصونين عليها. وقطعت تلك الخطوات القليلة من فسحة الدرج إلى غرفة «ألبيرتين»، تلك الخطوات التي لم يعد باستطاعة أحد أن يوقفها، قطعتها بابتهاج وحذر، كأنّما يغمرني وسط جديد، كأنّما أنقل على مهل شيئاً من السعادة في تقدّمي، وفي الوقت نفسه بشعور غامض بالاقتدار الكليّ وأنّني أضع يدي أخيراً على ميراث كان على الأزمان ملكاً لي. ثم فكرت فجأة أنّني مخطئ إذ تساورني الشكوك، فقد قالت لي أن أجيء بعدما تأوي إلى سريرها. كان الأمر واضحاً، وأخذت أضرب الأرض بقدميّ فرحاً وألقيت «فرانسواز» التي كانت على طريقي أرضاً وطفقت أعدو ملتمع العينين إلى غرفة صديقتي. ولقيت «ألبيرتين» في سريرها. كان قميصها الأبيض، إذ يبرز عنقها، يغيّر من نسب وجهها الذي كان يبدو أكثر تورّداً بفعل السرير أو الرشح أو العشاء. وفكّرت في الألوان التي رأيتها بالقرب منّي فوق السدّ قبل بضع ساعات والتي أزمع أخيراً أن أعرف طعمها، كانت تمتدّ على خدّها من الأعلى إلى الأسفل واحدة من جدائلها الطويلة السوداء الجعدة التي حلّتها تماماً لتشبع السرور في نفسي. وكانت تنظر إليّ مبتسمة، والوادي في النافذة بالقرب منها ينشر القمر فوقه ضيائه. وبعث فيّ منظر عنق «ألبيرتين» العاري وتينك الوجنتين المورّدتين نشوة عظيمة (يعني أنها جعلت حقيقة العالم بالنسبة إليّ لا في الطبيعة من بعد بل في سيل الإحساسات التي لا أقوى على إيقاف اندفاعها) إلى حدّ حطَّم معه ذلك التوازن القائم بين الحياة الشاسعة الدائمة التي تجري داخل كياني وحياة الكون الهزيلة جدّاً إذا ما قورنت بها. فالبحر الذي أشاهده في النافذة إلى جانب الوادي وتكوّر نهود جروف «مينفيل» الأولى والسماء

التي لم يبلغ القمر السمت فيها بعد، كلّ ذلك كان يبدو أيسر حملاً من الريش بالنسبة إلى مقلتيّ اللتين أحسّهما موسعتين صالبتين تتحفّزان لحمل العديد من الأثقال الأخرى وجميع جبال الدنيا فوق صفحتهما الرقيقة. ولم تعد دائرتهما تملؤها إلى حدّ كافٍ استدارة الأفق نفسها، ولعلّ كلّ ما قد يمكن أن تجيئني به الطبيعة من حياة، لعلّه كان يبدو زهيداً جدّاً ولعلّ أنفاس البحر كانت تبدو لي قصيرة جدّاً في مقابل النشقة الواسعة التي تملأ صدري. وانحنيت فوق «ألبيرتين» أريد تقبيلها. ولو انبغى أن تبادرني المنيّة في تلك اللحظة لبدا الأمر غير ذي شأن في نظري، أو بدا بالأحرى مستحيلاً لأنّ الحياة لم تكن خارج ذاتي بل كانت في ذاتي. وكنت ابتسمت إشفاقاً لو أن فيلسوفاً طلع بفكرة أنّه يقع عليّ أن أموت ذات يوم، وإن يكن بعيداً، وأن قوى الطبيعة الأزلية سوف تبقى بعدي، قوى هذه الطبيعة التي أنا مجرّد ذرّة غبار تحت قدميها الإلهيّين، وسوف تظلّ كذلك بعدي تلك الجروف المستديرة المتكوّرة وذلك البحر وضياء القمر والسماء تلك! فكيف يمكن أن يتمّ ذلك، وكيف يمكن أن يدوم العالم أكثر منّي بما أنني لم أكن ضائعاً فيه وهو الذي كان محتسباً بين ضلوعي، بين ضلوعي التي يملؤها، وما أبعد أن يفعل، ضلوعي التي ألقيت في زاوية منها إلقاء المتعالي، وأنا أحسّ بتوافر المكان لأراكم فيها الكثير من الكنوز الأخرى، السماء والبحر والجروف؟ وصاحت «ألبيرتين» قائلة: «توقّف أو قرعت الجرس»، وقد رأت أنّي أرتمي عليها لتقبيلها. ولكنّي كنت أقول في نفسي إن فتاة لا تستقدم شابّاً في الخفاء في سبيل ألا تفعل شيئاً، وهي تتدبّر أمرها كي لا تعلم عمّتها بذلك، وإنّ الجرأة تثمر على أيّة حال لدى الذين يعرفون كيف يفيدون من الفرص. كان وجه «ألبيرتين» المستدير يتخذ في نظري، في حالة الهيجان الذي ينتابني، وقد أشرق بفعل لهيب داخليّ كأنّما بفعل نور خافت، يتّخذ بروزاً يبدو فيه، وهو يحاكي دوران كرة ملتهبة، وكأنه يدور كمثل وجوه لدى «ميكيلانجلو» يذهب بها إعصار ثابت ومدوّخ. كنت على وشك أن أعرف رائحة هذه الثمرة الورديّة المجهولة

وطعمها. وسمعت رنّة حثيثة متطاولة حادّة. كانت «ألبيرتين» قد قرعت الجرس بكل قوّتها.

لقد سبق أن حسبت حبّي لِـ«ألبيرتين» لا يقوم على أمل الامتلاك الجسديّ. بيد أنّه، بعدما ظهر لي بنتجية تجربة ذاك المساء أن هذا الامتلاك مستحيل وبعد ما لم أشكّ أوّل يوم على الشاطئ أنّ «ألبيرتين» لا بدّ متهتّكة ثمّ انتقلت إلى افتراضات وسطى، بدا لي ثابتاً على نحو نهائي أنّها فاضلة حتماً. وحينما قالت لي ببرود بعد ثمانية أيّام لدى عودتها من نزل عمّتها: «إنّي أصفح عنك وبي حتى أسف أن بعثت الغمّ في صدرك، ولكن لا تعد البتّة إلى مثلها»، اتّفق لي، على عكس ما تمّ حينما قال لي «بلوك» إنّه يمكن امتلاك جميع النساء، وكما لو عرفت دمية من شمع بدلاً من فتاة حقيقيّة، أن انفصلت عنها شيئاً فشيئاً رغبتي في ولوج حياتها وفي اللحاق بها في البلاد التي قضت فيها طفولتها وأن أطّلع على يدها على حياة الرياضة، ولم يعش فضولي الذهني للاطّلاع على تفكيرها حول هذا الموضوع أو ذاك بعد زوال اعتقادي بإمكان تقبيلها. وهجرتها أحلامي حالما كفّ عن تغذيتها أمل امتلاك حسبتها مستقلّة عنه، فألفت نفسها مذ ذاك حرّة أن تنصبّ على هذه أو تلك من صديقات «ألبيرتين»، وعلى «آندريه» قبل غيرها - بحسب ما ألقى لديها من فتنة ذات يوم وحسب الإمكان والاحتمالات التي أتوقّعها في أن تحبني. بيد أنّه لو لم تكن «ألبيرتين» موجودة فربّما لم أُحسّ بالمتعة التي أخذت أصيبها أكثر فأكثر في الأيّام التالية من اللطافة التي تعرب لي عنها «آندريه». ولم تروِ «ألبيرتين» لأحد عن الإخفاق الذي لحق بي لديها. لقد كانت واحدة من تلك الفتيات الجميلات اللواتي يَحْسُنَّ في العين - في أسرتهن ووسط صديقاتهنّ وفي المجتمع - أكثر ممّن كنّ أوفر جمالاً وأوسع ثراء، وذلك منذ أوّل شبابهنّ بسبب جمالهنّ، وعلى وجه الخصوص بسبب جاذبية وسحر يظلان غامضين إلى حدّ ما وربّما نشأ في احتياطيّ من الحيويّة يُقبل من حبتهم الطبيعة بهبات أقلّ للارتواء منها، ويفعلون على الدوام. كانت

من نفر يُطلب منهم، قبل عمر الهوى وأكثر منه حينما يحلّ، أكثر مما يطلبون وحتى مما يمكن أن يعطوا. لقد حازت «ألبيرتين» على الدوام منذ طفولتها إعجاب أربع أو خمس من رفيقاتها الصغيرات، ومن بينهنّ «آندريه» التي تفوقها بكثير وتعلم ذلك (وربما كان ذلك الجاذب الذي تمارسه «ألبيرتين» غير متعمدّة على الإطلاق، ربما كان في أصل المجموعة الصغيرة وأسهم في تكوينها). كان ذلك الجاذب يعمل حتى في مواقع بعيدة بعض الشيء وفي أوساط ألمع نسبياً حيث يطلبون «ألبيرتين» أكثر ممّا يطلبون فتاة أكرم محتداً إن كان ثمّة رقصة بطيئة حالمة يجب أن تؤدّى. وقد نجم عن ذلك عيش هزيل في كنف السيّد «بونتان» الذي كان بخيلاً فيما يقولون ويتمنّى الخلاص منها، كانت تدعى مع ذلك لا إلى حفلة عشاء فحسب، بل إلى المنازل لدى جماعات لعلّها لا تمتاز في نظر «سان لو» بأيّة أناقة ولكنّها تمثّل شيئاً ضخماً في نظر والدة «روزموند» أو والدة «آندريه»، وهما امرأتان بالغتا الثراء ولكنّهما لا تعرفان تلك الجماعات. وهكذا كانت «ألبيرتين» تقضي في كلّ عام بضعة أسابيع لدى أسرة أحد محافظي بنك فرنسا، وهو رئيس مجلس إدارة شركة كبرى للخطوط الحديدية. وكانت زوجة رجل المال هذا تستقبل في بيتها شخصيّات مهمّة ولم تقل البتة عن «يومها» لوالدة «آندريه» التي كانت ترى أن تلك السيّدة غير مهذبة، ولكن الأمر لا يقلّل من اهتمامها البالغ بكلّ ما كان يجري عندها. وكانت لذلك تحثّ «آندريه» في كل عام على دعوة «ألبيرتين» إلى دارتهم فذلك من أعمال البرّ، تقول، أن تفسح مجال الإقامة على شاطئ البحر لفتاة لا تملك بنفسها وسيلة السفر وتكاد عمتها لا تهتمّ بها. ووالدة «آندريه» لم يكن يدفعها على الأرجح أمل أن يكوّن محافظ البنك وزوجته، إذ يبلغهما أنّها وابنتها يغمران «ألبيرتين» بحبّهما، رأياً حسناً فيهما، وهي بالأحرى لا تأمل أن تفلح «ألبيرتين»، مع أنّها شديدة الطيبة وحاذقة، في دعوتها أو دعوة «آندريه» على الأقلّ إلى حفلات الحدائق لدى رجل المال. ولكنّما يبهجها كل مساء في أثناء العشاء، فيما تتّخذ هيئة متعالية لا

مبالية، أن تسمع «ألبيرتين» تروي لها عمّا جرى في القصر حينما كانت هنالك وعن الناس الذين اسْتُقْبِلُوا فيه والذين تعرفهم جميعاً على وجه التقريب بالمشاهدة أو بالاسم. ثم إن الفكرة التي قوامها أنّها لا تعرفهم إلّا على هذا النحو، يعني أنها لا تعرفهم، (وتدعو ذلك معرفة الناس منذ «أقدم الأزمان») كانت تضفي على صوت والدة «آندريه» أسئلة حولهم بهيئة متعالية ساهية ومن أطراف شفتيها، ولعلّها كان يمكن أن تدعها غير واثقة وقلقة بشأن أهميّة منزلتها الخاصّة لو لم تُطَمْئِنْ نفسها وتتّخذ مكانها في «واقع الحياة» بقولها لرئيس الخدم: «قل لرئيس الطهاة إن البازلاء لم تكن «ذائبة» إلى حدّ كافٍ». وإذ ذاك كان يعود إليها هدوؤها. وكانت مصمّمة تماماً على ألّا تتزوّج «آندريه» سوى رجل من أسرة رفيعة بالطبع، بيد أنّه على ثراء يمكّنها هي الأخرى من اقتناء طاهٍ وحوذيّين. هو الجانب الإيجابي والواقع الفعليّ لوضع ما. فأمّا أنّ «ألبيرتين» تناولت عشاءها في قصر محافظ البنك مع هذه السيّدة أو تلك، وأنّ هذه السيّدة بلغ بها الأمر أن دعتها في الشتاء المقبل فأمر يضفي على الفتاة في نظر والدة «آندريه» نوعاً من التقدير الخاصّ الذي يقترن خير اقتران بالشفقة وحتى بالازدراء اللذين يثيرهما سوء طالعها، والازدراء يضاعف منه أنّ السيّد «بونتان» خان، فيما يقولون، عَلَمه وانضمّ إلى الحكومة - مع أنّه ضالع إلى حدّ ما في فضيحة فتاة «بَنَمَا» على حدّ زعمهم - ولم يكن ذلك يحول دون أن تصبّ والدة «آندريه» نار ازدرائها، حبّاً بالحقيقة، على رؤوس أولئك الذين يبدو أنّهم يحسبون «ألبيرتين» من أصل وضيع. «ويحكم، إنّهم من خيرة الناس، فهم من آل «سيمونيه» بنون غير مشدّدة». صحيح أنّه بسبب الوسط الذي تتّم فيه الأمور والذي يمثّل فيه المال هذا الدور وتضمن لك الأناقة فيه الدعوات لا الزواج ما كان يبدو ثمّة أنّ أيّ زواج «مقبول» يمكن أن يجيء بالنسبة إلى «ألبيرتين» كنتجية مفيدة للتقدير المرموق الذي تتمتع به والذي لعلّهم لا يرون أنّه يعوّض فقرها. بيد أنّ هذا «النجاح» بمفرده، وإن لم يحمل معه أمل نتيجة في حقل الزواج، كان يثير حسد بعض الأمّهات

الشرّيرات، وقد أثار حنقهنّ أن يرين «ألبيرتين» تستقبلها استقبال «بنت البيت» زوجةُ محافظ البنك وحتى والدة «آندريه»، ويكادان لا يعرفنهما. وكنّ يقلن لذلك لأصدقاء مشتركين بينهنّ وبين تينك السيّدتين إن هاتين الأخيرتين سوف تثوران إن هما عرفتا الحقيقة، يعني أن «ألبيرتين» كانت تروي في منزل الأولى (والعكس بالعكس) وكلّ جوّ الإلفة الذي تمّ قبولها فيه على نحو متهوّر بالكشف عنه في منزل الثانية من تلك الأسرار الصغيرة التي لا حصر لها والتي ربّما أزعج المعنيّة إزعاجاً لا محدوداً أن يُكتشف سرّها. كانت تلك النساء الحاسدات يقلن ما يقلن بغية أن يتمّ ترداد الأمر وكيما يقع الخلاف بين «ألبيرتين» ومن أخذنها في كنفهنّ. بيد أنّ تلك المهمّات لم تكن تحظى بأيّ نجاح، كما يتّفق ذلك في الغالب. فقد كانت تفوح منها رائحة المقصد الشرير الذي يمليها؛ وما كان من جرّاء ذلك سوى تزايد في احتقار اللواتي اتّخذن تلك البادرة. أمّا والدة «آندريه» فقد كان موقفها من «ألبيرتين» أثبت من أن تغيّر رأيها في ما يخصّها. كانت تنظر إليها بمثابة فتاة «منكودة الحظّ» ولكنّها ذات طبيعة ممتازة ولا تعرف في سبيل إشاعة السرور إلّا الاختلافات.

ولئن بدا أن هذا الضرب من الشهرة الذي حازته «ألبيرتين» لا يتضمّن بالضرورة أيّة نتيجة عمليّة فقد طبع صديقة «آندريه» بالطابع المميّز لأشخاص لا حاجة بهم البتّه، وهم ممّن يُسْعَى إليهم على الدوام، أن يعرضوا أنفسهم (وهو الطابع الذي نلقاه كذلك لأسباب مشابهة في طرف آخر من المجتمع لدى نساء بأناقة عظيمة) وقوامه ألّا يبرزوا النجاحات التي يصيبونها بل أن يخفوها بالأحرى. فما كانت البتة تقول عن أحدهم: «إنّه راغب في لقائي»، وكانت تتحدّث عن الجميع بعطف كبير وكما لو جرت هي خلف الآخرين وسعت إليهم. وإن دار الحديث عن شاب قام قبل بضع دقائق بتوجيه أقسى أنواع اللوم إليها في مقابلة خاصّة بينهما لأنّها رفضت أن تضرب له موعداً، كانت تثني عليه عوضاً عن أن تفخر بالأمر علناً أو أن تضمر له الحقد، وتقول: «ما ألطفه فتىً!» بل كان يزعجها أن

تروق إلى هذا الحدّ لأن ذلك يضطرّها أن تغمّ الناس، فيما تودّ بطبيعتها أن تشيع السرور في نفوسهم. لقد كانت تحبّ إبهاج الناس حتى لقد بلغ بها الأمر أن تمارس كذباً خاصاً ببعض الأشخاص النفعيّين أو بعض من نجحوا في الحياة. وقوام هذا النوع من قلّة الصراحة المتوافر في حالة بدائيّة لدى عدد ضخم من الناس أن لا يستطيع الاكتفاء، في مجال عمل واحد، بأن يشيع السرور بفضله في نفس شخص واحد. فإن رغبت عمّة «ألبيرتين»، على سبيل المثال، ترافقها ابنة شقيقها إلى حفلة بعد الظهر لا تشرح الصدر كثيراً، فقد كان يمكن أن تكتفي «ألبيرتين» بحضورها إليها بأن تستخلص منها الفائدة الأدبيّة بأنّها أرضت عمتها، ولكنّها كانت تفضّل، وقد أحسن أرباب المنزل استقبالها، أن تقول لهم إنّها راغبة منذ فترة طويلة جدّاً في لقائهم حتى إنّها اختارت هذه الفرصة والتمست الإذن من عمتها. بل لم يكن ذلك كافياً، ففي تلك الحفلة واحدة من صديقات «ألبيرتين» تعاني من غمّ كبير. وتقول لها : «لم أشأ أن أدعك وحدك وفكّرت أنّ وجودي بالقرب منك قد يكون مفيداً لك. فإن شئتِ أن نترك الحفلة وأن نمضي إلى مكان آخر فسوف أفعل ما تريدين فإني أرغب قبل كلّ شيء أن ألقاك أقلّ اغتماماً» (والأمر صحيح أيضاً على أيّة حال). بيد أنه كان يتّفق أحياناً أن تفسد الغاية الوهميّة الغاية الحقيقيّة. من ذلك أن «ألبيرتين» كانت تذهب، في سبيل خدمة تطالب بها لإحدى صديقاتها، للقاء إحدى السيّدات. ولكن الفتاة كانت ترى، بعدما وصلت إلى منزل تلك السيّدة الطيّبة الودود، أنّها تبدي وداداً أكثر في أن تظهر وكأنها جاءت لمحض المتعة التي أحست أنّها ستشعر بها في لقاء تلك السيّدة، وهي تنقاد على غير علم لمبدأ الاستخدام المضاعف لفعلة واحدة. ويؤثّر في السيّدة أعمق التأثير أن تكون «ألبيرتين» قطعت مسافة طويلة بفعل الصداقة المحضة. وكانت «ألبيرتين» إذ ترى السيّدة متأثّرة النفس إلى حدّ ما تزداد حبّاً بها. ولكنّما كان يتّفق الأمر التالي: لقد كانت تحسّ بمتعة الصداقة التي ادّعت كذباً أنها جاءت من أجلها إحساساً حادّاً إلى درجة تخشى معها

أن تحمل السيّدة على الشكّ بمشاعر صادقة بالحقيقة إن هي طلبت تلك الخدمة لصديقتها. فقد تحسب السيدة أن «ألبيرتين» جاءت لذلك، والأمر صحيح، ولكنها قد تخلص إلى أن «ألبيرتين» لا تحسّ بمتعة متجرّدة في رؤيتها، والأمر باطل. وهكذا كانت «ألبيرتين» تعود أدراجها دون أن تكون طلبت الخدمة، كالرجال الذين أبدوا لامرأة بأمل أن ينالوا حظوة لديها قدراً من اللطف كبيراً حتى إنّهم لا يقدمون على البوح بعواطفهم كيما يدعوا لذاك اللطف طابعاً من النبل. وفي حالات أخرى لا يمكن القول إنّه قد تمّت التضحية بالغاية الحقيقيّة في سبيل الغاية الثانويّة والمتخيلة بعد الأوان، ولكنّ الأولى تعارض الثانية إلى الحدّ الذي لو علم معه الشخص الذي هزّت «ألبيرتين» مشاعره بالإعراب له عن الأولى بالغاية الثانية لانقلبت غبطته في الحال إلى أعمق صنوف الغمّ، وسوف تسهّل تتمّة القصّة فيما بعد فهم هذا النوع من التناقضات. ولنقل باللجوء إلى مثال نستقيه من نوع من الوقائع المختلفة تماماً أنّها كثيرة جدّاً في أكثر أوضاع الحياة اختلافاً. فهذا زوج أسكن عشيقته في المدينة التي يعسكر فيها. أمّا زوجته التي ظلّت في باريس، وهي نصف مطلّعة على الحقيقة، فتغتمّ وتسطّر لزوجها رسائل زاخرة بالغيرة. وتضطرّ العشيقة أن تجيء لقضاء يوم في باريس ولا يستطيع الزوج أن يقاوم توسّلاتها إليه بمرافقتها ويحصل على أذن لأربع وعشرين ساعة. وبما أنّه يمتاز بالطيبة ويتألم لأنّه يغمّ زوجته فإنّه يصل إلى منزلها ويقول لها وهو يسكب بضع دمعات صادقة إنّه طار صوابه من جرّاء رسائلها فلقي وسيلة للهرب كيما يجيء ليعزّيها ويعانقها. وهكذا وجد وسيلة يقدّم بها بسفرة واحدة دليل حبّ لعشيقته وزوجته في آنٍ واحد. ولكن إن اتّفق أن تطلع هذه الأخيرة لأيّ سبب حضر إلى باريس فسوف تنقلب غبطتها ألماً دونما شكّ، إلّا إذا أولتها رؤية ناكر الجميل على الرغم من كلّ شيء سعادة أعظم من العذاب الذي يحمله إليها بأكاذيبه. ومن بين الرجال الذين بدا لي أنّهم يمارسون طريقة الغايات المتعدّدة بأكبر قدر من المثابرة نجد السيّد «دو نوربوا». فقد كان يقبل

التدخّل أحياناً بين صديقين متخالفين وكان يدعى لذلك أكثر الناس لطفاً. ولكنّه ما كان يكفيه أن يبدو وكأنّه يؤدّي خدمة لذاك الذي جاء يلتمسه، بل كان يقدّم للآخر المسعى الذي يقوم به لديه وكأنّه تمّ لا بناءً على طلب الأول بل في صالح الثاني، الأمر الذي كان يُقنع به بيسر مخاطباً أوحي إليه سلفاً بأنّ «أكثر الرجال مروءة» ماثل أمامه. وكان على هذا النحو لا يجازف البتّة بنفوذه إذ يعمل على الجانبين ويقوم بما يسمى في لغة العمل من وراء الكواليس «العَوضَ المقابل»؛ وما كانت الخدمات التي يؤدّيها تشكلّ استلاباً لنفوذه بل استثماراً لجزء منه. وكانت كلّ خدمة من جهة ثانية، إذ تبدو وكأنّها أدّيت على نحو مضاعف، إنما تضاعف بالمقدار نفسه صيته على أنّه صديق خدوم، بل صديق يخدم بفعاليّة ولا يضرب ضربات في الهواء؛ وتثمر جميع مساعيه، الأمر الذي يقيم البرهان عليه امتنان المعنيّين بالأمر. كان ذلك النفاق في المعروف المُسْدى، ترافقه صنوف من التكذيب كما هو أمر أيّ مخلوق بشريّ، يؤلّف جزءاً مهماً من طباع السيّد «دو نوربوا». غالباً ما استخدم والدي في الوزارة، وكان على شيء من السذاجة، إذ يحمله على الاعتقاد بأنّه يؤدّي خدمة له.

ولما كانت «ألبيرتين» تروق الناس فوق ما تبغي ولا حاجة بها للمناداة بما يحالفها من نجاح، فقد لزمت الصمت حول ما جرى لها معي بالقرب من سريرها وما ودّت امرأة قبيحة لو تعلنه على الملأ. ولم أفلح على أيّة حال أن أفسّر لنفسي موقفها في ما جرى لها. ففي ما يتعلّق بفرضيّة الفضيلة المطلقة (تلك الفرضيّة التي رددت إليها بادئ الأمر العنف الذي رفضت به «ألبيرتين» أن تدعني أعانقها وآخذها بين ذراعيّ ولم تكن إلى ذلك لازمة على الإطلاق للتصوّر الذي أحمله عن طيبة صديقتي واستقامتها الفطريّة)، لم أتوان عن تعديلها مرّات ومرّات. فما أكثر ما كانت تلك الفرضيّة تناقض تلك التي ابتنيتها في اليوم الأوّل الذي أبصرت فيه «ألبيرتين»! ثم إن الكثير من الأفعال المختلفة، وكلّها تزخر باللطف حيالي (لطف رقيق قلق خائف غيور من تفضيلي لِـ«آندريه»)، كانت تغمر من كلّ

جانب الخشونة التي شدّت بها حبل الجرس كي تفلت منيّ. فلِمَ طلبت إليّ إذن أن أبادر لتمضية الأمسية بالقرب من سريرها؟ ولِمَ كانت تتحدّث طوال الوقت حديث الحنان؟ وعلى أيّ أساس تقوم الرغبة في لقاء صديق وخشية أن يفضّل عليك صديقتك ومحاولة إشاعة الغبطة في نفسه وقولك له بطريقة خياليّة إنّ الآخرين لن يعلموا بأنّه قضى الأمسية بالقرب منك إن كنت تحجب عنه متعة بسيطة إلى هذا الحدّ وإن لم تكن متعة بالنسبة إليك؟ وما كان يمكن أن أبلغ حدّ الاعتقاد بأن فضيلة «ألبيرتين» قد وصلت إلى هذا المدى، وقد بلغ بي الأمر أن أتساءل إن لم يكن لعنفها سبب أملاه الغنج من مثل رائحة مزعجة حسبت أنها تحملها وخشيت بها أن تسوء لديّ، أو أملاه الجبن إن هي ظنّت مثلاً، في جهلها لواقع الحبّ، أن حالة الوهن العصبيّ لديّ يمكن أن تحمل بعض العدوى عن طريق القبلة.

لقد اغتممت بالتأكيد إن لم تستطع إرضائي وأعطتني قلماً صغيراً من ذهب بفعل هذا الانحراف في مجرى الفضيلة لدى الناس الذين يهزّ لطفك مشاعرهم ولا يوافقون على منحك ما يطالب به ولكنّهم يودّون أن يفعلوا شيئاً آخر في صالحك: فالناقد الذي قد تدغدغ مقالته مشاعر الروائي يدعوه عوضاً عنها إلى العشاء، والدوقة لا تصطحب المتحذلق إلى المسرح ولكنّها تقدّم له مقصورتها في أمسية لا تشغلها فيها. فما أكثر ما تدفع رهافة الإحساس أولئك الذين يفعلون أقلّ الممكن، وقد يستطيعون ألّا يفعلوا شيئاً إلى أن يفعلوا شيئاً ما. وقلت لِـ«ألبيرتين» إنّها توليني إذ تعطيني هذا القلم غبطة عظيمة، ولكنّها مع ذلك دون تلك التي كنت أصبتها لو أنّها سمحت لي بتقبيلها مساء اليوم الذي جاءت فيه للنوم في الفندق. «كنت سوف أسعد بالأمر إلى أبعد حدّ! وما الذي كان يمكن أن يجرّه عليك؟ إني أدهش أن تكوني حجبته عنيّ». وأجابتني بقولها: «إنّ ما يدهشني أن ترى ذلك مدهشاً. إني أتساءل أيّة فتيات تسنى لك أن تعرف حتى أذهلك سلوكي». - «إنيّ مغتمّ لأنّي أغضبتك، بيد أني حتى الآن لا يمكنني أن أقول لك إني أرى أنني أخطأت. ولديّ أنّ تلك أمور لا شأن

لها البتّة، ولست أفهم كيف لا ترتضيها فتاة تستطيع إشاعة السرور بهذه السهولة». وأضفت لأرضي إلى حدّ ما أفكارها الأخلاقيّة، وقد تذكرت كيف سبق أن ندّدت هي وصديقاتها بسلوك صديقة الممثّلة «ليا»: «دعينا نتّفق، فلست أعني أن الفتاة تستطيع أن تفعل ما تشاء وأن لا شيء ينافي الأخلاق. خذي مثلاً تلك العلاقات التي كنتنّ تتحدّثن ذاك اليوم عنها بشأن فتاة صغيرة تقطن «بالبيك» والتي يقال إنها قائمة بينها وبين إحدى الممثلات، فإنّي أجد ذلك شائناً إلى حدّ أنيّ أحسب أنّ ربّما اختلق ذلك أعداء للفتاة وأنّ الأمر غير صحيح. فذلك يبدو لي بعيد الاحتمال ومستحيلاً. فأمّا أن يسمح المرء بقبلة، بل بأكثر لصديق، بما أنّك تقولين إني صديقك...» - «وإنّك لكذلك، ولكنما كان لي أصدقاء آخرون قبلك، وقد عرفت شبّاناً أؤكّد لك أنّهم كانوا يكنّون لي مقدار ما تكن لي من صداقة. ولكن ليس من بينهم من كان يجرؤ على إتيان أمر مماثل، إذ هم يعلمون أيّة لطمتين توافيانهم. وما كانوا يفكّرون في ذلك على أيّة حال، فقد كنّا نشدّ على أيدينا بمشاعر الصراحة والصداقة وعلى أنّنا محض رفاق. وما كان ليخطر أن نتبادل القبل ولم نكن لذلك أقلّ صداقة. هيّا، إن كنت تهتمّ بصداقتي فيمكنك أن تبتهج إذ ينبغي أن أحبّك كثيراً كي أصفح عنك. ولكنّي متيقّنة أنّك لا تبالي بي البتّة. هيّا اعترف أن «آندريه» هي التي تعجبك. وإنّك في الأساس على حقّ فهي أكثر لطفاً منيّ، وإنّها لفاتنة! آه! يا للرجال!» كانت تلك الكلمات الصريحة إلى هذا الحدّ تخلّف فيّ على الرغم من خيبة أملي القريبة انطباعاً لذيذاً جدّاً إذ تبعث في نفسي تقديراً كبيراً لِـ«ألبيرتين». وربّما جرّ عليّ هذا الانطباع فيما بعد نتائج كبيرة ومؤسفة، فقد شرع يتكوّن في نفسي بسببه ذلك الشعور العائلي تقريباً، تلك النواة الأخلاقيّة التي سوف تقوم على الدوام داخل حبيّ لِـ«ألبيرتين». ومثل هذا الشعور يمكن أن يكون سبّب أشدّ صنوف الغمّ. فكيما يتعذّب المرء حقاً بسبب امرأة لا بدّ أن يكون وثق تماماً بها. أمّا الآن فقد ظلّت نواة التقدير الأخلاقي والصداقة تلك كمثل حجر انتظار داخل نفسي. ولعلّها ما

كانت تستطيع بمفردها شيئاً ضدّ سعادتي لو بقيت على حالها، دون أن تتنامى، في خمول كانت ستظلّ عليه في العام التالي وبحجّة أولى في هذه الأسابيع الأخيرة من إقامتي الأولى في «بالبيك». لقد كانت في داخلي كواحد من أولئك الضيوف الذين ربّما كنّا على الرغم من كلّ شيء أكثر تبصّراً لو نطردهم، ولكنّنا ندعهم في مكانهم دون أن نزعجهم لشدّة ما يجعلهم ضعفهم وعزلتهم داخل نفس غريبة عديمي الأذى.

لقد لقيتْ أحلامي أنها أضحت الآن حرّة أن تنصبّ على هذه أو تلك من صاحبات «ألبيرتين» وعلى «آندريه» قبلهنّ جميعاً، «آندريه» التي ربّما كان تأثير ألطافها أقلّ في نفسي لو لم أتأكّد أنّ «ألبيرتين» سوف تعلم بها. صحيح أنّ الميل الذي تظاهرتُ به منذ فترة طويلة حيال «آندريه» قد زوّدني - على صعيد عادات المحادثة وصنوف الإعراب عن المودّة - بما يشبه مادّة حبّ جاهز لينصبّ عليها، ولم ينقصه حتى الآن سوى أن تنضاف إليه عاطفة كان يمكن أن يقدّمها الآن فؤادي وقد عاد حرّاً طليقاً. بيد أنّ «آندريه» كانت شديدة الميل إلى أمور الفكر مفرطة العصبيّة كثيرة العلل شديدة الشبه بي كيما أحبّها حقاً. ولئن كانت «ألبيرتين» تبدو لي الآن فارغة فقد كانت «آندريه» ملأى بأمر أعرفه حقّ المعرفة. فقد خلت في اليوم الأوّل أنّني أبصر على الشاطئ عشيقة عدّاء يسكرها حبّ الرياضة، وقالت لي «آندريه» إنها شرعت تمارسها؛ فقد كان ذلك بناء على أمر طبيبها لمعالجة ضعف أعصابها واضطراباتها الغذائيّة، ولكنّ أفضل ساعاتها تلك التي تترجم فيها رواية لِ«جورج إيليوت». ولم ترتدِ خيبتي، وهي نتيجة خطأ أوّلي حول ما كانت عليه «آندريه»، لم ترتدِ في الواقع أيّة خطورة بالنسبة إليّ. ولكنّ الخطأ كان من صنف تلك التي، إن هي سمحت للحبّ أن يتفتّح، ولم يتمّ تعرّفها بمثابة أخطاء إلا بعد ما يتعذّر التبديل فيه من بعد، أضحت علّة آلام. وتلك الأخطاء - التي يمكن أن تكون مختلفة عن الأخطاء التي وقعت في ما يخصّ «آندريه» وحتى على عكسها - إنّما تعود في الغالب، وفي حالة «آندريه» بوجه خاصّ، إلى أنّنا

نتّخذ إلى حدّ ما مظهر وأساليب ما لسنا عليه، ولكنّنا نودّ أن نكونه، كيما نخدع للوهلة الأولى. فالتصنع والتقليد والرغبة في إثارة إعجاب الأخيار أو الأشرار إنّما تضيف إلى المظهر الخارجيّ خدع الكلام والحركات. هناك صنوف من الوقاحة والقسوة لا تصمد أمام الامتحان أكثر مما يتمّ لبعض مظاهر الطيبة والأريحية. وكما أنّنا كثيراً ما نكتشف بخيلاً متباهياً في رجل اشتهر بصدقاته كذلك يحملنا التبجّح بالرذيلة على افتراض مومس في فتاة شريفة تعجّ نفسها بالآراء المتحجّرة. لقد ظننت أنني واجد في «آندريه» مخلوقة معافاة فطريّة في حين لم تكن سوى كائن يبحث عن العافية كما ربّما كان أمر كثيرين من الذين خالت أنها تلقاها لديهم وما كانت تملك من حقيقتها أكثر مما يبدو رجل بدين مصاب بالتهاب المفاصل أحمر الوجه ذو سترة من الفانيلا البيضاء «هرقلاً» محتّماً. ولكنّ ثمّة ظروفاً ليس سواء فيها بالنسبة إلى السعادة أن يكون الشخص الذي أحببناه بما كان يبدو أنّه معافى لديه، أن يكون بالحقيقة واحداً من أولئك المرضى الذين لا تأتيهم العافية إلا من غيرهم مثلما تستمدّ الكواكب نورها ومثلما لا تقوم بعض الأجسام إلا بتمرير الكهرباء.

وما همّ، لقد كانت «آندريه»، شأن «روزموند» و«جيزيل»، بل كانت أكثر منهما صديقة لِـ«ألبيرتين» تشاطرها حياتها وتقلّد سلوكها حتى إني في اليوم الأوّل لم أميز بادئ الأمر بين هذه وتلك. فبين تلك الفتيات، بين سوق الورود التي قوام سحرها أن تبرز على صفحة البحر، كان يسود اللاانقسام نفسه كما في العهد الذي لم أكن أعرفهنّ فيه بعد والذي كان يبعث فيّ ظهور أيّة منهنّ أشدّ الانفعال إذ ينبئني بأن المجموعة الصغيرة لم تكن بعيدة. ولا تزال الآن مشاهدة إحداهنّ توليني متعة تداخلها ضمن نسبة لعلّني لا أستطيع تحديدها متعة أن أرى الأخريات يتبعنها على الأثر أو يأتين للقائها بعد ذلك بقليل، فإن لم يجئن في ذلك اليوم فأن نتحدّث عنهنّ وأن أعلم أنّه سوف ينقل إليهن أنني ذهبت إلى الشاطئ.

فلم يعد الأمر مقصوراً على جاذب الأيّام الأولى بل كان ثمّة نزوع

حقيقيّ إلى الحبّ يتردّد بينهنّ جميعاً لشدّة ما تبدو كلّ واحدة منهن بديلاً للأخرى على نحو طبيعي. ولعل أعظم حزن لديّ ما كان أن تهجرني من فضلت من بين تلك الفتيات، ولكني كنت فضّلت في الحال تلك التي هجرتني لأنني أكون قد ثبّت عليها مجمل الكآبة والأحلام التي كانت تتنقّل على نحو غير محدّد بينهنّ. ولعلّني كنت في هذه الحالة سوف أتأسّف من خلالها على نحو غير واعٍ على جميع صديقاتها اللواتي ربّما فقدتُ في أعينهنّ عمّا قليل كلّ مهابةٍ، إذ خصصتهنّ بهذا النوع من الحبّ الجماعي الذي يحمله رجل السياسة والممثّل للجمهور الذي لا يجدان عزاء ينسيهما أنّه أهملهما بعدما غمرهما بجميع الامتيازات. فحتى تلك التي لم أستطع الحصول عليها لدى «ألبيرتين» كنت آمل الحصول عليها فجأة لدى هذه أو تلك ممن فارقنني في المساء وقلن لي كلمة ورمينني بنظرة يكتنفهما اللبس، فكان شوقي إنّما يتجه بفضلهما إلى هذه الأخيرة نهاراً كاملاً.

لقد كان يتنقّل بينهنّ بنشوة تتزايد بقدر ما أخذ يبدو على تلك الوجوه الرجراجة ثبات نسبيّ في القسمات كافٍ كيما يمكن تمييز الصورة الطيّعة غير الثابتة وإن انبغى أن تتغيّر بعد. وفي مقابل الفروق القائمة بين تلك الوجوه كان من العسير دونما شك في أن تقوم فروق مساوية في طول القسمات وعرضها. تلك القسمات التي ربّما أمكن أن تتطابق تقريباً مهما بدت مختلفة بين واحدة من تلك الفتيات وأخرى. بيد أنّ معرفتنا للوجوه ليست رياضيّة. فهي لا تبدأ أوّل الأمر بقياس الأجزاء وإنّما نقطة انطلاقها تعبير ونظرة مجملة. فقد كان يبدو لدى «آندريه» مثلاً أن رقّة العينين العذبتين تَلْحَقُ بالأنف الضيّق الدقيق دِقَّةَ محضِ خطّ منحنٍ ثمّ رسمه كيما يمكن أن يتوالى على الخطّ نفسه مقصد النعومة التي قُسّمت قبلاً في ازدواج بسمة النظرتين التوأمين. وكان خطّ بمثل تلك الدقّة ينحفر في شعرها، خطّ طيّع وعميق كالذي تخطّه الريح في الرمال وهو بالتأكيد وراثيّ هنا، لأن شعر والدة «آندريه» تماماً قد خطّ بالطريقة نفسها فألّف بروزاً هنا وانحساراً هناك مثلما الثلج يرتفع أو يغور تبعاً لتضاريس

الأرض. أمّا أنف «روزموند» فكان يبدو بالتأكيد، إذا قورن برقّة خطوط أنف «آندريه»، أنّه يبسط مساحات واسعة كمثل برج عالٍ يقوم فوق أساس قويّ. وإن كان التعبير كافياً ليحمل على الاعتقاد بفروق ضخمة بين ما يفصل بينه ما كان متناهي الصغر - وإن استطاع ما كان متناهي الصغر أن يوجدَ بمفرده تعبيراً خاصّاً تماماً ومسحة فرديّة -، فليس المتناهي الصغر في الخطّ وحده ولا أصالة التعبير ما كان يظهر تلك الوجوه وكأنما يستحيل ردّ بعضها إلى بعضها الآخر. لقد كان اللون يضع بين وجوه صديقاتي فاصلاً أكثر عمقاً، لا بفعل الجمال المتنوّع في تدرّج الألوان التي تضيفها عليها، وهي متعارضة إلى حدّ أنّني كنت أصيب أمام «روزموند» - التي يغمرها لونورديّ تخالطه صفرة ضئيلة ويؤثّر فيه ضوء العيون الضارب إلى الخضرة - وأمام «آندريه» - التي يضفي سواد شعرها على بياض وجنتيها الكثير من الأناقة البعيدة عن البهرجة - ما أصيب من متعة لو أنني تأمّلت بالتناوب زهرة جيرانيوم على شاطئ البحر المشمش وزهرة كاميليا في الليل، بل على وجه الخصوص لأنّ الفروق المناهية الصغر في الخطوط قد كبرت إلى حدّ عظيم وتغيّرت نسب المساحات تغيّراً كلياً بفعل عنصر اللون الجديد هذا الذي هو، بالإضافة إلى أنّه مُوزّعُ الدرجات اللونيّة، مولّد للمساحات أو هو يعدّل فيها على الأقلّ، حتى إن وجوهاً ربّما أنشئت على نحو قليل التباين كانت تتطاول أو تعرض وتضحي شيئاً مختلفاً حسبما يشرق فيها لون ورديّ بفعل أضواء شهر أصهب أو شحوب كامد بفعل النور الأبيض، شأن تلك اللوازم الملحقة في مسرحيّات البالية الروسيّة التي قوامها أحياناً، إن أُبْصِرَت في وضح النهار، مجرّد قرص من الورق تجعله عبقريّة أمثال «باكست»، حسب الأضواء المورّدة أو الرماديّة الشاحبة التي تغمر بها مناظر المسرح، تجعله ينغرس فيها كمثل فيروزة ترصّع واجهة أحد القصور، أو يتفتّح فيها بطراوة كمثل وردة من «البنغال» في وسط حديقة. وإذ نتعرّف الوجوه على هذا النحو فإنّنا نقيسها أحسن قياس ولكن بعين الرسامين لا بعين المسّاحين.

وأمر «ألبيرتين» كأمر صديقاتها. فقد كانت في بعض الأيّام نحيلة رماديّة اللون متجهّمة الوجه فيما ينحدر لون بنفسجي شافّ على خطّ مائل في أعماق عينيها فتبدو وكأنها تعاني من كآبة الفتاة المنفيّة. وكان وجهها في أيّام أخرى، وقد ازداد مُلُوسة، يجمّد الأشواق على صفحته الملمّعة ويحول دون أن تمضي أبعد من ذلك، إلا إذا أبصرته فجأة جانبيّاً، لأنّ وجنتيها الكامدتين كمثل شمع أبيض على صفحتهما كانتا مورّدتين شفوفاً، الأمر الذي كان يبعث أشدّ الرغبة في تقبيلهما وفي بلوغ هذا اللون المختلف المتهرّب. ومرّات أخرى كانت السعادة تغمر تينك الوجنتين بضياء متموّج إلى حدّ أنّ البشرة، وقد أضحت مائعة مبهمة، كانت تطلق كأنّما نظرات كامنة تحتها تُظهرها في غير لون العينين، لا في غير نمطهما. وحينما يتمّ النظر أحياناً، دونما تفكير في الأمر، إلى وجهها الذي انتثرت فوقه نقاط سمراء صغيرة وطفت على صفحته بقعتان مفردتان أشدّ زرقة، فكأنّما الأمر ما قد يتمّ بشأن بيضة حسّون، وما قد يتمّ غالباً بشأن عقيقة لبنيّة اللون منحوتة، وقد صُقِلَتْ في موضعين فقط تلتمع فيهما وسط الحجر الأسمر، كمثل جناحين شفّافين لفراشة لازورديّة، العينان اللتان يصبح اللحم فيهما مرآة ويبعث فينا وهماً بأنّه يدعنا نقترب من الروح أكثر مما في بقيّة أجزاء الجسم. ولكنّها كانت في أكثر الأحيان كذلك أوفر لوناً وأكثر حيويّة آنذاك، وأحياناً يبدو وحده مورداً في وجهها الأبيض طرف أنفها، وهو دقيق كمثل أنف قطّة صغيرة ماكرة غالبك الشوق إلى اللعب معها. وكانت وجنتاها في بعض الأحيان مالستين حتى لتنزلق العين، وكأنّما على ميناء منمنمة، فوق مينائهما الورديّ الذي كان يظهره غطاء شعرها الأسود المفتوح الذي يعلوه أكثر نعومة وأكثر خفاء، وكان يتّفق أن يبلغ لون وجنتيها لون زهرة «السيكلامن» الورديّ الضارب إلى البنفسجي، فيما قد يبلغ أحياناً، حينما تكون محتقنة الوجه أو محمومة وتخلّف فيّ إذ ذاك فكرة بنية مرضيّة تنحدر برغبتي إلى ما كان أكثر ارتباطاً بالحواس وتحمّل نظرتها بما كان أكثر فسقاً وأشدّ إفساداً، اللون الأرجواني العاتم الذي

لبعض ورود من حمرة تكاد تكون سوداء. وكانت كلّ واحدة من شخصيّات «ألبيرتين» تلك مختلفة مثلما تختلف كلّ طلعة من طلعات الراقصة التي تتبدّل ألوانها وشكلها وطابعها حسب تنقّلات الكاشف الضوئي المختلفة التي لا تحصى عدّاً. وكان ربّما بسبب التنوّع الكبير في الشخصيّات التي كنت أتأملها فيها في تلك الحقبة أن اتخذتُ عادة أن أضحي بدوري شخصاً آخر حسب شخصيّة «ألبيرتين» الذي كنت أفكّر فيها: فغيور ولا مبالٍ وشهواني وسوداوي المزاج وحانق، وكلّها تنشأ من جديد لا بحسب ما يتفق من ذكرى عائدة بل حسب قوّة الظنّ القائم بيني وبينها بالنسبة إلى الذكرى نفسها وبالطريقة المختلفة التي كنت أقدرها بها فيها. ذلك أنّه كان لا بدّ على الدوام من العودة إلى هذا الأمر، إلى تلك الظنون التي تعمر معظم الأحيان نفوسنا على غير علم منّا ولكنّها مع ذلك أكثر أهميّة بالنسبة إلى سعادتنا من هذا الكائن الذي نراه لأنّنا إنّما نراه من خلالها وهي التي تحدّد للكائن المشاهد حجمه العابر. وربّما جدر بي كيما أكون دقيقاً أن أطلق اسماً مختلفاً على كلّ من أنواع «الأنا» التي فكّرتْ في «ألبيرتين» فيما بعد، بل ربّما جدر بي أكثر من ذلك أن أطلق اسماً مختلفاً على تعدّد وجوه «ألبيرتين»، تلك التي كانت تظهر أمامي، مختلفة في كل مرة، كتلك البِحار - التي أدعوها بكل بساطةٍ البحرَ ابتغاء للتسهيل - التي كانت تتعاقب والتي كانت تبرز أمامها حوريّةً تختلف كلّ مرّة. بيد أنّه ربّما انبغى لي على وجه الخصوص - بالطريقة نفسها التي يعلنون بها في سياق قصّة عن الطقس السائد هذا اليوم أو ذاك ولكن على نحو أكثر جدوى بكثير - أن أطلق على الدوام اسماً على الظنّ الذي كان يسود نفسي في اليوم الذي أبصرت فيه «ألبيرتين» والذي كان يشكّل مناخها، فمظهر الأشخاص كمظهر البحار خاضع لتلك السحب التي تكاد لا تبصرها العين والتي تغيّر لون كلّ شيء بفعل تركّزها وتنقّلها وتفرّقها ورحيلها، - كتلك التي مزّقها «إيلستير» ذات مساء حين لم يقدّمني للفتيات اللواتي توقّف معهن واللواتي بدت صورهن فجأة أكثر جمالاً في نظري حينما كنّ يبتعدن - تلك السحابة التي عادت

فتشكّلت بعد بضعة أيّام، وقد تمّت لي معرفتهنّ، تحجب بريقهنّ وتقوم في الغالب بينهن وبين عينيّ كثيفة ناعمة شبيهة بـ«ليفكوثيا»[١] لدى فيرجيليوس.

ولا ريب أن وجوههنّ جميعاً قد بَدّلت بالنسبة إليّ من معناها منذ أن دلّتني أقوالهن إلى حدّ ما على الطريقة التي ينبغي أن أقرأها بها، تلك الأقوال التي كنت أستطيع خصّها بقيمة تتزايد بقدر ما كنت أستثيرها بأسئلتي حسب مشيئتي وأبدّل فيها كمثل قائم بالتجارب يسعى بتجارب مضادّة إلى التثبّت مما أفترض. وذلك بمجمل القول أسلوب كأي أسلوب آخر لحلّ مشكلة الوجود أن نقرب قرباً كافياً من الأشياء والأشخاص الذين بدوا لنا من بعيد جميلين غامضين كي نتبيّن أنهم لا سرّ لديهم ولا جمال.

وإنها لواحدة من قواعد الصحّة التي يمكن أن نختار فيما بينها. قاعدة ربّما بدا أنها غير جديرة بأن يوصى بها ولكنّها تولينا بعض الهدوء لقضاء الحياة وللتسليم كذلك بالموت - بما أنها تسمح بألا نأسف لأمر إذ تقنعنا بأننا بلغنا الأفضل وأنّ الأفضل لم يكن شيئاً يذكر.

لقد أحللت في أعماق أدمغة تلك الفتيات محلّ ازدراء العفاف وذكر المغامرات اليوميّة مبادئَ شريفةً ربّما أمكن أن تلين ولكنّها حفظت حتى الآن من أيّ انحراف أولئك اللواتي أخذنها من وسطهنّ البورجوازي. ولكنّ المرء حينما يخطئ منذ البداية حتى بالنسبة إلى الأمور الصغيرة، وحينما يحملك خطأ في الافتراض أو التذكر اليالبحث عن صاحب قيل وقال إنه مسيء أو عن المكان الذي أضعت فيه غرضاً ما في اتجاه خاطئ فقد يتفق ألا يكتشف المرء خطأه إلا ليستبدل به خطأ آخر وليس الحقيقة. فقد استخلصت، في ما يخصّ طريقة عيشهنّ والسلوك الذي ينبغي أن أسلكه معهنّ، كلّ النتائج من كلمة براءة التي قرأتها على وجوههنّ وأنا أتحدّث إليهن حديث الألفة. بيد أني ربّما قرأتها بطيش وفي زلّة قراءة أولى سريعة جدّاً ولم تكن مسطّرة عليه أكثر من اسم «جول فيرّي» على

---

(١) إلهة الزبد الأبيض في الأساطير اليونانية التي نقل عنها شاعر الرومان الأكبر.

برنامج صبحية سمعت فيها للمرّة الأولى «لا بيرما»، الأمر الذي لم يحلُ دون أن أؤكّد للسيّد «دو نوربوا» أنّ «جول فيرّي» كان يكتب، دون أيّ شكّ ممكن، افتتاحيّات موسيقيّة.

كيف كان يمكن، في ما يخصّ أيّة من صديقاتي في المجموعة الصغيرة، ألا يكون آخر وجه رأيته لها هو الوحيد الذي أتذكّره بما أن العقل يقص من ذكرياتنا المتعلّقة بشخص ما كلّ ما لا يخدم المنفعة الفوريّة في علاقاتنا اليوميّة (حتى، بل ولا سيما، إن داخل تلك العلاقات قليل من الحبّ الذي، إذ يظلّ متعطّشاً على الدوام، إنّما يعيش في اللحظة الآتية)؟ فهو يدع لسلسلة الأيّام الماضية أن تكر ولا يحتفظ بقوّة إلا بالطرف الأخير، وهو في الغالب من معدن يغاير تماماً الحلقات التي لفّها الظلام، ولا يعدّ من الواقع في الرحلة التي نقوم بها عبر الحياة سوى البلد الذي نحن الآن فيه. وما كانت انطباعاتي الأولى، وما أبعدها، لتستطيع أن تلقى عوناً في ذاكرتي على تشويهها اليوميّ، ففي أثناء الساعات الطويلة التي كنت أقضيها في التحدّث وتناول العصرونيّة واللعب مع تلك الفتيات لم أكن حتى أتذكّر أنهنّ هنّ العذارى القاسيات الشهوانيات اللواتي أبصرتهن كأنّما في لوحة جداريّة يخطرن أمام البحر.

صحيح أن الجغرافيّين وعلماء الآثار يقودوننا إلى جزيرة «كالبيسو» ويكشفون عن قصر «مينوس». ولكنّ «كالبيسو» لم تعد سوى امرأة «ومينوس» سوى ملك خلوٍ من أيّ عنصر إلهيّ. حتى الصفات والعيوب التي يعلّمنا التاريخ أنها كانت إذ ذاك وقفاً على هؤلاء الأشخاص الحقيقيّين تماماً فتختلف في الغالب كثيراً عن تلك التي سبق أن عزوناها إلى الكائنات الخرافيّة التي تحمل الاسم نفسه. وهكذا تبدّت كلّ الأساطيريّة البحريّة الظريفة التي ألّفتها في الأيّام الأولى. بيد أنّه ليس ممّا لا شأن له تماماً أن يقع لنا أحياناً على الأقلّ أن نقضي وقتنا في ألفة ما ظنّنّاه عزيز المنال وتقنا إليه. وإنّه ليظل دوماً في عشرة الأشخاص الذين ألفيناهم بادئ الأمر غير محببين، حتى داخل المتعة المصطنعة التي

نتذوّقها في نهاية المطاف معهم، الطعم الفاسد للمعايب التي أفلحوا في إخفائها. أمّا في علاقات كالتي كانت تربطني بـ«ألبيرتين» وصديقاتها فإن المتعة الحقّة التي تقوم في أساسها إنّما تخلّف هذا العطر الذي لا تفلح أيّة خدعة في إضفائها على الفاكهة التي استبقت أوانها والأعناب التي لم تنضج في الشمس. والمخلوقات الخارقة التي سبق أن كُنّهَا لحظةً بالنسة إليّ كانت لا تزال تضع حتى دون علمي بعض الروعة في أكثر صلاتي بهنّ تفاهة أو كانت بالأحرى تصونها من أن يصيبها شيء من التفاهة في يوم. لقد بحث شوقي بنهم شديد عن دلالة العيون التي كانت الآن تعرفني وتبتسم لي ولكنّها التقت أوّل يوم بنظراتي كمثل أشعة من عالم آخر، ووزع بسخاء ودقّة عظيمين اللون والعطر على المساحات اللحميّة لتلك الفتيات اللواتي كنّ يقدّمن لي ببساطة وهن مستلقيات فوق الجرف السندويش أو يلهين بالحزازير إلى حدّ أني غالباً ما كنت أنظر بعد الظهر وأنا مستلقٍ - شأن أولئك الرسّامين الذين إذ يبحثون عن عظمة القديم في الحياة الحديثة يضفون على امرأة تقصّ ظفر قدمها نبل «نازع الشوكة»، أو هم على غرار «روبنس» يصنعون آلهات من نسوة من معارفهم كيما يؤلّفوا مشهداً أساطيريّاً - إلى تلك الأجسام الجميلة السمراء أو الشقراء المتعارضة في نماذجها إلى حدّ بعيد والتي تنتشر من حولي فوق العشب، أنظر إليها دون أن أفرغها ربّما من كامل المحتوى الضحل الذي ملأتها به التجربة اليوميّة وكما لو أنّني مع ذلك (دون أن أتذكّر بوضوح منشأها السماويّ) ألهو وسط حوريّات الماء على غرار «هرقل» أو «تيليماخوس».

ثمّ انتهت الحفلات الموسيقية وحلّ الطقس الرديء وغادرت صديقاتي «بالبيك» لا كلهنّ سويّة، كمثل طيور السنونو، ولكن في الأسبوع نفسه. ورحلت «ألبيرتين» أوّل الراحلات على نحو مفاجئ بدون أن تستطيع أيّ من صديقاتها أن تفهم لا آنذاك ولا فيما بعد لماذا عادت فجأة إلى باريس حيث لا تدعوها أعمال ولا تسليات. «لم تقل ماذا ولا لماذا، ثمّ ذهبت»، تغمغم فرانسواز التي ربّما ودّت على أيّة حال أن نفعل ما فعلت.

لقد أخذت تجدنا ثقلاء إزاء المستخدمين، مع أنهم تناقصوا عدداً إلى حدّ بعيد ولكنما يستبقيهم النزلاء القلّة الباقون، وإزاء المدير الذي كان يبدّد ماله. والحقّ أن الفندق الذي قارب أن يغلق أبوابه قد شهد منذ فترة طويلة رحيل جميع الناس، فلم يكن في يوم ممتعاً إلى هذا الحدّ. وما كان ذلك رأي المدير، فعلى امتداد الصالات التي تُجمد الجسم والتي لم يعد يشهر على بابها أيّ خادم كان يذرع الممرّات وهو يرتدي سترة رسمية جديدة، وقد عُني به الحلّاق حتى ليبدو وجهه الباهت وكأنّما قوامه مزيج يقابل فيه جزءٌ من اللحم ثلاثة أجزاء من المساحيق، ولا يكف عن تبديل ربطات عنقه (فهذه الأناقات أقلّ كلفة من تأمين التدفئة والاحتفاظ بالمستخدمين، ورب امرئ لا يستطيع من بعد أن يبعث بعشرة آلاف فرنك إلى إحدى المبرّات ولكنّه لا يزال من اليسير عليه أن يتظاهر بالكرم فيعطي مئة فلس إكرامية لعامل البرق الذي يجيئه ببرقيّة). كان يخيّل إليك أنّه يتفقّد العدم وأنّه يبغي بفضل جودة ملبسه الشخصي أن يعطي طابعاً مؤقتاً لمظهر الفاقة الذي تحسّه في هذا الفندق الذي لم يكن جيّد الموسم. وكان يبدو وكأنّه شبح سلطان يعود ليسكن الخرائب التي كانت بالأمس قصره. ولقد استاء على وجه الخصوص حينما توقّف الخط الحديدي المحلي عن الخدمة حتى الربيع الآتي إذ لم يعد يتوافر له العدد الكافي من المسافرين. كان المدير يقول: «ما ينقصنا ههنا إنّما هو وسائل النقل». وكان يخطّط لمشروعات ضخمة في السنوات التالية على الرغم من العجز المالي الذي يسجّله. ولما كان مع ذلك قادراً على أن يحفظ تعابير جميلة حفظاً دقيقاً حينما كانت تنطبق على الصناعة الفندقيّة وتفضي إلى تعظيمها، فقد كان يقول: «لم يتوافر لي العون الكافي مع أنّه كان لديّ في قاعة الطعام فريق جيد، ولكنّ الخدم لم يكونوا على مثل ما أتمنى تماماً. وسوف ترى أيّة كتيبة سأوفّق إلى جمعها في العام القادم». وبانتظار ذلك كان يضطرّه توقّف خدمات «مكتب بالبيك المركزي» أن يرسل من يجيء بالرسائل، وأحياناً من يصطحب المسافرين في عربة صغيرة. وكنت كثيراً ما أطالب بالصعود

إلى جانب الحوذيّ، الأمر الذي سمح لي أن أقوم بنزهات في جميع حالات الطقس. شأني في الشتاء الذي قضيته في «كومبريه».

على أن المطر الشديد كان يحتجزنا أحياناً، أنا وجدّتي، بما أن المقصف مغلق، في حجرات خالية تماماً تقريباً، وكأنما في أسفل سفينة حينما تهبّ الريح، حيث يجيء إلينا كلّ يوم وكأنما في أثناء رحلة بحرية شخصيّة جديدة من بين أولئك الذين قضينا ثلاثة أشهر بالقرب منهم دون أن نتعرف بهم، رئيس قضاة «رين» ونقيب المحامين في «كان» وسيّدة أميركية وبناتها، فيأخذون بالتحدّث إلينا ويبتدعون طريقة، أيّ طريقة، يجدون الساعات بها أقلّ تطاولاً فيكشفون عن موهبة ما ويعلّموننا لعبة ويدعوننا إلى احتساء الشاي أو عزف الموسيقى والاجتماع بنا في ساعة معيّنة وإلى المزج بين هذه الصنوف من الترفيه التي تملك السرّ الحقيقي في إمتاعنا الذي قوامه ألا نطمح إليه بل أن نستعين به على قضاء ساعات سأمنا، ويرتبطون أخيراً بنا في أواخر إقامتنا بصداقات كان رحيلهم المتعاقب في الغداة يوقف مجراها. وبلغ بي الأمر أن تعرّفت بالشابّ الثريّ وبأحد صديقيه النبيلين وبالممثّلة التي عادت لقضاء بضعة أيام، ولكنّ الجماعة الصغيرة لم يؤلّفها سوى ثلاثة أشخاص، فقد عاد الصديق الآخر إلى باريس. وطلبوا إليّ موافاتهم لتناول طعام العشاء في مطعمهم، وفي ظنيّ أنّهم سُرّوا إلى حدّ ما أنني لم أقبل. على أنّهم قاموا بالدعوة على ألطف نحو ممكن، ومع أنّها وردت بالحقيقة من جانب الشاب الثريّ بما أنّ الآخرين كانوا ضيوفاً عليه، فقد قالت لي الممثلة كيما تدغدغ مشاعري، بما أن الصديق الذي كان يرافقها، وهو المركيز «موريس دو فوديمون»، كان من بيت رفيع جدّاً، قالت وهي تسألني إن كنت لا أودّ المجيء:

- «سوف يسرّ «موريس» لذلك أشدّ السرور».

وحينما التقيت بثلاثتهم في الردهة بادر السيّد «دو فوديمون»، بعدما تراجع الشابّ الثري إلى الوراء، إلى القول:

- «ألن تتكرّم بتناول العشاء معنا؟».

لقد أفدت قليلاً جدّاً من «بالبيك» على وجه الإجمال، الأمر الذي ما كان إلا ليزيدني رغبة في العودة إليها. فقد كان يبدو لي أنّني مكثت فيها وقتاً قصيراً جدّاً. وما كان ذلك رأي أصدقائي الذين كانوا يكتبون إليّ ليسألوني إن كنت أعتزم العيش فيها نهائياً. وإذ أرى أن اسم «بالبيك» هو الذي يضطرّون إلى كتابته على المغلّف، ولما كانت نافذتي، بدلاً من الإطلال على سهل أو على شارع، تشرف على حقول البحر، وكنت أسمع في الليل ضجيجه الذي كنت عهدت إليه قبل النوم برقادي كمثل قارب بين يديه، فقد كنت أتوهّم أن هذا الاختلاط بالأمواج لا بدّ على الصعيد الجسدي أن يُدخِل فيّ، دون أن أدري، فكرة روعتها على غرار تلك الدروس التي يتمّ تعلّمها في أثناء النوم.

كان المدير يعدني بغرف أفضل بالنسبة إلى العام الآتي ولكنّ قلبي تعلّق الآن بغرفتي حيث كنت أدخل دون أن أحسّ من بعد برائحة زهر طيب العرب والتي توصّل فكري في النهاية، وكان عسيراً عليه فيما مضى أن يرتفع فيها، إلى اتّخاذ أبعادها بدقّة بلغت حدّاً اضطررت معه أن أخضعه لعلاج معاكس حينما انبغى لي أن أنام في باريس في غرفتي القديمة التي كان سقفها منخفضاً.

كان لا بدّ بالفعل أن أغادر «بالبيك»، إذ أصبح البرد والرطوبة أشدّ نفاذاً من أن أمكث فترة أطول في هذا الفندق الخلو من المواقد والمدافئ. وقد نسيت على أيّة حال تلك الأسابيع الأخيرة في الحال تقريباً. أمّا ما عدت أراه على نحو يكاد لا يتبدّل حينما أفكّر في «بالبيك» فتلك الفترات التي أرغمتني فيها جدّتي كلّ صباح في فترة الصحو، إذ كنت أزمع الخروج بعد الظهر مع «ألبيرتين» وصديقاتها، على المكوث في سرير في الظلام بناءً على أمر الطبيب. كان المدير يصدر أوامر كي لا يحدث ضجيجٌ في الطابق الذي أنا فيه وكان يسهر بنفسه على تطبيقها. وكنت أحتفظ بالستائر البنفسجية الكبيرة التي أبدت لي الكثير من العداء في أوّل مساء مغلقة

أطول فترة ممكنة بسبب النور الشديد. ولما لم تكن «فرانسواز» تفلح، على الرغم من الدبابيس التي كانت تربطها بها كل مساء كي لا ينفذ النور منها والتي تعرف وحدها كيف تنزعها، على الرغم من الأغطية، على الرغم من غطاء الطاولة الذي من قماش «الكارتون» الأحمر والأقمشة التي تأخذها من هنا وهناك وتحكم وضعها فوقها، لما لم تكن تفلح في ضمّ طرفيها بإحكام، كان الظلام غير مطبق وكانت تسمح بأن ينتشر فوق السجّادة كأنّما تناثر أوراق شقائق قانية ما كنت أملك النفس عن المجيء لحظة لأحطّ قدميّ العاريتين فيما بينها. وعلى الجدار الذي يقابل النافذة والذي كان النور يمتدّ على قسم منه كان ثمَّة أسطوانة ذهبيّة لا ترتكز على شيء تقف على نحو عمودي وتتنقّل بطيئة كالعمود المضيء الذي يتقدّم العبرانيّين في الصحراء. ثم كنت أعود فأستلقي. وإذ كنت مضطراً إلى أن أتذوّق، دونما حراك، وبالخيال فحسب وفي الآن نفسه، جميع متع الألعاب والاستحمام والسير التي يشير بها وقت الضحى، فقد كان فؤادي يخفق بالفرح خفقاً عنيفاً كمثل آلة في أوج حركتها ولكنّها ثابتة ولا تستطيع إفراغ سرعتها إلا بالمراوحة مكانها وهي تدور على نفسها.

كنت أعلم أنّ صديقاتي فوق السدّ ولكنّي لا أبصرهنّ فيما كنّ يخطرن أمام سلاسل البحر غير المتساوية، وفي أقصاه تتّضح أحياناً عبر فرجةٍ مدينةُ «ريفبيل» الصغيرة وهي تجثم وسط قممه الزرقاء كمثل ضيعة إيطاليّة، وقد أبرزت الشمس تفاصيلها إبرازاً دقيقاً. لم أكن أبصر صديقاتي ولكني (فيما يبلغ شرفتي نداء بائعي الصحف أو «الصحفيّين» مثلما تدعوهم «فرانسواز»، ونداءات المستحمّين والأطفال الذين يلعبون فتحدّد كمثل أصوات طيور البحر ضجيج الموج الذي يتكسر بهدوء) كنت أستشفّ حضورهن وأسمع ضحكتهن التي يلفّها كمثل ضحك حوريّات الماء، تكسّر الأمواج الناعم الذي يتعالى ليلف مسمعي. وكانت «ألبيرتين» تقول لي في المساء: «لقد تطلّعنا لنرى إن كنت ستنزل. ولكن نافذتك ظلّت مغلقة حتى ساعة الحفلة الموسيقيّة». وكانت تتعالى بالفعل تحت نافذتي

في الساعة العاشرة. وبين فواصل الآلات كان يترجع، إن كان المدّ في أقصاه، سلساً مستمراً، انسياب ماء موجة يبدو وكأنّه يلفّ ضربات الكمان في تلافيفه الصافية وينثر زبده المتطاير فوق أصداء موسيقى أعماقيّة متقطعة. وكان ينفد صبري أن لم يحضروا بعد ليعطوني حوائجي كي أتمكّن من ارتداء ملابسي. وتدقّ الثانية عشرة ظهراً وتصل «فرانسواز» أخيراً. لقد ظلّ الصحو على مدى شهور متتالية، وفي «بالبيك» هذه التي شدّ ما تقت إليها لأنّني ما كنت أتخيّلها إلا فريسة العاصفة ضائعة وسط الضباب، ظلّ رائعاً وثابتاً حتى إنني استطعت على الدوام، ساعة تقبل لتفتح النافذة، ودون خديعة ممكنة، أن أتوقّع وجود رقعة الشمس نفسها مثنيّة في زاوية الجدار الخارجي ومن لون لا يتبدّل كان أقلّ هزّاً لمشاعري بوصفه من علامات الصيف ممّا كان كئيباً كلون ميناء جامد مصطنع. وفيما كانت «فرانسواز» تنزع الدبابيس عن جباه الأبواب وتفكّ قطع القماش وتفتح الستائر، كان يوم الصيف الذي تكشف عنه يبدو فاقد الحياة متقادم العهد قدم مومياء فخمة مؤلفة لعلّ خادمتنا اكتفت بأن تنزع عنها بعناية بالغة جميع لفائفها قبل أن تبرزها محنطة في ثوبها الذهبيّ.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

القسم الأول: السيدة سوان ٥

(انعطاف وتغيير في اتجاه الطباع - المركيز «دو نوربوا» - «بيرغوت» - كيف أكفّ مؤقتاً عن لقاء «جيلبيرت» خطوط الغم الأولية الضئيلة التي يسببها الانفصال والتطور اللامنتظم للنسيان)

القسم الثاني: أسماء البلدان: البلاد ٢٤٣

رسوم أولية سريعة للسيد «دو شارلوس» و«روبير دو سان لو». - عشاء في منزل «بلوك». - الأعشية في «ريفبيل» - ظهور «ألبيرتين»

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

رواية «بحثاً عن الزمن المفقود» يروي فيها الكاتب مارسيل بروست صراعه مع الزمن بأسلوب مرهف الحس، يجعلك تعيش الماضي كأنه واقع، ولم يعتمد بروست على الأسلوب المعروف في الروايات، بل صنع لنفسه أسلوباً خاصاً به يقوم على الجمل الطويلة التي تبدو معقدة، والتفاصيل المكثفة، واستطاع بالفعل أن يثبت أن البساطة لا تصنع الجمال وحدها، وإنما التعقيد أيضاً قد يصنع الجمال. في هذه الرواية ينتبه الكاتب إلى أن الزمن ينفلت من بين يديه، وبدلاً من أن يتتبع هذا الزمن ويحاول اللحاق به أراد أن ينقضّ على الزمن باستحضار ذكريات الماضي وإحيائها حتى تصير هي الواقع... استطاع بروست أن يستحضر الماضي حتى يعيشه القارئ ويشعر بكل تفاصيله، فلا يمكن لقارئ هذه الرواية أن يمرّ سريعاً على المقاطع دون أن يشعر بما فيها من أحاسيس ومشاعر كأنه هو بطل هذه الرواية...

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922605852
9 789922 605852